فخ السويس

تأليف

هنرى آزو



ترجمة: محمود حسن إبراهيم

مراجعة: الدكتور أحمد كمال زكى

فتح السويس

بقلم

هنري أزو

ترجمة : محمود حسن ابراهيم

مراجعة: الدكتور احمد كمال زكي

يناير ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المراجع

من الصعب على المعلقين والكتاب أن يفسروا جميع الألغاز وكل التدبيرات المتعارضة التى صحبت أزمة السويس • والأصعب أن الجزء الاكبر من مستندات هذا الحديث التاريخى زيفه المعتــدون ــ عن قصــد ــ ومن ثم اختلفت الروايات عن هذا الحدث ، ولـكن يمكن أن تبرز منهـا روايتان : احداهمـا حقيقيــة لم يعترف بها كثيرون والأخرى باطلة ظل المعتــدون يروجونهـا حتى صدقهـا نفر من كبار العسكريين فى الدول المعتدية نفسها • ولقد كانت عملية تضليل الرأى العام فى الدول المعتدية مؤامرة اشتركت فيها الأجهزة الرسميــة وغير الرســمية وأصبحت هذه العملية فريدة فى نوعها ، واتخذ منها موضوع لعديد من الدراسات كما كانت محورا لرسائل جامعية لدرجة الدكتوراه •

ان حمــلة السويس الفــاشلة ــ التى أثارت الـكثير من الجدل فى الدوائر السياسية وفى مجلس العموم البريطانى بصفة خاصة ــ لا تزال ماثلة أمامنا فيما يصدر من كتب عنها برغم مرور نحو عشر سنوات عليها . والكتاب الذى نقدمه اليوم من بين الكتب التى ظهرت، وقد وضع بمناسبة الذكرى العاشرة لانتصار بورسعيد واقعا فى أكثر من خمسمائة صفحة زودت بكثير من الصور عن أحداث العــدوان وشخصياته • والجدير بالذكر أن المؤلف لم يسمح لنفسه بأن تخدعه حملة التزييف

التى عملت الدوائر المعتدية على شنها ، فنقب بنفسه عن الحقائق ومضى يفسرها على نحو معقول . وينقسم الكتاب الى جزئين : الأول دراسة قصيرة فى تاريخ مصر وتاريخ قناة السويس ، والثانى دراسة مطولة عن أحداث الأزمة الحقيقية التى بدأت بتأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وانتهت فى الاسبوع الأخير من ديسمبر من السنة نفسها بجلاء قوات الغزو عن بور سعيد واعلان انتصار مصر على قوات العدوان .

فى الجزء الاول يبين المؤلف كيف عقدت فرنسا مع مصر اتفاقا فى عام ١٧٨٥ يسمح لها بالمرور عبر الأراضى المصرية الى الشرق الاقصى بقصد التجارة ، وكيف بدأت الدراسات منذ ذلك الحين حول الموضوع وفى احتمالات ربط البحرين المتوسط والاحمر ببعضهما البعض ، وكيف استطاع فردناند ديلسبس فى النهاية شق الطريق المائى باعثا الى الوجود شركة قناة السويس حيث بيعت ٩٧٪ من أسهمها للفرنسيين ، ثم كيف تخلت الجمهورية الثالثة فى فرنسا بعد ذلك عن ادارة القناة لبريطانيا مكتفية بالحصول على نصيبها من دخلها . ويمضى المؤلف فى سرد الأحداث التاريخية حتى الثورة العرابية فى عام ١٨٨٢ وتدخل بريطانيا عسكريا تحت ستار حماية الاوروبيين من الأخطار التى زعمت أنهم يتعرضون لها من جراء ثورة عرابى ، مخفية الحقيقة التى لا تختفى وهى أنها تريد ضمان سيطرتها على القناة . وقد أصاب « هنرى آزو » الهدف عندما قال أن المناورات المالية ورعونة حكام مصر فى ذلك الحين مما هيأ لبريطانيا أن تفرض سيطرتها الكاملة على القناة بتنازل من فرنسا .

ولم ينس المؤلف كفاح مصر الطويل للتحرر من السيطرة البريطانية ، فعرض له حتى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وفى رأيه أن هذه الحرب بذرت بذور الثورة فى الشرق الأوسط وأسهمت فى اسقاط الملكية فى مصر عام ١٩٥٢ .

وهو يرى أن تلك السنة كانت بداية لدخول دولة جديدة ــ هي أمريكا ــ على مسرح الشرق الأوسط ، غير أن مصالحها اصطدمت مع مصالح الدول الأخرى التي ثبتت أقدامها منذ قديم في المنطقة وأول هذه الدول بريطانيا . وما أسرع ما تضاربت المصالح الاقتصادية ــ تحت رغبة كل طرف في الحصول على بترول الشرق الأوسط ــ حتى لينشب صراع سياسي رهيب كانت أزمة السويس التي انفجرت في عام ١٩٥٦ قمته . ويقرر المؤلف أن الخصومة الفعلية لم تكن بين الرئيس جمال عبد الناصر وبن جوريون بقدر ما كانت بين سياسيي لندن وواشنطن ، ولم تلبث الأزمة أن اجتذبت الى الميدان دولتين قويتين أخريين هما فرنسا والاتحاد السوفييتي . ومن هنا شبه المؤلف الموقف في السويس بالمصيدة التي اجتذبت اليها عددا من المخدوعين طمعا في الحصول على ما بداخلها .

والمؤلف يشبه دور فرنسا في هذا كله بدور « ممثل الكومبارس » الذي أخفق في أداء دوره برغم عدم أهميته . أما الاتحاد السوفييتي ففي رأيه أنه كان يلعب دور الوسيط الذي قرر أن ينتهز الفرصة للسيطرة على ميدان المعركة وجمع الاسلاب والغنائم بعد هدوء الميدان .

ان فرنسا عندما زجت بنفسها في هذه المغامرة ارتكبت حماقة الوقوع في المصيدة ، وكلفتها المغامرة كثيرا ، ولكن كيف وقعت ؟ ان هنرى آزو يجيب عن السؤال في بساطة لم تعوزها الشجاعة ، لأنه لا شك يثير عليه أغلب المسئولون عن اقحام الجيش الفرنسي في المغامرة الفاشلة .

ان هناك روايات معينة تلقي الضوء على كثير من الاحداث التي تبدو غامضة والاشارة الى هذه الروايات يجدي نفعا من غير شك ، وقد فعل المؤلف بادئا باشتراك اسرئيل في المغامرة . يقول ان هذه الدولة ظلت قابعة في جحرها فترة

طويلة الى أن قامت قوات بن جوريون بذلك الهجوم المفاجىء على سيناء • ويذكر أن خطة الهجوم أعدتها لجان سرية للغاية عقدت فى وزارة الخارجية الفرنسية دون تقدير ما لمصلحة الاسرائيليين أنفسهم ، ولم تكن المبررات المختلفة التى أزجيت أمام الرأى العام العالمى الا ستارا يخفى الغرض الحقيقى وهو التخلص من ناصر وكسر شوكة العرب والقيام بحملة صليبية جديدة ضد الاسلام فى الشرق ، بخاصة بعد أن ساد الاعتقاد بأن المشرق العربى هو الذى يغذى نار الثورة فى الجزائر • ويقول الكاتب ان ثمة لجانا سرية تابعت انعقادها فى فرنسا وفى الجزائر لكى تدبر حملة السويس التى قصدت أن تجعلها مذبحة شبيهة بمذبحة الجزائر ، ولهذا يبدو أن الجزائر من هنا كانت سر وقوع فرنسا فى المصيدة •

ويضيف هنرى آزو أن حملة التسميم الهائلة عمدت الى تصوير الرئيس عبد الناصر بأنه ركيزة الثورة ، وذلك بقصد اثارة الذعر بين اليمين الفرنسى وحث ضباط أركان الحرب الفرنسيين على الاشتراك فى الحملة • وكان من بين رسل هذه الحرب الصليبية أفراد من أعضاء الحزب الاشتراكى الفرنسى وآخرون من أعضاء الحركة الشعبية الجمهورية ، ولكن عددا من اليمينيين بعيدى النظر اشتموا رائحة المغامرة فرفضوا الاشتراك فيها لانهم أدركوا ما قد تثيره من آثار . ويستنتج المؤلف من تشابك تلك الأحداث أن فرنسا استغلت اسرائيل أسوأ استغلال عندما أغرتها بخوض حرب لم تكن هى تفكر فيها •

ويقول أيضا أنه مما يدعو الى الغرابة ـ بالرغم من أن كل شىء فى هذه المغامرة كان ينم عن التناقض ـ ان القواد الفرنسيين الذين كانوا أكثر من غيرهم تصميما على شن الحرب بعنف وقعوا تحت امرة كبار الضباط البريطانيين الذين لم يكن اقتناعهم بالمغامرة كاملا ، ومن ثم كانوا عرضة للتخاذل عند كل مبادرة •

وفى الوقت الذى أبرز فيه المؤلف هذا التخلخل التكتيكى فى موقف قوات الغزو أشاد بالمقاومة الشعبية العنيفة التى واجه بها الشعب المصرى تلك القوات . ويقول أن الجيش الفرنسى عندما أحس بالارتباك لما كان يتلقاه من أوامر متعارضة أدرك أنه لعبة صغيرة فى مؤامرة رسم خطوطها المدنيون ، وأحس بثقل الخسارة بعد ذلك فى الجزائر •

ولما كانت خطة الغزو غير سليمة تماما ولم يكن القائمون عليها قد درسوا ما يمكن أن يعترض سبيلها ، فان الطائرات لم تكد تلقى بالمظليين على أرض بورسعيد حتى ثارت ثائرة الامم المتحدة ، ووجه بولجانين انذاره الشديد الى كل من باريس ولندن وتل أبيب • وفى نفس الوقت ضربت الولايات المتحدة ضربتها، فوجه فوستر دالاس ـ وزير خارجية الولايات المتحدة فى ذلك الحين ـ الى حلفاء الأمس احتجاجات تنطوى على نغمة التهديد ، وواجه الجنيه الاسترلينى مضاربة عنيفة من جانب الدولار الامريكى ، وأصبحت باريس أمام فضيحة توزيع البنزين بالبطاقات • ولم يكد جى موليه وايدن يفيقان من المواجهة العنيفة من جانب كل من موسكو وواشنطن حتى قطعت دول الشرق العربى علاقاتها بكل من بريطانيا وفرنسا •

ويرى هنرى آزو أنه لم يسبق لواشنطن أن أغلقت عينيها مثلما أغلقتهما ازاء البوادر التى سبقت أزمة السويس ، وذلك لكى تورط كلا من لندن وباريس فيقعا فى الفخ وتتشفى فيهما وهما حبيستان فى السويس •

أما عن نتائج هذه الحملة فيقول المؤلف أنها أكدت انتصار مصر وسيطرتها على القناة ، وأظهرت أن الشرق العربى يتمتع بقوة اقتصادية كبيرة ولا سيما فيما يتعلق بالبترول ، كذلك دعمت هيبة العرب ومهدت لتحطيم حلف بغداد الذى كان يحجب صوت الفرات عن بقية أجزاء الوطن العربى ، كما أكدت انتصار الدولتين اللتين كانتا تكنان لحلف بغداد أشد العداء وهما مصر والاتحاد السوفييتى •

وفى الصفحات الاخيرة من الكتاب ، يقول هنرى آزو ان السويس ستخلد فى تاريخ الدبلوماسية المعاصرة كدرس للذين قد يساورهم الشك مرة أخرى فى أن السياسة ليست كعلم الحساب ، وأنها مليئة بالحيل • واذا كانت تغفر كثيرا من الأخطاء فانها لا تغفر قصر النظر ، فضلا عن أن الدبلوماسية الامريكية ليست ساذجة كما يشاع عنها وأن قدرتها على المناورة هائلة •

المراجع

« ليس هناك أى احتمال لأن تهاجم دولة غربية بلادكم »

سير أنطوني ايدن الى الرئيس عبد الناصر

فى ربيع عام ١٩٥٥

* * *

« هيا بنا الى بورسعيد ، فحينما نصل الى مدخل قناة السويس نصبح سادة الموقف »

الأميرال بارجو ، قائد عام القوات الفرنسية فى الشرق

الى الجنرال بوفر قائد القوة « أ »

مقدمة المؤلف

لن يصدق الرئيس عبد الناصر أذنيه اذا قيل له أن أول من هبط مع جنود المظلات الفرنسيين فوق بور سعيد صباح يوم ٥ من نوفمبر ١٩٥٦ كان صحفيا عمره ثلاث وخمسون سنة ، رشيق وطروب ، وله أبناء وأحفاد ، وليس معه من سلاح سوى القلم ٠

لقد لازمه هذا القلم فى معارك كثيرة ، اذ خاض به حملة ايطاليا فى شتاء ١٩٤٣ - ١٩٤٤ ونزل به مع قوات الحلفاء فى اقليم بروفانس ، وذهب معه الى كوريا ، ورافقه فى مهالك ديان - بيان - فو ، وسجل به أحداث انقلاب يوم ١٣ مايو ٠ انه قلم المراسل الصحفى « شارل فافريل » الذى لم يتردد قط فى الاشتراك فى أية حرب تقع ، والذى هرع الى بور سعيد لكى يكتب القصة الوحيدة الصحيحة للمعارك الأولى التى وقعت فوق أرض مصر ٠

كان فافريل قد وصل الى قبرص قبل غزو بورسعيد بيومين اثنين وهو واثق من أنه سيكون على نحو ما تعود فى طليعة قوات الغزو ، وفى خط النار مستمعا الى أولى طلقات العدو ، ومشاهدا مصرع القتلى الأوائل ٠ وقد تعرف هناك على زملائه الجدد من جنود المظلات الذين سيهبطون فوق بورسعيد ، فوجد أن ثلثى أفراد الكتيبة من الجنود الحديثى العهد بالخدمة ولم يروا خط النار مطلقا من قبل ٠ وتقرر أن يهبط مع جنود الفوج الاول الذى يقوده الكابتن انجلز من الكتيبة الثانية مظلات من جنود المستعمرات التى يرأسها الكولونيل شاتو جوبير ٠

اكتشف فافريل بين جنود الفوج الأول « عصفورا نادرا » فى شخص مدير مكتب حاكم ولاية تيزى ـ أوزو الجزائرية ، وهو شاب كاثوليكى مثقف اسـمه لوى بيللو ٠ وقد حصل على اذن مؤقت بالاشتراك فى الحملة ، وكان قد سبق له الاشتراك فى معارك الجزائر . وتوطدت الصداقة بين الرجلين ، وكان يلذ لهما الانهماك فى مناقشة المسائل الفلسفية وسط ضوضـاء الجنود وجلبتهم ، ولـكن ما كان يثير حيرة فافريل هو الباعث الذى يدفع موظفا شابا مرموقا ، مثل بيللو ـ وقد حاز على ليسانس القانون ودبلوم العلوم السياسية ، ودبلوم مدرسة الادارة الوطنية ـ على التطوع فى قوة المظلات برتبة رقيب (جاويش) وقد فسر له بيللو ذلك بقوله « أنه يجب على المرء أن يضحى وأن يدفع الثمن من ذات نفسه لـكى يبرهن على اقتناعه بما يؤمن به » ٠

وكان يطيب لجنود المظلات الفرنسـيين الموجودين فى معسـكرات قبرص ـ تمهيدا لنقلهم بالطائرات الى بور سعيد ـ أن ينثروا على بعضهم بعضا مختلف العطـور ، وذلك بدافع السخرية من خطـاب ألقاه الرئيس عبد الناصر بقصـد الدعاية ووصفهم فيه بأنهم « جنود صغار معطـرون » × وقـد استغلت القيادة الفرنسية هذا الخطاب لتثير ثائرة الجنود وتملأ نفوسهم حنقا ضد العدو الذى وجه اليهم مثل هذه الاهانة ٠ ولهذا لم يجد الجنود وسيلة للتهكم من هذه الاهانة سوى نثر العطور على بعضهم بعضا ٠ وكانوا اذا افتقدوا العطور نثروا الميـاه ، ولم ينسوا أن ينثروا العطور أيضا على المدافع الرشاشة وعلى رصاصها الذى أصبح يحمل تبعا لذلك اسم « الموت المعطر » ٠

وفى الساعة السادسة مساء شهد فافريل مؤتمر الضباط الذى وزعت فى خلاله عليهم التعليمات والخرائط الخاصة بعملية الغزو التى كان مقررا القيام بها فى اليوم التالى ، وكانت ساعة التجمع هى منتصف الليل ٠

× لم يحدث ان قال الرئيس هذا الكلام فى اى خطبة من خطبه ٠ (المراجع)

فى ذلك الوقت أذيع فى طلائع الجنود بيان الجنرال بوفر قائد القـوة « أ » الذى كان حتى ذلك الوقت فى البحر فى طريقه الى قبرص ، وكان مقررا أن يصل اليها فى اليوم التالى ، وكان البيان يتضمن مثل هذه الكلمات :

« الايمان ·· القلب ·· العظمة ·· الانسانية ·· الوطن ·· »

وفى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ركب الجنود سيارات النقل · وفى الساعة الثانية صباحا وصلوا الى مطار « تيمبو » حيث حضروا طابور التفتيش وارتدوا ملابس القفز بالمظلات · وفى الساعة الرابعة والدقيقة العشرين صباحا ، أقلعت بهم الطائرة فى طريقهما الى مصر ·

القفز من الطائرات :

وصلت الطائرات الى المنطقة المتاخمة لشرق بورسعيد فوق الاراضى التى يحتلها الاسرائيليون ثم تغلغلت داخل شبه جزيرة سيناء ، وبعد ذلك انحرفت الى الغرب لتجتاز قناة السويس ، ثم اتجهت شمالا وبدأت طائرات « نور ــ أطلس » تقذف جنود المظلات الى الارض بمعدل فوجين ، قوام كل منهما ١٥ رجلا من كل طائرة · وفى كل ثانية كان يقفز من الطائرات ستة جنود ، أى بمعدل ٩٠ جنديا كل ١٥ ثانية · وفى خلال دقيقتين كان قد قفز من الطائرات ما يزيد على خمسمائة جندى ، وقد هبطوا على قطعة أرض خالية مربعة الشكل يتراوح طول ضلع كل منها بين ثلاثمائة وأربعمائة متر · وكانت تستقبلهم بالطبع على محيط هذا المربع « لجنة استقبال » من المدافع الرشاشة ومدافع الهاون التى بدأ المصريون يطلقونها عليهــم ·

ووجد فافريل نفسه فوق الارض على مسافة ٣٠٠ متر من مدفع رشــاش مصرى ، ولكن الارض كانت لحسن الحظ مليئة بالحفر والاخاديد التى تصلح لحماية من يستتر بها · وأجال فافريل النظر حوله ليتحقق مما اذا كان جميع الجنــود الذين هبطوا معه من طائرة المقــدمة قــد وصلوا الى أماكنهم · وشــاهد فعــلا

الكابتن انجلز ، كما شاهد الجاويش بيللو الذى لم يلبث أن وجهت اليه طلقات مدفع رشاش فلقى مصرعه ، وكان بهذا أول فرنسي يقتل في بورسعيد ، وعندما شاهد زملاؤه هذا المنظر صوبوا مدافعهم الرشاشة نحو المصرى الذى قتله وأحكموا التصويب . انها لم تعد حربا وانما أصبحت ثأرا ، وهم الآن يريدون الانتقام ممن قتل زميلهم .

وقد أحرق المصريون بنيران مدافعهم بعض مظلات الفرنسيين فى أثناء هبوطها واستولوا على بعضها ، وكانت تحمل مهمات وأسلحة . ولكن أمكن استعادة جانب من هذه المهمات ، ومن بينها أجهزة خاصة بجهاز الارسال الذى استخدم فيما بعد فى الاتصال بالقيادة العامة التابعة للجنرال « جيل » حيث كانت تراقب سير المعركة وهى محلقة بالطائرات فى السماء .

وكان فى الجو ست طائرات مهيأة للضرب ولمساعدة قوات المظلات على الأرض اذا طلب منها ذلك .

ونهض الكابتن انجلز وفى يده منديل أزرق ـ وكانت هذه هى اشارة لتجمع ـ وأصدر أمره الى قواته بالتقدم نحو كوبرى الجميل ، فزحف الجنود وهم يقفزون القفزة التقليدية لرجال المظلات . وهاجمت الطائرات المواقع المصرية فأسكتتها واحدا بعد الآخر . واستمر تقدم الجنود وهم يطلقون النار حينا ويحتمون بالأرض لتفادى نيران المصريين ، ولم تمض ساعة ونصف ساعة حتى استولوا على كوبرى الجميل .

وأطلقت الطائرات الفرنسية نيرانها على كوبرى الجميل بحسب وصول التعليمات اليها متأخرة ، فى الوقت الذى وصلت فيه القوات الفرنسية الى طرف الكوبرى الذى انهار ودمر بتأثير قنابل الطائرات ، وكان الفوج الرابع من قوة المظلات يوشك أن يعبره . وفى وسط القوات الزاحفة كانت الفصيلة الحادية

عشرة لقوات الصاعقة تتقدم نحو « وابور » المياه • وكان اثنان من جنود المظلات قد هبطا بعيدا أكثر مما ينبغي في وسط الاشجار التي تحيط به فقتلهما المصريون بحد السلاح •

وعقب أن استولى الجنود على « وابور » المياه بادر الكولونيل شاتو جوبير قائد الكتيبة الثانية مظلات الى اقامة مركز قيادته في فيلا المدير • وقد انضم اليه المراسل الصحفي فافريل • ولم ينقطع التليفون عن الرنين • وفي البداية كان المتكلمون هم بعض الذين يريدون الانضمام الى موظفي « وابور » المياه ، وبعد ذلك بدأ غير المصريين يتكلمون ويعرضون وساطتهم لاجراء محادثات بين الفرنسيين وبين السلطات المصرية ، ولكن الكولونيل شاتور جوبير أجاب بأنه يطالب بأن يعلن المصريون التسليم على الفور •

واتصل فافريل عن طريق التليفون بأصدقائه في القاهرة مستفسرا عن أنباء العاصمة ، وأبلغهم أنه سيصل اليهم في وقت قريب ، ثم طلب منهم أن يضعوا زجاجات الويسكي في الفريجيدير استعدادا لوصوله •

واستأنف الطيران الفرنسي هجماته على الضفة الأخرى من قناة السويس جنوبي بور فؤاد ، وكان الفرنسيون يعرفون أن هذا يعني أن الطائرات تستعد لانزال فوجين آخرين من جنود كتيبة المظلات •

وجلس في طائرة المقدمة الكولونيل فوسي فرانسوا الذي كان أول من هبط الى الارض ، ثم هبط بعده المصور الصحفي دانييل كامو وتقاطر بعد ذلك هبوط رجال المظلات من الجو الى الارض الخالية تحتهم برغم أنها كانت محاطة من كل جانب بمواقع المصريين الذين بدأوا يطلقون منها نيران مدافعهم الرشاشة ومدافع الهاون • ولكن الجنود المصريين وجدوا أنفسهم في مأزق ، فعلى الرغم من أنهم كانوا يحتمون بضفة القناة الماثلة ولا تظهر سوى خوذاتهم فقد تبينوا أنهم حوصروا بين قوات الكولونيل فوسي فرانسوا من الامام وبين قوات الكولونيل شاتو جوبير

التى تقدمت خلفهم على الضفة الاخرى وراحت تحصدهم حصدا بنيرانها ، ولم ينج منهم أحد غير بعض من كان حظهم حسنا ، وهؤلاء أصيبوا فقط بجراح ، ولكن عدد هؤلاء كان قليلا ٠

ووصل الجنرال بتلر بعد الظهر الى « وابور » المياه بطائرة هيليكوبتر ، وبدأ يعد مع الكولونيل شاتو جوبير شروط التسليم التى ستوجه الى المصريين ٠

وفى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر وصل فعلا الى « وابور » المياه وفد مصرى يتكون من اللواء الموجى قائد قطاع بور سعيد القنطرة ، واللواء حسن البنا قائد الشرطة ، والبكباشى أنور قائد التحصينات ، والبكباشى رشدى رئيس المباحث الجنائية ٠ وطلب منهم الانتظار ، فظهر عليهم دلائل القلق ونفاذ الصبر ٠

وفى هذا الوقت بعثت القيادة العامة بشروط التسليم التى كتبها الجنرال ستوكويل بالاتفاق مع الجنرال بوفر ، الذى يرأس الحملة الفرنسية ٠ وقال الوفد أنه ينبغى عليهم الرجوع الى رأى السلطات فى القاهرة ، فغادروا « وابور » المياه بعد أن أعطيت لهم مهلة تبدأ من الساعة ٣٠ر١٧ حتى الساعة ١٥ر٢٣ ، وقد تحدثوا بالتليفون فيما بعد وقالوا أن القاهرة ترفض هذه الشروط ٠

واستؤنف اطلاق النار فى بور فؤاد ٠ ولكن القوات المصرية انسحبت فى خلال الليل من المدينة مرتدة الى بورسعيد ٠ واستسلمت السلطات المحلية فى بور فؤاد للقائد الفرنسى فوسى فرانسوا ٠

ونام فافريل والضباط فى فيللا مدير «وابور» المياه التى استخدمت كمركز للقيادة العامة ، واستيقظوا فى الصباح على أصوات المدافع ٠ وصاح الجميع : ياللأوغاد ! فقد اتضح أن اللواءات والبكباشية المصريين الذين جاءوا الى « وابور » المياه بالأمس أرسلوا دبابة الى الضفة الاخرى من القناة وبدأت فى اطلاق نيران مدافعها على الفيلا التى كان الضباط الفرنسيون مجتمعين فيها ، وكانت هذه الدبابة تحدث ضجة عظيمة حتى كأنها أربع دبابات ، وكانت تتقدم وتطلق

مدافعها ثم تحتمى بعد ذلك بالفيلات المجاورة ، وبعد لحظات تظهر مرة أخرى على مسافة أبعد من مكانها الأول وتطلق النار من جديد لتعود الى الاختفاء مرة أخرى . واتصلت القيادة بالطائرات الفرنسية التى كانت تحمى عمليات نزول القوات من السفن فى بور فؤاد فجاءت وأخذت تهاجم الدبابة ، ولكن بمجرد أن تبتعد الطائرات تظهر الدبابة اللعينة مرة أخرى وتطلق النار من جديد .

وحينئذ لجأت الطائرات الى الحل الذى لا مناص منه للتخلص من هذه الدبابة فأطلقت مدافعها وألقت القنابل على مجموعة الفيلات التى تحتمى بها هى وربما غيرها من الدبابات فسكتت نيران العدو . وفى خلال هذه العملية نسفت صهاريج البنزين الموجودة قرب ضفة القناة وارتفع لهيبها الى عنان السماء .

ووردت الأنباء بأن عمليات انزال القوات من السفن الى الارض فى الصباح تمت بنجاح ، وأن الخسائر كانت طفيفة .

وفى القيادة العامة للجنرال شاتو جوبير كان الفرنسيون ينتظرون وصول الجنرال ماسو ، وبخاصة دباباته . ولكن هذه الدبابات لم تصل بور فؤاد ، وانما أنزلت على الضفة الغربية لقناة السويس ثم لم تلبث أن صادرها الانجليز . أما الجنرال ماسو فقد طلب منهم برقة ولطف النزول على الضفة الشرقية للقناة ، وأن ينتظروا فى تعقل وحكمة وصول باقى قواتهم .

واصطفت دبابات سنتوريون الانجليزية الى جنوبى مواقع قوات المظلات الفرنسية . وكان الموقف حرجا لأن المصريين لديهم أيضا دبابات من طراز سنتوريون ، والهجوم الذى حدث فى الصباح يدل على أنهم يريدون استخدام دباباتهم .

واتخذت دبابات سنتوريون الانجليزية مواقعها على طول القناة عند طريق المعاهدة استعدادا للتقدم فى اليوم التالى نحو الاسماعيلية .

ووصل بعد الظهر الى « وابور » المياه الجنرال بوفر والجنرال ماسو وجميع ضباط أركان حرب الفرقة العاشرة مظلاتالذين يعملون مع الجنرال شاتو جوبير ، ووراءهم جمع غفير من مراسلى الصحف الحربيين الذين جاءوا من طريق البحـر ، وقد أحاط هؤلاء بزميلهم فافريل وكان هو المراسل الوحيد الذى سبقهم واشترك فى العمليات منذ صباح اليوم السابق •

وانهمك الضباط والصحفيون فى التفكير فى العملية الكبيرة التى ستحدث فى اليـوم التـالى ، وهى الزحف الى الاسماعيليـة عن طريق البر وعن طريق القناة (حيث وجد انه يمكن تسيير الزوارق والصنادل فيها على الرغم مما فيهـا من عقبات) •

واختفى فافريل فجأة ، ثم تبين انه عاد الى قبرص لكى يرافق كتيبة أخرى من جنود المظلات الفرنسيين الذين سيهبطون فى خلال ٤٨ ساعة على هدف سرى للغاية ، فى ضواحى القاهرة •

على أن ما يفكر فيه الانسان شىء وما يفعله القدر شىء آخر ، ففى خـلال ٤٨ ساعة لم يصل فافريل الى القاهرة ، وانما ذهب الى باريس •

تســاؤل :

وفى باريس وجد فافريل الناس يتساءلون قائلين : لماذا توقفت الحملة فى بور سعيد بعد أن وضح للعيان أن كل شىء يسير على ما يرام ؟ وهـل جرت كل هذه الاستعدادات العسكرية الضخمة لكى تظل القوات عند الساحل ؟ وهل نجح عبد الناصر فى أن ينفذ أغراضه بالقوة بطريقته المشهورة وهى فـرض سياسـة الأمر الواقع ؟ وهل يجوز السماح له بتأميم قناة السويس ونهب أموال مائة الف مساهم فرنسى ، ثم تركه بعد ذلك يفوز بالغنيمة ؟

ثم أليس هو الذى يشجع ويسلح ويدير « التمرد الجزائرى » ؟

وأليس هو زعيم الفلاحة « المتمردين الجزائريين » ؟

وأخذ الفرنسيون يقولون : من الواضح أنه لو لم يسحب جون فوستر دالاس فجأة وعده بتقديم قرض لمصر لانشاء السد العالى لما أصبح هناك عذر أمام عبد الناصر لكى يفعل ما يفعل ٠٠ بالامريكيين !

لقد تقرر مصير الحملة فى خلال الاربع والعشرين ساعة التى بدأت فى الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦ ، فى الوقت الذى كان فيه الرئيس الامريكى أيزنهاور يواصل ضغطه على المسئولين البريطانيين والفرنسيين لحملهم على وقف مغامرتهم العسكرية والنكوص على أعقابهم ٠

ولكن الاقتصار على سرد أحداث هذه الساعات الاربع والعشرين لا يكفى لتفهم أسرار حملة السويس ، فما أكثر القرارات الغريبة التى اتخذت فى ذلك الوقت ، والتصريحات المفاجئة وغير المنتظرة ، والتدابير التى استبدل بها غيرها بصورة تدعو الى الذهول ، وكل هذه يمكن أن نجد لها تفسيرا اذا رجعنا الى الماضى وتلمسنا لها الأسباب من بطن التاريخ ٠ ان تصرفات عبد الناصر مثلا يمكن تفسيرها اذا أخذنا فى الاعتبار السبعين عاما الأخيرة التى عاشتها مصر فى ظل العبودية ، وان الروح الهجومية التى عرفت عن بن جوريون يمكن تفسيرها بالآلام الطويلة التى عاناها اليهود ، وبالمعارك التى دارت فى فلسطين ٠ ونحن على أى حال لن نفهم تصرف الانجليز والفرنسين اذا لم ندرك أسرار الصراع الدولى الذى دار فى الماضى حول قناة السويس ٠

الفصـــل الأول

أجمل حفرة فى العالم

حينما اقترح البعض على نابليــون بونابرت حفر قناة فى برزخ السويس ، الذى يقع بين البحرين الاحمــر والمتوســط ، قال : « انهــا لمغامرة كبـــيرة » وظل هــذا جوابه دائما لـكل من يردد على مسامعه هذا الاقتراح ، وكان يقصد بذلك الرد تحاشى التورط فى مثل هذه المغامرة .

وربما بدا تنفيذ هذا المشروع أكثر سهولة فى الأزمنة القديمة ، فقد كان للنيل فرع يصل الى بلدة « بيلوز » التى تقوم مكانها مدينة بور سعيــد الآن ، وساعدت هذه الميزة الجغرافية «نخاو» فرعون مصر على أن يبدأ فى حفر قناة ـ قبل ميلاد المسيح بستمائة عام ، وأتمها من بعده داريوس ملك الفرس الذى غزا مصر ـ تصل بين بلدة بوبسط (الزقازيق الآن) وبين البحـــيرة الوســطى فى برزخ السويس ، وبهذا أصبح فى امكان السفن القادمة من النيل أن تمر فى هذه القناة وتعبرها حتى تصل الى البحر الاحمر .

وفى القرن الثالث بعد الميلاد قام بطليموس فيلادلف باستكمال هذه القناة وأصبحت فى صورتهــا النهائيــة ممتدة من النيل حتى بلدة أرسناو (السويس الآن) . ولكن البيزنطيين أهملوها فطمرتها الرمال . ثم أعيد اصلاحها فى عهد الخليفة عمر ، ولكنها ردمت بعد مائتى سنة على يد خليفة آخر أراد منع وصــول المياه الى مدينة كانت قد تمردت عليه . ومن ثم أغلق الطريق البحرى الى الهند ، وأصبحت البضائع تنقل الى الشرق عبر الصحراء بواسطة القوافل .

وفى عام ١٤٩٨ اكتشف فاسكو دى جاما البرتغالى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يوصل الى الهند ، وهذا الطريق وان كان أكثر طولا من طريق السويس كان أكثر أمنا لخلوه من القراصنة البحريين . واذا كانت الدول البحرية ـ وبخاصة بريطانيا واسبانيا ـ قد اغتبطت بهذا الطريق الجديد الذى أتاح لها الفرصة لكى تجوب المحيطات ، فان البلدان التجارية فى البحر المتوسط مثل البندقية ومارسيليا ظلت تحاول اعادة فتح طريق السويس الى الهند بطريقة أو بأخرى • وقد أخذت الدبلوماسية الفرنسية تحاول صابرة مدى قرنين من الزمان استغلال وضع مرسيليا التجارى مع الشرق الى أن نجحت أخيرا فى ابرام معاهدة عام ١٧٨٥ تعطيها حق احتكار نقل تجارة أوروبا عبر مصر من الهند واليها •

ولكن هذا الجهد ذهب عبثا ، فان الثورة الفرنسية لم تلبث أن نشبت وشغلت فرنسا عن مشروعاتها التجارية • ولكن الوكالات التجارية الفرنسية لم تهتم قط بهذه المشروعات ، ولما حانت أول فرصة نظمت حكومة الديركتوار حملة مصر بقيادة نابليون بونابرت وكلفته بأن « يقطع طريق السويس » على بريطانيا من غير أن تعرف بعد ما اذا كانت ستحتل هذه المنطقة عسكريا أو ستقوم بحفر قناة فيها ، وربما كان هدفها ابعاد نابليون للتخلص من طموحه الخطر •

وكانت فكرة حفر هذه القناة تسيطر على أذهان المهندسين الذين رافقوا الحملة الفرنسية الى مصر • ولكن التقرير الذى قدموه فى هذا الشأن كان ينطوى على خطأ كبير ، فقد ذكروا فيه أن هناك فرقا بين مستوى سطح البحر الاحمر وسطح البحر المتوسط قدره تسعة أمتار واقترحوا ـ فى سبيل التغلب على هذه المشكلة ـ وصل النيل ببحيرات برزخ السويس عن طريق قناة ذات أهوسة • ولكن تنفيذ هذا المشروع كان يتطلب نفقات طائلة وأرباحه غير مضمونة ، ولهذا صرف النظر عنه وتبخرت لفترة من الزمن أوهام الذين حلموا بأمكان اخراجه الى حيز الوجود •

تزاوج العناصر :

على أن أنصار مذهب سان ـ سيمون × فى فرنسا تبنوا فيما بعد هذه الأوهام ، فقد كان حفر «قناة مصر» كما كانوا يسمونها احدى الوسائل الرئيسية فى برنامجهم الذى كانوا يهدفون من ورائه الى تغيير العالم عن طريق تنمية وسائل الانتاج والنقل • وكان من رأيهم أن شق هذه القناة سيؤدى الى تزاوج القوى بين الغرب ـ وهو العنصر الذكر فى زعمهم ـ وبين الشرق العنصر الأنثى !

لقد فكر زعيم أنصار مذهب سان ـ سيمون فى فرنسا الأب « بروسبار انفانتان » وهو فى السجن ، فى القيام برحلة الى مصر للبحث فى هذا المشروع • فلما أطلق سراحه استقل من ميناء مرسيليا السفينة « ولى العهد » التى ترفع علم سان ـ سيمون • ولما وصل الى الاسكندرية قابل فيها نائب القنصل الفرنسى الشاب فردينان ديلسبس ، الذى حاول أن يثنى الأب « انفانتان » عن عزمه فى التحدث مع والى مصر فى مشروع حفر قناة السويس ، ولكنه ما كان ليذعن بسهولة لمثل هذه النصيحة ، فقد كان يؤمن بأنه يستطيع اقناع أى انسان بآرائه • ولكنه تبين فيما بعد أن نصيحه ديلسبس كانت فى موضعها ، لأن الوالى لم يتحمس للمشروع ، وانما فضل عليه مشروعا آخر هو انشاء خزان على النيل •

ولكن أنصار مذهب سان ـ سيمون لم يساورهم اليأس وظلوا يواصلون دراسة هذا المشروع ، وان كانوا قد حبذوا حفر قناة داخلية تمتد من القاهرة مسافة أربعمائة كيلو متر الى الاسكندرية •

× سان سيمون فيلسوف فرنسى كان له مذهب سياسى واجتماعى يقضى بأن تشرف الدولة على العمل والانتاج ، وان يأخذ كل شخص حسب حاجته ، وكان يطالب بالغاء نظام الارث ، ويتبعه أنصار كثيرون • ولكن الحكومة الفرنسية حظرت عام ١٨٢٥ تداول مبادىء هذا المذهب وحاكمت من ينادى بها • (المترجم)

وأمضى انفانتان أربع سنوات فى مصر عاد بعدها الى فرنسا • ولكن فكرة حفر قناة السويس ظلت تراود أنصار المذهب الذين عرف عنهم أنهم لا يستسلمون لليأس بسهولة ، فلم تمض ثمانى سنوات حتى أنشأوا « جمعية أبحاث قناة السويس » لقيت صعابا حتى فى مواصلة أعمالها بسبب تأثير الانجليز على حاشية والى مصر •

وجدير بالذكر أن ديلسبس كان يتمتع بميزة فريدة فى مصر ، فقد كان ابن « ماتيو ديلسبس » القومسيير الأول لجيش بونابرت ، وقد كان له بعض الفضل فى مساعدة محمد على حين تولى عرش مصر • وأتاحت هذه الميزة لفردينان ديلسبس فرصة دخول البلاط وتوثيق علاقات الصداقة مع ولى العهد سعيد • وفى عام ١٨٤٩ عاد ديلسبس الى فرنسا بعد أن أحالته وزارة الخارجية الفرنسية الى الاستيداع من غير مرتب وهو لا يزال فى شرخ شبابه ، فأقام فى قصره ببلدة «لاشسناى» حيث ظل يتابع باهتمام جهود « انفانتان » بعد أن أصبح رئيسا لهيئة سكة حديد باريس - ليون - البحر المتوسط ، وأدرك ديلسبس أن جماعة سان سيمون قوم بارعون فى ميدان الأعمال على الرغم من مئات الأوهام التى يخيل لبعض الناس أنهم يعيشون فيها ، ورأى أن كل ما ستحققه فرنسا فى ميدان العلم والتكنولوجيا سيحمل طابعهم ، وأيقن أنه اذا حفرت قناة السويس يوما ما فان الفضل فى ذلك سيرجع اليهم ، وهذا ما قد حدث • وهنا صمم ديلسبس على أنه ينضم الى زمرتهم بطريقة أو بأخرى ، فهم يملكون رصيدين عظيمين : هما التكنولوجيا والمال • ولكنه هو أيضا كان يملك رصيدا لا ينبغى التقليل من شأنه وهو نفوذه على الأمير سعيد ولى العهد الذى ينتظر أن يصبح يوما ما واليا على مصر ، ومن ثم يجب أن يحصل منه على امتياز يتيح له حفر قناة السويس • وكان ديلسبس غير راض عن المشروع الضخم الذىوضعه « تالابوث » بحفر قناة تمتد من القاهرة الى الاسكندرية ، وكان يفضل عليه المشروع الذى صممه المهندس الفرنسى « لينان » بشق قناة فى برزخ السويس ، وهو المشروع الذى زعم « انفانتان » انه صمم على أساس البحوث والاعمال التى قام بها ثلاثة مهندسين من أنصاره وهم : لامبير ، وهوار ، وبرونو •

ولما تولى سعيد باشا حكم مصر صمم ديلسبس على آن يبادر بالسفر الى القاهرة لكى يتحدث معه فى مشروع حفر القناة ٠ ولكنه كان يعلم أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى شيء أهم من صداقته لوالى مصر ، آلا وهو المال ٠ ولهذا عقد قبل أن يسافر الى مصر اتفاقية مالية مع « أرليه ديفور » وهو أحد رجال البنوك الفرنسيين ومن جماعة سان ـ سيمون ، ومع ايزاك بيرير ٠ وطلب من «انفانتان» أن ينضم الى هذه الاتفاقية التى تتضمن ضمانات مالية للمشروع ، وكان يعلم أن انضمامه سيضمن له مساعدة شريكى انفانتان الجديدين فى هيئة سكة حديد باريس ـ ليون ، وهما «لافيت» و «روتشيلد» من كبار رجال البنوك الفرنسيين ٠ ولكن انفانتان رفض لأنه كان يريد أن يصبح رئيس المشروع ، ومع ذلك سلمه تصميمات المهندس « بولان تالابوت » ٠

ومن ثم فان ديلسبس حينما وصل الى القاهرة لم يكن مجرد قنصل سابق مغامر ، وانما كان يحمل معه خططا مرسومة وضعها أعظم المهندسين فى عصره ، كما يحمل ضمانات مالية من أكبر رجال المال فى أوروبا ٠ ولهذا لم يجد صعوبة كبيرة فى اقناع سعيد باشا ، فقد أحضر له التكنولوجيا والمال ٠ وقدم له المشروع يوم ١٥ نوفمبر عام ١٨٥٤ ٠ وفى يوم ٣٠ نوفمبر أعلن نبأ منحه امتياز حفر قناة السويس ٠

صك الامتياز :

ومنذ ذلك الوقت تغير الموقف ، فقد أصبح ديلسبس فجأة مالكا « باسمه » لامتياز حفر قناة السويس ٠ وقد كان هذا أهم نصر حققه حتى ذلك الوقت ٠ فالمهندسون موجودون ، والمال موجود ، ولكن هذين العنصرين لاقيمة لهما بالنسبة للمشروع من غير موافقة السلطات المصرية ، أى من غير صك الامتياز ٠ ولما وضع ديلسبس الصك فى جيبه تنكر لأصدقائه من جماعة سان ـ سيمون وتجاهل مهندسيهم ، بل أنه لم يرد حتى على خطاباتهم ، ورفض عروضهم المالية ٠ وأنشأ « شركة للأبحاث » خاصة به ، وبدأ يبحث عن رؤوس أموال تخصه أيضا ، فقد

عول على أن يصبح هو رئيس المشروع • والواقع أنه لم يكن هناك فى ماضى حياته شىء ينبىء بأنه سيصبح « مؤسس » مثل هذا المشروع ، ولكن ظروف هذا العصر، والسحر الذى أضفاه عليه الشرق ، كانا من العوامل التى مكنتـه من أن يصبـح ما يريد أن يكون •

وقد وضع المهندسان « لينان دى بيلفون » و «موجل » التصميمات النهائية للمشروع ، وفحصته بعد ذلك لجنة دولية من المهندسين ووافقت عليـه . وكان المشروع يقوم على أساس فكرة حفر قناة عرضها ثمانون مترا وعمقها ثمانية أمتار وتتكلف ١٦٢ مليون فرنك من الذهب •

ولـكن ديلسبس وجـد أن الارصـدة المالية التى فى حوزته لا تكفى للوفاء بالتزاماته تجاه المشروع لا سيما بعد أن تخلى عنه جماعة سان ـ سيمون وبعـد ازدياد الشـكوك حول جـدية المشروع بخاصة فى الخارج ، ولهذا قرر تخفيض نفقات المشروع ، ورأى أولا أن المهم هو أن يبدأ العمل لكى يخمد أصـوات الشك المرتفعة من كل مكان ، ولكى يحصل على الثقة التى ينشـدها من الدوائر الماليـة استقر رأيه على الاكتفاء بأن يكون عرض القناة عند السطح ٥٨ مترا وعند القاع ٢٢ مترا وهذا هو الحد الأدنى الضرورى لمرور السفن فى ذلك العهد • وقـدم تقريرا مؤقتا فى هذا الشأن ـ فى صورة مجلد ضخم ـ الى سعيد باشا فى اليوم الاول من يناير عام ١٨٥٦ فوافق عليه بعد أربعة أيام أى يوم ٥ ينـاير ١٨٥٦ مصدقا بذلك على الفرمان الذى أعطاه لديلسبس عام ١٨٥٤ •

معارضة بريطانيا :

واجه ديلسبس فى الفترة الاخيرة عقبات متزايدة تعترض تنفيـذ المشروع وتبين له أنها ترجع فى أصلها الى معارضة الدبلوماسية الانجليزية التى أخـذت تقاوم المشروع مقاومة وحشية • ولم يستطع ديلسبس أن يفسر هـذا المـوقف ، وراح يتساءل : أليس من مصلحة بريطانيا أن تساهم فى حفر القناة وبهذا تضمن لنفسها جانبا من السيطرة عليها ، أو تضمن على أقل تقدير حيادها ؟

كان ديلسبس فى ذلك الوقت أضعف من أن يستطيع الاستغناء بسهولة عن مساعدة دولة لها نفوذها البحرى والاقتصادى العظيم مثل بريطانيا ، ولكنه لم يجد فى لندن من يؤيد فكرة حفر القناة ، باستثناء بعض الدوائرالبحرية ــ وليس كلها ــ مثل شركة الهند القوية ، والاقتصادى البريطانى ريتشارد كويدن ٠

وفى ذلك الوقت أخذ بالمرستون ــ رئيس الوزارة الانجليزية ــ على الرغم من تعاونه مع فرنسا فىحرب جزيرة كريميه ، يبذلقصارىجهده لاحباط المشروع . وكان يبنى معارضته علىأساس فنى هو أنقناة السويس اذا حفرتستكون معرضة لأن تطمرها الرمال مرة أخرى ، لأن مستوى البحرين الاحمر والمتوسط متساو ، ولهذا فلن يكون هناك تيار من الماء ينحدر فى القناة وهذا يجعلها عرضة للردم ٠

ولكن بريطانيا لديها وسائل أكثر فاعلية من هذه الحجة ، فقد كان الاسطول البريطانى حينئذ يسيطر على البحر المتوسط وعلى البحر الاسود مما يجعلها تفرض نفوذها على سلطان تركيا ، فطلبت منه أن يستخلص وعدا من نائبه والى مصر بألا يصدق على امتياز حفر قناة السويس أو على أى امتياز آخر من غير أن يحصل على موافقة الحكومة التركية أولا ٠ وهكذا قبل ديلسبس أن يتضمنالامتياز الذى منحه له سعيد باشا يوم ٥ يناير عام ١٨٥٦ شرطا ينص على ضرورة تصديق السلطان على الامتياز ٠ وبهذه المناورة تحاشت بريطانيا اغضاب فرنسا حليفتها فى حرب كريميه ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت تعتزم فى واقع الأمر الاستفادة من هذا الشرط ٠

ومن ناحية أخرى فان الدبلوماسية الانجليزية لم تهمل استخدام سلاحها المفضل ، وهو التأثير على الاسواق المالية ٠ ان ديلسبس لن يستطيع اذن الحصول على رؤوس الاموال اللازمة لمشروعه ، فالبنوك لن تغامر بأموالها فى مثل هذا المشروع الذى تحيط به الشكوك والذى يقابل فى الوقت نفسه بمعارضة شديدة فى دوائر لندن المالية ٠ واذا فرض أنها قبلت تزويده بالمال ، فلا شك أنها ستفرض عليه فوائد عالية تثقل كاهله وتجعل الاستمرار فى تنفيذ المشروع متعذرا ٠

الالتجاء الى الشعب :

ولما وجد ديلسبس أن الطرق أمامه مغلقة في دوائر المال لجأ الى السلاح النهائى الذى يستطيع أن ينقذه ، والذى يستطيع مع ذلك أن يورده موارد الهلاك اذا فشل ، أن وهو الاتجاه مباشرة نحو الرأى العام • فأنشأ عام ١٨٥٦ صحيفة تصدر مرتين فى كل شهر أطلق عليها اسم « برزخ السويس ووصل البحرين » وقد لقيت الصحيفة اقبالا كبيرا • والواقع أن الدوائر الاوروبية المالية فى ذلك العهد كانت مستعدة لتقبل أى مشروع يعرض عليها ببراءة ، وقد استقبلت بورصة باريس بصفة خاصة الصحيفة استقبالا طيبا ، وانهالت على ديلسبس رسائل التشجيع من جميع أنحاء أوروبا ، حتى من لندن نفسها حيث بدأت الهمسات ترتفع معلنة استنكارها لمعارضة الحكومة البريطانية للمشروع ، وتعدد العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على هذه المعارضة العنيدة ، وتشير على سبيل المثال الى أن تمرد قبائل « سيباى » فى الهند يتطلب وجود طريق سريع لارسال الامدادات الى الهند • ولكن العجيب أن هذه الآراء الجديدة التى تفصح عن تأييدها للمشروع زادت الحكومة البريطانية عنادا ، فبدأت تهدد سعيد باشا مباشرة ، وذهب القنصل العام البريطانى فى القاهرة اليه وأبلغه أن العروض التى لا تقبلها بريطانيا تكون معرضة دائما للانهيار ، وضرب له مثلا بـ « باى » طرابلس الذى فقد عرشه بسبب وقوفه ضد رغبات بريطانيا • وكان لهذا التهديد أثره فى نفس سعيد باشا فبادر الى الابتعاد عن ديلسبس ورفض أن يقابله علنا • وأصاب الهزال الوالى السمين سعيد باشا ، ولكنه مع ذلك أسر الى ديلسبس بأنه لن يتخلى عنه مهما تكن تهديدات الانجليز بالغة • وابتهجت لندن بنتائج مناوراتها واعتقدت أن الخطر قد زال ولكنها كانت مخطئة ، وقد ارتكبت فى هذا السبيل غلطتين : الاولى أنها عززت اعتقاد سعيد باشا بأن القناة ستكون مفيدة لمصر والا

لما قاومت بريطانيا حفرها بهذه الصورة التى تنطوى على العناد الشديد ، والأخرى انها استخدمت سلاح الدولة فى مقاومتها لخصمها ديلسبس ـ وهـو مجرد فرد عادى ـ مما دفعه الى أن يحاول استخدام السلاح نفسه فقد أحسن استخدامه كما سنرى فيما بعد ٠

ونجحت مناورات بريطانيا فى القسطنطينيه أكثر مما نجحت فى القاهرة ، فقـد أنضم السلطان الى صفها ولم يتظاهر بتأييـدها كما فعل سعيـد ٠ وبادر ديلسبس فحذا حذو روبرت ستفنسون الانجليزى الذى بدأ عام ١٨٥٥ فى انشاء خط سكة حديد القاهرة ـ الاسكندرية بموجب اتفاق عادى مع والى مصر ومن غير تصديق من السلطـان ، فأنشأ هـو أيضـا عام ١٨٥٨ « الشركة العالمية لقنـاة السويس البحرية » ٠

الاكتتـاب :

لقد ساهم سعيد باشـا بنصيب فى نفقـات الابحاث الخاصة بالقنـاة ، وحصل لهذا الغرض على قروض كثيرة من بنوك باريس ، وساهمت « جمعيـة الدراسات التمهيدية » التى تضم ديلسبس وأصدقاءه بنصيب آخر ٠ ولكن الشىء الذى كان يبحث عنه ديلسبس هـو رؤوس الأموال التى كان فى حاجة الى قدر ضخم منها ، ولجأ لهذا الغرض الى دوائر البنوك التى طلبت منه فوائد ذات نسبة عالية : خمسة فى المائة وأحيانا عشرة فى المائة من حساب المـزايا الأخرى التى تعطى عادة للمؤسسين ٠ واستبدت الحـيرة به ، ثم استقـر رأيه على أن يصرف النظر عن الالتجاء الى البنوك ، ووجد أن من الفطنة أن يبحث لشركته عن شخصية كبيرة تكفل لها الحماية السياسية اذا تعرضت لمناورات خصومها ، فاختار «حاميا» لها الامير نابليون ، ابن عم الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسـا ، كمـا اختـار لمنصب نائب رئيس الشركة الدوق سيشيـه ابن مارشال الامبراطـورية الدوق البوفيرا ٠

ثم افتتح فى ميدان فاندوم بباريس مكتبا لبيع أسـهم الشركة للجمهور ، وأقبل الجمهور على الشراء اقبالا عظيما ، فباع ۲۰۷ر۱۱۱ سهما اشتراها ۲۱۲۲٦ مساهما أى بمعدل عشرة أسـهم لكل شخص . وقد دفع هـذا النجاح الصحف الانجليزية الى السخرية والتهكم على أصحاب الحوانيت والخياطين وصانعى الاحذية الذين دفعـوا نقـودهم الى « هـذا المدعو مسيو ديلسبس » . وعقبت صحيفة التايمس على ذلك فقالت ان المساهمين هم جرسـونات المقاهى والبقالون وصغار الموظفين الذين خدعتهم صحف بلادهم ، وقالت « ان المسألة كلها لا تعدو أن تكون سرقة علنية راح ضحيتها البسطاء ، من الناس الذين تعرضوا للغش والتدليس » .

ورأى ديلسبس ـ لكى يعطى للشركة طابعا « عالميا » ويفل سلاح معارضيه وخصومه ـ أن يخصص كميات معينة من الاسهم للمشترين من مختلف الاسواق المالية فى العالم . وكان رأس المال ۲۰۰ مليون فرنك ذهب وعدد الاسـهم ٤۰۰ ألف وقيمة كل سهم ٥۰۰ فرنك. وقد خصص من هذه الاسهم ۲۰۲۱۱۱ سهما ـ أى أكثر من النصف قليلا ـ للمساهمين الفرنسيين و ۹٦٥۱۷ سهما للمساهمين فى الامبراطورية العثمانية (اشترى الخديو الجانب الاكبر منها وهـو ۹۲۱۳٦ سهما) و ۱۰۸٦٦ لهولندا وأسبانيا وتونس ودولة بيمونت الايطالية .. الخ . أما الاسهم التى خصصت للجمهور فى بريطانيا والولايات المتحدة والنمسا وروسيا وعددها ۸٥٥۰٦ أسهم فلم يتقدم لشراء شىء منها مساهم واحد . وصدم ديلسبس لهذه المفاجأة التى لم يكن يتوقعها ، وكان عدم توزيع هذه السندات يعنى فشل المشروع واستحالة حفر القناة لعدم توافر المال اللازم الذى تقرر جمعه بناء على تقديرات دقيقة .

وهنا تدخل سعيد باشا مرة أخرى لانقاذ ديلسبس فاشترى الاسهم التى لم يتم بيعها وعددها ۸٥٥۰٦ أسهم ، فاذا أضيفت الى الاسهم التى اشتراها من قبل وعددها ۹۲۱۳٦ سهما فان مجموع ما اشتراه يصبح ۱۷۷٦٤۲ سهما قيمة كل منها ٥۰۰ فرنك ، وهذا يعنى أن سعيد باشا ملزم بدفع مبلغ ۸۸ مليونا و ۸۲۱ الف فرنك ذهب .

الوصول الى حل :

ان ما كان يفتقر اليه سعيد باشا لم يكن النية الحسنة ، فقد كانت لديه ، ولكنه المال . ورأى ديلسبس الذى استخدم نفوذه عند سعيد باشا لكى يحمله على شراء الاسهم المتبقية انه ليس من الضرورى أن يدفع الباشا أموالا سائلة ، وانه يمكن أن يوقع بأذونات على الخزانة المصرية ، وأعرب بنكان من بنوك الاسكندرية عن استعدادهما للقيام بعملية بيعها فى أسواق باريس المالية . ولكن بنوك باريس لم تقبل على شراء هذه الاذونات الا بفوائد مرتفعة جدا وصلت الى ١٨ فى المائة من قيمتها .

وهكذا توافرت لديلسبس الاموال التى كان فى حاجة اليها ، وتم انشــاء الشركة ، وحصل على الحماية الامبراطورية، وحينئذ بادر الى شراء الادوات والمهمات اللازمة لبدء العمل .

وفى يوم الاثنين ٢٥ ابريل ١٨٥٩ ضرب أول ضربة بالفأس على الساحل قرب بلدة بلوز التى سرعان ما أطلق عليها اسم بور سعيد اعترافا بفضل سعيد باشا .

الأسطول لانجليزى يتدخل :

كان ديلسبس يتــوهم أنه يستطيــع الاستغناء عن تصديق السلطان على الاتفاقية التى عقدها مع سعيد باشا بشأن القناة ، ولكن لندن بادرت الى العمل لازالة هذا الوهم . وأسرع اسطول انجليزى الى الاسكندرية حيث ألقى مراسيه أمامها ، فى حين أخذ المثلون الدبلوماسيون الانجليز فى مصر يشددون ضغطهم على سعيــد باشــا الذى استبد به الخوف والفزع ، وأمر يوم ٩ يونية ١٨٥٩ بوقف العمل فى القناة . ولكن ديلسبس رفض هذا الامر ، واحتج بأنه يلقى معــاملة

تختلف عن المعاملة التى يتمتع بها رجال الاعمال الانجليز الذين يقومون بانشاء خط السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية • وأذعن سعيد باشا ، ولكن بعد مضى ثلاثة شهور تدخل سلطان تركيا بنفسه بتحريض من الانجليز وأمر بوقف العمل فى قنـاة السويس على الفور • والعجيب أن القنصل العـام لفرنسـا فى الاسكندرية نصح سعيد باشـا بأن يحترم أمر السـلطان وأن يوقف العمل فى القناة •

وأدرك ديلسبس الذى كان فى باريس حينئذ أنه سيتعرض لـكارثة اذا استمر يكافح وحده وبصفته الشخصية المؤامرات التى تقوم بها عصبة من الدول• ورأى أن الوقت قد حان لكى يختبر «الحماية» الامبراطورية التى وعده بها نابليون الثالث ، فاذا لم يتدخل الامبراطور فان هذا يعنى ضياع القناة وضياعه هو نفسه، أما اذا تدخل الامبراطور فان الامور يمكن أن تدخل مرحلة جديدة وتصبح مسألة حفر القناة مسألة وطنية فرنسية ترتبط بها فرنسا ويمكن أيضا أن تقودها الى الحرب ضد بريطانيا •

وفى يوم ٢٣ أكتـوبر ١٨٥٩ استقبل نابليون الثالث ديلسبس وقال له بطريقة يفهم منهـا أنه يعنى ما يقول : « كن مطمئنا •• وتستطيع أن تعتمد على تأييدى وحمايتى » •

فى هذا اليوم جنت الحكومة الانجليزية ثمرات طيشها ونزقها وأخطائهـا التى دفعتها الى تأليب الدول ضد فرد واحد ، ثم ساقتها أخيرا الى اثارة دولة كبرى مثل فرنسا لها مركزها الدولى البارز وماضيها العسكرى الحافل• وان الانتصارات التى حققتها فى معارك مارنجو وسـولفرينو على يد الامبراطور نابليون الاول خير شاهد على ذلك • وحينئذ خففت الحكومة الانجليزية من حدة عدائها ، وان كانت لم تقلل من سوء نيتها ، وفضلت ــ والحقد يأكل صدرها ــ أن تترك ديلسبس يفعل ما يشاء •

وتقدمت عمليات الحفر بخطى حثيثة ، وقد بدىء يحفر قناة ضيقة تمهيدية تمتد من البحر حتى مشارف بحيرة التمساح ، كما بدىء فى الوقت نفسه يحفر قناة للمياه العذبة تمتد من النيل الى المكان الذى أطلق عليه فيما بعد اسم مدينة الاسماعيلية ٠ وأنشئت أرصفة بحرية فى بلدة بيلوز كما أقيمت منارة لارشاد السفن ٠ وفى شهر نوفمبر ١٨٦٢ وصلت مياه البحر المتوسط الى بحيرة التمساح ٠

مناورة لتأخير العمل :

ولم تمض بضعة شهور حتى توفى سعيد وخلفه فى الحكم اسماعيل الذى ، أعلن ترحيبه بالمضى فى حفر القناة ، ولكنه كان محاطا بحاشية متأثرة بوجهات النظر الانجليزية ، وتعارض الاستمرار فى هذا العمل ٠ وقامت لندن بضغط جديد على السلطان الذى طلب تعديل الاتفاقية المعقودة عام ١٨٥٦ بين ديلسبس وبين سعيد باشا بحيث ترد شركة القناة الارض التى تبلغ مساحتها ستين ألف هكتار والتى كان سعيد قد تنازل لها عنها وشرعت الشركة فى تزويدها بالمياه ، كما طالب بأن تكف الشركة عن استخدام العمال المصريين ٠ ولم تخف الصحف البريطانية الغرض من مطالب السلطان ، وهو اثقال كاهل الشركة بالنفقات الباهظة حتى يؤدى ذلك الى افلاسها وتوقفها عن العمل٠ والواقع أن وقف استخدام العمال المصريين يخالف نص اتفاق عام ١٨٥٦ على أنه من حق شركة القناة أن تستخدم أربعة أخماس عمالها من المصريين ، وتعديل هذا النص يعنى ارغام ديليسبس على أن يستقدم من أوروبا عمالا أجورهم مرتفعة ٠ وحتى هؤلاء العمال يمكن تثبيط همتهم ومنعهم من السفر عن طريق الحملات الصحفية المغرضة التى تصور لهم العمل فى مصر بأنه مغامرة غير مأمونة العواقب ٠

الفرع والأصل :

ولكن هذه المناورة تمخضت عن نتائج طيبة بالنسبة الى ديلسبس ، ذلك أن مطالب السلطان قد انصبت على الفرع ـ وهو تعـديل اتفاقية عام ١٨٥٦ ـ وليس على الاصل الذى هو الاتفاقية ذاتها ، وهـذا يعنى أنه اعترف بها اعترافا ضمنيا • وعلى هذا فانه لن يستطيع أن يرفض التصديق على الامتياز اذا أجيبت مطالبه المتعلقـة بنقاط فرعيـة • ثم أن المطالبـة بالكف عن استخـدام العمال المصريين أدى فى النهاية الى استخدام الآلات الحديثة فى عمليـات الحفر ، وتفادى سوء استغلال العمال وهو أمر كان من المتعذر تحقيقه في الظروف التى كانت سائدة فى ذلك العهد •

وجدير بالذكر أن الوطنيين المصريين كانوا قد اتهموا ديلسبس بأنه تسبب فى موت ١٢٠ ألف عامل فى خلال أربعة عشر عاما • ومهما يكن من سـوء أحوال العمل ـ وبخاصة فى البداية ـ فان هذا الرقم يبدو مبالغا فيه • وفى خلال الشهور الاولى من العمل فى حفر القناة كانت الاحوال سيئة جدا ، فالمهمات والادوات كانت قليلة ، ومعظم الاعمال كانت تؤدى بوساطة الفأس والجاروف والمقطف • وقد مات من العمال كثيرون بسبب الحمى وضربة الشمس والعطش ، ومما يذكر فى هـذا الصدد أن ماء الشرب كان يوزع عليهم على أساس ثلاث جرعات فى اليوم !

ويبدو أن العمال المصريين الذين كان سعيد باشا يقـدمهم الى ديلسبس من عمـال السـخرة ، وهـذا الامر ما كان ليثـير دهشـة أحـد فى الشرق الاوسط حيث كان الرق حتى ذلك الوقت سائدا فيه ، ولا حتى فى غرب أوروبا حيث كانت مصانع النسيج ـ ولا سيما فى مدينة لانكستر الانجليزية ـ تستخدم أطفالا لا يتجاوز أعمارهم ثمانى سنوات أربع عشرة ساعة فى اليوم • وكان من أول الانتصارات الاجتماعية فى ذلك العهد تحديد ساعات العمل بعشر ساعات فى المصانع التى يعمل فيها أطفال يقل عمرهم عن ١٤ سنة •

وعلى أى حال فان الاحتجاجات التى نشرت فى الصحف الأوروبية ضد أحوال العمل فى قناة السويس كان لها نتائج طيبة ، فقد بدأ العمال يلقون معاملة حسنة ، وأخذت الشركة تدفع لهم أجورا تصل الى ثلاثة قروش فى اليوم (وهذا الاجر يعتبر مرتفعا فى مصر فى ذلك العهد) ، فضلا عن وجبة الطعام ومصاريف العلاج من المرض ، والمسكن • وأدى وصول المهمات والآلات الحديثة التى تعاقدت الشركة عليها الى التعجيل فى عمليات الحفر • ومن ثم انتهت الحملة الكيدية التى وجهت ضد الشركة ، وانتهى معها أيضا المشروع الذى نفذ برغم أنف المعارضين الذين توهموا أنه يمكن سحب الامتياز من شركة ديلسبس ومنحه لشركة أخرى يسيطر عليها الانجليز •

وفيما يتعلق « بالخلاف » القائم بين ديلسبس وبين السلطان طلب هذا تحكيم الامبراطور نابليون الثالث فيه ، وقد حكم نابليون بأن يرد ديلسبس الارض التى وضع يده عليها وتبلغ مساحتها ستين ألف هكتار ، وأن يتخلى عن استخدام السخرة فيما يتعلق بالعمال المصريين ، وأن يقنع بحق الانتفاع بقناة المياه العذبة التى حفرتها الشركة ، وأن تظل ملكيتها لمصر • وفى مقابل هذا تدفع الحكومة المصرية للشركة تعويضا يبلغ ٨٤ مليون فرنك ذهب قيمة النفقات التى تكبدتها الشركة فى حفر قناة المياه العذبة (ومن الواضح أن هذا التقرير يبدو أكبر مما تستحقه الشركة فعلا) ولم يلبث السلطان أن صدق على الامتياز الذى أبرم عام ١٨٥٦ •

ولكن العقبات المالية لم تكن قد زالت بعد من طريق ديلسبس ، فقد تبين حينما أوشكت أعمال الحفر على الانتهاء أن النفقات تجاوزت كثيرا التقديرات التى وضعت لها • ولكن قناة السويس كانت قد أصبحت مشروعا وطنيا بالنسبة لفرنسا ، ولهذا تدخلت الجمعية التشريعية ووافقت على قانون ينص على ضمان السندات التى أصدرتها الشركة والتى كانت قيمتها مهددة بالانهيار بسبب مضاربات البورصة •

وفى يوم ١٤ مارس ١٨٦٩ وصلت مياه البحر المتوسط الى البحيرات المرة ٠ وفي ١٥ أغسطس ١٨٦٩ اتصلت مياه البحر المتوسط بمياه البحر الاحمر ٠

وأخيرا جاءت الى مصر الامبراطورة أوجينى ، زوجة الامبراطور نابليون الثالث لكى تتوج انتصار ديلسبس ، وتفتتح يوم ١٧ من نوفمبر ١٨٦٩ ـ ومعها عدد كبير من ملوك وامراء أوروبا ـ أجمل حفرة فى العالم ٠

أجمل حفرة فى العالم :

كانت الامبراطورة أوجينى تضع ثياب الصيف على الرغم من أنها جاءت الى مصر فى فصل الخريف ، فقد كانت ترتدى فستانا من الحرير الرمادى الفاتح المموج بلون الورد ، والمطرز بالدانتللا البيضاء ٠ ولم تكن تتحلى بمجوهرات ولا بأدوات زينة ، وانما اكتفت بالتزين بريشتى نعام جميلتين سوداوين ٠ والواقع أن الجو فى مصر كان رائعا فى ذلك الفصل من السنة ٠ ولما وصلت السفينة « النسر » التى تقلها الى شاطىء بور سعيد فى الساعة السادسة صباحا كان ظلام الليل لم ينقشع بعد ٠ وكان ديلسبس فى انتظار الامبراطورة فى زورق قرب الشاطىء ، فصعد الى السفينة ، وقد بزغ ضوء النهار ٠ وأطلقت السفن الراسية على مقربة من الساحل مدافعها تحية للامبراطورة ٠٠ اليخت المحروسة وهو من سفن الخديو ، وفرقاطة امبراطور النمسا ، وفرقاطة أمير بروسيا ، والفرقاطة الروسية ، والفرقاطة الانجليزية ٠ واستمعت الامبراطورة أوجينى الى طلقات المدافع وهى فى مقدمة سفينتها مبهورة مدهوشة ، وكان بجانبها ديلسبس يتذوق طعم انتصاره ٠

ثم بدأت الامبراطورة تستقبل كبار زوارها : الخديو اسماعيل ، وامبراطور النمسا ، وولى عهد بروسيا والامير هنرى الهولندى ومعه الاميرة قرينته ، وكل من سفير بريطانيا وروسيا لدى سلطان تركيا ، ثم اميرالات السفن الحربية ٠

وفى هذا الصباح أخذ الملوك والامراء يتبادلون الزيارات على السفن ، وفى كل زيارة تطلق السفن المدافع تكريما للضيف الكبير • وقد مال أحد أفراد حاشية الامبراطورة القربين وهمس لها قائلا : لقد أطلق اليوم من القنابل أكثر مما أطلق فى أية معركة بحرية حدثت من قبل ! فردت عليـــه الامبراطورة التى كانت ذكية القلب محبة للدعاية : ومع ذلك فلم يقتل أحد !

حفل تدشين القناة :

فى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأ حفل تدشين القناة ، وقد اقيم لهذا الغرض على الشاطىء ثلاثة سرادقات فخمة خصص السرادق الرئيسى المواجه للبحر للملوك والامراء وكبار الدول ، أما السرادقان الآخران فكانا متواضعين ، وخصصا لرجال الدين الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور الحفل ، وقد وضع فوق احداهما الهلال ، وفوق الآخر الصليب •

وكان السرادق الرئيسى يزينـــه تاج كبير يعلو (هلبين) متقاطعين كرمز لوحدة الاساطيل البحرية •

وأخذ المدعوون يصلون تباعا ، فوصل أولا الرسميون وممثلو الدول ، ثم جاء مطران الاسكندرية المونسنيور شيوكسا ، والاب باور راعى كنيسة مادلين بباريس ، ورجال الدين المسيحيين واليهود والمسلمون • ثم وصل الامراء وتبعهم الملوك وفى مقدمتهم الخديو اسماعيل يسبقه ثلاثون من حملة الاعلام • وكان يرافق الامبراطورة أوجينى التى أعطت ذراعها لامبراطور النمســا ، وكان معهم الامير عبد القادر الجزائرى الذى كان يرتدى « البرنس » الابيض المزين بالاوســمة • وسار فى آخر الموكب بطل الســاعة ، فردينان ديلسبس مع زميــله المهنــدس لافالى •

وجلس الملوك فى السرادق الكبير يحف بهم الامراء • وجلس الامير عبد القادر الجزائرى خلف الامبراطورة مباشرة بين الوصيفات وبين نجل الخديو ، وأخذ علماء

الدين المسلمون يرتلون آيات من القرآن ، ثم ألقى الاب باور كلمة مناسبة للمقام، وكانت السفن تطلق فى خلال ذلك مدافعها . وانتهى الحفل فى الساعة الرابعة والنصف ، فانصرف المدعوون الى سفنهم استعدادا لسهرة المساء حيث أقامت الامبراطورة أوجينى حفل عشاء كبير على السفينة ايجل (النسر) .

الرحلة :

وفى اليوم التالى ــ وكان يوافق الاربعاء ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ ــ استيقظت مدينة بور سعيد التى كانت حتى ذلك الوقت بلدة صغيرة يسكنها نحو عشرة آلاف نسمة ، على أصوات مدافع السفن التى بدأت ترفع مراسيها استعدادا لعبور قناة السويس . وكانت أولى السفن التى شقت مياه القناة هى السفينة « النسر » التى تقل الامبراطورة أوجينى ، وأعقبها اليخت المحروسة الذى يقل الخديو ، ثم سفن الملوك والامراء ، وأخيرا السفن التى تحمل السفراء وممثلى الدول . أما بقية ضيوف الخديو فقد استقلوا الباخرة « بلوز » وكانت أكبر سفينة تعبر القناة حينئذ ، وقد صادفت صعابا فى عبورها .

وتقدم موكب السفن فى هيبة وجلال نحو القنطرة، يحرسه على كلا الشاطئين البدو الذين امتطوا ظهور الجمال وهم يرتدون ثيابهم البراقة اللامعة ، وكلما وصل موكب السفن الى مركز من مراكز تجمعات العمال هتف هؤلاء هتافات مدوية تشق عنان السماء .

وكان من المقرر أن يصل الموكب فى المساء الى مدينة الاسماعيلية ، التى أطلق عليها هذا الاسم تكريما للخديو اسماعيل ، وكان الضيوف يستعدون لحضور مهرجانات أخرى فيها .

ولكن الرحلة لا يمكن أن تتم من غير حدوث بعض المضايقات . فعند بلدة الجسر اصطدمت السفينة « النسر » بباخرة صغيرة من بواخر شركة قناة السويس وحطمت « رفاص » الباخرة . ولم تصب سفينة الامبراطورة بخسائر تذكر ولكنها

توقفت عن الحركة • فما كان من الخديو ـ الذى كان يبدى اهتماما بالغا بضيوفه ـ الا أن أخذ يسحب حبال السفينة كأنه مجرد ملاح بسيط ، فبرهن بذلك على أنه من طراز مواطنيه الذين يحبون اداء الاعمال اليدوية • ثم لم تلبث السفينة «بلوز» حتى جنحت عند مدخل بحيرة التمساح فى الوقت الذى كانت فيه مدينة الاسماعيلية تبدو فى الافق وقد غمرتها أضواء الزينات •

مهرجان فى الصحراء :

مدينة الاسماعيلية أصبحت عاصمة قناة السويس ومقر الشركة، وقد انشئت فى منتصف المسافة بين البحرين الاحمر والمتوسط كانما قصد بذلك أنها لا تفضل واحدا منهما على الآخر وأن هدفها الوحيد هـو الجمع بينهما • وقد خرجت هذه المدينة الى حيز الوجود فى فترة قصيرة من الزمن ، مثلها فى ذلك مثل بور سعيد والقنطرة والفردان والجسر ، وأصبحت مدينة عصرية لها طابع أوروبى ، وقد أنفق الخديو من أجلها أموالا طائلة لكى يستقبل فيها ضيوفه ، وأقام فى ضواحيها مدينة كاملة من الخيام تضم ألف خيمة فخمة فيها جميـع وسائل الراحـة العصرية • وأقيمت فى وسطها قاعة كبيرة تحوى ثلاث موائد كبيرة تسع ألف مدعو • وكانت نفقات الضيوف جميعا ، من مسكن وطعام على حساب الخديو ـ وقد تكلف فى هذا السبيل مليونين من الفرنكات الذهبية ـ وليس على حساب الشركة التى كانت قد أصبحت صفر اليدين بعد الاموال الطائلة التى انفقتها فى حفر القناة ، ولم تحصل من ورائها فرنكا واحدا بعـد • وقد اعترف الجميع بأن الخديو أحسن اسـتقبال ضيوفه وغمرهم بكرمه •

وفى يوم الخميس ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ استراح ضيوف الخديو ، وزاروا قصره، وقاموا بنزهة على ظهور الجمال • وفى المسـاء رقصوا ، كما فعلوا بالامس ، على نغمات موسيقى أوفنباخ التى كانت مودة العصر ، وأخذت أرشق سيدات أوروبا وأكثرهن أناقة يهززن خصورهن فى الصحراء •

وفى مساء يوم الجمعة رست السفن جنوبى شـواطىء البحيرات المرة حيث قابلت أول قافلة قادمة من السويس •

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح يوم السبت وصــل موكب السفن الى البحر الاحمر وألقى مراسيه أمام السويس ، وانهمكت مكاتب التلغراف فى اذاعة هــذا النبأ المدهش على العــالم كله : لقــد عبر أســطول بحرى برزخ السويس !

الانتصــار :

انهالت التهانى على فردينان ديلسبس من جميع أنحاء الدنيا ، وبعث اليه جميع الملوك بالأوسمة والنياشين • ولكن لم تمس شغاف قلبه تهنئة مثل تلك التى تلقاها من الملكة فيكتوريا ومن جلادستون رئيس وزراء بريطانيا فى برقية بعث بها اليه اللورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا • فهو لم ينس بعد كيف حاولت بريطانيا بعناد احباط مشروعه ووضع العراقيل أمامه لمنعه من المضى فى حفر قناة السويس • وها هو ذا اليوم يتلقى دعوة لزيارة لندن ، وحينما توجه الى عاصمة بريطانيا استقبلته الملكة ، والامير الذى أصبح فيمــا بعد الملك ادوارد السابع ، والوزراء • ورأس جلادستون حفلة أقيمت تكريما للرجل الفرنسى الذى أصبح أشهر شخصية فى تلك الأيام • وأطلقت الصواريخ فى سماء لندن راسمة رمزا لقناة السويس كما رسمت بحروف حمراء ضخمة اسم ديلسبس •

ولكن كل هذا التكريم لم يجعل ديلسبس يتصور أن لندن متحمسة حقا ، فهو لم يلق منها من قبل غير العداء السافر والخصومة العنيدة والخديعة المرة والغدر السياسى • ان انشاء قنــاة السويس يعتبر بالنسبة له قصة كفاح طويل ضــد ظروف كثيرة قاسية، كان عداء بريطانيا أحدها • واذا كان قد حقق اليوم انتصاره فان هذا لا يعنى نهاية الكفاح ، فقــد كانت أمامه معارك كبيرة أخرى عليــه أن يخوضها •

الفصل الثانى

معارك أخرى من أجل القناة

تم حفر قناة السويس وافتتحت ، وأصبحت صالحة للملاحة ، وبذا صارت حقيقة واقعة • لقد تحققت الأمنية العزيزة وتم شق برزخ السويس ، وهكذا « تزاوج » الشرق والغرب • وظن ديلسبس أنه يستطيع أن يوجه جهوده الى مشروعات أخرى كانت تملأ رأسه من بينها انشاء سكة حديد بين موسكو وبكين ، وحفر نهر داخلى فى الصحراء الكبرى ينشر فيها الخصب والنماء ، ومن يدرى أية مشروعات أخرى كان من الممكن أن يقدم عليها ، فالنجاح يولد النجاح ، انه يفكر أيضا فى حفر قناة بناما !

ولكن اتمام انشاء قناة السويس لم يكن يعنى كما قلنا انتهاء كفاحه من أجلها ، فقد كان ينبغى عليه أن يدافع عنها ، لأن هؤلاء الذين حاولوا احباط هذا المشروع عادوا من جديد يحاولون انتزاع ملكيتها والاستيلاء عليها •

نعم ، لقد أصبحت قناة السويس حقيقة واقعة ، وأصبحت طريقا مائيا يبلغ طوله ١٦٤ كيلو مترا ويسع أضخم السفن فى ذلك العصر وكان عرضها عشرين مترا وعمقها ثمانية أمتار • ولكنها كانت تعانى متاعب جمة من الوجهة المالية • فقد تطلب حفرها رفع ٧٤ مليون متر مكعب من الرمال ، وبلغت جملة النفقات ٤٣٧ مليون فرنك ذهب أى مثل التقدير المبدئى ـ وهو ١٦٠ مليون فرنك ـ مرتين ونصف مرة • ومع ذلك فان عوائد المرور لم تحقق لها بعد ارباحا

تذكر ، لأن السفن لم تكن قد تعودت بعد على هـذا الطريق الجـديد الذى كان الكثيرون يعتقدون أنه خطر تجنح فيه السفن كثيرا • وكان مقدرا أن تمر فى القناة عام ١٨٧٠ سفن تبلغ حمولتها ستة ملايين طن ، ولكن نشوب الحرب الفرنسـية الألمانية أدى الى تقليل المرور فيها فلم يعبرها فى ذلك العام غير سفن بلغت حمولتها ٤٣٦٦٠٩ أطنان فقط •

على حافة الافلاس :

فى عام ١٨٧٢ لم يكن المساهمون قد تسلموا بعد أية حصة فى الأرباح التى استحقت الدفع ثلاث مرات من غير أن تفعل الشركة شيئا للوفاء بالتزاماتها نحو المساهمين ، مما جعل مركزها يتحرج وأصبحت على حافة الافلاس • وبلغ الأمر حدا دفع بعض مديريها أنفسهم ـ الذين أفزعهم تطور الموقف ـ الى المطـالبة بتصفية الشركة • ومما زاد الطين بلة أن المضاربات أدت الى خفض قيمة الأسهم ، حتى لم يعد السهم الذى تبلغ قيمته الاسمية ٥٠٠ فرنك يساوى ثلث هذه القيمة وأخذ ديلسبس يبذل أقصى ما يستطيع من جهد لعلاج هذا الحال وتهدئة ثائرة المتذمرين حتى أمكنه فى النهاية أن ينقذ الموقف فى آخر لحظة • ولكنه لم يـكد يخرج من هذه الأزمة حتى صادفته أزمة أخرى، فقد أعلن أصحاب السفن تذمرهم من القرار الذى اتخذته الشركة بزيادة الرسوم على السفن التى تعبر القنـاة ، ومن تحصيل هذه الرسوم على الحمولة القائمة للسفن وليس على الحمولة الصافية . وعرضت الشركة ـ وقد أرادت أن تبدو كأنها شركة مصرية ـ هذا النـزاع على سلطان تركيا بوصفه الرئيس الأعلى لخديو مصر ، فأدانها وحكم لصالح خصومها ، ولما رفضت الاذعان لحكمه ، أرسل الى السويس أسطولا قوامه عشرة آلاف رجل ، فاضطر ديلسبس عام ١٨٧٤ الى التسليم بوجهة نظر السلطان •

وموجز القول أن الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ظلت خمس سنوات تعانى العسر والضيق ، وتواجه عجزا فى ايراداتها وتحتال على الظروف لكى تعيش ولم يعد أحد اذ ذاك يعتقد أن أسهمها شىء مضمون • واذا كانت أسـعار هـذه

الأسهم قد بدأت بعد ذلك تتحسن حتى أصبحت تعادل قيمتها الاسمية عام ١٨٧٥ ، فان الأمل فى تحصيل أية أرباح من هذه القيمة لم يكن له وجود على الاطلاق فى ذلك الوقت .

متاعب الخديو :

لم يكن افتتاح قناة السويس يعنى انتهاء تضحيات الخديو المالية ، بل ان الأمر كان على العكس ، فقد بدأ منذ ذلك العهد يبذل تضحيات جديدة بسببها ، وكان ديلسبس قد رأى قبل الانتهاء من حفر القناة انه من الضرورى مطالبة الخديو بتعديل الاتفاق المبدئى للامتياز . وكانت الشركة قد تخلت لمصر يوم ٢٣ من أبريل سنة ١٨٦٩ عن المنشئات التى أنشأتها للعمال فى منطقة القناة وعن بعض المستودعات والمخازن ، كما تنازلت عن الحق الذى منح لها لاستغلال محاجر الحكومة ، ووافقت على أن تدفع للخزانة العامة نصف ثمن ١٠٣١٤ هكتارا من الأراضى كان قد سبق لها شراؤها ولم تدفع ثمنها بعد . وأخيرا تنازلت عن الامتيازات المالية التى منحت لها فى اتفاقية عام ١٨٥٦ ، الا أن كل هذه التنازلات لم تكن بلا مقابل ، فقد تعهد الخديو ازاء ذلك بأن يدفع للشركة مبلغ ٣٠ مليون فرنك ذهب .

وبالطبع لم يكن لدى الخديو الذى كان يعيش على القروض فرنك واحد يدفعه للشركة . ولكن ماذا يهم ؟ فان الشركة أبدت استعدادها لتقديم التسهيلات اللازمة التى تتيح له الوفاء بالتزاماته . فليس على الخديو الا أن يقدم للشركة كوبونات الأسهم التى يملكها والمستحقة الدفع كل ثلاثة شهور ، لدفع مبلغ الثلاثين مليون فرنك ذهب الذى تعهد به وكذلك دفع فوائده بواقع ١٠ فى المائة فى السنة ــ مع العلم بأن الأسهم لم تكن قد حققت حتى ذلك الوقت أى ربح على الاطلاق ــ وكان هذا الاتفاق يعنى أن يتنازل الخديو للشركة عن نصيبه فى حصص الأرباح مدة ٢٥ عاما ، من أول يناير سنة ١٨٧٠ حتى أول يوليه سنة ١٨٩٤ .

وليس هذا فحسب ، فبعد مضى عامين قررت الجمعية العامة للمساهمين أنه لا يحق للحائزين على أسهم ليس لها كوبونات الاشتراك فى اجتماعات الجمعية العامة . وهكذا فان خديو مصر ـ الذى يملك نحو نصف رأس مال الشركة التى تدين له بفضل وجودها ذاته ، والتى دفع لها بموجب أعذار وحجج مختلفة مبلغ ١١٠ ملايين فرنك ذهب لكى يستعيد شراء حقوق سبق له أن منحها لها ـ لم يحرم فقط من حق الحصول على نصيبه فى أرباح أسهمه لمدة ٢٥ عاما ، وانما لم يعد له أيضا حق الاشتراك فى ادارة الشركة . ولما احتج الخديو على ذلك وافقت الشركة ، تحاشيا للنزاع ، على أن تعطيه حق تصويت نظرى ، وقد وكل الى ديلسبس ممارسة هذا الحق .

مخلب القط :

ان الأموال التى دفعها الخديو اسماعيل لشركة قناة السويس لم تكن أمواله ، وكان ديلسبس يستطيع أن ينبهه الى هذه الحقيقة ، فقد كانت أموال صغار المساهمين من الرجال البسطاء فى باريس ، حصل عليها الخديو على هيئة قروض . وكان كل عمله أنه أدى دور الضامن لهذه القروض التى كانت بنوك باريس تخصم منها لحسابها « عمولة » تتراوح قيمتها بين ١٥ و ١٨ فى المائة ، أما باقى المبلغ فكان الخديو يسدد به التزاماته فى مشروع قناة السويس وغيرها من المشروعات « المدهشة » التى كان يقوم بها . ومعنى هذا أنه لا الخديو ، ولا مصر قد قبضا هذه الأموال أو رأيا حتى « لونها » ، وانما خرجت من جيوب عدد كبير من صغار المساهمين فى باريس لتدخل جيوب عدد قليل من كبار رجال الأعمال والبنوك فى باريس أيضا .

ولم تستفد باريس وحدها من هذه الوسيلة « الفنية » فى الاثراء السريع وانما شاركتها فى ذلك أيضا لندن وغيرها من العواصم الأوروبية . وقد كان اسماعيل مثل سعيد ، ضحية لأحابيل بعض رجال المال ذوى الوسائل الملتوية المنطوية على الغش والخداع ، وقد قال أحد الكتاب فيما بعد فى هذا الصدد أنه :

« كثيرا ما حدث أن بعض الدول الأوروبية التي كان يمثلها أشخاص متآمرون أبدت تساهلا غريبا في نهب خزانة دولة الرجل الذي فتح بلاده على مصراعيها لمشروعاتها ، وتسليمها للأفاقين المغامرين ذوي المكر والخداع ورجال البنوك الجشعين ، واستخدمت معه الغش المغلف في أقنعة من الاتفاقات القانونية .. »

أما فيما يتعلق بجشع البنوك فالواقع أن هذا الاتهام مبالغ فيه . انه لا ينبغي اظهار « الخديو اسماعيل المسكين » بمظهر الضحية لها ، فقد كان ــ مثل سعيد باشا ــ شريكا في مؤمراتها . ومن أمثلة ذلك أن اسماعيل وافق بتحريض بعض المحيطين به على أن يشتري من السلطان ــ بثمن غال جدا ــ لقب «الخديو» الذي يعطيه الحق في عقد القروض بحرية من غير الرجوع الى الباب العالي . ومنذ ذلك الوقت بدأ سيل القروض لا ينقطع ، وأخذ الخديو يقترض من كل مكان يستطيع أن يجد فيه المال في أوروبا . وكان يعتقد أنه يضحك على الأوروبيين ويغرر بهم بأخذ أموالهم ، ولم يدرك أنه لم يكن يتسم ببراعة رجل الدولة أو بعد نظره ، ان مثل هذا التصرف يمكن أن يؤدي الى ضياعه والى القاء بلاده في هاوية العبودية !

وفي عام ١٨٧٥ بلغت قيمة السندات المصرية المطروحة في أسواق باريس المالية نصف مليار فرنك ذهب . ولما وقع اسماعيل في هاوية الافلاس كان مجموع الأموال التي « اقترضها » من أوروبا والتي لم يصل منها الى مصر غير اليسير يزيد على مليار ونصف مليار فرنك ذهب . وكان أكثر ما ضايقه وهو في ذروة خرابه وافلاسه ليس ضياع هذه الاموال كلها ــ اذ أنها على أي حال ليست أمواله ــ وانما عجزه عن الاستمرار في الاقتراض ، بانتهاء أوهامه التي كانت تصور له أنه رجل « أعمال » .

فكرة اعادة شراء أسهم الخديو :

ولدت هذه الفكرة في رأس رجل يعيش في باريس اسمه « ادوارد درفيو » وقد أمضى من قبل فترة طويلة من الزمن في القاهرة حيث كان يعمل في البنوك ،

وكان يعرف جيدا الحالة السيئة التى آل اليها موقف الخديو المالى ، لأنه كان هو نفسه أحد أفراد الحاشية التى أحاطت باسماعيل باشا ، وأحد الذين كانوا يعملون لحسابه فى الشركات ودوائر الأعمال ، واستطاع فى النهاية أن ينشىء بنكا فى الاسكندرية مع أخيه أندريه الذى ظل مقيما فى مصر . وكان ادوار درفيو يعرف أيضا أنه فى نهاية شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ سيحل موعد سداد فوائد الديون التى اقترضها الخديو ، وقيمة هذه الفوائد وحدها تتراوح بين ٨٠ مليون و ١٠٠ مليون فرنك ذهب ، وكان يعلم أن الخديو لن يستطيع أن يدفع شيئا من فوائد هذه الديون حينما يحل موعد السداد . وقد أبلغ درفيو من باريس أخاه الذى يقيم فى مصر أن هذا المبلغ يمكن ايجاده اذا وافق الخديو على رهن أسهمه الخاصة بشركة قناة السويس ، وأن يدفع فوائد عن رأس المال الذى تمثله هذه الأسهم فى خلال التسع عشرة سنة التى ستؤول فيها أرباح كوبونات هذه الأسهم الى الشركة . وهكذا فان الأمر لن يقتصر على أن الخديو لا يقبض حصته من الأرباح المحتملة للأسهم التى يمتلكها ، ولكن ينبغى عليه أيضا أن يدفع فوائد عنها . وطلب درفيو أن تكون نسبة الفوائد ١٢ فى المائة فى السنة ، وأن تضمنها ايرادات جمرك بور سعيد ، أو تضمنها حصة الخديو فى أرباح شركة قناة السويس بصفته أحد مؤسسيها وتبلغ ١٥ فى المائة من جملة الأرباح . وأعرب الخديو عن استعداده لدفع ٨ فى المائة بدلا من ١٢ فى المائة التى طالب بها درفيو ، وهذه الثمانية فى المائة تدفع فوائد لمبلغ ٩٢ مليون فرنك فى خلال ١٩ عاما ، وأن يكون ضمان الدفع ايرادات جمرك بور سعيد . وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ توصل الطرفان الى حل وسط ، فقد وافق الخديو على أن يدفع الفوائد بنسبة ١١ فى المائة ، وأعطى درفيو مهلة حتى يوم ١٦ نوفمبر ليعلن موافقته النهائية على هذا الحل . وأصبح لزاما على درفيو أن يبحث عن مبلغ ال ٩٢ مليون فرنك الذى سيستخدم فى دفع فوائد ديون الخديو ، والذى لم يكن معه منه شىء بالطبع .

وانتشرت الشائعات عن هذه الصفقة ، وتسربت أنباؤها عن طريق حاشية الخديو الى البنك الانجليزى المصرى فى القاهرة ، فأخطر أصدقاءه فى باريس وهم

مديرو بنك الائتمان العقارى الفرنسى الذى كان يعتبر قلعة العمليات المالية الفرنسية الانجليزية ، وكان خاضعا لنفوذ أسرة روتشيلد الغنية وصاحبة المصالح الكبير فى دوائر المال والأعمال . وعن هذه الطريق علمت لندن بنبأ تلك الصفقة .

واتصل درفيو من جانبه أيضا ببنك الائتمان العقارى فى باريس . واهتمت جميع البنوك الكبرى فى العاصمة الفرنسية بنبأ الصفقة المصرية ، وأعربت عن استعدادها لقبول عملية رهن أسهم الخديو على أساس ٥٠ فى المائة من قيمتها ، ولكنها كانت متحفظة فى الوقت نفسه بسبب الظروف الدقيقة التى تحيط بالعملية وأرادت ألا تعمل الا متضامنة . وكان لبنك الائتمان العقارى الفرنسى كلمة مسموعة ورأى نافذ فى كل ما يتعلق بشئون مصر المالية لآنه يمثل فى باريس مصالح البنك الانجليزى المصرى فى القاهرة ، وهذا كان يملك من النفوذ والقوة ما يملكه المبعوثون شبه الرسميين لحكومة صاحب الجلالة البريطانية .

ولكن بنك الائتمان العقارى الفرنسى رفض مع ذلك الدخول فى هذه العملية لأنه كان يرى أن الخزانة المصرية لن تتخلص من العسر المالى الذى تعانيه الا اذا عولجت من داء القروض المستمرة التى يمارسها الخديو ، وهذا يقتضى قبل كل شىء حرمان الخديو المغامر من الحق فى الاقتراض ، وثانيا توحيد الديون وضمانها بالأسهم التى لا تزال متبقية لديه . ومن وجهة النظر المصرفية الخالصة يعتبر هذا الحل صحيحا ، وقد فرض بحذافيره تقريبا على الخديو بعد سنوات قليلة .

ولم يتضايق درفيو من موقف بنك الائتمان العقارى الفرنسى ، فهو يعرف أن الخديو لن يوافق مطلقا على حرمانه من حق اقتراض المال ما دامت هناك بارقة أمل فى ذلك ، لأن الاقتراض هو خطيئته المحببة ، ورذيلته التى لا يتردد فى سبيلها فى أن يرهن مصر كلها .

واقترح بنك الائتمان العقارى على درفيو ادماج مشروعه فى مشروع البنك ، ولكنه رفض على الرغم من أن البنك الانجليزى المصرى ورجل المال « أوبنهايم » قد انضما الى مشروع بنك الائتمان العقارى . ولما ذهب درفيو الى ديلسبس ليستشيره فى الموضوع نصحه بأن يطلب مهلة ثلاثة أيام للبت فى العرض المقدم اليه ، وكانت هذه المهلة تنتهى يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

آل روتشيلد :

ولكن فى يوم الأحد ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ جاء عرض من دزرائيلى رئيس الحكومة البريطانية ــ فى الوقت الذى كانت فيه البنوك الفرنسية لا تزال مترددة ــ « بشراء » أسهم الخديو ، وليس فيه تقديم قرض من أى نوع تضمنه هذه الأسهم .

وكان من رأى دزرائيلى ورأى صديقه الحميم ومستشاره المالى وسنده السياسى القوى ليونيل روتشيلد ، أنه يجب عمل كل شىء لمنع البنوك الفرنسية من ضمان أسهم الخديو ، وذلك حتى يجد الخديو نفسه فى موقف مالى حرج لا مخرج منه الا فى قبول عرض لندن وبيع أسهمه لها بالمبلغ الذى قدرته له وقيمته مائة مليون فرنك ذهب .

وقد اختار دزرائيلى التعاون مع روتشيلد فى هذه المسألة لعدة أسباب : أولها أن دزرائيلى يعتبر « أحد رجال روتشيلد » وثانيا لأن شرط السرية والسرعة فى العمل يجب أن يتغلب على كل اعتبار آخر ، فقد كان من المتعذر على دزرائيلى أن يطلب من مجلس العموم اعتماد المال اللازم لهذه الصفقة لأن المجلس كان فى عطلة فضلا عن أنه قد يضيع وقتا طويلا فى مناقشة هذه المسألة اذا اجتمع لبحثها . كما وجد أنه من الصعب أن يطلب أموالا من بنوك لندن لهذا الغرض لأن هذا سيؤدى الى اضاعة الوقت فى المشاورات فى مسألة تعتبر أيضا سرية . وأخيرا فان فرع أسرة روتشيلد فى لندن كان وثيق الصلة بفروع الأسرة الأخرى فى باقى العواصم الأوروبية ، ومن بينها باريس ، وكانت هذه الفروع كلها تتعاون معا فى المسائل المالية التى تعرض عليها .

وجدير بالذكر أن الاتفاق المبدئى الذى توصل اليه درفيو مع الخديو لميكن من الممكن اقراره الا بعد حصول درفيو على تأييد رجال المال والبنوك فىباريس ، وهؤلاء لا يستطيعون أيضا الاقدام على خطوة فى مثل هذه المسألة الهامة الدقيقة الا بعد مشاورة الحكومة الفرنسية والحصول على موافقتها • وكان هناك اثنان فى الحكومة الفرنسية يستطيعان وحدهما اعطاء هذه الموافقة وهما ليون ساى وزير المالية ، والدوق ديكاز وزير الخارجية • وكانت باريس لم توافق بعد على عرض درفيو ، وهكذا ظل الميدان خاليا أمام عرض لندن •

وقد بدأ ليون ساى وزير المالية الفرنسى حياته العملية فى بنوك روتشيلد فى باريس ، وقد ظلوا يدفعونه حتى وضعوه فى مجلس ادارة سكك حديد الشمال الفرنسية قبل أن يعين وزيرا للمالية• أما الدوق ديكاز وزير الخارجية فكان شريكا لرئيس بنك الائتمان العقارى الفرنسى ، وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب مدير هيئة سكك حديد الشمال • وكان بنك الائتمان العقارى يضم عددا من المدنيين الذين يعملون فى الوقت نفسه فى هيئة سكك حديد الشمال ، وكان المعروف أن هؤلاء المديرين المشتركين هم من رجال روتشيلد ، كما كان من المعروف أن بنك الائتمان العقارى وهيئة سكك حديد الشمال من مؤسسات روتشيلد •

ونجح الانجليز ــ بفضل تدخل روتشيلد ــ فى اتمام الصفقة وشراء أسهم الخديو ، وثار الرأى العام الفرنسى حينما رأى أسهم شركة قناة السويس ــ التى كان الفرنسيون يعتبرونها مشروعا وطنيا فرنسيا ــ تتسرب الى أيدى الانجليز • وأصدرت الحكومة الفرنسية « كتابا أصفر » لهتدئة ثائرة الرأى العام وشرحت فيه تطورات صفقة الأسهم وقالت ان بريطانيا هددت باعلان الحرب على فرنسا ما لم تحصل على هذه الصفقة •

ومن الطريف أن الدوق ديكاز وزير الخارجية الفرنسى كان قد شوهد فى أثناء سماعه بنبأ الصفقة الانجليزية ، وقد تظاهر بالدهشة البالغة وبدت عليه

علامات الحنق والغضب ، مع أنه كان قد أمضى الأسبوع السابق فى جهود متصلة لاحباط محاولات مسيو درفيو وديلسبس بشأن شراء أسهم الخديو ٠

أما فيما يتعلق بتهديد بريطانيا باعلان الحرب على فرنسا بسبب هذه الصفقة فان المراسلات التى نشرت فى هذا الشأن تثبت أن التهديد جاء عقب التوقيع على الاتفاقية الانجليزية المصرية بشأن شراء أسهم الخديو ، وأن بريطانيا لم تقدم على توقيع هذه الاتفاقية الا بعد أن تثبتت من احجام الفرنسيين عن اتمام الصفقة ٠

ويبدو أن الحكومة الفرنسية أشارت الى مسألة « التهديد » الانجليزى فى كتابها الأصفر بقصد اخفاء ضعفها فيما يتعلق بدورها فى هذه الصفقة ، أو بالأحرى اخفاء معالم الجريمة التى اشتركت فيها ٠

علاج الخزانة المصرية :

لما باع اسماعيل أسهمه فى قناة السويس تمكن من الوفاء بالتزاماته حينما حل موعد دفع فوائد ديونه ، ولكن رصيده المالى لم يتحسن ، بل على العكس ازداد سوءا ٠ والواقع أنه بعد أن تخلى عن جزء مهم من ثروته نتيجة لبيع الاسهم ـ ارضاء لدائنيه ـ أصبح فى نظر هؤلاء الدائنين أنفسهم أقل مقدرة على الوفاء بالتزاماته فى المستقبل ٠ كما أن رجال المال الأوروبيين الذين ترددوا فيما مضى فى التعاقد معه حينما كان يمتلك نصف شركة قناة السويس سيكونون أقل رغبة فى ذلك بعد أن ضاعت منه هذه الثروة ٠

وكانت المتاعب التى تعانيها الخزانة المصرية قد أثارت رد فعل سىء فى دوائر أوروبا المالية ، ولا سيما فى فرنسا وبريطانيا ٠ وكان يهم هذه الدوائر المحافظة على هذه الدجاجة التى تبيض ذهبا فأخذت تفكر فى وسيلة تعالج بها شئونها المضطربة ٠ واستقر الرأى على تكليف بنك الائتمان العقارى الفرنسى ، الذى يدور فى فلك روتشيلد ويعمل فى خدمة الامبريالية البريطانية ، بوضع

مشروع لاصلاح شئون مصر المالية ، وتم الاتفاق على تنفيذه فى أول فرصة يعجز فيها الخديو عن سداد فوائد الديون المستحقة الدفع ٠

ولم يدم الانتظار طويلا ٠ فبعد مضى ثلاثة شهور فقط ، عجز اسماعيل عن سداد الأقساط الجديدة من فوائد الديون ، وكان ذلك فى شهر ابريل سنة ١٨٧٦ وسنحت الفرصة المرتقبة لتنفيذ المخطط الذى وضعه رجال المال من الانجليز والفرنسيين ، وعين مراقبان للخزانة المصرية أحدهما انجليزى والآخر فرنسى وخصص لكل منهما مرتب خيالى ٠

شركة فرنسية انجليزية :

لم يكن الخديو وحده هو الذى غبن فى صفقة الأسهم ، فقد لحق بالحكومة الانجليزية غبن مماثل ، لأن الأسهم لم تكن لها أية قيمة حقيقية فى ذلك الوقت ، وظلت مدى عشرين عاما لا تربح سنتيما واحدا ، ولا تعطى أى حق بالتصويت فى مجلس ادارة شركة قناة السويس ، بل اننا اذا أخذنا بحرفية الاتفاقيات التى انتزع بها ديلسبس أسهم الخديو المنكود ، نجد أن ديلسبس وحده هو الذى ينبغى أن يحرز فى مجلس الادارة الأصوات التى تمثلها هذه الأسهم التى أصبحت انجليزية ٠

ولكن الحق الذى كان مسلوبا بالنسبة لحاكم كالخديوى لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة للملكة فكتوريا التى برهنت على أنها تستطيع بسط نفوذها على وزيرى المالية والخارجية الفرنسيين فيما يتعلق بمصالحها ، فقد تم على الفور تعيين ثلاثة مديرين بريطانيين فى مجلس ادارة شركة قناة السويس وهكذا وضعت بريطانيا قدمها فى الشركة ولكنها لم تكن تملك الغالبية ، ولا السيطرة على ادارة العمل فى القناة ، ومن ثم لم يكن لها ذلك النوع من الاشراف الاستراتيجى الذى تملكه الشركة الفرنسية بسبب وجودها فى منطقة القناة ذاتها وسيطرتها عليها من الوجهة العملية ٠ أما فيما يتعلق بالسيطرة على ادارة العمل

فى القناة فان هذا الحق لم تحصل عليه بريطانيا قط ، وانما كان من نصيب الفرنسيين منذ افتتاح القناة حتى تأميمها . ومع هذا فان مركز بريطانيا الجديد فى الشركة أتاح لها الفرصة لكى تطلع على سير العمل فيها اطلاعا شاملا ، وأن تمارس الضغط على المديرين الآخرين للشركة فى الاتجاه الذى يطابق مصالحها ، فضلا عن أنه جلب اليها أموالا طائلة ، لأن الشركة كانت قد بدأت تربح ، وقد ازدادت هذه الارباح فيما بعد زيادة ضخمة .

وعلى هذا فان مركز بريطانيا فى الشركة كان طيبا من الناحية التجارية ، ولكنها لم تكن راضية عنه من الوجهة الامبريالية أو بالأحرى من الوجهة الاستعمارية . فهى تريد أن تسيطر على القناة من غير منازع ولا شريك ، ولم تتأخر الفرصة طويلا ، اذ عرف مجلس الوزراء البريطانى كيف ينتهزها حين لاحت .

الافلاس :

حينما أعلن الخديو افلاسه بادر دائنوه الاوروبيون ــ لاول مرة ــ الى التدخل وقد وافق نتيجة لاصرارهم على انشاء صندوق للدين يتكفل بالاشراف على الميزانية المصرية لكى يدفع من ايراداتها فوائد الديون الباهظة التى لا تزال مستحقة الدفع . وقد أدخل اسماعيل لهذا الغرض فى حكومته مراقبين أوروبيين ، أحدهما انجليزى هو ريفرز ــ ولسون الذى أصبح وزيرا للمالية ، والآخر فرنسى هو بلينير الذى أصبح وزيرا للاشغال العامة ، وخصص لكل منهما مرتب خيالى يبلغ ٧٥٠ ألف فرنك ذهب فى السنة . وهكذا نشأ ما أطلق عليه اسم « لجنة الرقابة الانجليزية الفرنسية » التى يمكن تلخيص مهمتها بأنها عملية تدخل أوروبى كبير بحجة ضمان الرهونات عن طريق الحجز التحفظى .

كان الأمر اذن يتعلق بـ « ارغام مصر على الدفع » وهذا يقتضى اصلاح ماليتها وزيادة ايراداتها وتخفيض مصروفاتها • ان معظم الدخل المصرى يأتى من صادرات القطن الطويل التيلة الذى ازدهرت زراعته فى مصر عقب نشوب الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض صادرات القطن الأمريكى • وقد وجدت مصانع الغزل الانجليزية فى لانكستر فى القطن المصرى ضالتها المنشودة ، فأخذت تستورده بكميات كبيرة وبأسعار تناسبها ، وكان من حسن طالعها أن وزير مالية حكومة الخديو رجل انجليزى •

ولتخفيض المصروفات فى مصر وضع رجال البنوك الأوروبيون خطة للحد من نشاط الدولة والاستغناء عن الموظفين ، وفرض نظام التقشف • وهكذا وقعت على كاهل المصريين الأعباء التى ترتبت على اسراف الخديو ، وهى الأعباء التى ظلت ترزح تحتها حتى ذلك الوقت الدوائر المالية فى لندن وباريس •

وقد أدت هذه التغييرات الى اشاعة التذمر بين المصريين ، وقد ظهر أثرها سريعا حينما تقرر خفض قوات الجيش المصرى من ٣٠ ألف جندى الى ١٨ ألفا والاستغناء عن ٢٥٠٠ ضابط لم يكونوا قد تسلموا مرتباتهم منذ عدة شهور •

وقد نشأت حينئذ معارضة وطنية حقيقية طالبت بطرد الأجانب والغاء الرقابة الأوروبية التى ترتب عليها دفع مرتبات ضخمة للوزيرين الأجنبيين ولمساعديهما ، فى الوقت الذى يجرى فيه تسريح الموظفين الوطنيين وطردهم من أعمالهم بالجملة • كما أن الضباط المصريين الذين رقوا من تحت السلاح - بسبب النقص الذى ترتب على الاستغناء عن الضباط الأصليين - أعربوا عن استيائهم للمحاباة التى يعامل بها الضباط الأجانب والشراكسة والأتراك وغيرهم من الجنسيات (وقد كان بينهم أمريكى) •

وكان الضباط المتذمرون يسيطرون على الجيش ويتمتعون بتأييد جماهير الشعب ، وقد اضطر الخديو - تحت ضغطهم - الى عزل رئيس الوزراء وهو أرمنى ،

ووزير الحربية وهو تركي ، وتشكيل حكومة مصرية خالصة دعت الى عقد جمعية وطنية ، وشرعت في تمصير أوجه الحياة في المجتمع • ولكن من سوء حظ هذا الحزب الوطني أنه لم يجد له زعيما غير ضابط ورع يدعى عرابى كان يتصف بالشجاعة أكثر مما يتصف بالحنكة السياسية •

التدخل :

وصلت الى الدوائر الاوروبية أنبـاء تشير الى أن اسـماعيل يتواطأ مع الضباط المتمردين العسكريين ، وأنه يؤيد سرا مطالب بلاده ، وحينئذ عملت على خلعه من العرش واحلال ابنه توفيق مكانه • وحاول توفيق القبض على عرابى وأصدقائه ، ولكن الجنود الذين كلفوا باعتقاله خلصوه وهو في قاعة المجـلس العسكرى الذى اجتمع لمحاكمته •

ولم يكن ثمة مناص من الالتجاء الى وسائل حاسمة لحل هذه المشكلة • وقد حدث في الاسـكندرية يوم ١١ يونيه سـنة ١٨٨٢ شـغب انتهى بمذبحة راح ضحيتها عدد من الاوروبيين • وأخذت الدول الكبرى تتشاور في الامر ، ولـكن بريطانيا بادرت الى التدخل ، ففى الحادى عشر من يوليه ظهر أسطول انجليزى أمام الاسكندرية وأطلق عليهـا قنابله • وفى ٢٠ أغسطس ظهرت قوة عسـكرية بريطانية بقيادة « ولسلى » في بور سعيد ، وتقدم الجيش البريطاني نحو التـل الكبير حيث سـحق الجيش المصرى • وفى الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ـ وهو تاريخ يجب تذكره جيدا لأن آثاره ظلت قائمة مدى أربعة وسبعين عاما ـ دخلت القوات البريطانية القاهرة •

كان ديلسبس قد طلب من قادة القـوات المصرية ـ قبـل نزول الجيش البريطاني في بور سعيد ـ احترام حياد قناة السويس ، وقد وافق عرابى على هذا الطلب بشرط أن يحترم « ولسلى » أيضا حيادها ، ولكن الجنرال الانجليزى رفض ذلك وأنزل قواته في بور سعيد • والواقع أن « ولسلى » لم يكن يهمه حياد القناة

فى شىء ، فقد كان يريد الاستيلاء عليها بالذات • بل انه بادر الى منع الملاحة فى القناة ، ويبدو أن اغلاقها كان فكرة راسخة فى لندن • ولكن احتجاجات ديلسبس كان لها بعض الصدى فى العالم ، وأدركت لندن أن هذه الفكرة لن تجد من يؤيدها ، وأصدرت أوامرها الى « ولسلى » باعادة فتحها للملاحة ، ولم يستمر اغلاقها غير أربعة أيام •

ولم تتحمس فرنسا لفكرة القيام بعمل عسكرى مضاد لبريطانيا فى مصر ، ورفضت الجمعية الفرنسية بالاجماع ــ باستثناء ٧٦ صوتا ــ مشروع قرار باعتماد الأموال اللازمة لارسال حملة عسكرية الى مصر • ولكن التدخل الذى قامت به بريطانيا من جانب واحد فى مصر أثار فى فرنسا رد فعل سيئا وأدى الى تسميم العلاقات الفرنسية الانجليزية مدى اثنتين وعشرين عاما الى أن عقدتا الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ .

الشركة فى خطر :

تأزم الموقف أمام شركة قناة السويس وأمام ديلسبس نفسه فى موقف حرج فقد أصبحا واقعين تحت سيطرة دولة أجنبية تستطيع أن تعتمد فى فرنسا نفسها على نفوذ جماعة من رجال المال لتبسط سلطانها على عدد من الوزراء الفرنسيين ، وجانب من أعضاء البرلمان الفرنسى ، لا يرفضون لها طلبا • لقد مضى العهد الذى كان فيه ديلسبس يحكم مصر عن طريق الخديو ، أما اليوم فان شركة القناة أصبحت مهددة حتى فى فرنسا ذاتها !

وقد تحققت مخاوف ديلسبس بأسرع مما تصوره ، فلم تكد الطلائع البريطانية تحتل منطقة قناة السويس حتى بدأت لندن تمارس ضغطا قويا على الشركة ، فطالبتها بأن يضم مجلس ادارتها عددا من البريطانيين يتناسب مع حصتها فى رأس مالها ، وهددت فى الوقت نفسه بأنها ستطلب من الخديو ــ الذى أصبح أسيرها فعلا ــ أن يعطيها امتياز حفر قناة بحرية أخرى اذا لم تذعن لهذا الطلب •

وأدرك ديلسبس أنه يجب عليه أن يذعن فهو لم يعد يستطيع أن يعتمد على تأييد نابليون الثالث كما كان يفعل فيما مضى والجمهورية الثالثة التى تتولى الحكم فى فرنسا أصبحت نظاما يسيطر عليه المال • وفى امكان خصومه أن يعبئوا ضده الخزانة البريطانية التى كانت تعتبر فى ذلك العهد أغنى خزانة فى العالم • وهكذا بدأ مفاوضاته مع لندن ، وهى مفاوضات انتهت باتفاقية يمكن مقارنتها بموقعة « ترافلجار » التى هزم فيها الانجليز نابليون الأول ، وتم تعيين سبعة من أصحاب السفن والتجار البريطانيين أعضاء فى مجلس ادارة شركة القناة ، وألغيت رسوم ارشاد السفن فى القناة ، وخفضت رسوم الترانسيت ، كما أجرى تخفيض جديد على رسوم السفن التى تعبر القناة وهى خالية من البضائع ، وتعهدت الشركة بعدم المطالبة بنفقات تعويم السفن الجانحة فى القناة •

وهكذا انتصر البريطانيون الذين وجدوا أن مغامرتهم فى مصر تستحق ما بذل فيها من عناء ، وبدأوا يفرضون سيطرتهم على الشركة التى أصبحوا أهم عملائها ، وأصحاب معظم أسهمها • وأصبحت الشركة تعمل فى منطقة موضوعة تحت السيادة البريطانية فعلا •

وهذه الاتفاقية التى وقعت بين الشركة وبين الانجليز يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣ أطلق عليها بحق اسم « برنامج لندن » ومنذ ذلك اليوم حتى فترة طويلة من الزمن امتدت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت شركة قناة السويس تبدو للعالم فى صورة شركة مصرية ذات ادارة فرنسية وتمثل حلفا للمصالح الخاصة الفرنسية والبريطانية تشرف عليه السلطات العامة البريطانية اشرافا فعالا •

وقد ظل الفرنسيون على أى حال يتمتعون بمركز طيب فى الشركة ، وكانوا يقولون كلمتهم كلما أرادوها ، ولكن الكلمة الأخيرة كانت للانجليز طوال فترة الاحتلال البريطانى للقناة •

معاهدة القسطنطينية :

كانت قمة السلطة في الشركة تبدو في الظاهر دائما فرنسية ، كما كان رئيسها دائما فرنسيا ، كذلك كان الفرنسيون يشرفون دائما على شئونها التجارية وعلى ادارتها ، ولكن كل هذه المظاهر الرئاسية ظلت دائما خاضعة لما يسمى سيادة الدولة الاجنبية • وكانت الحكومة البريطانية تجد من مصلحتها اخفاء سيطرتها الحقيقية على القناة بستار فرنسى ، وترى أن ظهورها بمظهر المتحكمة في القناة قد يؤلب عليها باقى الدول ، ويجعلها فى حالة عزلة دولية • وكان عهد دزرائيلى قد انقضى وجاء الى الحكم رئيس وزراء أقل تعصبا فى آرائه هو جلادستون ، الذى كان مستعدا لمناقشة مسألة حياد القناة وعقد اتفاقية بهذا الشكأن مع باقى الدول الكبرى •

وكانت قناة السويس قد اكتسبت فى ذلك الوقت أهمية كبيرة بسبب نمو التبادل التجارى فى العالم فى نهاية القرن التاسع عشر وما صحبه من نهضة صناعية ضخمة ، ولهذا وجدت الدول الكبرى أنه من الضرورى ايجاد ضمانات عامة وفعالة لتحقيق حرية الملاحة فى هذا الطريق المائى الدولى وأصبح كل ما يهم بريطانيا ـ بعد أن اطمأنت الى فائدة هذا الطريق فيما يتعلق بتجارتها مع الهند ـ ألا تقع القناة فى أيدى دولة معادية •

وفى الحادى والعشرين من أكتوبر ١٨٨٨ عقدت « معاهدة القسطنطينية » وقد وقعتها بريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا واسبانيا وايطاليا وهولندا ، وهى الدول الاوروبية الكبرى فى ذلك الوقت • وكانت هذه المعاهدة التى تعتبر وثيقة رسمية بحياد القناة تنص على أن تظل القناة مفتوحة للسفن التجارية فى وقت الحرب ووقت السلم ، من غير أى تمييز ، كما نصت على ضرورة المحافظة على سلامة القناة ، وعلى أنه اذا تعرضت لأى خطر فان الحكومة المصرية

تتكفل بالمحافظة عليها بناء على نصوص معاهدة القسطنطينية التى جاء بالفقرة الرابعة عشرة منها أن التعهدات والارتبـاطات المتعلقة بالمعاهدة ليست محددة بمدة امتياز شركة قناة السويس ٠

وقد ترتب على حياد القناة ـ الذى نصت عليه معـاهدة القسطنطينية ـ نتيجة سياسة مباشرة هى قطع آخر علاقة سـيادة تربط الخديو بشركة قنـاة السويس ، بعد أن أصبحت القناة خارج نفوذ مصر من جهة الأمر الواقع وصارت لها صبغة دولية ، وبعد أنقررت الدول الكبرى حينئذ أنه لم يعد لمصر أية سيطرة حقيقية على الطريق المائى الذى يمر فى أراضيها ٠

ومن الطريف أن الخديو الذى كان يستطيع قبل عقـد هذه المعاهدة منح امتياز جديد بحفر قناة أخرىتنافسها ، أصبح مسئولا ـ بعد عقدها ـ عن الدفاع عن قناة السويس التى لم يعد له حق السيطرة عليها ٠

ومنذ ذلك الوقت حتى عهد عبد الناصر أصبح تاريخ قناة السويس وتاريخ مصر يسيران فى خطين متوازيين ، أى أنهما لم يلتقيا قط ٠ والمرة الوحيدة التى تذكرت فيها الدول الحكومة المصرية كان عام ١٩١٤ حينما أريد ارغامها على قبول مد امتياز الشركة فترة أخرى من الزمن ٠

تحسين القناة :

دأب المسئولون فى شركة قناة السويس على تحسين القناة منذ انشائها ٠ وذلك بتوسيعها وتعميقها ، ومسايرة تطورات النقل البحرى ولا سيمـا بعد أن كبرت أحجام السفن وازدادت سرعتها ٠

وفى سنة ١٨٧٠ كانت السفن التى يبلغ غاطسها ٥ر٧ متر تستطيع عبور القناة ، ومع عمليات تعميق القناة المستمر تطور عمق هذا الغاطس فأصبح ٨ أمتار ثم ٢٣ر٨ متر و ٥٣ر٨ متر وأصبح ٨٤ر٨ متر عام ١٩١٤ ، وبعـد الحرب

العالمية الاولى كانت السفن التى يبلغ عمق غاطسها ٩٫٤٥ متر تستطيع عبور القناة ، ثم أصبح هذا الرقم ١٠٫٠٦ عام ١٩٣٠ و ١٠٫٣٦ عام ١٩٣٦ وكان عمق القناة ذاتها حينئذ ١١٫٧٠ مترا واتساعها عند القاع ٦٠ مترا واتساعها عند السطح ١٢٠ مترا .

وكل عمليات التعميق هذه كانت تنفذ طبقا « لبرامج » تهدف الى مسايرة ـ وأحيانا الى سبق ـ التطورات الفنية للملاحة البحرية واحتياجات أصحاب السفن من عملاء القناة . وقد اقتضت هذه العمليات ازالة ما يبلغ حجمه ١٥٣ مليونا و ٣٠٠ ألف متر مكعب من الرمال من القناة ، أى نحو ضعف حجم الرمال التى أزيلت منها حتى اتمام انشائها عام ١٨٦٩ ، وبلغت نفقات عمليات التطهير هذه ٩٥١ مليون فرنك مع أن حفر القناة ذاتها لم يتكلف غير ٤٣٧ مليونا و ١٥٧ ألف فرنك فقط .

ولم تحدث خسائر كبيرة لقناة السويس فى خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولكن هذه الخسائر لحقت بالشركة بسبب نقص حركة الملاحة فى القناة . اذ لم تعد تمر فيها غير سفن الحلفاء التجارية والحربية .

مشكلات ما بعد الحرب :

ولكن عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الشركة تواجه مشكلتين خطيرتين قلبتا التوازن الذى كانت تنعم به من قبل ، وأدتا فى النهاية الى تأميم القناة . أما المشكلة الاولى فهى ازدياد مرور ناقلات البترول فى القناة زيادة ضخمة ، فبعد أن كانت جملة حمولة السفن التى تعبر القناة قبل الحرب لا تجاوز خمسة ملايين طن فى العام أصبحت ٣٧ مليون طن عام ١٩٥٥ وهو آخر عام سبق التأميم ، وقد مرت من هذه الكمية الاخيرة ٢٠ مليون طن من شمال القناة الى جنوبها فى حين مر ٨٧ مليون من الجنوب الى الشمال منها ٦٧ مليون طن من

البترول • وأما المشكلة الثانية فهى انتشار حركة التأميم فى دول الشرق الاوسط ـ وبخاصة فى مصر ـ وقد تطورت هذه المشكلة تطورا أدى فى النهاية الى الانفجار .

وازدياد حركة مرور ناقلات البترول فى القناة يرجع الى أن رسوم نقل الطن من البترول تقل كلما ازداد حجم ناقلة البترول ، مما حدا بشركات الملاحة الى بناء ناقلات ضخمة للاستفادة من هذه الميزة • ونظرا لازدياد استهلاك البترول فى العالم زيادة ضخمة ، ولأن جزءا كبيرا من هذا البترول يأتى من الخليج العربى ويذهب الى أسواق أوروبا الغربية عن طريق قناة السويس ، فقد وجدت شركة القناة نفسها مضطرة الى القيام بعمليات مستمرة لتوسيع مجرى القناة لكى يتسع لمرور ناقلات البترول الضخمة ، ولكن سرعة مرور السفن فى القناة ظلت محدودة لاسباب تتعلق بتأمين سلامتها فى العبور ، وقد وضعت الشركة نظاما جديدا لعبور السفن على هيئة قوافل ، بدلا من مرور كل سفينة على حدة . وكانت السفينة التى تعبر القناة فيما مضى ترسو على الضفة حتى تمر سفينة أخرى تكون قادمة فى الطريق المضاد ، ولكن نظام القوافل جعل من المستطاع عبور قافلة بأكملها فى الوقت الذى ترسو فيه قافلة أخرى مقابلة الى الضفة ريثما تمر القافلة الأولى ، وقد ساهم هذا النظام فى تحقيق سرعة مرور السفن بالقناة وفى توفير الوقت والجهد •

وقد أدخل على هذا النظام تحسين جديد بانشاء قناة جانبية يبلغ طولها عشرة كيلو مترات فى اتساع القناة الاصلية وتحول القافلة الصاعدة الى القناة الجانبية فى حين تستمر القافلة الهابطة فى سيرها فى القناة الاصلية ، وهكذا تستطيع القافلتان أن تواصلا السير من غير أن تضطر احداهما الى الرسو على الضفة فترة من الوقت حتى تمر القافلة الاخرى •

والمشكلة الخطيرة حقا التى واجهتها شركة قناة السويس هى ازدياد مطالب العناصر الوطنية فى البلاد باستمرار ، وازدياد حركة التذمر الذى كانت تبديه هذه العناصر تجاهها • وتاريخ قناة السويس يعطى لكل حركة من هذه الحركات

مبررا معقولا • ففى البداية انتزع من الخديو حق التصويت فى اجتماعات الجمعية العامة للشركة ، وبعد ذلك حرم من حصته فى القنــاة ، وفى ســنة ١٨٧٥ باع ـ والسكين فوق عنقه ـ نصيبه فى أسهم القناة وهى تبلغ ٤٤ فى المائة من المجموع بسعر حدده المشترون الاجانب • ولم يبق له بعد ذلك غير حصة التأسيس التى يؤول الى مصر بموجبها ما نسبته ١٥ فى المائة من جملة أرباح الشركة • وفىمارس عام ١٨٨٠ أرغم الخديو على بيع هذه الحصة الى شركة الائتمان العقارى الفرنسى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك ذهب ، وهذه الشركة هى ذاتها التىقامت بالدور الرئيسى فى بيع أسهم الخديو لبريطانيا وفى تنظيم لجنة الرقابة الفرنسية الانجليزية التى شكلت لاصلاح مالية مصر لضمان استرداد أموال الدائنين الاجانب . وهذه الحصة التى بيعت ، كما ذكر من قبل بمبلغ ٢٢ مليون فرنك، حققت لمن اشتروها أرباحا خيالية فى الفترة من عام ١٨٨١ الى عام ١٩٢٧ قدرها ٧٣٤ مليونا و ٨١٤ر٧٠٤ ألف فرنك ذهب • كما حققت فى الفترة من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٥٣ أرباحا أخرى قدرها عشرة مليارات و ٩٠٩ ملايين و ٨٣٢ر٦٢٠ فرنكا عملة ورقية أىأن هذه الحصة ذاتها حققت من الارباح مبلغا أكبر عدة مرات من نفقات حفر قناة السويس بما فى ذلك عمليات تعميقها وتوسيعها • ولما كانت هذه الارقام الخيالية لا تمثل غير ١٥ فى المائة من الارباح التى وزعت بصفة رسمية ، فان هذا يعطينا فكرة عن منجم الذهب الذى يتمثل فى أرباح شركة قناة السويس خلال حياتهــا التى استمرت زهاء تسعين عاما كما يعطينا فكرة عن رأس المــال الضــخم من الكراهية والضغينة الذى تجمع لدى الوطنيين المصريين ضد شركة تستغل قطعة من بلادهم لمصلحة الاجانب وحدهم •

وحرمان مصر الكامل من أرباح قناة السويس استمر لفترة طويلة من الزمن حتى عام ١٩٣٦ . وفى ذلك العام أرادت بريطانيا أن تقاوم الدعاية الموجهة ضدها من ألمانيا وايطاليا بشأن سياستهــا فى الشرق الاوســط وأن تهدىء من ثائرة المصريين ، فوقعت مع مصر معاهدة اعترفت فيها باستقلال مصر اســتقلالا تاما بشرط بقاء القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس • ووقعت شركة قنـــاة

السويس اتفاقية مع الحكومة المصرية تعهدت فيها بأن تدفع لهـا كل سنة مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه مصرى ثم عقدت عام ١٩٤٩ اتفاقية أخرى معها أعادت بها اليهـا حقها كشريك فى الشركة وتعهدت بأن تدفع لها سبعة فى المائة من الارباح الصافية للشركة فى كل عام ، وقد دفعت عام ١٩٤٩ للحـكومة المصرية أربعـة ملايين و ٧٥٦١٢٨ ألف جنيه • ولكن أهم نتيجة تمخضت عنها هذه الاتفاقية ليست فى دفع هذا المبلغ ــ الذى يعتبر ضئيلا بالنسبة الى جملة الارباح ــ وانما فى اتاحة الفرصة للمصريين لدخول مجلس ادارة الشركة (وكان هذا المجلس يضم خمسة مديرين مصريين حينما تقرر تأميمهـا) فكانوا بحكم مراكزهم يطلعون على كل تفاصيل الادارة فى الشركة •

غير أنه ينبغى القـول بأن مصر جنت بعض المزايا من الشركة ، فقد كانت هذه تدفع للحكومة ضرائب ، وهى وان تكن غير مرتفعة ــ اذ أنها كانت تمثل اثنين فى المائة فقط من جملة ايرادات الميزانية ــ فلا يمكن اغفالهـا • وعلاوة على ذلك فان الاتفاقيات الجديدة التى عقدت بين مصر وبين الشركة أدت الى عملية « تمصير » مستمرة فى وظائف الشركة • وقد أتاح ذلك الفرصة فيما بعد لحكومة عبد الناصر لأن يكون لديها نواة من الموظفين المصريين المدربين الذين كانوا على استعداد لكى يحلوا فى العمل محل الموظفين الأوروبيين • ومما يذكر فى هـذا الشأن أنه كان يعمل فى الشركة قبيل التأميم ٧٤٠ مصريا بين موظفين واداريين ومرشدين ،ونحو ٤٠٠٠ من العمال ورؤساء العمال المصريين ، وقدر أن أربعة آلاف أسرة مصرية ــ بأقل تقدير ــ كانت تكسب قوتها من الشركة •

وعقب الحرب العالميـة الثانية عقـدت اتفاقية يوم ٧ مارس سـنة ١٩٤٩ عززت حركة تمصير الوظائف فى الشركة ونصت على أن يكون للمصريين الاولوية فى التعيين فى وظائفها الخالية •

وفضلا عن ذلك فان الشركة عقدت اتفاقيات كثيرة مع مؤسسـات مصرية لتنفيذ بعض الاعمال فى النطاق المحلى ، كما أن حركة الملاحة البحرية فى القنـاة

أدت الى تنفيذ مشروعات تجارية كثيرة تعتمد على هذا النشاط، مثل شركات ايداع البضائع ، وشركات اصلاح السفن ، وشركات ربط السفن ، وغير ذلك ٠ وقد كان هناك في منطقة قناة السويس ـ قبل عام ١٩٥٦ ـ أكثر من ٦٠٠٠ مؤسسة تجارية وأكثر من ٢٨٠٠ مؤسسة صناعية ، وأدى هذا النشاط التجارى الى ازدهار الاقتصاد المحلى ازدهارا ملحوظا ٠

ولكن كل هذه العناصر العامة لم تمنع المصريين من التذمر بسبب ضآلة نصيبهم في أرباح شركة القناة وشعورهم بأنهم لا يجنون منها القدر الذى يستحقونه ٠

سيدة عجوز واسعة الثراء :

لقد كسبت شركة قناة السويس أموالا طائلة عوضتها بسخاء عن الجهود التى بذلتها ، وقد انتهى بها الامر الى أن أصبحت سيدة عجوزا واسعة الثراء ، وأصبح المساهمون فيها من المحظوظين السعداء ٠ وأصبحت المشكلة بعد ذلك هى البقاء والاستمرار ، اذ أن عقد امتياز القناة ينتهى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ، وجميع الدلائل تشير الى أنه لن يجدد ٠ وقد حاولت الشركة عام ١٩١٤ أن تمد أجل العقد الى ما بعد عام ٢٠٠٠ ، ولكن محاولاتها اصطدمت بمعارضة اجماعية من جانب المصريين وبعض أصدقائهم الاجانب ٠

فماذا كان حال الشركة العالمية لقناة السويس البحرية عشية التأميم ؟ لقد كانت تنعم بالرخاء والازدهار الى أقصى الحدود ٠ ففى الميزانية السنوية التى نشرتها الشركة نفسها عام ١٩٥٥ بلغت قيمة الموجودات المنقولة والعقارية أكثر من ٢٢ مليار فرنك (قديم) وبلغت جملة الموجودات (الأصول) والاستثمارات المتداولة ٣٩ مليار فرنك (قديم) ٠ ومن هذا المبلغ كان مودعا فى البنوك ٣٨٠٠ مليون فرنك ، و ١٩ مليار فرنك قيمة استثمارات قصيرة الأجل خصص جزء منها لدفع الأرباح القابلة للتوزيع ، وأكثر من ١٦ مليار فرنك قيمة استثمارات طويلة الأجل ٠

ولم تكن شركة قناة السويس أشبه بشخص غنى فقط ، ولكنه غنى ويكسب مليونا و ٧٠١ ألف فرنك قديم ، بزيادة قدرها ملياران من الفرنكات على ايرادات العام السابق . أما المصروفات فلم تزد على ١٨ مليارا و ٣٠٤ ملايين و ٥٤٤٦ر٥٤ فرنكا وكان هذا المبلغ يشمل أيضا متأخرات ضرائب عن سنوات سابقة تمثل مبلغا كبيرا من المال ، كانت الحكومة المصرية قد طالبت الشركة بها .

وقد بلغت قيمة الأرباح الصافية ـ التى أعلنتها الشركة نفسها فى ذلك العام ـ ١٦ مليار فرنك قديم ، خصمت منها الشركة ثلاثة مليارات فرنك للأعمال الجديدة ، ومليارا ونصف مليار فرنك لمؤسسات التأمين والمصروفات الطارئة و ٥٠٠ مليون فرنك للاستثمارات واستهلاك المهمات . وبعد كل هذه الخصومات يتبقى من الارباح مبلغ عشرة مليارات و ٨٠٠ مليون فرنك قرر مجلس ادارة الشركة أن يوزع منها على المساهمين مبلغ عشرة مليارات و ٣٥٢ر٢٢٥ر٧٠٤ فرنكا ، وهذا يعنى أن المبلغ الذى سيوزع على أصحاب الاسهم يوازى نحو ثلث ايرادات الشركة . ولا شك أن هناك عددا قليلا من الشركات فى العالم يستطيع أن يفعل ذلك ، وأن يحقق مثل هذا الرخاء والازدهار .

ولكن أصحاب ناقلات البترول كانوا يعضون على نواجذهم غضبا وحسدا بسبب هذه الارباح الطائلة التى تجنيها الشركة والتى يعود جزء كبير منها الى الرسوم التى تفرضها على مرور الناقلات فى القناة ، وكانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة « بقرة حلوب » تدر للشركة اللبن الوفير . ومع ذلك فان العداء الذى كان يضمره أصحاب ناقلات البترول لا يمكن مقارنته بالعداء المرير الذى كان يضمره الوطنيون المصريون الذين ظلوا مدى ثمانين عاما يعانون الغبن ، ويشعرون بأنهم يعاملون كأنهم قاصرون ، وأن خيرات بلادهم تستغل لمصلحة المستعمرين .

واذا كان تاريخ قناة السويس فى خلال هذه الفترة يزخر بالهناء والثراء والنعيم ، فان تاريخ مصر فى خلال هذه المدة نفسها كان يسير فى طريق التعاسة والعبودية .

الفصل الثالث

رحلة فى طريق نهاية العبودية

اقتضى الامر من الانجليز عشر سنوات لاقرار النظام فى مصر ، سـواء فى الشارع أو فى الشئون المالية • وبعد أن انتهوا من اقراره ، ظلوا فيها ستين عاما للمحافظة عليه •

وكانت السنوات الاولى للوجود البريطانى فى مصر نموذجا للتعمير • فقد أصلحت الشئون المالية ، وأنشئت ادارة قوية ، ووضعت الاسس اللازمة لتكوين جيش وطنى قيادته انجليزية ، وأقيمت المدارس ، ووجـه اهتمام خاص لاعمال الرى التى ساعدت على نشر القطن الطويل التيلة الذى كانت تستورده مصانع الغزل البريطانية فى لانكشاير مستعيضة به عن القطن الامريكى •

كان كل شىء يسير على ما يرام حتى لقد تخيل الانجليز أن مصر مستعمرة عاقلة فمنحوها جمعية تشريعية • وظلت مصر تابعة ــ من حيث المبدأ ــ لسلطان القسطنطينية ، ولكن نشـوب الحرب عام ١٩١٤ أدى الى قطع آخر علاقات مصر بالامبراطورية العثمانية بعـد انضمامهـا الى المعسـكر الالمانى ، وفرض الحماية البريطانية عليها آخر الامر •

وقد كان للحرب العالمية الاولى بالطبع رد فعل هام على الحياة فى مصر وعلى تطور شعوب الشرق الاوسط • وأدت من اتوجهـة الاقتصادية ـ كما فعلت فى جميع البـلاد المتأخرة ـ الى نمو الصناعات المحليـة وزيادة الطلب على المنتجات الزراعية وكذلك زيادة الطلب على العرض فى جميع فروع الانتاج الاخرى ، مما أدى الى ارتفاع الاسعار واثراء بعض الناس ثراء فاحشا فى حين تردى كثيرون غيرهم فى هوة الفقر •

ووجدت البورجوازية المصرية فى هذه الاموال الجديدة ـ التى تدفقت عليها ـ فرصة طيبـة لكى تدعم سياسيا قواها الاقتصادية • وكانت هذه الطبقـة قد استمعت فى نشوة الى الشعارات الجمهورية المتصاعدة من معسكرات الحلفاء والى نقاط الرئيس الامريكى ولســون الاربع عشرة ، كمـا قابلت بحماس وابتهاج التصريح الذى أصدرته الحكومتان الفرنسية والبريطانية فى شهر نوفمبر ١٩١٨ ووعدتا فيه بتحرير الشعوب التى كانت واقعة تحت نير الحكم التركى •

ولكن لندن كانت تدخر فتوى قانونية فى هذا الشأن • فقد كان من رأيها أن مصر قد تحررت من الحكم التركى قبل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بزمن طويل ، وأن هذا التحرر تم من وجهة الامر الواقع عـام ١٨٨٢ حينما نزل فيهـا الجنود البريطانيون وتم قانونا عام ١٩١٤ حينما بســطت بريطانيا حمايتهـا على مصر وأصبحت بذلك محمية بريطانية • وعلى هذا فان لندن لم يكن فى نيتها تحرير مصر مرة أخرى ، وكانت ترى أن التحرير الذى وعـدت به ينصب فقط على الشعوب التى تشملها الحماية البريطانية • وكانت المسألة ـ كما هو واضح ـ معركة ألفاظ وكلمات ، ومهما تكن نتيجة هذه المعركة فلم تكن هناك أية نية لتحرير أى شعب •

ولكن المصريين ، الذين عاشوا عدة قرون تحت السيطرة التركية صدقوا ، أو تظاهروا بتصديق الوعد الفرنسى البريطانى ، ورأوا أنه ينبغى طرق الحـديد وهو ساخن ، وأن يمسكوا بتلابيب بريطانيا بمجرد أن وعدتهم بالقمر ، فتوجه وفد مصرى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ـ أى بعديومين من عقدالهدنة ـ الى دار المعتمد

البريطاني في القاهرة برئاسة سعد زغلول الذي كان الانجليز قد عينوه فيما قبل وزيرا للمعارف وأثار مسألة الوعد البريطاني بتحرير الشعوب التي كانت ترزخ تحت الحكم التركي ، وطالب بمنح مصر الاستقلال • وأبلغ المعتمد البريطاني حكومته بمطالب الوفد، ولكن لندن كان لديها أفكار أخرى بشأن الشرق الاوسط، وكان من الواضح أنها لا تنوى في الوقت الذي اعتزمت فيه وضع يدها على معظم الممتلكات التركية التي آلت اليها في هذه المنطقة من العالم أن تمنح مصر استقلالا يمكن أن يبث عداوة الى بقية شعوب الشرق الاوسط التي ستضعها بريطانيا تحت حمايتها •

وعود متناقضة :

لقد تمخضت الحرب العالمية الاولى عن نتائج كثيرة، منها أن بريطانيا أصبحت دولة عربية ، وكذلك دولة يهودية !

أصبحت بريطانيا دولة عربية حينما وضعت يدها على معظم ممتلكات الامبراطورية العثمانية من البلاد العربية في الشرق الاوسط ، وكانت الاراضي التي استولت عليها في هذه المنطقة من الاتساع بحيث لم يكن أى رئيس وزراء بريطاني في أي وقت مضى يجرؤ على أن يحلم بالاستيلاء عليها •

ولكن بريطانيا لم تكن تستطيع أن ترسل قوات كافية للاستيلاء على هذه الاراضي لان معظم قواتها كانت مشغولة بالقتال في أوروبا • ولهذا أشركت السكان المحليين في الحرب معها ضد الاتراك ، وأثارت ما عرف باسم « ثورة الصحراء » ضد الحكم التركي ، ثم أغرقت العرب بالوعود الرنانة التي أدارت رؤوسهم • ولكن بماذا وعدت العرب ؟ لقد وعدتهم بتحريرهم من حكم الاتراك ، ووفت بهذا الوعد• ولكن استمرار بقائها في الاراضي العربية التي طردت منها الاتراك خلق مشكلة جديدة يمكن أن يطلق عليها اسم المشكلة الانجليزية العربية ، أضيفت الى المشكلة الانجليزية المصرية التي كانت قائمة حتى ذلك الوقت •

ولم تكن الوعود التى بذلتها بريطانيا للعرب هى الوعود الوحيــدة التى بذلتها فى الشرق الاوسط ، اذ أصدرت يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧ وعدا جديدا لليهود، هو وعد بلفور تعهدت فيه بأن « تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وأن تبذل كل جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية » •

واذا كانت بريطانيا قد حققت جزئيا بعض وعودها للعرب فمنحتهم استقلالا نظريا ـ وان ظلت تفرض عليهم وصايتها كاملة فيما عدا المملكة العربية السعودية ـ فان وعودها لليهود لم يتحقق منها أى شىء • والحق يقال أنها مع ذلك كانت تبدى كثيرا من التسامح الودى تجاه مسألة انشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وكان من الممكن لولا هذا التسامح ألا يقام لهم وطن قومى على الاطلاق • وبفضل الثقة التى كانت توليها بريطانيا لشخصية « بن جوريون » بصفة خاصة نشأ نوع من التعاون الودى بين لندن وبين المستعمرات اليهودية فى فلسطين وظل هــذا التعاون قائما فى خلال السنوات الصعبة التالية •

الهجرة اليهودية :

ولكن اليهود لم يكونوا فى انتظار وعد بلفور لكى « يعودوا » الى فلسطين ، هذا بصرف النظر عن اليهود الذين كانوا يقيمون فيها ولم يغادرها قط • وفى سنة ١٨٧٨ أنشئت أول مستعمرة اسرائيلية فى فلسطين وهى مستعمرة «بيطاش تكفاه» ، ولكن عدد اليهود فى فلسطين فى الفترة بين عامى ١٨٧٨ و ١٩١٧ لم يتجاوز اثنى عشر ألفا • وفى السنوات الاربع عشرة التاليــة ظلت هجرة اليهود الى فلسطين ضعيفة ، ولم تزد على عشرة آلاف شخص تقريبا فى السنة ، حتى أنه فى عام ١٩٣١ لم يكن عدد اليهود فى فلسطين يتجاوز ١٧٥ ألف شخص • وهؤلاء اليهود الذين كانوا يقيمون فى المستعمرات الاسرائيلية لم يكونوا منظمين تنظيما عسكريا ولم يكونوا يملكون غير أسلحتهم الشخصية للدفاع بها عن سلامتهم ، وكانوا يخفونها حتى لا يراها الناس • وكان بعض الجماعات اليهودية يدفع مبالغ من المال لبعض

زعماء العصابات العربية لكى يدافعوا عنهم • وكان المستوطنون اليهود فى فلسطين يتلقون أوامرهم من المنظمات اليهودية المقيمة فى بريطانيا ، كما كانوا يعتمدون عليها من الوجهة الاقتصادية الى حد كبير •

وشرح بن جوريون فى مذكراته مدى فضل بريطانيا فى توطين اليهود فى فلسطين ، وكان من بين ما رواه فى هذا الصدد أنه حينما كانت تمر بوايزمان ـ الذى حصل من الانجليز على وعد بلفور عام ١٩١٧ ـ لحظات صعبة يستولى فيها عليه اليأس ، كان بلفور يقول له : « تشجع يا دكتور وايزمان •• كن على ثقة من أنك ستحصل على الوطن القومى لليهود » •

وفى سنة ١٩٣٣ طرأ على الموقف عاملان جديدان أولهما أن هتلر أصبح مستشارا للرايخ الالمانى ، ويقال أن البنوك اليهودية الامريكية كان لها ضلع فى مساعدة حزب النازى فى تولى الحكم ، طبقا لما جاء فى مذكرات سيدنى واربرج أحد رجال البنوك الامريكيين • وأما العامل الآخر فهو أن المستوطنين اليهود فى فلسطين بدأوا يفرضون سيطرتهم على المنظمات اليهودية الانجليزية ، التى كانوا يعتمدون عليها ويتلقون منها الاوامر فيما مضى • وبدأت أفواج اليهود المضطهدين فى ألمانيا الشرقية تصل الى فلسطين ، وأصبح جليا أن الهدف المباشر لليهود هو انشاء دولة اسرائيل المتشردة • وبلغ عدد المهاجرين الجدد من اليهود الذين وصلوا عام ١٩٣٣ الى فلسطين ٣٠٣٢٧ شخصا ، وفى سنة ١٩٣٤ وصل ٤٢٥٣٩ مهاجرا جديدا ، وفى سنة ١٩٣٦ وصل منهم ٦١٨٥٤ شخصا ، أى أن عدد المهاجرين اليهود فى ثلاث سنوات بلغ نحو ١٣٥ ألف شخص • وأصبح عدد اليهود فى فلسطين حينئذ نحو ٤٠٤ آلاف شخص ، أى أنه قد تضاعف فى خلال الفترة من عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٣٦ •

وترتب على ازدياد عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين أن بدأ العرب يشعرون بالقلق • وفى شهر أبريل ١٩٣٦ وقعت أول اشتباكات مسلحة جدية بين العرب واليهود ، وأزعجت هذه الاشتباكات الحكومة البريطانية وبدأ حماسها يقل تجاه

القضية الصهيونية . وكانت الصداقة الانجليزية العربية قد نمت نموا كبيرا فى خلال السنين العشرين الاخيرة وأصبحت لندن توليها اهتماما ملحوظا ، ويرجع ذلك الى اكتشاف البترول فى البلاد العربية ، وهو عنصر جديد فى العلاقات العربية البريطانية لم يكن موجودا حين صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، ولكنه بدأ يلعب دورا هاما عام ١٩٣٦ وأخذ الدور يزداد أهمية باطراد .

وفى خلال الاعوام التالية أخذت الهجرة اليهودية الى فلسطين تتناقص ، فلم يصل من اليهود الى فلسطين عام ١٩٣٦ غير ٢٩٧٢٧ شخصا . وفى عام ١٩٣٧ وصل منهم ١٠٥٣٦ شخصا فقط ، ثم ١٦٤٠٥ عام ١٩٣٩ . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية لم يكن عدد اليهود فى فلسطين يتجاوز ٥٠٠ ألف شخص .

استقلال مصر :

وهكذا شهدت السنوات التى جاءت بين الحربين العالميتين حركة توطين نصف مليون يهودى فى فلسطين ، نجحوا فى أن يقيموا جنبا الى جنب مع العرب أصحاب البلاد فى ظل حماية الانتداب البريطانى .

وفى خلال هذه الفترة ذاتها عانت مصر آلاما طويلة بسبب القلق الذى كان يعانيه شعبها فى كفاحه من أجل الحرية .

والواقع أنه حينما قررت لندن أن ترفض مطالب سعد زغلول بشأن الاستقلال قررت فى الوقت نفسه أن تعتقله لانها كانت تراه مسئولا عن تحريض الجماهير المتذمرة . ولكن اعتقاله أحدث فى طول البلاد وعرضها اضطرابات تلقائية عنيفة وجارفة ، فاضطرت الحكومة الانجليزية الى التراجع بسرعة ، وأطلقت سراح سعد زغلول وسمحت لوفد مصرى بحضور مؤتمر باريس ، ولكن الوفد عاد الى مصر من غير أن يحصل على أية ترضية .

وفى خريف عام ١٩٢١ وقعت بمصر اضطرابات جديدة فأدركت لندن أنه يجب ايجاد حل سياسى للمشكلة المصرية ، وقررت أن تنشىء فى البلاد حكومة ملكية وطنية لها كل مظاهر السلطة وان كانت فى الواقع تفتقر الى أية سلطة فعلية ، وهذا هو الحل المثالى الذى تلجأ اليه بريطانيا دائما فى أوقات الازمات ، حتى أصبح طابعا تتسم به سياستها فيما وراء البحار • وكان كل ما يهمها هو أن يظل الملك صديقا مخلصا لها !

وقد اعترفت الحكومة البريطانية ـ نتيجة لذلك ـ اعترافا رسميا يوم ٢٢ من فبراير ١٩٢٢ باستقلال مصر وسيادتها ، ولكنها ضمنت هذا الاعتراف أربعة تحفظات هى : المواصلات الامبراطورية ، والدفاع عن مصر ضد أى تدخل خارجى مباشر أو غير مباشر ، وحماية الاجانب والاقليات ، وأخيرا وضع السودان تحت السيطرة التامة لبريطانيا •

لقد كان استقلالا مقيدا حقا ولا يختلف كثيرا عن الحماية السابقة ، ولكن بريطانيا على أى حال نطقت بكلمة « الاستقلال » وهذا لا يعنى شيئا قليلا •

وفى أول مارس ١٩٢٢ أصبح السلطان أحمد فؤاد ملكا باسم الملك فؤاد الاول • وفى شهر يناير ١٩٢٤ اجتمع البرلمان المنتخب وكانت تسيطر عليه غالبية وفديه • وأصبحت الحكومة المصرية تقوم منذ ذلك الوقت ـ ولمدة ثلاثين عاما تالية ـ على ثلاث دعامات هى : الملك ، والوفد ، والانجليز • وكان الانجليز يعتمدون ـ فى فرض سيطرتهم على البلاد ـ على « أصدقائهم » وهم الملك ومستشاروه ، ونخبة مختارة من الشخصيات المحافظة التى تقاوم اندفاع الوفد ورعونته • ومع ذلك فان بريطانيا كانت تشرك الوفد فى اللعبة بين حين وحين ، اذا ما أصبح من الضرورى أن تذعن للضغط الشعبى وتسايره •

ومع هذا ففى خلال الثلاثين عاما التالية لم يرحب المصريون قط بالوصاية الانجليزية التى فرضت عليهم ، باستثناء أقلية صغيرة كانت تميل صراحة

للانجليز ، وتضع نفسها فى خدمتهم • ولكن لم يحدث مطلقا فى خلال تلك الاعوام الثلاثين أن استطاعت أية قوى مصرية أن تنتهج ضد بريطانيا سياسة عنيفة وعدائية بالمعنى المفهوم ، وهكذا ظل الانجليز يفرضون نفوذهم على مصر من غير أن يعوقهم عائق ، اللهم الا بعض المشاحنات التى كانت تحدث بينهم وبين المصريين من وقت الى آخر ولم تؤد الى زحزحتهم عن البلاد •

وقد دفعت الحرب التى شنتها ايطاليا ضد الحبشة ، والتى تحدى بها موسولينى نفوذ بريطانيا العظمى فى أفريقيا ، الى بث روح الهياج فى المصريين مرة أخرى عام ١٩٣٥ ، وحدثت مظاهرات كبيرة ، فاضطرت بريطانيا تحت ضغط حزب الوفد ، الى عقد معاهدة جديدة مع مصر واحتفظت فيها بنفوذها السابع مقابل بعض التنازلات ، وجلت القوات البريطانية عن الاراضى المصرية باستثناء منطقة السويس ، وهكذا حصلت بريطانيا على اعتراف علنى من جانب حكومة القاهرة بشرعية وجودها فى مصر ، وتخلت بريطانيا عن حقها فى حماية الاجانب والاقليات، وحصلت الحكومة المصرية على حق الاشتراك فى جلسات مجلس ادارة القناة ، والحصول على نسبة من الارباح •

وسواء أصبح الاحتلال البريطانى لمصر صريحا أو مقيدا ، فقد ظلت الجماهير المصرية تنظر الى بريطانيا على اعتبار أنها « قوة محتلة » ولهذا فانه حينما نشبت الحرب العالمية الثانية اتجهت عواطف المصريين الى جانب أعداء بريطانيا أى الى جانب الالمان •

ولما توغل المارشال « روميل » فى شهرى يناير وفبراير من عام ١٩٤٢ فى الاراضى المصرية حتى وصل الى العلمين ـ على مسافة ثمانين كيلو مترا غربى الاسكندرية ـ اعتقد المصريون أن الجيوش الالمانية والايطالية « ستحررهم » من ربقة الانجليز •

وتحرج موقف الانجليز ، فقد كانوا يجتازون فترة عصيبة من تاريخهم • ووجدت القيادة العامة البريطانية أنها مهددة بقيام اضطرابات فى خطوطها الخلفية،

وخشيت أن يقترن الهجوم النهائي الذى يحتمل أن يقوم به « روميل » بنشاط يقوم به الطابور الخامس فى مصر ضد القوات البريطانية وأن ينقلب الجيش المصرى نفسه ضد الانجليز • ولهذا أرسل البريطانيون دباباتهم صباح يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ الى القصر الملكى وأرغموا الملك على تكليف النحاس باشا رئيس الوفد المصرى بتشكيل حكومة جديدة• وهذا الاجراء الذى اضطر البريطانيون الى اتخاذه بسبب موقفهم العسكرى الحرج كانت له نتائج بعيدة المدى ، فقد أدى الى الحط من شأن الملك ، كما أضر بنفوذ الوفد فى أعين الجماهير على أساس أنه قبل تولى الحكم بناء على طلب الانجليز •

سنوات ما بعد الحرب :

وأدت الحرب العالمية الثانية الى نتائج أكثر خطورة فيما يتعلق بالحياة العامة فى مصر • والواقع أن البلاد استفادت من الاموال الطائلة التى أنفقتها قوات الحلفاء فيها ، ومن ازدياد مبيعات القطن ، ثم من نمو الصناعات المحلية نتيجة لوقف استيراد السلع من أوروبا • ولكن أرباح الحرب لم يفد منها كما يحدث فى كل مكان آخر غير عدد محدود من الناس ، فى حين كانت الجماهير تقاسى من التضخم الذى ولدته اقتصاديات الحرب ، ومن ازدياد الفروق الاجتماعية بين الطبقات • وقد ارتفعت الاسعار ولكن الاجور والمرتبات لم ترتفع معها بالنسبة نفسها ، هذا فضلا عن أن الصناعات التى نشأت فى أثناء الحرب ولدت فى ظروف طارئة وبحكم الضرورة ، ولم تعمل حسابا للربح على المدى الطويل ، ولهذا فانه ما ان انتهت الحرب وعاد السلام حتى تعرضت للمنافسة الاجنبية ، وتوقف كثير من الصناعات الناشئة عن العمل وألقت بعمالها الى قارعة الطريق • وفى سنة ١٩٤٥ قدر عدد العاطلين أو انصاف العاطلين فى مصر بنحو ٣٠٠ ألف شخص معظمهم كانوا قد جاءوا من الريف الى المدن ، ولم يتلاءموا مع الحياة الحضرية بعد ، وأصبحوا فريسة للاملاق • وكان هؤلاء الجائعون بمثابة قوات الصاعقة للهياج السياسى الذى ساد مصر فى سنوات ما بعد الحرب •

هذا وقد اقترن انتهاء الحرب بيقظة النشاط الوطنى ، وكان الوفد قد عزل من الحكم لمصلحة الجماعات البورجوازية المحافظة التى تميل للانجليز ، ولم تكن تهتم بشىء قدر اهتمامها بمصالحها الخاصة • ولكن عودة هذه الجماعات الى الحكم اصطدمت بسرعة بالتيارات الشعبية الوطنية • وولى النقراشى الحكم ، ثم أعقبه اسماعيل صدقى الذى حاول مفاوضة لندن لعقد معاهدة للدفاع المشترك عرفت باسم « اتفاق صدقى ـ بيفن » ، ولكنه قوبل بمعارضة داخلية قوية فتنازل عن الحكم فى ديسمبر ١٩٤٦ لسلفه النقراشى الذى لم يحقق نتائج أفضل • وأثبت نظام الحكم فى مصر فشله ، وارتفعت صيحات التذمر ، ولم تلبث أن نشبت حرب فلسطين التى كان البعض يعتقد أنها فرصة سانحة لاعادة الوحدة الوطنية فى البلاد •

متاعب فى فلسطين :

على أن الحوادث فى فلسطين تطورت بسرعة ، وأطردت فيها هجرة اليهود الذين لم يكن يتجاوز عددهم عام ١٩٣٩ نصف مليون شخص ، وازداد طموحهم وقويت رغبتهم فى التوسع مما أثار حنق العرب عليهم • وترتب على استمرار هجرة اليهود مبادرتهم الى تنظيم وحدات للدفاع الذاتى ، وهذا يعنى خلق كيان مستقل لهم عن باقى السكان ، أى خلق دولة فى داخل الدولة • ومثل هذا الموقف كان من المحتم أن يؤدى باليهود ان عاجلا وان آجلا الى دخول صراع لاختيار قوتهم، فاما أن يصطدموا بسلطة قوية تحطم استقلالهم الذاتى السياسى الذى كانوا قد أنشأوه فعلا فى فلسطين ـ كما حطم « ريشليو » من قبل قوة البروتستانت الفرنسيين ـ واما أن يواجهوا سلطة ضعيفة ينتصرون عليها ، وحينئذ لن يقف أمامهم عائق يمنعهم من انشاء الدولة التى يحلمون بها • وتطور الامر الى وقوع حرب أهلية عنيفة كما يحدث دائما حين يعلن جانب من سكان أية دولة العصيان فى وجه السلطات الحاكمة •

ولكى تعالج الحكومة البريطانية ـ التى تقوم بمهمة الانتداب على فلسطين ـ هذا الموقف اقترحت حلا وافق عليه بن جوريون زعيم الاقاية اليهودية فى فلسطين والثابت على ولائه لبريطانيا ، كما وافق عليه الملك عبد الله ملك شرق الاردن الزعيم الحقيقى للغالبية العربية × ، بعد أن انسحب مفتى فلسطين من الميدان لأسباب غير مفهومة ، وعدل عن تولى مهام القيادة التى كان يضطلع بها حتى ذلك الوقت • واستهدف هذا الحل انشاء دولة يهودية عربية ، كان من المؤمل أن توقع بعد قليل معاهدة دفاعية مع حكومة لندن •

اقتراح سوفييتى :

ولكن طرأ حادث جديد قلب هذه الخطط رأسا على عقب • ففى يوم ١٤ مايو ١٩٤٧ طالب فجأة « أندريه جروميكو » مندوب الاتحاد السوفييتى فى الامم المتحدة بانهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين واعلان استقلال هذه البلاد ، وتقسيم أراضيها الى دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية •

وقد لعب هذا الاقتراح دورا استفزازيا ، سواء بالنسبة لبن جوريون أو بالنسبة للملك عبد الله ، لان كلا منهما لم يستطع أن يظهر بمظهر من يقل حماسه عن « جروميكو » فى مطالبته بانهاء الانتداب البريطانى على فلسطين • كما أن هذا الاقتراح بلور موقف اليهود وأوضح لهم أن حلمهم الخاص بانشاء دولة يهودية أصبح يلقى تأييدا ليس من العالم الغربى وحده وانما من الاتحاد السوفييتى كذلك •

غير أن العرب عارضوا فكرة انشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وارتفعت المزايدات فى هذا المجال • ولم يشأ أحد فى العالم العربى، أو لم يجرؤ ، على الوقوف فى وجه الرأى العام العربى ، ولا سيما فى الجامعة العربية التى خلقتها لندن وكانت حتى ذلك الوقت تفرض عليها نفوذها •

× هذا من وجهة نظر المؤلف ولكن للجماهير العربية رأيا آخر فيه •   (المراجع)

أما الامريكيون الذين كانوا ذوى نفوذ ضخم فى الوقت فى الامم المتحدة فقد كان موقفهم مائعا . وكانت وزارة الدفاع الامريكية وشركات البترول التى يهمها عدم اغضاب العرب ، لا تؤيد فكرة انشاء دولة اسرائيلية ، وسارت وزارة الخارجية الامريكية المنقسمة على نفسها فى هذا الصدد فى هذا الاتجاه أيضا . وكان الرئيس الامريكى « ترومان » هو الذى فرض وجهة نظره المؤيدة لليهود الفسطينيين والتى أدت الى موافقة الامم المتحدة يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بغالبية كبيرة على تقسيم فلسطين وانشاء دولة اسرائيلية . ولكن هذا المشروع اصطدم فى الاسابيع التالية بعقبات كثيرة ، وتعرضت الحكومة الامريكية التى اقترحت هذا المشروع لضغط شديد بقصد تعديله ، وطلب منها التقدم باقتراح آخر يفرض الوصاية مؤقتا على فلسطين .

وتعقد الموقف وازداد خطورة ، لان قرار الامم المتحدة أثار موجة من الاعمال الارهابية من جانب العرب فى فلسطين ، قابلها اليهود بموجة ارهابية أخرى من جانبهم ، وغرقت فلسطين فى بحر من الدم والنار .

وفى ذلك الوقت فقد زعماء الاقلية اليهودية كل قدرة على الاختبار ، وكان تأخير انشاء الدولة الاسرائيلية يعنى ضياع سيطرتهم على قواتهم ، كما ان انشاء هذه الدولة يتعارض مع الخطط الانجليزية ، ويؤدى بالتأكيد الى خوض حرب ضد كل قوى الجامعة العربية كما أبلغت بذلك مخابرات المستعمرات اليهودية زعماء الحركة . ولم يكن زعماء اليهود فى فلسطين يستطيعون خوض غمار هذه الحرب ما لم يضمنوا أولا حياد الولايات المتحدة . وقد ضمنوا هذا الحياد فى الايام الاولى من شهر مايو ١٩٤٨ ، ويرجع بعض الفضل فى ذلك الى تأييد الجنرال « مارشال » وزير الخارجية الامريكية فى ذلك الوقت .

وفى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ ــ وهو موعد انتهاء الانتداب البريطانى ــ أعلن انشاء دولة اسرائيل ، ووافق هذا مضى عام على اقتراحات « جروميكو » ، وفى اليوم التالى مباشرة نشبت حرب فلسطين كما كان متوقعا من قبل .

حرب فلسطين :

غداة القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين ، شن العرب حربا شعواء ضد اليهود ، وكانت هذه الحرب أشبه بحرب العصابات منها بالحرب بمفهومها المعروف ، وكان الغرض منها حمل الامم المتحدة على الرجوع عن قرارها ، وأرادوا أن يبرهنوا لها أنهم يسيطرون من الوجهة العسكرية على فلسطين • وقد اتخذ اليهود فى هذه الحرب موقف الدفاع ، وكانوا يوجهون للعرب ضربات متفرقة هنا وهناك من غير أن يكشفوا أوراقهم الحقيقية • وكانت قد قامت فى ذلك الوقت اتصالات سرية بتحريض الانجليز بين المسئولين فى شرق الاردن وبين زعماء اليهود ، الغرض منها أن يضمن الاولون لانفسهم السيطرة على الجزء الفلسطينى الذى سيظل عربيا • ولم تصدق الدول العربية الاخرى ـ التى كانت متأثرة بمزايدات الجامعة العربية ـ أن الملك عبد الله ملك شرق الاردن يمكن أن يعترف بوجود دولة يهودية فى قلب المجتمع العربى مقابل مغنم اقليمى محدود •

ولكن الملك عبد الله فضل أن يكون عمليا وواقعيا فيقبل ضم القدس وكل الأراضى المتبقية من فلسطين العربية الى بلاده . ومع ذلك كان ينبغى عليه أن يعمل حسابا للشعور العام فى الدول العربية ، وحسابا آخر للقلق الذى يخامر الدول العربية يدفعها الى عدم السماح له بمغنم هو فى نظره انتصار له على أى حال •

وكانت الامم المتحدة قد قررت انهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، وقدرت لندن أن انسحاب القوات البريطانية من فلسطين سيحول مشكلة فلسطين الى نزاع محلى ، وأن الجيوش العربية ستبادر الى اعادة المستوطنين اليهود الجشعين الى صوابهم بسرعة ، حتى أن الامر قد يتطلب من بريطانيا اعادة قواتها الى فلسطين لبواعث انسانية تهدف الى حماية اليهود من العرب •

وكان اليهود قد أصيبوا بخسائر جسيمة على أيدى العرب فى شتاء عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ • وكان شهر مارس ١٩٤٨ أسوأ الشهور التى مرت بهم ، ولكنهم فى شهر أبريل قاموا بهجوم شديد أجبر العرب على التفكير فى وسيلة فعالة لوقفهم عند حدهم ، فاجتمع فى عمان يوم ٢٤ أبريل مجلس عسكرى يضم ممثل الدول العربية وقرر أن تقوم جيوش الدول العربية بعمل مشترك فى فلسطين يوم ١٥ مايو ، وهو اليوم التالى لانتهاء الانتداب البريطانى •

وأحاطت خمسة جيوش عربية بفلسطين واستطاعت فى خلال أربعة أسابيع أن تسترد جزءا هاما من أراضيها هو تقريبا الجزء الذى أوصت الامم المتحدة بمنحه للعرب بموجب قرار التقسيم • ولكن الامم المتحدة أعلنت الهدنة لمدة ثلاثة أسابيع ـ من يوم ١١ يونيه الى يوم ٩ يولية ـ فاستطاع كل من الطرفين المتنازعين فى خلالها أن ينظم صفوفه وأن يعيد تسليح قواته ، الا أن هذه الهدنة أفادت الاسرائيليين كثيرا (الاسرائيليون هو الاسم الجديد الذى أطلقته اليهود فى فلسطين على أنفسهم منذ يوم ١٥ من مايو وهو تاريخ مولد اسرائيل) • ثم أعلنت هدنة أخرى يوم ١٨ يولية ، وقد تخللها أعمال حرب العصابات وعمليات انتقامية وجه الاسرائيليون معظمها الى الجبهة المصرية فى القطاع الجنوبى لفلسطين الذى كان الاسرائيليون يهتمون به بصفة خاصة • والغريب أنهم لم يهتموا كثيرا بالقطاع الاوسط الذى تقع فيه جبهة الجيش الاردنى ، وهذا الجيش الذى كان يسمى الفيلق العربى ويقوده الجنرال الانجليزى « جلوب » توقف عن التقدم بعد أن حقق الاهداف الحربية التى كان يريدها الملك عبد الله وهى الاستيلاء على القطاع الاوسط من فلسطين وعلى مدينة القدس القديمة • لقد أبدى الاسرائيليون فى صراحة عدم اهتمامهم بهذا القطاع وأخذوا يوجهون ضرباتهم الرئيسية الى القوات المصرية فى الجنوب • والواقع أنهم كانوا قد وضعوا نصب أعينهم الاستيلاء على النقب ، وهى فكرة دينية كانت تسيطر عليهم ، ومن يدرى فربما كانوا يفكرون أيضا فى هذا الوقت فى الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ، وربما فكروا أيضا فى الاتجاه نحو قناة السويس •

ولم يكن لدى الاسرائيليين غير خليط شاذ من الاسلحة تكاد تكفى لخوض المعارك التى اعتزموا القيام بها . ولم يكن خصمهم ـ الجيش المصرى فى ذلك العهد ـ مستعدا من الناحية المعنوية أو من الناحية المادية للدخول فى حرب عصرية جدية ، ولهذا هزم أمام القوات الاسرائيلية هزيمة منكرة ، وعاد الضباط المصريون الى بلادهم وفى قلوبهم حنق مرير ثابت ضد حكومتهم بل ضد نظام حكم الملك فاروق ذاته ، وكان من بين هؤلاء الضباط ضابط اسمه جمال عبد الناصر .

وجدير بالذكر أن الهدنة الاخيرة التى فرضتها الامم المتحدة لم تلق احتراما كما حدث لسابقاتها ، فاندفعت الجيوش الاسرائيلية نحو مصر لا تعوقها غير مقدرتها المحدودة على الحركة وليس مقاومة خصمها ، ولكنها حينما تجاوزت الحدود الجنوبية الغربية ـ التى عينتها الامم المتحدة فى قرار التقسيم ـ تدخلت الولايات المتحدة وبريطانيا ، فقدمت واشنطن الى الاسرائيليين فى نهاية شهر ديسمبر ١٩٤٨ انذارا طالبتهم فيه بالانسحاب من سيناء ، وفى السابع من ينـاير ١٩٤٩ تدخل السلاح الملكى البريطانى تدخلا مباشرا ضد اسرائيل . والواقع أنه فى ذلك الوقت لم يكن يفصل الاسرائيليين غير الوقت والرمال والحجارة عن قنـاة السويس ، أو بالاحرى منطقة القناة التى كان يحتلها البريطانيون .

وأذعنت اسرائيل ، وفى الرابع والعشرين من فبراير ١٩٤٩ وقعت الهدنة فى جزيرة رودس . وفى العشرين من مارس أعلن وقف اطلاق النار رسميا ، وظلت بذلك قناة السويس تحت سيطرة بريطانيا .

اضطراب الحالة فى مصر :

أثارت الهزيمـة المرارة فى صفوف الجيش فى مصر ، وبدأ النـاس يرددون قصصا عن الاختلاسات ، بينما راحت أصابعهم تشير بالاتهام الى كبار المسئولين فى الحكومة والى الديوان الملكى ذاته . ولقيت هذه القصص رواجا فى كل مـكان وصدقها الناس ، واستغلتها المعارضة اليسارية فى الحملة الانتخابية ، وانتشرت

روح التذمر بين المواطنين ، وجاءت انتخابات عام ١٩٥٠ بالوفد الى الحكم بسبب وقوفه موقف العداء تجاه الانجليز وفاروق معا • ولم يعد هناك محل للحديث عن مشروعات دفاعية مثل مشروع صدقى ـ بيفن ، فضلا عن أن الحكومة المصرية لم تكن مستعدة لمناقشة أية مسألة غير جلاء البريطانيين عن مصر جلاء تاما • ولكن بريطانيا رفضت الجلاء رفضا باتا •

وفى أثنـاء ذلك وقع حادث كان له تأثير عميق فى نفوس الجماهير المصرية وترتبت عليه نتائج بالغة ، هو اقدام الدكتور مصدق على تأميم شركات البترول فى ايران • وكان هذا الحـادث بماثة مثال يستطيع أن يحتذيه الوطنيـون فى كل مكان ، فقد انتشرت فى ايران حركة شـعبية قوية تطالب بتأميم صناعة البترول التى كان يسيطر عليها البريطانيون وأدت الى تولى مصدق الحكم يوم ٢٨ من أبريل ١٩٥١ ، ثم لم تمض ثلاثة أيام حتى أعلن مصدق تأميم صناعة البترول الايرانى • وكان ذلك فى أول مايو ١٩٥١ •

وقد تبين فى خلال الشهور التالية أن رد الفعل العنيف الذى أحدثته هذه الخطوة لدى الحكومة البريطانية لم يلق تأييدا كاملا من جانب حليفتهـا الولايات المتحدة ، وبدا كما لو كانت الحكومة الامريكية تنتهج حيال هذه المسألة سياسة تخالف السياسة البريطانية ، وأنها أقل استياء تجاه أمانى الايرانيين الوطنيين • على أن الحادث لم يمر مر الكرام ، سواء فى موسكو أو فى الشرق الاوسط ، وحظى باهتمام خاص فى القاهرة •

ورأى زعماء الوفد فى هـذا الحادث مخرجا لهم من مأزقهم السـياسى مع بريطانيا • فما داموا لم يستطيعوا اقناع الانجليز بمطالبهم، أو الاذعان هم أنفسهم لمطالب الانجليز ، فانهم يستطيعون الاعتمـاد على « اللعبة الامريكية » لمواجهـة الحكومة البريطانية • ولما رفض الوفد طلب الانجليز بتوقيع معاهدة دفاعية كان واثقا من تأييد الشعب له فى سياسته الجديدة • فقد عاد الى الحكم نتيجة لغضب الشعب على الحكومة السابقة التى منيت بالهزيمة فى فلسطين ، ووجد أنه يستطيع أن يواجه بريطانيا بمطالبه الخالدة بشأن الاستقلال •

وفى الثامن من أكتوبر ١٩٥١ قطعت حكومة الوفد المفاوضات مع الجانب البريطانى ، ورفضت الاقتراحات التى كانت حكومة العمال البريطانية قد قدمتها لها قبل أن تخلى مكانها لحكومة المحافظين ، وأعلنت فى الوقت نفسه الغاء المعاهدة الانجليزية المصرية التى عقدت عام ١٩٣٦ وكذلك اتفاقية عام ١٨٩٩ ، الخاصة بالسودان • وبعد خمسة أيام رفضت حكومة الوفد الاقتراحات التى قدمت اليها بالانضمام الى حلف مشترك للدفاع عن الشرق الاوسط ، وكانت هذه الاقتراحات مقدمة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتركيا • وبعد أيام قليلة بدأ المصريون يقومون بحرب عصابات ضد الانجليز فى منطقة قناة السويس ، وظلت هذه الحرب تتراوح بين مد وجزر فترة من الوقت •

ولم تتحسن الاحوال الداخلية فى البلاد ، لا سيما بعد أن أخذت جماعة « الاخوان المسلمون » اليمينية المتطرفة تمارس الارهاب ضد المنظمات اليسارية بصفة خاصة، وقد قيل ان هذه الجماعة كانت على علاقة بالملحق العسكرى البريطانى وأنه كان يوجهها سرا • وكان الوفد قد أقفل جميع الابواب المؤدية الى التفاهم مع بريطانيا ولم يعد أمامه غير أن يثبت أنه قادر على المحافظة على النظام فى الداخل ، ولكن الاحداث التى جرت بعد ذلك فى خلال الشهور الاربعة التى بدأت من يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ حتى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ــ وقد سمى « السبت الاسود » لان القاهرة أحرقت فيه ــ برهنت على أن الوفد عاجز عن السيطرة على موقف يتفجر بالثورة •

ومن الذى أحرق القاهرة ؟

لا أحد يدرى غير الذين اشتركوا فى عملية اشعال الحرائق أنفسهم • ويقال ان أنطونى ايدن صرح بأن المسئول عن هذا الحريق « خبير شيوعى فى اشعال الحرائق وعضو فى حركة السلام » وهذا التصريح يحمل على الاعتقاد بأن رئيس الحكومة البريطانية السابق يعرف من هو هذا الشخص ولكنه فضل الا يذكر اسمه • ولكن هل هذا الشخص هو وحده المسئول عن هذا الحادث الرهيب ؟

لا شك أن هناك أسبابا أخرى ساهمت في ذلك ، فمثلا يعتقد كثيرون أن القاهرة ما كانت ليسودها الاضطراب في ذلك اليوم وتعمها الفتنة لولا الهجوم الوحشى الذى قامت به وحدة بريطانية في منطقة قناة السويس ضد احدى وحدات الشرطة المصرية ، وما كانت هذه الفتنة لتبلغ هذا الحد من الخطورة لو أن الملك فاروق ورئيس هيئة أركان جيشه قد أمرا قوات الجيش بالتدخل قبل أن يحل الليل (ولكن ربما كانت لدى الملك أسباب تجعله يخشى المغامرة بارسال ألد أعدائه وهم رجال الجيش ، لقمع الفتنة) .

ان حرائق يوم « السبت الاسود » كان مبررا كافيا لاقالة حكومة الوفد ، وتشكيل حكومة جديدة وصفها ايدن في مذكراته بانها « توافق مزاجه » وان « لديها فرصة طيبة للبقاء ، لا سيما إذا حالف النجاح مفاوضاتنا لعقد معاهدة مع مصر » .

ولكن ايدن كان مخطئا . فهذه الحكومة لم تكن أمامها فرصة طيبة للبقاء في الحكم ، ولم تعش غير فترة قصيرة من الزمن . لقد كانت حكومة بلا مستقبل أمامها ، لانه لم يكن في استطاعتها أن تتخلى عن برنامج حكومة الوفد فيما يتعلق بالمطالبة بالاستقلال من غير أن تثير ضدها ثائرة الشعب والجيش ، في حين أن الحكومة الانجليزية لم تكن مستعدة للمفاوضة الا على أساس جوهر مقترحاتها السابقة وان كانت قد عدلتها حينما وافق ايدن على أن تجرى المحادثات طبقا للمشروع الامريكى الخاص بالدفاع عن الشرق الاوسط بدلا من المشروع البريطانى الاصلى .

ووصل الموقف بين بريطانيا ومصر ـ من الوجهة الدبلوماسية ـ حد الازمة التى يتعذر الخروج منها . وكان من الممكن أن يستمر الحال على هذا المنوال لو لم يزدد الموقف سوءا فيما يتعلق بالسياسية الداخلية والحالة الاقتصادية للبلاد .

نظام يحتضر :

أظهرت أحداث نهاية شهر يناير سـنة ١٩٥١ أنه يمكن أن تنبثق حركة شعبية فى أية لحظة من غير أن تستطيع الحكومة مواجهتها واخمادها ، لان الجيش والشرطة لم يكونا فى صفها وانما وقفا الى جانب الشعب المتمرد .

وهـذه الحـالة التى لم تسر لنـــدن بالطبـع آثارت ذعر الامريكيين الذين كانوا يخشون أن يستيقظوا ذات صباح فيجدوا فى القاهرة حكومة شيوعية . وقد أبلغت واشنطن حكومة لندن بأن « المعلومات التى لدينا تحملنا على الاعتقاد بأن كل يوم يمر من غير تحقيق تقدم حاسم ، فيما يتعلق بحل المســائل المعلقة بين بريطانيا ومصر ، ينطوى على خطر يهدد بقاء الحكومة المصرية الحالية » .

وحاولت حكومة نجيب الهلالى أن تظهر بمظهر الحكومة التى تتحلى بالنزاهة والشرف وأن تصرف أنظار الشعب عما يشعر به من آلام ومتاعب . وذلك بتوجيه الاتهامات الى زعماء الوفد وجرهم الى محاكمات سياسية كبرى ، ومحاولة اثبـات أن بعضهم أثرى ثراء غير مشروع . ولكن توجيه الاتهامات لم يكن مهمة صعبة ، ولم يكن مستشارو الملك أنفسهم طاهرى الذيل . وهكذا فان هذه الاتهامات كان يمكن أن تنقلب ضد الذين يدبرونها ، وكان يمكن أن يستخلص منها أنه اذا كان الفساد والرشوة قد عما الدوائر العليا فى البلاد فان السبب فى ذلك هو أن نظام الحكم ينتهج سياسة تناقض مصالح الوطن ولا يهتم بمقدرات الشعب .

واستقال الهلالى ، وخلفه فى الحكم رجل من بطانة الملك اسمه حسين سرى . ولكن الملك الذى كان يفتقر الى الخلق أكثر مما يفتقر الى الذكاء كان قد فقد السيطرة على الموقف ، وتحقق من أن نهايته قد اقتربت ، وأيقن أن الانجليز أعجز من أن يبسطوا عليه ـ وهو صنيعتهم ـ حمايتهم ، وان اعتقـاده فى مقدرة بريطانيـا على حمايته لم تكن غير وهم من الاوهام . ولم يكن فى استطاعته بعد أن أصبح يمثل

النفوذ والسيطرة البريطانية فى البلاد ، ان يقوم بدور البطولة الوطنية ، وأكبر خدمة كان يستطيع أن يقدمها لبلاده فى مثل هذه الظروف هى أن يختفى من على المسرح • ولكن ما خفى على فاروق كان أعظم ، فالواقع أن القوات البريطانية فى مصر كانت قد تلقت تعليمات بالا تقدم يد المساعدة له ، وان تترك صنيعتهم لمصيره المحتوم •

ولم يلبث أن أصبح الجو مهيأ لظهور «الضباط الاحرار» على مسرح الاحداث• ولكن لماذا تأخر ظهورهم أكثر مما ينبغى ؟ هل كانوا يشعرون بالخوف ؟ وهل كانوا يريدون أن يقوم بالانقلاب آشخاص غيرهم ؟

على أى حال فانه فى ٢٣ يوليــة سنة ١٩٥٢ قام الجيش ـ جيش الشعب ـ بالحركة التى طال انتظارها ، وهى تخليص الوطن من فاروق وحكمه •

الفصل الرابع

من الحياد الى عدم الانحياز

تولى الضباط الأحرار مقاليد الحكم ، ولم يبق أمامهم الا ان يحددوا سياستهم التي لم يكن قد اتضح منها بعد غير خليط من الاماني المتناقضة • وكان الاجماع الرائع الذي ساد الشعب في وقت من الأوقات لطرد فاروق الفاسد المتردد قد تبخر في شمس القاهرة الدافئة ، وأصبح مما لا مناص منه خلق أعداء جدد •

ووجهت حكومة الضباط الاحرار أولى ضرباتها الى الثروات التي اعتمد أصحابها في جمعها على ممالاة بريطانيا وتكريس أنفسهم لخدمتها ، والذين اعتمدت لندن بدورها عليهم في تثبيت دعائم استعمارها الداخلي في البلاد ، وهم كبار أصحاب ملاك الأراضي من منتجي القطن • وقامت في الوقت نفسه بحركة تهدف الى ضمان تأييد الفلاحين لها ، فوضعت مشروعا لاصلاح الاراضي الزراعية بسرعة، كما عملت على ادخال الطمأنينة في قلوب رجال الصناعة من أفراد الطبقة الوسطى •

والواقع أنه كانت هناك قصة غرامية بين الولايات المتحدة وحكومة الثورة استمرت ثلاث سنوات عقدت خلالها بينهما اتفاقيات ثقافية ومالية ، حتى أن دين اتشيسون وزير الخارجية الامريكية صرح علنا يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٥٢ بان الشعبين الامريكي والمصري بينهما « صداقة متينة » •

وقد ظلت هذه الصداقة المتينة تؤتى ثمارها فى جميع المجالات ، فيما عدا ميدانا واحدا هو الأسلحة ، اذ قبضت وشنطن يديها فلم ترسل لمصر أسلحة ، تمشيا مع اتفاق كانت قد عقدته مع بريطانيا وفرنسا يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٥٠ بشأن حظر ارسال الاسلحة الى دول الشرق الأوسط ٠

ثم أن الولايات المتحدة لم تشأ أن تمد المصريين بالاسلحة مالم يشتركوا أولا فى مشروعات الدفاع الغربية عن الشرق الاوسط التى كانت تشرف عليها حكومة وشنطن ٠ وكانت الولايات المتحدة تنتظر من مصر ـ بأقل تقدير ـ تعهدا صريحا يدل على أنها تشاطر الدول الغربية وجهات نظرها ، وذلك كخطوة أولى فى طريق الانضمام الى المشروعات الدفاعية لهذه الدول فى المستقبل ٠

وأوضحت حكومة وشنطن وجهة نظرها فى هذا الشأن لقائد الجناح على صبرى فى خلال زيارته للولايات المتحدة فى نهاية عام ١٩٥٢ ٠ وأعلنت حكومة القاهرة يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ ـ تمشيا مع رغبة الحكومة الامريكية ـ استعدادها للتعاون مع الدول الغربية ، فى مذكرة أصدرتها فى هذا الشأن ، واطمأنت الولايات المتحدة ، التى كانت غارقة حتى أذنيها فى الحرب الكورية الى أن مصر ستقاوم أى عدوان سوفييتى محتمل ٠

ومقابل هذه النوايا الحسنة التى أبداها زعماء حكومة الثورة ، لم تتردد الحكومة الامريكية فى منحهم تأييدها ، وكان لهذا التأييد فوائد عظيمة فى مناسبات كثيرة ٠

ولم يكن نشر المذكرة المشار اليها مجرد مصادفة ، فقد تعمدت الحكومة المصرية نشرها قبل زيارة أنطونى ايدن ـ وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت ـ للولايات المتحدة بثلاثة أسابيع ، وكانت هذه المذكرة بمثابة « الورقة المصرية » فى هذه اللعبة الغربية التى يشترك فيها ثلاثة أطراف هى : مصر والولايات المتحدة ، وبريطانيا ٠

الأطراف الثلاثة :

كانت السمة البارزة فى هذه اللعبة أن الخاسر فيها معروف حتى قبل أن يبدأ اللاعبون اللعب ، وكان الخاسر هو بريطانيا العظمى . فقد كانت مصر تطلب كل شيء ، ولا تعطى شيئا . وأخذت الولايات المتحدة تعمل على التخفيف من حدة مطالب المصريين وتضغط فى الوقت نفسه على الانجليز على أمل التوفيق بينهما وتمكينهما من الوصول الى عقد اتفاق بين بلديهما . ولكن مجرد اشتراك بريطانيا فى هذه اللعبة كان يعنى أنها سترغم على التساهل والتنازل عن بعض الامتيازات .

ومنطق الاستعمار البريطانى لم يكن يستسيغ هذه اللعبة الثلاثية ، فقد تعود أن يجرى مفاوضات ثنائية لا يدخلها طرف ثالث كوسيط ، وكان قبوله وجود الطرف الامريكى فى مفاوضاته مع مصر يعنى فتح الباب أمام عدد لا يحصى له من المشكلات ، وأمام مقترحات فرعية تفسد الأسس التى تبنى عليها المفاوضات (مثل الوعد بعقد اتفاق تجارى طيب مع مصر مقابل تساهلها فى مسألة معينة ، لأن مثل هذا الاتفاق لا مناص من عقده على أى حال) . ومن وجهة النظر التكتيكية يعتبر تدخل طرف ثالث فى المفاوضات خطأ جسيما بل غلطه فاحشة تنطوى على أشد المخاطر .

ومن أين جاء هذا الخطأ ؟

لقد كان مصدره بعض السياسيين البريطانيين الذين ظنوا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أنهم يستطيعون فى ظل الامريكيين - واستنادا الى تأييدهم وصداقتهم - الاحتفاظ بأمجاد بريطانيا الماضية . وصاحب هذه النظرية « نظرية العلاقة الخاصة التى تربط بين بريطانيا والولايات المتحدة » هو ونستون تشرشل . وقد حذا أنطونى ايدن من بعده حذوه فى تطبيقها ، ولكنه كان يطبقها كارها ويدرك أن هذه السياسة « المشتركة » الانجليزية الامريكية لا تنفذ حقا الا عندما تلتزم بريطانيا خط السياسة الامريكية وتقبل وجهات نظر وشنطن ،

هذا فضلا عن أن هذه « السياسة المشتركة » كانت غير محدودة وغير واضحة المعالم ، وأكثر من هذا فانها كانت لا تطبق بمجرد أن يشم رجال السياسة في واشنطن رائحة البترول في مكان ما • وقد صرح ايدن في مذكراته أن مصدق رئيس حكومة ايران ما كان ليجرؤ على تأميم صناعة البترول التي تشرف عليها بريطانيا في ايران لولا اعتماده على وعد حصل عليه من رجال السياسة في الولايات المتحدة بأن تلتزم وشنطن « الحياد » في نزاعه مع الانجليز •

ولما وصل ايدن الى وشنطن في أوائل مارس سنة ١٩٥٣ عرض على الامريكيين مشروعا بجلاء القوات البريطانيه عن مصر بشرط أن تحتفظ بريطانيا بقاعدة عسكرية في وقت السلم في منطقة قناة السويس ، وانشاء منظمة مصرية انجليزية للدفاع الجوى عن مصر ، واشتراك مصر في منظمة دفاعية دولية للدفاع عن الشرق الاوسط . وأخيرا اقترحت بريطانيا وضع برنامج بالاشتراك مع الولايات المتحدة لتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لمصر . ويلاحظ هنا أن ايدن ـ الذى يطالب الآخرين بأن يحترموا بدقة تعهداتهم ـ قد اقترح وضميره مستريح نقض الاتفاق الذى عقدته حكومته مع فرنسا والولايات المتحدة عام ١٩٥٠ بحظر ارسال الاسلحة الى الشرق الأوسط •

ودعت وشنطن الانجليز الى مفاوضة المصريين مباشرة • ولكن اذا كان ايدن قد ذهب الى وشنطن لكى يتفق مع ايزنهاور على « سياسة مشتركة » تجاه مصر ، فقد كان غرضه من ذلك أن يوضح للمصريين أنه لا قبل لهم بتحدى « الجبهة المشتركة » المؤلفة من بريطانيا والولايات المتحدة ، وأنه من الافضل لهم أن يرضخوا ويخففوا من غلوائهم ، ثم لكى يوضح لهم أيضا انهم لن يستطيعوا بعد الآن أن يضربوا لندن بوشنطن ، وأن يثيروا الخلافات بينهما لمصلحتهم •

وعينت الولايات المتحدة مراقبا لحضور المفاوضات الانجليزية المصرية . ولكن ايزنهاور بعث الى الحكومة المصرية برسالة يحدد فيها موقف الولايات المتحدة ، وهو موقف يخالف « السياسة المشتركة » التى ظن تشرشل وايدن أنهما يستطيعان

فرضها على المصريين • وهكذا أدركت القاهرة مقدما أنه يوجد تباين فى وجهات النظر بين الولايات المتحدة وبريطانيا تجاه حل المشكلة المصرية •

أيزنهاور يظهر على المسرح :

ان الخطاب الذى أرسله الرئيس الامريكى ايزنهاور الى الحـــكومة المصرية فى شهر مارس سنة ١٩٥٣ ، والذى أعدته بالطبع وزارة الخارجيـة الامريكية ، يعتبر نموذجا للباقة الدبلوماسية ، وقد أوضح فيه استعداد الولايات المتحـدة للقيام بدور الحكم فى النزاع القائم بين مصر وبين الانجليز ، ووعد وعدا صريحا بالعمل على تحقيق مطالب مصر الاساسية ، بشرط ألا يضع المصريون عراقيل أمام مشروعات الغرب الخاصة بالدفاع المشترك عن الشرق الأوسط •

وبدأت المفاوضات بين مصر وبريطانيا يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٥٣ ولكنهـا توقفت يوم ٦ مايو بسبب تمسك كل من الجانبين بموقفه ، واصرار بريطانيا على الاحتفاظ بقواتها فى منطقة قناة السويس ، واصرار مصر على جلاء هذه القـوات من أراضيها •

وكان لا بد أن تتدخل الولايات المتحدة وأن تتوسـط فى النزاع ، واعتزم جون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية أن يقوم بدور الوسيط •

وكتب ايزنهاور مرة أخرى الى الحكومة المصرية يوم ٨ مايو سنة ١٩٥٣ غداة قطع المفاوضات الانجليزية المصرية يبلغها أن دالاس فى طريقه الى القاهرة • ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان دالاس فى العاصمة المصرية ، وكان يحمل معه الى رئيس الحكومة هدية عبارة عن مسدس أثرى قديم قال وهو يقدمه اليه : « لن تكون فى حاجة الى استخدامه » •

ولا شك فى أن تقديم قطعة سلاح قديم الى شخص ينتظر منك أن تقدم له دبابات أو طيارات عمل ينطوى على الخبث أو على الحماقة • ولكن دالاس لم يـكن

ليهتم بمثل هـذه التفاصيل الصغيرة ، فقـد جاء ومعـه مشروع ضخم للدفاع عن الشرق الأوسط يمثل فى أهميتـه بالنسبة لهـذه المنطقـة أهمية حلف شمـال الاطلنطى بالنسبة للدفاع عن الغرب •

ولكن القاهرة استقبلت مشروع دالاس بفتور كما لو كانت تعرف مضمونه حق قبل أن يغادر دالاس وشنطن ، وفسرته بأنه خطة استراتيجية تهـدف الى الاحتفاظ بسيطرة الانجلو ساكسون العسـكرية على الشرق الاوسـط ، ومن ناحية أخرى الاحتفاظ بحقول البترول التى تملكها الولايات المتحدة وبريطانيا فى هذه البقعة من العالم ، وذلك عن طريق ازالة بقعة « الاستعمار » البريطانى التى لطخت وجه مصر ٧١ عاما •

وقوبل دالاس فى القاهرة باللعنات ، وحملت عليه الصحف المصرية حملة شعواء ، على الرغم من أن الحكومة وقفت منه موقفا مهذبا ينطوى على المجاملة •

وفشلت مهمة دالاس وطويت جميـع مشروعات الغرب فى مصر الى حين •

متاعب داخلية :

وبدأ الأطراف الثلاثة المشتركون فى اللعبة يتساءلون عما اذا كان كل منهم يؤدى الدور المنوط به فى اللعبة باخلاص • كما بدأ البعض يتساءلون عما اذا كان مجلس قيادة الثـورة المصرى متحـدا حقا كما يبدو للانظار ، أو أن هناك منظمات أخرى يمكن أن تحل محله لمصلحة الغرب •

وكان الضباط الاحرار قد ألغوا بجرة قلم فى شهر يناير سنة ١٩٥٣ جميع الاحزاب السياسية ، بما فى ذلك ما تبقى لهم من أنصار فى حزب الوفد • وكان اليساريون واليساريون المتطرفون يعارضون الحكم الجديد ، وكان الاخوان المسلمون الذين يمثلون اليمين المتطرف قد دخلوا مع حكومة الضباط الأحرار فيمـا يشبه

المزايدة الوطنية • ولم يكن كبار الملاك ، الذين اقتطعت أجزاء كبيرة من أراضيهم ـ طبقـا للقوانين الجـديدة ـ راضـين عن العهد الجـديد ، وهكذا كانت المعارضة تضم أعداء كثيرين للنظام الجديد •

ثم ظهر أن جماعة الضباط الاحرار لم تكن متحدة أو متفاهمة كما بدا لأول وهلة • وكان اللواء محمد نجيب مجرد « واجهة » للنظام الجديد أكثر منه زعيمـا له ، ومع ذلك فقـد حاول الكثيرون استغلال نفوذه وبخاصة الذين كانوا يريدون التخلص من جمال عبد الناصر •

لقـد كان ناصر رجلا عصاميا ، نشـأ في أسرة متواضعة الحال ، وبدأ حياته فى طريق الوطنية الثورية منذ كان عمره ثلاثة عشر عاما ، وفى أيام شبابه انهمك فى النشاط السياسى أكثر مما انهمك فى الدراسة ، ولكن هذا النشاط ذاته هو الذى حدد مستقبله • وذات يوم قبل هـذا الطالب المجهـول ـ الذى لا ينتسب لأسرة عريقة ، ويفتقر الى العلاقات الاجتماعية التى لها وزنها فى الحياة ، والذى له مع ذلك سجل فى ادارة البوليس السياسى ـ فى الكلية الحربية •

والواقع أنه كان فى خلال هذه الفترة من حياته ـ طبقا لكتاباته ولا سيمـا فى أثناء حرب فلسطين ـ وطنيـا « مصريا » ، وثوريا « مصريا » هدفه الاول هـو تحرير الوطن « المصرى » •

ولـــكن حـــدث فى صيف عام ١٩٥٣ حادث غـريب في الوقت الذى كان الضباط الاحرار يدافعون فيه عن سلطتهم ضد الحمـلات الموجهـة اليهم من كل جانب ، فقد توجه اللواء محمد نجيب لأداء فريضة الحج فى مكة يصحبه أحمـد شوقى ـ وهو أحد كبار الضباط الأحرار المؤيدين له ـ وأخذ يدلى هناك ببيانات وتصريحات أعلن فيها تمسكه الشديد بالقومية العربية ، وهو موقف مفاجىء لم يكن متوقعا أن يتخذه • ووجد عبد الناصر نفسه أو بالأحرى فريق عبد الناصر يواجه موقفا يهدد نفوذه بسبب الدعاية التى يقوم بها محمد نجيب فيما يتعلق

بالقومية العربية ، التى لم يلتفت اليها عبد الناصر حتى ذلك الوقت ، وكان هذا يقـــاوم حينئذ مقترحات الامريكيين الذين كانوا يطالبون بمنحهم امتيـــازات استراتيجية فى الشرق الأوسط . ووجد أنه من المتعذر عليه أن يمضى فى مفاوضات معهم فى الوقت الذى يصادف فيه تحديا خطرا ومعارضة عنيفة من جميع الاتجاهات وانقضت الشهور التالية فى صراع داخلى حول السلطة وفى منافسة مع الجماعات السياسية التى تريد أن تنسب لنفسها فخر المطالبة بالوحدة العربية ×

وبادر عبد الناصر فكتب « فلسفة الثورة » كتابه المشهور الذى أراد به أن يواجه تحدى خصومه السياسيين الذين كانوا يريدون احتكار التحدث عن القومية العربيـــة والوحدة العربيـــة • وقد صرح جى موليـــه رئيس الحكومة الفرنسية فيما بعد أن هذا الكتاب يعيد الى ذاكرته كتاب « كفاحى » الذى وضعه هتلر ، وكان أحد الأسباب التى تذرع بها لاتخاذ موقفه العدائى من مصر وهو الموقف الذى دفعه الى تدبير حملة السويس ضد مصر •

وانتهى عام ١٩٥٣ من غير احراز تقدم محسوس فى المفاوضات المصرية الانجليزية ، والواقع أن المصريين والانجليز على السواء لم يكونوا مستعدين للمضى قدما فى المحادثات ، فالضباط الاحرار كانوا مشغولين فى صراعهم الداخلى من أجل النفوذ ، وكانوا يريدون تسوية انقساماتهم الداخلية قبل أن يكرسوا جهـودهم للمسائل الخارجية • أما الانجليز ومعهم الامريكيون فكانوا يشعرون بخيبة أمل منذ فشل دالاس فى محادثاته خلال شهر مايو سنة ١٩٥٣ ، وأصبح جل اهتمامهم موجها الى عقد معاهدة أطلق عليها حينئذ « اسم الحـزام الشمـالى » وتهدف الى مواجهة احتمالات العدوان السوفييتى ، ولكن أهداف هذه المعاهدة لم تلبث أن تحولت الى محاولة لفرض السيطرة السياسيـــة والتجـارية من جانب بريطانيا والولايات المتحدة على العالم العربى ، باسم ميثاق « حلف بغـداد » الذى وقـع فيما بعد •

× هذه الوقائع التى سردها المؤلف فى تلك الفترة يجانبها الصدق والواقع التاريخى الصحيح . (المراجع)

المفاوضات الانجليزية المصرية :

وقد عقـد ميثاق حلف بغـداد على أساس معاهدة المساعدة المتبادلة التى عقدت بين تركيا وباكستان • وكان المسئولون الاتراك والباكستانيون قد وجهت اليهم دعوة لزيارة وشنطن فى نهاية شهـر يناير سنة ١٩٥٤ حيث شرح لهـم الامريكيون المهمة المطلوبة منهم • وفى ١٩ فبراير سنة ١٩٥٤ أعلن مشروع هذه المعاهدة ، وكانت أولى نتائجها دفع الهند ــ المعادية لباكستان ــ فى أحضان كل دولة تعارض هذه المعاهدة • وتم توقيع المعاهدة التركية الباكستانية فى الثانى من ابريل سنة ١٩٥٤ •

وفى أثناء ذلك كان الصراع حول النفوذ لا يزال دائرا فى مصر ، وقد اتخذ هذا الصراع مظهرا حادا يوم ١١ يناير سنة ١٩٥٤ ، وقد بادرت حكومة الثورة فى اليوم التالى مباشرة الى حظر اجتماعات الاخوان المسلمين واتهمتهم بأنهم نظموا المظاهرات • وظل مركز فريق عبد الناصر مهددا بسبب المعارضة التى كان يلقاها من جانب الاخوان المسلمين وجناح الوفد اليسارى ، ولكن جماعة عبد الناصر لم تلبث أن سيطرت على الموقف فى شهر أبريل سنة ١٩٥٤ وأصبحت صاحبة الكلمة الأولى فى البلاد ، بل أصبح فى استطاعتها أن تتكلم باسم مصر فى مفاوضاتهـا مع الغرب •

وكان عبد الناصر مستعدا هذه المرة للقيام بهذه المفاوضات ، ولوقف حرب العصابات فى منطقة قناة السويس • ولكن مركزه كان حتى ذلك الوقت حرجا فى العالم العربى ، اذ أثار المرشد العام للاخوان المسلمين الخواطر ضده •

وكانت بريطانيا قد رأت بادرة مشجعة فى التساهل الذى أبداه عبد الناصر فى أوائل عام ١٩٥٤ حينما قبـل أن تعود القـوات البريطانية الى منطقة قنـاة السويس اذا حدث عدوان على تركيـا ، ووجدت أن توقيع المعـــاهدة التركيـة الباكستانية يمكن أن يمتد لاجراء محادثات تشترك فيها الولايات المتحدة بحيث تشمل مسألة قاعدة قناة السويس والدفاع عن الشرق الأوسط • ولكن لنـدن

فسرت وعد الامريكيين لعبد الناصر بتقديم مساعدات اقتصادية له بأنه يهدف الى تقوية مركز مصر فى مفاوضاتها مع الانجليز وتشجيعها على مقاومة أى ضغط مالى قد يقومون به ضدها • وقد استطاع تشرشل حينما زار الولايات المتحدة فى ذلك الوقت أن يحصل من الامريكيين على وعد بأن تكون مساعداتهم الاقتصادية لمصر المفاوضات من غير الوصول الى نتيجة ، كما تلقى منهم وعدا بأن يؤيدوا علنا مبدأ مجرد طعم لاغرائها على الاتفاق مع بريطانيا ، وليس تشجيعها على اطالة أمد حرية الملاحة فى قناة السويس • وشعر الانجليز بوطأة العداء الذى يسود العالم العربى ضدهم فأصبحوا متلهفين على اجراء المفاوضات ، وبعد أن كان المسئولون العسكريون البريطانيون يصرون حتى هذا الوقت على البقاء فى قناة السويس بدأوا يصرحون بأن هذه القاعدة لا تنطوى على أهمية كبيرة •

وهكذا استؤنفت المفاوضات فى شهر يولية سنة ١٩٥٤ ، وفى ٢١ من الشهر نفسه أعلن أنه تم الوصول الى اتفاق مبدئى ينص على جلاء البريطانيين من منطقة قناة السويس فى خلال عشرين شهرا على أن يقوم « المدنيون » الانجليز بصيانة القاعدة البريطانية • ولم يدر الانجليز فى خلال هذه المفاوضات اقتراحهم السابق بشأن ضرورة احتفاظهم بالسيطرة الجوية على سماء مصر • وفى الظروف السائدة اذ ذاك لم يكن من الممكن تصور أن المصريين يستطيعون الحصول على اتفاقية أفضل من هذه الاتفاقية •

وبعد مضى ثلاثة أيام على توقيع الاتفاقية التمهيدية بين المصريين والبريطانيين بدأت مفاوضات أخرى بين الولايات المتحدة ومصر ، وكان الامريكيون يحسبون أنه مادام عبد الناصر قد حصل على مبدأ سحب القوات البريطانية من أراضى بلاده فانهم يستطيعون اقناعه بالاشتراك فى حلف عسكرى ضد الاتحاد السوفييتى وقبول ارسال بعثة عسكرية أمريكية الى مصر ، وقدموا له مساعدة ـ معذرة أقصد أن أقول قرضا ـ قيمتها مليون دولار • وتحقيق مثل هذه الخطوة كفيل بأن يؤدى الى ضمان الدفاع عن قناة السويس الحيوية بالنسبة للاقتصاد الغربى بالاسلحة

الامريكية ، بحيث يستطيع البريطانيون أن يسحبوا قواتهم من القاعدة وهم فى غاية الاطمئنان على مصالحهم التى ستكون فى رعاية أبنـاء عمومتهم الامريكيين ٠

ولكن الامور لا تسير دائما على ما يرام ، فقد بدأ عبد الناصر يلقى مصاعب داخلية أكثر منها خارجية ٠

مصاعب فى الطريق :

فى الثانى من أغسطس سنه ١٩٥٤ أى بعد خمسه أيام من توقيع الاتفاق المبدئى بين مصر وبريطانيا طلب المرشد العام للاخوان المسلمين ، من عبد الناصر فى خطاب مفتوح التخلى عن هذا الاتفاق الذى يعتبر بمثابة خيانة للبـلاد ٠ وفى الفترة التى انقضت بين توقيع الاتفاق المبدئى والاتفاق النهائى بذلت المعارضـة كل قواها لوقف كل محاولة تهدف الى تحقيق التفاهم مع الانجليز ٠

وكان موقف حكومة الثورة دقيقا لانها وجدت نفسهـا مضطرة الى فرض سياسة لا تصادف ترحيبا من الشعب فى الوقت الذى تلقى فيه مقاومة عنيدة من جانب المعارضة ومشكلات اقتصادية عويصة تشبه الى حد ما مشكلات المستعمرات التى تعتمد الى حد كبير على ما تشتريه الدول الصناعية من منتجاتها سواء كانت هذه المنتجات محصولات زراعية أو مواد أولية ٠

وكانت المعارضة قد شكلت حينئذ ما يمكن أن يسمى « الجبهـة المتحدة » واستطاعت أن تضم مؤيدين لها من بين الشخصيات التى لها صلة بالمسئولين فى الحكم ، وكانت تتوق أن تجد فى محمد نجيب بطلا يدافع عن قضيتها ويكافح عن وجهـات نظرها ، ولكنها لم تتوقع منه مع ذلك الا أن يـكون مجرد حامل راية ٠ والنشاط الوحيد الذى قامت به هذه المعارضة هو أنها أحاطت عبد الناصر بجو من عدم الاستقرار ٠ والعجيب فى الأمر أن عبد الناصر وجماعته ـ وان كانا قد استنكرا الوسائل التى لجأت اليها المعارضة ـ كانا فى قرارة نفسيهما يحبذان أهدافها ٠

ولم تكن هذه هى المصاعب الوحيدة التى صادفها عبد الناصر ، فقد ظهرت مصاعب أكثر خطورة على أبواب مصر ، وبرز خطر جديد هو الخطر الاسرائيلى ٠

الخطر الاسرائيلى :

لم تستقبل اسرائيل باستياء كبير تقلد عبد الناصر شئون الحكم ، ذلك أن « الضباط الأحرار » كانوا على أى حال أعداء نظام حكم فاروق الذى هاجم دولة اسرائيل منذ ولدت ٠ وكان الاسرائيليون يؤملون أن يستطيع النظام الجديد النظر الى المشكلات نظرة واقعية ، ولهذا لم تحاول اسرائيل مضايقة الضباط الشبان ٠ وقد اتبعت فى هذا الصدد طريقين ، هما عدم مهاجمتهم ، وفى الوقت نفسه عدم تأييدهم ٠ وكان وجود القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس ، والسرعة التى قمعت بها بعض الاضطرابات التى وقعت فى المنطقة عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ بمثابة نوع من الضمان لاستمرار السلام على حدود اسرائيل الجنوبية ٠ وحاولت الوصول الى حل النزاع الاسرائيلى العربى ٠

ولكن وعد بريطانيا بسحب قواتها من منطقة قناة السويس خلق موقفا جديدا يهدد التوازن المزعزع الذى كان يحبه « السلام البريطانى » فى هذه المنطقة ٠ ومنذ شهر يولية سنة ١٩٥٤ بدأ المعلقون السياسيون فى الصحف والاذاعة الاسرائيلية يحذرون بريطانيا « من خطر انسحابها من منطقة الشرق الأوسط » ٠ وابتهجت بريطانيا حينما وجدت شعبا فى هذه المنطقة يحاول حملها على البقاء فيها ، فى الوقت الذى يريد فيه كل العرب ـ باستثناء هؤلاء الذين يستفيدون من وجودها ـ طردها خارج بلادهم ٠

واذا كان جانب من القلق الذى كانت تشعر به اسرائيل مصدره العملاء الانجليز أنفسهم ، فان جانبا آخر من هذا القلق كان حقيقيا ويحس به الشعب الاسرائيلى احساسا صادقا ٠ ويبدو أن الحكومة الاسرائيلية وضعت نصب عينيها حينئذ أن يمنع جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ٠ وفكرت فى أن

تخلق حادثا لكى تبرهن مقدما للانجليز على أن عبد النـاصر لن يحترم نصوص الاتفاقية النهائية التى سيوقعها معهم، فدبرت ارسال السفينةالتجارية الاسرائيلية « بات جاليم » الى مدخل قناة السويس • فاذا سمح عبد النـاصر بمرورها فى القناة فان هذا سيحط من قدره فى نظر الجماهير العربية التى تضمر الكراهيـة لاسرائيل والتى ما فتىء عبد الناصر يثير حفيظتها ضد الاسرائيليين ، واذا منـع عبورها فانه يثبت بهذا للبريطانيين والامريكيين أن وعوده بشأن ضمـان حرية الملاحة فى القناة لم تكن الا هباء تذروه الرياح • ولكن تقدير اسرائيل للموقف كان تقديرا صبيانيا ، فقد كان المعروف أن بريطانيا والولايات المتحدة تبـديان تساهلا خاصا تجاه موقف عبد النصر العنيد فيما يتعلق بمرور السفن الاسرائيلية فى قناة السويس • كما أن الامم المتحدة ذاتها كانت تبدى كثيرا من التساهل تجاه هذا الموقف ، وهذا يعنى أن عبد الناصر كان يعتمد مقدما على هذا التساهل والا لما سار فى هذا الطريق الى مثل هذا الحد • أما النص الشهير الوارد فى الاتفاقية الانجليزية المصرية بشأن « حرية المرور فى قنـاة السويس » فكان المقصود به أساسا مرور السفن المحملة بالبترول •

ولم يـكن أمام عبـد الناصر فرصـة للاختيار فقـد رفض مرور السفينـة الاسرائيلية « بات جاليم » فى القناة ، وقد نجم عن هذا الرفض الذى أتاحتـه له اسرائيل تعزيز شعبيته ونفوذه فى العالم العربى •

وفى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ وقع الاتفاق الانجليزى ـ المصرى الخاص بالجلاء عن منطقة قناة السويس ، وبعد مضى سبعة أيام نفذ الاخوان المسلمون تهديداتهم وحاولوا اغتيال عبد الناصر •

وفشلت المحاولة ، ولكن اجراءات القمع التى قرر عبد الناصر اتخـاذها ضدهم لم تفشل • فقد اعتزم عبد الناصر القضاء على جماعة الاخوان المسـلمين قضاء مبرما بعد أن بلغ بها الجرأة أن حاولت قتله هو نفسه • وألقى القبض على جميع زعماء الاخوان المسلمين • واتضح أن هناك مؤامرة واسعة النطاق ، وأن

بعض خيوطها تصل الى اللواء محمد نجيب الذى استخدم كستار لهذه المؤامرة التى ربما لم يكن له فيها دور كبير ، ولكن عبد الناصر قرر على أى حال يوم ١٤ نوفمبر القبض على محمد نجيب رئيس الجمهورية ، وعزله من منصبه وحدد اقامته فى منزله .

وأصبح عبد الناصر بذلك سيد الموقف ، ولكن المشكلات التى تواجهها مصر لم تكن قد حلت بعد . ومهما تكن طبيعة هذه المشكلات فقد أصبح من المقرر أن يتم حلها على يدى عبد الناصر وعن طريقه ، ولم يعد هناك أمام دول الغرب أمل فى أن تتولى الحكم فى مصر حكومة أقل صلابة تستطيع أن تعقد معها الاتفاقيات التى تريدها .

والشىء الوحيد الذى لم يتغير فى غمار هذه الأحداث هو مشاعر الجماهير المصرية التى ظلت تعارض فكرة وجود أية قوات أجنبية فى منطقة قناة السويس، أو ارسال بعثة عسكرية أمريكية الى القاهرة .

ضغط جديد :

فى شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ بذلت آخر محاولة لاقناع مصر بالانضمام الى حلف الدفاع عن الشرق الاوسط ، فجاء وفد تركى الى القاهرة لهذا الغرض . وكان الوفد يعرف وجهة نظر عبد الناصر التى شرحها فى شهر سبتمبر لنورى السعيد رئيس وزراء العراق ، وهى أن مصر لا يمكن أن تقبل التفكير فى مثل هذا المشروع فى الوقت الذى تعانى فيه من وجود القوات الأجنبية فى أراضيها منذ سبعين عاما ، ولكنها توافق على عقد ميثاق دفاعى بين الدول العربية . الا أن نورى السعيد ـ الذى كان انجليزيا أكثر من الانجليز أنفسهم ، والذى كان قد جاء الى القاهرة لكى يجس نبض عبد الناصر لحساب هؤلاء ـ كان يرى أن هذا الموقف ينطوى على « الحياد » . أما عبد الناصر فقد كان يؤمن بأن عقد ميثاق للضمان الجماعى العربى أمر لا غنى عنه فضلا عن أنه يكفل بث الطمأنينة فى قلوب العرب .

واقتنع الأتراك بأن عبد الناصر سيرفض الانضمام الى أى ميثاق تشترك فيه دول الغرب ما لم يغادر آخر جندى بريطانى أرض مصر ، فى حين كانت مهمتهم التى جاءوا من أجلها الى القاهرة تهدف الى اقناع المصريين بقبول بقاء القوات البريطانية فى منطقة القناة وأن تكون « تحت طلب » حكومة القاهرة .

وتقرر صرف النظر عن عبد الناصر وعقد حلف للدفاع عن الشرق الأوسط من غيره . وكان هناك الميثاق التركى ـ الباكستانى جاهزا ، ولكن لكى يكون مثل هذا الحلف قويا وفعالا فينبغى ملء الفراغ الكبير الذى يفصل بين تركيا وباكستان ، وذلك بضم العراق وايران اليه لكى يصبح الحلف وحدة جغرافية متماسكة .

ولما كان دالاس يتعجل عقد هذا الحلف ، فقد طار عدنان مندريس وزير خارجية تركيا ، الى بغداد فى شهر فبراير سنة ١٩٥٥ لاجراء محادثات مع المسئولين العراقيين فى هذا الشأن . وفى ذلك الوقت كان جيفرسون كافرى السفير الامريكى فى القاهرة قد بلغ سن التقاعد فخلفه سفير آخر أثبت ، حتى يوم تأميم قناة السويس أنه أكبر مؤيد لعبد الناصر ، وكان هذا السفير هو هنرى بايرود ولم يكن العمل الدبلوماسى مهنته الأصلية ، وانما كان فى الاصل ضابطا بالجيش الامريكى .

ميثاق بغداد :

كان عدنان مندريس وزير الخارجية التركية قد وصل الى بغداد يوم ١٢ فبراير ١٩٥٥ ، وقد صدر عقب انتهاء محادثاته مع المسئولين العراقيين بلاغ أعلن فيه قرب توقيع ميثاق بين البلدين وتضمن دعوة الدول العربية الاخرى الى الانضمام لهذا الحلف .

فماذا كان غرض أصحاب فكرة هذا الميثاق ؟

لقد كان غرضهم فرض هذه الفكرة على العرب وارغام حكوماتهم على الانضمام مهما يكن الثمن الى المجموعة الكبيرة التى تألفت منذ عامين لـكى تقف فى وجه الاتحاد السوفييتى • وكان التقدير الاولى يشير الى أن العراق ولبنان والاردن ستنضم قطعا الى هذا الميثاق نتيجة لتأثرها الشديد بالنفوذ البريطـانى • أما المملكة العربية السعودية فان الولايات المتحدة كانت ستتكفل باقناعها • وسوريا المعادية للحلف والمتمردة عليه كان لا بد أن تذعن والا هددت بالتطويق وأصبحت فى عزلة ، ويمكن على أسوأ الامور تدبير انقـلاب يقوم به بعض العسكريين ذوى الرؤوس الساخنة والافكار القصيرة • وهكذا يجد عبد الناصر نفسه أخيرا فى عزلة ، فيضطر الى الاذعان وقبول الشروط التى تملى عليه •

ولكن الحوادث برهنت على أن هذا التقدير كان خاطئا ، وأنه أدى الى وقوع غلطة تاريخية كبرى ، وهى عقد ميثاق بغداد •

كان نورى السعيد حينما عاد الى الحكم عام ١٩٥٤ قد بادر الى قمع المعارضة فى بلاده • ثم بدأ يجس نبض عبد الناصر ، ولكنه تأكد أنه لن يذعن لمطالب الانجليز ، وحينئذ قرر أن يقوم بلعبته السياسية فى الشرق الاوسط ليكون الرجل الذى يجمع العالم العربى فى حلف مضاد للشيوعية ، ويقدمه فى صينية من الفضة الى البريطانيين والامريكيين • وفى خريف عام ١٩٥٤ كان نورى السعيد قد قضى على المعارضة التى أصبحت أضعف من أن تقاوم مشروعاته ، وفى ٦ نوفمبر سـنة ١٩٥٤ استدعى السفير العراقى فى موسكو الى بغداد وهيـأ الجو فى بلاده لقطع العلاقات السوفييتية ، واعتقد أنه يستطيع بذلك اثبات عدائه للشيوعية ، وضمان عطف الامريكيين وتقديرهم • وفى ٣ يناير سنة ١٩٥٥ قطع نورى السعيد جميع العلاقات العراقية مع الاتحاد السوفييتى ، وبعد ثلاثة أيام وصل عدنان مندريس وزير الخارجية التركية الى بغداد ، ثم بعد ثمانية أيام أعلن مشروع انضمام العراق الى الحلف التركى الباكستانى •

وكان الرأى العام العربى كله يشعر بالارتباك ازاء هذا التصرف ، وكانت أول نتيجة لميثاق بغداد ـ الذى أريد منه أن يكون دعاية لسياسة موحدة فى الشرق الاوسط ـ زيادة الانقسام والفرقة بين العرب بدلا من أن يوحدهم ضد أى خطر خارجى محتمل ٠

ولم يتردد ناصر ، فقد رأى أن اذعانه وقبوله الانضمام الى هذا الحلف يعنى اعترافه بفشله دبلوماسيا والتزامه بالسير فى ركاب العرش الهاشمى الذى ما كان ليستطيع البقاء يوما واحدا لولا مساندة بريطانيا له ٠ وهكذا قرر أن يقاوم وأن يحارب هذا الحلف ، وهذا يعنى انفصاله عن الانجليز والامريكيين ٠

وكان أنطونى ايدن فى طريقه من لندن الى بانجكوك ، فتوقف فى القاهرة ليقابل عبد الناصر ، وكان يستطيع أن يغفر له اذا تبين له أنه أفاق من أحلام اليقظة وأدرك مدى العزلة التى وضع نفسه فيها ٠ واستقبله عبد الناصر بأدب ولكن بتحفظ ٠ وخاب أمل ايدن ، ولم يكن قد عرف بعد ـ وان كان قد عرف فلم يكن يدرك الى أى مدى ـ أن قوة أخرى بدأت تظهر بين القوى الاخرى التى تساند عبد الناصر ، وهى قوة الملك سعود التى تختفى وراء قوة البترول والدولار ٠

سيد الموقف :

حين كان عبد الناصر يحرز مزيدا من الانتصارات الشعبية بكفاحه ضد ميثاق بغداد ويحظى باعجاب الجماهير العربية ، كان هناك رجل آخر ظل يقوم باللعبة السياسية الكبرى فى الشرق الاوسط مدى عامين ، ويحمى مؤخرة عبد الناصر ، وينفق الذهب بسخاء فى كل مكان للضغط على الحكومة الامريكية ٠ هذا الرجل هو سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وكان يقوم بهذا الدور فى الظاهر على الأقل ، لان العقل السياسى المدبر لهذه العملية كان الامير فيصل ، أخا الملك ٠

وكانت لدى الملك سعود وأخاه أسباب كثيرة تدفعهما الى ذلك ، فهما أولا كانا فى نزاع عنيف مع البريطانيين بشأن حقول البترول الغنيــة الموجودة حول بعض امارات الخليج العربى • فلو أصبح الانجليز سادة الموقف فى الشرق الاوسط واحتفظوا بسيطرتهم على منطقة قناة السويس فلن يصعب عليهم املاء ارادتهم على ملك المملكة العربية السعودية الذى يعرف أن الامريكيين الذين يسـاندونه ويحيطونه برعايتهم سيبادرون حينئذ بالتخلى عنه وتركه لمصيره • كما أن سعود لم يكن يرحب بارغام عبد الناصر على الانضمام الى ميثاق حلف بغداد مما يؤدى الى ارتباطه بالعرش الهاشمى • وأخيرا فانه لم يكن يريد أن يستأثر عبد الناصر وحده بتأييد العالم العربى نتيجة لنضاله ضد هذا الميثاق •

ولم يكن موقف سعود عديم التأثير على وشنطن ، فقد اهتمت كثيرا بما أبداه من عدم ارتياح للجهود التى تبذل لارغام مصر بصفة خـاصة والدول العربية الاخرى بصفة عامة على الانضمام الى ميثـاق حلف بغـداد • وبادرت الحـكومة الامريكية حينئذ الى التفكير فى مشروع جديد يسمى « الحزام الشـمالى » الذى أصبح يسمى فيما بعد حلف بغداد ويتألف من تركيا وباكستان وايران وكذلك العراق ، وصرفت الولايات المتحدة النظر ـ ولو مؤقتا ـ عن اشتراك الدول العربية الاخرى باستثناء العراق فى هذا المشروع • وقد انضمت ايران الى هذا الحلف فى نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

ولكن انضمام ايران الى حلف بغداد لم يكن يخلو من المخاطر ، فهذه الدولة لها حدود مشتركة مع الاتحاد السوفييتى يبلغ طولها أكثر من ٢٠٠٠ كيلو متر ، والمعاهدة الروسية الايرانية التى عقدت عام ١٩٢١ تعطى للاتحـاد السوفييتى الحق فى الحصول على ضمانات اقليمية فى آيران فى حالة حدوث تدخل من جانب دولة ثالثة لاغراض عدائية بالنسبة للاتحاد السوفييتى • وطبعا لا يمكن القول أن حلف بغداد ـ وهو الحزام الشمالى الذى قصد به تطويق روسيا من الجنوب ـ يمكن أن تنظر اليه روسيا نظرة تنطوى على الرضى أو تعتبره غير عدائى بالنسبة

لها ، وهذا يعنى أن من حقها التدخل طبقا للمعاهدة الروسية الايرانية ، ما لم تقدم لها ايران ضمانات جدية بأن اشتراكها فى هـذا الحلف لا ينطوى الا على أهداف دفاعية بحتة •

لقد انضمت ايران الى الحلف وانتهى الامر ، وزمجرت روسيا ، ولكنهـا لم تتحرك • وهكذا تحقق الحلم الذى راود خيـال دالاس عام ١٩٥٣ ، واستطاعت دول الغرب أن تقيم سدا استراتيجيا يمتد ـ كما قال ايدن ـ من البحر المتوسط حتى جبال هيمالايا •

روسيا تقوم بهجوم مضاد :

وعلى الرغم من استياء موسكو من عقد حلف بغداد فانها لم تجده من الخطورة بحيث يبرر تدخلها ويؤدى هذا الى نشوب حرب عالمية • ومع ذلك فان الاتحاد السوفييتى كان يشعر بالضيق لهذه المحاولة التى تهدف الى اسـتكمال تطويق أراضيه ، فانتهز فرصة الاضطرابات السياسية التى كانت قائمة حينئذ فى بلاد الشرق الاوسط المشتركة وغير المشتركة فى حلف بغداد لكى يقفز من فوق الحاجز الذى حاولت الدول الغربية اقامته حوله مثيرا عواصف هوجاء فى مؤخرة « الحزام الشمالى » الشهير •

ان حبر الحلف لم يكد يجف حتى أسرع دانييل سولود ـ السفير السوفييتى بمصر ـ الى ناصر يعرض عليه تزويده بالسلاح الذى منعه عنه الغرب ، فاعتذر، ولكن الحوادث التى جدت بعد ذلك جعلته يعيد النظر فى اعتذاره •

فقد تولى بن جوريون اذ ذاك ـ فى ظروف شاذة ـ شئون وزارة الدفاع ، وكان يبـدو بجـلاء أنه ينطق بلسـان جماعة اسرائيلية متطرفة تفضـل انتهاج « سياسة المدفع » • وبعد احد عشر يوما قام الجيش الاسرائيلى بغارة مفاجئة عنيفة على قطاع غزة وانسحب بعد أن خلف وراءه ثلاثة وأربعين قتيلا مصريا • وتبين

لعبد الناصر أنه ليست لديه الوسائل اللازمة للرد على هذا الهجوم ، وأن سكوته على رفض الغرب تزويده بالسلاح يعنى خيانة مصلحة بلاده بينما ارتفعت أصوات الغضب من جانب الجماهير المصرية ٠

كانت هذه الفترة من أسوأ الفترات التى شعر فيها عبد الناصر « بالعزلة » وكان نورى السعيد قد نجح فى افساد جهود مصر بشأن الحصول على أسلحة من بريطانيا والولايات المتحدة اللتين رفضتا اعطاء عبد الناصر ولو الحد الادنى من الاسلحة اللازمة للدفاع عن بلاده ٠

وقام عبد الناصر بمحاولة أخيرة مع الامريكيين ، وطلب منهم مرة أخرى أن يرسلوا اليه الاسلحة التى يريدها ، ولكن واشنطن رفضت من جديد ٠ وأوضحت له أنها لن تستجيب لما يطلبه الا اذا أذعن لوجهات نظرها ، وأنها لن ترسل له أسلحة الا اذا اشترك فى منظمات الدفاع الغربية ، أى اذا فتح أبواب بلاده للقوات الامريكية ٠

وجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن لندن وواشنطن لم تكترثا أقل اكتراث بالتصريح الثلاثى الذى أذاعتاه مع باريس عام ١٩٥٠ بشأن حظر ارسال الاسلحة الى دول الشرق الاوسط ، وكانتا تتصرفان كما لو كانت باريس غير موجودة على الاطلاق وتنتهكان هذا التصريح كلما وجدتا هذا يناسب مصالحهما ، وعلى هذا الاساس فانهما لم تجدا حينئذ غضاضة فى ارسال أسلحة الى العراق مثلا ٠

وكان على عبد الناصر أن يختار ، فاما أن يذعن ويتنكر حتى لنفسه ، واما أن يبحث عن أسلحة وحلفاء فى مكان آخر ٠ وقدم له القدر حليفين عظيمين فى شخصى نهرو وتيتو اللذين زاراه فى القاهرة ، وبدأت الاستعدادات تجرى لعقد مؤتمر باندونج الذى كان له الفضل فى تغيير مواقف كثيرة تغييرا حاسما ٠

باندونج :

كان مؤتمر باندونج بمثابة حبل النجاة الذى تعلق به الرئيس ناصر ، والباب السحرى الذى فتح له ليخرج من المأزق الذى وجد نفسه فيه ، والوسيلة المثلى لحل جميع المشكلات التى يواجهها • وأتيحت له الفرصة بعد أن كانت الدول الغربية تعامله كأنه « ملك زنجى » وتطلب منه التوقيع على مواثيق من غير أن تسمح له بمناقشة ما جاء فيها ، لكى يجتمع برجال بارزين ويحادثهم محادثة الند للند ، أحدهما مثل نهرو يحكم ٤٠٠ مليون من البشر ، والآخر مثل شو اين لاى يحكم نحو ٧٠٠ مليون نسمة • ووجد فى المؤتمر حلفاء جددا لا تعبأ دولهم ـ الا قليلا ـ بما تريده بريطانيا أو الولايات المتحدة ، ولا تكترث كثيرا بنواياهما الطيبة •

ولم تقتصر فائدة مؤتمر باندونج على ذلك ، فقد عاد منه عبد الناصر الى القاهرة عودة الظافرين ، وأصبح بطلا شعبيا وموضع حب الجماهير واعجابها •

ولم يضع الروس وقتا • فقد نشروا عشية مؤتمر باندونج بيانا اتضح منه أنهم ينوون الظهور على المسرح الدبلوماسى للشرق الاوسط • وبعد أسابيع قليلة على انتهاء مؤتمر باندونج طلب ناصر من السوفييت أن يمدوه بالسلاح ، وذلك فى اجتماع مع السفير السوفييتى سولود •

ثم استؤنفت المحادثات الروسية المصرية على مستوى أعلى ، ففى شهر يونيه وصل الى القاهرة شبيلوف رئيس تحرير جريدة « برافدا » الشيوعية ، وكان أحد الرجال ذوى النفوذ فى الاتحاد السوفييتى ، وبحث مع ناصر موضوع الاسلحة مرة أخرى •

حتى اذا كان مساء يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٥ أعلن ناصر للشعب المصرى نبأ توقيع صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا • لقد كان هذا الحادث بمثابة تحول حاسم فى ميزان القوى فى الشرق الاوسط • وبدا كل شىء قاتما ، حتى المستقبل نفسه •

الفصل الخامس

الحرب الباردة وقطع الشطرنج

كان للقرار الذى اتخذه عبد النـاصر بشراء الاسـلحة من احـدى الدول الشيوعية ، بعد أن رفضت دول الغرب امداده بها ، وقع القنبلة ذات العيار الكبير على المسرح الدبلوماسى الدولى • وكانت الحكومة الامريكية أكثر الجهات تأثرا بهذا القرار ، ليس بسبب شراء كمية من الاسلحة من الشيوعيين ، ولكن بسبب المغزى الاستراتيجى الذى تدل عليه هذه الخطوة التى تعنى أن مصر ـ وكانت تعتبر حتى هذا الوقت داخلة فى نطاق النفوذ الانجلو ساكسونى ـ قد تمردت على الوصاية الامريكية ، وتزعزع الموقف الاستراتيجى للحلفاء فى الشرق الاوسط بعـد أن فقد الغرب نفوذه فى مصر •

وأرسلت واشنطن الى القاهرة على الفور « جورج ألن » مساعد وزير الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط ، الذى لم يستقبله عبد الناصر الا لكى يرفض الاحتجاج الذى كان يحمله • وكان هذا الرفض من الناحية الرسمية فقط على الاقل ، لان المحادثات التى جرت بعد ذلك مع « جورج الن » فى القاهرة بعثت الطمأنينة لدى وزارة الخارجية الامريكية • ولكن لندن وباريس لم تمطئنا الى نتيجة هذه المحادثات وقررتا أن تستغلا « خيانة » عبد الناصر لاصدقائه الامريكيين ، للحصول على موافقة واشنطن على التخلص من عبد الناصر المزعج •

وبدأت بعض الدوائر فى واشنطن تفكر فى أنه يمكن ـ بواسـطة شىء من الضغط الاقتصادى المناسب ـ اعادة الطفل العاق الى داره • وقد أدت هذه الافكار الى قتل البقرة السمينة أو بالاحرى البقرة الذهبية ، ألا وهى الشركة العالمية لقناة السويس •

الغاية والوسيلة :

كانت القنصليـات فى حـكومات الغرب تعتقـد أن عبد النـاصر لا يملك الوسائل الكافية التى تتيح له تحقيق سياسته ، وكانت تتساءل قائلة : ما الاسس الاقتصادية أو الاجتماعية التى سيبنى عليها مشروعاته الوطنية الواسعة النطاق ؟ وكانت ترى أنه سيصادف عراقيل كثيرة فى هذا المجال بسبب ازدياد عدد السكان فى مصر زيادة سريعة كل عام ، مما يخلق أمامه مشكلات مستعصية لاطعام الافواه الجديدة ، وضيق رقعة الارض الزراعية وتعذر توسيع مساحتها • وقيام الصناعات فى مصر بصفة رئيسية على أساس انتاج بضائع اسـتهلاكية ، وقلة المواد الخام ورؤوس الاموال ، وضعف القوة الشرائية لدى الجماهير • وكانت ترى أيضـا تمويل مشروعات التنمية فى مصر ، والعمل على زيادة الصادرات مهمة كبيرة يمكن أن تستغرق كل جهود البلاد وأموالها ، ولا تتيح فرصة كبيرة لشراء أسـلحة ثقيلة ، ولا تسمح لها على الاخص بالقيام بمغامرة عسكرية • ولهذا استقر الرأى على توجيه نشاط حكومة عبد الناصر وحيويتهـا الى المهام الاقتصادية الداخلية التى لا غنى عنها • وبهذا يمكن صرف نظرها عن طموحها الخارجى • وكان يمكن أن يكتب لهذا الاتجاه النجاح ، لو لم تحاول دول الغرب أن تفرض على عبد الناصر الانضمام الى ميثاق مناهض للسوفييت من غير أن تعطيـه أية ضمانات ضد رد الفعل الذى يمكن أن يحدث نتيجة لذلك فى الرأى العام العربى الذى كان جزء كبير منه يطالب بانتهاج سياسة الحياد • وهكذا تعرضت سياسة الغرب ـ بسبب عدم تماسكها ووحدتها ـ للفشل والاخفاق ، لانها وضعت نصب عينيها تحقيق غايتين متعارضتين فى مجال السياسة المصرية، وكانت كل من هاتين الغايتين تحرم الاخرى من الوسائل اللازمة لتحقيقها •

الحياد العربى :

الحياد العربى حقيقة غالبا ما يساء فهمها فى أوروبا ، حتى ليميل الاتجاه الى ردها نحو الدعاية السوفييتية النشطة الواعية بكل شىء ٠

ولكن هذا خطأ ، وعبد الناصر نفسه لم يخترع هذا الحياد ٠ وقبل أن يتولى الحكم كان معظم الزعماء السياسيين فى العالم العربى يطالبون بعدم اقحام الشرق فى مزالق الحرب الباردة ٠ وقد فهمت واشنطن هذا الاتجاه ، ولعل ذلك يفسر اهتمامها بميثاق الضمان الجماعى العربى الذى عقد فى يوم ١٣ من أبريل ١٩٥٠ ٠

ولما منيت الولايات المتحدة بهزائم مريرة فى حرب كوريا قررت انشاء منظمة دفاعية للشرق الاوسط ، وقد اتخذ هذا القرار فى المؤتمر الذى عقده فى استانبول سفراء الولايات المتحدةفى بلاد الشرق الاوسط من ١٤ الى ٢١ فبراير سنة ١٩٥١، وبعد شهور قليلة عقدت الولايات المتحدة يوم ١٨ يونية سنة ١٩٥١ مع المملكة العربية السعودية اتفاقية للدفاع المتبادل تتيح لها استخدام قاعدة الظهران ٠ وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥١ أوصى مجلس حلف شمال الاطلنطى بضم اليونان وتركيا الى الحلف ٠

وفى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ سلم الحلفاء للقاهرة مذكرة ، صيغت على أساس المشروعات الامريكية ، وتتضمن دعوة مصر الى الاشتراك « على قدم المساواة » فى قيادة حليفة للشرق الاوسط ٠ وفى ٢٥ أكتوبر أعلنت مصر رفضها لهذه المذكرة وقالت أنها لن تنظر فى أية مقترحات من هذا القبيل ما دام البريطانيون يحتلون السودان ومصر ٠ وكان هذا الرد يبلور مظاهر الحياد الكثيرة القائمة فى العالم العربى ٠

وهنا كفت الولايات المتحدة عن عنادها واعترفت بقوة مشاعر الحياد فى هذا الجزء من العالم ، وقررت الا تصطدم بهذه المشاعر مباشرة ، وأن تحاول التأثير من الآن فصاعدا بطريقة غير مباشرة على الرأى العام العربى •

وزالت آخر أوهام الولايات المتحدة فى هذا الصدد عقب الرحلة التى قام بها « جون فوستر دلاس » وزير الخارجية الامريكية ، فى الشرق الاوسط فى الفترة من ٩ الى ٢٠ مايو سنة ١٩٥٣ وقررت واشنطن حينئذ أن تكرس جهودها مع الدول المتاخمة للاتحاد السوفييتى بأن تتبع سياسة أكثر تحفظا مع بلاد الشرق الاوسط الاخرى •

واذا كانت صفقة الاسلحة التى عقدها عبد الناصر مع تشيكوسلوفاكيا قد أثارت مخاوف الامريكيين ، فانه لم يغب عن نظرها أن الملك سعود كان يؤيد هذه الخطوة ، وربما اتخذت بموافقته • ويلاحظ فى هذا الصدد أن الامير فيصل ، أخا الملك سعود ، رد على صحفى سأله عمـا اذا كان لا يخشى أن يؤدى شراء الدول العربية للاسلحة من الدول الشيوعية الى عواقب وخيمة ، فقال : « اننا نشترى قطع حديد ، وليس مبادىء » •

وعلى الرغم من قلق واشنطن فانها كانت ترى أن عبد الناصر لن يستطيع أن يسير فى سياسته الى آخر الشوط ، فالاسلحة التى يشتريها لابد له من أن يدفع ثمنها • وليس لديه سلعة غير القطن يبيعها للوفاء بثمن هذه الاسـلحة ، وليس هذا القطن يباع فى الاسواق العالمية التى يتحكم فيها المشترون الغربيون •

المساعدات السوفييتية :

ولكن عنصرا جديدا يدخل فى الموقف ، اذ ابتهجت موسكو بمقاومة ناصر للضغط الواقع عليه للانضمام الى حلف بغداد ، وقررت أن تقدم له الوسائل التى تساعده على الاستمرار فى المقاومة • وكان صاحب هذه الفكرة هو « شبيلوف » الذى كان قد أصبح وزيرا للخارجية السوفييتية • وأعربت روسيا عن استعدادها

لشراء المنتجات المصرية بأسعار مجزية • وأن تبيع له الآلات التى تلزمه وكذلك المواد الخام بقروض تقدمها ويسددها على آجال طويلة • وأن ترسل اليه خبراء سوفييت لمساعدته على تطوير الصناعة فى بلاده ويقومون فى نفس الوقت بتلقين المصريين النواحى الفنية التى تنقصهم •

وفى هذه الفترة نمت التجارة المصرية ـ السوفييتية نموا ملحوظا فى حين هبطت التجارة المصرية ـ الغربية ، مما يدل على اهتمام السوفييت بدعم التبادل التجارى مع مصر • ففى سنة ١٩٥٤ كان مجموع قيمة الصادرات المصرية الى أربع دول أوروبية رئيسية هى : بريطانيا وفرنسا وألمانيا الاتحادية وايطاليا ، ٥٢ر٤ مليون جنيه مصرى ، ولكن هذا الرقم هبط فى العام التالى مباشرة (١٩٥٥) فأصبح ٣٦ر٦ مليون جنيه ، فى حين ازدادت قيمة الواردات المصرية منها من ٦٧ر٧ مليون جنيه عام ١٩٥٤ الى ٧٣ر٧ مليون جنيه سنة ١٩٥٥ •

وهـذا يعنى أن الدول الرئيسية الاربع فى أوروبا باعت لمصر عام ١٩٥٥ بما تزيد قيمته على ضعف ما اشترته مصر منها ، فى حين هبطت قيمة مشتريات هذه الدول من مصر عـام ١٩٥٥ بنسبة ٣٠ فى المائة عن قيمة مشترياتهـا عام ١٩٥٤ • وهذا يعنى أيضا أن الميزان التجارى لمصر أصبح مدينا بمبالغ ينبغى دفعها للدول الاوروبية التى باعت لمصر عام ١٩٥٥ سلعا تزيد قيمتها على قيمة السلع التى باعتها لها فى العام السابق •

وعكس هذا حدث فى الميزان التجارى مع الدول الشرقية ، فقـد كان فى صالح مصر ، ففى سنة ١٩٥٥ اشترت هذه الدول ضعف ما اشترته من مصر عام ١٩٥٤ (٣٥ر٣) مليون جنيه مصرى عام ١٩٥٥ مقابل ١٨ر٧ مليون جنيه مصرى عام ١٩٥٤ ، وبلغت قيمة مشترياتها من مصر عـام ١٩٥٥ ما يوازى نحـو قيمة مشتريات الدول الاوروبية الرئيسية الاربع التى كانت تحصل حتى ذلك الوقت على نصف تجارة مصر الخارجية •

وهذه الارقام تدل على أن دول الكتلة الشرقية بادرت سنة ١٩٥٥ الى انقاذ حكومة القاهرة المحايدة من الوقوع فى كارثة ، ومدت يد المساعدة لها للاحتفاظ بمستواها السابق فى الصادرات بعد أن قبضت دول الغرب يدها عنها ، هذا بالاضافة الى القروض الطويلة الاجل التى حصلت عليها مصر من دول الكتلة الشرقية ٠

ولكن اذا كان الكرملين يقدم الى عبد الناصر الاوراق التى يستطيع أن يلعب بها ، فانه لا يقدم له منها ما فيه الكفاية ، وذلك حتى لا يتيح له الفرصة لكى يلعب وحده ، وليرغمه على أن يكون دائما فى حاجة الى معونة السوفييت ٠ واذا كانت روسيا تقدم لعبد الناصر الوسائل اللازمة التى تساعده على بقاء حكمه ، فلانه يريد أن يحافظ على الخط الاساسى للحياد العربى ٠

وقد أدى ظهور الخطر الاسرائيلى الى اقناع عبد النـاصر بأن الحصـول على الاسلحة الثقيلة أصبح شيئا لا غنى عنه ٠ وفى شهر أغسطس سنة ١٩٥٥ حصل على أربعين دبابة من طراز « سـنتوريون » ولكن من غير ذخيرة ، والذخيرة التى سلمت له فيما بعد كانت أقل من القليل ٠ وكان الفرنسيون قد ألغوا فى هـذا الوقت الاتفاقية التى عقدوها مع مصر بارسال الاسلحة اليهـا ، فى حين ترامت الانباء بأنهم عقدوا اتفاقية سرية مع اسرائيل أرسلوا بمقتضاها الى تل أبيب مائة دبابة ، وعدة طائرات من طراز « مستير » وقد نفت فرنسا واسرائيل هذه الانباء التى ثبتت صحتها بعد شهرين ٠

حاول ناصر أن يشن على اسرائيل حرب العصابات (الفدائيين) للثأر من هجومهم على غزة ، فكان الفدائيون يقومون بغارة هنا وغارة هناك ، ولكنها كانت غارات تقوم بها دولة فقيرة تنقصها الاسلحة والوسائل ، ومع ذلك كانت الصحف المصرية تنشر أنباء هذه الغارات الضعيفة بعناوين كبيرة ٠ ومع أن هذه الغارات كانت غير فعالة فقد أتاحت لاسرائيل أعذار جديدة لتضرب من جديد بشدة ٠ ففى يوم أول سبتمبر سنة ١٩٥٥ قذفت غزة بالقنابل ، وكان هذا اليوم يوافق اليوم

الذى تقام فيه ســوق المدينة ، فقتلت أربعين شخصا • وفى ٢١ سبتمبر زحفت القوات الاسرائيلية واحتلت منطقة العوجة التى كانت منزوعة السلاح حينئذ والتى تسيطر على الطرق المؤدية الى شبه جزيرة سيناء •

وكان عبد النــاصر يعزو الهجمات الاسرائيلية لا الى تل أبيب ، ولكن الى تحريض باريس التى كانت قد بدأت ترى أن مثل هذه الهجمات يمكن أن تصيب بالخسائر مصر التى اشتهر عنها حينئذ أنهـا عصب الثورة الجزائرية ، وتقـدم المساعدات لمن كان يقال عنهم « المتمردون الجزائريون » •

وحينما أعلن عبد الناصر نبأ عقد صفقة الاسلحة التشيكية مقابل القطن والارز ، لم يهتم كثيرا باحتجاج دول الغرب أو بتهديدها بوقف معوناتها الاقتصادية له ، لانه كان فى أشد حاجة الى هذه الاسلحة •

ولكن الضغط ازداد حدة • ففى ١١ أكتوبر سنة ١٩٥٥ انضمت ايران الى ميثاق بغداد • وردت مصر على هذه الخطوة بتوثيق علاقاتها السياسية بكل من سوريا والمملكة العربية السعودية ، وأعقبت بعقد اتفاقية عسكرية مع سوريا يوم ٢٠ أكتوبر ، ثم مع المملكة السعودية يوم ٢٧ أكتوبر ووضح أن الملك سعود يؤيد عبد الناصر ، ويرجع ذلك الى تحريض البريطانيين لسلطان مسقط وشيخ أبوظبى على احتلال واحة البوريمى الغنية بالبترول التى ينازعهما الملك سعود فى ملكيتها• وقد كلف هذا التحريض ايدن كثيرا من اللوم من جانب دالاس ولكن ايدن لم يهتم بهذا اللوم ولم يلق اليه بالا • وجدير بالذكر أن ايدن كتب فى مذكراته أن الحكومة الامريكية اعتبرت احتلال واحة البوريمى بمثابة عمل عدوانى •

تحسن الموقف :

من الغرابة بمكان أن القنبلة التى فجرها عبد الناصر بشراء الاسلحة من دول الكتلة الشرقية أعقبها تخفيف حدة التوتر فى علاقاته مع دول الغرب • فلما جاء الى القاهرة جورج الن المبعوث الخاص لدالاس ليحتج على صفقة الاسلحة رفض

عبد الناصر احتجاجه • ولكن نظرا الى أن عبد الناصر رجل مهذب فقد وافق على أن يستقبله ، ولفطنته المعروفة عنه استمع اليه باهتمام ، غير أنه لما كان طماعا فقد طلب عقب محادثاته مع جورج الن بقليل مساعدة البنك الدولى لتمويل مشروع انشاء السد العالى بأسوان •

وبدأت المحـادثات الماليـة بين مصر وبين الانجليز والامريكيين ، واجتمع عبد الناصر عـدة مرات بالسفير البريطانى فى القـاهرة ، وتنـاولا فى حديثهمـا المساعدات الاقتصادية ، ومسألة السد العالى وغير ذلك من المسائل ، ولم يقتصر حديثهما على تبادل وجهات النظر بدليل أن أنطونى ايدن اقترح فى مجلس العموم البريطانى فى أوائل نوفمبر ١٩٥٥ اجراء محادثات بين العرب واسرائيل بقصـد الوصول الى تسوية بينهما على أساس التوفيق بين المواقع التى كان يحتلها العرب حينما أعلن التقسيم الذى بحثته الامم المتحدة عام ١٩٤٧ والمواقع التى احتلهـا الاسرائيليون فعلا عقب اعلان الهدنة عام ١٩٤٩ •

عودة التوتر :

ولأول مرة بدأ الغرب يضغط على اسرائيل ، وفى أول نوفمبر سنة ١٩٥٥ أصبح بن جوريون ، الذى كان يشغل منـذ عشرة شـهور منصب وزير الدفاع رئيسـا للحكومة الاسرائيلية ، وصرح بأنه مسـتعد للتفاهم مع جميع العرب • ولكن يا للأسف ! ففى مساء اليوم ذاته الذىأعلن فيه هذا التصريح دحض الجيش الاسرائيلى بطريقة دموية ما قاله رئيس الوزراء ، فهاجم القوات المصرية المرابطة فى « الصبحة » وبدأ المراقبون يتسـاءلون ما اذا كان قادة الجيش الاسرائيـلى يتجاوزون بن جوريون وفقد هو السيطرة عليهم •

وفى وسط هذه الظروف القاتمة ، تلقى عبد النـاصر معلومات مقلقة عن تفاصيل شحنات الاسلحة التىأرسلتها فرنسا الىاسرائيل ، وقد أبلغ عبد الناصر فورا هذه التفاصيل الى صحفى من جريدة « لايف » الامريكية ، قائلا : ان فرنسا

أرسلت الى اسرائيل ٧٠ طائرة من طراز « مستير » و ١٠٠ دبابة ، و ١٠٠ مدفع ثقيل عيار ١٠٥ ، ١٥٠ مدفعا مضادا للطائرات ، و ٧٥ مدفعا سريع الطلقات ٠ وبطبيعة الحال نفت كل من اسرائيل وفرنسا هذه المعلومات ، ولكن هذا النفى لم يقنع أحدا ٠

غير أن الشيء الذى أثار قلق عبد الناصر بصفة خاصة هو الانباء الواردة من الاردن ، اذ كان يبدو أن بريطانيا تقوم بمناورات تهدف الى ارغـام الاردن على الانضمام الى حلف بغداد ٠ فاتضح لعبد الناصر أن التحسن المفاجيء فى العلاقات الانجليزية المصرية لم يكن الا فخا قصد به صرف نظره عن النضال ضد ميثـاق بغداد ، وتعريض سمعته فى الوقت نفسه للخطر أمام الرأى العام العربى بجره للادلاء بتصريحات علنية عن احتمال اجراء تسوية للنزاع العربى الاسرائيلى ٠

الأردن هى الهدف :

قال أنطونى ايدن فى مذكراته انه فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥ قابل السفير البريطانى فى عمان الملك حسين وأجرى معه محادثات صرح له فيها الملك الأردنى بأن حكومته مستعدة للانضمام الى ميثاق حلف بغداد بشرط أن تتلقى من بريطانيا « التأييد اللازم » ٠ وقال ايدن ان وزيرا فى البلاط الاردنى أدلى للسفير البريطانى بتصريح مماثل ، وأن الجنرال جلوب قائد الفيلق الاردنى أبلغ وزارة الدفاع البريطانية بأن حكومة الاردن مستعدة للانضمام الى حلف بغداد ٠ وقال ايدن ان كل هذه المعلومات كانت تشير الى أن هذه فرصة سانحة ، وأنه اذا لم تعمل الحكومة الاردنية الآن فان هذه الفرصة ستفلت الى الأبد ٠

وكان المسئولون الاردنيون ـ أو على الاقل ممثلو بريطانيـا فى عمـان ـ متلهفين على تحقيق هذا الهـدف ، واقترحوا أن يمر هارولد ماكميـلان وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت على عمان فى أثناء عودته من بغداد حيث كان يحضر اجتماع وزراء خارجية دول حلف بغداد ، وذلك لبحث مسألة انضمـام

الاردن للحلف . ويبدو أن فكرة ضم الاردن الى ميثاق بغداد هي في الاصل من وحي ماكميلان . وقد روى أنطوني ايدن رئيس الحكومة البريطانية حينئذ في مذكراته : « لقد وجد ماكميلان في بغداد دلائل تبعث على التشجيع والتفاؤل ، ورأى أن الوقت قد حان لحث بعض الدول العربية الاخرى على الانضمام للحلف . وكانت العراق ـ الدولة العربية الوحيدة المشتركة في الحلف ـ تشعر أنها في عزلة . وكان من رأيه أن أول دولة عربية جديدة ينبغي أن تنضم لميثاق بغداد هي الاردن » .

وتطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة . ففي يوم ١٦ نوفمبر طلبت الاردن رسميا الانضمام للحلف ، وفي ٢١ نوفمبر اجتمع مجلس الحلف في بغداد لبحث هذا الطلب . وبعد خمسة عشر يوما وصل الى عمان السير جيرالد تمبلر رئيس هيئة أركان حرب الجيش البريطاني لوضع التفاصيل العسكرية المتعلقة بانضمام الاردن الى الحلف . والواقع أن السير تمبلر لم يكن الزائر الوحيد الذى وصل الى عمان في ذلك الوقت ، فقد كان هناك أيضا زائر آخر أحاط مهمته بالكتمان هو المشير عبد الحكيم عامر ، قائد الجيش المصرى .

وقرر ايدن أن يقدم للأردن هدية سخية من الاسلحة والمهمات العسكرية . ويلاحظ أنه اتخذ هذا القرار من غير استشارة حلفائه ، وغاب عن نظره أنهسيقدم هذه الاسلحة الثقيلة الى الجيش الاردنى المتأثر بنفوذ عبد الناصر ، بجانب قبول رؤسائه ذهب سغود الذى أعلن مع نهرو « مبادىء التعايش السلمى الخمسة بين الدول » ولام العراق فى الوقت نفسه لالحاقها الضرر البالغ بقضية الوحدة العربية بعد توقيعها على الحلف ، كما حذر كلا من لندن وواشنطون من أن ما يرمى اليه ذلك الحلف لن يتحقق . الا أن كل هذا لا يهم ، فقد وعد ايدن بأن يقدم للجيش الاردنى عشر طائرات من طراز « فامباير » وأن يسلح كتيبتين للمشاة ، وكتيبة للمدفعية ، وكتيبة مدرعة .

على أن تمبلر لم يكد يعرض على المسئولين الاردنيين تفصيلات المساعدات العسكرية حتى قدم أربعة وزراء أردنيين استقالاتهم ، مما أدى الى سقوط الحكومة.

واستطاع هزاع المجالى رئيس الوزراء الجديد ـ وهو من المؤيدين للانجليز ـ اقناع الجنرال تمبلر بالعودة الى لندن لينتظر هناك حتى تتحسن الظروف قبل أن يرجع الى عمان • وفى خلال خمسة أيام انتشرت الفتنة وعم الاضطراب البلاد وسقطت حكومة هزاع المجالى وخلفه فى الحكم ابراهيم هاشم رئيس مجلس الشيوخ الذى كان أول شيء فعله هو اعلان استنكاره لميثاق حلف بغداد • وكان هذا فشلا جديدا لسياسة بريطانيا •

والسهولة التى تتساقط بها الحكومات الموالية للانجليز فى الاردن قد تثير الدهشة ، ولكن هذه الدهشة تزول اذا أفهمنا التكوين الحقيقى للشعب الاردنى ، فان ثلثى سكان هذا الشعب يتألفان فى الواقع من أصل « أجنبى » عن البلاد • ذلك أنه حينما قرر الملك عبد الله ـ الذى كانت بلاده تسمى شرق الاردن ـ الاستفادة من حرب فلسطين بأن يضم اليها الجزء العربى من فلسطين الذى لم تحتله القوات الاسرائيلية ،كان عدد سكان مملكته لا يتجاوز ٤٦٤ر٦٨٠ نسمة ، وقد انضم اليهم ٤٣٧ر٠٥٠ شخصا يعيشون فى الاراضى الفلسطينية التى ضمت الى الاردن و ٤٥٠ر٤٥٠ شخصا من اللاجئين الفلسطينيين الذين فروا من قطاعات فلسطين بعد احتلال القوات الاسرائيلية لها • وهذا يعنى أن ثلثى سكان الدولة التى سميت الاردن ، يتألفون أصلا من الفلسطينيين أى من العرب الذين قاسوا أشد الآلام والمحن على يد الاسرائيليين • وهؤلاء الفلسطينيون قوم نشطون سرعان ما اندمجوا فى القطاعات الجوهرية فى البلاد بما فيها الجيش الاردنى الذى يعتبر مجالا طيبا لدعايات الوحدة العربية •

ولما تحقق الوطنيون الاردنيون من فشل مهمة الجنرال تمبلر صمموا على أن يعززوا مكاسبهم ، وأن يطالبوا بالغاء المعاهدة الانجليزية الاردنية، وقطع العلاقات مع العراق ، والتحالف مع مصر والمملكة العربية السعودية •

وفى يوم ٧ يناير سنة ١٩٥٦ تجددت الاضطرابات فى الاردن ، واتخذت الحكومة اجراءات شديدة لقمعها ، وأدت هذه الاجراءات التى تولى مسئوليتها

الجنرال « جون جلوب » قائد الفيلق العربي الى القبض على ٢٠٠٠ شخص منهم ٣٠٠ شخص فى مدينة القدس وحدها . وفى ذلك اليوم تقرر مصير جلوب الذى ظهر للناس بمظهر العدو « رقم ١ » للشعور العربى ، كما تقرر مصير الملك حسين نفسه الذى استعان بأجنبى انجليزى لقمع شعبه . وقد فكر الملك حسين ، وكل الذين كانوا يحيطون به فى ذلك العهد ويقدمون له المشورة ، فى دعوة القوات العراقية للمجيء الى الاردن ، وقد أجاب نورى السعيد ومستشاروه بأنه اذا كان للعراق أن يرسل قوات الى الاردن فان هذه القوات يجب أن تكون من الضخامة بحيث تحقق النجاح لمهمتها .

ولجأ الانجليز الى وسائلهم الاستعمارية التقليدية ، فأرسلوا الى قبرص من لندن بالطائرات كتيبتين من قوات المظلات وكتيبة مشاة خفيفة . وحركوا الى قرب عمان وحدة من سلاح الجو البريطانى وكتيبة مدرعة كانتا ترابطان فى جبهة ما بالاردن . وقامت بريطانيا فى الوقت نفسه بالضغط على القاهرة للتخفيف من حدة الحملة الاذاعية التى تشنها . كما قامت بضغط مماثل على وشنطن لكى تطلب من مصر الكف عن التدخل فى شئون الاردن .

ولكن التهديد الحقيقى والمباشر لم يجيء من ناحية مصر ، وانما من المملكة العربية السعودية . فقد زحف طابور سعودى قوامه ٢٠٠٠ جندى تعززه المدرعات والمدفعية ورابط قرب حدود الاردن الجنوبية . وقد أدت هذه الحركة الى تعقيد الموقف ، وتبين أن القوات السعودية استخدمت لتغطية مؤامرة عجيبة دفعت أنطونى ايدن رئيس الحكومة البريطانية بعد أسابيع قليلة الى المطالبة بالقضاء على عبد الناصر بأى ثمن .

وكان انطونى ايدن قد عين فى هذا الوقت (أوائل عام ١٩٥٦) سلوين لويد وزيرا للخارجية بدلا من هارولد ماكميلان الذى كان معروفا بالتهور واتخاذ قرارات متسرعة .

تنسيق أنجلو أمريكي :

أراد أنطوني ايدن ـ قبل أن ينفذ خططه في الشرق الأوسط ـ أن يؤمن مؤخرته في وشنطن ، ولهذا فقد أعلن في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥ أنه سيزور الولايات المتحدة في شهر يناير ١٩٥٦ • وفي ٢٥ من هذا الشهر أبحر رئيس وزراء بريطانيا بصحبة وزير الخارجية سلوين لويد في الطريق الى الولايات المتحدة على الباخرة « كوين اليزابيث » • وفي نيويورك كانت تنتظرهما طائرة الرئيس ايزنهاور الخاصة « كولمبين » التي أقلتهما الى وشنطن حيث تناولا على الفور طعام الغداء مع الرئيس أيزنهاور وجون فوستر دالاس • وكان كل الحديث الذي دار على المائدة عن الصين ، وقد أشار ايزنهاور ودالاس في خلاله الى الموقف « المشترك » الذي ينبغي أن يتخذه الامريكيون والانجليز تجاهها •

وبعد الظهر دار الحديث بين الجانبين عن الشرق الأدنى ، وقد طلب الجانب البريطاني من الامريكيين الضغط على الملك سعود للكف عن مطالبته بواحة البوريمي، ووقف الدعاية المناهضة للانجليز التي يقوم بها في الشرق الأدنى • وقد راوغ أيزنهاور ودالاس وتهربا من مناقشة أي اجراء عملي يمكن أن يؤدي الى مضايقة الملك العربي ، ولكنهما وعدا باقناعه بانفاق أمواله على المشروعات الانتاجية في بلاده بدلا من أن يملأ بها جيوب المسئولين في الدول العربية الأخرى •

أما عبد الناصر فقد كان الجانب الامريكي أقل عطفا عليه ، وقد تصور ايدن من المحادثات أن الامريكيين يوافقونه بصفة عامة على وجهة نظره بشأن الزعيم المصري ، وقد شعر ايدن بارتياح لذلك وكتب في هذا الصدد : « كانت السياسة الانجليزية والامريكية متناسقة تناسقا وثيقا في هذه المرة تجاه مصر • وقد اتفقت وجهات نظرنا على أن مستقبل سياستنا في الشرق الأوسط يتوقف الى حد كبير على ناصر ، بحيث أنه اذا أظهر استعدادا للتعاون معنا سنقابل عمله بالمثل • وقال الامريكيون أنهم يعتقدون أن المحادثات الحالية التي يقوم بها يوجين بلاك مدير البنك الدولي مع عبد الناصر بشأن مشروع السد العالي يمكن أن

تكشف نواياه ، فاذا كان موقفه تجاه هذه المسألة وغيرها من المسائل تشير الى أنه لا يرغب في التعاون فينبغي على الطرفين الانجليزى والامريكى أن يعيدوا النظر فى سياستهما ازاءه ٠

ولا شك أن وجهة نظر الامريكيين كانت غامضة ، ومثارا لكثير من سوء التفاهم ٠

فرنسا تطالب :

كان ميثاق حلف بغداد ، الذى أعد وعقد من غير أخذ رأى فرنسا ، يثير مسألة الاخلال بتوازن القوى فى الشرق الادنى ٠ ولم تغب هذه الحقيقة عن باريس التى كانت تراقب بسرور الأخطاء السياسية التى يرتكبها البريطانيونوالامريكيون فى هذه المنطقة من العالم ٠ ولكن هذا الشعور كان يخالطه القلق حينما نلاحظ الأمور عن كثب ، اذ الواقع أن الانقسام الذى يعتقد الانجليز أنهم يستطيعون احداثه بين الدول العربية بواسطة هذا الميثاق شجع السوفييت على التدخل بصورة خطيرة فى هذه المنطقة ، وهو أمر ترغب الدول الغربية جميعا فى تحاشيه، بما فيها فرنسا ٠ وعلى أى حال فقد كانت الدبلوماسية الفرنسية تعمل فى ذلك الوقت على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الدول العربية ٠ وكان السفراء الفرنسيون فى الشرق الادنى يطالبون ـ باستثناء سفيرنا فى اسرائيل ـ بانتهاج سياسة مرنة فى هذه المنقطة ، وكان من المهم فى نظر فرنسا ألا يحتكر الانجليزوالامريكيون عملية القيام وحدهم بدور الفرسان فى الشرق الادنى ٠ ولهذا وجهت فرنسا يوم ١٧ يناير سنة ١٩٥٦ مذكرة الى حليفتيها طلبت منهما فيها دعوتها للاشتراك فى المحادثات الثنائية التى كان مقررا اجراؤها بين الانجليز والامريكيين فى وشنطن، ولكن بريطانيا والولايات لمتحدة لم تلتفتا لهذا الطلب وقامتا بهذه المحادثات من غير أن يشركاها فيها ، وفى الوقت نفسه أبلغاها استعدادهما لعقد مؤتمر انجليزى فرنسى أمريكى لبحث شئون الشرق الادنى ، ولكن على مستوى غير وزارى ٠

ورفضت فرنسا مشروعا يهـدف الى المحافظة على السلامة الاقليمية لدول الشرق الأوسط ، والقيام بعمل مشترك لتحسين الاحوال الاقتصادية بصفةخاصة فى هذه المنطقة من العالم • ويتضمن المشروع أيضا الدعوة الى عقد مؤتمر رباعى يضم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى للاتفاق على حظر ارسال الأسلحة الى دول الشرق الأوسط • ولكن هذه النقطة من المشروع كانت تتضمن عيبا خطيرا ، فالاتحاد السوفييتى اذا كان سيتحاشى الاخلال بهذا الاتفاق، فان الدول التى تدور فى فلكه لن تلتزم بهذا الحظر وستواصل ارسال الاسلحة الى عبد الناصر ، ولهذا فان الضرورة تقضى بأن يكون هذا الحظر عاما شاملا • على أنه يلاحظ من جهة أخرى أن منع بريطانيا والولايات المتحدة من ارسال الاسلحة الى الدول العربية سيؤدى الى تدمير أسس حلف بغداد •

وهذا المشروع يكفل من وجهة النظر الفرنسية توفير الأسس اللازمة لتحقيق سياسة التفاهم مع العرب • وقد قام كريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسية ـ مستندا الى هذا المشروع والى تشجيع جميـع الدول العربيـة باستثناء العـراق والاردن ـ برحلة الى الشرق الأوسط زار خلالها عبد الناصر •

وفى أثناء ذلك اجتمـع المؤتمر الانجليزى الفرنسى الامريـكى الذى بحث شئون الشرق الادنى ، ثم أعلن البنـك الدولى بعد ذلك مباشرة ، يوم ٩ فبراير سنة ١٩٥٦ أنه قرر قبول تمويل مشروع الســد العـالى جزئيا ، ووضـع لذلك شروطا معينة •

الســد العــالى :

قررت الحكومة المصرية أن نبنى سدا ضخما جديدا قرب اسوان لتحقيـق هدفين أساسيين : أن توسع بسرعة رقعة الاراضى الزراعية لمواجهة الزيادةالسريعة فى عدد السكان ، وأن توجه أنظار الشعب إلى مشروع كبير يثير خياله وحماسته •

لقد نبتت هذه الفكرة عام ١٩٥٤ بعد دراسات تمهيدية قامت بها شركة المانية ، وقدرت تكاليف انشاء السد وحده بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار ، واتجهت النية الى أن تقوم بالتنفيذ شركة انجليزية فرنسية ألمانية متحدة. ولكن اذا سحب مجموع النفقات الاضافية ، مثل زراعية الاراضى الجديدة ، فان المجموع الكلى للنفقات يصل الى ١٣٠٠ مليون دولار توزع على عشرين عاما .

ولما كانت مصر فى حاجة ماسة الى تمويل المشروع فقد لجأت رغبة فى تحقيق هذا الغرض يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٥ الى البنك الدولى ، وهو شركة مالية دولية أنشئت لتشجيع الاستثمار فى جميع أنحاء العالم ، ولاعطاء صورة بما تقدمه من أمثلة عن الرأسمالية العصرية ، وما لها من قوة ومقدرة . طلبت مصر من البنك الدولى ٢٠٠ مليون دولار ، وكان هارولد ماكميلان وزير الخارجية البريطانية وجون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية قد اتفقا فى أثناء مؤتمر وزراء الخارجية الذى عقد فى جنيف فى خريف عام ١٩٥٥ على أن تضاف الى قرض البنك الدولى لمصر معونة تبلغ ١٣٠ مليون دولار من المنح والقروض يدفع منها فى المرحلة الاولى ٧٠ مليون دولار (٥٦ مليونامن الولايات المتحدة و ١٤ مليونا من بريطانيا).

ولكن هذه المعونة التى تقررت يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥٥ ظلت مرهونة بموافقة البنك الدولى على تقديم القروض البالغ مائتى مليون دولار لمصر .

وكانت اللعبة بارعة ، فتقديم مثل هذه المعونة الكبيرة يهدف الى ربط عبد الناصر بقرض لم يكن خاليا من الشروط . ولكن البنك الدولى كان يطلب ضمانات على مقدرة مصر على السداد ، أو بصورة أدق حق الاشراف على النفقات العامة فى مصر ومنعها من أى اقتراض جديد . وكان الهدف واضحا ، هو منع عبد الناصر من التصرف بحرية فى موارده للحيلولة بينه وبين شراء أسلحة جديدة من الكتلة الشرقية .

ولما كانت بريطانيا ملزمة بارسال الاسلحة الى أية دولة عربية تنضم الى ميثاق حلف بغداد فقد كان يكفى أن تدفع اسرائيل الى استفزاز مصر لارغام

عبد الناصر على طلب الانضمام الى الحلف ، وهذا يعنى بالتالى قبوله سيطرة الانجليز العسكرية على بلاده ، والا وجد نفسه عرضة لغضب جماهير شعبه اذا ما عجز عن مواجهة الاستفزازات الاسرائيلية لافتقاره الى الاسلحة .

ولم يشأ عبد الناصر أن يسرع فى توقيع الاتفاق مع البنك الدولى ، بسبب الشروط الملحقة به والمتعلقة بالاشراف على نفقات الحكومة المصرية ، حتى لتعيد الى الأذهان ذكريات اللجنة الفرنسية ـ الانجليزية المشتركة التى كانت تشرف على المالية المصرية فى الفترة التى بين عامى ١٨٧٥ ـ ١٨٨٢ بدعوى ضمان سداد ديون الخديو، وفرضت سيطرتها على جميع مرافق البلاد. وفى ٩ فبراير أعلن البنك الدولى أنه انتهى من اعداد مشروع الاتفاق ، ولكن ترامت الى عبد الناصر فى ذلك الوقت أنباء تفيد أن اسرائيل حصلت على كميات كبيرة من الاسلحة من دول أوروبا الغربية ، ولا سيما فرنسا . ووجد أنه لا مناص من الاسراع فى شراء أسلحة جديدة من الدول الشيوعية لكى يستطيع مواجهة أى هجوم اسرائيلى محتمل ، وكانت المعلومات التى لديه تفيد أن اسرائيل تدبر فعلا هذا الهجوم .

وفى نهاية شهر فبراير سنة ١٩٥٦ قام سلوين لويد برحلة الى الشرق الادنى ، واجتمع يوم ٢ مارس بعبد الناصر . وكان سلوين لويد أكثر مرونة وفهما لحقائق الموقف من أنطونى ايدن و هارولد ماكميلان اللذين كانا غارقين فى أحلام العصر الفيكتورى ، ولكن كانت لديه تعليمات بأن يحمل « البكباشى » على التزام حدوده واحترام مسئولياته ، بل ان سلوين لويد عرف أيضا كيف يعبس ويقطب حاجبيه وهو ينذر عبد الناصر عقب انتهاء محادثاتهما بقوله : « ولا تنس أن لدينا الجنرال جلوب فى الاردن » .

وبعد أن عاد سلوين لويد الى السفارة البريطانية فى القاهرة تلقى برقية عاجلة بعد الظهر تحمل نبأ خطيرا : طرد الماجور جنرال جلوب ، الذى خدم فى الشرق الاوسط مدى ستة وعشرين عاما ، من منصبه كقائد للفيلق العربى بالاردن .

الفتنة فى الأردن :

لما تولى الجنرال جلوب فى شهر يناير سنة ١٩٥٦ مسئولية قمع الفتنة فى الاردن بدأت المؤامرات تدبر ضده . ولم تكن هذه المؤامرات تهدف الى اغتياله ، فان هذا كان من شأنه أن يؤدى الى عواقب خطيرة لان القوات البريطانية كانت حتى ذلك الوقت ترابط فى الاردن ، وانما كانت تهدف الى طرده من البلاد . وقد اجتمع لهذا الغرض فى دمشق فريق من ضباط الجيش الاردنى – من أصل فلسطينى – برئاسة اللواء أبو نوار مع زعماء الحزب الاشتراكى الوطنى الاردنى وممثلى الحكومة السورية ، وأشرف على اعداد المؤامرة وزير الداخلية السورية نفسه .

وقال مصدر مطلع فى هذا الشأن : « وجد الملك حسين نفسه فجأة أمام ضغط شديد من جانب الضباط الاحرار فى الجيش الاردنى ومن جانب المعارضة ، فاضطر تحت تأثير الفزع الذى استولى عليه الى توقيع مرسوم باقالة الجنرال جلوب » .

ولم يكن أمام الملك خيار ، فقد كان يعرف طباع العرب ، وانهم لن يترددوا فى اغتياله اذا لم يوقع بذلك . ولكن يبدو أنه وقع طبقا لخطة سياسية فكر فيها مقدما ، وأن فزعه من الاغتيال لم يكن هو العامل الاساسى الذى حمله على التوقيع .

وقد أصيب الانجليز بالدهشة والاستياء لتطور الاحداث الى طرد جلوب ، وازداد ذهولهم الاستقبال السيىء الذى قوبل به وزير خارجيتهم سلوين لويد فى مطار البحرين حيث هتفت الجماهير الصاخبة ضده هتافات عدائية مهينة وعطلت سير سيارته مدة أربع ساعات وأتلفت سيارات مرافقيه .

لقد شربت بريطانيا الكأس حتى الثمالة ، وقررت أن تضرب ضربتها ، وتوجهها ضد عبد الناصر لكى تتخلص منه .

جى موليه فى لندن :

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد ١١ مارس سنة ١٩٥٦ وصل جى موليه رئيس الحكومة الفرنسية الى لندن ثم عاد الى باريس مساء اليوم نفسه حيث علم أنه اتفق مع الانجليز على انتهاج سياسة فرنسية بريطانية مشتركة تنطوى على الشدة تجاه مصر .

لقد كانت الحكومة الفرنسية ـ فى الوقت الذى راحت فيه بريطانيا تتلقى الاهانات فى الشرق الاوسط ـ تريد التخلص من ناصر باعتباره يشجع على استمرار الثورة الجزائرية . وأخذ جى موليه ـ عن طريق جيكوب تسور سفير تل أبيب فى باريس ـ يعقد اتصالات تستهدف ضم اسرائيل الى كل من فرنسا وبريطانيا للقيام بعمل مشترك ضد القاهرة .

ومما يستوقف النظر فى هذا الشأن أنه عقب عودة جى موليه من لندن بأسابيع قليلة نشرت صحيفة « بيرسبكتيف » الفرنسية ذات المصادر المطلعة مقالا يوم ١٧ مارس سنة ١٩٥٦ جاء فيه : « ان اسرائيل يجب أن تضرب ضربتها قبل مضى ستة شهور » .

ومضت الصحيفة الفرنسية تقول ان المشكلة بالنسبة لاسرائيل هى كيف تثير هذه الحرب وأن تبرر فى الوقت نفسه موقفها فى نظر الرأى العام الدولى . هل ترسل جيشا لانتزاع الطرف الجنوبى من شبه جزيرة سيناء ؟ ان هذا يتجاوز مقدرة اسرائيل وما لديها من وسائل . اذن هل تهاجم منطقة قناة السويس ؟ ولكن هذا يعنى الهجوم على بريطانيا التى ترابط قواتها فى هذه المنطقة . انأفضل خطة اذن هى الهجوم على الاردن ، وقد علم من مصادر مطلعة أن بن جوريون ينوى أن يبدأ العمل فى هذا الصدد فى نهاية شهر مارس ، عقب انتهاء عيد الفصح اليهودى . وحينئذ ستفتح القوات السورية النيران ، وقد تهاجم . ومصر

ستتدخل • ومن ثم ترد اسرائيل وتهاجم العريش ثم تهاجم مصر ذاتها وهنا يسقط عبد الناصر ، وتعم الفوضى ، ويكتب النصر لاسرائيل • ولكن الغالب الحقيقى سيكون روسيا ، ما لم يصمم الغرب على وقف هذه الفوضى » •

ومما تجدر ملاحظته أن هذه الخطة قريبة الشبه جدا بالعمليات التى وقعت فيما بعد فى شهرى أكتوبر ونوفمبر • فقد بدأت باشتباكات من جانب اسرائيل، ثم تدخل من جانب فرنسا وبريطانيا • وقد ركزت اسرائيل حملتها ضد مصر وأهملت باقى الدول العربية الاخرى للقضاء على رجل واحد هو عبد الناصر ، وعلى نظام حكمه •

ولكن شهر مارس الذى أشارت اليه الصحيفة الفرنسية وحددته كموعد لبدء قيام اسرائيل بالهجوم مر من غير أن يحدث شىء • والواقع أن هذا يرجع الى أن القوات البريطانية كانت حتى ذلك الوقت ترابط فى منطقة قناة السويس ، ولن تغادر هذه المنطقة الى فى شهر يونيه طبقا للاتفاقية الانجليزية ـ المصرية • واذن كانت هذه القوات موجودة فى شهر مارس باعتبار أنها « الحكم » أو « الحامى » المحتمل بمعنى أنها تقوم بدور الحامية لمصر ، وتريد أن تبين للمصريين أن الوجود البريطانى فى منطقة القناة ضرورى لحمايتهم من الذئب الاسرائيلى الكبير الخبيث . وليس هذا الكلام مجرد خيال ، وانما هو يمثل الخطة التي نفذتها بريطانيا فعلا فى شهر نوفمبر من العام نفسه •

ولكن بريطانيا لم تدبر هذه الخطة المباشرة مع اسرائيل ، وانما استخدمت فرنسا فى شخص جى موليه رئيس حكومتها كوسيط فى هذه العملية ، وذلك حتى لا تعرض للخطر صلات الصداقة التى تربطها بالشعوب العربية • وكان الباعث الذى دفع جى موليه الى القيام بهذا الدور هو رغبته فى تصفية حسابه مع عبد الناصر وفى الوقت نفسه انقاذ « الجزائر الفرنسية » •

طلائع النزاع :

لقد نظرت حكومات الغرب نظرة جدية الى المعلومات التي تلقتهـا من أن اسرائيل تنوى شن الحرب يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ ، وفى هـذا اليوم ذاته طلبت الولايات المتحدة دعوة مجلس الامن الى الانعقاد لمناقشة الموقف فىفلسطين، وفى اليوم التالى صرح الرئيس أيزنهاور فى مؤتمر صحفى : « بأن وقوع حرب فى الشرق الاوسط سيكون كارثة » وفى ٢٤ مارس دعا أيزنهاور الى عقد اجتماع فى البيت الابيض حضره كبار المسئولين المدنيين والعسكريين وبحثت فيه تطورات الموقف فى فلسطين ٠

وفى خلال هذا كان الفدائيون المصريون يقومون بغـارات مفاجئة يكبدون فيها سكان المستعمرات الاسرائيلية خسائر كبيرة فاتخذ الجيش الاسرائيلى هـذه الاعمال ذريعة لكى يقذف غزة بالقنابل يوم ٥ ابريل سـنة ١٩٥٦ فتقتل ٤٢ شخصا من سكانها ٠

وكان داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة فى طريقه فى ذلك الوقت الى الشرق الادنى لاجراء محادثات تهدف الى وقف اطـلاق النـار بين الجـانبين الاسرائيلى والعربى ، وقد استطاع تحقيق هذا الهدف يوم ١٨ ابريل ٠ وترتب على زيارته تحسن قصير المدى فى الموقف وافقت خلاله اسرائيل ومصر علىمشروع لارسال مراقبين من الامم المتحدة الى منطقة غزة ٠

رحلات بينو :

فى أثناء كل هذه الضجة والجو المشحون بالتوتر اجتمع كريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسية بعبد الناصر فى القاهرة يوم ١٤ مارس لكى يشرح له حسن نوايا فرنسا ورغبتها فى تحسين العلاقات مع مصر ، من غير أن يدرى شيئا عن المؤامرات التى تدبر فى باريس ولندن للتخلص من عبد الناصر ٠ وعلى الرغم

من أن الزعيم المصرى كان يجهل طبيعة الدسائس التى تدبر ضده ، فانه لم يكن لينسى أن فرنسا رفضت أن تبيع له صفقة مدافع « هاون » ويبدو أنهـا كانت تخشى أن ترسل هذه المدافع الى المتمردين الجزائريين • كمـا أنه لم يستطع أن ينسى أن فرنسا طلبت من المنظمات الحليفة تسليم اسرائيل ١٢ طائرة نفاثة من طراز « ميستير ـ ٤ » •

ولكن يبدو أنه كانت هناك أسباب تشجع على التفـاهم بين الدولتين ، والواقع أن عداءهما المشترك لحلف بغداد كان أقوى من الباعث الذى كان يفرق بينهما ، وهو مساعدة مصر للثورة الجزائرية •

وكان كريستيان بينو يعتزم القيام برحلة أخرى لزيارة بعض الدول العربية فى الشرق الأدنى ولكنه تلقى معلومات أدت الى تثبيط همته ، فقد بدأت الحكومات العربية تشن حملة هوجاء ضد فرنسا بسبب تأييدها لاسرائيل فأرغمته هـذه الحملة على تأجيل رحلته الى أجل غير مسمى •

والواقع أن الرأى العام العربى كان حانقا على فرنسا بسبب ارسالها ١٢ طائرة مطاردة من طراز « ميستير ـ ٤ » فى شهر ابريل سنة ١٩٥٦ الى اسرائيل، وهى صفقة أحدثت فى ذلك الوقت دويا كبـيرا • ثم علم العـرب بعد ذلك أن اسرائيل طلبت أيضا من فرنسا شراء ١٢ طائرة أخرى وتحاول شراء ١٢ طائرة غيرها ، كما أن الولايات المتحدة أوصت كندا بتسليم اسرائيل طائرات أمريكية الصنع من طراز « سابير » •

وكان رد مصر على كل ذلك أنها قررت يوم ١٦ مايو سنة ١٩٥٦ الاعتراف بالصين الشعبية ، وايفاد بعثة عسكرية الى بكين • وكان هذا الاجراء بمثابة عقاب لجون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكيـة ، الذى أوصى بتسـليم طائرات عسكرية لاسرائيل •

وفى هذا الوقت وجه الاتحاد السوفييتى نداء للمحافظة على السلام فى الشرق الادنى واقترح على الدول الكبرى عدم ارسال أسلحة الى هذه المنطقة من العالم الا تحت اشراف الامم المتحدة ، واجراء محادثات فى هذا الشأن بين الدول الاربع الكبرى : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى • وذهب بولجانين وخروشوف لزيارة لندن فى شهر أبريل سنة ١٩٥٦ ، واستقبلا جى موليه وكريستيان بينو فى موسكو فى شهر مايو •

وتوجس أنطونى ايدن خيفة من اهتمام الروس المفاجىء بالشرق الاوسط فحذرهم قائلا : « ان بريطانيا ستدافع عن مواردها البترولية فى هذه المنطقة وأنها لن تتردد فى دخول حرب من أجل ذلك » •

وبعد قليل توجه كرستيان بينو الى واشنطن حيث وصل اليها يوم ١٨ يونيه سنة ١٩٥٦ وقد سبقته اليها سمعة سيئة بأنه « حيادى » ، واستقبل استقبالا فاترا ، ونشرت الصحف الامريكية أنباء تفيد أن الرسميين الامريكيين عاملوه معاملة تهدف الى اهانته واذلاله • ومن أمثلة ذلك أن بينو كان قد أعد خطابا لالقائه فى الكونجرس ، ووزع نص الخطاب مقدما على وكالات الانباء • ولما توجه الى الكونجرس أخبره المسئولون هناك ــ وهو يوشك أن يدخل قاعة مجلس النواب وقد تظاهروا بالحرج ــ أنهم نسوا ابلاغ النواب بأنه سيلقى خطابا فى المجلس ، وأنه لا يوجد فى الاروقة غير أربعة نواب أو خمسة • وثمة مثال آخر أكثر خطورة ، فقد نشرت الصحف الامريكية أن ملحقا بالسفارة الفرنسية فى واشنطن أعلن على رؤوس الاشهاد أن كريستيان بينو لا يمثل الا نفسه •

وفى أثناء زيارته للولايات المتحدة تجاهله رجال السياسة هناك ، ومع ذلك فلم يحقد على دالاس ولا على الامريكيين ، اذ كان مشغولا بمسألتين هامتين هما : انشاء السوق الاوروبية المشتركة ، والمشكلة الجزائرية • وكانت محادثاته مع المسئولين فى واشنطن تدور حولهما بصفة خاصة ، ولكنه عاد الى باريس وفى حقيبته اتفاق بالتعاون الذرى بين الولايات المتحدة وفرنسا •

وداعا ٠٠ أو الى اللقاء :

فى خلال هذا الوقت كانت القاهرة تعمها الافراح وتعيش فى عيد كبير ، فقد غادر آخر جندى بريطانى أرض مصر يوم ١٣ يونية ١٩٥٦ ، ولم يكد البريطانيون يتمون انسحابهم حتى جاء الى القاهرة شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفييتى الذى كان قد أجرى مفاوضات من قبل مع عبد الناصر بشأن ارسال أسلحة الى مصر ٠

وقد تم رحيل القوات الانجليزية من مصر من غير وقوع صدام أو حدوث صعاب ، وكان المأمول حينئذ أن تؤدى هذه الخطوة الى ازالة التوتر وتحسن العلاقات بين مصر وبريطانيا ، ولكن البعض كان يستحوذ عليهم القلق ويتساءلون ما اذا كان عبد الناصر سيقنع بذلك أو أن هذا النجاح سيفتح شهيته ويدفعه الى التقدم بمطالب جديدة ٠ وقالت صحيفة « بيرسبكتيف » الفرنسية ساخرة يوم ٣٠ يونيه سنة ١٩٥٦ : « لقد أصبح العرب سادة القناة ٠٠ ولن يلبث بطل الاستقلال ـ ناصر ـ حتى يقدم برهانا جديدا على مدى احترامه للغرب ٠٠ »

وأعلنت صحيفة « أنباء البترول » التى تعكس رأى الدوائر البترولية فى العالم أن القناة أصبحت غاية فى الضيق ٠ وكان هذا بمثابة انذار لشركة قناة السويس التى كانت الدوائر البترولية ـ وقد أصبحت أهم عملائها ـ تضغط عليها سرا منذ بعض الوقت ، لكى تعمل على توسيع القناة ٠

والواقع أن شركات الملاحة التى تملك ناقلات البترول كانت محقة فى طلبها ، فقد كانت تريد قناة واسعة تسمح بمرور السفن الضخمة التى تنقل البترول ، كما كانت تريد تعديل رسوم المرور لتحاشى ما كان يسمى أحيانا « عقوبة السفن ذات الحمولة الكبيرة » ٠

وكان أصحاب ناقلات البترول يلاحظون أن شركة قناة السويس غنية وأنها تستطيع أن تمول وحدها مشروعات تحسين القناة ٠ ولكن الشركة كانت تأمل

ألا تتحمل وحدها نفقات تحسين القناة وتوسيعها لمصلحة فئة معينة من عملائها وهم أصحاب ناقلات البترول الضخمة • وهى لم تكن تمانع فى الاشتراك فى هذه النفقات ولكنها كانت ترغب فى أن يتولى البنك الدولى المساهمة فى جزء من برنامج أعمال التحسين •

وغضب رجال الاعمال الانجليز من طريقة تفكير المسئولين فى الشركة ، فمن رأيهم أن البنك الدولى له مهمة محدودة هى تمويل المشروعات فى البلاد الفقيرة ، مثل مصر ، واظهار مزايا النظام الرأسمالى ومحاسنه • ولكن القناة غنية جدا ، وليست فى حاجة الى تقديم أى مثال على مزايا الرأسمالية وفضائلها • ثم أن الشركة تضع فى كل عام فى خزائنها ٣٥ مليار فرنك قيمة رسوم المرور ، وهذا المبلغ هو ايراد رأس مال استهلك منذ سنوات كثيرة فى الوقت الذى لا تنفق فيه على أعمال تحسين القناة غير عشر الايرادات ، ولا تتجاوز كل نفقات الشركة ١٦ مليار فرنك ، فهل لا يعد ذلك ربحا « غير عادل » وكسبا « شيطانيا » لا ينظر اليه رب السماوات نظرة رضى ؟

وكان المصريون يتابعون هذه الأمور باهتمام ، بل انهم زعموا أيضا أن الشركة حاولت اقناع رجال الاعمال الامريكيين بأن يستخدموا نفوذهم لدى الدوائر المسئولة لحمل مصر مد اجل امتياز الشركة ، أو انشاء قناة جديدة ، مشتركة فرنسية أمريكية • ولكن جون بيكو ، المدير العام لشركة القناة نفى هذا الزعم •

ناصر وشركة القناة :

قد يبدو غريبا أن شركة القناة كانت تشير فى بداية الأمر بارتياح لتولى عبد الناصر شئون الحكم فى مصر ، ولكن هذه الغرابة تزول اذا علمنا أن الجماهير فى مصر كانت قبل عام ١٩٥٢ فريسة لدعايات عنيفة موجهة ضد الشركة ، الا أن حكم عبد الناصر خلق نوعا من الاستقرار فى البلاد ، فبدأت الشركة تنظر الى

المستقبل بشيء من الثقة • وكان عبد الناصر يعلم أنه لا فائدة من عمل شيء تجاه الشركة ما دامت القوات البريطانية مرابطة فى منطقة القناة ، ولهذا فقد ركز جهوده فى العمل على تحقيق جلاء القوات الانجليزية من مصر على أساس أن نجاحه فى هذه الخطوة يؤدى الى حل جميع المشكلات الأخرى المتعلقة • هذا فضلا عن أن عبد الناصر لم يشأ ، حينما تولى الحكم ، أن يتسرع فى الدخول مع الشركة فى نزاع حتى لا يفسد علاقته مع الغرب ، وحتى لا يعرقل المفاوضات التى كانت تجرى بينه وبين البنك الدولى الذى كان يأمل الحصول على عدة ملايين من الدولارات لتنفيذ مشروع السد العالى •

لقد كان عبد الناصر يتصرف اذن بحذر وفطنة • ولكن بمجرد أن بدأت القوات البريطانية فى الرحيل عن أرض مصر ، وبدأ الجيش المصرى يحصل على الدبابات والطائرات الروسية ، حتى أخذت الحكومة المصرية تبدى اهتماما كبيرا بالاحوال المالية لشركة قناة السويس • وقد لاحظت الحكومة مثلا أنها عام ١٩٥٥، الذى سبق جلاء القوات البريطانية عن مصر ــ لم تحصل من الشركة كرسوم الا على مبلغ مليار و ٧٧٨ر٥٦٦ر٩١ فرنكا ، فى حين بلغ صافى أرباح الشركة عن استغلال القناة ١٦ مليارا و ٠٠٤ر٠٣٥ر٣٣ فرنك •

وقد اتصلت المفاوضات بين الحكومة المصرية وبين الشركة فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ لزيادة حصة مصر فى قيمة الرسوم التى تحصل عليها • وكانت الحكومة تعانى حينئذ مصاعب فيما يتعلق بمسألة الاستثمارات ، لان أفراد الطبقة المتوسطة كانوا ينفرون من استثمار أموالهم فى المشروعات ، وحتى لو فعلوا ذلك فانهم كانوا يستثمرون أموالهم مثلا فى أعمال الانشاءات والمبانى الخاصة التى تدر ربحا عاجلا ، وليس فى الاستثمارات الاساسية التى تهدف الى انتاج السلع الانتاجية التى لا تدر ربحا الا بعد زمن طويل ، فضلا عن أنها عرضة للتأميم •

وكانت الحكومة المصرية تؤمل أن تستثمر شركة قناة السويس معظم الاموال التى تربحها فى مشروعات مصرية • ولم تكن تمانع فى أن تحتفظ الشركة بأرباحها

على أن تستخدم جزءا منها فى مشروعات التنمية الاقتصادية فى مصر ، وبعد مفاوضات طويلة وصل الطرفان الى اتفاقية وقعت فى شهر مايو ١٩٥٦ (قبل شهر من جلاء القوات البريطانية ، وقبل شهرين من تأميم القناة) وتقضى الاتفاقية بأن تستثمر الشركة فى مصر كل عام ثلاثة ملايين جنيه مصرى ، وذلك لمدة سبعة أعوام •

ولكى تدلل الشركة على حسن نيتها دفعت للحكومة المصرية فى شهر يونية ١٩٥٦ أربعة ملايين جنيه لاغراض الاستثمار •

وعلى الرغم من هذه الاتفاقية أو على الرغم من هذه الهدنة الصغيرة ، وجدت الشركة نفسها عقب انسحاب القوات الانجليزية تحت رحمة دولة ذات سيادة ، ولم يكن هناك ما يحمى الشركة من تعسف الحكومة فى أن تظل علاقاتها مع الغرب طيبة على أمل أن تساهم الرأسمالية الدولية فى مشروعات مصر الكبرى وعلى رأسها مشروع السد العالى •

ولكن مصير الشركة لم يكن يهم الامريكيين كثيرا ، وكان كل ما يهمهم هو المقترحات التى قدمها شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفييتى لعبد الناصر •

وعود براقة :

فى خلال أعياد الاستقلال التى أقامتها مصر ابتهاجا بجلاء القوات الانجليزية، أجرى عبد الناصر محادثات كثيرة مع شبيلوف ، وكان من الطبيعى أن يتابع الامريكيون هذه المحادثات عن كثب على قدر ما يستطيعون • وقد اتضح أن جوهر المحادثات كان يتعلق بصفقة جديدة من الاسلحة الروسية ، ولم يحاول أحد الطرفين على أى حال أن يخفى هذه الحقيقة • وكانت هذه الصفقة تضم قاذفات قنابل من أحدث ما أنتجه الاتحاد السوفييتى، وهذا النوع من الطائرات كان القوة الرئيسية للهجوم الروسى •

وكان دالاس يعرف جيدا مغزى هذه الصفقة ، فقد كان يدرك أن قاذفات القنابل التى بيعت لمصر لن توجه ضد دولة اسرائيل الصغيرة التى لا يخشى الروس شيئا منها من الوجهة الاستراتيجية ، والتى كان دالاس يهتم بها اهتمامه ببراميل البترول ، وانما ستكون بمثابة تهديد مضاد لقاذفات القنابل الامريكية التى يراد وضعها فى القواعد العربية بالدول الاعضاء فى حلف بغداد لكى تهدد المراكز الحيوية فى الاتحاد السوفييتى ٠

والواقع أن قاذفات القنابل الامريكية لم تكن قد وضعت بعد فى القواعد العربية ، لماذا ؟ لأن الولايات المتحدة بعد أن دفعت حلفاءها الى القيام بمغامرة حلف بغداد الذى بلبل الافكار بصورة خطيرة فى الشرق الاوسط ، تحاشت هى نفسها أن توقع ميثاق الحلف ، واكتفت بالاشتراك فى بعض لجانه، مثل اللجنة الاقتصادية، ولجنة الاعلام ٠

لب المشكلة :

مهما يكن ما قيل عن النتائج الخطيرة التى كان يمكن أن تترتب على حملة السويس ، فالاعتقاد السائد هو أنه لا الاتحاد السوفييتى ولا الولايات المتحدة كانتا تخاطران بدخول حرب من المحتمل أن تصبح حربا عالمية من أجل قناة السويس ، أو من أجل عبد الناصر ، أو من أجل اسرائيل ٠ ولكن لب المشكلة هو أن وجود قاذفات عصرية جدا من طراز سوفييتى ومن صنع تشيكوسلوفاكيا على المطارات المصرية وعلى مقربة منها « مدربون » يستطيعون بالضرورة استخدامها كان يشكل ما يسمى حينئذ بالمفهوم العسكرى الغربى : « قلعة روسية على قناة السويس » ٠ ونصف هذه القلعة التى أقامها الروس لمواجهة الخطر الذى يهدد الاتحاد السوفييتى من القواعد التى كان الامريكيون والدول الغربية الاخرى يعتزمون انشاءها على حدود روسيا ، والتى أنشأوها فعلا ، أصبح فكرة ثابتة لدى هيئات أركان الحرب الفرنسية والبريطانية ٠ وكان العسكريون الفرنسيون والبريطانيون يعتقدون أنهم يستطيعون الحصول على تأييد وزارة الدفاع الامريكية

لهذه الفكرة تأييدا تاما ، ومثل هذا التأييد تصبح له الاولوية ـ باسم السلامة الوطنية ـ على كل المبررات السياسية التى يمكن أن تقدمها وزارة الخارجية الامريكية، وعلى كلّ المناورات التى يقوم بها أصحاب ناقلات البترول الكبرى ، لتحاشي القيام بمغامرة عسكرية قد تهدد مصالحهم ٠

ولما قضت حرب السويس بصورة عملية على هذه القلعة لم تعد لدى وزارة الدفاع الامريكية أسباب تحملها على الاستمرار فى هذا التأييد ، وهكذا تركت الميدان لكى يقوم الدبلوماسيون بالدور الرئيسى، وتخلت عن العسكريين الفرنسيين والبريطانيين لكى يواجهوا مصيرهم وحدهم ٠

اذن فالمشكلة تقوم أساسا على « الحرب الباردة » ٠ وليست اسرائيل أو مصر أو قناة السويس غير قطع شطرنج فى لعبة كبيرة مفجعة يتقرر فيها مصير الناس ٠

مبعوث البنك الدولى :

حينما كان شبيلوف يقدم مقترحاته بشأن الاسلحة الروسية الى عبد الناصر ، وصل الى القاهرة يوم ١٩ يونية ١٩٥٦ زائر كبير جاء بالطائرة لكى يقابل عبد الناصر ٠ وكان هذا الزائر هو « يوجين بلاك » رئيس البنك الدولى ، وأحد أساطين رجال المال الذين يدورون فى فلك « روكفلر » وشركات سفن البترول الكبرى التى تعتمد على بنك « شيزمانهاتان » وفى خلال المحادثات التى أجراها عبد الناصر مع « بلاك » علم الزعيم المصرى أن العرض الامريكى الخاص بتقديم معونة الى مصر ـ وهو العرض الذى كان مرتبطا بالاتفاق المبدىء الخاص بالسد العالى الذى وقع في شهر فبراير ١٩٥٦ ـ سيحسب اذا لم توافق عليه مصر قبل يوم أول يولية ١٩٥٦ ٠

وكان هدف العملية الامريكية كلها هو تكبيل يدى عبد الناصر بالقيود المالية بحيث يفقد حرية الحركة ويعجز عن عقد صفقات أسلحة جديدة مع الروس٠

ولما كانت الولايات المتحدة تريد أن ترغمه على الاتفاق معها بسرعة قبل أن يوقع مع الاتحاد السوفييتي عقود أسلحة جديدة ، فقد استخدمت مختلف وسائل الضغط لتحقيق هذا الهدف . ومن هذه الوسائل أن متحدثا باسم وزارة الخارجية الامريكية أعلن يوم ٦ يولية سنة ١٩٥٦ أن الحكومة الامريكية أبلغت الحكومة المصرية أن مبلغ ٥٤٫٦ مليون دولار ، الذى وعدت الحكومة الامريكية بالمساهمة به فى مشروع انشاء السد العالى قد أعيد الى الخزانة الامريكية لانفاقه فى أغراض أخرى . وبرر المتحدث ذلك بأن القاهرة لم تعلن قبولها للعرض الامريكى حتى يوم ٣٠ يونية وهو تاريخ انتهاء السنة المالية ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، وأضاف المتحدث قائلا ان العرض الامريكى بشأن المساهمة فى تمويل انشاء السد العالى لا يزال على أى حال قائما .

وكان هذا بمثابة انذار من الولايات المتحدة للحكومة المصرية . فان العرض الامريكى وان ظل قائما كان فى حاجة الى اجراءات جديدة لاعتماده مرة أخرى من الكونجرس ، وهذا يقتضى أن يعلن عبد الناصر قبوله للاتفاق مع واشنطن ، وعليه اذن أن يختار بين انشاء السد العالى وبين الاسلحة الروسية .

وفى هذا الوقت كان عبد الناصر يريد تحاشى الفشل بأى ثمن . وكان قد انتخب حديثا رئيسا للجمهورية بغالبية تزيد على ٩٩ فى المائة من الاصوات ، وكان من المقرر أن يجتمع فى خلال أيام قليلة فى بريونى ، بقطبين آخرين من أقطاب سياسة الحياد ، وهما تيتو ونهرو . وكان يريد بصفة خاصة أن يظل مطلق اليدين فى المفاوضات التى كان من المقرر أن يجريها فى الاتحاد السوفييتى فى شهر أغسطس والتى كان يأمل أن تنتهى بنتائج طيبة . ولما كان مطمئنا الى اشتراك الغرب فى مشروع السد العالى الجبار ، فانه سيعود من موسكو وقد ظفر أيضا بصفقة ضخمة من الاسلحة تتيح له دعم نفوذه فى العالم العربى ، وهكذا يكون قد ضرب عصفورين بحجر واحد . فأبرق الى أحمد حسين ، سفيره فى واشنطن لقبول العرض الامريكى .

ولكن المقترحات التى قدمها السفير المصرى لحكومة واشنطن يوم ١٩ يولية عام ١٩٥٦ لم تكن تعنى التسليم بأى حال بالشروط الامريكية ، بل أنها كانت بالاحرى بمثابة « انذار نهائى » ، كما وصفها روبرت مورفى فى مذكراته • فقد تضمنت هذه المقترحات مطالبة الحكومة الامريكية بأن تتكفل بانشاء السد العالى، أى دفع عدة مئات من ملايين الدولارات سواء مباشرة أو عن طريق البنك الدولى • وقد طلبت حكومة القاهرة من أحمد حسين أن يوضح للمسئولين الامريكيين أنهم « اما أن يقبلوا هذه المقترحات واما أن يرفضوها » •

وكان موقف مصر فى هذه المسألة له رائحة ابتزاز المال بالتهديد • وكان الامريكيون يعتقدون أن الروس ليسوا شديدى الرغبة فى ذلك الوقت فى القيام بهذه العملية ، وان كل ما يهمهم لم يكن انشاء السد العالى وانما بيع الاسلحة لعبد الناصر ، والاسلحة الهجومية بصفة خاصة ، اذ أن هدف السياسة الروسية لم يكن تحقيق الرخاء لمصر وانما تهديد مؤخرة القواعد الامريكية التى كان يجرى اعدادها فى الشرق الاوسط •

وربما كان للاعتبارات المتعلقة بالسياسة الداخلية السوفييتية دخل فى هذا الموقف ، اذ كان شبيلوف وفريق من العسكريين السوفييت فى ذلك الوقت ، وكذلك الصينيون الذين كانوا يؤكدون أن لهم دورا فى المسألة ، ينتمون جميعا الى الدوائر الايديولوجية التى تحارب فكرة التعايش السلمى ، وهذه كان يدافع عنها خروشوف •

وعلى أى حال فان موضوع بيع الاسلحة الروسية لعبد الناصر كان يثير قلق وزارة الخارجية الامريكية • وقدر دالاس أنه اذا سحبت واشنطن عرضها الخاص بالمساهمة فى مشروع السد العالى فان من المحتمل أن يضطر عبد الناصر الى الغاء رحلته الى موسكو حتى لا يجد نفسه هناك فى موقف الملتمس المنطوى على الضعف سواء بالنسبة لمشروع السد العالى أو بالنسبة لصفقة الاسلحة •

مؤامرة واشنطن :

أصبح معروفا أن القرار الخاص بسحب العرض الامريكى بشأن تمويل مشروع السد العالى قد اتخذه جون فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية وحده، من غير أن يستشير أحدا على الاطلاق ، ربما باستثناء أخيه الن دالاس رئيس المخابرات الامريكية • هذا ما أكده روبرت مورفى أحد مساعدى دالاس الرئيسيين وكان يبحث معه فى ذلك الوقت مشكلات الشرق الاوسط البعدة المدى • وقال مورفى أيضا أن دالاس لم يطلع الرئيس أيزنهاور نفسه على قرار سحب العرض الامريكى الا قبل ابلاغه لسفير مصر ببضع دقائق •

ويعزى هذا التصرف الغريب من دالاس الى طبيعة شخصيته المتقلبة ، واستئثاره بآرائه من غير اكتراث بعاقبة أعماله ، وكان هذا رأى أنطونى ايدن فيه • ويبدو أن دالاس كان قد انطلق فى مباراة عقلية ، أشبه بأدوار البوكر ، مع عبد الناصر الذى له نفس اندفاعه !

ومن الدلائل التى تشير الى سحب العرض الامريكى كان عملا متعمدا ان الدبلوماسيين الامريكيين ، اللذين عقدا مع عبد الناصر أوثق العلاقات الودية ، وهما جورج الن وكيل وزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط ، وهنرى بايرود السفير الامريكى فى القاهرة عزلا من منصبيهما فجأة فى ذلك الوقت•ومن هذه الدلائل أيضا أن هذا القرار أبلغ لمصر اجتماع عبد الناصر بنهرو وتيتو فى بلغراد ، وكان من الممكن ارجاء اذاعته بضعة أيام ريثما يعود الى القاهرة •

ولم تحاول الولايات المتحدة حتى أن تبقى هذا القرار سرا• فقد عقد اجتماع فى البيت الابيض ، أعلن خلاله دالاس أسفه لروح العداء التى تكنها لجنة الميزانية بمجلس الشيوخ الامريكى لمصر وبالتالى لمشروع السد العالى ، وقد أشار الرئيس

أيزنهاور فى أثناء الاجتماع الى أن هذه اللجنة ليس لها الحق على أى حال فى منع السلطة التنفيذية من استخدام الاموال التى سبق اعتمادها .

وعلى الرغم من كل هذه الملابسات فان القرار الامريكى كان مفاجأة أثارت الدهشة ، فهو لم يكن مجرد تصريح أو عمل دبلوماسى ، وانما كان بمثابة «تحد» . وأخذ العالم كله يتساءل عن نتائج التحدى الامريكى ، ولم يتأخر الجواب كثيرا على هذا التساؤل .

الفصل السادس

الأزمة

فى التاسع عشر من يوليو عاد ناصر من بريونى بعد أن أجرى محادثات مع تيتو ونهرو • وكان متجهم الوجه ويضغط على أسنانه فى حنق دليلا على أن هناك شيئا ما ، فقد وجهت اليه الحكومة الامريكية لطمة علنية تهدد نفوذه تهديدا مباشرا • كان يجب أن يرد على هذا التحدى ، وعلى الرغم من أنه لم يكن من القوة أو الغنى بحيث يزدرى هذا التحدى أو يستخف به ، فقد قرر أن يرد بتحد أكثر شدة بمعنى يرد الصاع صاعين • ولما لم يكن يملك أية وسيلة يباشر بها أدنى هجوم مباشر على الولايات المتحدة فقد أخذ يفكر ، واقتضى منه الامر يومين على وجه التحديد ليجد الحل •

وفى الحادى والعشرين من يوليو اتخذ قرار الاستيلاء على شركة القناة ، وبدأت مجموعة محدودة من رجال القانون والمهندسين عملها ، وتقررت خطة العملية ما بين السبت ٢١ يوليو والثلاثاء ٢٤ منه • كانت الناحية القانونية بصفة خاصة هى التى تحتاج الى دراسة على ضوء الظروف القائمة حينذاك ، وقد أوضحت التجربة فيما بعد لم يكن بها أية ثغرات • أما من الناحية الفنية فالواقع أن المصريين كانوا قد أعدوا منذ سنوات خططا لتولى ادارة القناة التى كان مقررا على أية حال أن تعود اليهم عند انتهاء الامتياز فى عام ١٩٦٨ وكانت المعلومات التى بين أيديهم تدعوهم الى الاعتقاد بأن الشركة ستحاول الاحتفاظ بالقناة بعد انتهاء

عقد الامتياز تذرعا بالحجة التى يقبلها الغرب بصفة خاصة دون صعوبة وهى أن المصريين « لن يستطيعوا ادارة القناة » دون مؤازرة فى النواحى الفنية الدقيقة من موظفى الشركة فيكفى اذن للسلطات المصرية أن تنسق خططها التى أعدتها من قبل وتضعها موضع التنفيذ •

وكانت جماعة رجال القانون على رأسها بهجت بدوى • أما مجموعة الفنيين فكانت تحت اشراف صديق شخصى للرئيس هو البكباشى المهندس محمود يونس الذى أصبح المفكر لهيئة قناة السويس الجديدة •

وكانت القاهرة تبدو فى نظر العالم الخارجى فى هذه الايام فى حالة سكون غريب • ويلاحظ أن همرشولد زارها أثناء عودته من اسرائيل • فقد وصل الى القدس فى الحادى والعشرين من شهر يولية عن طريق الاردن وكان يزمع السفر فى الثالث والعشرين الى جنيف ومنها يطير الى نيويورك فى السابع والعشرين من يولية كما يلاحظ أن ناصر قابل فى ٢٣ يولية (أى بعد أن اتخذ قراره) كيسيليف سفير الاتحاد السوفييتى الذى اجتمع به مرة أخرى فى ٢٦ يولية •

الخطــاب :

ثم ألقى الرئيس فى ٢٤ يولية خطابا فى القاهرة موجها تماما ضد الولايات المتحدة • ورددت الصحف ما قاله الرئيس وكان يبدو أن الأمور جميعها تشير الى أن « ناصر » يعد الرأى العام فى بلاده لأزمة فى العلاقات بين مصر وأمريكا • لذلك انتظر المسئولون باهتمام الخطاب الذى يزمع ناصر القاءه فى٢٦ يولية بالاسكندرية فى نفس المكان الذى حاول فيه أحد الاخوان المسلمين منذ عامين قبل ذلك اغتيال « ناصر » بعد أربع سنوات باليوم والساعة من رحيل الملك فاروق عن البلاد • لم يكن ثمة اهتمام فى أول الأمر ، فقد أخذ ناصر يشرح الصعوبات التى لقيها فى المفاوضات معالانجليز والامريكان ثمراح يروىزيارة مستر بلاك مدير البنك الدولى له ويقول : « ان بلاك يذكرنى بفردينان ديلسبس » هذه هى الاشــارة ، كلمة

السر كما قال ناصر • لقد اختار المصريون فى سخرية انتقامية اسم مبدع القناة ذاته كاشارة لتأميمها • وفى الحال بدأت قوات البوليس والجيش المعهود اليهـا بتنفيذ المهمة عملها ، واحتلت مكاتب الشركة فى الاسماعيلية والقاهرة وبورسعيد وبورتوفيق والسويس فى آن واحـد ، وباشرت مهمتهـا فى مراقبـة المنشآت والموظفين • وفى الاسماعيلية حرص المحافظ على أن يدعو عنـده المدير الادارى للشركة ليستمع الى خطاب ناصر فى الراديو • وهكذا يعلم المدير بالخبر ويجـد نفسه فى الوقت ذاته فى حالة استحالة عملية تمنعه من اصدار أية أوامر •

ويستطرد ناصر فى خطابه قائلا : منذ أربع سنوات رحل فاروق من مصر ، وأنا اليوم ، باسم الشعب أعلن استرداد القناة ، فاليوم سوف تدار قناتنا المصرية بمعرفة مصريين • وتتملك الجماهير فرحـة طاغيـة ، وقد قال الصحفى الفرنسى جان لاكوتير الذى شهد الحفل « لم يعد الحاضرون يسمعون كلماته ولا ضحكاته » ويترك ناصر المنصة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وصيحات الفرح ، وتقف مصر بأسرها وقفة رجل واحد وقد ثأرت لنفسها فى لحظة واحدة من أربعة وسبعين عاما من الذل والهوان •

لقد تحول كل شىء الى ضجـة وثورة وفرحة انتقال • وفى القـاهرة يظل على صبرى ـ أقرب معاونى عبد الناصر ـ هادئا ويقول لمسيو لاكوتير : لماذا كل هذه الضجة ؟ كانت شركة القناة مصرية وقد أممناها ، فماذا اذن ؟ ماذا تخسر فرنسا من ذلك ؟ حملة الاسهم لديكم ؟ انهم سيعوضون على أساس سعر مناسب للغاية حرية القناة ؟ اننا نضمنها حرية مطلقة. فيما مضى لم يكن لنا مصلحة مباشرة فى حماية ملاحة لم تكن تعود علينا بشىء بينمـا الامر يختلف اليوم ، وجميـع العقوبات التى يمكن أن تتخذوهاضدنا ـ كمقاطعة القناة وتجميد الارصدة ـ سوف تكلفكم أكثر بكثير مما تكلفنا ، وسيتخلى عنـكم الامريكان الموظفون ؟ اننـا لن نرغمكم على العمل • فمن يرغب فى ترك العمل لن يمنع من ذلك بشرط أن يخطرنا قبل ذلك ببضعة أيام ، فقد أردنا لمصلحة المنتفعين بالقناة تحاشى حدوث انسحاب جماعى فى صورة عمل من أعمال التخريب •

رد الفعل :

ولكن هذا الحديث المفعم بالهدوء والثقة والذى كان ينطوى على وجود بعض الضمانات التى أعدت مقدما ، لا يمكن أن تفهمه لندن أو باريس اللتان استبدت بهما ثورة الغضب .

فى باريس كانت الجمعية الوطنية منعقدة فى جلسة خلال الليل ، اذ كان الرئيس جى موليه يطلب زيادة اعتمادات النفقات العسكرية المدرجة فى الميزانية . وكان يستعد لالقاء خطاب وطنى امام مجلس ثلاثة أرباعه يقرون الزيادة ولكن المقتنعين بها أقل بكثير ، مجلس ـ على الرغم من أنه يؤيد موليه من أعماق قلبه ـ ما كان ليتردد فى الاطاحة به فى الحال لو كان قد أعلن أنه يقوم ـ فى نفس الوقت الذى يطالب فيه بالمال لمواصلة حرب الجزائر ـ باجراء مفاوضات سرية مع زعماء الثورة الجزائرية .

وكان كريستيان بينو وزير الخارجية يتأهب لدخول قاعة الجلسة حين سمع صيحات صادرة من الناحية التى ركبت فيها أجهزة البرقيات الكاتبة الخاصة بوكالة الانباء الفرنسية ، بينما سمعت دقات للجرس معلنة اذاعة خبر هام عاجل . واقترب بينو ، وعلم بالخبر من زملائه الذين كانوا قد انحنوا على هذه الاجهزة . واقترنت أسئلة النواب فى غير تسامح بعبارات ساخرة حول قيمة المخابرات الفرنسية بصفة عامة ووزارة الخارجية الفرنسية بصفة خاصة .

واليوم لم يعد كريستيان بينو يتذكر الا أن الخبر اثار لديه رد فعل من الغضب العنيف أو كما يقول : « يبدو أن الكثيرين من القادة الذين يحملون مسئوليات كبرى ينساقون طوعا فى مثل هذه الموضوعات لردود فعل عنيفة » ولكن أشخاصا جديرين بالثقة ممن لازموه طوال ذلك الوقت والمقربين اليه فى غير تكلف يذكرون ـ ويدعم صدق ذاكرتهم ما دونوه من يوميات ـ أن بينو طوال

ليلة ٢٧/٢٦ يوليو كان يريد أن يستقيل ٠ ولكنه فى صباح ٢٧ اضطر أن يجعل من نفسه قدوة للآخرين ٠ على أن بينو لا ينكر أنه كانت له آراء تختلف بعض الشىء عن آراء جى موليه أى أنه قدم له حينذاك تفسيرا اشتراكيا ولكنه عاصف ٠

وأما فى داوننج ستريت ـ مقر الحكومة البريطانية ـ فقدكان رئيس الوزراء أنطونى ايدن قد دعا فيصل ملك العراق ونورى السعيد رئيس وزرائه ومن حولهم اجتمع عدد محدود من المدعوين : سلوين لويد وزير الخارجية ولورد سالسبورى، ولورد هيوم وزير شئون الكومنولث حينذاك ٠ وحمل اليه أحد السكرتارين الخبر أثناء تناول العشاء ، فقرأه ثم أحاط به ضيوفه ٠ ويقال أنه حين استشار نورى ـ الرفيق القديم للورانس وموسى شاريت ـ عن أحسن رد يمكن أن يوجه لناصر أجاب : اضربه ، اضربه بشدة ، اضربه الآن ! ولكن ايدن يلتزم الصمت فى مذكراته ازاء رد الفعل لدى محدثيه ٠ ويدرك هؤلاء أن بقية المناقشة ينبغى أن تدور بين المسئولين البريطانيين فيستأذنون فى الانصراف فى وقت مبكر ٠ ويتوجه ايدن وسالسبورى وسلوين لويد ولورد هيوم الى الغرفة المخصصة للمناقشات فى مجلس الوزراء ، لقد أمروا باستدعاء حامل الاختام ورؤساء أركان الحرب ٠ ان ما كان يشغل بال ايدن كما يقول ، هو رد فعل لدى الدول الغربية « من أغادير الى كراتشى » فهو يعرف أن هذا التحدى الذى كان ردا على سحب حكومة الولايات المتحدة لعرضها الخاص بتمويل مشروع السد العالى يهدد كيان بريطانيا بأسره فى العالم العربى ٠

وهكذا يقرر ايدن منذ البداية رد بريطانيا ومداه أيضا ، وهو الضرب دون أن يثير عداء العالم العربى ، والاستمرار فى المحافظة على هيبته واحترامه أمام العرب بفضل استعراض القوة ٠ وهذه وجهة نظر تختلف تماما عن رأى الدوائر السياسية والفرنسية الحاكمة حينذاك ، الذى يتمثل فى الرغبة فى ضرب العرب بغية انقاذ الجزائر الفرنسية ، تلك الفكرة التى غالبا ما كان يرفضها

الاشتراكيون القائمون على الحكم رسميا والتى يجب مع ذلك أن يضعوها موضع الاعتبار • وهذا الاختلاف فى وجهات النظر سوف يترك أثره فى كل مرحلة من مراحل المهمة المشتركة •

كان ينبغى البدء بجعل المهمة مشتركة • لذلك يتم الاجتماع بمسيو شوفيل سفير فرنسا وفوستر القائم بالاعمال الامريكى ـ لأن السفير الامريكى كان متغيبا فى اجازة ـ وقبل أن يتوجه شوفيل الى داونجنج ستريت يطلب الاتصال بفندق ريتز حيث يتوقع وجود جاك جورج بيكو مدير عام شركة القناة هناك • والواقع أن جورج بيكو كان فى لندن فى احدى زياراته الروتينية الكثيرة ولاجراء محادثات مع أصحاب السفن والبواخر •

ويطلب شوفيل اليه الحضور قائلا « لا شك أننا سوف نحتاج اليك » ويرتدى جورج بيكو ثيابه ويذهب الى داونجنج ستريت حيث يدخلونه الى صالون صغير فيظل فيه حبيسا فترة طويلة ثم يذهب اليه شوفيل ويقول له « لقد رأوا أن من الافضل عدم بقائك » وينصرف الرجلان معا وفى اللحظة التى يقتربان فيها من الباب يخرج ايدن من حجرة مجاورة ويلمح جورج بيكو ، ويقصد اليه ويصافحه بقوة وفى صمت وكأنما هو شخص يقدم عزاء •

وفى واشنطن لا يتوقع المسئولون شيئا غير عادى • لقد أحس دلاس غداة الاجراء الخانق الذى اتخذه ضد ناصر بحاجة ملحة فى الذهاب لحضور الاحتفالات الخاصة بتولى برادو رئيس جمهورية بيرو مهام منصبه ، فى الوقت الذى كان فيه أيزنهاور مشغولا فى لعب الجولف ، بينما تذيع أجهزة وكالات الانباء الخبر فى المساء • انها لمفاجأة ولكنها لا تؤثر كثيرا على الشعب الامريكى المشغول بصفة خاصة بانتخابات الرئاسة التى اقترب موعدها •

وكان ايدن فى تلك الأثناء قد أعد بيانا قصيرا يزمع القاءه فى مجلس العموم فى اليوم التالى ، وأبلغ نصه لسفير فرنسا والقائم بالاعمال الامريكى • وطلب الى الحكومتين الأخريين اتخاذ اجراء موحد ردا على التهديد المشترك الموجه ضد مصالحهم جميعا •

هـذا ما تم فى ذلك اليوم السادس والعشرين من يولية الذى امتد على غير المألوف الى الفجر بل حتى الساعة الاولى من صباح ٢٧ يولية. كانت شمس النهار قد سطعت حين كان جى موليه فى الساعة السابعة صباحا يطرح مسألة الثقة على الجمعية الوطنية التى ظلت مجتمعة طوال الليل • وثمة شيء فرعى آخر هو : أن مبعوثا خاصا من بن جوريون هو ، شمعـون بيريز يصـل الى باريس ويجرى محادثات مع الدوائر الحكومية بقصد الاسراع فى توريد أسلحه لاسرائيل •

الجمعة ٢٧ يوليو :

ذلك هو اليوم الذى يتقرر فيـه كل شيء • ايدن يلقى فى الصبـاح أمام مجلس العموم بيانا قصيرا هو نفس البيان الذى أبلغ به محدثه فى الليلة السابقة. وفيه يقول أن القرار الذى اتخـذته مصر يؤثر على مصـالح كثير من الدول وأن حكومة صاحبة الجلالة تجرى مشاورات مع حكومات أخرى يمسها القرار بطريق مبـاشر •

وكان هذا صحيحا ولكن القرار الذى تزمع حكومة صاحبة الجلالة اتخاذه فى الصباح سوف تتخذه وحدها دون أن تستشير أحدا• ويقول ايدن « لقد عقدت الحكومة عزمها على حماية مصالحنا الجوهرية فى هذه المنطقة من العالم ولو بعمـل عسكرى اذا اقتضى الامر • وقد قررت الحكمة اتخاذ الاستعدادات اللازمة • وحتى اذا كان على حـكومة صاحبـة الجـلالة أن تعمل وحدها فانها ما كانت لتتردد فى استخدام القوة للمحافظة على مركزها • كان ذلك رأينا الذى دوناه كتابة ، وهو دائما رأيى » • ويحدد ايدن خطته بقوله « كان غرضنا أولا ممارسة كل ما يمكن من ضغط سياسى • كان لدينا كذلك أسلحة اقتصادية ولكن كان يمكن ألا يكون الضغط السياسى والاقتصادى كافيا ، فكان ينبغى علينا منذ البداية اتخاذ جميع الاستعدادات اللازمة لتدخل عسكرى محتمل • وقد تلقى رؤساء أركان الحرب تعليمات باعداد خطة العمليات اللازمة وتحديد الوقت لاحتلال القناة وضمان الاستيلاء

عليها • وكنا نأمل فى امكان الاعتماد على اشتراك الفرنسيين فى كل العمليات التى قد نقوم بها • وكنا ننتظر أن تتخذ الولايات المتحدة موقف الحياد على الأقل • ولكن اذا لم نستطع الحصول على مساعدة من أصدقائنا فينبغى أن نكون على أهبة للعمل وحدنا » •

وبعد اجتماع مجلس الوزراء أرسل ايدن برقية الى أيزنهاور يحدثه فيها بمزيد من الصراحة « يبدو أنه ليس ممكنا أن نبلغ هدفنا بممارسة ضغط اقتصادى فقط ، ونحن مقتنعون ـ زملائى وأنا ـ بأنه يجب أن نكون على استعداد لاستخدام القوة كحل أخير ، لاعادة ناصر الى الصواب • وفيما يخصنا فاننا على أهبة للتصرف هكذا وقد أصدرت هذا الصباح تعليمات لرؤساء أركان الحرب لاعتماد خطة عسكرية » •

وفى انتظار اتمام الاجراءات العسكرية اتخذ ايدن ووزراؤه احتياطات معينة، فأمروا بتجميد الحسابات والارصدة المصرية ، وحظر تصدير الاسلحة والمعدات الحربية الى مصر ، ومنع خروج المدمرات المصرية الاربع الموجودة فى الموانى البريطانية ، وكاجراء أخير أرسلت مذكرة احتجاج الى الحكومة المصرية فأعادتها هذه الحكومة دون أن ترد عليها • ويلاحظ مع ذلك أن ايدن تحاشى قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر •

أما عن الاجراءات الاقتصادية فلم يكن فيها شىء غير عادى • وقد وجد رئيس الوزراء تشجيعا على اتخاذها من العمال أنفسهم الذين كان زعيمهم جيتسكل يطالب بتجميد الارصدة المصرية فى لندن وبعرض النزاع على الامم المتحدة ، ولكن الحكومة البريطانية لم تكن تريد ذلك لأن معناه أن تضع نفسها تحت رحمة الفيتو السوفييتى وبهذا تزداد المسألة تعقيدا • ثم كيف تبرر التدخل العسكرى الذى كان قد أصبح أمرا مقررا ، بينما الموضوع محل بحث أمام الامم المتحدة •

وكانت باريس تتابع أخبار لندن باهتمــام وبشيء من الدهشة أنها تقــدر دعوة السفير ليلا الى داونتج ستريت ليشترك فى المناقشات الاولى ، ولكنها تخشى تكوين جبهة انجلو أمريكية تطلب منها الانضمام اليها كشريك أقل سلطانا • ان باريس تريد السير الى نهاية الشوط وترى أنه يمكنها أن تجر معها اسرائيل ، لذلك يتصل موليه فى الحادية عشرة من صباح ٢٧ يوليو بايدن ويؤكـد له رغبة فرنســا فى الاشتراك فى الهجوم الذى يعتزم ايدن أن يشنه على مصر ، ويعرض عليه اشتراك اسرائيل أيضا • ويقبل ايدن مساندة فرنسا ولكنه يرفض بشدة اشراك اسرائيــل فى الخطة • ويتم الاتفاق على أن يســافر بينو الى لندن لاجراء محـــادثات ثلاثيــة مع ســـلوين لويد ومبعوث أمريكى من المفروض أن يكون فوستر دالاس ، أى مبعوث لن يتخلى أيزنهاور عن ايفاده •

ويجتمع أيزنهاور فى البيت الابيض ـ فى غياب دالاس الذى لايزال فى ليما عاصمة بيرو لحضور احتفالاتها ـ بالرجلين الثانى والثالث فى وزارة الخارجيــة هربرت هوفر وروبرت مورفى ، وهما رجلان لهما شأنهما، ولكن أولهما متخصص الى حد بعيد فى الشئون البترولية بينما يعتبر الآخر من الخبراء فى شئون الفاتيكان من ناحية والدول العربية من ناحية أخرى •

ولا يثير أيزنهاور كثيرا نبأ الاستعدادات العسكرية البريطانية ، فهو يرى ـ أو يتظاهر بذلك ـ أنها تدخل فى نطاق الاحتياطات العادية التى ينبغىأن تلجأ اليها أية حكومة كى لا تؤخذ على غرة ، والمسألة كما يرى لا تقتضىاستدعاء دالاس من بيرو • فالشرق الاوسط كما يقول روبرت مورفى لم يكن يمثل مشكلة ذات أهمية من الدرجة الاولى بالنسبة للولايات المتحدة ، والاستثمارات الامريكية فى شركة القناة لم تكن ذات قيمة تذكر • ومع ذلك يقرر أيزنهاور ـ بعد أن ساوره قلق مبهم ازاء لهجة الرسائل التى بعث بها ايدن ـ ايفاد مورفى الى لندن ليقف على الحقيقة • ويخطر ايدن بسفر مورفى ويطلب اليه فى نفس الوقت التشاور مع أكبر عـدد ممكن من الدول البحرية • ولا يعطى أيزنهاور لمورفى أية تعليمات أخرى غير مجرد السفر واستطلاع الامر ، بل قال له « أستطلع بدقة وأصمد » •

وفى انتظار سفر مورفى تحدد وزارة الخارجية الامريكية موقفها فى عدة سطور ، فهى ترى أن القرار المصرى يؤثر على مصالح الدول المنتفعة بهذا الممر المائى الدولى وكذلك الدول البحرية وأصحاب الشركة • وتطلب الوزارة اجراء مشاورات عاجلة، ولم تكن هناك كلمة ادانة فى هذه السطور• ومثل هذه العبارات « الدول المنتفعة ، والممر المائى الدولى » تحيل الاسس التى يستند اليها دالاس خلال الشهور الثلاثة التالية الى ما يوحى بأن الموقف الامريكى قد تحدد تبعا لحدث كان من المعروف أن لا مفر من وقوعه •

وفى باريس يشعر المسئولون الفرنسيون بشىء من الدهشة ازاء البطء الظاهر فى رد الفعل من جانب لندن • ان غالبيتهم على استعداد للانقضاض من أجل القضاء على ناصر فى سبيل انقاذ الجزائر• وبالنسبة لأولئك الذين لايؤمنون ـ على طريقة جى موليه ـ بحماية الجزائر الفرنسية يصبح الشعار هكذا « القضاء على ناصر لانقاذ اسرائيل » • ولما كان من اللازم تبرير تعويض أمن البلاد من أجل دولة ليست شيئا بالنسبة لنا أو بالاحرى ليست شيئا يذكر الا نتيجة لروابط يعترف بها دائما ، ولما لم يكن المسئولون الفرنسيون فى مثل تبجح ونفاق العسكريين الفرنسيين الذين كانوا يقولون عن اسرائيل «أنها آخر مستعمرة لنا» فقد حاول المسئولون الفرنسيون تشبيه القتال الاسرائيلى بكفاح الجمهوريين الاسبان فى سنة ١٩٣٦ ناسين أن دعاة الحرب الوقائية فى أسبانيا سنة ١٩٣٦ كانوا هم الجنرالات الموالين لفرانكو على وجه التحديد • وعلى أى حال فان هذه مجرد محاولات كلامية ، والذى يهم هو تصميم المسئولين الفرنسيين على الاقدام على أى تحد واقتحام أى فخ دون أن يفكروا كثيرا فى العواقب • ولكن الفرنسيين لم يدعوا للاجتماع حينذاك بالجانب البريطانى والامريكى لان القيادة العامة للحرب كان يجب أن تظل فى أيدى « القرابة الخاصة » التى تربط الانجليز والامريكيين •

ولتمضية الوقت تعد فرنسا خططها، فتجتمع لجنة تضم ممثلين عن الوزارات ثم تعلن أنه تم الاتفاق على عدم اقرار الاجراء الذى اتخذته مصر من جانب واحد •

ويعلن وزير الخارجية الفرنسية أنه سيجرى مشاورات مع دول أخرى • ويبعث هو كذلك باحتجاج الى ناصر يقرنه بعبارات شفهية لا يقبلها سفير مصر ، ولكنه هو الآخر لا يقطع العلاقات الدبلوماسية •

وقررت الحكومة الفرنسية بسهولة اتخاذ موقف « صلب » نظرا لما تشعر به من تأييد من جانب قطاع كبير من الرأى العام ومن الصحافة التى تساهم فى تكوين هذا الرأى • فاغلب الفرنسيين كانوا يرون آنذاك أن الامر لا يتعلق بمغامرة للدفاع عن قناة أو لحماية دولة اسرائيل التى لا تهم الا قلة قليلة منهم ، ولكنها تمثل أقصر طريق لانهاء حرب الجزائر • فكثيرا ما تردد على أسماعهم أن البند الاول للثورة الجزائرية هو ناصر ـ ذلك الذئب الكبير ـ وانه ما آن يقضى عليه حتى تنتهى الثورة بلمسة سحرية • ولكن جميع القادة المطلعين على بواطن الامور كانوا يعلمون أن ذلك ليس صحيحا ولا أحد منهم يستاء من هذه الحقيقة • ذلك أن هذا الكذب المتجمع الذى كانوا يخدعون به الشعب كان يخدم ـ على حد اعتقادهم ـ نفوذهم أو ذلك النفوذ الذى يريدون اكتسابه •

ولكن هذا التأييد من جانب الرأى العام كان هشا جدا ـ على ما سنرى فى نوفمبر ـ أنه تأييد مشروع لا يستمر الا اذا سارت الامور سيرا مرضيا • فزعماء الجمهورية السابعة (وجانب كبير من قادة الجمهورية الخامسة) يعدون الشعب بنصر سريع كامل لا آلام فيه ولا معاناة وكذلك وبصفة خاصة بنصر رخيص • وتنبعث صيحات الاستحسان : برافو ! ان المسرحية تبشر أنها ستؤدى على ما يرام ، ولكن حين تنكشف نهايتها الاليمة للبطل فان أحدا لا يقبل هذا الدور لنفسه • وحين يأمر البطل بتوزيع البنزين على الناس بالبطاقات فان كل شئ ينبئ أنه لن يظل طويلا بطلا • وقد مر جى موليه فى هذه التجربة ، وقال « حين أرسلت الحملة كانت البلاد كلها تقف من ورائى • وبعد خمسة عشر يوما كان الجميع يتخلون عنى » •

ولنقف الآن عند التصريحات الطنانة : « لا ميونيخ فى البحر المتوسط » و « ناصر يشعر بعزلته وهذا هو سبب غضبه » (أميل روش فى الفيجارو) وحتى الديلى هيرالد (العمالية) قالت « ان ما نعتقده هو الا مكان لامثال هتلر » . ويبدى الاميرال بارجو - ولم يكن قد أصبح بعد قائدا للقوات الفرنسية فى حملتها على مصر وان يكن من الواضح أنه كان يطمع فى ذلك - وجهة نظره للصحافة بقوله « ان ٧٥ مليون طن من البترول الذى يحصل عليه الغرب تمر فى قناة السويس فهل تريد القاهرة فرض رقابتها على هذا المرور ؟ » على أن أكثر التعليقات اعتدالا كان تعليق صاحب المصلحة الاولى جورج بيكو المدير العام لشركة القناة الذى كان يكتفى بالقول « انها مسألة سياسية بحتة » .

وفى تلك الفترة يصدر فى القاهرة قرار باعتبار منطقة القناة منطقة عسكرية مصرية ويترتب على ذلك فرض الاحكام العرفية فى المنطقة المتنازع عليها التى كان لا يزال يقيم فيها كثير من الخبراء البريطانيين .

ويتخذ وزير التجارة المصرى الذى تتبعه الادارة الجديدة للقناة الخطوات الاولى معلنا عدم اختصاص أى قضاء دولى فى نظر النزاع . والمقصود بذلك محكمة العدل الدولية بلاهاى . كما رفض مقدما الالتجاء الى مجلس الامن الذى لن يكون له اختصاص فى هذا الشأن الا فى حالة انتهاك حرية الملاحة فى القناة .

وأخيرا فى نيودلهى يبدى وزير الخارجية أنه لم يرد ذكر لقناة السويس فى محادثات بريونى والقاهرة ، ويشعر نهرو بشىء من الضيق . ألم يتهامس الامريكان بأنه هو الذى قال لهم أن السوفييت لن يقبلوا تمويل السد العالى تاركين بذلك كذب ناصر ينكشف ؟

السبت ٢٨ يوليو :

فى لنـدن اجتمعت اللجنة الوزارية المحدودة التى شكلت فى يوم سـابق لمتابعـة الموقف وكان من المقـرر أن تقـوم فى الشهـور التاليـة بمهمة مجلس للحرب • وتناقش اللجنة رد أيزنهاور على برقية ايدن فى اليوم السابق وتقرر الاستجابة لطلب أمريكا بعقد مؤتمر للدول البحرية ، ولكنها تضيف أن القرار سوف يناقش مع بينو ومورفى • ويقصد ايدن بعد الظهر الى ويلتشاير لقضـاء عطلة نهاية الاسبوع بينما يصل المبعوث الامريكى الخاص روبرت مورفى الى لندن فى المساء • ويحدد له سلوين لويد موعدا للاجتماع به صباح اليوم التالى كى يرتب لاجتماع ثلاثى مع كريستيان بينو المنتظر وصوله من باريس •

وفى باريس وافقت الجمعية الوطنية على الزيادة المطلوبة للنفقات العسكرية • وبمناسـبة الاحتفال فى « البانتيون » بذكرى وفاة الخطيب الاشـتراكى الكبير جان جوريس ، يعلن جى موليه فى ثقة « كان جان جوريس يفخر بالسياسة التى ننتهجها الآن فى الجزائر » •

ولكن ما لفت النظر فى باريس كان هو انهماك الشركة العالمية لقناة السويس فى تحديد موقفها ، اذ تنشر الشركة بيانا ليس هو ذلك الذى كان متوقعا • فقد كان الجميـع يعرفون أنه حتى الامس كان مديرو الشركـة يريدون اصـدار أمر للمرشـدين بالكف فورا عن عملهم ، وكانوا ينظرون بغير امتعاض الى التجـاء الحكومتين الفرنسـية والبريطانية الى القوة • وكان رأى الشركة الذى لم تعلنه وانما أوضحته شفاها لمن يعنيهم الامر ، هو أن حدوث انسحاب جماعى من جانب موظفى الشركة غداة قرار التأميم يمكن أن يثير حنق ناصر ويؤثر دون شك على موقفه • ولكن بيان ٢٨ يوليو يكتفى بالاحتجاج ويؤكد ــ وسوف يضفى تتابع الاحداث على هذه الكلمات طابعا من السخرية ــ ان الاعـلان عن تعويض يمكن بالشروط الواردة بقرار الحكومة المصرية يشكل قصورا على مصالح المساهمين •

ويتضمن تعليمات للبنوك المودع بها أموال الشركة باعتبار أى أمر من الحكومة المصرية باطلا ٠ ويعلن أن دفع رسوم المرور لمصر لن يكون ابراء للذمة فى نظر الشركة ، ولكن البيان لا يذكر كلمة عن ادارة العمل بالقناة أو عن التعليمات التى ستوجه الى المرشدين بالتوقف عن العمل ، وهو ما يعد فى الواقع الاجراء الفعال الوحيد ٠ حقيقة أنه اجراء خطير ولكنه فعال ٠ ويبدو على العكس فى الايام التالية أن الشركة تشجع مرشديها على البقاء فى أعمالهم وعلى ادارة القناة بكل ما لديهم من قوة ٠

لماذا اتخذت الشركة هذا الموقف ؟

لقد اتخذت الشركة هذا القرار استجابة لطلب ملح من الحكومتين الفرنسية والبريطانية اللتين جددتا هذا الطلب مرة أخرى بعد ذلك ٠ وكان للحكومتين فى ذلك مبرران : أولا أن اجراء عسكريا لم يتخذ بعد ولا ينتظر أن يتخذ قبل بضعة أيام، ولن تستطيع الدولتان اذا ما أثارتا بطريق غير مباشر قضية تعطيل الملاحة فى القناة بسحب المرشدين الا آن تضعا نفسيهما فى موقف لابد أن تلحقهما فيه اهانة علنية جديدة من ناصر دون أن تستطيعا تجنب أى تدخل دولى ، ثانيا : ان احتياطى البترول فى فرنسا كما هو فى انجلترا محدود ، واذا كان ايدن يتحدث عن مخزون يكفى لاستهلاك ثلاثة أسابيع فقط فقد كان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا التقدير يتسم بالتفاؤل ٠ اما فى فرنسا فالاحتياطى كان أقل من ذلك ، ويقال أنه كان يكفى استهلاك ثمانية أيام فقط ، ولذلك فان فترة الاستعداد لاجراء عسكرى يجب أن تستغل لتمرير أكبر كمية ممكنة من البترول الى فرنسا وبريطانيا ٠ على أنهم أخذوا يطمئنون مديرى الشركة : « لا يساوركم قلق فنحن نعد أمرا وسوف ندعم موقفكم بعمل من جانبنا » ولكنهم لايذكرون تفصيلات ، ويحرض الاشتراكيون على عدم الاساءة الى علاقتهم بهذه الشركة الرأسمالية العريقة التى يعدونها باستعادة كيانها ، ويرفض جى موليه مقابلة جورج بيكو مدير عام الشركة أما ايدن ـ اذ لا تشغله هذه الاعتبارات ـ فسيتقبل بالترحيب مدير الشركة والسفير الفرنسى فرانسوا شارل ـ رو ٠

فى ركن من غابة بولونيا :

ولكن حادثا آخر يقع فى باريس فى ذلك اليوم ولا يتكلم عنه أحد ، ففى شقة فخمة قريبة من غابة بولونيا يستقبل أحد البوراجوزيين الباريسيين بعض الاصدقاء • انه اجتماع دون احتفال فى مسكن تركه أصحابه ـ كانت أسرة المضيف تقضى الاجازة ـ ولكن أكثر ما يلفت النظر هو صفة المدعووين ، جميعهم يباشرون مسئوليات رسمية أو شبه رسمية ، فمنهم من كانوا وزراء ، ومن هم الآن وزراء ومن سيصبحون كذلك يوما ما ، ومن تنتظرهم فترة طويلة من النفى أو السجن • والى جانب هؤلاء عدد محدود من الاجانب ، جميعهم اسرائيليون •

لقد كان هذا الاجتماع أكثر الاجتماعات سرية فى حروب السويس كلها • كانت نقطة البداية فى المناقشة ، هى أن تأميم القناة يقدم ذريعة لم تكن متوقعة لعمل عسكرى ضد ناصر • ولكن الانجليز يريدون محاولة تحقيق هذا العمل بمفردهم باشعال ثورة هم واثقون من امكان قيامها فى القاهرة ، وقبلوا اشراك قوة فرنسية رمزية على الاكثر • أى أنهم ينوون اتخاذ اجراء بالاتفاق مع العرب ـ العرب الطيبين الذين يقبلون الوصاية البريطانية ـ وليس ضد العرب • فاذا استمر هذا الاتجاه فلن تكسب فرنسا شيئا ، ذلك أن حكام مصر الجدد سوف يواصلون مساعدتهم للثورة الجزائرية ، وسوف تصبح اسرائيل فى موقف أسوأ • لانها ستكون محاصرة تماما من جانب العرب الذين سيكونون متحدين حينئذ تحت رعاية الانجليز ، وستظل كبش الفداء للحكام الجدد فى دول الشرق الاوسط• فالواقع أن هؤلاء الحكام ـ كى يوطدوا سلطانهم على رعاياهم ـ سوف يتبارون فى مهاجمة اسرائيل •

والنتيجة هى أن عملا يجب أن يجرى لكى تكون اسرائيل على أية حال « شريكة فى الضربة » • ان الحكومة الفرنسية ـ وعلى الاقل جميع الوزراء الذين

يدخل فى اختصاصهم تنفيذ مثل هذه العملية ـ مقتنعون بذلك • واتخذ قرار بارسال وفود مختلفة ومتتالية الى بريطانيا مهمتها جميعا الضغط عليها لاقرار الفكرة • اما عن الحكومة الاسرائيلية فلا جدوى من ازعاجها ، ففى الوقت المراد ستوضع أمام الامر الواقع ، وبالنظر الى حال زعمائها فلن يلجأ أحد منهم الى الخبث والدهاء •

وينتهى الاجتماع وينصرف السياسيون الذين شهدوه •

وفى القاهرة يلقى ناصر خطابا ، وكانما أحس شيئا يجرى فى الخفاء فيعلن قائلا : « سوف نرد على القوة بالقوة » ويتخذ ناصر ـ كانما ليثبت لنا أنه يستعد للقتال ـ اجراءات جريئة يستطيع أى خصم حاذق أو مستعد للقتال أن يجد فيها فرصة يستغلها لمصلحته ، ويعتبرها بمثابة استفزاز له •

ويقرر عبد الناصر توجيه انذار لممثلى الشركات الملاحية التى تستخدم القناة بالتزام التعليمات الواردة فى منشور سابق بشأن ضرورة دفع رسوم المرور للحكومة المصرية وبوقف جميع الصادرات المصرية الى بريطانيا ، الا اذا تم الدفع عن طريق دولة تقبل مصر عملتها • ومن ناحية أخرى يتسلم ناصر احتجاجا أمريكا على الاتهامات التى وجهها فى ٢٤ يولية الى الولايات المتحدة ويتحاشى هذه المرة أن يطرد المبعوث الامريكى •

الأحد ٢٩ يوليو :

فى اليوم التالى يكون الرئيس عبد الناصر قد فكر ـ أو فكر له البعض ـ فيقرر الغاء غالبية القرارات التى اتخذها بالامس ، وبنفس الحماس الذى أصدرها به ، وبخاصة فيما يتعلق بوقف الصادرات المصرية الى بريطانيا • بل يؤكد وزير التجارة المصرى أن بلاده ليس فى نيتها تجميد الاموال البريطانية فى مصر بينما يندد وزير مالية بريطانيا بتجميد الارصدة الاسترلينية التى تخص مصر باعتبار

ذلك اجراء منافيا للقانون • ثم تقوم مصر فى لنـدن وباريس بحملة دبلوماسـية فتنشر سفارتها فى لندن بيانا تحتج فيه على تصوير تأميم القناة تصويرا خاطئا للشعب البريطانى • وتنشر سفارتها فى باريس بيانا آخر يؤكد حقوق مصر على القناة ويكرر وعود التعويض المبذولة للمساهمين ، كما يكذب الشائعات الخاصة بزيادة رسوم المرور •

وتنشر الحكومة الفرنسية من جانبها فى الجريدة الرسمية اعلانا لادارة النقد ينص على أن كل عملية اضافية أو حصم فى الحسابات المصرية بجميع أنواعها فى فرنسا وكذلك كل عملية تؤثر على أموال مودعة فى حسابات مصرية فى فرنسـا يجب الحصول بشأنها على ترخيص سابق من ادارة النقد • ولم يكن ذلك يعنى حظر المعاملات بالمعنى الدقيق ، ولكنه كان اجراء له مزاياه دون مساوئه • اذ يمكن بذلك ـ دون فتح المجال لاجراءات انتقامية ـ وقف المعاملات مع مصر ، مع السماح باستثناءات يراعى فيها الصالح القومىالفرنسى كشراء الاقطان طويلة التيلة مثلا •

ولكن مركز العمل المشترك تبلور فى يوم ذلك الاحد فى لندن ، فقد وصل اليها كريستيان بينو فى الصباح واجتمع « الثلاثة » على الفور • هم تحادثوا ، ولكنهم لم يقولوا شيئا ذا أهمية كبيرة • كانت المحادثات يشوبها شىء من الضيق مرجعه الى أن مورفى لم يكن الرجل الذى كانوا ينتظرونه من واشنطن ، وأن مجرد تغيب دالاس كان يبدو للمسئولين الفرنسيين والانجليز دليلا على موقف متحفظ من جانب الحكومة الامريكية •

وكان لويد وبينو يؤكدان لمورفى أن حكومتهما على استعداد للالتجاء الى القوة اذا دعت الحاجة ، ومورفى يعلن أن الحكومة الامريكية لن ترتبط بمثل هذا الاجراء • ولا يدلى وزير الخارجية الانجليزية والفرنسية بأية تفصيلات للمبعوث الامريكى عن الاجراءات العسكرية المزمع اتخاذها ، ويتركانه ليفهم ما لابد أن يكون قد أدركه بالامس حين لاحظ سفر ايدن ساعة وصوله لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى الريف ، أى أنه لم يكن المفاوض المناسب •

كان مورفى موفدا فى مهمة استطلاعية ٠ فما أن لمس من محدثيه الرسميين امتعاضـا لاطلاعه على دقائق الموقف حتى وجد نفسه مضطرا الى أن يلجأ الى اتصالات ذات طابع خاص ٠ فاتصل تليفونيا بماكميلان وزير المالية حينذاك ـ الذى كان رفيقه فى الجزائر أثنا الحرب العالمية الثانية والذى أتيح له هناك أن يلمس فيـه الفاعلية والروح التحررية ـ فدعاه للعشـاء بين الاصدقاء فى نفس المساء ٠

وقد ضم هـذا العشاء مدعووين آخرين ، هما القـائم بالاعمال الامريكى ولورث بابيور والفيلد مارشال الكسندر الذى عرفه مورفى كذلك أثنـاء حملة البحر المتوسط خلال الحرب العالمية الثانية ٠

ويقول مورفى : « لم يتركوا لدى أدنى شك فى أن الحكومة البريطانية كانت ترى أن مسألة السويس امتحان لا يمكن أن يواجه الا باسـتخدام القوة ، ولم يدهشنى رد الفعل هذا لانه لم يبدو لى أن ليس ثمة ما يبرره ٠ وأوضحوا لى أن الفرنسيين يشاركون تماما وجهة النظر البريطانية بشأن ضرورة العمل ، وأنهم على استعداد للاشتراك فى عمل عسكرى ٠

وحينذاك يذكر محـدثو مورفى له بعض التفاصيل عن مشروعاتهم ٠ ان الحملة يمكن أن تشن فى أغسطس ولن تستغرق وقتا طويلاً ، لأنهم كانوا يظنون أن كل شىء سوف ينتهى خلال عشرة أيام باستخدام فيلق أو فيلقين على الاكثر ٠ وهكذا توضع القناة تحت رقابة دولية ٠ وبرغم أن الحكومة البريطانية لم تقدر حق التقدير المغامرة التى تقوم بها ولا النفقات التى تتكلفها ـ فقد قدر لهذه العملية ٥ ملايين جنيه استرلينى ـ فانها كانت ترى أن قرارها هذا هو أحسن قرار ، ذلك أنه كان من اللازم طرد ناصر من مصر ، ويقول مورفى ان ماكميلان والكسندر كانا يبدوان بمظهر من اتخذ قرارا خطيرا ويحتفظان بصفاء من هم مقتنعون أنهم تصرفوا بتعقل وحكمة ٠

ولا يقول مورفى كل شيء ، اذ ليس من المعقول أن يكون رجل عسكرى مختص مثل المارشال الكسندر قد اعتقد أنه يمكن فى عشرة أيام وبفيلق أو فيلقين، تصفية حساب بلد يمتلك ما يقرب من مائة طائرة يمكن أن تواجه أقوى طائرات السلاح الجوى الملكى ، وأربعمائة من أحدث الدبابات الروسية التى يمكن أن تسحق فى سهولة الفيلق البريطانى . كان ذلك فى الوقت الذى لم يكن فيه للاسطول البريطانى أية قوات يمكن استخدامها فى البحر المتوسط قبل فترة طويلة . وكان الاعتراض على ذلك من الوضوح والجلاء بحيث لم تمض أيام حتى رأى نفس الزعماء البريطانيين أن الامر يستلزم مهلة شهر على الاقل وقوة هجومية أكبر من ذلك بدرجة لا تحتمل المقارنة .

كان هناك اذن شيء خفى فى هذا اللغز ، وهو التدخل المنتظر من جانب القوات الامريكية وعلى الاخص من الاسطول السادس الذى يمثل القوة الوحيدة المتأهبة للعمل فى أى وقت فى البحر المتوسط .

ان ما يطلبه البريطانيون هو ضمان التأييد المعنوى (والعلنى) من الامريكان والتغطية الاستراتيجية من الاسطول السادس الامريكى .

وكان الفرنسيون على استعداد للاشتراك فى العملية وسوف يعطون نصيبا صغيرا فيها ، من ناحية المبدأ .

ولكن النظرة تتغير فيما بعد ، بعد الرفض الامريكى ويحتاج الامر الى مزيد من الاعتماد على فرنسا . وحينئذ فقط تشكل لجنة التخطيط الفرنسية ـ البريطانية .

الاثنين ٣٠ يوليو :

حين عاد رئيس الوزراء البريطانى من عطلة نهاية الاسبوع وجد رسالة من سفيره فى واشنطن يشرح فيها احجام وزراء الخارجية الامريكية عن تنفيذ فكرة القيام بعمل عسكرى مشترك ٠ وفى صباح ذلك اليوم يلقى ايدن بيانا أمام مجلس العموم يحدد فيه السياسة البريطانية ويؤكد أن حكومته لا يمكن أن تقبل أية تسوية تستهدف ترك ادارة القناة فى يد دولة واحدة ٠

ويقابل البيان بالتأييد سواء من جانب المعارضة أو الاغلبية ، وليس فى ذلك ما يثير الدهشة، نظرا لما فى البيان من غموض٠ فهو يعنى ـ فى رأى البعض ـ أننا لن نقبل أى حل لا يتفق مع وجهة نظرنا بالنسبة لمصالحنا ، وفى رأى البعض الآخر يعنى أننا نؤيد فرض رقابة دولية على القناة ٠

على أن الاتفاق على ضرورة الاعتراف بادارة دولية للقناة كان النتيجة الوحيدة التى أسفرت عنها محادثات مورفى ـ لويد ـ بينو ٠ ولكن كانت لكل منهم وجهة نظر مختلفة فيما يتعلق بكيفية هذه الادارة واختيار الهيئة التى تتولاها ٠

فمورفى يريد الالتزام باتفاقية القسطنطينية الموقعة فى عام ١٨٨٨ ، وهى تنص على تدويل استخدام القناة دون أن تعنى بتفاصيل ادارتها ، وطبقا لها تكون السلطة المختصة هى الحكومة المصرية التى حصلت فيها الشركة على عقد امتياز أو عقد يمكن الغاؤه فى ظروف معينة ٠ ولكن وجهة نظر مورفى هذه ـ أى وجهة نظر وزراء الخارجية الامريكية على وجه التحديد ـ هى تلك التى عرضها على صبرى باسم الرئيس ناصر ونشرتها الصحافة وقت تأميم القناة ٠ انها وجهة النظر المصرية ، ضمان دولى بسير الملاحة ، وتأميم داخلى كما مارسته فى ظروف أخرى الحكومة الفرنسية أو البريطانية أو الامريكية ، مع تعويض المساهمين ، أو بعبارة أخرى دون سلب أو اغتصاب ٠

فاذا كنا نقر هذه النظرية ـ وسوف يقرها الفرنسيون والانجليز بسرعة كبيرة ـ فانا نقر التأميم ونتساءل حينئذ لماذا تواصل الحكومتان الفرنسية والانجليزية الاحتجاج ؟ ولماذا تقومان بكل هذه الضجة ؟

والحقيقة أنه لا الفرنسيون ولا الانجليز يقبلون هذه الطريقة التى انتهجتها وزراء الخارجية الامريكية « لتسقيهم الجرعة » ، اذ ترسل اليهم أحد كبار الموظفين فيناقش من الناحية الفنية موضوعا لا ثغرة فيه من الناحية القانونية بينما هم يريدون أن يجدوا بينهم المسئول عن السياسة الخارجية الامريكية ليجروه الى اتخاذ قرارات سياسية بممارسة ضغط عليه فى نواح أخرى •

ويصطدم المتفاوضون ، فمورفى يتهم بينو بأنه تهرب وتسبب فى تسرب المعلومات ، وبينو يقول ان الامريكان ـ بسحب عرض تمويل السد العالى الذى جاء فى وقت غير مناسب ـ هم الذين أثاروا المشكلة كلها ، انهم مسئولون عن تصرفاتهم وبالتالى هم طرف فى المشكلة ويجب أن يشتركوا اشتراكا مباشرا فى تسويتها •

ولكن المقصود على وجه التحديد ـ من استمرار دالاس فى التسكع فى بيرو ـ هو ألا يكون طرفا فى المشكلة ، انه يريد أن يحتفظ لنفسه بموقف الحكم ، ويقصد بصفة خاصة أن يكون متغيبا • وهذا الغياب يمكن أن يستمر طيلة الفترة التى يمكن أن تهدأ فيها الامور اذا لم يطرأ حدث جديد يحمله على قطع أجازته •

والواقع أن أيزنهاور قد تلقى مباشرة البرقية المرسلة من مورفى فى نهاية السهرة التى قضاها مع ماكميلان والكسندر والتى أوضحت النوايا البريطانية فى شن حرب على مصر • ويرد الرئيس الامريكى عليه بالتزام التحفظ ، مبلغا اياه أنه سوف يرسل اليه دالاس ، وتنتظر لندن حضور دالاس •

وفى باريس ـ ذلك اليوم ـ كان جى موليه ضيف الشرف فى مأدبة اتحاد الصحفيين البرلمانيين • وهناك يعقد بين الكمثرى والجبن موازنة سوف تصبح

معتادة بالنسبة له بين هتلر وناصر الذى يصفه بأنه صبى دكتاتور ويعلن عن الحاجة الى رد حاسم قاس يقوم على عمل مشترك من جانب الحلفاء الغربيين • وفى نفس المساء يعود بينو من لندن ليطلع موليه بوصفه رئيس الوزارة ، وبورجى مونورى باعتباره وزير الدفاع على نتائج محادثاته فى لندن •

أما بالنسبة لرجال البنوك فان الامور تسير على نحو أفضل ، اذ تلغى مصر منشورها الصادر فى ٢٨ يوليو الذى حددت فيه الهيئة الجديدة لادارة القناة الاجراءات الجديدة لدفع رسوم المرور ، كما تؤكد أنه ليس لديها أية نية لزيادة الرسوم فى المستقبل •

ويتخذ وزير المالية المصرية اجراء مماثلا لذلك الذى اتخذته فرنسا فى اليوم السابق • وان كان قد أفصح عنه فى مزيد من الصراحة ويقضى بألا يعمل بتراخيص الدفع بعملة أجنبية الا بترخيص من ادارة النقد ، وباخضاع الحسابات المصرفية للاجانب فى جميع البنوك المصرية لمراقبة النقد • والواقع أنه لم يبق شىء من الاجراءات المالية الثأرية التى أعلنها ناصر قبل ذلك بيومين ، وتجنب الرئيس بذلك مخاطرة اثارة استفزاز قد يترتب عليه عدم دفع الرسوم لهيئة الادارة المصرية لقناة السويس •

ويبدأ تأييد الدول العربية فى الظهور • ففى اليوم السابق أعلنت سوريا أنها على اتفاق تام مع مصر بشأن مشكلة تأميم القناة واليوم تؤيد السعودية تأميم القناة بينما يقر البرلمان اللبنانى بالاجماع مشروع قرار بتأييد مصر •

ومن بعيد يصل تأييد له أهميته ، اذ يذيع راديو موسكو أن الاجراء الذى اتخذه ناصر « عمل مشروع » •

ومن الواضح أن ذلك لا يتفق ورأى الجمعية الوطنية الفرنسية التى أوقفت جلستها بعد ظهر ذلك اليوم لمدة عشر دقائق « تطالب باتخاذ اجراء حاسم ضد

مصر » وكانت قد بدأت تتساءل عما اذا لم يكن الزعماء الفرنسيون ، موليه وبينو وبورجى مونورى دعاة حرب كلامية فقط وانهم فى الطريق الى شن حرب لفظية فحسب . هكذا يعلق الصحفى جان فابيانى أنه يكتب « ها هى ذى أربعة أيام مضت على تأميم القناة ونحن لم نقم بغزو مصر بعد » .

كلام . . .

هـذا هـو ما تراه الصحـافة الفرنسيـة فى تصريحـات جى موليـه ، ويمضى فابيانى قائلا « الرد الحاسم الفاسى الذى أعلن عنه رئيس وزرائنا والجبهة المتماسكة من الأمم الحرة ضـد الاغتصاب » وسـوف تبقى هـذه العبارات أمثلة للاقوال التاريخية التى تثير الضحك حين تقرأ فى كتب التاريخ ، وقد ألقى عليها الضوء ما تتابع من أحداث . ويعبر عضو الشيوخ ميشيل دبريه المدافع المتحمس عن السيادة الفرنسية فى الجزائر عن رأيه فى سياسه موليه ـ بينو ـ مونورى فى كلمتين اذ يقول : « تخاذل اجرامى » .

الثلاثاء ٣١ يوليو :

لا شـك أن المعركة غير متكافئة ، فلا موليه ولا بينو ولا بورجى مونورى ولا ايدن فى لندن يستطيعون أن يخففوا من حملة خصومهم ويفضوا اليهم مثلا بأن الكولونيل بريور سيسافر ذلك اليوم الى بريطانيا حاملا معه بيانا للقوات التى تريد فرنسا اشراكها فى العملية وهى فليق من المظليين ـ الفيلق العاشر ـ بقيادة الجنرال ماسو . والفيلق السابع ، ووحدة من المصفحات الممتازة .

كانت المحادثات الثلاثية مستمرة فى هذه الاثناء دون أن تصل الى نتيجـة ويتناول مورفى الغداء مع ايدن بحضور ماكميلان وسالسبورى وسـلوين لويد وثلاثة من الامريكان لا يذكر مورفى أسماءهم . وتظل المحادثات مشوبة بشىء من الفتور . وتجرى الامور وكأنما أصبح يقينا أن أى عمل تقوم به بريطانيا وفرنسا سوف توافق عليه الولايات المتحدة ، ويؤكد ايدن أنه لن يطلب من الامريكيان أية

مساعدة ، ولكنه يضيف قائلا : « اننا نعقد الامل على أنكم سوف تتكفلون بالدب » ومن الواضح أنه يقصد « الدب » الروسى • لم يكن رئيس الوزراء يرى الموقف الا من زاوية محددة هى الاتفاق أساسا على أن ثمة اتحـادا تاما فى المصالح بين الحلفاء • ويقول مورفى « لم يكن هذا يمثل وجهة النظر الامريكية ولم أحبذ هذا الرأى فى شىء » •

ومن الناحية المالية كان التحسن مستمرا ، فبينما يخفف بنك انجلترا من حدة الاجراءات التى اتخذت لتجميد الاموال فيمـا يتعلق بالمصريين المقيمـين فى بريطانيا ، تعلن مصر أنها تقبل الشيكات المسحوبة على البنوك البريطانية لسداد رسوم المرور• ولكن أكثر الاخبار المالية اثارة للدهشة تأتى من الولايات المتحدة ، اذ تعلن وزارة الخزانة أنها تخضع مؤقتـا لنظام التراخيص أموال شركة قنـاة السويس والحكومة المصرية الموجودة فى الولايات المتحدة « فى انتظار الفصل فى ملكية هذه الاموال وتسوية الوضع الراهن » •

فما هدف هذا القرار ؟

انه يهدف من الناحية الرسمية الى عدم الدخول طرفا فى النزاع ، وهـو ما يشير الى نوع من القصور فى التضامن تجاه أولئك الذين تسميهم حلفاءها • ولكن من الذى يفيد من هذا الموقف ؟ انه ليس الشركة ما لم يكن ناصر يريد منع مرور السفن (وهو ما يعد انتهاكا لاتفاقية القسطنطينية) لا سيما أن الشركة كان لديها فى أوروبا ــ بفضل مساعدة الحكومة الفرنسية والبريطانية ــ الوسائل اللازمة للحصول على حقها • وهذا الموقف كان يمكن أن يستمر طويلا الى أن يتخذ اجراء عنيف تقع مغبته بالضرورة على ناصر • ذلك أنه كان هو وحده الذى يمكن أن يبدأ بالمقاطعة ، ولكن واشنطن بهذا القرار تنصب نفسها حكما ماليا بين مصر والشركة العالمية كما تهيىء الحكومة الامريكية لنفسها ــ اذ تعلن التصرف فى أموال الشركة المودعة فى أمريكا وهى حوالى ثلث مجموع أموال الشركة ــ وسيلة للضغط عليهـا •

وأخيرا تعلن الحكومة السوفييتية فى هذا اليوم عن رأيها على لسان خروشوف ، ولابد أنه كان علم بالاستعدادات العسكرية الفرنسية الانجليزية اذ يصرح قائلا : « يجب العمل على ايجاد حل سلمى ، فليس هناك من حل آخر ، والشعب السوفييتى لا يريد أن ينتهك التعايش السلمى » وهكذا يتضح موقف السوفييت . فالاتحاد السوفييتى سوف يعارض أى محاولة لتسوية المشكلة باستخدام القوة ، ذلك أن مثل هذه المحاولةسوف تهدد سياسة التعايشالسلمى. ومن ناحية أخرى فانه كان أقل اهتماما بنوع الحل الذى يمكن الوصول اليه طالما كان بالوسائل السلمية. وهذا الموقف السوفييتى يعد بمثابة « توقيع على بياض » لفوستر دالاس ، فهو يعنى بالنسبة له أن استمروا فى لعب دوركم ولن تجدونا فى موقف مضاد لكم الا اذا منحتم تأييدكم للحملة العسكرية الفرنسية البريطانية، وفيما عدا ذلك فلكم أن تقترحوا ما تشاءون ونحن نرحب بعقد مؤتمر دولى (أى أننا لن نطلب الالتجاء للامم المتحدة !

ويستطيع دالاس ـ وقد تسلح بهذا الموقف ـ أن يستقل الطائرة دون حماس الى لندن حيث يصلها فى أول أغسطس .

الفصل السابع

المواجهة

اذا كان فوستر دلاس قد تأخر فى الذهاب الى حلفائه القلقين فى لندن فان ذلك يرجع الى أسباب هامة . فقد كان يعرف تماما أنهم فى انتظاره بفارغ صبر ـ « لقد أردنا حضور دلاس » هكذا قال بينو ـ ولكنه كذلك لم يكن يجهل الحالة النفسية التى كان عليها حلفاؤه ولا ما كانوا ينتظرونه منه. وكان من ناحية أخرى يعرف موقف حكومته ويترك الاختلافات بل الهوة الواسعة القائمة بين موقف الحلفاء والموقف الامريكى ، ويخشى الاصطدام بوجهات النظر المتناقضة هذه .

ولم يكن الزعماء الفرنسيون والانجليز يريدون مناقشات تتسم بصراحة كاملة الا مع دلاس . لأنهم كانوا يعتبرونه الرجل الاول فى الدبلوماسية الامريكية والمحرك الحقيقى للسياسة نيابة عن رئيس طيب يلعب الجولف (أيزنهاور) ، فكانوا يرون اذن أن دالاس يمكن أن يتصرف باسم بلاده دون مخاطرة لدى عودته بأن يتهمه أحد بأنه جاوز سلطاته . ولكن ذلك كان منذ البداية غلطة كبرى . فاذا كان دالاس يتصرف بحرية كبيرة فى المسائل القانونية فانه لم يستطع مطلقا ـ ما دام الامر يدخل فى نطاق المجال الخاص أى مجال العلاقات بين الدولتين الكبيرتين وكل ما يمكن أن يتصل بهذه العلاقات بطريق مباشر أو غير مباشر ـ أن يحيد عن تعليمات أيزنهاور وزمرته المحدودة من المستشارين الخاصين ، فقد كان أيزنهاور ـ كما يعترف بذلك مورفى ـ يتخذ من دالاس أدلة لاستهلاك الصدمات بين

الرئاسة والعالم الخارجى تاركا له مهمــة تنسيق تفــاصيل سياســة يحدد هو (أيزنهاور) مبادئها وتطبيقاتها بدقة • وكانت التعليمات التى تلقاها دالاس قلما تتفق والامال التى كانت معقودة عليه فى لندن •

وجهة نظر الفرنسيين :

لا شك أن الزعماء الفرنسيين ما كانوا ليصرحوا علانية بما كانوا يزمعون قوله لفوستر دالاس • ولكن من الشــائع فى الاجتمــاعات الدوليــة أن يعرب الصحفيون المتصلون بالدوائر الحكومية عن وجهات نظر قريبة الى حد بعيد من وجهة نظر المسئولين الذين يتصلون بهم • وهكذا يبدو أن مقالا نشر حينذاك فى صحيفة « كومبا » مثل وجهة نظر الدوائر الفرنسية التى لا تقتصر على الحكومة ، اذ جاء فى هذا المقال « ان مستقبل الاطلنطى فى خطر ، لقد أيدت فرنسا منذ عشر سنوات تضامنها التام مع أمريكا ، وكثيرا ما وضحت من أجلها بمصالحها الخاصة وببعض الواقع التى كانت تعتبرها • ومنذ عشر سنوات لم تفكر أمريكا الا فى الخلاف بين الشرق والغرب وتجسمت مشاغلها السياسية والعسكرية فى حــلف شمال الاطلنطى كنظام دفاعى ضد الاتحاد السوفييتى فى حالة قيام صراع مسلح معه • وهو ما لم نكن ننظر اليه نحن الاكثر ادراكا للواقع الاوروبى على أنه أمر لا سبيل الى تحاشيه •

وبالاختصار فكرنا فى أن التحالف يتضمن التزامات باهظة أحيانا ، كقبول اعادة تسليح ألمانيا مثلا •

واليوم أصبحت فرنسا صاحبة قضية ، فهى مهددة منذ عامين من جــانب القومية العربية فى شمال أفريقيا ، وهذا هو ناصر قد وجه اليها ضربة مباشرة مهددا مصالحها الخاصة وعملية تموينها بالبترول ونفوذها • وكان يحق للفرنسيين أن يأملوا فى ان حلفاءهم سيبدون لهم نفس التضامن الذى طلبه الحلفاء منهم من

قبل • ولكن هذا لم يحدث ، فنحن نقرأ فى الصحافة الامريكية أن عبدالناصر له حق من الناحية القانونية فى الاستيلاء على الأموال الفرنسية •

ومن الواضح أن هذا لم يكن سوى وجهة نظر ، ويمكن لجماعة أخرى من الفرنسيين ألا تؤيدها • فاذا كان الفرنسيون قد دفعهم عدم التبصر والخوف والتناقض ــ وهو أقل ما يمكن قوله ــ الى عدم التمسك بحماية المصالح الوطنية بحجة خطر يعترفون هم أنفسهم بأنه خيالى فان ذلك لا يمثل عذرا مقبولا أو حقا فى المطالبة بحمايتها ضد خطر جديد بمعرفة الدولة التى من أجلها ضحت هذه المصالح •

ان مطالبة فوستر دالاس بتطبيق معاهدة حلف شمال الاطلنطى تعتبر اجراء طبيعيا ، ولكن المعاهدة ــ على وجه التحديد ــ لا تنطبق على حالة مصر ، اذ تنص المادة الخامسة من المعاهدة على أن الهجوم المسلح على دولة أو أكثر ــ من الدول المتعاقدة ــ فى أوروبا أو أمريكا الشمالية يعتبر هجوما موجها ضد كل الاطراف • وتحدد المادة السادسة المواضع التى تنطبق عليها المادة الخامسة، وهى أراضى احدى الدول الاطراف فى المعاهدة فى أوروبا وأمريكا الشمالية والمقاطعات الفرنسية فى الجزائر وقوات الاحتلال التابعة لأحد الاطراف فى أوروبا والجزر الخاضعة لسلطان احدى الدول الاطراف فى منطقة شمال الاطلنطى الواقعة شمال مدار السرطان أو سفن وطائرات أحد الاطراف فى نفس المنطقة •

فالمعاهدة لا يمكن تطبيقها اذن الا فى حالة معينة هى : تلك التى يهاجم فيها ناصر أولا سفينة أو طائرة فرنسية ، وهو ما يتحاشاه تماما •

حقيقة أن لدينا نصوص المعاهدات وطريقة تطبيق هذه النصوص ، ولكن السياسة الامريكية المتزنة تتمسك فى هذه الحالة بالتزام حرفية النص •

علاقات خاصة جداً :

على أن المشكلة بالنسبة للانجليز كانت أكثر خطورة • والواقع أن دوائرهم الحاكمة كانت تعيش منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى حلم سياسى غير عـادى يطلقون عليه « العلاقات الخاصة » •

فلبعض الشعوب ، فيما بينها علاقات قرابة ، كوحدة اللغة مثلا أو اتحـاد سابق ارادى أو مفروض • وهذا ينطبق على فرنسا وبلجيكا وسويسرا أو كنـدا الفرنسية بل على كثير من مستعمراتها القديمـة ، وكذلك ينطبق على بريطـانيا ومستعمراتها القديمة وأسبانيا وأمريكا اللاتينيـة والبرازيل والبرتغـال والدول السكندنافية • وهى روابط عاطفية فى الغالب ، بمعنى أنها لا تكفى وحدها لاملاء سياسة تتقرر من ناحية أخرى تبعا لمصالح كل منها •

وحين بدا للزعماء البريطانيين خلال الحرب العاليـة الثانيـة أن قوة بلادهم النسبية تستهلك فى أتون الحرب وأن عصر العمالقة قد بدا ، رأت جماعة من هؤلاء الزعماء ـ كان أكثرها تصميما تشرشل وماكميلان ، وكلاهما من أصل نصـف أمريكى عن طريق الأم ـ أن الولايات المتحدة يربطها ببريطانيا نوع من القـرابة ليس قائما بالنسبة لغيرها من الدول ، ويمكن أن يفتح المجال لعـلاقات خاصـة أو لقرابة خاصة •

ولكن القرابة الخاصة لم يكن لها فى أذهانهم أى مفهوم عاطفى•وكان هارولد ماكميلان هو الذى أعطى لها التعريف الاكثر دقة بالاكثر سخرية بل الاكثر صدقا. وذلك فى حديث خاص فى الجزائر سنة ١٩٤٣ ، لقد قال ماكميلان « يجب دائما ياعزيزى كروسمان ، أن تتيح لزميلك الامريكى الا تكون له مرتبـة أعلى منـك ورصيد أكبر فحسب بل كذلك الانطباع بأنه هو الذى يدير كل شىء فسوف يساعد ذلك على أن تكون أنت المدير الحقيقى • أننا ياعزيزى كروسمان ، نمثل

الاغريق فى هـذه الامبراطورية الامريكية • وسـوف ننظر الى الامريكان نظـرة الاغريق نفسها الى الرومان • ويجب علينا أن نصرف أمور هذه القيادة العامة كما كان العبيد الاغريق يديرون شئون الامبراطور كلود » •

ولكن أكثر الامور اثارة للدهشة هو أن هذا المفهوم للعالم والرجال لم يقف عند مستوى المزاح والسخرية ، وأن غالبية حكومات ما بعد الحرب فى بريطانيا حاولت أن تجعل من هذه الترهات حقيقة سياسية ومبدأ رائدا لسياستها• وهكذا كانت بريطانيا تسابق الى لعب دور « الرجل الثانى اللامع » الذى يظل المرء فيه هو الثانى دائما دون أن يصبح لامعا وذلك فى سبيل سلام أمريكى ، يقوم كما نعرف على أسس واهية زائلة • وفى الوقت نفسه كانت دوائر الاعمال البريطانية التى تشارك فى هذه النظرة المحافظة تجر الاقتصـاد البريطـانى وهى سـعيدة بالازدهار الذى كان يكفله لأعمالها وصنعها كوسيط مفضل بين أوروبا وأمريكا وتبعيته وثيقة بالدولار• وكان كل ذلك يسوق بريطانيا الى التعلق بأذيال سياسة أمريكية تفتقر الى الاستقرار ، محاولة توجيهها وادارتها ، أى أنهذا ساق بريطانيا فى الواقع الى اغفال كل سياسة بريطانية أساسا أو وضعها بأقل تقدير فى المرتبة الثانية • فهناك رغبة فى استمرار هذه القرابة الخاصة وفى الوقت نفسه هناك رغبة فى التصرف فى الموارد البريطانية الخاصة ـ وبخاصة من البترول ـ دون تبعية لواشنطن • وكان هذا هو الموقف المتناقض الذى انساقت اليه الحكومة البريطانية •

سياسة الغموض :

أما الامريكان فـكانوا يعرفون ما يريدونه • كانوا لا يعتقـدون كثيرا فى نظريات القرابة الخاصـة • وكانوا منذ عشر سنـوات يسخرون دون مواربة من مزاعم بريطانيا فى ادارة الشركة الانجلو ـ سكسونية • كان ما يريده أيزنهاور هو السلام ، وذلك لأسباب معقولة كلها • فهو أولا لا غنى له عن ضمان اعـادة انتخابه للرئاسة ، ثم أنه كان محبا للسلام فى صدق وعمق ، وكان يقدر لو أن

هذه المشكلة تطورت الى حملة عسكرية على غرار حملات القرن التاسع عشر فسوف يتعرضون جميعا لخطر نشوب حرب عالمية • وأخيرا فانه كان يرى أنه ما دام النفوذ الامريكى كله انما يمارس نشاطه على العالم الغربى بفضل سيادة القانون الدولى واحترام ميثاق الأمم المتحدة فلا ينبغى لأمريكا أن تصبح شريكة فى اجراء عسكرى انتقامى يقوم به الحلفاء • اذ كان أيزنهاور يقدر أنه سيكون من الصعب جدا نتيجة لذلك فرض احترام مبادىء القانون الدولى على الدول الصغيرة ، اذا غض الطرف عن انتهاك هذا القانون على يد الدول الكبرى •

وعلى أية حال فقد وصل دالاس الى لندن حاملا تعليمات أساسية من أيزنهاور ، وهى تتلخص فى تحاشى أى تدخل عسكرى ، وفيما عدا ذلك يستطيع دالاس أن يفعل ما يريد •

لقد كانت الرسالة التى يحملها دالاس من أيزنهاور الى الفرنسيين والبريطانيين أقل حسما وكانت تنوه بضرورة المفاوضات ولكنها لم تستبعد بصفة قاطعة ، الالتجاء الى القوة • بل ان أيزنهاور كان على العكس من ذلك يقر أن الالتجاء الى القوة يمكن أن يصبح ضروريا لحماية الحقوق الدولية ، ولكنه كان يرى وجوب استنفاد جميع الوسائل فى سبيل الوصول الى تسوية سلمية قبل ذلك •

هذه هى المأساة ، فالجميع متفقون على هذه المسألة ولكن كلا منهم يفهمها بطريقة تخالف غيره • المسألة بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين هى استنفاد كل الوسائل الممكنة للوصول الى تسمية سلمية بأسرع ما يمكن فى انتظار أعداد الحملة التى يجرى تكوينها • على أنه كان من مصلحتهم التفاوض لتخدير أعصاب خصمهم ما لم يكن فى استطاعتهم القيام بعمل انتقامى مفاجىء ، ولكن الامر بالنسبة للأمريكان أنهم لا يرفضون بصفة مطلقة رغبة حلفاء شمال الاطلنطى فى الحرب ، وهم بذلك يخاطرون بتهديد التوازن الاوروبى الضعيف البنيان الذى

أقاموه بفضل هذا التحالف• ولكن الامر يقتضى فى الوقت نفسه مضاعفة الوسائل السلمية حتى بعض من الوقت ما يصبح معه الرد العسكرى غير ذى موضوع حقيقى ما دام الوضع المؤقت سيستقر بحكم الواقع وتسير الملاحة فى القناة على أية حال • وفيما عدا ذلك فلن يبقى حينئذ الا توزيع الاموال ، وهو ما ينتهى دائما الى تسوية حين يكون هناك ما يمكن اقتسامه •

وهكذا فان الاتفاق الاساسى الوحيد الذى تمخضت عنه محادثات لندن هو الرغبة فى كسب الوقت من جانب الفرنسيين والبريطانيين لأنهم غير مستعدين عسكريا ، ومن جانب الامريكان لأنهم يأملون أن تسوى الامور بعض الوقت • أما فيما عدا ذلك فليس الا سوء فهم من الجانبين ، فدالاس يقول لحلفائه أنتم على حق ولكن •• ويستنتج الفرنسيون والبريطانيون من ذلك أنهم على حق فعلا •

كان دالاس يعرف حق المعرفة أن لدى الحلفاء سلاحا فعالا هو التهديد بقطع أواصر تضامن الاطلنطى وأنهم على استعداد للمضى بعيدا فى هذا السبيل • فلا ينبغى اذن أن يصطدم بشركائه ، ولكنه سوف « يستهلكهم » وقد اصطحب معه لهذا الغرض الخبير الاول فى الشئون القانونية بوزارة الخارجية الامريكية ، وقد أعد الاثنان سلسلة من الاشكالات • أجل ، ان الاجراء الذى اتخذه ناصر كان موضع استنكار ، ولكن ينبغى تعبئة الرأى العام العالمى ضده •

والقناة لها وضع دولى تكفله اتفاقية القسطنطينية المعقودة عام ١٨٨٨ فى حين ان قناة بنـاما ـ كما يرى دالاس ـ أمريكية لأنهـا مؤجرة الآن للولايات المتحدة • نعم قد يكون التدخل العسكرى أمرا ضروريا ، ولكن يجب أولا استنفاد جميع الامكانيات للوصول الى تسوية سلميـة ، ويجب عقـد مؤتمر دولى على أن تحصل وجهة نظرنا على غالبية الثلثين •

ولكن كل هذه الاعتبارات كانت جوفاء بالنسبـة للفرنسيين والبريطانيين الذين كانوا يقصدون هدفا محددا صريحا ، هو القضاء على ناصر•ولديهم للوصول

الى هذه الغاية وسيلة واحدة سريعة وعملية تستند الى مبرر قوى يقوم على انتزاع ملكية شركة رأسمالية فرنسية بريطانية ، وهذه الوسيلة هى استخدام القوة • فاما أن يتركنا الامريكان نقتص لأنفسنا بمعرفتنا مع حمايتنا من الخطر الذرى السوفييتى والا فسيقيم الدليل على أن معاهدة حلف شمال الاطلنطى لا تطبق الا حين تكون مواتية لمصالح الولايات المتحدة وفى هذه الحالة ينبغى أن تبحث فرنسا وبريطانيا عن ضمانات لأمنهما خارج نطاق هذا الحلف •

ان الاختيار صعب وشائك ، فاذا حاول دالاس حل المشكلة فانه لن يستطيع أن يعود الى بلاده ـ ولم تبق على انتخابات الرئاسة الامريكية سوى ثلاثة شهور ـ الا بالتزامات ترتبط الولايات المتحدة أو باتفاق يشركها فى عملية حربيـة وهو ما سوف يترتب عليه هزيمة الحزب الحاكم « الجمهورى » فى الانتخابات وبالتالى أيزنهاور ودالاس أيضا • أما الاحتمال الثانى فهو انهيار الحلف الذى ترتكز عليه كل سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، وهو ما يؤدى كذلك الى هزيمة الجمهوريين، وأيزنهاور ودالاس •

لذلك يلجأ دالاس الى المغالطة والغموض ، فيقترح عقد مؤتمر دولى يناقش الوضع الدولى للقناة • الخ ، أى أن يبحث مسائل لا يعارض فيها ناصر • والواقع أن ناصر لا يريد منع الملاحة فى القناة لأنها ستكون مصدر الـكسب الذى يأمله منها ، وهو يعرض تعويض الشركة القديمة على أساس سعر الاسهم يوم التأميم• ولا يرفض الفرنسيون والبريطانيون عقد مثل هذا المؤتمر ما لم يستعدوا عسكريا بعد ولكنهم اذ يخشون من التأخير ينشدون عقده فى وقت قريب فى حين أن دالاس ليس مستعجلا • غير أنه من اللازم تحديد موعد الانعقاد ومراعاة الاختلاف فى المواعيد المناسبة لاكثر من عشرين دولة ، وأخيرا يتم الاتفاق على يوم ١٦ أغسطس موعد للانعقاد • ويوافق الفرنسيون والبريطانيون واضعين فى اعتبارهم أنهم سوف يستطيعون بعد نحو عشرة أيام من المحادثات اثارة المشكلة فى الوقت المناسب ، فيبعثون الى ناصر بقرارات المؤتمر فى صورة انذار •

استرداد ما أخذه ناصر :

ولكن الفرنسيين والبريطانيين كانوا يريدون من دالاس شيئا غير الكلام المعسول، انهم يريدون تعهدا. أي يتعهد دالاس بتأييد الحملةالفرنسية البريطانية، اذا كانت جميع الوسائل الاخرى للوصول الى حل سلمى قد استنفدت قبل ذلك بل يوجد الصيغة التى تهدىء من روع ايدن وبينو « يجب استرداد ما يحاول ناصر الاستيلاء عليه » ويقول ايدن « لم يكن ثمة لبس فى ذلك فقد ظلت هذه الكلمات تطن فى أذنى وقتا طويلا » .

حقيقة أنه لم يكن ثمة لبس فى ذلك . فقد كانت الولايات المتحدة تتصرف فى خلال الاسابيع التالية وفقا لهذا التعهد ، فلم تفعل شيئا لمنع الحملة ، ليس هذا فحسب بل انها قدمت أيضا من المعدات ما لا يمكن بدونه قيام الحملة ، ومن ذلك المدافع المضادة للدبابات ١٠٦ التى لم يكن الجيش الفرنسى يستخدمها ضد ثوار الجزائر والمعدات اللازمة لتوريد أحدث الطائرات بالاوكسيجين السائل وهى معدات لا تستخدم أيضا فى الجزائر . وقد تمت هذه الامدادات فى نطاق حلف شمال الاطلنطى وقدمت لواشنطن الاسباب اللازمة التى تكفل اقناعها من الوجهة الرسمية بضرورة المعدات ، ولكن الموقف فى حقيقته كان يختلف عن ذلك . فقد كان الفرنسيون والبريطانيون برغم سرورهم بمساعدة الامريكيين لهم يحقدون عليهم بعض الشيء بسبب وفرة مواردهم كما كانوا يقولون : « ان هؤلاء القادة الامريكيين المتعاونين معنا الى هذا الحد لم يتخلوا فىذلك الوقت عن حب الاستطلاع والشغف الشديد الذى لا يبدونه فى الاوقات العادية وأخذوا يرقبون فى اهتمام تحركاتنا البرية والبحرية والجوية .. » .

وثمة دليل آخر على التساهل من جانب أمريكا ، فطائرات « مستير » التى أعطيت لاسرائيل لمهاجمة مصر وطائرات « ف ـ ٨٤ » التى أرسلها الفرنسيون الى قبرص لم تكن تستطيع قطع الرحلة دون توقف . وكان من المقرر اذن أن

ستخدم القاعدة الايطالية فى برنديزى ، وينبغى فى هذا الصدد الاعتراف بأن موافقة ايطاليا على استخدام هذه القاعدة لهذا الغرض ـ وهو ما يعد تصرفا خطيرا لأنه يجعل الحكومة الايطالية متهمة بالتواطؤ فى الهجوم على مصر ـ ما كانت لتتم لولا أن روما قد تحققت من قبل من موافقة أمريكا • وهناك أدلة أخرى فى هـذا الوضع نفسه وهى أثيوبيا ، اذ يكشف سرد الاحداث أن أثيوبيا قـد سـاعدت اسرائيل على اعداد حملتها ضد مصر • على أن امبراطورها كان يدرك ادراكا تاما ضعف العروش بحيث لابد أن يكون قد تأكد من أن ما فعله سيثير حتما رد فعل•

ومن المفهوم أن هذا التعهد من جانب دالاس يجب أن يبقى سرا بيننا وما أن يعود دالاس الى نيويورك حتى يعلن بقصد التهدئة أنه لم يربط الولايات المتحدة بشىء ، كل ذلك مع غمزة عين لايدن بشأن مقتضيات الحملة الانتخابية • والواقع أن دالاس كان يقدر أنه بمرور الوقت سوف تخف حـدة المشكلة وكانت هذه المقاومة التى وجدها لدى حلفائه مفاجأة له • فحتى ذلك الحين كان رؤساء حكومات ووزراء خارجية العالم الحر يرون أن المقترحات التى ترد من واشنطن فيما يشبه الحتمية التاريخية ـ سارة كانت أو مفجعة على أية حال ـ لا تقبل المناقشة • وربما كان دالاس يعتقد فى قرارة نفسـه أنه ما أن تمر تلك الفترة المثيرة بحق لذلك التفكير الطائش ، حتى تعود النعاج الضالة الى حظيرتها فى هدوء • وقد ذكر لايدن وبينو ـ اللذين صدمهما ذلك كيف تخلصت أمريكا من قبل من مصـدق الذى كان يريد الاحتفاظ لايران بمكاسب البترول الايرانى • ولم يكن ثمة مقارنة أشد وقعا من ذلك ، ذلك أن سقوط مصـدق كان على وجه التحديد فصلا من فصول ذلك التنافس البريطانى الامريكى الذى بدأت تشتم رائحته من جـديد ، وهو فصل ترك ذكرى منغصة لدى رئيس الوزارة البريطانية ، اذ انتهى باقامة شركات أمريكية فى منطقـة كانت حتى ذلك الحين وقفا على شركة البترول الانجليزية ـ الايرانية السابقة •

البيان المشترك :

وهكذا أثبتت مناقشات يوم ونصف يوم الى موقف غامض لم يحاول احد توضيحه ، لان كلا الجانبين كان يريد أن تسير الاحداث لمصلحته ، ثم أذيع بيان جاء فيه أنه تم الاتفاق على مسائل معينة ٠

ويبدأ البيان المشترك للدول الثلاث بعرض تاريخى لمشكلة قناة السويس ويستطرد مستنكرا الاستيلاء التعسفى باجراء فردى من جانب دولة واحدة على هيئة دولية عهد اليها بصيانة القناة وادارتها لكى يتسنى لجميع الدول المنتفعة بمعاهدة ١٨٨٨ الاستفادة فعلا باستخدام هذا الممر المائى الدولى ٠ « وتذكر الدول الثلاث بعد ذلك أن من الضرورى اتخاذ اجراءات لضمان حرية المرور فى قناة السويس بصورة فعالة » ٠ وأن خير هذه الضمانات هو وضع نظام للادارة الدولية للقناة ، وأخيرا يشير البيان الى اقتراح عقد مؤتمر للدول المعنية فى لندن يوم ١٦ أغسطس بقصد بحث هذا النظام ٠

وتنشر الدول الثلاث قائمة ألحقت بالبيان تضم أسماء الدول المدعوة ، وهى الدول الثمانى الموقعة على معاهدة عام ١٨٨٨ أى مصر وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وهولندا وأسبانيا وتركيا والاتحاد السوفييتى ٠ يضاف اليها ست عشرة دولة رأت الدول الثلاث أنه يهمها استخدام القناة وهى : استراليا وسيلان والدانمرك وأثيوبيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية واليونان وأندونيسيا وايران واليابان ونيوزيلندا والنرويج وباكستان والبرتغال والسويد والولايات المتحدة ٠

ايدن فى مجلس العموم :

ويعرض ايدن الموقف أمام مجلس العموم حتى قبل أن يتم تحرير بيان الدول الثلاث ٠ فيتكلم عن الاجراءات العسكرية التى يجرى الاعداد لها بقصد انتهاج سياسة حازمة ، ولكنه لا يعرب مطلقا عن نيته فى شن الحرب ٠ حقا انه

يعلن أنه لم يعد يثق فى كلام ناصر ، ولكن الهدف الذى يحدده لنفسه أمام مجلس العموم لم تكن له علاقة بالحرب فهو يقول « ان حرية المرور فى القنـاة لا يمكن كفالتها بشكل فعال الا بمعرفة هيئة دولية ، هذا هو ما نبذل جهـدنا لتحقيقه بالتفاوض الآن مع دول أخرى يعنيها هذا الامر بصفة خاصة » ٠

وبعكس الاعتدال الذى كان يبديه ايدن نجـد فى تصريحات حزب العمال البريطانى لهجة عنيفة تثير الدهشة ٠ اذ يصيح الزعيم العمالى جيتسكل « أعتقد أن لنا الحق فى التصرف بشدة ردا على هذه الضربة » لقد أراد ايدن أن يرى منذ سمع هذه العبارات التى صرح جيتسكل بها ، نوعا من التفويض الكامل من جانب العمال ٠ ولكن لنا أن نشك فى ذلك ، لانها من نوع العبارات الجوفاء نفسها التى يستخدمها فى جميع الدول أولئك الذين يمارسون أساليب استمالة الجماهير ٠ فالنظر الى هذه العبارات بعين الثقة ينطوى على خطر الوقوع فى سوء التقدير ٠

وكان العنصر الايجابى الوحيد الذى قدمه رئيس الوزراء أمام مجلس العموم عن السياسة التى سينتهجها هو تعهـده بأن يبذل جهـده للوصول عن طريق المفاوضات الى حل لمشكلة القناة ٠ وكان هـذا هو التعهد الوحيد الذى حصل عليه مجلس العموم ذلك اليوم ٠ ولكن لو استطاع ايدن أن يصرح للمجلس بأنه فى الوقت الذى كان يؤكد فيه للمجلس أنه سيبذل جهده للوصول الى تســوية للمشكلة عن طريق المفاوضــات وكان الجنرالات والاميرالات البريطانيين الذين يأتمرون بأمره يعقدون النية على شن الحرب بالقاء القنابل والهجوم المباشر على مصر مما يؤدى الى سقوط آلاف من القتلى ، لو أنه استطاع ذلك لابدى له العمال وجانب كبير من المحافظين توجيههم وعدم ثقتهم به ٠

ولسنا بصدد تقرير ما اذا كان ايدن قد أعوزه الاخلاص تجاه مجلس العموم فى أثناء تلك المناقشــة يوم ٢ أغسطس ، فلم يكن يستطيع أن يقول غير ذلك ٠ ولكن يجب أن نتذكر ـ لنزداد تفهما لتتابع الاحداث ـ أنه كان يخيم على تلك الجلسة جـو مثقل باللبس والغموض ٠ ولم يحصل ايدن فى ذلك اليوم على أى

تفويض بشن الحرب . حقيقة أنه لم يطلب ذلك ، ولكنه لم يكف عن التصرف بعد ذلك كما لو كان قد حصل عليه . واذا كان هذا لا يعنى أنه أخطأ فانه يساعد على تفسير بعض ردود الفعل التى تعرض لها بعد ذلك .

ما يدور فى باريس :

ولكننا نجد فى باريس أغنية أخرى تتردد . انها أغنية الحرب والوعد بالظفر الذى يبذله بينو للنواب الذين أخذتهم النشوة . فلا لبس هنا ولا تعقيدات سياسية « سوف نحطم العرب » وسوف تجرى الامور فى سهولة ويسر . وكان اليمينيون الفرنسيون الذين لا يثقون فى بينو ويرون فيه الى حد ما عميلا لناصر ، يشعرون بالغبطة . أخيرا ها هو اشتراكى ينفذ سياسته ويتحمل نتيجة الفشل اذا قدر أن يكون ثمة فشل . وكان اليساريون أقل تحمسا فيما عدا تلك الزمرة التى تدور فى فلك روبير لاكوست وماكس لوجين ، والتى كانت مستعدة دائما للقتال . وأما الساخطون والحذرون والخائفون فقد كانوا يتحصنون وراء أسوار مبدأ وحدة الاصوات ، على أنهم كانوا محدودى العدد . وهذا الترخيص بالصيد ، الذى كان يطلبه جى موليه جدد له عدة مرات دون مشقة قبل وقوع أحداث أكتوبر .

لقد حرصت الجمعية الوطنية ـ عشية مناقشة ٢ أغسطس حين كان بينو فى لندن وكان ايدن يتكلم فى مجلس العموم ـ على تأكيد استنكارها للاجراء الذى اتخذه عبد الناصر .

وكان هناك اجتماع بين جميع المتحدثين ـ موريس شومان وجورج بيدو ، وبيير مونتل ، ودى شفنبيه ، ودوفينا وبروكا باستثناء جيوه ، المتحدث بلسان الشيوعيين ـ على المطالبة باتخاذ اجراءات شديدة وأقرت الجمعية الوطنية بغالبية ساحقة اقتراحا لبيير مونتل يستنكر فيه تصرف ناصر بوصفه تهديدا دائما للسلام . وفى اليوم السابق فى مجلس الجمهورية ندد بليزان ـ رئيس لجنة الشئون

الخارجية ـ بالعمل المشين الذى قام به ناصر • وأشار الى اتفاقية القسطنطينية التى تجيز فى بعض الاحوال ـ كما يقول ـ ارسال سفن حربية الى بور سعيد أو السويس •

انها جمعية وطنية محمومة ، تلك التى يجدها بينو حين عودته من لندن • جمعية يتسم فيها بعض النواب بأنهم يعرفون ما دار هناك وأن الامريكان سائرون معنا • وهو ما يطمئن الجميع ويساعد على تجنب الكثير من المناقشات والمشادات• وكانت هناك نقطة أساسية فى بيان بينو هى تأكيد التضامن الغربى ، اذ يقول « لقد أظهرت محادثات لندن عودة التضامن بين الدول الغربية ، وهو تضامن تأمل الحكومة أن يتجلى دائما حتى النتائج الاخيرة للمشكلة القائمة » •

ويحدد وزير الخارجية بعد ذلك وجهة نظر الحكومة الفرنسية قائلا : « ان الحكومة لا يمكن بأية كيفية وبأية صورة أن تقر الاجراء الذى اتخذته الحكومة المصرية وسوف تستخدم جميع الوسائل الضرورية لاحباطه » •

ويستطرد بينو قائلا : « وسوف تمضى الحكومة حتى النهاية فى الطريق الذى تسلكه دون أن تتخلى عن رباطة جأشها أو تصميمها » انه تصريح واضح مباشر لا لبس فيه • سوف نشن الحرب ، فاما أن تؤيدنا أمريكا واما أن نمضى بدونها • ويقابل تصريح بينو بالهتاف والتصفيق ، ويحدث فى تلك اللحظة أمر خطير لا يفوت واشنطن ادراكه ، وهو أن البورجوازية الفرنسية تتحرر من الوصاية الامريكية التى خضعت لها فى شىء من الحذر منذ عام ١٩٤٦ •

ويظل جى موليه ـ الذى يعقب بينو على المنصة ـ متحفظا أو بعبارة أخرى محترما لروابط حلف شمال الاطلنطى • فيصرح بأن هيئة دولية يعهد اليها بادارة القناة هى وحدها التى يمكن أن تضمن حرية المرور فيها (ويلاحظ مدى مطابقة هذه العبارة لتلك التى ذكرها ايدن من قبل) وان فرنسا لن تقبل معارضة مصر فى ذلك ، ويختتم كلامه قائلا : « ان الحكومة الفرنسية تعرف مدى المسئوليات

التى تواجه الحلفاء فى هذا الوقت ، وهى لم تتردد فى مواجهتها وسوف نتحملها حتى النهاية » انها عبارة مبهمة تبدو لاول وهلة مفعمة بروح الحرب التى تشوب تصريح بينو ، واذا فحصناها عن كثب نراها لا تحمل شيئا يمكن أن يصدم دالاس أو ايدن ، وتتسم بغموض يكفى لتغطية جميع الاحتمالات • ولا يعنى هذا ان موليه يلتزم بدرجة أقل من غيره ، ولكنه يعنى أنه يهتم بالصيغة • بل أنه يمكن على العكس من ذلك الاعتقاد بأنه يتحدث بمزيد من الافصاح •

والواقع أنه يؤكد أن المبادىء التى سيتم الاتفاق عليها فى مؤتمر ١٦ أغسطس ، والتى لا يشك فى أنها سوف تكون فى مصلحته بفضل غالبية الثلثين التى ينتظر الحصول عليها ، هذه المبادىء سوف نفرضها نحن على ناصر اذا حاول تجاهلها • وهكذا تتعدد الفكرة الاساسية الاستراتيجية (السرية) لشهر أغسطس وأوائل سبتمبر ، وهى ارسال انذار الى ناصر بحيث لا يمكن الا أن يصيبه الخزى بقبوله ، وحينئذ ـ ردا على رفضه المنتظر ـ يكون الهجوم •

وفى مساء ٣ أغسطس وأمام عدسات التليفزيون الفرنسى يعود جى موليه وكريستيان بينو الى الحديث فيما تحدثا عنه بعد الظهر أمام النواب ، ويفسر بينو ما وراء كل هذه الضجة • سوف يضيع شمال أفريقيا كله اذا قدر لناصر أن ينتصر ، فلن يكون ثمة جدوى من أن يخاطر ٤٥٠ ألفا من جنودنا بحياتهم فى شمال أفريقيا اذا سمحنا لناصر بأن يعرقل نشاطهم • ان هذا كلام يتسم بالقوة ولكنه لا يذكر كل شىء ! فالواقع أن فرحات عباس كان قد وصل الى القاهرة ليبحث نتائج المحادثات التى أجراها خيضر فى يوغسلافيا مع كومان وهربو اللذين أوفدهما موليه وبينو لهذه المهمة • ربما كان افهام العدو أن الحكومة الفرنسية على استعداد للتفاوض يترتب عليه تقوية ارادة القتال لدى هذا العدو ، وربما يلحق أيضا الضرر بنشاط ٤٥٠ ألفا من الجنود الفرنسيين الذين يخاطرون بحياتهم فى شمال أفريقيا • والواقع أن السياسة الفرنسية كانت شديدة التعقيد، فمن تعنت هنا الى تساهل هناك !

نداء الى الدول :

وها هي ذى الشركة العالمية لقناة السويس البحرية تتارجح انفعالا فى مقرها الهادىء بشارع ستورج بباريس ، وتوجه نداء الى الحكومات والامم تناشدها فيه اتخاذ جميع القرارات التى فى وسعها كى تتمكن من أن تسترد الرقابة الفعلية على القناة وأن تستمر للمصلحة المشتركة فى ادارة هذا المرفق العام الدولى الذى تتولى شئونه منذ نحو قرن من الزمان ٠

ولكن هذا النداء لا يجد آذانا صاغيه ، ويبلغ مجلس ادارة الشركة بنتائج مؤتمر الدول الثلاث فى لندن فيتوجس خيفة ٠ اذ يقرر دالاس لدى عودته الى واشنطن الترخيص للسفن الامريكية بدفع رسوم المرور للهيئة الجديدة لقناة السويس ، أى فى الواقع للحكومة المصرية على أن يقترن الدفع بعبارة « مع حفظ الحق فى حالة البروتستو ودون المساس بأى حق فى الاسترداد أو غير ذلك » وتقرير الحكومة الامريكية فى الوقت نفسه الغاء القيود التى فرضت يوم ٣١ يولية على التجارة الامريكية المصرية ٠

وينتاب مديرى الشركة هذه المرة قلق شديد ٠ وعبثا يقيم دالاس فى اليوم نفسه بتوجيه تحية للشركة القديمة ، اذ لا يستطيع بهذه المجاملة أن يمحو الضرر الذى يلحقه بمصالح الشركة العالمية ٠ لذلك يكتب رئيس الشركة شارل رو طلبا فى صيغة خطاب الى وزير الخارجية الفرنسية طالبا تفسيرا وتعهدا بشأن الموقف مستقبلا ٠ وفى هذا الخطاب يذكر شارل رو للوزير كريستيان بينو ، أهمية الشركة سواء من ناحية المصالح الفرنسية أو من ناحية ادارة القناة ، ويكتب رئيس الشركة بمزيد من الوضوح والالحاح فى وقت واحد فيقول : « هل لى أن أضيف أننا ـ زملائى وأنا ـ نشعر بشىء من القلق بسبب تصريحات حكومات باريس ولندن وواشنطن التى لا تذكر فيما يتعلق بالمستقبل ، أى شىء عن شركة قناة السويس ، اننا نريد أن نعتقد أن هذا القلق لا أساس له وأن الحكومتين الفرنسية

والبريطانيـة على الاقل تعترفان بضرورة الانتفاع ـ فى المستقبل كمـا كان فى الماضى ـ بخدمات شركتنا التى لا غنى عنها • ونود أن نعرف قبل عقـد المؤتمر القادم أن وجهة نظر الحكومة الفرنسية فى هذا الصدد من شأنها أن تضمن فى وقت واحد المصالح الفرنسية الضخمة التى تمثلها ومصالح أصحاب السفن فى العالم بأسره الذين لن يتاح لهم ـ دون معاونة شركتنا ـ الانتفاع بخدمة كتلك التى عودناهم عليها فى الماضى •

ويتلمس جورج بيكو ـ مدير عام الشركة ـ المعلومات فيطلب مقابلة رئيس الوزارة جى موليه فيرفض هذا مقابلته ، ولكنه كان أسعد حظا فى وزارة الخارجية مع كريستيان بينو الذى يسرف له فى الوعود ولكنه لا يفعل شيئا • وبعد وقت قصير أخذ المسئولون يهمسون لمديرى الشركة : لا تقلقوا ، سوف تحفظ حقوقكم، اننا نعد عملية عسكرية !

سننتصر لأننا الأقوى :

لم تكن غالبية الشعب تعرف أنهم يعدون عملية عسـكرية ، لان كل شىء كان يجرى فى جو من السرية • ولكن الجمهور بدأ يشـك فى الامر بعد أن امتـد ضجيج الاستعداد حتى وصل صداه الى القاهرة وواشنطن • ففى صحافة بريطانيا وفرنسا نجد سيمفونية حربية حقيقية : وحـدات من الاسـطول الملكى تستعد للعمل ، فرنسا تتخذ اجراءات عسكرية ، المملكة المتحدة توقع أمرا باستدعاء عشرين ألفا من جنود الاحتياطى ، الاسـطول الفرنسى تتجمع وحداته كلها فى طولون •

والواقع أن هذه الاجراءات العسكرية كانت قد تقررت منذ أول يوم ، أى منـذ أول اتصـال تليفونى بين ايدن وموليـه ، ولكن المسـئولين الفرنسـيين والبريطانيين انتظروا موافقة دالاس كى يعتمدوا هذه الاجراءات ويتخذوا منها أداة للسياسة وكأنما لم يكن يساورهم شك فى أن يسرع ناصر ـ حين اعلانها ـ الى التراجع مطأطئا الرأس • وعلى أى حال فقـد امتلأت الصحافة الفرنسـية

بصيحات أنصار التدخل ، فيقول جاك سوستيل « ان سياسة حازمة فى مواجهة المصريين هى وحدها التى يمكن أن تبعد شبح الحرب » ويصرح عضـو الشيوخ ميشيل دبريه « لا مباحثات ممكنـة مع ناصر » ويعلن بيدو « لا ينبغى أن نترك السفن ليعلوها الصدأ فى القناة » ٠

بل ان البعض يرون أن الانتظار قد طال ٠ ومن ثم يكتب بيير روستيد فى صحيفة كومبا (٣ أغسطس) هل يجب الانتظار حتى الايام الاخيرة من أغسطس لنعرف ما اذا كانت فرنسا وبريطانيـا ستضطران للالتجاء الى اجراءات الضغط التى أعلنتاها ؟

ويبدو أن الاسـتعجال كان على أشـده فى ذلك الوقت ٠ ألم تنشر صحف كثيرة أن ناصر سوف يضع صواريخ موجهة روسية فى جزر خليجى السـويس والعقبة ؟ ولكن ليس هذا هو الخبر الذى يمكن أن يرفع ثانية قيمة أسهم شركات البترول فى سوق الاوراق المالية ٠ لاشك أن أسهم قناة السويس قد انخفضت منذ ٢٦ يوليو ، ولكن قطاع البترول هو الذى أكد الخبراء ٠ ان التصريحات القوية سيكون لها بعض الاثر فى تعزيزه حتى ولو لم يذهب المسئولون الى نهاية الشوط فى وضعها موضع التنفيذ ٠

تحذير شيوعى :

ووسط كل هذه الاصوات المتحدة المتناسقة كان هنـاك نغم نشاز واحـد صادر من جانب الشيوعيين فى شكل تصريح للمكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى بشـأن مشكلة قناة السـويس ٠ ويظهر من لهجة التصريح وواقعيته ــ اذ كان خطر الحرب حقيقة واقعة ــ ان الحزب الشيوعى الذى يحرصون دون شك على الوقوف على جميع الاتجاهات الحكومية وشبه الحكومية كان ينظر نظرة جدية الى تصميم الدوائر المسئولة ٠

ويذكر التصريح أن عملاء الرجعية وأحزابها يحاولون جهدهم جر الشعب الفرنسي الى مغامرة عسكرية ضد مصر • ان خطر الحرب أصبح واقعا وحجج الحرب أصبحت غير مقبولة ، ومثيرو الحرب يزعمون أنهم يتحدثون باسم القانون وباسم فرنسا • ولكن هذا الزعم ينطوى على اكذوبتين ، فمصالح فرنسا ليس لها علاقة بامتيازات مديرى شركة القناة ، كما أن قرار الحكومة المصرية قرار مشروع، ولا يمكن لاى اشتراكى أو اى ديمقراطى أن يعارض هذا التأميم • لقد حفرت قناة السويس بأيدى الشعب المصرى وكلفته حياة مائة وعشرين الفا من العمال المصريين وكانت حفنة من الرأسمالية تستولى على ١٦ مليارا سنويا من أرباح ادارتها • ويشير البيان الى أن ناصر وعد بضمان حرية الملاحة فى هذا الممر المائى الدولى وبعدم زيادة رسوم المرور وبتعويض جميع المساهمين ، ومع ذلك فقد جعلت الحكومة الفرنسية من نفسها فى لندن المتحدث باسم المساهمين •

ولا شك أن الحزب الشيوعى الفرنسى لم يخطىء فى تقدير التأثير المباشر لهذا التصريح ، فهو يقصد بصفة خاصة تسجيل رأيه وسط مجريات الاحداث ، ولكن تصريحا يجىء من مصدر كهذا يستحق أن يحلل بدقة • ولا يفوت المراقبين أن يلاحظوا فى هذا البيان شيئين : اشارة الى حرب كوريا ــ لانهم يدعون اليوم الى حرب كورية جديدة ضد مصر ــ والى الهدوء الدولى ومن ناحية أخرى فان سياسة القوة ضد مصر سوف تضر بالهدوء الدولى • وهاتان نقطتان تثيران حساسية خاصة من جانب الرئيس أيزنهاور الذى يدين بجانب كبير من شعبيته الى تصفيته لحرب كوريا ، وبجانب كبير آخر منها الى حرصه الشديد على التقدم شيئا فشيئا فى طريق اقرار الهدوء الدولى •

هذا هو الشىء الأول وأما الشىء الثانى الذى يخلص اليه المراقبون فهو ان الحزب الشيوعى اذ يرى بوادر الحرب لا يطلب الى اتباعه أن يلقوا بأنفسهم على القضبان ليوقفوا القطارات كما فعل منذ عدة سنوات مضت ، بل أن المرء ليحس على العكس بأن الحزب لايغضبه آن تزج حكومة اشتراكية بنفسها فى حملة جديدة ضد المكسيك •

فذلك أولا سوف يحرر الجبهة الجزائرية ، ثم انه سوف يمكن ـ مهما يضعف احتمال قيام موقف خطير فى مكان آخر ـ من ألا يبذل الكثير من دم الجمهورية الرابعة ٠

دالاس ينكر :

لم يكن الحزب الشيوعى الفرنسىهو وحده الذى تزعجه رغبة حكومة باريس فى الحرب ٠ ففى واشنطن كان المسئولون يقدرون أيضا خطر الموقف ، فقد أدلى دالاس بمجرد عودته اليها بتصريح أو بالاحرى بخطاب للشعب الامريكى كى يضع النقط فوق الحروف ، فبدأ بتفسير الطابع الدولى لهذا الطريق الهام من المواصلات العالمية قائلا أن حركة الملاحة فيه تقدر بثلاثة أمثالها فى قناتنا ، قناة بناما ، فضلا عن الصفة الدولية التىتتسم بها الشركة٠ ولكن ما العمل ؟ يقول دالاس أن البعض ينصحون بالالتجاء مباشرة الى القوة وان هذا هو واجب الحكومات التى تشعر أن تأميم القناة يمسها بصفة مباشرة ، ولكن ذلك يخالف مبادىء الامم المتحدة ومن شأنه أن يوسع نطاق استخدام العنف ويعرض سلام العالم للخطر ٠ وقد وصلنا فى لندن الى اتفاق على طريقة أخرى ٠

ويعلن دالاس أن مصر يجب أن تعامل بأقصى درجة من العدل ، وان الامم التى لها حقوق واجبة الاحترام يجب أن تعامل كذلك ؟ ثم يوجه بعد ذلك نصيحة الى الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالالتجاء الى حكم متأن حكيم من الامم الكثيرة التى لها حقوق منبثقة من معاهدات دولية ٠ ويعرض لحالة فشل المؤتمر قائلا اننا نستند أساسا الى وجهة النظر القائلة بأن المؤتمر لن يفشل ، ولكننا لم نتخذ أى تعهد من أى نوع كان بشأن ما يمكن أن تفعله الدول اذا لم يصادف المؤتمر التوفيق ٠

ولكن الحقيقة أن دالاس كان قد أعطى تعهدا بأن يغمض عينيه عما يمكن أن يفعله الفرنسيون والبريطانيون اذا ما فشلت جميعوسائل التفاوض مع الاستمرار

فى حمايتهم ضد أى خطر ذرى سوفييتى ، وهذا التعهد نفسه تكشف ضمنا فى حديث أيزنهاور فى المؤتمر الصحفى الذى عقده يوم ٨ اغسطس •

وهنا يظهر عمق المأساة وتمضى القرابة الخاصة ربع ساعة مشئوما • فقد عقدت الدولتان ، الانجلو ساكسونيتان فى لندن نوعا من التحالف المشكوك فيه يقوم على اللبس وسوء الفهم الذى تأمل كل منهما أن تفرض فيه على الاخرى وجهة نظرها هى وحدها • ويلجأ رئيسا الدبلوماسية البريطانية والامريكية الى الكذب نظرا لانهما لا يستطيعان الاعتراف بهذا النوع من التعهد أمام شعبيهما • فايدن يبلغ مجلس العموم ـ أى ممثل شعب بريطانيا ـ بانه يريد تسوية المشكلة بطريق المفاوضات فى الوقت الذى يدل فيه موقفه وتصرفاته والاوامر التى أصدرها على عكس ذلك • أما فوستر دالاس فيؤكد للامريكان فى غير تحرج أنه لم يرتبط بأى تعهد مطلقا •

ومرة واحدة وعلى غير العادة تكلم الزعماء الفرنسيون الى زملائهم فى البرلمان والى شعبهم فى صراحة تامة • وقد تكلموا بشىء من الايجاز بالتأكيد ويمكن أن تلخص الاستراتيجية الفرنسية فى عنوان « الحالة تصل الى درجة الغليان » • ولكنها واضحة لا لبس فيها ، وهى تدل على أنه لا مفاوضات وعلى ضرورة استخدام القوة •

وهذا الاتجاه الذى سارت فيه الحكومة الفرنسية من غير تردد يثير الرسميين الامريكيين أكثر فأكثر ، وسرعان ما يظهر ذلك فى مقالات الصحفيين المتصلين بوزارة الخارجية الامريكية وبوزارة الدفاع الامريكية • وهكذا تكتب مارجريت هيجنز فى صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون « تتمثل احدى الحقائق الدولية للنصف الاول من القرن العشرين بشأن دولتين من أفضل حلفاء الولايات المتحدة فى ظاهرتين احداهما ان فرنسا أكثر استعدادا بكثير للتدخل فى الحرب منها لمواصلتها ـ مثال ذلك ما حدث فى الحرب العالمية الثانية فى الهند الصينية ـ والاخرى أنه لا فرنسا ولا بريطانيا كانت تستطيع الانتصار فى حرب دون المساعدة

المادية من الولايات المتحدة ثم اشتراكها فيها فى النهاية » وبعد أن أشادت الكاتبة بدالاس ـ الذى قالت عنه أنه أحرز نصرا من أكبر انتصارات حياته اذ نجح فى تهدئة الانجليز والفرنسيين ، وهـذا رأى يكاد يكون دالاس هو الوحيـد الذى يشاطرها اياه ـ كتبت محذرة « ان حرب العصـابات التى يمكن أن تعقب نصرا مبدئيا للحلفاء سـوف تحول مصر الى جزائر جديدة أو الى ديان ـ بيـان ـ فو أخرى » •

ومن ناحية وزارة الدفاع الامريكية نجد الهجوم أكثر قسوة، فكتبت صحيفة نيوز آند ورلد ريبورت ، التى تعبر عما يجرى فى الاوساط العسكرية بواشنطن « ان حديث الحرب يتزايد سريعا حين تكون مصالح الدول الاخرى هى التى هددت ولكن حين تسعى الولايات المتحدة لحماية مصالحها الخاصة فان ذلك يعـد نزوعا للحرب ، فمن الواضح أن ثمة كيلين وميزانين » •

وتضيف واشـنطن الى تعليقات الصحافة هذه تصريحات أكثر اتجاها الى الطابع الرسمى • وهكذا يعلن وزير الدفاع الامريكى فى مؤتمر صحفى أن مشكلة السويس تعتبر مشكلة صغيرة نسبيا ويجب أن تسوى بالوسائل السلمية فى نطاق مؤتمر يعقد لهذا الغرض • ويصف الوزير المشكلة بأنها نزاع محلى يجب مع ذلك أن تظل الولايات المتحدة على يقظة تجاهه وأن تضرب بشأنه المثل فى الاعتدال •

أيزنهاور فى حيرة :

وهذا الاعتدال الامريكى يؤدى الى ازعاج باريس ولنـدن ، ويبدو أنهما تتصرفان كأن الولايات المتحـدة لا وجود لهـا وتمضيان فى تنفيـذ مشروعاتهما العسكرية • وسرعان ما تأخـذ الامور اتجـاها مختلفا ، فتقرر واشـنطن وقف الشحنات الهامة دون غيرها التى ترسل الى مصر من قبل المسـاعدة الخارجية • وفى اليوم التالى نجد أن أيزنهاور ـ وقد أحرجته بعض الاسئلة المحددة الموجهة

اليه فى مؤتمره الصحفى ـ هو الذى يتراجع . فيرد على الصحفى الذى يسأله عن رأيه فى استخدام القوة أو التهديد باستخدام القوة فى مشكلة السويس ، قائلا :

« أنا .. أنا لا أستطيع الاجابة بمثل هذا التسرع » . فيوجه اليه من جديد هذا السؤال : ولكن نظرا الى أن الجانبين قد قطعا مثل هذا الشوط ، الا ينتظر أن يكون الحل السلمى للمشكلة صعبا أو متعذرا ؟ فيجيب آيزنهاور :

« لم تصل الحالة بعد الى هذه الدرجة وأعتقد أن هناك .. أعتقد أن هناك من الأسباب ما يدعو الى الامل فى أن تتغلب الحكمة ! ان الامر يتعلق بمشكلة مهمة بالنسبة للعالم كله بحيث أعتقد أن وجهة نظر جديدة تتسم بمزيد من الاتزان والهدوء سوف تنتصر فى النهاية وهذه هى احدى المسائل التى لا يزال من الممكن تسويتها ، وأود أن أقول أن التدمير أو التخريب لا يعتبر وسيلة لتسوية مشكلة حين يكون القصد هو البناء والتشييد .

ـ هل يمكن أن تفسر ملاحظاتكم السابقة بأنها تعنى أنكم تعارضون استخدام القوة ؟

ـ لم أقل ذلك .

ـ هل قلتم ذلك فى أثناء أزمة قناة السويس ؟

ـ لقد حرصت على ألا أقول ذلك . لقد قلت أن أية مشكلة هامة فى العالم تهدد مصلحة أكثر من دولة ، ينبغى أن تسوى عن طريق المفاوضات . لقد حاولنا أن نستعيض بمائدة المفاوضات عن ساحة المعركة . واذا قلت ذلك فلست أعنى أنه يجب على اى طرف أن يتخلى عن حقوقه دون أن يبذل أولا كل ما فى وسعه للمحافظة على هذه الحقوق .

وكانت السياسة الامريكية كلها فى شهر أغسطس تمثل انعكاسا للحيرة التى تواجه أيزنهاور ، فهى تجنح تارة الى جانب الفرنسيين والبريطانيين ،

وتارة أخرى الى جانب المصريين ومن يساندهم محاولة فى وقت واحد الا تقطع علاقتها بأحد وأن تتجنب مواجهة تعتقد ألا خير منها فيما يختص بها على الاقل ٠

العالم العربى يسترق السمع :

لقد أرهف العالم العربى السمع ، فهو يستمع لما يقال فى العالم ، ويظل منقسما على نفسه ٠ وفى الوقت الذى يصل فيه فوستر دالاس الى لندن لاجراء محادثاته مع الفرنسيين والبريطانيين كانت الحكومة السورية (٢٩ يوليو) والامير فيصل ولى عهد السعودية (٣٠ يوليو) والبرلمان اللبنانى (٣٠ يوليو) يعربون وحدهم فقط عن مساندتهم وتأييدهم للرئيس ناصر ٠ لذلك يقوم ناصر يوم أول أغسطس بثلاثة اجراءات سياسية يعتبرها سبيله للاشتراك بطريق غير مباشر فى المحادثات الفرنسية البريطانية الامريكية ، فيلقى خطابين وتنشر الحكومة المصرية بيانا رسميا ٠ وفى أول هذين الخطابين اللذين القاهما فى الاسكندرية يمثل ناصر دور القوى المتعالى فيقول « ان تحركات لندن هذه لا تهمنا » ولكنه فى أبى قير يخاطب الرأى العربى بصفة عامة من فوق رؤوس الحكومات المتنبهة ، فيعود من جديد الى وعوده « سوف نحرر العالم العربى من المحيط الاطلسى الى الخليج الفارسى » والى جانب هذه الكلمات الموجهة الى الجماهير يأمر الرئيس بأن تنشر الحكومة المصرية بيانا رسميا بشأن وضع قناة السويس محددا التعهدات التى تعتبر مصر نفسها ملتزمة بها ٠ كانت الشركة العالمية لقناة السويس شركة مصرية ، ومن ثم يمكن أن تؤمم ، وهذا التأميم لا يؤثر مطلقا على التزامات مصر الدولية ٠ ونحن مصممون ، كما كنا دائما ، على الوفاء بجميع التزاماتنا الدولية ٠ وباختصار تتعهد الحكومة المصرية ـ بهذا البيان ـ باحترام الوضع الدولى للقناة ، أى أنها تتعهد مقدما بالالتزام الذى يزمع الحلفاء عقد مؤتمر من أجله فى لندن ٠ ويأمر ناصر ممثله الدائم فى الأمم المتحدة عمر لطفى بابلاغ السكرتير العام للأمم المتحدة فورا بهذا التعهد ٠

كانت هـذه مناورة بارعة تهـدف الى تجنب انشاء لجنــة رقابة دولية على قناة السويس والى تأسيس الوضع الدولى للقناة على وعد مصرى يبذل بضمان الأمم المتحدة • ولكنها مناورة لم تؤت ثمرتها ، اذ ينشر الحلفاء بيانهم المعروف .

نحو حل سلمى ؟

يسلم هذا البيان يوم ٣ أغسطس الى وزير الخارجية المصرى ويدعو مصر للاشتراك فى مؤتمر لندن الذى يعقد يوم ١٦ أغسطس • وما ان يحـاط ناصر علما ببيان لندن حتى يجرى محادثات على التوالى مع سفراء الاتحاد السوفييتى (كيسيليف) والهند (نواب على جونج) والولايات المتحدة (بايرود) •

وكان أول رد فعل رسـمى مصرى مشجعا • اذ يعلن على صبرى ــ وكان حينئذ يشغل منصب مدير المكتب السياسى للرئاسة ــ ان التوفيق بين المصالح المصرية واستخدام قناة السويس كطريق مائى ليس أمرا مستبعدا • فى حين يجدد فتحى رضـوان وزير الارشـاد القومى من جانبه التعهد الذى التزمت به حكومته منذ يومين « ان مصر تؤكد لجميع الحكومات وجميــع الافراد والشركات حرية الملاحة فى قناة السويس » •

واتضح بسرعة ــ وقد تأكد ذلك منذ هذا الوقت بخاصة على لسان الرئيس نفســه ــ أن ناصر يزمع الذهاب الى لندن ليعـرض وجهة نظر مصر فى مؤتمر الأربعة وعشرين • ولكنه اذا ذهب فانه لن يذهب خاوىالوفاض ، ولكن يذهب قويا بتأييد عدد من الدول والرأى العام العربى كله • ولن ينتهى المـؤتمر اذن كما يريد ايدن وانما ينتهى بقطع للعلاقات الدبلوماسية يصبح على أثره توجيه انذار الى ناصر بمثابة انذار الى العـالم العربى • كان هذا هو كل الفرق عنـد البريطانيين !

ويظهــر التأييد من جانب دول اخـرى ، ففى ٥ اغسطس تعلن الصــين مساندتها وتأييدها لمصر بعد عشرة أيام من التأميم • وكذلك لبنان ، ثم ــ وهذا

مفاجأة المفاجآت ـ تأييد العراق • نعم العراق المحكوم بيد نورى السعيد الذى كان يحث ايدن فى حماس على اعلان الحرب منذ عشرة أيام • وباختصار لم يعد هناك من لم ينضم الى المعسكر المصرى فى الدول العربية فى الشرق الاوسط ـ باستثناء الامارات الصغيرة ـ سوى ملك الاردن ، ثم أن ليبيا ما لبثت أن أعلنت أنها لن تجعل من أراضيها عدوان ضد مصر •

ايدن يتكلم :

رجل يخشى انقلاب كل مشروعاته رأسا على عقب من جراء حضور ناصر الى لندن ، ذلك هو أنطونى ايدن ، ومن أجل هذا فسوف يعمل على منع قدوم ناصر ويتأكد أولا من مساندة أيزنهاور فيكتب اليه يوم ٥ أغسطس معربا عن اقتناعه « بأنه يمكن بعد محادثات لندن الثلاثية أن نثبت لناصر وللعالم أننا ـ بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ـ جبهة متحدة » ويدعو الرئيس الامريكى للاستعداد لمواجهة احتمال رفض ناصر قبول ما ينتهى اليه المؤتمر • ويرد ايزنهاور مشجعا ، ويظهر تشجيعه فى الموقف الذى اتخذه فى موتمره الصحفى يوم ٨ أغسطس × •

حينذاك يخاطب ايدن الشعب البريطانى يوم ٨ أغسطس مهاجما ناصر هجوما مباشرا « ان عدونا ليس مصر ولا هو العالم العربى ولكنه الكولونيل ناصر » ويرد ايدن على الاعتراض الذى يطالب بأن ينظر بعين الاعتبار الى التعهد المصرى بعدم عرقلة الملاحة فى قناة السويس وبعين الثقة الى ناصر ، فيقول « انظروا الى سوابقه ، لقد أظهر أنه شخص لا يمكن الثقة به وهو لن يحترم أى اتفاق » •

× يلاحظ ان لهذا التاريخ اهمية بالغة ، لأن امتناع آيزنهاور فيه عن استنكار القوة بصفة مطلقة يعتبر بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين حثا قويا على المغامرة •

فاذا جاء ناصر برغم ذلك وبعد هذه الاهانة العلنية على مسمع من عشرات الالوف من البريطانيين فسوف يحضر كأنه متهم • وهذه هي النتيجة التي كان يهدف اليها ايدن ، والتي يمكن أن تفسر وحدها مجافاة خطابه للمنطق البديهي، لأنه اذا كانت مصر لا تستطيع احترام تعهداتها كما يزعم ايدن ـ ذلك أن مصر في هذا الوقت هي ناصر ـ فلماذا دعاها الى لندن لتقدم تعهدا يرى أنها لن تستطيع ولا تريد احترامه ؟

تأثير العرب :

ويوم ٦ أغسطس صرح الأمين العام للجامعة العربية في بيان اذاعه راديو القاهرة بقوله « انني لا أرى كيف يمكن أن تقبل مصر الاشتراك في مؤتمر لندن الذي سيعقد يوم ١٦ أغسطس في جو من العنف والضغينة في الوقت الذي حددت فيه بعض الدول الكبرى التي يهمها المحافظة على نفوذها الاستعماري في الشرق الادنى قراراته مقدما » ويضيف الأمين العام لهذا المظهر السلبي من خطابه مقابلا ايجابيا اذ يقول :

« اننا لا نفهم كيف يمكن الامم المتحدة التي نص الميثاق على اختصاصاتها بشأن المحافظة على السلام ، وعلى الوسائل السلبية لتسوية المنازعات الدولية ، أن تظل صامتة تجاه عدم الشرعية الصارخة لمؤتمر لندن • ان مصر والى جانبها أعضاء مؤتمر باندونج يضعون ثقتهم في الأمم المتحدة وسوف يستمرون كما كان حالهم في الماضي في الكفاح من أجل السلام العالمي » نداء غير مباشر الى الآمم المتحدة ، ولكنه نداء مباشر الى دول مؤتمر باندونج ولجبهته العربية الآسيوية التي لمع فيها شواين لاى رئيس وزراء الصين •

وبعد بضعة أيام ـ يوم ١٠ أغسطس ـ أعلن المؤتمر الشعبي الاسلامي الذي عقدته لجنة تحرير الشعوب الاسلامية لتأييد الادارة الجديدة لقناة السويس ، أعلن الاضراب الشامل يوم ١٥ أغسطس (عشية انعقاد المؤتمر) في جميع البلاد العربية والاسلامية •

وأدرك ناصر أنه اذا أصر على الذهاب الى لندن فسوف يعامل هناك بامتهان من ناحية وسوف يلقى هجوما عنيفا فى القاهرة من ناحية أخرى ، ولن يكسب كثيرا من هذه الرحلة ولكنه يخاطر بأن يخسر الكثير ، فمن الحكمة اذن أن يتخلى عن السفر ٠

وحينئذ يحاول الرئيس ككل السياسيين البارعين أن يحقق مجدا من موقف هو فى الحقيقة مضطر اليه ٠ فيعلن يوم ٢٢ أغسطس ـ فى مؤتمر صحفى ـ قراره الذى يستشف من بيان سابق لسفارته فى لنـدن رافضا الاشتراك فى مؤتمر لندن ، ويقترح حتى لا يتهم بسوء النية عقد مؤتمر آخر لا تدعى اليه الدول الموقعة على اتفاقية القسطنطينية وحدها فقط ، ولكن أيضا جميع الدول المنتفعة بالقناة ٠

ومن الواضح أن كل ذلك يفترض لا موافقة الامريكان فقط وانما تأييدهم أيضا أو على الأقل مشاركتهم ، أى توفير الحماية للحلفاء من الخطر الذرى الروسى ، وهى الحماية التى يمكنهم فى ظلها أن يقوموا بعملياتهم ٠ أى أن هذا يفترض أن واشنطن اذ تدافع عن هـذا المفهوم للمصالح الفرنسية البريطانية تدافع كذلك عن المصالح الامريكية فى الشرق الاوسط وجميع الدول الافرو آسيوية ٠

ان لدى الفرنسيين والبريطانيين وسـيلة فريدة للضـغط على الحـكومة الأمريكية ، ألا وهى التهديد بالخروج من حلف شمال الاطلنطى ٠ ومن الممكن ـ بفضل ذلك ـ أن تقبل واشنطن وهى تزمجر ، ولكنها تقبل برغم ذلك الامر الواقع اذا ما سقط ناصر بسرعة ٠ هذا هو على الاقل ما يعتقده المسئولون فى باريس !

ولكن لندن كانت أقل حماسا بكثير ، فروابطهـا بأمريكا أوثق عرى ، والمصالح البريطانية فى الشرق الاوسط أكثر تنوعا واتساعا وأهمية من مصالح الفرنسيين ، وسرعان ما تظهر الخلافات ٠

العمال يتراجعون :

كان حزب العمال والاحرار (المستقلون) أولئك الذين تعبر عنهم خير تعبير صحيفة المانشستر جارديان وكذلك غزالوا لانكشاير ، هم الذين ظهرت بينهم الخلافات بسرعة • فقد تراجعت صحيفة ديلى هيرالد كثيرا عن مواقفها الحماسية المتطرفة التى اتخذتها فى اليوم الاول ، وفى ٤ أغسطس كتبت صحيفة مانشستر جارديان :« بأى حق يمكن أن تقوم بريطانيا وفرنسا بعمليات عسكرية ؟ وما دام الرئيس ناصر لم يغلق القناة مطلقا فى وجه الملاحة فسوف تكونان هما المعتديتين ، وهما لن تستطيعا حتى أن تخولا لنفسيهما حق التصرف باسم الامم المتحدة » •

ان هذه معارضة لها وزنها وسوف يضعها ايدن موضع الاعتبار ، فلا يقدم على عمليات عسكرية الا « كحكم بين مصر ودولة معتدية » وهنا يجىء الدور الخبيث الذى سوف تقوم به دولة اسرائيل الصغيرة بحماس شديد وفاعلية لانزاع فيها •

ويستمر الناس على ضفاف نهر التايمز فى التساؤل ، وفى ٨ أغسطس تنفجر قنبلة • ويعلن أربعة وعشرون من البريطانيين من أعضاء الجناح اليسارى لحزب العمال أن استخدام القوة ضد الحكومة المصرية والشعب المصرى فى مشكلة السويس سوف يكون عملا عدوانيا طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، ويمكن أن يشكل تهديدا خطيرا للسلام العالمى • ويسرع المتحدث بلسان وزارة الخارجية البريطانية الى التأكيد بأن بريطانيا تنشد أن يسوى النزاع بشأن قناة السويس بالطرق السلمية •

ولا يقنع العمال بهذه الكلمات ، فما يعرفونه عن الاستعدادات الحربية الجارية لا يبعث فيهم روح الاطمئنان • ويصرح مورجان فيليبس سكرتير الحزب

يوم ١٢ أغسطس بأنه يبدو له ضروريا للغاية أن يعلن أن أى اجراء تتخذه بريطانيا يجب أن يحترم احتراما تاما روح ميثاق الأمم المتحدة • وفى اليوم التالى تنشر لجنة الحزب عقب اجتماع لها بيانا وافق عليه أعضاؤها بالاجماع تعارض فيه الالتجاء الى القوة بتسرع ، وتطالب بعرض نتائج مؤتمر لندن على الجمعية العامة للأمم المتحدة فى اجتماع غير عادى • وينشر زعماء حزب الأحرار فى اليوم التالى بيانا يتضمن أن قناة السويس يجب أن توضع تحت ادارة سلطة دولية تشكل فى ظل الأمم المتحدة •

سياسة حزم فى باريس :

وفى فرنسا ظهرت المعارضة بدرجة أقل عنفا ووضوحا • ويمكن القول انها باستثناء معارضة الشيوعيين لم تظهر بالمرة فيماعدا موقف شخصيات معدودة كثيرا ما تقربها شجاعتها من الانتحار السياسى • كان تحالف اليمينين مع العناصر الانجليزية والاسرائيلية يلعب دوره ، ويرتكز على القاعدة التى تقرر أن سقوط عبد الناصر يعنى القضاء على الثورة الجزائرية •

ولنلاحظ التالى :

٣ أغسطس : الوحدات البحرية الفرنسية للبحر المتوسط المتجمعة فى طولون على استعداد للعمل •

صورة : السفن الحربية سوركوف وجان بار وجورج ليجو •

٤ ـ ٥ أغسطس : الاجراءات العسكرية البريطانية مستمرة • الاستيلاء على السفن التجارية • استدعاء ١٢٥ ألف جندى من الاحتياطى خلال ثمان وأربعين ساعة • تحركات مستمرة للقوات فى شرق البحر المتوسط •

٦ أغسطس : صورة لفرقة الكوماندوز « ترابل » المكونة من جنود البحرية وهى تتأهب للرحيل على ظهر باخرة من الدرجة الثانية « قابيل » التى غادرت طولون فى طريقها الى الشرق الاوسط •

نشـــاط شـــديد فى بورتسموث • الشـياطين الحمر البريطانيـون فى طريقهم الى البحر المتوسط على ظهر حاملة الطائرات تيزو •

صورة : الانجليز يستعدون ، جنود كتيبة المشـاة « سمرست » يجربون ارتداء الملابس العسكرية للمناطق الحارة •

٧ أغسطس : مؤتمر لاركان الحرب فى طولون •

صورة : حاملة الطائرات بولويرك وهى تغادر ميناء بورتسموث فى أعقاب رول بريتانيا •

٨ أغسطس : اجتماعات لاركان الحرب تبحث فيها الاجراء الخاصة بالتدخل الفرنسى البريطانى المتوقع •

لندن : اجراءات عسكرية فى شرق البحر المتوسط •

٩ أغسطس : الاسراع فى تكوين القوات الفرنسية البريطانية المشتركة •

١٠ أغسطس : البحرية الفرنسية غير مكترثة بحرب الاعصاب ، وهى على استعداد تام •

لندن تعلن أنها قد تضطر ازاء اتساع نطاق جهودها الحربيـة الى سحب بعض الوحدات البريطانية من ألمانيا •

١١ ـ ١٢ أغسطس : تعزيز الاستعدادات الحربية البريطانية مسـتمر برغم الشائعات •

الاسر الفرنسية تغادر مصر • نحو ثلاثة آلاف امرأة وطفل سوف يرحلون آخر الاسبوع القادم، وفى حالة ازدياد التوتر سوف تنقل باخرة حربية رعايانا الباقين•

تحذير شديد مفاجىء من الولايات المتحدة لناصر • الكونجرس يمكن أن يدعى لعقد اجتماع غير عادى فى حالة وقوع عدوان •

١٣ أغسطس : طائرات وبواخر تحمل قوات الى قبرص ومالطة ٠

١٤ أغسطس : أسراب من الطائرات تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرق البحر المتوسط ٠

ومن الواضح أنّ هذا العرض للاستعدادات العسكرية سواء أكانت حقيقية أم مفتعلة كانت له أسباب ٠ فالهدف منه هو التأثير على ناصر والتأثير على المصريين من حوله بصفة خاصة ، وكذلك على العالم العربى ٠

فكل هذه الضجة من الاستعدادات العسكرية تعتبر فى نظر أولئك الذين يثيرونها ذات أثر سياسى بعيد ٠ فاذا صدقها الخصم فسوف يؤثر ذلك عليه وعلى سلوكه السياسى ، واذا لم يصدقها فسوف يساعد ذلك على مواصلة الاستعدادات الحقيقية خلف الستار ٠

وتطول هذه الاستعدادات ويثير التأخير القلق ، أولا لدى الشركة العالمية التى تحس برغبة متزايدة فى القتال وتنشر بيانا يوم ٦ أغسطس تنذر فيه موظفيها بالاختيار « بين ولائهم للشركة أو التعاون مع القاهرة » وتنزعج لندن ، اذ ليس لديها من احتياطى البترول الا ما يكفى لاستهلاك ثلاثة أسابيع وهى تحرص على أن يمر أكبر عدد ممكن من ناقلات البترول عبر القناة ما دام ذلك ممكنا ٠ وتتدخل باريس وتنسى الشركة هذا الانذار ٠

وكان رد الفعل من جانب اسرائيل يتسم بالاعتدال ولكن مع تحديد مطلبها البحرى الاساسى ، فيعلن ايتان الذى كان حينذاك يشغل منصب مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية يوم ٣ أغسطس : « انالاتفاق مع مصر لن يكون كاملا اذا لم يتم ضمان حرية الملاحة لجميع الدول بما فيها اسرائيل » وبرغم هذا الموقف ، المعتدل جدا، الذى اتخذته اسرائيل فانها لم تدع الى مؤتمر ١٦ أغسطس٠ كانت هذه الدولة قد بدأت تتلقى الاسلحة الجديدة التى ستساعدها على اتخاذ موقف أقل تحفظا فى هذه المشكلة ٠

ناصر يتدبر أموره :

لم تكن الضجة التى ثارت فى لنـدن وباريس لتترك ناصر فى حـالة من اللامبالاة أو عدم الاكتراث ، ولكن الرئيس كان يعرف كيف يدبر أموره ٠

فهو من الناحية العسكرية لا يخفى عليه انه يجبأن يخشى خطورة الاسلحة الفرنسية ـ البريطانية فضلا عن الخطر الاسرائيل ، ولكنه يعرف كذلك أنالجيش الفرنسى مشغول جدا فى الجزائر ، وأنه لا بد من عقول طائشة للغاية فى دوائر باريس العسكرية حتى تقبل فرنسا التحول عن ثورة الجزائر لتذهب للصيد فى مكان آخر ٠ وهو يعرف أيضا أن جانبا هاما من معدات الجيش البريطانى يقع تحت حراسة يقظة من جانب المصريين فى منطقة القناة التى تحوى من المعدات ما يكفى لتسليح أكثر من ٨٠ ألف جندى ، وكان يعلم أن العدد الكلى الذى يمكن أن تجنده بريطانيا لمحاربته أقل من هـذا الرقم (بالنظر الى أن الانجليـز لن يستطيعوا أن يسحبوا فجاة عددا كبيرا من جنودهم الذين بعثروهم فى أنحـاء العالم حيث تقتضى المصالح البريطانية ذلك) ٠ حقا أن هناك فى قبرص ومالطة لواء من جنود الكوماندوز ولواء من جنود المظلات بالاضافة الى كتيبتين من المشاة (ولكن حرب العصابات كانت شديدة فى قبرص) وهناك فى ليبيا فرقة منوعة (غير كاملة) وفى الاردن كتيبة مصفحة وفى بريطانيا لواء من ثلاث كتائب مخصص لحالات الطوارىء الشديدة (وهم الجنود الذين نزلوا فى مطار الجميل) ٠

والفرقة الثالثة والفرقة الاولى غير كاملتى العدد ، وأخيرا فلا يزال هناك فى ألمانيا أربع فرق غير كاملة ولكنها فى سبيل اعادة تنظيمها ٠ ثم هناك بعض الوحدات المبعثرة فى أنحاء العالم (لواءان فى هونج كونج وكتيبتان فى عدن وثلاث فى كينيا) ٠ واذا كانت الكتيبة تضم ١٠٠٠ جندى واللواء ٣٥٠٠ جندى والفرقة المصفحة ١٠٫٠٠٠ جندى وفرقة المشاة ١٢٫٠٠٠ جندى فانه يكون لدى

بريطانيا عدد كبير من الجنود في حين أن المخازن الضخمة للمعدات العسكرية في منطقة القناة يقوم بحراستها ٨٠٠ جندي بريطاني يرتدون الملابس المدنية ٠

ان ناصر يعرف كل ذلك ويعرف أن بريطانيا غير مستعدة برغم ذلك لدخول الحرب ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون مناورة دبلوماسية ٠

وهو أيضا لم يعرف كل شيء بالتفصيل ، ذلك أن فرنسا لم تكن لديها قوات كافية لتهاجم بها ٠ فالفرنسيون المشغولون بحرب الجزائر عن الدفاع عن ممتلكاتهم الاستعمارية والمرتبطون من ناحية أخرى بالتزاماتهم في حلف شمال الاطلنطي من أجل حماية حدودهم من الشرق لم يكن لديهم جندي مظلات واحد يمكن انزاله في أي مكان ٠ والواقع أن جنود المظلات الفرنسيين كانوا قد أعدوا لحرب الجبال وتشتتوا في أراضي الجزائر الشاسعة ، فمن اللازم تجميعهم واعادة تدريبهم على النزول الجماعي وتزويدهم بأسلحة دفاعية مضادة للدبابات والمصفحات ٠ أي أن الامر يقتضي مهلة تبلغ عشرة أيام أو خمسة عشر يوما لهذا الغرض (وقد استغرق ذلك فعلا خمسة عشر يوما) ٠ وهؤلاء المظليون يجب أن توفر لهم بسرعة الاسلحة التقليدية وبخاصة المصفحات ، والا فسيقعون فورا تحت رحمة الدبابات والمدفعية المعادية ٠ ولنقل كل ذلك يستلزم الامر لا طائرات فحسب بل سفنا كثيرة أيضا يجب تدبيرها واعدادها ويجب حماية سفن الغزو بمعرفة الاسطول الفرنسي ٠ والشرط المبدئي لكل ذلك هو تدمير السلاح الجوي المعادي ، وهو ما يقتضي استخدامقواعد قريبة منهمزودة بأحدث العتاد والاسلحة٠ فالحلفاء يستطيعون أن يجمعوا في ظرف خمسة عشر يوما - لا قبل ذلك - المحاربين والاسلحة ووسائل النقل ، الا أنه لا تتهيأ لهم في هذه المهلة امكانيات النقل اللازمة أو وسائل استخدام ما لديهم من معدات ٠

وهناك أسباب أخرى ، ففرنسا أولا ليس لديها ما يكفي من مخزون الوقود لتزج بنفسها في حملة جديدة تتطلب فرقا كثيرة مع ترك البلاد تعيش في ظروف

الاقتصاد التى كانت تعيش فيها فى وقت السلم ، فى الوقت الذى تخوض فيه أيضا حرب الجزائر ٠ بل انها لم تكن تملك السفن الحربية التى تحتاج اليها ٠

فحاملة الطائرات « لافاييت » فى أمريكا وحاملة الطـائرات « أرومانش » تجرى لها اصـلاحات فى طولون ، وكـذلك الطراد « جورج ليج » وأما الطراد « دى جراس » فلم تنته تجربته بعد فى ميناء بريست ، والبارجتان « جيشان » و « بوفيه » تعملان فى الجزائر ٠

ولم يكن الانجليز أحسن حالا ، فلم يكن لديهم فى مالطة سـوى الطراد « جامايكا » وحاملة طائرات ٠ أما حاملتا الطائرات الكلاسيكيتان الاخريان فكانتا فى بريطانيا ، وكذلك حاملتا الطائرات ذواتا السطح المائل « البيون » و «سنتور» أما الطراد الاخير من أسـطول البحر المتوسط « كينيا » فانه فى البحر الاحمر وسوف تبذل محاولة تمريره بالقناة فى الظروف الراهنة كمظهر استفزاز يمكن أن يثير الحرب قبل الوقت المناسب ٠

ولم يكن فى البحر المتوسط ـ فيما عدا بعض الغواصات الروسية وبعض السفن المحايدة الاسبانية والايطالية واليونانية والتركية وغيرها ـ قوات أخرى معادية ٠ وكانت هناك قوة تسيطر على هذا البحر هى الاسطول السادس الامريكى ولكن ناصر يرى أن لديه من الاسباب ما يكفى لكى لا يخشى منه أذى ٠

وفى المجال الدبلوماسى يعرف ناصر أنه لا تنقصه كذلك الاوراق الرابحة ، فلديه تأييد حليفتيه العربيتين : سوريا والسعودية اللتين تتحكمان فى انتـاج جانب كبير من بترول الشرق الاوسـط ٠ وهـو يسـتطيع أن يعول كـذلك ـ فى الحدود التى أظهر تطور الاحـداث أنه قدرها تقديرا سـليما ـ على تأييد الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية ٠

وكان العامل المتغير فى الموضـوع كله والذى ظل غير محقق هـو موقف أمريكا ، هـذا الموقف الذى سوف يتأرجح مدفوعا بقوى متعـارضة ٠ ان الامر

لا ينحصر فقط في التعارض بين التزامات أمريكا في نطاق حلف شمال الاطلنطي وبين ميلها الى جانب العرب ، ولكن كان لدى الولايات المتحدة كذلك خطة استراتيجية سوف تخرج الى النور في اللحظة الحاسمة .

كان الحلفاء يعدون السلاح ، ولكي يقتلوا الوقت أخذوا يجرون محادثات في لندن .

لقد استبعد الاسرائيليون من مؤتمر لندن ، ولكنهم أخذوا يعززون أنفسهم بترديد آخر قصة طريفة لديهم ، لقد قابل ناصر هتلر !

وكانت هذه القصة حقيقية . ففي أغسطس وفي مطار اللد ارتفع مكبر الصوت مناديا المسافرين ، وسمع اسم البرت هتلر الامريكي ذي الاصل الالماني يسبق مباشرة اسم روبين ناصر الايراني الاصل .

وبدا كما لو كان هتلر قد تعمد أن يقابل ناصر فعلا !

الفصل الثامن

المؤتمر

في يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٦ استقبلت لندن بسماء داكنة ممطرة في دار لانكاستر هاوس ، مندوبي الدول الاثنتين والعشرين التي قبلت حضور المؤتمر الذي سيبحث أزمة القناة ، ولم تستطيع مصر الحضور ، كما تخلفت اليونان • وهناك خلف جدران تلك الدار حيث كل شيء يعيد للأذهان ماضي بريطانيا الاستعماري الحافل أعدت في الرواق الطويل مناضد وضعت جنبا الى جنب على شكل مستطيل غطي ببساط أزرق يتناسب مع لون القاعة •

وكان للأناقة نصيبها • كريستيان بينو يصل في سيارة رولزرويس ، وعلى بعض رءوس الوفد الامريكي وضعت قبعات سوداء أنيقة تحوطها شرائط عريضة ذات لون بنفسجي ، ولبست مدام بانديت سفيرة الهند ساريا بنفسجيا جميلا • وتجمعت الوفود ، هناك في أحد الاركان كريستيان بينو ومساعده لويس جوكس ، وفي الوسط أنطوني ايدن والى يساره سلوين لويد يلقي كلمته الافتتاحية ، والى يمين ايدن جلس وفد الروس ويليهم مباشرة الوفد الامريكي • وحول هؤلاء جميعا كان يقف خبراء ومساعدون لا يجدون مكانا لهم ، ولا يحتاج الامر اليهم الا في أعمال اللجان ويستمعون في ملل خطبا يعرفون مقدما مضمونها •

انه منظر أشبه بحفل عائلة أو باجتماع لتوزيع الجوائز ، ولكنه في الواقع اجتماع يريد شخص حانق موتور أن يجعل منه مجلس تأديب • وكان كريستيان

بينو هو الذى يقوم بهذا الدور الانتقامى بحماس لا يستطيع المرء معرفة ما اذا كان طبيعيا أو أنه يضع قناعا فقط ليؤدى دورا يحفظه جيدا ٠

والواقع أن كريستيان بينو رأى بمجرد نزوله من الطائرة أنه من اللازم التأثير على اتجاه الاجتماعات المنتظرة ٠ فأبدى أسفه على تخلف مصر ، وقال أن المتهم ينبغى عليه أن يدافع عن نفسه ٠

وكان يشير بهذا الى أنه لم يحضر الى لندن لاجراء مفاوضات وانما حضر كمدع وقاض ، وأنه لا ينظر الى المؤتمر كوسيلة للوصول الى اتفاق وانما كجلسة محكمة سوف تفرض حكمها حتما على ناصر ٠

وهكذا كان بينو يرد مقدما على خطاب دالاس الذى كان من المتوقع أن يحاول فيه توجيه الدول المدعوة الى البحث عن حل سلمى عادل ٠ والواقع أن واشنطن لم تتخل عن الاعراب عن وجهة نظرها مقدما ٠

استعداد أمريكى ٠

ظلت السياسة الامريكية تتأرجح تبعا لانواع الضغوط المتناقضة التى كانت تتعرض لها ، فتارة تعد بتأييد المشروعات الحربية الفرنسية ـ البريطانية ، وتارة أخرى تجدد تأييدها لناصر ٠ وقد رأينا يوم ٨ أغسطس أيزنهاور ـ بعد أن ضيق عليه الخناق مراسل وكالة رويتر البريطانية ـ يصرح فى شىء من الحيرة بأنه وان كان لا يزال يؤيد حل المشكلة بالمفاوضات فانه لا يعارض فى استخدام القوة فى ظروف معينة ، وهو ما يمثل مضمون الوعود التى قدمها دالاس فى لندن ، فأيزنهاور كان « يغطى » اذن دالاس ، ورضخ هو ودالاس لمستشاريهما على ضرورة حل المشكلة بالمفاوضات ٠

وقد تم يوم ١٢ أغسطس تحديد الموقف الذى أزمعت الولايات المتحدة اتخاذه فى مؤتمر الاثنتين والعشرين دولة ، وذلك فى خلال اجتماع ضم كبار

المسئولين عن السياسة الامريكية والزعماء السياسيين للكونجرس • ولما كان الامر يتعلق برسم خط سلوك يمكن أن يجر الدولة الى حرب عالمية ثالثة ، فقد حرص المسئولون على أن يدعوا لهذا الاجتماع زعماء الحزبين، الجمهورى والديمقراطى اللذين كانا من ناحية أخرى يخوضان معركة سافرة بمناسبة انتخابات الرياسة المقرر اجراؤها فى أكتوبر • وفى الوقت الذى بدأ فيه هذا الاجتماع كان ناصر قد أعلن رفضه الاشتراك فى مؤتمر لندن ، وهذا يؤدى الى تجريد المؤتمر من موضوعه الاساسى ـ أى المفاوضات ـ ليجعل منه ما كان الفرنسيون والبريطانيون يريدونه له ، وهو توجيه انذار الى ناصر • ولم تكن خطورة ذلك تفوت أيزنهاور الذى افتتح الاجتماع مصرحا بأنه ليس ثمة أى ضمان بشأن الوصول الى تسوية سلمية • ثم قدم دالاس بيانا طويلا استعرض فيه تاريخ المشكلة مبينا أنه كان عليه أن يطير الى لندن فى بداية أغسطس لأن الانجليز والفرنسيين كانوا على وشك الهجوم على مصر وأنه لقى مشقة كبيرة فى اقناعهم بالموافقة على عقد المؤتمر ولم يستطع كبح جماحهم الا بتحذيرهم بأن الالتجاء المتسرع الى استخدام القوة سوف يثير عليهم غضب الرأى العام العالمى وبصفة خاصة الرأى العام فى الولايات المتحدة •

بعد ذلك وجه زعماء الكونجرس الاسئلة الى دالاس وأيزنهاور ، وقد روى الحوار الذى دار فى هذا الشأن أحد المساعدين المقربين لايزنهاور وهو شيرمان آدمز :

س : عند أية درجة من الاستفزاز سيجد الفرنسيون والانجليز أنفسهم مضطرين الى الهجوم على مصر ؟

دالاس : انهم يقدرون أنهم وصلوا اليها فعلا •

س : هل قال ناصر أنه سيغلق القناة ؟

أيزنهاور : لا ، ولكن الانجليز والفرنسيين لا يصدقونه فى شىء ، وهذه هى المشكلة !

ويستمع الحاضرون بعد ذلك الى بيان عن الاجراءات المتخذة لعلاج النقص المحتمل فى البترول ، وقد أعلنت هذه الاجراءات فى اليوم التالى : زيادة الانتاج الامريكى ، واستخدام طرق جديدة لناقلات البترول ، وبناء ناقلات ضخمة ، واستخدام البطاقات • وكان يبدو ـ دون أن يريد أحد الاعتراف بذلك ـ ان نقص البترول فى أوروبا يمكن أن يهيىء فرصة طيبة جدا للصناعة الامريكية •

وعقب هذا الاجتماع أذاع البيت الأبيض بيانا أعلن فيه أن رئيس الجمهورية اجتمع بوزير الخارجية وزعماء البرلمان، وأن مؤتمر لندن الذى وافقت على الاشتراك فيه اثنتان وعشرون دولة من أربع وعشرين سوف يهيىء فرصة للوصول الى حل سلمى وعادل •

وينوه البيان فى موضع آخر « بالصعوبة القائمة فى الوصول الى حل بناء » ثم يؤكد مرة ثانية الحاجة الى حل سلمى عادل •

وفى اليوم التالى ـ ١٣ أغسطس ـ أجرى دالاس محادثات مع المسئولين العسكريين ، وهم وزير الدفاع شارل ولسون ، والاميرال راد فورد رئيس أركان الحرب المشتركة ـ من رجال البحرية ـ والجنرال جرونتز القائد الاعلى لقوات الحلفاء فى أوروبا • ونشرت وزارة الخارجية من جانبها بيانا نفت فيه وجود خلافات فى وجهات النظر بين الحلفاء الثلاثة بشأن الوسائل التى تكفل تدويل قناة السويس• وهذا أسلوب فطين لتذكير الفرنسيين والبريطانيين بموقف الولايات المتحدة ، وكذلك لتوجيه نظرهم الى تعهداتهم التى أعلنوها فى أول أغسطس فى لندن • وكما فعل ايدن بتذكير أيزنهاور فى الثامن من أغسطس بتعهداته التى وعد فيها بعدم الوقوف فى وجههم فى حالة فشل المفاوضات ، فكذلك بادرت واشنطن بدورها بتذكير الفرنسيين والبريطانيين بتعهداتهم ، وهى عقد اجتماع حقيقى لاجراء مفاوضات جديدة هدفها تدويل القناة ، وليس عقد اجتماع شكلى كما يستشف من خطاب ايدن الذى ألقاه يوم ٨ أغسطس •

على أن التحذير ترك أثره لأن البريطانيين والفرنسيين عرضوا فى اليوم التالى - ١٤ أغسطس - أمام برلمانهم خطة ادارة دولية للقناة قريبة الى حد بعيد من المشروع الامريكى ٠

اتفاق فرنسا وبريطانيا :

وقد فعلت حكومة لندن ذلك دون تبرم لأن عرض هذه الخطة عزز موقفها فى وجه المعارضة التى كانت تزداد حدة كلما مرت الايام ٠ والحق أنه بدت أول بوادر سخط العمال يوم ٨ أغسطس ، وهو اليوم الذى ألقى فيه ايدن خطابه وعقد فيه أيزنهاور مؤتمره الصحفى ٠ وكانت الوزارة نفسها هى التى حددت موقفها هذه المرة فى ١٣ أغسطس يوم صدور البيان الامريكى وعشية اجتماع الحكومة البريطانية التمهيدى لمؤتمر الاثنتين والعشرين دولة ٠ ومع ذلك فان موقف كبار زعماء العمال وبصفة خاصة جيتسكل لم يكن يبدو مجردا من الغموض ٠٠ فقد كانوا يوجدون انطباعا بأنهم يحتجون من غيرحرج بقدر ما يعرفون أن حرية العمل مكفولة لايدن بفضل غالبية من المحافظين ٠ ولا يعرف المرء ما اذا كانت محادثاتهم مع ايدن يوم ١٤ أغسطس قد دفعته الى تأخير أو تأجيل الاستعدادات العسكرية التى كانت تجرى اذ ذاك فى رباطة جأش للقيام بمغامرة تدور خلالها معارك مفجعة حول مدينة تضم أكثر من مليون نسمة (الاسكندرية) ٠ ولم يكن تأثير جيتسكيل قويا على جى موليه فى خلال المحادثات السرية التى أجرياها معا فى حوالى ١٥ أغسطس على ما يبدوه فى احدى قرى شمال فرنسا ٠

واذا كان على المسئولين البريطانيين أن يستجيبوا مع ذلك للمعارضة فى بلادهم وربما لضميرهم تجاه ميثاق الامم المتحدة الذى كانوا هم أول العاملين على دعمه ، فان الحكومة الفرنسية من جانبها لم تكن تواجه مثل هذه العقبات أو تهتم بصوت الضمير ٠ كانت فرنسا كلها تقف من خلفى - هكذا قال جى موليه فيما بعد - وكان هذا حقيقة ، ولكن بقى أن نعرف الى أى حد كانت البلاد مستعدة للوقوف خلف حكومتها ٠ فالرجل الفرنسى المتوسط فى ذلك الصيف من عام

١٩٥٦ ماذا كان يريد ؟ هل كان مشغولا ؟ نعم ولكن بأجـازته ، وكان مستعدا بالتأكيد للقضاء على ناصر ما لم يكن عليه هو أن يهجم على بورسعيد • وله بعض الاعذار ، فوسيلته للعمل السياسى انما هى تذكرة انتخاب كل أربع سنوات فى غالبية الاحوال • ان هـذا الفرنسى المتوسط ، ما ان تعلن له الصحف والاذاعة ووزير الخارجية ووزير الدفاع ورئيس الوزارة أنه يكفى القضاء على ناصر ـ وهذا أمر يعتبر على أى حال أقل خطورة من مواجهة الجيش الالمانى ـ لكى ترتفع أسعار البورصة وتختفى الضرائب وتظل الجزائر فرنسية حتى يضع ثقته فى زعمائه •

ما ان يقال ذلك حتى تتمادى الدوائر السياسـية فى التعصب والحمـاس الوطنى ، ومثل هذا الموقف مريح وسهل وشعبى فى بلد لا يمكن التأكد فيه من حقيقة هؤلاء الذين يزعمون أنهم يدافعون عن الشعب ، وهو بصفة خاصة موقف مريح للذهن ولا يتطلب عناء التفكير • على أن أكثر ما يثير الدهشة هو رد الفعل من جانب السادة المفكرين من البورجوازية الفرنسية تجاه وضوح الموقف الامريكى المثير ، فهم لا يفكرون فى أى وقت فى أن يحيطوا قراءهم بموقف واشنطن وأن يستخلصوا من هذا الموقف ما ينبغى من النتائج مهما تكن هذه النتائج سيئة • فكل شىء يجرى فى نظر هؤلاء المفكرين السياسيين كما لو كان ثمة اتحاد بين المصالح الامريكية والفرنسية ، وأن واشنطن ـ بطبيعة الحال بسبب السـذاجة الامريكية المشهورة ـ لم تدرك ذلك وانما تنتظر أن يأتيهـا النور من باريس • ويكتب تييرى مولينييه « أستطيع أن أقول أنهم مخطئون أولئك الذين يحملون فى الولايات المتحدة وغيرها بأن يفرضـوا علينـا تسوية » (صحيفـة فيجارو ١٦ أغسطس ١٩٥٦) ويقول ريمون أرون محذرا « يجب أن يفهم المسئولون الامريكيون أن الهزيمة الفرنسية ـ الانجليزية سوف تكون هزيمة لهم » •

ومما يدعو الى الاسف أن كل ذلك كان بالنسبة للأمريكان مجرد هراء ردت عليه سلفا صحيفة نيويورك تايمز يوم ٤ أغسطس بقولها : « ان الولايات المتحدة لن تخاطر بالدخول حتى فى حرب صغيرة » •

ومها يكن من أمر فقد استمع مجلس الوزراء الفرنسي يوم ١٤ أغسطس الى بيان من كريستيان بينو الذى ظفر بموافقة على مشروعه الذى ينبغي أن يعرضه المسئولون الفرنسيون فى لندن متضمنا انشاء ادارة دورية للقناة ، على أن تتولى هذه الادارة الشركة العالمية التى استولى عليها ناصر . وكانت حكومة باريس هى الوحيدة من بين الاثنتين والعشرين حكومة الممثلة فى لندن التى لاتزال تعنى بمصالح الشركة . أما بالنسبة لباقى الحكومات فالمسألة واضحة ، فسوف يحصل المساهمون على التعويضات التى وعد بها ناصر ، ولم يعد للشركة الا أن تلتزم الصمت .

الشركة تبدى استياءها :

ولكن الشركة لا تقبل ذلك . فقد رأينا مديريها يكافحون طوال الاسبوعين السابقين ، وكان جورج بيكو يعقد مؤتمرات صحفية يفند فيها المزاعم المصرية نقطة نقطة ، وقد استقبل سلوين لويد فى لندن فرانسوا شارل رو رئيس الشركة ، وقابل جورج بيكو مدير الشركة كريستيان بينو وزير الخارجية عدة مرات . ولقد أصدرت الشركة أمرا الى موظفيها بالتوقف عن العمل ولكنها سحبت هذا الامر . على أن مصر أعلنت يوم ١٣ أغسطس أن الموظفين الاجانب فى الشركة يستطيعون مغادرة البلاد اذا أرادوا ، على الرغم من أنها كانت ستصادف مشقة كبيرة حينذاك فى ادارة القناة اذا أصرت على ذلك .

وفى باريس لم يعد مديرو شركة القناة يستطيعون خداع أنفسهم : فلا شىء سوى تدخل عسكرى ناجح يمكن أن يعيدهم الى وضعهم الذى كانوا عليه قبل يوم ٢٦ يولية ، لذلك لجأ هؤلاء الى اجراء غريب . فكتب رئيس الشركة العالمية الى رئيس مؤتمر الاثنتين والعشرين بلندن يقترح وضع الاختصاص التكتيكى للشركة فى تشغيل القناة تحت اشراف هيئة دائمة للرقابة السياسية على القناة تفرض قراراتها التى تنفذ بمعرفة الشركة على الدولة مانحة الامتياز .

ولكن لسوء الحظ كانت الخدمات البريدية فى لندن فى شهر أغسطس سيئة ولم يصل خطاب شارل رو - الذى كتب يوم ١٤ وأرسل يوم ١٦ أغسطس الى وزير خارجية بريطانيا وقد انتخب رئيسا للمؤتمر - صبيحة يوم انعقاد المؤتمر ، ولكن وصل اليه يوم ٢١ أغسطس أى فى الوقت الذى حررت فيه قرارات المؤتمر التى لم يعلن أى قرار منها بمصير الشركة • وقد رد سلوين لويد على الفور على شارل رو فقال أنه يقدر الروح التى أملت هذا الخطاب وأبلغ فورا لجميع الوفود •

وهكذا كان جورج بيكو يتـابع بقلق - وهو فى باريس عن طريق أعضـاء الوفد الفرنسى - أعمال المؤتمر •

التكتيك المضاد للغرب :

ومن ناحية اخرى سلم سفيرا فرنسا وبريطانيا فى الاتحاد السوفييتى الى شبيلوف يوم ٧ أغسطس نص مذكرة لندن • وبعـد يومين أى فى التـاسع من أغسطس حدد الاتحاد السوفييتى موقفه ، فهو يوافق على حضور المؤتمر ولكنه يطلب أن يؤجل الى آخر أغسطس وأن تدعى إليه اثنتان وعشرون دولة أخرى من بينها الصين الشيوعية • وأخيرا يرى الاتحاد السوفييتى أن اجراءات بريطانيـا وفرنسا العسكرية يمكن قبولها وأنها تشكل تحديا للسلام •

وفى ١١ أغسطس رفضت بريطانيا هذه الطلبات •

حينذاك - وحينذاك فقط - حـدد ناصر الذى ظل رده متوقعا طيلة الايام السابقة ، موقفه • وطلب هو الآخر ، كما فعل الاتحاد السوفييتى ، عقد مؤتمر آخر أوسع نطاقا فى بلد آخر • وبعث الرئيس الى لندن بكبير مستشـاريه على صبرى وخول له سلطة التفاوض وراء الكواليس • وفى الوقت نفسه ظل ناصر حريصا على احاطة الامم المتحدة بأعماله وحركاته ، ففى يوم ١٣ أغسطس سلم مندوبه الى السكرتير العام نسخة من تصريح ١٢ أغسطس •

وهكذا يتضح أن ناصر يحدد موقفه وفقا لتكتيك السوفييت، ولكنه في الوقت نفسه يستفيد بتأييد ـ يشبه في بعض الاحيان نوعا من الضغط ـ من جانب المنظمات العربية الشعبية أو الريفيــة • ففي أول أغسطس نجـد المؤتمر الدائم لعمال مصر ، وفي ٢ أغسطس المؤتمر التعاوني العـام بمصر ، يطالبان بالتعبئة العامة لجهودهما • ثم نقابة المحامين ونقابة الصحفيين والمنظمات الطلابية وحتى عمال الموانى وعمـال ومسـتخدمى النقل العـام ، كلهم يعمدون الى الاحتجاج أو المعارضة • وفي ٥ أغسطس أرسل ألفان وخمسمائة من النساء الى ناصر رسالة كتبت بدمائهن •

وقد نظم اضراب عام من منتصف الليل يوم ١٥ أغسطس حتى منتصف ليل ١٦ أغسطس في القاهرة ومصر كلها ، ونفذ الاضراب على نطاق واسع في الدول العربية الاخرى في الشرق الاوسط •

وأعربت المنظمات الدينية عن مساندتها للحركة ولسياسة الحكومة بالتاييد العلنى ، بل باعلان الحرب المقدسة •

وفي ١٤ أغسطس وجهت الجالية اليهودية بمصر الى الرئيس هذه الرسالة « ان يهود مصر يعلنون من جديد تضامنهم التام مع الشعب المصرى الذى يكونون جزءا لا ينفصل منه ، وكذلك مع سيادتكم في نضالكم من أجل تحقيق الامانى الوطنية • وانا ندعو الله أن يكلأ مصر برعايته وأن يكتب لكم النجاح من أجـل خير الوطن العزيز » • ان كل شيء يبدو مهيئا ـ وهو فعلا كذلك ـ وشعر ناصر بأنه يستند الى قوة شعبية ضخمة تساعده على توجيه سياسته العدائية •

مسألة اجراءات :

وفي لندن ، وبعد الكلمة الافتتاحية القصيرة التى القاها ايدن في مؤتمـر الاثنتين والعشرين دولة يوم ١٦ أغسطس أثيرت مسألة وضع نظام للتصويت

فكان الفرنسيون والبريطانيون يريدون اقرار الاجراءات المتبعة فى الامم المتحدة، فى حين كان الاتحاد السوفييتي والهند يعارضان ذلك • على أن شبيلوف كان يرى أن غياب مصر يدفع بالبطلان مقدما أى قرار يتخذه المؤتمر الذى كان له في رأيه طابع تمهيدى • وهو ما كان يؤدى الى عدم جدوى اختيار نظام للتصويت •

وكان يمكن اذن أن نخشى منذ البداية أن يتبع الاتحاد السوفييتي تكتيكا تعويقيا قد يؤدى الى استمرار انعقاد المؤتمر عدة أسابيع دون أن يقرر شيئا فى النهاية • لذلك قرر سلوين لويد ـ وقد انتخب رئيسا للمؤتمر ـ تأجيل بحث هذه المسألة والبدء فورا فى مناقشة الموضوع •

الرأى الأمريكى :

كان أبرز ما فى جلسة بعد الظهر خطاب فوستر دالاس ، وكانت نقطة البداية فيه أن العالم أجمع ـ بما فيه مصر ـ يؤيد تسوية دولية للمشكلة • فما هى الخصائص الممكنة لهذه التسوية ؟ ان حلا مقبولا وسليما يجب ـ كما يرى وزير الخارجية ـ أن يسند مسئولية ادارة القناة الى مجلس دولى ينشأ بمعاهدة ، ويلحق بالامم المتحدة ، وأن يؤكد حق مصر فى الايرادات • مع مراعاة جميع سلطاتها المشروعة وسيادتها ، وأن يقرر تعويضا عادلا للشركة العالمية ، وأن يعهد أخيرا الى لجنة تحكيم تعينها محكمة العدل الدولية بتسوية كل الخلافات التى يمكن أن تنشأ بشأن تعويض الشركة العالمية وحق مصر فى نصيب عادل من الايرادات• ويؤكد دالاس وجوب احترام السيادة المصرية التى لم تمسها اتفاقية ١٨٨٨ واعترفت مصر وتعترف دائما بأحكامها فى الملاحة •

واذا تفحصنا خطاب دالاس فى مجموعه نجد أنه أكثر ميلا الى الروح السلبية منه الى المقترحات البناءة ، اذ تظل هذه الاخيرة مبهمة كما كان يريدها : مجلس دولى ، ولجنة تحكيم • ويقول وزير الخارجية ـ على العكس ـ انه لم يعد يريد أن يسمع كلاما عن الشركة العالمية التى يجب أن تعوض (وهو ما عرضه ناصر) والتى

يأبى عليها أى اشتراك لاحق فى ادارة القناة • وهو يؤكد تمسكه باتفاقية سنة ١٨٨٨ (التى لم توقعها الولايات المتحدة) كى تجنب ما يمكن أن يثيره عقد معاهدة جديدة من مطالبات بشأن تجديد اتفاقيات أخرى ، كاتفاقية قناة بناما • وهذه نقطة الضعف حقا ، فاذا كان وزير الخارجية الامريكية يتمسك بمعاهدة عام ١٨٨٨ فلن يكون لمؤتمر لندن تاثير على الولايات المتحدة ، ولكنها اذا أرادت الاشتراك فى معاهدة جديدة فان هذا يعنى اقرارها بمشروعية المطالبة بتعديل معاهدة قناة بناما • ولم تخف نقطة الضعف هذه على الروس الذين وجدوا متعة ماكرة فى الاشارة اليها فى خطبهم • وكان حرصهم فى الدوران حول هذه المشكلة وما أبدوه فى جلاء أنهم يستطيعون اثارتها ـ ولكنهم لا يريدون ـ بشكل طوال ذلك الوقت وسيلة للضغط على الوفد الامريكى •

كان هناك توافق غريب ، ففى حين كان دالاس يتكلم كان سفير بناما فى لندن يقدم لوزارة الخارجية البريطانية مذكرة تبدى فيها حكومته دهشتها لعدم دعوتها للاشتراك فى مؤتمر لندن، ثم يتحدث مع سفير مصر عن بعض أوجه الشبه الاساسية بين مشاكل مصر ومشاكل بناما •

وفى لانكاستر هاوس خصص الشطر الاخير من جلسة بعد ظهر يوم ١٦ اغسطس لكلمات الوفود الايطالية والسويدية والبرتغالية التى أعربت عما كان يبدو حينذاك انه رأى الغرب •

وفى اليوم التالى تحدث ممثلو عشر دول : الدانمارك ، وايران ، واليابان ، والنرويج ، وتركيا ، وأسبانيا ، ونيوزيلندا ، وألمانيا الغربية وأعقبهم كريستيان بينو ، وديمترى شبيلوف • وأعلن بينو تأييده لانشاء هيئة دولية لا للوقاية ولكن للادارة ، غير أنه لم يحدد بدقة معايير الرقابة أو الادارة • فهو يعلن مثلا أن هذه الهيئة سوف تحدد قيمة رسوم المرور ، ولكن الا يعنى ذلك أنه تجاوز نطاق الادارة الى نطاق الوقاية ؟ وهو اذ يضيف أن رسوم المرور هذه يجب أن تحدد دون الكثير من الارباح وأن الايرادات سوف تخصص للشركة العالمية مدة اثنى

عشر عاما بصفة تعويض ، فانه لا يحدد نوع الايرادات التى يشير اليها ما لم تكن هناك ايرادات ، على حد قوله ، باعتبار أن القناة ستستغل بأسعار التكلفة ٠

وان المرء ليشعر بالدوار اذا حاول فهم هذه العبارات الدبلوماسية !

تحذيرات سوفييتية :

وبعد كريستيان بينو جاء دور ديمترى شبيلوف الذى كان خطابه منتظرا بفارغ الصبر ، فالوزير السوفييتى كان يحضر للمرة الاولى مؤتمرا دوليا كبيرا ٠ واذا كان قد أثار دهشة الوفود فـان ذلك يرجع الى هـدوئه واعتداله ٠ وفنـد شبيلوف معظم الحجج التى ساقها فى فرنسا وبريطانيا أنصار سياسة القوة ٠

وخلص من ذلك الى اسداء النصح بلهجة أبوية تشوبهـا أحيانا سـخرية مستترة ، فحين قال شبيلوف « فلنذكر بعض أمثلة مستمدة من الواقع فى مختلف الدول بشأن تأميم شركات تستثمر رأس مال أجنبيا » كانت الامثلة الثلاثة التى ساقها تخص نقط فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، فهو يقول سنة ١٩٤٦ أممت فرنســا شركات الغاز والكهرباء وكان بين مساهمى هذه الشركات ـ الى جانب الاشخاص الطبيعيين والمعنويين الفرنسيين ـ أشخاص طبيعيون ومعنويون ذوو جنسيات انجليزية وبلجيكية وسويسرية، وقد اعترفت بهذا التأميم حكومات بريطانيا وسويسرا وبلجيكا التى عقدت اتفاقا مع فرنسا بشأن اجراءات تعويض المساهمين ٠ ثم يذكر شبيلوف أن وضعا مشابها ثار فى سنة ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ حين أممت الحكومة البريطانية صناعات الفحم والحديد والكهرباء ٠ ويذكر كذلك ان الحـكومة الامريكية حين قامت المكسيك بنزع ملكية بعض شركات البترول الامريكية اعترفت بذلك وطـالبت فقـط بتعويض فورى منـاسب وكتب وزير خارجيتها « أن حكومة الولايات المتحدة تعترف بحق دولة ذات سيادة فى نزع ملكية الاموال لأسباب تتصل بسيادة الدولة ٠٠ »

اما فيما يتعلق بالوظيفة الدولية لشركة قناة السويس فيرى شبيلوف أنه اذا اعترفنا بهذه الصفة فانه يجب أن نعتبر أن أية مؤسسة للملاحة البحرية وكل شركة للخطوط البحرية تكفل الاتصال بين الدول شركة دولية أيضا ٠

ان الطابع الدولى لقناة السويس ينبثق فى رأيه من اتفاقية سنة ١٨٨٨ التى تعترف بها مصر التى احترمت نصوصها بدقة شديدة ٠

ووجه الوزير ـ اذ تذكر ما قاله ايدن لخروشوف وبولجانين من أن بريطانيا سوف تقاتل لتكفل تمويلها بالبترول ـ هذا التحذير لايدن بصفة خاصة « لقد ولى نهائيا ذلك الوقت الذى كانت فيه بعض الدول تأمر وتحكم فى العالم وهى تطأ بأقدامها الحلول وتسخر من مصالح الدول الاخرى » ٠

وأخيرا يوجه شبيلوف تحذيرات ذات طابع عسكرى فيقول : ليس سرا على أحد أن بعض دوائر بريطانيا وفرنسا تهدد باستخدام القوة ضد مصر ، وهـذا هو الغرض الذى تجرى من أجله استعدادات عسكرية ـ معروفة للعالم أجمع ـ فى بريطانيا وفرنسا٠ ان محاولات فرض مشروعات من هذا القبيل على مصر بالقوة سوف يعنى انتهاك السلام فى الشرق الادنى والاوسط ٠ ومن الواضح أن هذا من الممكن الا يقتصر على صراع محلى ينحصر فى منطقة قناة السويس ، فقد يمكن أن يتحول الى صراع واسع النطاق يمتد الى منطقة الشرق الادنى والاوسط وربما الى أبعد من ذلك ٠ فهل ستفيد بريطانيا من ذلك شـيئا ؟ هل ستكسب كثيرا اذا تعرضت مصالحها الكثيرة للخطر فى هذه المنطقة ؟

وفرنسا ، واقتصادها وسكانها ، هل ستفيد شيئا من اجراءات من هذا القبيل ؟

ويذكر شبيلوف أولئك الذين يشككون فى رغبة ناصر او مقدرته على احترام اتفاقية عام ١٨٨٨ فى الوقت الذى لا يتورعون فيه هم أنفسهم عن انتهاك نص

الاتفاقية • فان اتفاقية عام ١٨٨٨ تقرر أن قناة السويس يجب ألا تكون مطلقا مسرحا لعمليات عسكرية •

وبعد عرض هذه المشكلات واعلان هذه التحذيرات عاد الوزير الروسى الى المقترحات التى أعلنها الاتحاد السوفييتى يوم ٨ أغسطس وهى : دعوة مؤتمر دولى واسع النطاق من أجل عقد اتفاق جديد، أو اتفاق مكمل لاتفاقية القسطنطينية المعقودة عام ١٨٨٨ •

وبعد أن انتهى شبيلوف من خطابه عرض مارتن ارناجو وزير الخارجية الاسبانى ـ الذى ينتهج منذ سنوات كثيرة بمباركة الفاتيكان سياسة موالية للعرب ووقع بعد ستة شهور ضحية غير مباشرة لهذه الازمة ـ مشروعا يبعد فى مظهره عن المقترحات الامريكية بقدر ما يبعد عن المقترحات السوفييتية ، فهو يعارض انشاء هيئة ادارة دولية وانما يقترح اشراك ممثلى الدول المنتفعة بالقناة فى مجلس ادارة الشركة المصرية الجديدة واحالة المسائل المتنازع عليها الى لجنة رقابة أو الى الامم المتحدة •

وفى ١٨ أغسطس ـ ولم تستطع دول الشرق الاوسط المنضمة الى حلف بغداد ودول حلف كولومبيا الحيادى أن تبدى وجهة نظرها ـ اتفقت دول الغرب الثلاث على بيان من ناحية المبدأ يؤيد انشاء هيئة دولية تكفل الرقابة والادارة للقناة •

وبعد قليل أعلن سلويد لويد أنه يوافق على المبادىء التى حددها فوستر دالاس يوم ١٦ أغسطس وانه يرفض مقترحات شبيلوف بعقد مؤتمر أوسع نطاقا • وهكذا حرصت الحكومة البريطانية على ايضاح أن المؤتمر ـ بالنسبة لها ـ قد انتهى ، فقد حددت دول الغرب الثلاث موقفا موحدا يعارض الاقتراح السوفييتى •

مناورات أفرو آسيوية :

لم يكن من الممكن مع ذلك انهاء المؤتمر دون الاستماع الى وجهة نظر الدول الافرو آسيوية التى دعيت اليه ولزمت الصمت فيه حتى ذلك الوقت • ان أحدا لم يرد حين عرض سلوين لويد بعد ظهر يوم السبت (وكان اليوم الثالث للمؤتمر والساعة الثالثة والنصف والمطر يسقط فى الخارج) وهو يلتفت نحو أولئك الذين لم يبدوا رأيهم بعد « من يطلب الكلام ؟ » ويشعر الوزير البريطانى ازاء ذلك بعدم ارتياح • وبدأ الصمت الذى استقبل به حديثه أمرا مثيرا ، فأضاف بلهجة مدرس يخاطب فصلا يضم تلاميذ كسالى : ترفع الجلسة ، الاجتماع القادم يوم الاثنين ، حاولوا أن تفكروا فى خلال عطلة نهاية الاسبوع !

كان التلاميذ ينتظرون فعلا بفارغ صبر انتهاء الدرس وانصراف المدرس كانما ليزيحوا عن أنفسهم حملا ثقيلا ، وكان ذلك الاحد يوم محاولات توفيق ووعود ومساومات • فمن ناحية كان هناك كريشنا مينون المندوب الهندى الذى قام بسلسلة من الاجتماعات والمناقشات ، ومن ناحية أخرى كان فوستر دالاس مشغولا بأن يجمع حوله بعض الدول الآسيوية أو الافريقية كى لا يكون وحده فى صحبة الاستعماريين •

وفى صباح الاثنين كان معروفا أن تلك الجبهة العربية ـ الآسيوية التى كان يخشاها ، غير قائمة • بقيت اذن دول حلف كولومبو المحايدة التى ينتظر أن تصوت مع روسيا ، وكذلك دول حلف بغداد (باكستان وتركيا وايران) التى يمكن بفضل تعديلات طفيفة أن تؤيد المشروع المعادى لمصر • ويحصل ايدن من مجلس وزرائه على موافقة على فكرة قبول التعديلات التى تطلب دول حلف بغداد ادخالها •

ويقر المشروعان ـ الغربى والهندى على السواء ـ فكرة تدويل القناة ولكن الاول يفصل بين مسألة ادارة القناة ومسألة ملكيتها ، فى حين يحتفظ الثانى لمصر

بالسيادة على القناة وادارتها مع تقرير رقابة دولية • واذا اردنا أن نلمس بمزيد من الوضوح الاختلاف بين المشروعين يمكن آن نسوق المقارنة التالية : الوزير الهندى مينون يقول للمصريين « أنتم أصحاب القناة ، تولوا ادارتها كما تريدون على شرط أن يكون ذلك لمصلحة الجميع وأن تتحقق الرقابة الدولية من أنكم تتصرفون هكذا على نحو مرض » •

أما دالاس فانه على العكس يقول لهم « أنتم أصحاب القناة ، ولكنكم غير قادرين على ادارتها لذلك فستؤجرنها ـ نفسها ـ الى شركة دولية تتولى ادارتها بفاعلية وتدفع لكم جزءا من الارباح » •

وقصارى القول أن مينون وشبيلوف يريدان اعادة القناة الى مصر فى حين يريد دالاس انشاء شركة جديدة للقناة تحل محل الشركة القديمة (ما دام تكلم عن تعويض هذه الشركة) ولما كان هو الذى ينظم الشركة الجديدة فسوف يكون للنفوذ الامريكى فيها السيطرة بالطبع •

ويصوت الفرنسيون والبريطانيون بقلب موجع على انهاء الشركة القديمة لتحل محلها هيئة جديدة يكون للامريكان فيها الكلمة العليا • ومع ذلك فان هذا المؤتمر وكل ما يمكن أن يقرره لهو بالنسبة لهم ، لانهم كانوا يعرفون حينذاك أن العمل العسكرى الفرنسى ـ البريطانى (بدون اسرائيل) سوف ينفذ فى فجر يوم ١٥ سبتمبر فى منطقة الاسكندرية • ولا شىء سوى ذلك يهمهم !

وقد كتب أحد المراقبين (جان فاران فى صحيفة بارى ماتش بتاريخ أول سبتمبر) ان كل شىء يجرى وكأن المسئولين يتمنون عدم الوصول الى تسوية مع ناصر ، وكأن المؤتمر مجرد سيناريو ، وكأنه لا يخدم الاغرضين : كسب الوقت للعسكريين لاجراء استعداداتهم ومنح ساسة الغرب التأييد المعنوى اللازم اذ يجمعون حولهم أكبر عدد من مختلف الدول • ان الانجليز يبدون لاهين مفسحين بذلك مجالا لادراك أن المؤتمر الحقيقى انما هو مؤتمر الجنرالات والاميرالات الذى يعمل خلف الكواليس •

« قناة السويس ؟ الحقيقة أن الامر لم يكن يتعلق كثيرا بالقناة • فالحرب لن تشن من أجل القناة التى من المقرر أن تعود لمصر بعد ثلاث عشرة سنة • ان العمل العسكرى لا يمكن تسويته الا كعقاب للدول العربية بسبب وقاحتها • ان المسألة بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين هى معرفة ما اذا كانوا يريدون المحافظة على بقاء الرجل الابيض فى افريقيا • واذا كان عليهم يوما أن يقفوا تيار القومية العربية ، ويؤكدوا نفوذهم وسلطانهم ، فانهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك اليوم وفى السويس والا فلن يستطيعوا ذلك أبدا » •

ويشير هذا التعليق فى ايجاز عن رأى الدوائر التى تقوم باعداد الحملة فى بريطانيا وفرنسا • ولا يهم الانجليز والفرنسيين كثيرا ـ وهذه الافكار فى رءوسهم ـ أن تضاف مثلا الى التعديل الباكستانى عبارة تنص على « ان النظام المستقبل للادارة سوف يقرر بحبث تراعى حقوق السيادة الخاصة بمصر » مع أنها عبارة يمكن أن تعرقل المشروع كله فى أى وقت •

انتهاء المؤتمر :

وفى نهاية جلسة المؤتمر يوم الثلاثاء ٢١ أغسطس ـ وكانت الامطار تسقط مصحوبة بالبرق ـ حصل مشروع دالاس المعدل على موافقة ست عشرة دولة • وأيد شبيلوف المشروع الهندى الذى وافقت عليه كذلك أندونيسيا وسيلان • وفى يوم الاربعاء انضمت ايطاليا الى مشروع دالاس ، وسرعان ما تبعتهما أسبانيا التى حاولت اقرار تعديل عليه لمصلحة ناصر •

وكان يوم الخميس ٢٣ أغسطس آخر أيام المؤتمر ، وكانت الجلسة عاصفة بدأت بمناورة سوفييتية . فقد اقترح شبيلوف اختتام المؤتمر باصدار بيان • ونظرا لان هذا البيان يجب أن يوفق بين وجهات فانه يجب بالضرورة أن يصقل لاستبعاد كل ما يمكن أن يصطدم برأى هؤلاء أو أولئك • واصبح من المتوقع أن ينتهى المؤتمر من المناقشات دون نتيجة • ومن ناحية أخرى فانه اذا

رفضت المجموعتان ـ الغربية والحيادية ـ الموافقة على قرار مشترك فسوف يكون ذلك بمثابة الدليل البين على فشل المؤتمر ، وستتاح حينئذ فرصة مواتية لناصر ليرفض مقترحات قدمها له أشخاص لم يستطيعوا أن يتفقوا فيما بينهم .

فما العمل ؟ كان الوفد الفرنسي هو الذى قدم الحل ، واقترح الموافقة على مشروع ارسال محضر المداولات الى القاهرة . وقد تمت الموافقة بالاجماع على هذا المشروع بعد ادخال تعديل عليه تقدم به شبيلوف ، وأعلن انتهاء الموتمر فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة مساء .

وكان هذا الاجتماع الظاهرى يستهدف بصفة خاصة حفظ ماء الوجه ، لان الاعضاء اقتصروا على تقرير ارسال محضر المداولات الى القاهرة ، ولكن النص الذى ووفق عليه بالاجماع تضمن فقرة تقول انه فى أثنـاء هذه الجلسة أدلى مندوب نيوزيلندا بالتصريح الآتى : اننى مفوض من حكومات سبع عشرة دولة (ليست اسبانيا من بينها) . فقد أعلن أنها طلبت الى ممثلى حكومات استراليا وأثيوبيا وايران والسويد والولايات المتحدة ارسال وفد الى القاهرة برئاسة رئيس وزراء استراليا بغرض الاتصال باسمها بالحكومة المصرية ليقدم اليها البيان الذى وافقوا عليه .

وزادت السبع عشرة دولة واحدة حين انضمت اليها اسبانيا بعد ان حصلت على اقرار بتعديل خاص يحدد موقفها ، وعهد الى منزيس بابلاغه فى النهاية الى الرئيس ناصر .

لجنة الخمسة :

وهكذا شكلت اللجنة التى عهد اليهـا بان تحمل الى ناصر القرار الغربى بتسليم قناة السويس الى شركة دولية جديدة تئول اليهـا الحقوق والامتيازات الاساسية لشركة القناة القديمة . وفى هذه اللجنـة كان ثلاثة مندوبين يقومون

بدور ثانوى ، وهم الاثيوبى والايرانى والسويدى • فى حين يلعب المندوبان الآخران دورا رئيسيا ، وهما رئيس اللجنة ـ رئيس وزراء استراليا روبرت منزيس الصديق الشخصى لايدن والاكثر تطرفا من أشد الانجليز تطرفا ـ والمندوب الامريكى الذى لم يعرف لأول وهلة من سيكون •

ولا نلبث أن نعرف من هو ، فقد عين فوستر دالاس لهذه المهمة أحد مساعديه هو لوى هندرسون • ويثير هذا الاختيار شعورا بعدم الارتياح فى لندن، اذ يعتبر هندرسون أحد الساسة الذين دبروا الازمة التى أثارها مصدق ، وينظر اليه على أنه يؤيد حق العرب فى البترول • ولقد كان ايدن يريد أن يرسل الى القاهرة لجنة محدودة قوية مصممة على الوصول سريعا الى نتيجة • وبرغم أنه كان يؤكد أن البريطانيين يثقون ثقة كاملة فى لوى هندرسون فيمكن القول أنهم كانوا يضعون فيه الثقة نفسها التى يضعونها فى فوستر دالاس وربما أقل قليلا • على أن وجود هندرسون كان يضمن على أية حال أن تكون الرحلة الى القاهرة مهذبة ومجاملة وغير فعالة فى حين كان المقصود بها فى بادىء الامر تسليم انذار •

وقضت لجنة الخمسة بضعة أيام فى لندن لتعد ملفاتها كما يقول ايدن ، ولا نعرف أية ملفات تعدها ما دام دورها يتمثل فى تسليم نص المشروع الذى تم اقراره • ولكننا على العكس نرى بوضوح أن العسكريين ما زالوا غير مستعدين وأن المسئولين لا يريدون صداما فى تلك الآراء • ويبرق ايدن بذلك الى أيزنهاور ويقول فى صراحة : « يبدو أنه ستمر بضعة أيام قبل أن يعطى ناصر رده النهائى الى منزيس • وبعد ذلك سوف نكون على استعداد للقيام بعمل سريع » •

عمل سريع •• عبارة من السهل قولها ، ذلك أن التنازلات التى أجريت فى مؤتمر لندن قد أدت بفرنسا وبريطانيا الى الدفاع عن وجهة نظر قريبة الى حد بعيد من وجهة نظر ناصر • ان الاختلاف الوحيد الظاهر ينصب على كيفية التنفيذ، فالقاهرة تجعل من نفسها الضامن الوحيد لتعويض الشركة وحرية الملاحة ، فى حين يريد الغرب وضع القناة تحت اشراف هيئة دولية • هذا هو الرأى الامريكى •

ولكن الشركة الجديدة التى تحلم بها لندن وباريس والتى عليها أن تعترف مقدما بالسيادة المصرية لن تستطيع أن تفلت من هذا الشرط ٠

غير انه نظرا لان الهدف الحقيقى للندن وباريس ليس هـو اعادة الشركة وانما التخلص من ناصر وأن الدولتين لم تستطيعا استغلال فرصة التأميم كذريعة للعمل ، فقد وجدتا نفسيهما أمام تناقضات تقتضى منهما اختلاق ذريعة للتدخل ٠

كان التاريخ المحدد لهذا التدخل معروفا فى باريس لعـدد لا بأس به من الاشخاص ، وقد كتب البعض يوم ٢٧ أغسطس (خطاب بول ديهيم) « ان الرد يمكن الا يميل الى الاعتقاد بقرب قيام تدخل عسكرى اذا لم يعرف أن السلطات الفرنسية والبريطانية كانت ترى استحالة هذا العمل يوم ٢٦ يولية وان كل الاجراءات التى اتخذت منذ ذلك الوقت انما كانت تهدف على وجه التحديد الى أن يصبح من الممكن القيام به حوالى يوم ١٥ سبتمبر ما لم يكن ممكنا القيام به منذ ستة أسابيع ٠

واليوم نستطيع حقا أن نقول ان هذا الكلام كان صحيحا ، فالهجوم على مصر كان مقدرا له يوم ١٥ سبتمبر ، ولم يكن ناصر يجهل ذلك ٠ ولكن هـذا النبأ يثير مع ذلك مفاجأة لاولئك الذين لم يروا حتى الآن الا مظهر الاشياء ٠

لقد شهد شهر أغسطس كثيرا من الاحداث خلف الستار ، وسـوف نرى الآن ما كان يدبر خلف الكواليس لنختبر الامور من وجهها الآخر ٠

الفصل التاسع

الوجه الآخر للأمور

هذا الوجه الآخر أو المستتر من الامور يتمثل فى عالم يجرى خلف الكواليس حيث تتحرك الاشباح وتتعثر بعقبات غير متوقعة . وهى تتآمر فى الظلام ، وتعيد تمثيل النمرة التى تزمع تقديمها فيما بعد تحت الاضواء الكاشفة . ان المسرحية لم تمثل بعد ولكنها تعد ، بل انها ليست مكتوبة وانما ستعرض ارتجالا فى هذا المساء . ولن تعرض غير مرة واحدة ، ثم يختفى جميع الممثلين بعد انتهاء العرض وراء ستار من الصمت . ولكى نفهم ذلك ينبغى أن نعود الى الوراء .. الى ذلك الاجتماع الاول للوزارة البريطانية الذى اعقب اجراء التأميم .

فى ذلك اليوم ـ ٢٧ يولية ـ تلقى رؤساء أركان الحرب تعليمات ـ كما يقول ايدن ـ باعداد خطة لعمل عسكرى يستهدف احتلال القناة .

وما كان يريده رئيس الوزراء حينذاك هو أن يضمن أولا وقبل كل شىء اذا أمكن ايجاد مشاركة أمريكية يقصد بها تأكيد التضامن الغربى فى الشرق الاوسط ، وكذلك تأكيد تلك السياسة المشتركة الشهيرة التى ضحى الانجليز من أجلها بالكثير . وكانت هذه أيضا رغبة الحكومة الفرنسية التى كانت على استعداد للاشتراك فى أية حملة تأديبية ضد حكم ناصر . فقد قرر الفرنسيون والانجليز اتخاذ موقف عدائى مشترك فى مواجهة ناصر منذ مارس الماضى ، وفضلا عن ذلك فقد أوذيت فرنسا ، من خلال مصالحها فى شركة قناة السويس ، على الأقل بقدر ما أوذيت بريطانيا بتأميم القناة .

وكان للعملية فى نظر ايدن ــ كما فى نظر الفرنسيين ــ معنى مزدوج ، فالامر يتعلق بعملية بوليسية يقصد بها اعادة النظام الى الشرق الاوسط وهو النظام الذى عبث به ناصر ــ كما تقول لندن وباريس ــ والذى يتعرض للعبث بين حين وحين على المسرح العربى • كما أن الامر كان يتعلق بعملية بحرية باعتبار أن المصالح الاساسية فى هذا الموضوع تتمثل فى ضمان حرية المرور فى هذا الطريق المائى الدولى ــ قناة السويس ــ تلك الحرية التى يهددها ناصر •

وهذا الطابع البحرى هو الذى جعل باريس توفد الى لندن الاميرال « نومى » رئيس أركان حرب الاسطول الفرنسى كممثلها العسكرى الفرنسى الاول وانضم اليه الكولونيل سيمون أحد أعضاء مكتب وزير الدفاع الوطنى •

اما عن اسرائيل فقد رفض ايدن رفضاً قاطعا اشتراكها فى أية عمليات برغم طلب جى موليه والحاحه •

فما تقرر اذن يوم ٢٧ يوليه انما كان الاعداد لعمل يقوم به البريطانيون وحدهم • هل كان من المأمول أن ينضم اليه الامريكيون ويشارك فيه الفرنسيون بشروط لم تكن قد حددت بعد •

قيادة بريطانية :

كانت هذه هى العملية التى عرضت خطتها ــ وان كانت قد ظلت غامضة بمعونة ماكميلان والماريشال الكسندر ــ على روبرت مورفى عندما وصل الى لندن . وفى الوقت الذى وصل فيه مورفى ، وصل الاميرال نومى الذى بدأ المحادثات الفرنسية ــ البريطانية •

ويوم ٣١ يولية كان الفرنسيون يستطيعون تحديد القوات التى يزمعون تخصيصها للعملية : فرقة من المظليين (الفرقة العاشرة) وفرقة مدرعات(الفرقة

السابعة) وقوات الكوماندوز البحرية ، ومجموعتان من الطائرات (ف ـ ٨٤) و ٣٥ طائرة نقل (طراز نور ٢٥٠٠) وأخيرا جميع وحدات البحر المتوسط تقريبا ٠

وقدر الانجليز من جانبهم قوات أكثر ضخامة كان أهمها من غير شك عددا من تشكيلات السلاح الجوى الملكى يمثل نحو ٣٠٠ طائرة من بينها قاذفات القنابل التى لم تكن تمتلكها فرنسا ٠ ومن ناحية القوات البرية كانت بريطانيا تزمع حشد فرقة من المشاة وفرقة من المدرعات (غير كاملة) ولواءين أحدهما من المظليين والآخر من الكوماندوز ، ثم ـ وهذا ما تقرر بعد ـ فرقة أخرى من المشاة ، وأخيرا مشاركة كبيرة من الاسطول بالطبع ٠

وفى ذلك التاريخ لم تكن مسألة القيادة المشتركة قد نوقشت، لأن الامريكان على ما يبدو فى حالة اشتراكهم بكل ثقل أسطولهم السادس ، سوف يطلبون مثل هذه القيادة ويحصلون عليها ٠

ولكن سرعان ما وضح تخلى أمريكا ، فخابت مرة أخرى الآمال التى كان يعقدها الانجليز على السياسة المشتركة ، ومن ثم اتجهوا الى فكرة ارسال حملة فرنسية ـ بريطانية يسهم فيها البريطانيون بنصيب أكبر قليلا من الفرنسيين من ناحية القوات البرية والبحرية ، وأكبر كثيرا من الناحية الجوية ٠

وتقرر وضع ثقل سلاح الطيران الملكى الانجليزى فى الميزان لأن اشتراكه الذى لا غنى عنه هو الذى سوف يبرر اسناد جميع القيادات الى البريطانيين ٠ فمن غير سلاح الطيران يتعذر تكوين الحملة التى ستغزو مصر ٠ ولكن اسناد القيادة الى البريطانيين كان له آثار خطيرة على سير العمليات ، اذ كان للانجليز وجهات نظر تختلف عن وجهات النظر الفرنسية بشأن هذه المسائل فى مجموعها . وكان الأمر يتطلب حينذاك اقامة تعاون فعال بين قوات الجانبين المشتركة فى

الحملة ، فحاول المسئولون تكوين قيادة متكاملة وحددوا كيفية هذا التكامل فى وثيقة اتخذت شكل مذكرة فرنسية ـ بريطانية وقعت بالحروف الاولى يوم ٨ أغسطس ١٩٥٦ .

فهذا اليوم اذن هو الذى قرر فيه ايدن اعداد حملة فرنسية ـ بريطانية للتخلص من حكم ناصر • وهو اليوم نفسه الذى وجه ايدن فى مسائه فى الاذاعة البريطانية عبارات مثيرة بل مهينة لرئيس الحكومة المصرية الذى دعاه لمؤتمر لندن وكان يتمنى مع ذلك عدم حضوره • وهو كذلك المساء نفسه الذى بدأ فيه التأييد العمالى يتحول عن ايدن حيث أبدى أربعة وعشرون من نواب حزب العمال عدم ثقتهم به كما رأينا • وقد شهد هؤلاء النواب المطلعون على بواطن الامور ، زيادة فى عددهم وفى استيائهم ، لماذا ؟ لأن التأييد الذى كان العمال قد وعدوا به ايدن كان يقوم على أساس تدخل من نوع حرب كوريا أى أن يضم قوات أمريكية ويرعاه علم الامم المتحدة ، وليس مغامرة لا تقرها الحليفة الامريكية ويمكن بالتالى أن تكون موضع استنكار من الامم المتحدة •

وربما كان الثوار العماليون أكثر اطلاعا على الحقائق مما كان يبدو لاول وهلة وربما كانوا يعرفون أن الفرنسيين ـ فى اليوم السابق على توقيع المذكرة الفرنسية البريطانية ـ وقعوا مع العسكريين الاسرائيليين اتفاقات تنص على تسليح اسرائيل بقصد ضمها الى حملة مشتركة ضد مصر • كان الفرنسيون يباشرون نشاطين متوازيين أحدهما مع البريطانيين وفيه يحتفظ هؤلاء بالقيادة ، والآخر مع الاسرائيليين •

ولا بد أن البريطانيين قد شعروا مع ذلك بشىء ما ، لان المتحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية السير جورج يونج صرح فى اليوم التالى بأن النزاع بشأن قناة السويس يجب أن يسوى بالطرق السلمية • وهذا هو غرضنا • وهذه المشكلة تختلف عن مسألة العداء الاسرائيلى العربى ، فكل محاولة لادخال هذه الاخيرة فى الاولى لن تؤدى الى حل الخلاف •

وعلى ذلك فان العملية التى كان البريطانيون يزعمون احتكار القيام بهـا أصبحت اعتبارا من يوم ٩ أغسطس عملية فرنسية بريطانية ، ولـكن رؤسـاء أركان الحرب البريطانيين أسرعوا ـ قبـل وصـول الفرنسيـين ـ بعرض الخطوط الرئيسية للخطة التى أعدوها طبقا لتوجيهات رئيس الوزارة يوم ٢٢ من يولية ، على حكومة صاحبة الجلالة • على أن كلمة « خطة » ينبغى أن تؤخذ بمعناها الدقيق، اذ كان أمر ايدن يعنى « عملية الغرض منها احتلال القناة » ـ وهو على الاقل كان يزعم ذلك ـ ولكن خطة أركان الحرب الامبراطورية كانت ترتكز على أساس القيام بهجوم مباشر على الاسكندرية ثم التوغل بعد ذلك نحو القاهرة •

على أنه كان هناك شيء من الخبث فى تقديم تلك الخطة فى ذلك التاريخ أى فى اليوم السابق على بدء المحادثات الفرنسية البريطانية ، كما لو كانت أركان الحرب البريطانية حريصة على أن تضع حلفاءها أمام الامر الواقع وذلك بعرض خطة سبق أن وافق عليها رئيس الحكومة وقد أبلغت الخطوط الرئيسية للخطة يوم ٨ أغسطس الى اثنين من الممثلين العسكريين الفرنسيين لم يكن فى وسعهما الا ابلاغها لباريس •

مشروع السلحفاة :

وبعد ظهر اليوم التالى ـ ٩ أغسطس ـ وصل من لندن الى مطار نورثولت المندوبون الفرنسيون الاول • كان الجو باردا والسماء ملبدة بالغيوم ، واستقبلهم أحد الجنود الفرنسيين وصحبهم الى المدينة • وفى الساعة الرابعة بعد الظهر عرض عليهم الموقف ، وشهد الاجتماع الاول للجنة التخطيط الفرنسية ـ البريطانية الذى عقد يوم ١٠ أغسطس أربعة ضباط فرنسيين ، جميعهم من كبار الضباط ومن بينهم اثنان من القوات البرية وواحد من البحرية وآخر من الطيران • ونزلوا الى القـاعات التى تحت الارض بوزارة الحرب البريطانيـة ، وسرعان ما غرقوا وسط جيش يضم نحو مائة وخمسين من الضباط الانجليز • وكان كل نشاط هؤلاء الرجال فى خلال عدة أسابيع بما فيه جميع الوثائق يتعلق بأعمال استطلاعية

أطلق عليها اسم « تيرابين » • وهذه الكلمة لا تنطوى كما زعم البعض على سر خاص لا يعرفه غير الملكة ورئيس الوزارة البريطانية وشخصان أو ثلاثة من فرنسا ، ولكنها كلمة اتخذت للدلالة على الوثائق المنبثقة من لجنة التخطيط • انها تمثل سرا نسبيا ما دام بعض هذه الوثائق - التى لم تكن ترتفع أبدا الى ما فوق مستوى رئيس أركان حرب الامبراطورية - قد تحرر من ١٦٦ نسخة فقط • وحين ننظر الآن الى اختيار هذه الكلمة « تيرابين » نجد أن الاختيار ينطوى على سخرية أليمة ، لأن هذه الكلمة تعنى « سلحفاة » •

العملية ٧٠٠ :

ومع ذلك فقد باشرت اللجنة عملها بسرعة • لقد رفض رئيس الوزراء البريطانى يوم ١٠ أغسطس الخطة التى عرضها عليه العسكريون البريطانيون يوم ٨ أغسطس • وهذا ما ساعد لجنة التخطيط على أن تبدأ عملها من الصفر من الناحية النظرية على الاقل ، الا يجب أن يؤخذ عنصر الاصرار لدى البريطانيين فى الاعتبار ؟ لقد عرض الضباط البريطانيون على الفرنسيين اتخاذ الخطة نفسها التى رفضها رئيس وزرائهم منذ قليل كنقطة بداية ، ولما كان من المسلم به أن العملية سوف تجرى تحت قيادة بريطانية فقد كان من العسير على الفرنسيين أن يرفضوا ، وفضلا عن ذلك فان دراسة الموقف وحالة القوات الموجودة كانت تنبىء عن أن الهجوم على الاسكندرية هو أسلم عملية من الوجهة الحربية • ومع ذلك فليس من المستبعد أن اصرار الانجليز على عدم توجيه العمليات الى منطقة القناة قد أوجد هدفا بعيدا هو تجنب نشوب قتال فى المنطقة بحيث يؤدى الى تدمير العتاد والمخازن البريطانية الضخمة الباقية هناك •

وهكذا جرى العمل فى خلال خمسة أيام على أساس المقترحات البريطانية التى جمعت تحت اسم العملية ٧٠٠ ، وهى الخطة التى حصل العسكريون الانجليز على موافقة ايدن عليها يوم ١٥ أغسطس •

وكان الهجوم على الاسكندرية محددا باختصار كما يأتى :

يضرب الاسطول البريطانى الميناء وتنزل القوات الفرنسية ـ البريطانية فى ضواحى المدينة (الفرنسيون فى الجبهة الغربية) فى حين يهبط جنود المظلات خلف البحيرات الواقعة الى الجنوب ٠ وما أن يتم الاتصال بين القوات النازلة والقضاء على المقاومة حتى يتوغل المهاجمون صوب القاهرة ولا شك فى أن المسألة لم تكن بهذه البساطة ٠ ولكن المسئولين بحثوا الموقف ودرسوا قوة الخصم بحثا دفينا ٠

الجيش المصرى :

كانت القوات المصرية لها أهميتها ووزنها باستثناء البحرية التى كانت ضعيفة ناقصة المعدات ولا تشكل خطرا جديا ٠

وكان العنصر الاكثر خطرا هو سلاح الطيران : ٨٥ مقاتلة سوفييتية حديثة طراز « ميج ١٥ » و ٤٥ قاذفة قنابل خفيفة طراز « اليوشن ٢٥ » من أحدث نوع ، يضاف الى ذلك عدد من المقاتلات البريطانية الصنع (٢٥ طائرة ميتيور ، و ٥٧ طائرة فامباير ونحو ٢٠٠ من طائرات النقل والتصويب) وقد طرأ عامل خاص زاد من خطر تقدير هذه القوة ٠ فقد علم أنه نزل بالاسكندرية بضع مئات من « الفنيين السوفييت » الذين كانت كل الظروف تحمل على الاعتقاد بأن بينهم طيارين ٠ وأخيرا فان وجود طائرات الميج ١٧ وكانت تعتبر أحدث المقاتلات السوفييتية أمر محتمل ٠

وكان مفهوما كذلك أن الشرط الاول لاى عمل عسكرى هو القضاء على الطيران المصرى بحيث تصبح طائرات الميج والاليوشن على الاقل عاجزة عن الاشتراك فى القتال ٠

لم يكن الجيش المصرى البرى يمكن اهماله هو الآخر : خمس فرق منهـا فرقة مدرعة (يضاف اليها لواء مدرع) وبعض كتـائب الحرس الوطنى ، وكان من المتفق عليه بصفة عامة أن قدرة هذا الجيش على الاشتراك فى معركة متحركة ضد القوات المدربة الحديثة ما زالت ضعيفة ، ولكنه كان يستطيع أن يقوم بمقاومة ثابتة يصعب القضاء عليها • فقد كان يضم ٣٠٠ دبابة من بينها ١٠٠ على الاقل من أحدث الدبابات السوفييتية (ستـالين ٤ ، و ت ٣٤ ، و ت ٨٥) ، وكان لذلك وزنه واعتباره • وهنا كذلك أشير الى وجود « خبراء سوفييت » وأخـيرا فقـد كانت هـذه القوات مزودة بسـلاح يشـكل الخطر الاكـبر فى المعـركة ، وهو المدفع المتحرك المضـاد للدبابات (س • ى ١٠٠) من الطراز السوفييتى الحديث •

وكان من أهم مميزات الدفاع المصرى هو تشكيله الذى لم يتغير منذ بداية أغسطس •

فى الاسكندرية : لواء من المشاة تعززه دبابات ثقيلة •

فى بور سعيد : لواء من المشاة •

فى مواجهة اسرائيل : فرقتان ، منهما فرقة ضعيفة (الفرقة الفلسطينية فى غزة) وهذا يعنى أن فرقة واحدة فقط هى التى تستطيع القتال بصورة فعالة •

فى منطقة القناة : فرقة ولواء مدرع من ١٠٠ دبابة •

فى منطقة القاهرة : فرقة مدرعة تضم ٢٠٠ دبابة ، وفرقة من المشـاة ، ومدفعية الاحتياطى العام •

وهذا التشكيل يكشف عن الفكرة الاساسية للاستراتيجية المصرية وهى : تغطية القاهرة مع الاستعداد لاحتلال المخازن البريطانية الضخمة الموجودة بمنطقة

القناة ، والاحتفاظ بجميع امكانيات المناورة مع ترك قوات خفيفة فى الاسكندرية وبور سعيد ، واجتذاب الاسرائيليين فى الصحراء أو تركهم يميلون الى القناة وقد أنهكهم العطش وأصبحت تعوزهم امكانيات النقل . ثم الانقضاض عليهم وتقطيعهم أربا • أنه قتال يقوم على عامل « الصحراء » وانها خطة تساعد على ترقب مايحدث•

وفى هذه الظروف كان انزال القوات بالطريقة التقليدية يعد بمثابة جنون من جانب القيادة المتحالفة ، والواقع أن انزال القوات كان محددا بحمولة السفن وبالقدرة على التفريغ فى الموانى • فحتى فى الاسكندرية لم يكن الفرنسيون يستطيعون انزال حمولة أكثر من اثنتى عشرة سفينة فى اليوم ، وهذا يحتاج الى مدة شهر ونصف شهر لانزال مجموع القوة (أ) التى تمثل القوات الفرنسية فى الحملة (شهر لنقلها الى مصر وخمسة عشر يوما قبله لتجميع الوحدات) أما الانزال فى بور سعيد فكان أكثر صعوبة ، حيث لا يحتاج اليها الانزال عن طريق القوارب ، وهذا يعنى تفريغ ستة سفن فى اليوم أى أن عملية الانزال تتطلب مدة شهرين •

وكان يجب اذن المخاطرة بأن تجمع منذ البداية وحدات هجومية لتلقى على أرض مصر بدون احتياطى • دون مطابخ ، ودون ملابس للغيار ، ودون خدمات ادارية •

وبفضل طريقة وحدات الهجوم التى لا تنزل الى البر ومعها معدات بسيطة يستطيع الفرنسيون والبريطانيون أن يقاوموا أى هجوم منذ البداية • وفى اليوم التالى للانزال كان ينبغى أن يكون لديهم فى الواقع على أرض مصر ٣٠٠ دبابة و ٢٥ كتيبة من المشاة • ولا شك فى أن ١٥٠ دبابة بريطانية سنتوريون و ٦٣ دبابة باتون و ٨٠ سيارة مصفحة و ١١٦ مدفعا (منها ٢٠ فرنسية) تعتبر كافية للدفاع عن القوات المهاجمة •

وكان ثمة أمر مزعج . ذلك أن الحملة لم ترتب ـ فى مواجهة طائرات الاليوشن والميج ـ أية وحدات من المدفعية المضادة للطائرات باستثناء تلك الموجودة على ظهر الاسطول .

وفى ١٤ أغسطس كانت خطة « العملية ٧٠٠ » قد أعدت ، واعتبارا من يوم ٢٠ أغسطس بدأ شحن معدات الطيران الفرنسية التى تقرر ارسالها الى قبرص من يوم ٢٤ الى يوم ٣٠ أغسطس ، وكان مقررا أن تغادر الوحدات البريطانية الاولى بريطانيا فى أول سبتمبر والقوات الفرنسية الاولى تغادر الجزائر يوم ٥ سبتمبر وأن تلقى القنابل الاولى على مصر يوم ١٣ سبتمبر ، ويجرى انزال القوات يوم ١٥ سبتمبر .

على أن الاتفاق بين الفرنسيين والبريطانيين لم يتم بسهولة ، حتى على مستوى أركان الحرب .

خلافات فرنسية بريطانية :

منذ الاجتماع الاول للجنة التخطيط يوم ١٥ أغسطس أحس الضباط الفرنسيون ـ وقد عين الجنرال بوفر رئيسا للوفد الفرنسى فى هذه اللجنة ـ أن عالما يفصل بينهم وبين زملائهم البريطانيين . ولم يكن ذلك بسبب التمسك بالأساليب العتيقة فحسب ، ولكن كذلك لاختلافات المنهج العسكرى . فالبريطانيون يعملون بنظام المجموعة على نمط « الجاهز » فى حين يعنى الفرنسيون بالعمل على طريقة التفصيل . كان البريطانيون ـ حين يقررون استخدام هذه القوة أو تلك ـ يخرجون مشروعات معدة على أساس المقتضيات التى يرونها ، أما الفرنسيون فكانوا على العكس من ذلك يعيدون تحديد متطلبات العملية تبعا للنتيجة النهائية المستهدفة .

وقد وضع الجنرال بوفر خطته على أساس افتراض أن مشكلة استيلاء القوات الفرنسية على القاهرة قد تم حلها . فلأخذ القاهرة يلزمنا أن ندحر هذه

القوات المصرية أو تلك ، ولدحر هذه القوات يجب أن نكون قد نزلنا فى مصر ، ولانزال القوات اللازمة للقتال فى مصر يلزم هذا العدد من السفن وذلك من الدبابات ، الى غير ذلك .. وكان البريطانيون يدهشون لهذا الاسلوب ، ولكن يبدو أن اهتمامهم الاكبر كان ينصب على ادماج القوات الفرنسية الى أقصى حد بحيث يمكن تكوين قوات مختلطة أكثر ما تكون تماسكا من هذه المجموعة من الجنود الموضوعين تحت القيادة البريطانية . وكان ذلك يثير مشكلات تكنيكية لا يمكن تقريبا حلها فى الوقت الذى كانت تفرضه المقتضيات السياسية ، فكانت المسائل تنظر أحيانا بطريقة سطحية ، وكان أحد الفرنسيين ينهض وقد ضاق ذرعا بذلكفيقول : « سوف أقرأ عليكم الفقرة الاولى من القانونالعسكرى » فيتدخل زملاؤه قائلين : « حسنا ، لا داعى لذلك » .

ثم كانت هناك مسألة القيادة التى احتكرها البريطانيون لانفسهم ، فكانوا يستخدمونها لاعداد خططهم وحدهم ثم يقرأونها على الفرنسيين ويسمعون ملاحظاتهم ويدونون ما يبدو لهم صحيحا منها .

وأخيرا تم الاتفاق داخل ذلك الوكر الذى كان فيه الضباط يفتقدون مفهوم الزمن وحيث أعد جدول يبين لهم ما اذا كان الوقت فى الخارج نهارا أو ليلا وما اذا كانت السماء تمطر أو أنها صافية من الغيوم . على أن أشد ما كان يثير الفرنسيين المتعجلين للذهاب لتحطيم ناصر هو أن يلحظوا أن الحماس مفقود لدى زملائهم البريطانيين .

وكان ثمة مسألة أخرى ، فقد نصت المذكرة الفرنسية البريطانية على أن كل قائد بريطانى سوف يعاونه مساعد فرنسى نائب . ولكن هذه الكلمة (الانجليزية) لا تعنى على وجه التحديد « مساعد » ولكنها تعنى نائبا يحل محل من ينوب عنه . أى انه لن يكون هناك أى وجود للقيادة الفرنسية اذا ما تمسك البريطانيون بالنص .

وقد كان البريطانيون من الفطنة بحيث أدركوا أن كل هذه المسائل ستفسد سير العمل بين الحليفتين ، وأبدوا اعجابهم بتكوين قوات فرنسية متجانسة من الفرنسيين وحدهم ـ وهذا لم ينص عليه في المذكرة ـ وعلى العكس فان بعض أحكام المذكرة لم تطبق ٠ وكان البريطانيون يتعللون بالسرية مثلا حتى لا يذهب القادة البريطانيون الى باريس لعرض خططهم على رؤساء أركان الحرب الفرنسيين كما فعلوا في لندن لدى رؤساء أركان الحرب البريطانيين ٠

أما عن مسألة انزال القوات فى الاسكندرية التى فرضها العسكريون البريطانيون من جديد فلم تلق اعتراضا من جانب المندوبين الفرنسيين ، لانها كانت تمثل فى نظرهم الحل العسكرى الاكثر مباشرة والاكثر سلامة ٠

باريس غير موافقة :

كانت باريس ترقب مندوبيها بطرف عينيها وتبدو قلقة بشأن الموقف ، لذلك بادر الجنرال « شال » القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية يوم ١٤ أغسطس بتعيين نائب الاميرال بارجو ليمثل القيادة الفرنسية لدى السلطات البريطانية المعهود اليها بالاعداد للعملية ٧٠٠ وكان على بارجو ـ الذى كان يعاونه مساعد هو الجنرال بارين من سلاح المهندسين ورئيس أركان حرب هو الجنرال جازان ـ أن ينسق بين عمل كبار الضباط الثلاثة الذين تقرر أن يتولوا قيادة القوات فى الحملة ٠ وقد أرسل جازان فى الوقت نفسه الى لندن كمساعد لبوفر ، أى أنه اعتبارا من ذلك التاريخ كان بوفر يعاونه جازان فى لندن كمساعد له ، كما كان يعاونه فى باريس كمساعد لرئيسه بارجو ٠ وقد عين الاميرال بارجو قائدا عاما فرنسيا بصفة رسمية يوم ٢٧ أغسطس ، ولكنه كان يمارس سلطاته بالفعل منذ يوم ١٤ أغسطس على أثر تعيينه بمعرفة الجنرال شال الذى كان يعتبر القائد العسكرى الاول لحملة السويس كلها والذى كان يتمتع بثقة جى موليه (وكذلك بثقة الاسرائيليين) ٠

وما أن يباشر جازان مهامه يوم ١٤ أغسطس حتى يوجه الى بارجو مذكرة يلفت فيها نظره الى مساوىء أى عملية تركز على الاسكندرية ، مقترحا عملية بديلة تكون بالهجوم على بور سعيد • ويذهب المشروع الذى يقترحه جازان الى أبعد من ذلك ، فيحدد بالضبط نطاق العملية كما ينبغى أن تتم فعلا بعد شهرين وكما ينبغى أن تفرض حينئذ على الانجليز الذين لا يريدون الموافقة عليها •

وحينما بادر الجنرال بوفر الى ابلاغ وزير الدفاع الوطنى ، بورجى مونورى والاميرال بارجو بالمشروع الذى أقر فى لندن والذى أطلق عليه اسم الفارس ـ تظاهر بارجو بأن هـذه هى المرة الاولى التى يعرف فيهـا شيئـا عن المشروع الانجليزى (فى حين كان قد سبق له أن تلقى عنه نقدا دقيقا من جازان) ورفع يديه الى السماء • وكان يرى أن هذا المشروع انما هو عمليـة برية تحتـاج الى دبابات ومدرعات وغيرها من الآلات التى لا تستطيع السير على الماء • ولو كان قد عرض عليه تطهير النيل والهجوم على القاهرة بمدمراته وطراداته لكان ذلك أمرا آخر • كان بارجو ذو الافكار الكبيرة والخيال الواسع يرى أن الامر يقتضى عمليات بحرية ، وقد أعلن ذلك يوم ٤ أغسطس للصحف التى أسرع بدعوتهـا فى ميناء طولون ، اذ قال : « ان عدوان ناصر يثبت من جـديد ـ كحرب كوريا سنة ١٩٥٠ ـ أهمية البحرية التى تنسى أحيانا فى العصر الذرى » •

كان بارجو يربت على كتف بوفر ويقول : هيا يا صديقى لنترك الانجليز فى الصحراء ولنذهب نحن الى بور سعيد ، فما أن نغلق القناة حتى يكتب لنـا النصر !

ويتردد بوفر فى عرض مثل هذا الاقتراح على الانجليـز اذ كان قد وافق منذ قليل على خطتهم فى الهجـوم على الاسـكندرية ، فيتكفل بارجو بالامر • ويعرض المشروع فى الاجتماع الثانى للجنة الفرنسـية ـ البريطانية ، فيرفض البريطانيون ويصر بارجو ويتعذر الوصول الى اتفاق • ومن ثم يفض الاجتماع على أن يعقد مرة ثانية بعد ثمانية أيام •

ولكن الموقف كان قد تغير بعد ثمانية أيام ، فقد تلقى الانجليز أوامر جديدة ، ويتقرر انزال القوات فى بور سعيد وتنفيذ عملية الفارس !

فماذا حدث بين الاجتماعين ؟

لقد مارس الفرنسيون الذين يؤيدون الاهداف التى حددت فى اجتماع يوم ٢٨ يولية ضغطا سياسيا على الحكومة البريطانية وبخاصة على أنطونى ايدن ومن الصعب بل من غير الممكن الآن أن نذهب الى أبعد من ذلك فى التفسير ، غير أنه يمكن أن نلاحظ أن بعض البرلمانيين الفرنسيين وبعض الوزراء وبعض كبار الضباط لم يقدروا مناخ نهر التايمز قدر ما أتيح لهم فى شهر أغسطس ١٩٥٦ وقام ايدن على ما يبدو ببعض زيارات سرية لفرنسا فى تلك الفترة .

وقد انتهت كل هذه الاجتماعات الى أن يوافق ايدن فى آخر أغسطس على رفع الحظر الذى كان قد فرضه قبل ذلك على اشتراك اسرائيل فى الحملة وأصدر أوامره باعادة وضع خطط الهجوم على أساس احتمال اشتراك اسرائيل ، وتحاشى مع ذلك أن تبدو بريطانيا بمظهر من يتدخل لمساعدة هذه الدولة التى يكرهها العرب .

والعجيب أن الحكومة الاسرائيلية كانت هى الأقل حماسا للخطة الجديدة ، لا لأن فرصة تأديب الفدائيين لا تساعدها ولكن لانها تقدر أنها غير مسلحة بما فيه الكفاية وأن الاسلحة التى حصلت عليها من فرنسا لا يمكن استخدامها فى الهجوم . ثم انها معرضة لكل أنواع الضغط ، كما كان من الصعب عليها أن تنسى أن ثلاثة أرباع ميزانيتها يمول من الخارج بواسطة الوولارات .

ولكن حماس العسكريين فيها والمعارضة اليمينية وكذلك ضغط الفرنسيين بدد ما لديها من تردد .

وبالطبع لم يكن يمكن كشف النقاب عن اتفاق ايدن هذا لا للدوائر الحاكمة الانجليزية ــ باستثناء عدد صغير جدا من الاشخاص الذين لا يمكن اخفاؤه عليهم ــ ولا للامريكان بصفة خاصة .

ولكن هذا التغيير التكنيكى الطارىء فرض على العسكريين تحولا الى اليمين (أو اليسار تبعا لاتجاههم المبدئى فى انزال القوات) ذلك أن الاوامر الاولى كانت قد صدرت فعلا وبدأت عمليات الابحار • وفى بضعة أيام كانت أركان حرب التخطيط التى يرأسها فى لندن الكولونيل سان هيلبيه وكذلك أركان حرب العصابات التى يقودها فى الجزائر الكولونيل بريور قد غيرت كل منها على انفراد خططها ووصلت الى النتيجة نفسها على وجه التحديد •

ولكن ذلك كله كان بغير جدوى ، اذ كان من المتعين تأخير انزال القوات لاسباب كثيرة منها أن اسرائيل لم تكن مستعدة بعد ، وكذلك كان الفرنسيون والانجليز ، وذلك ما اقتنع به الجنرال ستكويل فى دورته التفتيشية فى الجزائر وكما أكدته له « تدريبات » بريطانيا التى أجريت فى مالطة فى أول سبتمبر . هذا فضلا عن أن الامر لم يتهيأ بعد سياسيا ، لأن بعثة منزيس لم تكن قد وصلت الى القاهرة ، ولانهم بصفة خاصة لم يستنفدوا جميع الوسائل السلمية كما وعدوا الامريكان بقصد ضمان حيادهم •

وكان هناك سبب آخر أكثر سرية ، وهو أن البريطانيين ــ فى خفية من حلفائهم ــ كانوا يعدون فى هدوء حملتهم على مصر ، فهم لن يذهبوا اليها مكتوفى الايدى ، انهم يدبرون اشعال ثورة فيها !

وفى آخر شهر أغسطس ١٩٥٦ طرد البوليس السرى ثلاثة صحفيين أجانب : آن شايلى (٢٦ سنة) وهو مندوب صحيفة ايفننج ستاندرد ، وايلين ترافيز (٤٠ سنة) الامريكى الجنسية وهو مندوب ديلى ميل ، ووليام ستيفنسون (٣٣ سنة) وهو ابن أحد الدبلوماسيين البريطانيين وكان مراسل صحيفة تورنتو ستار • وقد تجنب المصريون اتهام هؤلاء الصحفيين بالتجسس • ولكنهم كانوا يأخذون عليهم فقط أنهم ينشرون أنباء زائفة كما وجهوا اللوم الى صحفيين آخرين سبق طردهما من مصر وهما الصحفى المعروف سفتون ديلمر مندوب ديلى

اكسبريس ورى هاردى مندوب نيوز كرونيكل (وكان هاردى يحمل اسم نور الدين عبد الهادى) وكان أشد ما أخذ على ستيفنسون المعروف منذ زمن بعيد لبوليس دول الشرق الاوسط • هو اصراره على محاولة مقابلة اللواء السابق محمد نجيب الذى كان يقيم على مسافة ٣٠ كيلو مترا من القاهرة تحت المراقبة الدائمة وكان يتهم دائما بأنه حامل لواء جميع الدسائس ضد نظام الحكم • وكان ستيفنسون فى كل مرة يطرده البوليس من المنطقة الكائن بها منزل محمد نجيب يعاود محاولته من جديد بعد فترة من الوقت •

ولم يكن المصريون يجهلون أن الفرنسيين والبريطانيين يأملون هم كذلك فى امكان استخدام اللواء نجيب ، فقد كان المسئولون فى باريس وفى لندن بصفة خاصة من السذاجة بحيث ظنوا أنهم يستطيعون الاعتماد فى تنفيذ خططهم السرية على الرجل الموضوع تحت أشد رقابة من جانب الحكومة، وكل الاموركانت تدعو الى الاعتقاد بأن محمد نجيب لم يكن يرتاب فى الشرف الرهيب الذى اختص به • على أن فرط الاهتمام به قد كلفه مع ذلك أن يظل موضع شبهة برغم أنه لم يفعل هو ذاته شيئا يستحق معه تلك المعاملة •

وبعد بضعة أيام من طرد ستيفنسون تفاقمت الامور ، ففى هذه المرة أعلن البوليس المصرى اكتشاف شبكة للتجسس وألقى القبض على ثمانية أشخاص منهم ستة من المصريين واثنان من الانجليز • جيمس سونبرن (٥١ سنة) الصحفى بوكالة أراب نيوز البريطانية ، وشارل بيتوك (٤٧ سنة) الموظف بشركة ماركونى للمواصلات اللاسلكية • وفى الايام التالية أعلن القبض على ٢٠ شخصا آخرين بعضهم من الايطاليين • وفى الوقت نفسه أعلنت الحكومة المصرية أن سونبرن وبيتوك قد اعترفا بأنهما يعملان فى خدمة دبلوماسيين بريطانيين فى القاهرة وهما : جون جوف رئيس ادارة التأشيرات (الفيزا) ، وجيمس فلاكس اللذان طردا على الفور من مصر •

وقد نشرت جميع الحوادث السالف ذكرها فى الصحف حينذاك ، ولا نستطيع أن نحدد ما اذا كانت هذه الحوادث حقيقية أو أنها لم تكن سوى انذار بالخطر

لا جدوى منه • ولكنها على أية حال كانت دليلا على وجود اضطراب أكيد كانت لنـدن تنتظر من ورائه الكثير • والواقع أن البريطانيين كانوا يعتقـدون أن فى وسعهم ـ بفضل امكانياتهم المعروفة فى النشاط السرى ـ أن يثيروا ضد ناصر معارضين على درجة كبيرة من الخطورة والمقدرة • فكان يمكن لعمل يدبر كما ينبغى أن يساعد على تسوية سريعة للمشكلة بل ربما على تجنب تدخـل عسـكرى • وكان فى ذلك خير ما يحقق مصلحة بريطانيا ، ذلك أن لندن تستطيع اذا قضت على الحكم المصرى الذى كان ينازع السيادة البريطانية فى الشرق الاوسط ـ تلك السيادة التى كانت من القدم بحيث أصبحت وكأنها أمر طبيعى جدا ـ الابقـاء على سيطرتهـا من غير أن تشرك معها حلفاء سوف يطلبون منها ثمنا لخدمتهـم ، اذ أن الانتصار بمساعدة الفرنسـيين والاسرائيليين يعنى نصرا تتقـاسم الدول الثلاث غنائمه •

ولما كان الفرنسـيون والاسرائيليون من الفطنة بحيث يدركون أن الوعود فى مثل هذه المسائل لا يعول عليهـا كثيرا وأن المرء لا يحصل الا على ما يأخذه بالفعل ، فقد تمثلت سياستهم ـ تحت ستار التدخل المشترك ـ فى أخذ ضمانات بالاستيلاء على أجزاء من الاراضى المصرية وعدم التزحزح عنهـا قبل أن يحققوا جميع الاهداف التى دخلوا الحرب من أجلها •

ولكن اقدام لندن على غزو مصر منجديد من غير حلفاء سوف يكون بالنسبة لها نوعا من الانتصار السياسى ، وسوف يضعها فى عزلة يمكن أن تعرضهـــا لضغوط مركزة ومتضافرة من خصومها ومنافسيهـا • ومن هنـا كان سـعيها وتلمسها للمعجزة أى تلك الثورة ، التى ستحل جميع المشكلات •

ولم يمنع فشل محاولات اشعال الثورة فى مصر فى شـهر أغسطس من القيـام بمحاولات جديدة بعـد ذلك تقوم على أسـاس مشتـرك بين الحلفـاء ، ولكنها لم تكن أوفر حظا من سابقاتها • على أنه يحق للمرء أن يتساءل عما اذا كان كل ذلك قد عولج باهتمام وجـدية ، فقـد ركز الفرنسيون مثلا خطتهم على

شخصية هـامة من عهد الملك فاروق (وكانت تعد هى الاخرى قائلة : سـوف آتيكم بنجيب !) ولكنها كانت عاجزة عن الوفاء بوعودها • كما عولوا على جماعة ربما أتت لنا بمفاجئات ضخمة لو أنها نجحت فى مشروعها • ولم يـكن صـاحب الشخصية يبدو مخدوعا فى هذا الصدد فقد قال : « لم نكن واثقين من جماعتنا، ولكن الامر كان يقتضى أن نهدأ ثم نرى •• »

ضغوط اقتصادية :

لم تكن محاولات تدبير ثورات على الحكم فى مصر هى السبيل الوحيد للكفاح السرى ضدها حينذاك • فقد أدى السلاح الاقتصادى ـ الضغـط الاقتصـادى والمالى ـ دوره فى هذا المجال ، ورأينا أن البريطانيين والفرنسيين قاموا ـ ردا على تأميم القناة ـ بتجميد الاموال المصرية ومنعوا السفن التى تحمل أعلامهم من تسديد رسوم المرور الى الادارة المصرية الجديدة لقناة السويس • ولم يكن هذا الاجراء الاخير ليضايق مصر الا بالنسبة للمستقبل ، ذلك أن رسوم المرور كانت تدفع حتى ذلك الوقت للشركة العالمية لا للمصريين •

ولكن هذا الضغط كان أسرع أثرا بالنسبة لتجميد الارصدة الاسترلينية ، لأن الجنيه الاسترلينى كان ذا أهمية أساسية فى حسابات مصر الدولية • ولذلك اضطرت القاهرة الى أن تحذف من الاتفاقات التجـارية السـارية جميع شروط الدفع بالاسترلينى، وكان عليها أن تعنى بتكوين احتياطيات من العملات الاخرى غير الاسترلينى والفرنك لسداد قيمة وارداتها اللازمة كالبترول والحبوب •

وفى هذه الظروف الصعبة لم تكن مصر تسـتطيع أن تتلقى العون الا من أمريكا ودول كتلة الحياد فى آسيا وأفريقيا ثم من الدول الشيوعية • ولم يكن ينتظر الكثير من جانب كتلة الحياد ، لا بسبب افتقاد الرغبة الصادقة ولكن لأنه كان على هذه الدول ـ باعتبارها هى ذاتهـا دولا نامية ـ أن تفكر فى نفسهـا بقدر ما تفكر فى غيرها • كذلك لم تكن مصر تستطيع أن تعتمد كثيرا على أمريكا

لانهـا كانت واقعة تحت ضغط حلفائهـا الفرنسـيين والبريطانيين ، وما دامت حكومتها قد اتخذت موقفها قائلة لهم : اننـا معكم على شرط ألا تشنوا الحرب ! فقد تعين عليها أن تبدى للفرنسيين والبريطانيين ـ باجراءات محددة فى سياستها الاقتصادية ـ أنها « معهم » حقا • وهكذا اتخذت مثلا ادارة التعاون الدولى التى تتولى شئون المساعدات الامريكية للخارج قرارا يوم ٢٣ أغسطس بفرض رقابة فى المستقبل على الصادرات الهامة التى ترسل الى مصر من قبيل المسـاعدات الخارجية • وقد أشير فى واشنطن الى أن هذا القرار يعنى من النـاحية العملية وقف الجانب الاكبر من الامدادات الامريكية الى مصر •

اما من جانب الدول الشيوعية فكان هنـاك مزيد من الامل • وقد أجرى ناصر ومعه وزير ماليته محادثات كثيرة فى هذا الشأن مع السـفير السوفييتى كيسيليف ، ولكن لا الاتحاد السوفييتى ولا ناصر كان له حينذاك مصلحة فى أن يظهر أن له علاقة وثيقة بالآخر •

وأخيرا كان على ناصر أن ينشد المساعدة الفورية لدى حليفتيه العربيتين : سوريا والسعودية • ففى ٢٧ أغسطس وضعت السعودية عشرة ملايين دولار تحت تصرف مصر ، وفى ٢٨ أغسطس وقعت سوريا مع القاهرة اتفاقا تجاريا بتوريد ١٠٠٫٠٠٠ طن من القمح لمصر • واذا كان البعض قد خامرهم الامل فى تجويع مصر ـ وما يترتب على ذلك من اثارة السـخط والتمـرد ـ مقدرين أنه سوف يلزمها نحو ٤٧ مليون دولار فى خـلال الشهور التسعة التـالية لدفع ثمن ال ٦٠٠٫٠٠٠ طن من القمح التى يتعين عليها استيرادها ، فقد تكشف خطأ تقديرهم مرة أخرى • ولشد ما كانت دهشتهم حين رأوا بعد قليل الصين الشعبية التى لديها احتياطى كبير من الاسترلينى تضع تحت تصرف مصر فى سويسرا المبالغ المقابلة للأموال المصرية مما ساعد مصر على مقاومة ضغط الفرنسيين والبريطانيين• لقد تم ذلك فى الوقت المناسب ، اذ لم يكن باقيا لدى مصر غير ٩ ملايين دولار ينتظر صرف نصفهـا فى شراء القمح فى حين شـهدت مصر تجميد الفرنسـيين والبريطانيين لما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من أرصدتها •

وأخيرا فلم تكن الضغوط الاقتصادية والمؤامرات ذات أثر كبير على سير الاحداث • وكان المسئولون البريطانيون والفرنسيون في حيرة دائمة • فاما مواصلة السير فى الطريق الدبلوماسي العالمي الرسمي الذى سيظل بطله فوستر دالاس ـ الذى كان يجرد حلفاءه شيئا فشيئا من حميتهم ورغبتهم فى الحرب كما تنزع أوراق الخرشوف ورقة بعد ورقة ـ وأما الدخول فى حرب مباشرة تفرض على عبدالناصر الحل الفرنسي البريطاني. وهذا يفترض بادىء ذى بدء حيادا أمريكيا موعودا « حتى تستنفد جميع الوسائل السلمية » كما يفترض أن يقدم ناصر ذريعة لتدخل متحالف وهو على وجه التحديد ما كان يبدو أنه يتحاشاه بكل ما فى وسعه لكى يتجنب أى خطر جديد يأمل خصومه أن يجدوا فيه فى النهاية ما يتيح لمدافعهم الفرصة لكى تتكلم •

الفصل العاشر

الأعذار والحجج

لو اهتمت الشركة العالمية لقناة السويس البحرية وبحثت فى سجلاتها لاكتشفت فيها شيئا مخيفا ، كان هناك موظف من بين موظفيها يحمل اسم ناصر. انه فى الواقع المدعو كميل ناصر المراجع من الدرجة الاولى بالشركة ، ولكنه لا يمت بصلة ما الى الرئيس عبد الناصر، وقد نقل عنه تيبرى مولينييه (فى جريدة الفيجارو يوم ٢١ من أغسطس) قوله انكم تتمتعون بالخطوة العسكرية والفك القوى والاسنان الطويلة والضحكة المتوحشة وأصوات العواء المختزنة فى الحلق !

والواقع أن الصحافة الفرنسية لم تكف عن الكتابة بالاسلوب العسكرى منذ يوم ٢٦ يولية ، كما أنها لم تكف عن الكتابة الشديدة اللهجة والنظر الى بعيد والسخرية الجارحة . وقد استخدمت كل ذلك بافراط لدرجة أن المرء قد يعتقد أنه لم تتبق فى حلقها أصوات عواء مختزنة لاستخدامها وقت الحاجة .

اما الزعماء الفرنسيون فقد كانوا يتذرعون بالهدوء أو على الاقل يتظاهرون بذلك ، الا أنهم لم يكونوا يقلون أصرارا ، ففى يوم ٢٣ أغسطس ـ فى الوقت الذى لم يغادر فيه لندن بعد مندوبو الدول الاثنتين والعشرين ـ اجتمع رئيس الوزراء جى موليه بوزير الدفاع الوطنى بورجى مانورى ، وبوزير القوات المسلحة ماكس لوجون ، وبحث معهما ـ كما ذكر ذلك فى بيان رسمى ـ الظروف التى تمت فيها بعض الاستعدادات لمواجهة أى احتمال . وفى اليوم السابق كان قد أعلن أن

وفدا من مدرسة أركان الحرب البريطانية قد توجه الى مقاطعة نورماندى الفرنسية لعمل دراسة على الطبيعة عن مراحل انزال الجنود التى تمت عام ١٩٤٤ ، وفى اليوم التالى صدر بيـان آخر يعلن أن الجنرال بوفر المكلف من الجانب الفرنسى باعداد القوات البرية والقوات المنقولة بالطـائرات ـ وهى التى قد تسـتدعى للاشتراك فى عملية عسكرية خاصة بالنزاع القائم على السويس ـ قد وصل الى لندن قادما من الجزائر وذلك للاشتراك فى المحـادثات الجارية بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والبريطانية .

ويشار الى تحركات القوات ويتكلمون عن اسراب من الطائرات تتجمع قرب باريس ، وعن المدرعة جان بار التى تبحر مرة أخرى ، وعن سفن للنقل الحربى تستعد للتوجه نحو موانىء البحر المتوسط . وينصح قناصل فرنسا فى مصر الرعايا الفرنسيين بمغادرة البلاد . وتؤكد جريدة النيويورك تايمز أن الوزير المقيم فى الجزائر ـ وهو روبير لاكوست ـ أرسل الى جى موليه مذكرة شديدة اللهجة يقول فيها أنه ما لم تضع حدا لنفوذ ناصر بطريقة حازمة فان الامل فى التغلب على الثورة الجزائرية سيظل ضعيفا للغاية .

أما فى بريطانيا فقد أعلن ـ بطريقة ربما تقل قليلا فى صراحتها وان كانت لا تفتقد التصميم ـ أن فرقة بريطانية ستعود من المانيا عن طريق هولندا .

ومصر أيضا لا تقف مكتوفة اليدين ، فان ناصر يسـتدعى جميع ضباطه الاحتياطيين ، فى حين أخذ الاتحاد العام للنقابات العربية يناشد جميع أعضائه حمل السلاح لاحتمال وقوع هجوم على مصر .

وفى ٢٨ أغسطس أعلن أن فرقة من القـوات الفرنسيـة سمـح لهـا بأن تعسكر فى قبرص . وقد أعلنت وزارة الخارجية الفرنسية أنها وقعت مع بريطانيا اتفاقا فى هذا الصدد كما أعلن السير جورج يونج الناطق بلسان وزارة الخارجية

البريطانية أن القواعد التى منحت للفرنسيين فى قبرص تهدف فقط الى تمكينهم من حماية رعاياهم فى الشرق الاوسط ومصالحهم فى مصر ٠

حقا لم تكن المسألة خاصة بالقواعد أو بالحماية ولكنها كانت تتعلق بتطبيق الاجراءات الاولى لخطة الهجوم الفرنسى البريطانى ٠ وعلى كل حال فقد تم تعيين القائد العــام الفرنسى للحملة بيــير بارجو ــ وهو الذى سيكون مساعدا للقائد العام البريطانى ــ نائب أميرال الاسطول الخفيف ، وقد تسلم منصبــه يوم ٢٦ أغسطس ، ومن ناحية أخرى نرى أن الجنرال بوفر قائد القوة قد غادر لندن يوم ٢٨ أغسطس وأقام فى الجزائر ٠

لقد أخذت واشنطن تتابع هذه الاستعدادات بقلق ، ولم يكن يطمئنها غير وعود ايدن وبينو بعدم القيام بأية عمليات عسكرية قبل استنفاذ جميع الحلول السلمية ، كما كان يطمئنها أن الحلفاء لم يكن لديهم أى عذر ينتحلونه للتدخل لان ناصر حرص على تحاشى جميع الاستفزازات بكل عناية ٠

الاستفزازات :

لم تكن الاستفزازات قليلة ، وكان مصدر بعض هذه الاستفزازات رعونة المصريين أنفسهم ٠ ألم يعلن نبيه يونس وكيل وزارة المالية ــ فى الوقت الذى كان فيه مؤتمر لندن منعقدا ــ أن أولوية المرور ستطبق فى القناة ، مشيرا بذلك الى أن السفن الفرنسية والبريطانية ستنتظر طويلا قبل السماح لها بعبور القناة ؟ وهذا ما نقلته وكالة مصرية للصحافة تدعى أنها شبه رسمية ! وأخيرا اعتقدوا فى لندن وفى باريس أنهم أمسكوا بالمصريين فى حالة تلبس : لقد نقض المصريون اتفاقية القسطنطينية ، وأسرع نبيه يونس بجمع الصحفيين الفرنسيين والبريطانيين لكى يدحض بشدة أمامهم التصريحات التى نقلت على لسانه ٠

وبعد ذلك بقليل سرت شائعة تقول ان سفينة اسرائيلية ستتقدم حتى مدخل القناة • وقيل أن هذه المسألة كانت موضع مناقشة بين وزير الخارجية سلوين لويد وسفير اسرائيل الذى أكد أن ناصر سيتصرف كما تعود ، وسيمنعها من العبور ليكون هـذا دليلا واضحا على نقض اتفاقية المرور المنصوص عليها فى اتفاقيــة القسطنطينية • انه لعذر سخيف لان لندن لم تتورع فى أثناء الحربين العالميتين عن حظر المرور فى القناة بالنسبة لسفن أعدائها ، كما أنها وافقت منذ قيــام دولة اسرائيل على أن تمنع مصر مرور سفن هذه الدولة عبر القناة• فاذا ما غيرت موقفها فجأة فيعنى هذا أنها تدافع عن الحقوق التى سلبتها اسرائيل من العرب وسيترتب على ذلك أن تثير ضدها جميع العرب ، ولا يمكن هنا تقدير الخسارة التى كان يمكن أن تصيب بريطانيــا من جراء ذلك • ولهذا فقـد بادرت وزارة الخارجية البريطانية الى تكذيب هذا الخبر يوم ٢٤ أغسطس ١٩٥٦ ، وكان هـذا بمثابة « فيتو بريطانى » •

وقد بادر المصريون الى أبطال مفعول هذا المفجر الجديد • ففى ٢٥ أغسطس أعلن قائد الجنــاح على صبرى أن حظر المرور على السـفن الاسرائيلية يتفق مع نصوص المادة العاشرة من اتفاقية القسطنطينية التى تسمح لمصر باتخاذ الاجراءات اللازمة ضد سفن الدولة التى تكون فى حالة حرب معها • وهذه نتيجــة تحتمل المناقشة، لأنه اذا كانت مصر لم توقع بعد معاهدة صلح مع اسرائيل فهى على الاقل قد وقعت فى رودس اتفاقية لوقف اطلاق النار تقضى بمنع جميع العمليات الحربية وما يترتب عليها • وهى نتيجة ستنقلب ضد مصر لانها اذا كانت لا تزال تدعى أنها فى حالة حرب مع اسرائيل فان هذا سيعفى اسرائيل من تهمة العدوان بمناسبة هجومها الذى ستقوم به يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ •

هل يمكن أن يثار حادث خطير من جـراء القبض على بعض الجواسيس فى القاهرة فى نهاية أغسطس ؟ وهنا أيضا يتجنب المصريون المشكلة ، فقد أعلنوا يوم ٤ سبتمبر أن قضية الجواسيس قد أجلت الى أجل غير مسمى •

والحقيقة أنه تبين للحلفاء بسرعة أنه لا يوجد غير عذر واحد مقبول، وهو كما يتصورون عجز ناصر عن ادارة القناة ، وذلك اذا ترك المرشدون فجأة أعمالهم • ولكن يجب أن تبدو هذه الحركة صادرة من المرشدين أنفسهم وليس موعزا بها من الحكومات التى يتبعها هؤلاء المرشدون •

مخاوف الشركة :

ولحسن الحظ تضافرت الظروف على حمل الشركة العالمية لقناة السويس الى أن تبدى مخاوفها من سير الامور • فقد نشرت يوم ٢٦ أغسطس بيانا أعلنت فيه أنها مقتنعة بأنها لا تستطيع أن تضمن أمن موظفيها وسلامتهم • وقد أضافت أنها أبلغت الدول التى تقوم ببحث مسألة مستقبل لائحة القناة أنه اذا اضطر الموظفون غير المصريين الى البقاء أكثر من ذلك فى منطقة القناة ، فان مسئولية مثل هذا القرار يجب أن تقع منذ الآن على عاتق هذه الدول •

ما حقيقة ما يحدث ؟

فى الواقع أن الشركة ازعجتها القرارات التى اتخذت فى لندن • انها تشعر بأن الرقابة على القناة ستفلت من بين أيديها اذا أنشئت هيئة أخرى يوكل اليها الادارة فى الاسماعيلية تحت اشراف الثمانى عشرة دولة • ولن يكون عليها فى هذه الحالة غير أن تقبل تعويضا ، ولن يكون لها حتى حق مناقشته • عليها اذن أن تثبت ــ قبل أن تصل الامور الى هذا الحد من التعقيد ــ أنه لا غنى عنها لادارة القناة وعليها أن تبرهن على مقدرتها الفنية • وكانت هناك وسيلة هى : أن تثبت أن القناة لا يمكن أن تسير حركة المرور فيها بدون مرشديها وموظفيها الذين كانوا فى خدمتها والذين ظلوا مخلصين لها • ولذلك فقد أطلقت شائعات كثيرة تزعم فيها أن عملية الارشاد فى القناة ليست مثل أى عمل آخر • أنها مهنة صعبة فى تعلمها وأن اتقانها يتطلب وقتا طويلا • انها فن تقريبا ، وعلى كل حال فان المصريين لن يكونوا قادرين تماما على ضمان حركة المرور فى القناة • ولم تكتف

الشركة باطلاق مثل هذه الشائعات بل صاغتها أيضا فى كلمات مكتوبة ، وفى المذكرة التى كان على جاك ـ جورج بيكو أن يرسلها يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥٦ الى رئيس جمعية المنتفعين بقناة السويس نقرأ عبارات مثل هذه « لكى تتم الخدمة وتتم حركة المرور عبر القناة كما ينبغي يجب أن تتوافر تلك المميزات الضرورية التالية : الكفاءة الفنية ، والاستقرار والاستقلال وروح التنظيم حتى الآن ـ أو هكذا على الاقل ـ ليست فى المستوى المطلوب بالنسبة للمشروعات المنظمة التى تدار فعلا فى اطار مصرى معين ٠

ثم يستطرد بعد ذلك قائلا : لن يقبل معظم المرشدين بدون شك التعويض لخطر ارشاد السفن فى قناة معادية لهم يديرها رؤساء مصريون ، وهم لا يعترفون لا بسلطة هؤلاء الرؤساء ولا بكفاءتهم × ٠

وفى ٢٨ أغسطس نشرت شركة قناة السويس بيانا جديدا اعلنت فيه أنه اذا تم انشاء الهيئة الجديدة للادارة كما تنوى الثمانى عشرة دولة المجتمعة فى مؤتمر لندن فان الشركة ـ التى لا تزال تملك أموالها وحقوقها المنصوص عليها فى عقد الامتياز المسموح لها ـ تستطيع فقط أن تتفاوض مع هذه الهيئة ٠ ويعيد البيان ذكر الفكرة التى عرضها جورج بيكو من قبل يوم ٢٦ من أغسطس والتى جاء فيها « انه ليس من حق مجلس ادارة الشركة أن يتحمل المسئولية الادارية المترتبة على الابقاء على موظفيها المصريين ضد رغبتهم » ٠

× يجب ان نثبت هنا ان جورج بيكو نسى النصوص التى ذكرت من قبل وانه على عكس ما نرى اليوم حذر كريستيان بينو وزير الخارجية خلال محادثاته التى جرت فى نهاية اغسطس وبداية سبتمبر من الاوهام المتعلقة باهمية دور المرشدين ، موضحا له ان انسحاب هؤلاء لا يوقف سير العمل فى القناة ٠ (المراجع)

وفى اليوم التالى ـ ٢٩ أغسطس ـ أعلنت الحكومة البريطانية موافقتها على البيان الذى أصدرته الشركة بشأن موقف المرشدين ٠ انها اشارة لندن الخضراء ، أما الباقى فلم يكن سوى مسألة توقيت ٠ يجب ألا تتم حركة رحيل المرشدين الا فى حالة استعداد القوات الفرنسية ـ البريطانية للهجوم ٠ وحتى ذلك الحين يكونون قد ظنوا أن جميع امكانيات الحلول السلمية قد استنفدت ٠

مشاجرة أم موقف :

وكان رد واشنطن سريعا ، فان فوستر دالاس قرأ باسم الرئيس أيزنهاور بيانا يؤكد فيه بصفة خاصة ما يأتى « أن حكومة الولايات المتحدة بل الامة الامريكية ـ على ما أعتقد ـ تؤيد كل التأييد الاقتراحات التى أعلنتها الثمانى عشرة دولة فى لندن وهى اذ تحترم السيادة الكاملة لمصر ، تعطى تأكيدا وضمانا بحل هذه المشكلة الكبرى حلا سلميا ٠

ويعتبر أيضا هذا البيان ردا على مسعى قامت به لندن ٠ فقد قررت الحكومة البريطانية فى ٢٨ أغسطس (وأبلغت فوستر دالاس فورا بهذا القرار) عرض هذه المسألة على الأمم المتحدة فى حالة فشل بعثة منزيس، وهذا هو ما يحتمل وقوعه ٠ وانه ليبدو أن أكثر الوسائل سرعة وضمانا هو مطالبة مجلس الأمن بالموافقة على القرار الذى اتخذته الدول الثمانى عشرة فى لندن ، لاثبات المساندة المعنوية التى تقدمها الامم المتحدة ٠ ان فرنسا واستراليا ـ عضوا هذا المجلس ـ ستوافقان بدون أية صعوبة تذكر ، وسيكون من المتوقع أن تحذو الولايات المتحدة حذوهما نظرا للدور الرئيسى الذى لعبته فى اعداد هذا البيان ـ كما كان يعتقد ايدن ـ وقد يصعب على الاتحاد السوفييتى بأن يعلن اعتراضه باستخدام حق الفيتو ٠ ويؤدى ذلك الى قيام جبهة غربية ـ تشمل الولايات المتحدة الامريكية ـ بالوقوف ضد الاتحاد السوفييتى ، ويؤدى فى الوقت نفسه الى الزام الولايات المتحدة بالوقوف ضد ناصر ، أى اطلاق يد الفرنسيين

والبريطانيين • وحينئذ قد يمكن القيام بالحملة بكل طمأنينة لان لندن ترى أن الاتحاد السوفييتى لن يشعل حربا عالمية فى مثل هذه الظروف نظرا لانها لا تمس مصالحه المباشرة •

وقد أبلغ دالاس رده الى الانجليز بعد ذلك بيومين ، وقال ايدن فى هذا الصدد : كان دالاس يوافق بصفة عامة على أخذ رأى مجلس الامن قبل اتخاذ أى قرار بشأن القيام بعمل عسكرى ، الا أنه كان يعبر عن كثير من الشكوك • لقد كان يلفت النظر الى الصعوبات الفنية • وفى ٢٩ أغسطس كان يتساءل عما اذا كانت هذه المشكلة تعتبر فى نظر ميثاق الامم المتحدة مشاجرة أو مجرد اتخاذ موقف •

وبادرت لندن الى العمل لتبديد شكوك وزير الخارجية البريطانية • ففى اليوم التالى أرسلت لندن الى واشنطن نص مشروع القرار الذى اعتزمت أن تقدمه • وجدير بالملاحظة هنا أن هذا كان اتصالا مباشرا بين لندن وواشنطن ، أى بين دولتين كبيرتين لا تشترك فيه باريس • وكان مشروع القرار ينص على أن السلام مهدد ، وكان يدعو مصر الى التفاوض على أساس الاقتراحات التى أعدتها الثمانى عشرة دولة •

ويقول ايدن : يبدو أن مشروعنا قد أعجب المستر دالاس فى بادىء الامر، الا أن مسألة عدد مقاعد مجلس الامن أخذت تشغله ، كما أن مسألة عدد الاصوات أخذت تقلقه • وقد أعلن أننا نستطيع طبعا أن نعتمد على تأييد الولايات المتحدة داخل المجلس نظرا لان عملنا هو عبارة عن تجربة صادقة تهدف الى التوصل الى حل وليست هى وسيلة للحصول على تغطية •

وفى حين كانت المناقشة تدور حول بعض التفاهات القانونية اضطر ايزنهاور الى توضيح بعض وجهات نظر الولايات المتحدة ، وذلك خلال مؤتمره الصحفى الذى عقده يوم ٣١ أغسطس • ففى الوقت الذى رفض فيه التعليق على وصول

القوات الفرنسية الى قبرص ، أخذ يصر على أنه ليس للقوات الامريكية أى شأن فى هذه المسألة ، وأن الشىء الوحيد الذى التزمت به الولايات المتحدة هو العمل على الوصول الى حل سلمى وليس أكثر من ذلك • وكان تصريح الرئيس الامريكى تقريبا ما أذاعه راديو موسكو يوم ٢٥ أغسطس فى هذه الكلمات : الويل لمن يندفع فى مغامرة عسكرية !

وفى واشنطن أخذت الدوائر الرسمية تذيع تعليقات متحفظة عن الجيش البريطانى وتوضح أن مالدى هذا الجيش من أساليب الاتصال اللاسلكية قديمة يرجع تاريخها الى فترة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ •وتعتمد قواته الى حد كبير فى تسلحها وفى تموينها على الحليفة الامريكية • كما أخذت هذه الدوائر نفسها تذكر أنه لا يمكن استخدام أسلحة حلف شمال الاطلنطى بدون موافقة هذه المنظمة أى ـ من الناحية العملية وفى ذلك الوقت بالذات ـ بدون موافقة الولايات المتحدة الامريكية •

وفى انتظار مناورة قادمة لفوستر دالاس انتقل مركز الاهتمام الى القاهرة •

منزيس فى القاهرة :

فى ٢ سبتمبر وصلت الى القاهرة بعثة « لجنة الخمسة » التى كان يراسها رئيس الوزراء الاسترالى روبرت منزيس • ويروى التاريخ أن محافظ القاهرة هو الذى استقبل الوفد فى المطار ، وكان يصحبه رئيس البروتوكول فى الحكومة المصرية • وقد ساء منزيس ألا يرى حرس شرف يصطف لاستقبال الإنذار الذى كان يحمله ، ومن ثم رفض أن يستقبل سيارة مصرية مفضلا عليها سيارة من سيارات السفارة الاسترالية • وفى اليوم التالى ذهب الوفد لمقابلة ناصر• ودامت المقابلة نصف ساعة اقتصرت على تسليم قرار الثمانى عشرة دولة الى رئيس الحكومة المصرية • أما باقى الحديث فى المقابلة فكان مجرد تأكيد للمبادىء وتكرارا لمواقف معروفة • وفى ٤ سبتمبر تمت مقابلة ثانية عرض فيها الرئيس ناصر وجهات

نظره على لجنة الخمسة وفى ٥ سبتمبر تمت المقابلة الثالثة التى أعلن منزيس على أثرها أن المؤتمر فى مازق لان ناصر يرفض التراجع عن موقفه قيد أنملة • وفى ٧ سبتمبر سلم روبرت منزيس مذكرة الى الرئيس ناصر •

لم يعد احد ينتظر أى شىء من المحادثات ، ولكن هل كان هناك من ينتظر أى شىء فى أى وقت من الاوقات ؟ لم يكن هناك أحد يتصور أوهاما سواء من جهة الحلفاء أو من جهة ناصر أو من جهة أعضاء اللجنة أنفسهم • لم يكن لدى هؤلاء أى تفويض للمفاوضة حول أى موضوع • لقد كانوا فقط مكلفين بتسليم ناصر نص قرارات اللجنة وبابلاغه أن عليه أن يقبلها أو يرفضها ، وكان يمكن ارسال ذلك له برقيا •

وكانت المسألة فى الحقيقة بالنسبة للحلفاء هى القيام بنشاط دبلوماسى مصطنع بقصد اتاحة الفرصة لهم لاتمام استعداداتهم • أما بالنسبة لناصر فقد سمح له هذا بكسب الوقت والاستعداد لضمان استمرار حركة المرور عبر القناة بواسطة مرشدين لا يخضعون الا لسلطة الجهاز الادارى المصرى الجديد •

وكان يمكن اضفاء بعض الاهمية على بعثة منزيس ، وذلك بتصويرها كأنها تعبر عن ارادة مشتركة للدول الثمانى عشرة • وكان لتعيين لوى هندرسن كمندوب أمريكى فى هذا الوفد معنى مضاد • لقد اشتهر لوى هندرسن فى الواقع منذ الدور الذى لعبه فى مسألة مصدق بأنه أحد أعضاء هذه القناة المناصرة للعروبة داخل الادارة الامريكية التى كان أول المحبذين لها وزير الخارجية السابق الراحل جيمس فورستال •

واذا لم يكن فى وجود هندرسن الآشارة الكافية فربما كانت المقابلة التى تمت فى ذلك اليوم بين محمود فوزى وزير الخارجية المصرى وبين السفير الامريكى هنرى بايرود ـ وهو أيضا عضو هام فى هذه الفترة المناصرة للعرب ـ تحمل اشارة

أوضح • ولم يكن هناك شك عند ناصر فى أن الامريكان يقفون على بعد • كان منزيس ورفاقه يستطيعون أن يتكلموا ، ولكن لم يكن كلامهم ملزما لسياسة الولايات المتحدة الامريكية •

وفى المساء نفسه الذى تمت فيه هذه المقابلة أرسل الرئيس أيزنهاور رسالة الى ايدن وصفها هذا الاخير بأنها رسالة مقلقة • لقد تصرف ايدن حتى الآن بناء على الوعود الامريكية التى تقضى بعدم الالتجاء الى القوة الا بعد استنفاد جميع الاجراءات السلمية ، وقد وافقت واشنطن مرارا كثيرة على الاحتياطات العسكرية التى يتخذها الفرنسيون والبريطانيون • اما رسالة أيزنهاور هذه فقد كانت بمثابة تراجع عن هذه الوعود • كان الرئيس يبرز لأنطونى ايدن أن الرأى العام الامريكى يرفض باصرار الالتجاء الى القوة ، وينصح بالفصل بين تسوية مشكلة القناة وبين تسوية المشكلات التى تتعلق بالسياسة العامة تجاه الحكومة المصرية •

وفى اليوم التالى لهذه الرسالة كان دالاس عائدا من احدى عطلات نهاية الاسبوع التى كان يقضيها فى جزيرة البط على بحيرة أونتاريو حيث كان يفكر فى أوضاع العالم وهو يمسك بسنارته فى جلسات طويلة يقضيها فى صيد السمك ، وكان يحمل معه مشروعا جديدا للغاية • كان يقترح أن تترك جانبا فكرة عقد اتفاقية جديدة مع مصر ، فى حين كان هذا هو ما طلبه بنفسه فى مؤتمر لندن ، وما طلبه مندوبه الشخصى من ناصر ، وأن يعهد الى جمعية المنتفعين بقناة السويس بتعيين المرشدين وتنظيم الملاحة فى القناة وادارتها ، وكان ما يرجو دالاس تحقيقه من وراء ذلك أنه فى حالة ما اذا رفض ناصر اقتراحات الثمانى عشرة دولة ـ وهذا ما كان محتملا حدوثه لدرجة كبيرة ـ يظل هناك حل سلمى يمكن استغلاله بحيث لايكون رفض مصر مبررا كافيا للقيام بعمل عسكرى فرنسى بريطانى ضدها. وقد أضاف دالاس أن اتفاقية سنة ١٨٨٨ لاتعطى لناصر حق تحصيل أرباح من القناة • فاذا لم يقم المنتفعون بدفع رسوم المرور له فسيرى المال يختفى هكذا من بين يديه ، وسيكون لذلك تأثير أشد مفعولا من تأثير التهديد باستخدام القوة •

ان أبسط ما يمكن أن يقال عن هذا أنه جدل عقيم • وقد كان ذلك هو رأى المسئولين فى لندن ، اذ رأوا ـ كما قال ايدن ـ أن الاتفاقية لا تتضمن نصا يعطى للمنتفعين الحقوق التى يمنحها لهم دالاس • وقد أوضح رئيس الوزراء البريطانى أن الموقعين على هذه الاتفاقية كانوا متأكدين من أنها لن تحترم الا بفضل الضغط الدبلوماسى والاقتصادى ، وفى آخر الامر باستخدام القوة •

وفى ٦ سبتمبر أبلغ روبرت منزيس لندن أن الفشل المتوقع لمهمته أصبح أمرا شبه مؤكد ، نظرا لان ناصر يرفض التنازل عن أى شىء •

فتقرر اذن دعوة مجلس الامن للانعقاد باعتبار أن هذا الاجراء ـ كما يقول ايدن ـ هو بمثابة المحاولة الاخيرة لاقناع مصر بقبول حل من سلسلة الحلول التى قررها مؤتمر لندن • وفى الليلة السابقة ـ يوم ٥ سبتمبر ـ كان سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية ـ بالاشتراك مع كريستيان بينو ـ قد قدم تقريرا الى مجلس حلف شمال الاطلنطى وحصل منه على التأييد المعنوى الذى كان يسعى للحصول عليه •

ومن الواضح أن الولايات المتحدة لم تكن لتخاطر داخل مجلس حلف شمال الاطلنطى بمعارضة بريطانيا لأن ذلك كان من شأنه تعريض وحدة الحلف ـ التى كانت تتمسك بها للغاية ـ لاشد المخاطر •

فاذا نجح الانجليز والفرنسيون فى عرض مشكلتهم على مجلس الامن فانهم يكونون بهذا قد نفذوا الشروط التى فرضتها عليهم الولايات المتحدة الامريكية ، وهى استنفاد جميع الطرق السلمية ، لكى تسمح لهم بالقيام بتدخل عسكرى ضد مصر •

وفى هذا اليوم نفسه ـ وهو يوم ٦ سبتمبر ـ رد ايدن على أيزنهاور ، وكانت رسالته عبارة عن مرافعة طويلة للدفاع عن وجهة نظر التدخل العسكرى • ولكن هذه المرافعة كانت قائمة على الفكرة التى تشكل أساس عقيدة ايدن نفسها،

وهى التى نجح فى نشرها واذاعتهـا فى القـارة بأسرها وبصفة خاصـة فى فرنسا • ان ناصر فى نظره عبارة عن ألعوبة مستترة فى يد الشيوعية الدولية وعميل يستخدمه عبقرى من طراز ستالين أو أحد خلفائه لتدمير المراكز الغربية وهدمها • أننا مقتنعون بأن الاستيلاء على قناة السويس هو نقطة البداية بالنسبة لحملة متشعبة يقوم بها ناصر ، ويهدف منها الى القضـاء تماما على النفوذ الغربى والمصالح الغربية فى البـلاد العربيـة •• الخ • ثم أخذ ايدن يصف لايزنهاور المستقبل الذى يتنبأ به وهو الذى ينتظر الامم الغربية اذا ما انتصر ناصر •

ويعتبر هذا التفكير فى نظر أيزنهاور أو فى نظر دالاس أو بالنسبة لوزراء الخارجية الامريكية أو لوزارة أركان حرب القوات المسلحة الامريكية أو بالنسبة أيضا لكبار رجال البترول الامريكان سفسطة سياسية غير واقعية • وهذه النظرة الى التاريخ التى يتمسك بها رئيس الوزراء البريطانى وجانب كبير من البورجوازية الانجليزية والفرنسية أشبه بحكاية خرافية ترويها امرأة طيبة وتقول فيها أن مصير الانسانية كان يتوقف على طول أنف كليوباترا ! وقد تصلح هذه القضية بالاحرى لعمل سيناريو لمشهد يعرض فى احدى مسارح هوليوود •

وفى سبتمبر أخطر الانجليز واشنطن أنهم بصدد اعلان رغبتهم فى عرض الامر على مجلس الامن وذلك فى خلال أربع وعشرين ساعة • وقد أثار دالاس بعض الاعتراضات ، بل عارض اعلان ذلك مباشرة • وقد أخطر دالاس السفير البريطانى بأنه لن يتبنى المشروع الفرنسى البريطانى ، وأنه لن يؤيده • وكان كل ما قبله دالاس هو أن يبلغ الانجليز والفرنسيون مجلس الامن بالموقف فى خطاب وبدون أن يطلبوا منه أن يفعل شيئا • وحتى على هذا النحو فلن توقع الحكومة الامريكية على هذا الخطاب •

وفى ٩ من ديسمبر غادر منزيس القاهرة ومعه باقى أعضاء لجنة الخمسـة معلنين أن الموقف خطير للغاية • وقد أعاد جى موليه فى خطبة له ألقاها فى مدينة

فلبر بمقاطعة أورن ذكر التصريحات التى لا تحتمل أى غموض التى أدلى بها يوم ٣ أغسطس معلنا أن هذه التصريحات لا تزال قائمة وصالحه × ٠

ان ما كان يؤلم الفرنسيين والبريطانيين هو اعتقادهم أن الامريكيين قد هجروهم ، وفى هذه المرة لم يعد لديهم اى شك فى اللعبة المزدوجة التى يلعبها دالاس ، ولذلك قرروا الاتفاق معا ، وكانت محادثات يومى ١٠ و ١١ سبتمبر بداية لتحولهم عن موقفهم ٠

ماذا حدث فى أثناء ذلك :

فى الوقت الذى كانت فيه المحادثات الدبلوماسية تدور بين دالاس وبين الفرنسيين والبريطانيين ـ وذلك قبل اجتماع ايدن ولويد ومولية وبينو الذى تم

× لم يكن جى موليه يلقى هكذا بتصريحه فى الهواء ولكن يجدر بالذكر انه كان فى خلال هذه الفترة كلها واقعا تحت تاثير اشد أنواع الضغط من جانب الأوساط السياسية الفرنسية المناصرة لسياسة التدخل ٠ وهى عناصر عسكرية تريد أن تبعث أيام فيشى وتعد العدة لتغيير النظام القائم ، وهىأيضا من انصار سياسة «الجزائر فرنسية» فضلا عن انها تضم انصار استخدام المفجر الاسرائيلى ٠ وكانت الاوساط السياسية الفرنسية تتهم باستمرار رئيس الوزراء بالضعف ، وكانت هناك غالبية كبيرة من أعضاء البرلمان يدفعونه الى التسرع فى العمل مثل أعضاء المجموعة الوسطى لاعضاء مجلس الشيوخ المناصرة لقضية الدفاع عن الوحدة الفرنسية والتى كانت تؤيد مشروعات القرارات العنيفة للغاية ٠ وحينما كان يشار الى رجال السياسة هؤلاء بالاتجاه الحقيقى المدعم بمئات الشواهد للسياسة الامريكية كانتالاوهام تجرفهم ويتهمون الامريكيين بأنهم أطفال وبأنهم لا يفهمون، ولكنهم سيفهمون فى النهاية ٠ لقد بدأ الامريكان يفهمون ! ولم يكن تسلط فكرة الخبراء يلعب دوره فى الدول الانجلو سكسونية بدرجة يجعلها تنسى ما عداها من الاعتبارات مثلما كان يحدث فى قطاعات السياسة الفرنسية هذه ، وكانت حكومات هذه الدول تصطدم بمقاومة ٠ فمثلا منذ القرارات التى اتخذت فى بداية شهر سبتمبر أخذ العمال البريطانيون يطالبون الحكومة على لسان زعيمهم جيتسكيل بدحض المعلومات التى تقول ان هناك تفكيرا فى استخدام القوة ، وفى يوم ٦ سبتمبر كان مؤتمر اتحادات العمال البريطانى يطالب بحل سلمى ٠ وكان يطالب ذلك بشدة وببعض التهديد ويقول انه اذا اندفعت بريطانيا العظمى فى حرب لا لزوم لها فستجد الحكومة نفسها امام أمة غاضبة غضبا شديدا ومريرا وحاقدا، اننا نامل فى ان ذلك سيكون من شانه وقف هذا الجنون الاجرامى ! اما فى الولايات المتحدة فقد دفن الرأى العام موضوع السويس وأخذت النقابات تذكر دالاس بوعوده بشأن المحافظة على السلام ، وكانت مجموعة كبار رجال الاعمال بأسرها تساند الزعماء الجمهوريين وتؤيد ايزنهاور حينما أعلن : ان افضل وسيلة لكسب الحرب العالمية هى تجنبها !

يوم ١٠ سبتمبر . كانت الاستعدادات العسكرية مستمرة • فمنذ يوم ٢٠ أغسطس بدأ شحن المهمات الجوية الاساسية الفرنسية وهى التى كانت قد توجهت نحو شاطىء اقليم بروفانس برا • لم يكن من الممكن عدم ملاحظة مئات سيارات النقل ، وقد أنزلت هذه الشحنات فى قبرص بين يومى ٢٦ ، ٣٠ أغسطس ١٠٠٠٠ر١٠ طن من المعدات و ٣٠٠٠ر٣ رجل بما فيها منشآت تصنع الاوكسيجين السائل اللازم للطائرات المقاتلة والتى لم يكن من الممكن نقلها بدون موافقة الولايات المتحدة •

ومنذ يوم ٢٦ أغسطس بدأت فى قبرص عملية انزال الشحنات الاساسية الخاصة بالقوات المنقولة بالطائرات • وفى ٤ سبتمبر وصلت الى مالطة السفينة جورج ليج ، وأجريت يومى ٥ و ٦ سبتمبر مناورات فرنسية بريطانية ، وأخيرا فى يومى ٦ و ٧ سبتمبر نزلت الدفعات الاولى من قوات المظلات الفرنسية فى ميناء قبرص× •

× من الأفضل الرجوع فى هذا الشأن الى ما نشرته جريدة النيويورك تايمز فى نسختها الاوروبية يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٥٦ فى الصفحة الاولى عمود ٢ بتوقيع هنرى جينيجر • لقد وصلت وحدات من فرقتين فرنسيتين الى قبرص ، وهى جزء من الفرقة العاشرة مظلات والفرقة السابعة المتحركة العسكرية فى الجزائر • وفى خلال ذلك امر وزير الدفاع بالاستيلاء لاغراض خاصة على ٢٦ سفينة تجارية منها ١٩ سفينة لنقل البضائع وسفينتان لنقل البترول وخمس سفن لنقل الركاب من بينها السفينة باستير التى كان عليها أن تغادر مارسيليا صباح يوم ٣١ أغسطس لجهة غير محددة ــ هل هى الجزائر او قبرص ــ كما كان على السفينة مغادرة مارسيليا يوم ٢ أو ٣ سبتمبر • وقد غادر الاسطول الفرنسى فى البحر المتوسط ميناء طولون ما عدا الطرادة جان بار وحاملة الطائرات برابيللوا • وفى ٢٧ سبتمبر أرسلت معدات عسكرية من مارسيليا على ظهرى السفينتين آون وبريست اللتين اتجهتا الى جهة غير معلومة • وقد تكون آون قد اتجهت الى قبرص •

وفى الصفحة الثانية أشارت برقية واردة من جبل طارق الى أن بعض الشحنة قد اتجه الى جهة غير معلومة ربما كانت قريبة من السويس •

ومن الصعب أن نقبل فكرة الاستيلاء على ٢٦ سفينة تجارية ومن بينها خمس ناقلات للجنود على زعم أن هذا العمل يتعلق بأعمال التدريب •

ثم لا شيء بعد يوم ٧ سبتمبر ، أى بعد أن استدعى فوستر دالاس السفير البريطانى لمقابلة عاجلة فى واشـــنطن وأبلغه الانـــذار بأنه لن يتبنى الموقف الفرنسى البريطانى فى مجلس الامن ، بل سيعلن رسميا عـدم موافقة الولايات المتحدة ٠

وحتى نستطيع أن نفهم الامور التى جرت فى هذه الاثناء يلزمنا هنا أن نشير الى الطريقة التى يتم بموجبها تطبيق خطة أركان الحرب ٠ فحينما نجد أنفسنا أمام عملية تحتاج الى أيام كثيرة فان الخطة تكون موزعة على فترات بحيث تتطلب كل فترة منها نظاما خاصا ٠ ان هذه القرارات المتتابعة ضرورية ، ولا غنى عنها لسبب واضح هو تنسيق التحركات مع تطور المعارك ٠ فمثـلا اذا كانت الخطـة تقضى بالهجوم على مكان ما يوجد فيه العدو طبقا للخطة ى + ٨ ووقعت هذه الخطة فى أيدى العدو أو اذا فطن هذا العدو الى النيات المعادية فهناك احتمالات كبيرة فى فشل العملية ى + ٨ أو فى اصطدامها بمقاومة غير متوقعة ٠

وكان من الممكن تعديل الخطة التى يجرى تنفيذها أو الاستمرار فيها بدون ادخال تعديلات عليها ، وذلك وفقا لسير الاحداث ٠

يجب علينـــا الآن تتبع مجرى ســـير الاحـــداث والعودة الى يوم ٣٠ أغسطس ، وهو التاريخ الذى عرف فيه موضوع القرار الذى يقضى بارسال قوات الى قبرص ، أو على الاصـــح نعود الى الايام الاولى من سبتمبر حيث ذهب جـاك جورج بيكو لمقابلة كريستيان بينو فى مكتبه بوزارة الخارجية الفرنسية ٠ لقـد أعلنت الشركة عن رغبتها فى سحب مرشديها فى ٢٨ أغسطس ثم تخلت عن ذلك بناء على طلب ملح من الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، أما فى هـذه المرة فقـد تغيرت جميع الاوضاع وأصبح فى استطاعة جاك جورج بيكو أن يحيط الوزير علما بالظروف التى سيسمح فيها للموظفين غير المصريين بمغادرة القناة فى يوم ١٥ سبتمبر ٠ ونستطيع أن نقول أن هذه الزيارة قد تمت حوالى يوم ٣ سبتمبر ٠ فاذا أخذنا فى اعتبارنا وصول البارجة جورج ليج الى مالطة يوم ٤ سبتمبر فان

هذا يعنى أنها أبحرت من طولون يوم ٣ سبتمبر وأن تاريخ ابحار هذه السفينة التى كانت ترفع لواء القائد العام الفرنسى هو تاريخ الامر بالرحيل • وفى هذه الحالة نستطيع أن نقول أن أمر الشحن يقع فى أواخر أيام شهر أغسطس • ويعتبر يوم ٣ سبتمبر اذن تاريخ صدور القرار الثانى • وفى هذه الحالة قد يكون هناك قرار ثالث باستمرار العمليات أو بوقفها ينتظر صدوره يوم ٧ أو يوم ٨ سبتمبر، وهو أمر التحرك النهائى للحملة ، ثم الامر الرابع والاخير يومى ١٢ و ١٣ سبتمبر وذلك قبل عمليات الضرب الاولى بالقنابل •

ومع ذلك فان يوم ٤ سبتمبر ـ اليوم التالى للقرار الثانى ـ هو التاريخ الذى أرسل فيه أيزنهاور رسالة الى ايدن يخطره فيها بأن الرأى العام الامريكى يعارض الالتجاء الى استخدام القوة • ففى يوم ٤ سبتمبر اخترع دالاس ـ بسرعة وذلك لأن الذى عرضه على البريطانيين هو مجرد نواة لفكرة لم تتم صياغتها بالتفصيل ـ مشروعه العجيب الذى يقضى بانشاء جمعية المنتفعين بقناة السويس• وقد أبحرت القوات الانجليزية الفرنسية فى يومى ٥ و ٦ سبتمبر ، وأخذت تقوم بمناوراتها فى عرض البحر قرب مالطة ، وفى ٧ سبتمبر استدعى دالاس السفير الانجليزى على عجل وذكر له أن الولايات المتحدة الامريكية غير متضامنة فى العمل الفرنسى البريطانى •

وكان من المفروض أن يتم اتخاذ القرار يوم ٨ سبتمبر الا أن ذلك لم يتم • أما السفن التى أبحرت فقد اقتصرت على القيام بما سماه رؤساء الحملة بتدريب عام على عملية انزال الجنود من البحر الى البر •

ولا تزال هناك بعض الشكوك بالنسبة لصحة التواريخ ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أن جميع نسخ الخطة التى تم تطبيقها بهذه المناسبة (الخطة الاولى موسكيتير التى تحمل تاريخ ١٨ أغسطس) قد أحرقت يوم ١٤ سبتمبر • ومع ذلك فان العمل بالخطة موسكيتير استمر حتى بعد احراقها ، وسنرى كيف لعبت هذه الخطة دورا كبيرا فى هذه الحرب ، ولماذا لعبت هذا الدور •

ففى يومى ١٢ و ١٣ سبتمبر كان من المنتظر ضرب القاهرة بالقنابل ، وفى ١٢ سبتمبر أعلن ناصر قائلا « اننا نستعد لاسوأ الامور » . وكان أجدر به ألا يتكلم لان كلامه كشف للحكومتين الانجليزية والفرنسية أنه كان فى هذا التاريخ يعرف خطتهما الهجومية وعلى علم بأدق تفاصيلها .

كيف حصل ناصر على ذلك ؟ لا يعلم أحد ويؤكد البعض أن التقاط الرموز السرية التى كان يستخدمها الفرنسيون والبريطانيون فيما بينهم هو الذى لعب دورا كبيرا فى هذه المسألة ، ولكن الامر قد ظل غامضا .

ومنذ ذلك الحين أخذ الانجليز يهتمون بشئونهم وقد اتخذوا حينئذ أحكم قرار لهم فى خلال كل هذه الشهور العصيبة . فقد غيروا الرموز السرية واتخذوا اجراءات أمن ولكنهم احتفظوا بنفس الخطة ، واحتفظوا لها بنفس الاسم مع ادخال بعض التعديلات عليها . وقد كانت هذه التعديلات كبيرة ، لأنها فى الواقع غيرت كل شىء ، ولم تحتفظ الا بالمظهر الخارجى ولا سيما بالنسبة للاجراءات الاولى . ولذلك أصبحت الخطة موسكيتير تسمى موسكيتير المعدلة ، ولم يتخذ لها اسم من هذه الاسماء السرية الكثيرة التى كان يمكن اختيارها بهذه المناسبة وقد نجحت الخدعة الحربية ، ويعتبر هذا النجاح بالاضافة الى العمل الذى قام به السلاح الجوى الملكى انتصار الحرب الوحيد ، وهو فى هذه الحالة انتصار يمكن التفاخر به وان كان يصاحبه بعض الشعور بالضيق .

التفاهم الودى :

تقابل الفرنسيون والبريطانيون فى لندن يومى ١٠ و ١١ سبتمبر . وقد ألغوا فى ذلك الوقت أوامرهم الخاصة بالهجوم فى ضوء الامر الصريح المحدد الذى أصدره لهم فوستر دالاس ، ومن ثم شعروا بالمرارة ولا سيما الفرنسيون ، على الرغم من أن ايدن كان لا يريد اتخاذ أى أمر بدون موافقة دالاس (انه يقول أنه مستعد للسير فى المقدمة ، للمحافظة على المساندة الامريكية وهذا على كل حال هو ما سيحدث) .

ومع ذلك فماذا كان يريد الامريكان فى ذلك الوقت ؟

لقد أرسل دالاس على الفور الى لندن مشروعه الذى أضاف اليه مزيدا من التفصيلات ويقضى بانشاء جمعية المنتفعين بقناة السويس • وقد أعلن فى الوقت نفسه أن هذا المشروع يتفق مع جميع المقتضيات الملحة التى يطالب بها الفرنسيون والبريطانيون • وكان ينص على التعاون بين مصر والهيئة الجديدة وعلى استخدام مرشدى وموظفى الشركة القديمة التى سبق أن دفنت • كما كان ينص فى حالة ما اذا أثارت مصر بعض الصعوبات على أن تقيم ادارة الهيئة الجديدة مكاتبها على ظهرى سفينتين تراسوان فى كل طرف من طرفى القناة ويجرى عليهما دفع الرسوم ، على أن يدفع التعويض لمصر فيما بعد •

وكان الفرنسيون يرون فى اقتراح دالاس فخا جديدا لانقاذ السلام والحيلولة دون الالتجاء الى القوة فى حل المشكلة • أما بالنسبة للبريطانيين فربما كان وسيلة للاستمرار فى ضمان المساندة الامريكية مع استعادة القناة • وكانوا يرون أن المشروع صالح اذا تم تحقيق شرطين : أن يكون لجمعية المنتفعين فورا « حساب مصرفى خاص » وأن تلزم السفن المملوكة لمواطنين أمريكيين مهما تكن الجنسية التى تحملها سفنهم (لأن جزءا كبيرا من حاملات البترول الامريكية تحمل أعلام دول أخرى مثل بناما وليبيريا •• الخ تهربا من الضرائب) باحترام التنظيم الجديد ، أى بدفع رسوم المرور الى جمعية المنتفعين وليس لمصر • وهنا وقعت بسرعة خيبة الامل، ان أمريكا بلد حر ولا تستطيع الزام المواطنين الامريكيين بكذا وكذا •• الخ •

ومع ذلك فقد كان هناك بعض المزايا من وراء قبول فكرة جمعية المنتفعين ، فهى تهدىء من ثورة دالاس وتعطى للولايات المتحدة الانطباع بأن الفرنسيين والبريطانيين لا يزالون يسيرون وفق سياستها • هذا بالاضافة الى ترك الباب مفتوحا للقيام بتدخل فى حالة ما اذا رفض ناصر الحلول السلمية • ومع ذلك فان الرفض هنا محتمل ، وقد أنذر فوستر دالاس الفرنسيين والبريطانيين بأن الاقتراحات الجديدة لن تنال رضى ناصر كما لم ترضه اقتراحات الدول الثمانى عشرة •

أليس هناك وسيلة أخرى ؟

لا شـك أنه لا توجـد وسـيلة أخرى أمام ايدن ، لانه على الرغم من أنه يكرر في مذكراته أننـا كنـا نرغب كل الرغبـة في ايجـاد حل على أساس المفاوضـة فقـد أغفل أن يضيف أنه في هـذا اليوم نفسـه ـ وفي الوقت الذى بدأت فيه المحـادثات الفرنسـية البريطانيـة ـ وصله من ناصر اقتراح باجراء مفاوضات • ولم يكن هذا الاقتراح غير مناورة نظرا لأن ناصر ـ وقد أوضح ذلك في بيانه الذى أصدره يوم ١٢ سبتمبر ـ كان يتوقع أسوأ الامور ، وكان يجهل في ذلك الوقت أن الامور الخاصة بالهجوم قد الغيت • انها مناورة ، ولكنه اذا كان يرغب الدخول في مفاوضات فقد كان يستطيع ذلك وبصفة خاصة في الوقت الذى كان منزيس موجودا فيه في القاهرة ، بل في الوقت الذى كان فيه لوى هندرسون المؤيد للعرب موجودا فيه في القاهرة •

ولكن كيف كان ايدن يستطيع أن يدخل في مفاوضات بدون أن يفقد شيئا من مكانته ؟ لقد كان أغلق باب المفاوضات بخطابه الذى ألقاه يوم ٨ أغسطس وكال فيه الشتائم لناصر معلنا أنه رجل لا يمكن الوثوق فيه على الاطلاق • والان هو يدعى أنه يريد المفاوضة مع رجل مثل هذا ، انه لأمر عجيب !

لم يكن القادة الفرنسيون يواجهون مثل هذه المشكلات ، ولم يكن لهم غير هدف واحد هـو الحرب ، الحرب ، الحرب ! ليس أمامهم مجال للاختيار • وقد لا يسع جى موليه أن ينسى ـ واذا حدث أن نسى فهناك من يذكره بسرعة ـ في أى الظروف تغلب على منديس فرانس بعد الانتخابات التى انتصرت فيها الجبهة الجمهورية • انه الرجل الذى يتمتع بسياسة معينة وبالغالبية التى ستنطلق ثم تنتحر سياسيا يوم ١٣ مايو ١٩٥٨ وهو اليوم الذىاعتقدت فيه أنها قد انتصرت• هل يساوى الرجل أكثر من ذلك ؟ وهل هضم هذا الرجل ما قاله بشيء من الفخر وهو على علم تام بما يقول ؟ اننا نعترف بأن له رأيا وأنه كان واعيا لما يقول حتى النهاية ، ولكن الحرب أمر يختلف اختـلافا تاما • ومع ذلك ففى ذلك الوقت لم يكن أى رئيس فرنسى للوزراء ليستطيع أن ينتهج سياسية أخرى •

هل يقبل المشروع الامريكى الخاص بجمعية المنتفعين ؟ لقد قبله الانجليز للمحافظة على العلاقات الخاصة ، أما الفرنسيين فقد قبلوه على مضض لأنهم كانوا يشعرون بأنه لم يكن فى وسعهم فى ذلك الحين القيام بأى عمل بدون الانجليز • ومع ذلك فلم يكن العرض الذى تقدم به دالاس بمثل هذه البساطة • وقد أضاف اليه عرضا آخر هو القيام بضغط اقتصادى ضد مصر ـ وبصفة أساسية ـ بأن يجعل حاملات البترول تتفادى المرور فى القنـاة على أساس أنهـا تشكل أكبر نسبة فى السفن التى تعبر القناة ، فاذا ما جعلنا نصف بترول الشرق الاوسـط الذى يعبر القناة يغير طريقه ، واذا ما قمنا بشراء باقى البترول اللازم من خليج المكسيك والبحر الكاريبى ، فاننا نفرض بذلك حصارا على القناة مما قد يجعل عبد الناصر يعيد التفكير فى هذا الامر • ويبدو أن هذا الاقتراح كان وجيها لانه كان يعنى أنه لا الانجلبز ولا الفرنسيون سيدفعون رسوم المرور فى القناة لناصر ، وكان يعنى أيضا أن الانجليز والفرنسيين سيغيرون كل النظام الذى كانوا يتبعونه بشأن البترول ، وذلك لحرمان ناصر من ايرادات القناة برغم أن منح ناصر قرضا بالدولارات قد يجعله يتغلب على هذه العقبة ، وهذا يعنى تخفيض مشترياتهم من البترول بالاسترلينى وبالفرنك وحرمان حلفائهم فى الشرق الاوسط من الايرادات المقابلة لها والاكتفاء بدفع مشترياتهم البترولية بالدولار •

ويبدو أن ايدن لم يفهم السبب الذى دفع دالاس الى الاقتراح المفاجىء باجراء هذا التخفيض الارادى فى حركة المرور عبر القناة • وعلى كل حال فهو لم يتحدث عن ذلك مطلقا ، ولكن كان من الواضح أنه اذا اتبع الانجليز والفرنسيون نصائحه وقاموا بتغيير خط سير حـاملات البترول التابعـة لهم ـ كمـا كان الامريكيون يقترحون ـ فلا يصعب على ناصر ادارة القناة حتى بعدد المرشدين المحدود الذى سيتبقى له بعد رحيل الموظفين المخلصين للشركة العالميه • وقد أخـذت الادارة الامريكية تطبق العلم على العمل ، اذ أنها بعد وقت قليل اتخذت اجراءاتها لتغيير خط سير العـدد الاكبر من السفن الامريكية التى كانت تمر فى القناة بما فيها ـ هذه المرة ـ تلك السـفن التى يملكها هؤلاء المواطنون الاحرار الذين كان من مصلحتهم أن تحمل سفنهم أعلام دول أخرى •

وبخلاف القرار الذى كان يقضى بقبول المشروع الامريكى الخاص بجمعية المنتفعين بقناة السويس تمخضت المحادثات الفرنسية البريطانية عن نتيجتين خطيرتين : لقد تقرر سحب المرشدين الذين ظلوا مخلصين للشركة ، كما اتخذت بصفة خاصة قرارات باجراءات عسكرية خطيرة للغاية !

مسألة المرشدين :

فى اليوم الذى أمم فيه ناصر القناة أى يوم ٢٦ من يوليو١٩٥٦ كانت شركة القناة تستخدم فى مصر ٩١٠ من الموظفين ــ اداريين ومرشدين ومهندسين ــ من بينهم ٥٢٥ من غير المصريين بالاضافة الى ٤٢٠٠ عامل بينهم ٩٥٠ من غير المصريين ومنهم ٨٥٠ من اليونانيين • وكانت الشركة تستخدم ٢٠٦ من المرشدين بينهم ٦١ بريطانيا و ٥٣ فرنسيا و ٤٠ مصريا و ١٤ هولنديا و ١١ نرويجيا و ١٣ يونانيا و ٣ دانمركيين و ٢ من الايطاليين و ٢ من الولايات المتحدة و ٢ من البلجيكيين و ٢ من السويديين وأسبانى واحد ويوغوسلافى واحد وبولندى واحد وكان ستون منهم فى أجازة ، ولم يكن معظمهم قد عاد الى عمله •

وكانت شركة القناة تريد سحب مرشديها وموظفيها فورا • ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية طلبتا منها الابقاء عليهم وتسهيل المرور عبر القناة الى أقصى حد حتى الوقت الذى تجدان من المناسب فيه اعادة حركة المرور فيها • وفى بداية أغسطس رفعت الشركة مرتبات مرشديها ، ثم طلبت منهم التوقيع على بيان يعلنون فيه رغبتهم فى العودة الى أوطانهم بأسرع ما يمكن ، أى بيان يجعلهم يدمرون علاقاتهم بالنظام المصرى• وكانوا يتوقعون أن ثلثى المرشدين والموظفين سيهجرون وظائفهم حينما تطلب منهم الشركة ذلك، واتضح أن تقديرهم كان صحيحا • كما كانوا يقدرون أن ناصر لن يستطيع ضمان المرور فى القناة بواسطة السبعين مرشدا الذين يستمرون فى العمل ، وتبين أن هذا التقدير كان خاطئا • كانوا يتعللون بأوهام كثيرة فى أوروبا ولا سيما فى فرنسا بالنسبة لهذا الموضوع ، ولم تكف الصحف الفرنسية عن التأكيد بأنه لا يمكن ايجاد بديل

لهؤلاء الرجال الذين هم على مثل هذه الدرجة العاليـة من الـكفاءة • ان المرشد المسموح له بقيادة السفن الكبيرة هو الرجل الذى قاد سفنا فى البحار ، ثم أجرى تدريبا لمدة سنتين فى خليج بور سعيد، ثم عمل بعد ذلك فى القناة لمدة عشر سنوات قائدا للسفن ذات الحمولة الخفيفة قبل أن يسمح له بقيـادة السفن الـكبيرة فى القناة وقد كشـف الصحفى جان فران × الطريقة التى كانوا يتصورون بهـا مسألة المرشدين • سيؤدى رحيل المرشدين الى اغلاق قناة السويس بطريقة شبه نهائية ، ففى اليوم الذى سيتوقف فيه سير العمل فى القناة تستطيع الاساطيل الفرنسية البريطانية الانقضاض على الدلتا ، وسـيكون الفرنسيون والانجليز حينئذ فى حالة الدفاع الشرعى عن أنفسهم •

ولكن أسفا ، فقد قضى دالاس يوم ٧ سبتمبر على كل أمل فى تنفيذ عملية سحب المرشدين، ولعلهم استطاعوا التعلل بهافيما بعد• ولكن نظرا لانهم اضطروا الى قبول فكرة جمعية المنتفعين بالقناة – وهى التى تقضى بأن تستخدم جمعيـة المنتفعين مرشدى الشركة العالمية – فيجب اذن اما صرف النظر عن كل أمل فى هذه الناحية ونقل هؤلاء المرشدين الى جمعية المنتفعين ، واما ترحيلهم على الفور ، ومن ثم يمكنهم أن يتحققوا مما اذا كانت هذه العلة صالحة أو غير صالحة •

لقد كان يوم ٢٦ سبتمبر هو التاريخ التالى الذى تحدد للقيام فيه بالهجوم الفرنسى البريطانى • يجب أن يصدر أمر الزحف مساء ١٦ من سبتمبر ، ولذلك تقرر تأجيل تنفيذ التعليمات التى سبق أن صـدرت الى المرشـدين الذين ظلوا مخلصين للشركة فقضت عليهم بترك عملهم يوم ١٥ سبتمبر •

ومنذ أن طالبت الشركة مرشديها بنوع من يمين الولاء لها – أى منذ الاسبوع الثانى من أغسطس – اهتم ناصر بجمع أكبر عدد ممكن من المرشدين الاحتياطيين الذين يستطيعون أن يتلاءموا بسرعة كبيرة مع الظروف الخاصـة للغاية المتعلقة بالملاحة فى قناة السويس • وكان الذين يستطيعون أن يتلاءموا بهذه الكيفيـة مرشدى قناة كييل فى ألمانيا الاتحادية • ان القناتين تتساويان لدرجة كبيرة فى

× جان فران فى صحيفة بارى – ماتش بتاريخ ٨ سبتمبر ١٩٥٦

مساحتهما الداخلية ، والعرض الصالح للملاحة والعمق المناسب متشابهان جدا في القناتين بالاضافة الى مزيد من الصعوبة في الملاحة في قناة كييل • وقد عرض على هؤلاء الرجال كميات من الذهب تبلغ ستة أضعاف أو ثمانية أضعاف ما يتقاضونه من أجور في ألمانيا • وبذلت دعاية كبيرة بشأن احتمال تعيينهم ، ولكن يبدو أن هذه الاغراءات لم تؤت ثمرها ، فمن بين المرشدين الذين ساهموا فعلا في حركة المرور يومي ١٥ و ١٦ سبتمبر لم يكن هناك سوى مرشد ألماني واحد •

وفي ١٠ سبتمبر أعلنت مصر أنها عينت ٥٣ مرشدا جديدا اعتبارا من آخر يولية • منهم ٤٧ مصريا وخمسة من اليونان وايطالي واحد ونرويجي واحد ، وسويدي واحد وألماني واحد • وفي صباح يوم ١٦ سبتمبر وصل ١٥ مرشدا روسيا الى بورسعيد في الوقت المناسب لكي يظهروا بمظهر من ينقذ الموقف •

وقد رحل المرشدون الفرنسيون والبريطانيون وتركوا المصريون يصورونهم وهم يرتبون أمتعتهم • أما المرشدون الآخرون ـ الذين ظلوا في خدمة مصر ـ فقد أخذوا يضاعفون عدد نوباتهم ويعملون ليل نهار لمدة ثلاثة أيام • ولحسن الحظ كانت حركة المرور أضعف مما كان منتظرا ، اذ غيرت سفن كثيرة خط سيرها واتجهت نحو طريق رأس الرجاء الصالح لكي تتجنب الاحداث والصعود المفاجيء في معدلات تأمين شركة اللويد • أما البعض الآخر فقد فعل ذلك بناء على طلب حكوماته ، ولم تكن الشركات الانجليزية هي الاخيرة في اتخاذ هذا القرار ، فقد غيرت شركتا بننسيولار وأورينتال لاين خط سير سفنهما ، وبذلك انخفضت حركة المرور بنسبة ٢٥٪ وعبرت القناة مساء ١٦ سبتمبر ٤٢ سفينة وكسبت مصر بذلك معركة المرشدين • وفي هذا المساء لم يصدر أمر الرحيل للهجوم الذي كان متوقعا ، وكانوا يتكلمون في ذلك الوقت عن تأجيل الهجوم الى يوم أول أكتوبر أو الى يوم ٦ من أكتوبر ، ولكن كانت هناك بعض مشكلات أكثر خطورة ظهرت فجأة •

بدون أمريكا :

لقد بدا للفرنسيين والانجليز أن دالاس لن يتركهم لكى يسووا وحدهم المشكلة عسكريا ، وأن وزارة الخارجية الامريكية التى دأبت على اختراع أسباب منع الحرب ستعدل اذا تدخل ظرف خارجي يضع للحلفاء الثلاثة وهم ، فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية ـ أمام الامر الواقع بحيث يضطرون الى التدخل معا أو يتدخل اثنان فقط بالاتفاق مع الثالث ٠

ولذلك يجب أن يكون هناك شرط أساسى هو أن يظهر هذا الظرف الخارجى وكان القدر هو الذى فرضه ، وألا يبدو فى أى وقت من الاوقات أن فرنسا أو بريطانيا العظمى بصفة خاصة قد دفعت عجلة القدر ٠ ويجب أن يكون هذا الظرف حادثا يقع من ثالث ، ويهدد المصالح الفرنسية البريطانية فى منطقة القناة تهديدا مباشرا ٠ وقد كان يمكن أن تكون الحجة عدم مقدرة ناصر على تشغيل حركة المرور فى القناة يوم رحيل مرشدى الشركة العالمية ، الا أن الحجة فشلت لأن الانجليز والفرنسيين لم يرغبوا فى التظاهر بمظهر من يرغب فى تنظيم تزاحم السفن فى القناة وذلك بالتضحية بعدد كبير من السفن ، وهى تضحية ضئيلة اذا ما قارناها بالمسألة فى جملتها ٠

أما الحل الثانى فكان يمكن ايجاده فى الصورة القديمة التى رأيناها تنفذ قبل الحرب ، وهى الاستفزاز ، تظهر بعض الاضطرابات فى مكان ما وبتدخل بلد ما (وبصفة عامة يتدخل البلد الذى نظم هذه الاضطرابات سرا) لاعادة النظام ٠ وكانت الحالة موجودة فى مكان ما لا يبعد كثيرا عن القناة ، وهى النزاع الاسرائيلى العربى الذى ظل فى حالة مستترة متجددة دائما تحت تصرف الشياطين الذين يرغبون فى اذكاء النار ٠ ولم يكن هذا النزاع يمس منطقة القناة وحدها وانما كان يشتعل كثيرا فى منطقة تبعد عنها كثيرا من ناحية الشرق وتشغل منذ زمن طويل سجلات الامم المتحدة بشكل مستمر حاولت بين حين وحين تسويتها دون أن تنجح أبدا فى ذلك ٠

وحتى يكون هذا النزاع ذريعة تستدعى التدخل يجب أن ينتقل غربا الى القناة نفسها ٠ وحينئذ فقط تستطيع بريطانيا التدخل كوسيط وليس كحليف لاسرائيل ٠ ان هذا الشرط الاساسى هو الذى يفسر هذه الخطة المعقدة التى رسمت بسرعة بين ٨ و ١٤ سبتمبر ١٩٥٦ والتى سيهز خبراء الحرب رءوسهم طويلا حين يتدارسونها بعد ذلك ٠ وهذا ما يفسر هذه المرحلة السيكولوجية التى يريد بعض هواة المنطق الدقيق أن يبرروا بها بطء النقل بين مالطة وبورسعيد فى حين لم يكن هذا البطء يهمهم كثيرا حين أعدوا الخطة الاولى « موسكيتير » ٠

الخطة « موسكيتير المعدلة » :

منذ صدر الامر بوقف الخطة « موسكيتير » ــ فى ١٨ أغسطس وهى تهدف الى الهجوم على الاسكندرية ــ أخذت هيئات أركان الحرب تعد خطة جديدة سيطلق عليها اسم « موسكيتير المعدلة » وذلك لتسرب معلومات الخطة الاولى الى ناصر ٠ ولكن لم يقدر لهذه الخطة أن تعيش غير أربعة أيام لكى تحل محلها خطة جديدة قريبة منها سميت « خطة موسكيتير المعدلة النهائية » وسيظل يطلق عليها اسم « موسكيتير المعدلة » وذلك حين يتقرر الغاء الخطة « موسكيتير المعدلة » الاولى ٠ هل هو غموض ؟ انه كذلك فى الظاهر فقط ، ولذلك يجب التوضيح ٠

لقد بدأوا فى اعداد الخطة الاولى « موسكيتير المعدلة » التى يرجع تاريخها الى ١٤ سبتمبر بعد العدول عن العملية المباشرة التى كانت تهدف الى الهجوم على الاسكندرية ، أى أنهم بدأوا فى اعدادها فى نحو يوم ٨ سبتمبر ٠ وقد أدخلت على هذه الخطة العناصر الاساسية للخطة « موسكيتير » التى أعدت يوم ١٨ آغسطس ، واكتفوا باضافة بعض التدابير فيما يتعلق بالهجوم على بورسعيد ٠ وقد تقرر فى ذلك الحين اعداد مرحلة سيكولوجية تمتد من ثمانية أيام الى عشرة تهدف رسميا الى « تحطيم ارادة القتال لدى المصريين » ولكن كان المقصود منها فى الحقيقة نقل منطقة المعارك الى جوار القناة بعد الاستيلاء على ما كان يسميه الجنرال جازان « ساق الزهرة » أى بعد استيلاء الاسرائيليين على سيناء ٠ ثم بعد

ذلك « الخطة أ » وهى التى تتم فى حالة ما اذا كانت المقاومة ضعيفة أو كانت لا تذكر و « خطة ب » التى تقضى بانزال الجنود واستخدام القوة اذا لم يتحسن الموقف أو تقرر أمر آخر » (لقد استخدمت الفاظ رقيقة فى هذا الشأن) أى بشكل واضح اذا صادف الاسرائيليون مقاومة أكثر مما هو متوقع ، ولم يستطيعوا الوصول الى مشارف القناة فى نهاية المهلة « السيكلوجية » • وقد تقرر بعد ذلك أن يستولى البريطانيون على بورسعيد والفرنسيون على بور فؤاد ثم يتم زحف مشترك نحو أبو صوير (من البريطانيين) ونحو الاسماعيلية والسويس (من الفرقة السابعة الفرنسية) فى حين تغطى الفرقة العاشرة وهى فرقة المظلات الفرنسية شرق القناة ويزحف البريطانيون من أبو صوير والفرنسيون من السويس نحو القاهرة • وكانت هذه الخطة متصلة بأمر تنفيذى صدر يوم « ى ـ ١٢ » وبداية هجوم تحدد يوم ٢٦ سبتمبر أى أن « ى ـ ١٢ » كان يتم يوم ١٤ سبتمبر •

وقبل أن تصدر هذه الاوامر أعطيت تعليمات جديدة يوم ١٢ سبتمبر تنص على تعديل « موسكيتير المعدلة » • وقد تقرر هذا بوضوح على أثر المحادثات الفرنسية البريطانية التى جرت يومى ١٠ و ١١ سبتمبر ونجم عنها « الخطة موسكيتير المعدلة النهائية » بتاريخ ١٨ سبتمبر التى تحدد على أثرها اليوم « ى » فى أول أكتوبر ثم فى ٨ أكتوبر • ولاحترام هذه التواريخ كان يجب اعطاء أمر التنفيذ يوم ٢٠ سبتمبر بالنسبة للحالة الاولى ويوم ٢٧ سبتمبر بالنسبة للحالة الثانية ، ويجب حفظ هذين التاريخين جيدا •

ومع ذلك فالخطتان ـ خطة ١٤ سبتمبر وخطة ١٨ سبتمبر ـ تتشابهان لدرجة كبيرة ، وليس هناك غير اختلافات طفيفة وتهدف هذه الاختلافات الطفيفة ـ التى تقررت فى خلال المحادثات الفرنسية البريطانية التى جرت يومى ١٠ و ١١ سبتمبر ـ الى القيام بهجوم على الاهداف التكتيكية الموجودة فى سيناء ، ومن جهة أخرى تنظيم محطة للنقل الجوى من قبرص ، وأسندت هذه المهمة الى الجناح ٢١٥ للسلاح الجوى الملكى البريطانى الذى أضيف اليه تسع طائرات ثقيلة من طراز هيستنج •

وفى الوقت نفسه أعطيت لقيادة السلاح الجوى الملكى الداخل فى نطاق قوات الهجوم السلطة العليا ، وهى سلطة مارشال الجو هادلستون الذى كانت المهمات الجديدة التى ألقيت على عاتق السلاح الجوى الملكى مبررا لتعيينه مع أنه لم يكن منتظرا ٠

وفى ٢٠ سبتمبر قام أبيل توماس مدير مكتب وزير الدفاع الوطنى الفرنسى والكولونيل مانجان من نفس المكتب بابلاغ هذه الخطة النهائية الى الاسرائيليين وقد توجها خصيصا الى تل أبيب لهذا الغرض ٠ وكان الاسرائيليون على علم سابق بأهم ما فى هذه الخطة ، ومنذ يوم ١٨ سبتمبر أخذ الجنرال ديان القائد الاعلى للجيش الاسرائيلى يعلن أنه يجب على الجيش الاسرائيلى أن يستعد للحرب ثم يحارب حتى بدون حلفاء اذا اقتضى الامر ذلك ٠

رد الفعل الأمريكى :

كانت الولايات المتحدة على علم تام بأكثر التحركات سرية من جانب الفرنسيين والبريطانيين ، وذلك لان أيزنهاور أشار منذ ١٢ سبتمبر فى مؤتمره الصحفى أنه ليس بالمعصوب العينين ٠ وفى ١٣ سبتمبر أدلى دالاس بتصريحه العنيف للغاية عن أزمة السويس ، وهو التصريح الذى قد يبدو غير مفهوم اذا لم تدخل فى حسابك الوجه الآخر من الموضوع ٠ لقد ظل أيزنهاور حذرا ثم اعترف فى النهاية بأنه اذا وجد نفسه أمام عدوان مصرى أيا كانت صورته فان الولايات المتحدة ستعلن أن بريطانيا العظمى وفرنسا ليس أمامهما من وسيلة أخرى غير استخدام القوة ٠

أما دالاس فقد كان واضحا وعنيفا فى مؤتمره الذى عقده يوم ١٣ سبتمبر حقا ٠ لقد رفض ايدن وهو يتحدث فى مجلس العموم أن يستبعد الالتجاء الى القوة بل أعلن على العكس من ذلك أنه يعتبر مشروع جمعية المنتفعين بالقناة ــ الذى توافق عليه بريطانيا العظمى ــ بمثابة وسيلة تسمح بالالتجاء الى القوة فى حالة

عدم اذعان ناصر لهذا الانذار النهائى الجديد ، وقد قال رئيس الوزراء « يجب على أن أوضح أنه اذا كانت الحكومة المصرية تحاول التدخل فى عمليات هذه الجمعية أو ترفض أن تمد لها يد التعاون فان هذه الحكومة تكون قد نقضت مرة أخرى اتفاقية ١٨٨٨ • وفى هذه الحالة ستتخذ حكومة جلالة الملكة والحكومات الاخرى المعنية الاجراءات التى تبدو لها مناسبة سواء كان ذلك عن طريق الامم المتحدة أو بوسائل أخرى وذلك لاثبات حقوقها × » •

وحينما طولب أيدن بشرح عبارة « باستخدام وسائل أخرى » رفض ذلك وقال ان الدول الثلاث قد اختارت هذه الكلمات عمدا ، وبذلك دعا الجميع الى أن يظنوا أنه قد حصل على موافقة الولايات المتحدة على « هذه الوسائل الاخرى » أى الموافقة على الالتجاء الى استخدام القوة •

وقد حصل ايدن على غالبيته المنتظرة ولكن فوستر دالاس المغرور بادر منذ اليوم التالى الى تكذيب ايدن ، وفى بيانه الصحفى الذى عقده يوم ١٣ سبتمبر أخذ يشرح باسهاب مفهوم مشروع جمعية المنتفعين بالقناة ، وكشف فى مجرى حديثه أن وزارة الخارجية - أى أنه هو نفسه - لا يريد أن يعيد شرح مفهوم هذا المشروع قائلا : لقد بذل جهد كبير فى سبيل اعداده فى واشنطن ولكن وزارة الخارجية بالذات لم تفعل شيئا ، ونظرا لأنه من غير المحتمل أن تكون هيئة أركان الحرب الامريكية هى التى عنيت بمسألة المنتفعين بالقناة فان هذا يحملنا على الاعتقاد بأن الذى قام مباشرة باعداد هذا المشروع هو البيت الابيض ذاته •

وانتقل دالاس بعد ذلك الى التحذيرات فقال انه لم يكن قط فى نيتنا أن نمهد لأنفسنا طريقا بواسطة المدافع • وقد يكون لنا الحق فى عمل ذلك ولكننا لا ننوى القيام به ، وهذا هو الموقف بالنسبة للولايات المتحدة • فاذا أغلقت القناة بالقوة فسنرسل سفننا عن طريق الكاب (رأس الرجاء الصالح) •

وكان يستهدف بتصريحه العنيف هذا - كما أوضح دالاس نفسه فيما بعد - أن يبرد أسنان جمعية المنتفعين • وكانت صدمة عنيفة لايدن ، وقد

× السير انطونى ايدن ، الكتاب السابق ذكره ، المجلد الثانى ص ٥٤١ •

شرح ذلك فيما بعد قائلا « هذه الكلمات كانت بمثابة نصيحة مقدمة الى ناصر بأنه يستطيع رفض المشروع دون أن يخشى أى عقاب • أنهم لم يقولوا لنا أن مثل هذا التصريح سيصحب اعلان انشاء نادى المنتفعين • اذا كنا نعلم أن الامريكان سيستخدمون هذا التصريح ليقترن بالاعلان لما كنا قد وافقنا عليه • أما نحن فقد كنا نعتمد على أن المصريين لن يستطيعوا الافلات بهذه السهولة بعد أن رفضوا الاقتراحات المعقولة التى قدمتها الدول الثمانى عشرة •

« أما بالنسبة للناس فقد استنتجوا من الكلمات التى استمعوا اليها أن المصريين لن يخشوا شيئا مهما يحدث • لقد كان نادى المنتفعين مشروعا أمريكيا وقد قبلناه مرغمين ، كما أننا اتفقنا نحن الدول الثلاث حتى على نصوص الاعلان• وها هو ذا الناطق بلسان الولايات المتحدة يقول الآن أن على كل دولة أن تقرر ما تشاء لنفسها ، ويعلن أنه لا يستطيع أن يتذكر ما أعلنه الناطق بلسان أحد الحلفاء الاساسيين •

« وكانت مثل هذه الوقاحة تجاه الحلفاء كفيلة بتحطيم أية رابطة حقيقية • فهى لا تدع مجالا للاختيار الا بين الانفصال وقبول علاقة التابع للسيد فى ميدان السياسة الخارجية × » •

اننا نفهم جيدا رد الفعل السىء لدى رئيس الوزراء البريطانى بقدر ما يبدو أنه كان يعتقد أن دالاس قد دبر من قبل هذا التصريح ، وهذا يبدو صعب التصديق لان المسألة تصبح فى هذه الحالة نوعا من الغدر • انك أن تدفع حليفا الى الالتزام علنا بميثاق ثم تضفى عليه بعد ذلك معنى يختلف عن المعنى الذى كان يتضمنه فى وقت الاتفاق ، فذلك يعد العلاقات القائمة وقد فسدت هذه العلاقات بين حلفاء شمالى الاطلنطى بطريقة خطيرة، ويبدو أن هذه لم تكن رغبة فوستر دالاس على الاطلاق •

× السير أنطونى ايدن ، الكتاب السابق ذكره • المجلد الثانى ص ٥٤٣ .

ماذا حدث اذن من جديد فى الفترة التى تقع بين الوقت الذى اتفق فيه دالاس وايدن تليفونيا على مبدأ انشاء جمعية المنتفعين وبين هذا المؤتمر الصحفى الذى عقده دالاس ؟ ماذا حدث ليدعو وزير الخارجية الى التصريح بأنه يرفض أن يعد لنفسه طريقا بقوة المدافع ؟ نعم • لقد اتخذ الفرنسيون والانجليز قرارهم بناء على « الخطة موسكيتير المعدلة النهائية » بأن يمروا بالقوة فى أول أكتوبر من ناحية المبدأ ، وربما أحيط دالاس علما بذلك وبسرعة فائقة • واننا لنعلم الآن عن طريق المذكرات التى نشرها شقيقه الن دالاس الذى كان فى ذلك الحين يشغل منصب مدير قلم المخابرات المركزى الامريكى أن الامريكان كانوا يتتبعون عن كثب الاستعدادات الفرنسية الانجليزية بالنسبة لحملة السويس بجميع تفاصيلها •

وقد ألقى دالاس بنفسه فى الماء مرة أخرى ليعلن استنكاره لهذه المغامرة الجديدة وليقترح هذه الخدعة الهزيلة الخاصة بانشاء جمعية المنتفعين بقصد وقف اليد المنتفعة التى يريد أن يرفعها الفرنسيون والانجليز • وعلى كل حال فهو قد يعتقد أيضا أن مجرد اخفاء أمور بمثل هذا القدر من الخطورة على حليف يدعون أنهم يتمسكون به بشدة ـ نظرا لأن هذه الامور تعرض سلام العالم للخطر ـ يعتبر نوعا من النفاق كما أنه يعتقد أن مثل هذه الوقاحة نحو الحلفاء جديرة بأن تحطم أية رابطة حقيقيه •

ولم يكن لهذه اللجان من القوىغير تأثير وقتى للغاية•أما ايدن فقد اعتبر أن التحالف قد اهتز ، وكتب فيما بعد قائلا « لم يكن لنسف الأمريكيين لمشروعهم ذاته فى آليوم نفسه الذى أعلنوه فيه غير مخرج واحد هو استخدام القوة أو الاذعان لانتصار ناصر » •

وكان يبدو للحكومتين الفرنسية والانجليزية أن استخدام القوة هو الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون فوز ناصر •

الفصل الحادى عشر

المماطلة

لقد قضى على جميع الحجج وجميع الاعذار • أما حجة انسحاب المرشدين فقد عاشت حتى مساء يوم ١٦ سبتمبر وذلك حين تم مرور ٤٢ سفينة بنجاح عبر القناة وبقيادة مرشدين موالين للشركة المصرية الجديدة ، وأما حجة الزام جميع السفن بدفع رسوم المرور الى هيئة المنتفعين فقد كال لها دالاس الضربات وسيقضى عليها فى الايام القليلة القادمة •

وعلى هذا النحو زالت جميع المخاطر • لم يعد نهرو يرسل لايزنهاور رسائل تنم عن القلق • وستعيد شركة لويد قريبا الى معدلها العادى تعريفات التأمين بالنسبة للسفن التى تعبر القناة والتى دفعتها أزمة المرشدين الى زيادتها ، واستمر عبد الناصر فى تحاشى جميع الاستفزازات بكل عناية آخذا حذره من جميع الاخطاء • وفى اسرائيل ذاتها أخذ بن جوريون يعلن أنه ما دام فى الحكم فان اسرائيل لن تغامر بخوض حرب عدوانية •

آخر ورقة فى يد الشركة :

أما بالنسبة للشركة العالمية فقد كان مستقبلها يبدو مظلما ، فان تشكيل جمعية المنتفعين ـ وهى التى ستعتمدها دول كثيرة ـ يؤدى الى قرار جهاز منافى لها يستمد حقوقه من اتفاق دولى ، بل انه أكثر من ذلك منبثق من اتفاق وقعت

عليه أهم الدول الغربية • ولذلك فقد أسرعت الشركة بابلاغ الدوائر التى يعنيها الامر بالمذكرة التى سبق أن أشرنا اليها، وذلك فى تاريخ ١٧ سبتمبر • وتستهدف المذكرة اعادة تأكيد حقوق الشركة تجاه جمعية المنتفعين الجديدة • وتقول الشركة فيها « لن تجد الهيئة الجديدة تجاه الشركة صاحبة الامتيازات أى تبرير قانونى لتحصيل رسوم المرور » •

ولم تشأ الشركة العالمية هنا أن تذكر الناس بحقوقها التى خولتها لها الفرمانات وسبق أن وافق عليها الخديو ، بل ذكرتهم بكفاءاتها الفنية التى لا تستطيع جمعية المنتفعين أن تستغنى عنها على الاقل فى مراحلها الاولى • ان ما تتمناه هو أن ينسى الجميع هذا الحادث الصغير الذى وقع فى نهاية شهر أغسطس فى الوقت الذى كانت تعد فيه الشركة ـ بالاتفاق مع كريستيان بينو ـ عملية سحب المرشدين فى التاريخ الملائم لتبرير الحملة الفرنسية البريطانية • وفى بداية سبتمبر ، نشرت الجريدة اليومية الباريسية « لبيبرا سيون » صورة فوتوغرافية للشيك الذى تبلغ قيمته مائة ألف فرنك × الذى تسلمته من الشركة العالمية لقناة السويس ثم أخذت تتساءل عما اذا ما كانت صحف أخرى قد تمتعت مثلها بهدايا الشركة • وقد اتضح بسرعة أن معظم الصحف اليومية الباريسية تلقت شيكات ما عدا الصحيفة اليومية الشيوعية « لومانيتيه » بل أن بعضها لم يتسرع فى اعادة الشيكات ، بل ربما صرف بعضها قيمته •

وفى الحقيقة لم يكن لهذه المسألة أى أثر ، وقد أوضحت الشركة أنها طريقة لطيفة عادية بالنسبة للصحف الباريسية التى تنشر محاضر الجمعيات العمومية التى تعقدها الشركات وتتلقى على ذلك شيكات كأجور للدعاية • ولم تكن هذه الطريقة ـ الموروثة منذ عهد شركة بناما ـ تتسم بالكياسة فضلا عن أنه لم يراعى فيها اختيار الوقت المناسب • فاذا كانت الشركة ترغب فى شراء ذمة الصحف فما الذى يدفعها الى ذلك فى حين أن جميع الصحف تقريبا تدافع عنها بطيب

× أنها طبعا فرنكات سنة ١٩٥٦ وهذا المبلغ يعادل الف فرنك من فرنكات اليوم (المترجم)

خاطر ، وكان فى استطاعتها أن تنشر صفحات كاملة ـ بالسعر الكامل ـ لشرح وجهة نظرها ؟ وقد نسى هـذا الحادث الصغير الذى يدعو الى السخرية نسيانا سريعا ٠

أما فى منتصف سبتمبر فقـد كانت المسألة خطيرة ولم يكن من المستطاع تسويتها بارسال شيكات قيمتها مائة ألف فرنك بسعر هـذا الوقت الى كبار رجال الحكومة ٠ ان كل ما كانت تستطيع الشركة عمله هو أن تلجأ الى مهارة القادة الفرنسيين والى حسن نوايا الحكومة البريطانية ٠

مؤتمر لندن الثانى :

ماذا كان موقف الحكومتين الفرنسية والانجليزية ؟ يتلخص هذا الموقف فى أن ترسل الحكومتان من جديد وفديهما ـ يوم ١٩ سبتمبر ـ الى هذه القاعة الزرقاء نفسها فى لانكاستر هاوس بلندن حيث عقد فى شـهر أغسطس مؤتمر الاثنين والعشرين دولة لمقابلة وفود تلك الدول التى ستشترك فى انشاء جمعية المنتفعين بالقناة ٠

كان فوستر دالاس قد وصل طبعا فى الليلة السابقة واجتمع فور وصوله بالمندوبين البريطانيين ٠ وقد ساد هذا الاجتماع بعض الضيق لأنّ دالاس كان قد أدلى بتصريح فى غير الموقف الملائم قبل مغادرته واشنطن مباشرة ، فحطم به الآمال التى كان الفرنسـيون والبريطانيون قد عقـدوها على جمعيـة المنتفعين الجديدة ٠

ماذا تبقى اذن من أمل فى سياسة مشتركة بين الحلفاء الثلاثة ؟

كانت المباحثات تدور حول نقطة واحـدة تبدو صغيرة فى مظهرها وهى : هل سيكون تسديد رسوم المرور الى جمعية المنتفعين اجباريا أو اختياريا ؟ كان الانجليز والفرنسيون متفقين على أن يكون تسديد رسوم المرور لجمعية المنتفعين

بصفة اجبارية ، وفى هذه الحالة سيحرم ناصر من معظم الرسوم ، وكان ايدن يقول « كانت مسألة رفض تسديد الرسوم الى مصر ، هى السلاح الوحيد الأكيد ـ خلاف سلاح استخدام القوة ـ الذى كنا نستطيع استخدامه للتغلب على ناصر ، واذا لم نستخدمه فعلا فقد يرى العالم بوضوح أن ناصر قد نجح فى ضربته » •

ومع ذلك فقبل أن يغادر دالاس واشنطن أراد أن يرتبط بتعهد اذ صرح أنه لا يذهب الى لندن لتنظيم عملية مقاطعة القناة بل لوضع خطة بديلة • وقد أصر بصفة خاصة على تسجيل أنه لن يحاول فرض حل ما على ناصر ، مصرحا ضمنا بأن ما سيبحث عنه هو حل قد يكون مقبولا بالنسبة لناصر ، أى أنه حل يصلح لان يكون موضع مفاوضة • وبالمصادفة أعلن الرئيس ناصر فى اليوم التالى فى خلال حديث صحفى له مع الوكالة التشيكية للانباء « تشيتيكا » أنه من الممكن قبول حل مرض •

وحتى اذا كان قد تبقى لدى الفرنسيين والبريطانيين بعض الاوهام قبيل الاجتماع الاول فقد ألقى دالاس على الاجتماع ماء مثلجا منذ بدايته ، اذ صرح قائلا « ليس معنى تمتع أى عضو بحق الانضمام الى جمعية المنتفعين أن تفرض عليه أى التزام ، ومع ذلك فاننا نأمل أن يتصرف أعضاء هذه الجمعية بمحض ارادتهم بالنسبة للأمور الخاصة بسفنهم ويعملون على تسديد رسوم القناة بما يكفل تسهيل عمل الجمعية لدعم مكانتها وسلطتها ، وبالتالى تحقيق الفائدة المرجوة من وجودها » •

لا سبيل اذن الى أى الزام ، وكلما تقدمت أعمال المؤتمر كان يقضى رويدا رويدا على كل ما من شأنه اعطاء أية فرصة لجمعية المنتفعين فى كسب احترام الغير • وأخيرا توصلوا الى صياغة نص يحدد هدف المنتفعين بالقناة بالنسبة لمسألة الرسوم ، وهو استلام وحفظ ودفع الايرادات المتحصلة من الرسوم أو أى مبالغ أخرى يمكن أن يدفعها الى الجمعية أى منتفع بالقناة دون أن يؤثر ذلك على الحقوق القائمة الى أن تتم التسوية النهائية • ويستطيع المنتفع أن يدفع الرسوم الى الجمعية ، ولكن ليس هناك ما يلزمه بذلك ، كما أن كلمة « دفع » الايرادات

معناها أن الهيئة يمكنها اقتسام الايرادات مع مصر اذا ما أرادت ذلك • وقد أشار الوفد الامريكي شفويا الى أنه سيعمل على التدخل للحيلولة دون تسديد المدفوعات الى مصر ، ومع ذلك فحينما سئل عما اذا كان سيلزم أصحاب السفن الامريكيين الذين يسددون الآن مدفوعاتهم الى مصر بتسديدها من الآن الى جمعية المنتفعين، أجاب بأنه لا يملك أية سلطة تسمح له بذلك •

ومعنى ذلك أن المؤتمر قد انتهى فى جو من الغموض التام ، واتفق على أن تبدأ الجمعية عملها فى بداية شهر أكتوبر فى لندن ولكن أحدا لم يحـدد بوضوح سلطاتها • ولذلك اعتقد الفرنسيون والانجليز أن فهم الامريكيين لوظيفة جمعية المنتفعين يتطور بسرعة نحو نقطة ستكتفى فيها الجمعية بتنظيم المدفوعات لحساب ناصر • وفى حين أخذ هذا التطور يتضح ويتحـدد قدمت بعض الاقتراحات من الجانب الهندى تهدف الى اعادة فكرة المفاوضة ، فاستبعدها ايدن مذكرا بأن لجنة الخمسة التى كان يرأسها منزيس قد قدمت الى القاهرة اقتراحات مناسبة ورفضها ناصر • وهذا فقدان عجيب للذاكرة ، لان اقتراحات لجنة منزيس قد قدمت على شكل انذار نهائى ولم يكن لدى اللجنة أى تفويض أو سلطة للتفاوض• ألم يرفض ايدن وموليه جميع أشكال المفاوضة ؟ ألم يقل ايدن لا نستطيع أن نتفاوض مع رجل لا يتمسك بما تعهد به ؟ ألم يصرح جى موليه قائلا « سندفعه بالقوة الى قبول قراراتنا ؟ » وعلاوة على ذلك ألم يصرح ايدن فى الوقت نفسه ـ الذى ادعى فيه أنه من أنصار التفاوض ـ انه لا يفهم مسألة المفاوضة الا اذا كانت تسمح له بالتغلب على ناصر ؟

أما ناصر ـ من جانبه ـ فقد ظل صامتا صمت الاموات ، ولم يحاول الوصول الى حل وسـط ، بل ترك الاحداث تسير فى مجراها • ولم يعد أحـد فى القاهرة يعتقد فى احتمال وقوع الحرب •

وفى باريس كان الامر يختلف اختلافا تاما، اذ أن الاوساط السياسية أخذت تتوجس خيفة مما كانوا يسمونه « ضعف » الحكومة ، وفى ١٩ سبتمبر قررت

اللجنة التنفيذية للحركة الجمهورية الشعبية ارسال وفد الى جى موليه للتحقق من أن أهدافه لا تزال هى التى كانت قائمة يوم ٣ أغسطس ٠

وفى ٢٠ سبتمبر أعلن مكتب الجمهوريين الاجتماعيين أنه يشعر بأشد المخاوف بالنسبة لتعثر اجتماعات لندن ٠ وأبدى الجميع قلقهم من الاجتماع الذى تم بين جى موليــه والرئيس التونسى الحبيب بورقيبة يوم ١٩ سبتمبر وأعلن على أثره الرئيس بورقيبة باقتناع كبير «أستطيع أن أؤكد لكم أن حرب السويس لن تقع» وفى ٢١ سبتمبر أعرب موريس شومان زعيم الحركة الجمهورية الشعبية لرئيس الوزراء عن معارضة حزبه لنظام جمعية المنتفعين ٠ وكانت أحزاب الاغلبية فى حالة من العصبية بحيث لو حدث أن فكر جى موليه وكريستيان بينو فى ذلك الوقت فى أقل احتمال للمفاوضة مع ناصر لقذف بهما فى الحال خارج الحكم !

مجلس الأمن :

لقد انتهى مؤتمر لندن فى جــو من الغموض ، الا أن الفرنسيين والانجليز خرجوا منه بقرار يتضمن أنه لن يبقى أمامهم غير أمرين : اما الاذعان واما العمل ، وكانت باريس تطالب بالعمل فورا ولكنها لم تكن تستطيع ولم تكن تحب القيام بأى عمل الا بالاشتراك مع بريطانيا العظمى ٠

وكانت لندن تريد استنفاد جميع امكانيات الحلول السلمية ، وكان الالتجاء الى الامم المتحدة يعتبر بالنسبة لايدن أمرا أساسيا لانه يسمح له بنزع ســلاح المعارضة العمــالية التى بنت موقفها على الالتجاء أولا الى الامم المتحــدة ٠ ومن توافق الامور أن الوفود الاجنبية ـ ولا ســيما وفود دول مثل ايران والنرويج ونيوزيلاندة والبرتغال التى يوجد فيها أصدقاء كثيرون لبريطانيا ـ أخذت تقوم بالضغط على حكومة جلالة الملكة لكى تلجأ الى مجلس الامن ٠ ان دالاس لا يفضل هذا الحل ، لأن الفيتو السوفييتى المتوقع سيجعل الولايات المتحــدة مضطرة الى الاختيار بين مساندة ناصر وبين التضامن الاطلنطى ٠

وكثيرا ما كرر دالاس ذلك لايدن، الا أن هذا وبينو أيضا تركا وزير الخارجية الامريكية يعود الى واشنطن لكى يفاجأ حين وصوله بأن فرنسا وبريطانيا قد أبلغتا مجلس الامن • وقد رفض دالاس الموافقة على الخطاب (المحرر يوم ٢٣ سبتمبر) الذى يطالب بادراج مشكلة السويس فى جدول أعمال مجلس الامن • الا أنه مع ذلك لم يقم بأى ضغط ضد عملية ادراج المسألة ، وهى العملية التى لم يكن يوافق عليها ربما لأنه علم بأنه تم تحديد يوم جديد للهجوم على مصر (ى) فى ٨ أكتوبر ويجب على أساس « الخطة موسكيتير المعدلة النهاية » أن يحدد القرار « ى — ١٢ » أى يوم ٢٦ سبتمبر • يحدد اذن تاريخ بدء المناقشة فى الامم المتحدة ثم المماطلة فى الاجراءات ، وهذه هى الحيلة الجديدة •

وفى ٢٦ سبتمبر كان ايدن ولويد فى باريس يتفاهمان ويتفقان مع شريكيهما الفرنسى ، وقد كتب ايدن فيما بعد يقول : « لقد اتفقنا مع الفرنسيين فى خلال اجتماعنا معهم فى باريس على ألا ندع قضيتنا تغرق أو توجه الى طريق مسدود فى الامم المتحدة • وكان الفرنسيون يشكون فى الامم المتحدة ويشكون أكثر من ذلك فى جمعية المنتفعين وكانوا يؤيدون فكرة القيام بعمل فى موعد قريب •

« وكنت أفهم فهما تاما وجهة نظرهم ، ولكنى كنت متأكدا أن علينا أولا أن نلجأ الى الامم المتحدة وأن نعمل بداخلها بقدر ما نستطيع • ومع ذلك فقد كررت أنا ووزير الخارجية البريطانية أنه فى حالة ما اذا اتضح عدم قدرة مجلس الامن على المحافظة على الاتفاقات الدولية فان بريطانيا العظمى لن تمتثل ولن تدع هذه العهود تداس تحت الاقدام ، وقد كنا مستعدين اذا لزم الامر لاتخاذ جميع الاجراءات المناسبة بما فيها استخدام القوة لاعادة الاحترام لهذه الالتزامات» × .

ان مايغفله ايدن فى كلامه هذا بالذات هو أن هذه الاجراءات المناسبة — بما فيها استخدام القوة — قد اتخذها الوزراء الاربعة ، فقد حددوا تاريخا جديدا للهجوم على مصر وهو يوم ٨ أكتوبر •

× السير انطونى ايدن ، الكتاب السابق ذكره • المجلد الثانى ص ٥٥٧ •

وقد علم دالاس فورا وهو فى واشنطون بنتيجة الدسائس الفرنسية البريطانية فانفجر غاضبا ، فهو من ناحية يقوم بالضغط لكى يقبل مجلس الامن ادراج الطلب الفرنسى البريطاني فى جدول أعماله ـ وقد أدرج هذا الطلب فورا بالاجماع ـ ومن ناحية أخرى يكرر فى مؤتمره الصحفى جملته المشهورة : « لن أدعهم يشقون لأنفسهم طريقا فى القناة بواسطة المدفع » •

أما جى موليه فلم تكن لديه أسرار يدلى بها الى أعضاء البرلمان ، الا أنه لا ينسى التزاماته تجاه حزبه • وقد جمع مجلس ادارة الحزب يوم ٢٧ سبتمبر ، وأحيط هذا المجلس علما بالنبأ الجديد وأسعده أن يلاحظ فى النهاية أن الحكومة قد استنفدت جميع الامكانيات السلمية •

وقد أعلن ايدن عقب عودته من لندن أن الحكومتين قد اتفقتا على القيام بعمل مشترك فى الامم المتحدة وتتضمن هذه الحملة جزءا من السرعة • ان موافقة ايدن على شن العمليات العسكرية كانت موافقة مشروطة ، ففى خلال الاثنىعشر يوما القادمة سنعلم ما ستقرره الأمم المتحدة ، فاذا وافقتعلىرأينا فسنعيد حينئذ قواتنا الى ثكناتها ، اما اذا حكمت بأننا على خطأ أو اذا أخذت تضيع بوضوح وقتنا سدى فاننا سنصدر أوامرنا تباعا وفقا لمقتضيات الامور •

وفى انتظار ذلك أخذت السفن تعيد تدريباتها • وقد لوحظ يوم ٢٨ سبتمبر فى مالطة أن سفنا كثيرة لانزال الجنود قد رحلت متجهة الى شرق البحر المتوسط تحرسها المدمرة « سودانيز » •

رسالة الماريشال بولجانين :

لدى عودة ايدن الى لندن وجد خطابا من الماريشال بولجانين ، وهو خطاب على شكل تحذير يتبين منه أن موسكو أيضا على علم بأشياء كثيرة • وفى حين يكثر زعماء المحافظين من تصريحاتهم المثيرة معلنين أنه لا يمكن أن يخرج ناصر

هكذا من هذا الموقف كان الرئيس العمالى هيو جيتسكيل ـ الذى كان على علم تام بأعمال وحركات خصومه المحافظين ـ يلقى أعنف بيانله عن مشكلة السويس مؤكدا أن بلاده قد وقفت مرات كثيرة خلال الاسابيع الاخيرة على حافة الهاوية ، وأن مواطنيه يشعرون بأن « قائدهم اما صبى ساذج واما سكير » ٠

واستمر ايدن يبحث يائسا عن المساندة الامريكية ، فأرسل الى أيزنهاور برقية بتاريخ أول أكتوبر قال فيها : « تستطيع أن تتأكد أننا ندرك ادراكا تاما وجود مخاطر شديدة فى الشرق الاوسط تتلخص فى كلمة واحدة : روسيا ٠ اننى واثق بأن كل ما تستطيعون قوله أو عمله لاظهار بعض الصلابة الآن بالنسبة لناصر سيساعد على اقرار السلام ويجعل الروس يتوقفون قليلا » ٠ لقد أرسل ايدن هذه الرسالة يوم أول أكتوبر وانتظر ـ بدون جدوى ـ اشارة التواطؤ التى قد تسمح له بالاستمرار فى مشروعه ٠ الا أنه لم يحصل على هذه الاشارة بل ربما كان جواب أيزنهاور الذى لم يتكلم عنه ايدن واضحا وضوحا تاما ، اذ أن ايدن حين تأكد أنه لا يتمتع بالمساندة الامريكية بدأ يلغى أمره السابق الخاص بالعملية الجارية ٠ وقد وضع أمله الاخير فى الفيتو الروسى المحتمل فى مجلس الامن لانه يعتقد أن ذلك سيضطر الامريكيين الى العودة الى حلفائهم الغربيين ٠

وفى انتظار ذلك ، أخذت السفن الصغيرة تعود مرة أخرى الى قواعدها وتلقى رؤساء هيئة أركان الحرب الامر باعداد « خطة للشتاء » من شأنها أن تخلف الخطة « موسكيتير » التى تنتهى مدة صلاحيتها فى تاريخ ٣١ أكتوبر ٠

وفى اليوم التالى ورد ما يؤكد الفيتو الامريكى على شكل مؤتمر صحفى عقده فوستر دالاس وشرح فيه الموقف الامريكى ، فقد صرح وزير الخارجية الامريكية قائلا : « لا نستطيع أن ننتظر من الولايات المتحدة الامريكية أن تشبه مائة فى المائة الدول الاستعمارية أو الدول التى لا يشغلها غير الرغبة فى الحصول على استقلالها بأسرع وقت ممكن وعلى أكمل وجه ممكن ٠ وانى أقر أن هناك اختلافا فى الموقف بين الدول الثلاث حول مسألة القناة ، وهى خلافات ربما كانت ناتجة عن مفاهيم اساسية للأمور » ٠

اننا حقا متضامنون ، وأعتقد أننا سنستمر على تضامننا هذا بالنسبة للعلاقات القائمة بيننا لحماية حلف شمال الاطلنطى ، أما بالنسبة للمجالات التى تمس بطريقة أو بأخرى المسألة التى يطلق عليها كلمة الاستعمار ففى هذه الحالة تجدون أن الولايات المتحدة تتخذ لنفسها طريقا خاصا وحدها • أما بالنسبة لجمعية المنتفعين التى عقدت أخيرا اجتماعها الاول فى لندن ، فقد أضاف دالاس : « اننا نفكر كثيرا فى برد أسنانها • وبقدر ما أعلم فانى لا أعتقد أن لها أسنانا »

وقد انتهز دالاس هذه الفرصة ليعيد ذكر أحد آرائه الاساسية حول سياسة الولايات المتحدة الامريكية فى البلاد المتخلفة ، انه يعتقد أن عملية الانتقال من الاستعمار الى الاستقلال ستستمر خمسين سنة • ان ما تأمله الولايات المتحدة الامريكية هو أن يتم هذا الانتقال بشكل تدريجى بحيث نتجنب الخوض فى عمليات ثورية •

لقد تحقق ايدن من الاوهام والاخطاء التى كان يسير فيها • بل تحقق مما هو أسوأ من ذلك ، فقد علم أن الوفد الامريكى فى الامم المتحدة يتفاوض فى الخفاء وفى الاروقة مع المندوب المصرى محمود فوزى ، ومع الوفد الهندى ، ويتم كل ذلك تحت رعاية السكرتير العام « داج همرشولد » ولم يستطع رئيس الوزراء ايدن أن يمنع نفسه من ابداء هذه الملاحظة وهى : اذا كان على الولايات المتحدة الامريكية أن تدافع عن حقوقها فى قناة بناما فهى قد لا تعتبر ذلك نوعا من الاستعمار !

مسألة البترول فى الأروقة :

وفى أروقة الامم المتحدة كانت هناك مفاوضات تجرى بكل جدية ، وقد تعمد الوفد المصرى أن يعلن أنه حضر وهو يحمل معه تعليمات باعداد خطة لتحسين القناة وأن الوفد يستطيع أن يخصص فى هذه العملية مكانا مرموقا لكبار رجال البترول وكبار أصحاب السفن الامريكيين وان ناصر لم يرسل وفدا كيفما اتفق،

بل ان الوفد كان يضم محمود فوزى وزير الخارجية والدكتور بهجت بدوى رئيس الهيئة المصرية لقناة السويس ويضم أيضا ـ وبصفة خاصة ـ قائد الجناح على صبرى • انهم مفوضون ذوو مكانة عالية ، وهم قادرون على الارتباط بالتزامات• واذا كانت الشائعات صحيحة فان مصر تعنى بذلك أن تقترح على الولايات المتحدة الامريكية أن تتقاسما معا ملكية القناة • وقد رددت النيويورك تايمز هذه الشائعات يوم ٤ أكتوبر ، وادعت هذه الصحيفة أن مديرى أكبر شركات البترول الامريكية أخذوا الآن يدرسون خطة مصرية تقضى باشراكهم بمبلغ قيمته مليار ونصف مليار من الدولارات موزعة على خمس عشرة سنة مقابل أن تسمح مصر بأن تشترك فى العملية هيئة خاصة تمثل المصالح البترولية ومصالح أصحاب السفن ، مع احتمال تحصيل رسوم المرور ضمانا لهم • وربما سمح لهذه الهيئة بأن تستولى على أنصبة الشركة العالمية القديمة باستثناء ٤٤٪ وهى قيمة الاسهم التى تملكها الحكومة البريطانية ستدفع قيمتها مباشرة ، وربما سمح أيضا للمصالح البترولية الفرنسية والبريطانية بالاشتراك فى هذه الهيئة •

وقد استمرت المناورة الى يوم ٥ أكتوبر حينما أعلن الدكتور بدوى الذى أزعجته التفاصيل التى وردت فى اليوم السابق فى صحيفة النيويورك تايمز عن وجهة النظر المصرية قائلا ان المصريين أكثر تواضعا فى طموحهم ، ولكن المهم فى الامر هو أنهم لا ينوون اعطاء أى شخص مهما يكن أقل نسبة فى رسوم المرور • وفى اليوم نفسه أشارت وزارة الخارجية الامريكية الى أنها لا تعلم شيئا عن الخطة التى تقضى بانشاء هيئة خاصة لقناة السويس • ومع ذلك فان الاوساط الدبلوماسية لم تحاول اخفاء تفضيلها لهذا المشروع بقدر ما كان يسمح بالخروج من المأزق • وتذكر هذه الاوساط نفسها أن مثل هذا المشروع كان موضع مناقشات فى العام السابق للحصول على تجديد لامتياز شركة السويس ، ولكن بشكل آخر جديد • وكان للاهتمام الذى أظهره بعض الرجال الجادين بهذا المشروع الاهتمام الذى أظهرته علنا وزارة الخارجية الامريكية نتيجة مباشرة ، فقد استقل جورج بيكو ـ المدير العام للشركة العالمية والذى كانت أذنه تصغى

الى كلمة رسوم المرور ـ أول طائرة متجهة الى نيويورك حيث وصل اليها يوم ٦ أكتوبر لكى يضع نفسه تحت تصرف مجلس الامن ، فلم يعره هذا اهتماما كبيرا . ان المستقبل بالنسبة للمدير العام وبالنسبة أيضا لقادة السويس الآخرين لمظلم حقا ٠ ان جميع الوفود تناقش موضوع السويس وتتقاسم المشروعات حول مستقبل القناة كما لو كانت الشركة العالمية لم تعد غير شبح بعيد يظهر فى أروقة الاجتماعات الدولية ساحبا معه صوت سلاسل السفن ٠ وهناك نقطة تفصيلية غريبة ، فقد أجريت طوال فصل الصيف عمليات منتظمة لشراء أسهم السويس من البورصة على دفعات يبلغ كل منها ٢٠٠ سند وكان الجميع يعلمون أن هذه العمليات تتم لحساب الامريكيين ٠

مجلس الأمن مرة أخرى :

وفى ٥ أكتوبر اجتمع مجلس الامن لمناقشة الطلب الفرنسى البريطانى ، وقد بادر دالاس الى استقبال لويد استقبالا وديا فى الليلة السابقة برغم أنه أبدى بوضوح الاسف الذى تركه فى نفسه القرار المفاجىء الذىاتخذه الفرنسيون والبريطانيون يوم ٢٣ سبتمبر ٠

والجميع يعلمون أن القرار كان قد اتخذ خلافا لما كان يراه دالاس وأثناء سفر هذا الاخير عائدا الى أمريكا ٠ وقد رأى وزير الخارجية الامريكية أن الوسيلة التى اتبعت فى اصدار هذا القرار لم تكن لطيفة بالنسبة له ٠ وقد علق لويد على الشائعات التى تتناقلها الالسن بشأن المحادثات التى يقال ان الوفد الامريكى يجريها مع الوفد الهندى والتى يعتبرها الانجليز ممثلة بصفة خاصة وجهة نظر ناصر ٠ وقد كذب دالاس ذلك ، وهذا التكذيب لم يكلفه شيئا بل كان مفيدا فى تخفيف حدة توتر الموقف ٠

وقد بدأت الجلسة فى الساعة الخامسة عشرة بالتوقيت المحلى ، واستمع المجلس فورا الىوزيرى الخارجية سلوين لويد وكريستيان‌بينو اللذين‌أخذا فى‌سرد أدلتها وشرحها ٠ ثم قدم الوزيران اقتراحات بمشروع قرار فرنسى بريطانى

يعيد بطريقة عملية القرارات التى اتخذتها الثمانى عشرة دولة ابان اجتماع مؤتمر لندن يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ ولكنها فى هذه المرة كانت تشكل أساسا للمفاوضة مع مصر ، ولم تكن على شكل انذار نهائى ، كما أرادوا أن يصوروه فى أثناء بعثة منزيس • ولم يستطع الفرنسيون والبريطانيون اخفاء الملاحظة التالية وهى أن أمريكا لم تكن فقط موقعة على هذه الاقتراحات بل ان هذه الاقتراحات قد تم اعدادها على أساس اقتراح أمريكى • ولم تتغير وجهة النظر كثيرا عما كانت عليه لبعثة منزيس ، اذ أن الفرنسيين والبريطانيين أعلنوا أنهم سيرفضون كل وساطة وكل حل وسط وكل أمر يبتعد عن نص هذه الاقتراحات • لقد ظلوا اذن متشددين ، الا أنهم أرادوا المحافظة على الشكل •

ماذا ستفعل مصر ؟

لقد تحدث محمود فوزى وزير الخارجية المصرى مع فوستر دالاس يوم ٦ أكتوبر ، وفى ٨ أكتوبر حينما تكلم أمام مجلس الامن رفض الاقتراح الفرنسى البريطانى وأوصى بانشاء هيئة للمفاوضة . وهذا تعبير غامض للغاية ، ولكنه أعلن أن المبادىء الاساسية لهذه المفاوضة هى الحرية التامة للملاحة فى القناة واقامة نظام للملاحة يشترك فيه معا المنتفعون والهيئة المصرية التى تقوم بادارة القناة •

ربما كان الاقتراحان أكثر توافقا مما يبدو فى ظاهر الامر ، ذلك لان الفرنسيين والبريطانيين أوصوا فى النهاية الحكومة المصرية بالتعاون مع جمعية المنتفعين بالقناة حتى تنتهى المفاوضات المقترح اجراؤها على أساس بيان الدول الثمانى عشرة • أما الحكومة المصرية ، فقد أوصت من جهتها جمعية المنتفعين بالتعاون مع الهيئة المصرية الجديدة لادارة القناة •

وقد ألقى بعد ذلك المندوب الروسى ـ ديمترى شبيلوف ـ خطابا تضمن نقدا شديدا ، وقد رفض فيه الاقتراحات الفرنسية البريطانية معلنا أنها تشكل انذارا جديدا موجها الى مصر •

وتدخلت الدول الاخرى متوخية فى عباراتها التواضع الذى يناسب الموقف وقد رأى سباك المندوب البلجيكى أنه ليس هناك ما يلزم مصر بقبول الاقتراحات الفرنسية البريطانية برمتها ، بل عليها أن تقبلها كأساس للمناقشة • وقد رفض المندوب اليوغوسلافي بوبوفيتش مشروع القرار الفرنسى البريطانى وتمسك بفكرة تكوين لجنة للمفاوضة ، أى أنه تمسك بالاقتراح المصرى •

وقد حدد كل جانب موقفه ، وكان فوستر دالاس هو الوحيد الذى يستطيع تغيير جميع الاوضاع ويرجح كفة الميزان الى هذه الجهة أو تلك • وكان آخر من تكلم وأعلن أن قرار الثمانى عشرة دولة ينظم فى الواقع عملية تدويل القناة ، وقد تقبله مصر الا أنه يرى على العكس من ذلك أن الطريقة التى تعرضها الثمانى عشرة دولة لادارة القناة ـ مع أنه حتى تلك اللحظة هو المحرك الاساسى لها ، وهذا هو التناقض فى موقفه ـ لا يعتبر الحل الافضل • وقد قال وزير الخارجية أن للاقتراح المصرى وجها بناء • انه حقا يقترح اجراء مفاوضات بين جمعية المنتفعين المنبثقة من الثمانى عشرة دولة وبين مصر ، واذا ما نظرنا الى الامور فى أساسها نجد أنه لا يوجد اختلافجوهرى بين اقتراح دالاس والاقتراح المصرى .

وكان الموقف يبدو وكأنه لا مخرج له • لم يكنالوفدان الفرنسى والبريطانى مفوضين للدخول فى مفاوضات ، بل لحمل مجلس الامن ـ اذا أمكن ذلك ـ على تأكيد القرارات التى اتخذتها الثمانى عشرة دولة •

هل سينتهى الامر بقطيعة قد تدعو أمريكا الى التصويت مع روسيا ؟

لقد فهم الفرنسيون والبريطانيون أن ذلك ليس فى مصلحتهم ، لأن موقفهم سيزداد صعوبة بعد هذه الاهانة العلنية • ولذلك أخذوا فى اعداد نص يعتبر فى ظاهره وكأنه حل وسط • فبعد أن أجروا مناقشة مع المندوب المصرى محمود فوزى والسكرتير العام همرشولد عرض كريستيان بينو وسلوين لويد على المجلس مشروع قرار مكون من جزءين • وكان الجزء الاول يؤكد من جديد

المبادىء الستة التى سبق أن وافق عليها المندوب المصرى ، أما الجزء الثانى فهو يعيد فكرة الادارة الدولية كما وافقت عليها لندن .

وقد تم صياغة المبادىء الستة بطريقة تحقق الموافقة عليها بالاجماع ، وهى أن يكون المرور فى القناة حرا ومباحا للجميع ودون تفرقة ومع احترام السيادة المصرية ، وتأكيد استقلال القناة عن سياسة أى بلد ، والاتفاق بين المصريين والمنتفعين بالقناة على تحديد تعريفات رسوم المرور وتخصيص نسبة عادلة من هذه الرسوم لتنمية القناة ، وأخيرا اجراء تحكيم بالنسبة للمسائل المعلقة بين الشركة العالمية والحكومة المصرية . وقد حصلت المبادىء الستة هذه على الاجماع حين أخذت الاصوات عليها يوم ١٤ أكتوبر ، أما بالنسبة للجزء الثانى من مشروع القرار فقد نال اجماع الاصوات ما عدا صوتين : يوغوسلافيا والاتحاد السوفييتى، ويتضمن صوت الاتحاد السوفييتى فيتو ، ولكن هذا الفيتو لا يمس المبادىء الستة .

وفى مساء ١٤ أكتوبر رفع التحفظ الذى كان مفروضا على المسألة بالنسبة للامم المتحدة . وقد اعتبر ايدن كما اعتبر الفرنسيون أن جميع الوسائل السلمية قد استنفدت . حقا لقد تظاهر دالاس بأنه يأخذ الاقتراح المصرى الجديد ـ الذى يقتضى بالتفاوض داخل لجنة خاصة تعقد فى جنيف ـ مأخذ الجد ، وهذا هو الاقتراح الذى سيؤخذ به بعد فشل المغامرة العسكرية . أما الفرنسيون والبريطانيون فلم يروا فيه الا حيلة جديدة لحملهم على التنازل عن مواقفهم . وقال رئيس الوزراء البريطانى فى مذكراته فيما بعد « لقد فتحت مصر الطريق الى عملية تهدئة للخواطر ليست لها نهاية » ثم أبدى هذه الملاحظة « هذا هو ما حصلنا عليه من جراء التجائنا الى الامم المتحدة ، وهو أننا خرجنا نملك المبادىء الستة ، ولكن وقد وضع السوفييت الفيتو بالنسبة للجزء من القرار الذى يحدد العمل الذى يجب القيام به فلم يعد هنا أية وسيلة لوضع هذه المبادىء الستة موضع التنفيذ ، لقد ظلت هذه المبادىء مجرد كلام » ومما أثار غضب رئيس الوزراء ما ظهر من أن الامريكان قد فرحوا بالوقوف هكذا حاملين المبادىء الستة بين أيديهم

« لقد مات كل ذلك ، لقد دفعونا من مفاوضة الى مفاوضة ومن حجة الى أخرى ومن دسيسة الى دسيسة أخرى ومن مسألة الى أخرى وذلك لمدة شهور طويلة • وكنا نرى أن موقفنا يزداد ضعفا من مرحلة الى أخرى فى أثناء هذه الفترة الاليمة × » •

وفى حين كان الفرنسيون والبريطانيون يضيعون وقتهم فى الامم المتحدة كان سفراء الثمانى عشرة دولة التى وقعت المشروع الثلاثى لمؤتمر لندن الاول يجتمعون فى لندن يوم ٤ أكتوبر ويعتمدون النقاط الاساسية لتسوية مسألة الجمعية التعاونية لهيئة المنتفعين بقناة السويس • وبعد اعتماد اللائحة الداخلية لها أخذوا يهتمون بتمويل الجمعية فى بداية عملها ٥٠و٠٠٠ جنيه استرلينى للشهور الثلاثة الاولى من عملها تدفع منها كل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا العظمى ٢٠٪ أما الفرنسيون فيدفعون ١٥ ٪ من هذا المبلغ • وهكذا بدأت جمعية المنتفعين التى قامت أصلا لتحصيل رسوم المرور حياتها بأن كلفت كل دولة ممثلة فيها بدفع مبلغ من المال لم يكن يدرى أحد اذا كان سيحصل عليه ثانية يوما ما • وقد انفض مؤتمر السفراء يوم ٥ أكتوبر بعد أن اتخذ هذه الاحتياطات الاولية وبعد أن حدد موعدا لاجتماعه التالى فى اليوم الثانى عشر من الشهر نفسه • وفى ذلك التاريخ تم تعيين مدير لجمعية المنتفعين هو الدانماركى ، م• بارتل ، ثم تقرر انتظار سير الاحداث •

عواصف فى الأردن :

كان سير الاحداث يبدو قاتما من جهة الاردن ولم يكن أحد يتوقع ذلك الى حد كبير • كان الاردنيون يعتدون طبعا على الاسرائيليين بالكلام ، وكان هذا يغنى عن أكل « الكسكسى » ويساعد على اضاعة الوقت • وبخلاف هذه العصبية الشفوية لم يصل قط الامر بالاردن الى أن تقوم بهجمات ارهابية مثل تلك التى كان يقوم بها الفدائيون المصريون • كانوا يقومون بين حين وحين بالاعتداء على

× السير انطونى ايدن ، الكتاب السابق ذكره ص ٥٦٧ .

فلاح اسرائيلي ، الا أنهم كانوا يفعلون ذلك وكأنهم آسفون كما كانوا يظهرون أنهم يفعلون ذلك للتظاهر فقط وحتى لا يتركوا الصدأ يأكل البنادق .

ولكن تغيرت الامور فجأة . واذا ما أعدنا ترتيب الاحداث الخطيرة التى وقعت فى هذه الفترة بين اسرائيل والاردن ترتيبا تاريخيا يظهر لنا أنها ترجع الى تاريخ محدد . انه تاريخ المحادثات الفرنسية البريطانية التى جرت يومى ١٠ و ١١ سبتمبر ١٩٥٦ وتقرر فى خلالها استبعاد فكرة الهجوم المباشر على الاسكندرية وقبول فكرة الهجوم على بور سعيد والشروع فى العمل السيكولوجى المعروف الذى من شأنه أن يدع الموقف يتطور تطورا يكفى لتبرير التدخل البريطانى ويكون ذلك باسم الامم المتحدة اذا لزم الامر ذلك .

وفى مساء ١١ سبتمبر نصح السفير البريطانى فى عمان موظفيه بمغادرة البلاد فورا اذا لم يكن هناك سبب جوهرى يدعوهم للبقاء فى الاردن . انها فضيحة غريبة اذ لم يفهم أحد ما قد يحدث فجأة فى هذا البلد البعيد عن قناة السويس ، فى حين أخذت الامور تزداد سوءا من الناحية الاخرى غربا . وفى اليوم نفسه نصبت الفرقة الاردنية ــ وهى الفرقة العربية القديمة التى كونها جلوب باشا بالاشتراك مع القيادة البريطانية ــ كمينا لاحدى اللوريات الاسرائيلية . وقد أكد الاردنيون أنهم هوجموا ، واتفق الخصمان على رقم الضحايا . ستة قتلى وثلاثة جرحى بين الاسرائيليين . وفى اليوم التالى ــ ١٢ سبتمبر ــ وقع الحادثان الثانى والثالث على الحدود فى النقب وفى عين أوفارمين (وقد قتل اثنان من حرس الحدود الاسرائيلى) فى حين وقعت فى قطاع هبرون ــ الذى وقع فيه الحادث الاول ــ غارات انتقامية اسرائيلية ترتب عليها قتل تسعة عشر شرطيا من أفراد الشرطة الاردنية .

وفى ١٣ سبتمبر وقع حادث غريب ، فقد دعا الملك حسين رؤساء البعثات الدبلوماسية لبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية للاجتماع به وطلب منهم ابلاغ حكوماتهم تفاصيل الجريمة التى ارتكبتها القوات الاسرائيلية فى

الاراضى الاردنية ، واجتمع الملك بعد ذلك برؤساء البعثات الدبلوماسية العربية ودعا لجنة الدفاع العليا الى عقد اجتماع عاجل وطارىء • انهـا لحركات عصبية غريبة بالنسبة لحوادث على الحدود •

وفى اليوم التـالى ١٤ سبتمبر ذهب الملك حسين الى الحبانية لمقابلة ملك العراق والقادة العراقيين (كان سيد العراق فى ذلك الوقت هـو نورى السعيد أكبر عميل للانجليز فى الشرق الاوسط) •

وفى اليوم نفسه وقعت غارة انتقامية اسرائيلية جديدة موجهة فى هذه المرة ضد المركز العام للقيادة المتحركة للفرقة الاردنية فى شاراندال • وهنا أيضا وجه الاسرائيليون ضرباتهم بكل عنف فسقط ٤٠ قتيلا أردنيا •

وفى ٢٣ سبتمبر فتحت القوات الاردنية نيرانها على مجموعة من رجال الآثار الاسرائيليين بجوار بيت لحم ، فقتلت ثلاثة وجرحت سبعة عشر من أعضاء المؤتمر • وفى يوم ٢٤ سبتمبر وقعت حوادث كثيرة أسفرت عن قتـل اثنـين من المدنيين الاسرائيليين ، ونظرا لما يتبعه الاسرائيليون من طرق انتقـامية كان من المتوقع أن يقوموا بهجوم قاس على الاردن ، ولم يتأخر هذا الهجوم • ففى ٢٦ سبتمبر هاجم الاسرائيليون قطاع حسام بجوار القـدس وقد أعلنـوا أنه نتج عن ذلك مقتل خمسين أردنيا فى حين ادعى الاردنيون أنهم قتلوا تسعين اسرائيليا •

وكان الحادث من الجدية بحيث أصدر الملك حسين بيانا صحفيا قال فيه : ان جيشنا محتشد الآن على الحدود وهو مستعـد لمواجهة العـدوان الاسرائيـلى المنتظر ! وحينما سأله أحد الصحفيين : لماذا طلب مسـاعدة العراق ولم يطلب مساعدة مصر ، أجاب الملك : لان العراق تستطيع أن تقدم الى الاردن مسـاعدة فعالة ، أما مصر فهى مشغولة بمسألة القناة •

وفي اليوم نفسه أعلنت وزارة الخارجية البريطانية أنها تستنكر الغارات الانتقامية الاسرائيلية الموجهة ضد الاردن • وقد أجابت الحكومة الاسرائيلية من جانبها بالاعراب عن دهشتها لان الحكومة البريطانية لم تفكر في ادانة عمليات العدوان الاردنية •

وفي اليوم التالى وصل وزير خارجية الاردن الى العراق حاملا رسالة من الملك حسين الى الملك فيصل ، وأمضى الوزير خمسة أيام فى بغداد لاعداد تفاصيل المساعدات التى ستقدمها العراق الى الاردن •

واستمرت الحوادث على مطلع أكتوبر ، ففى الثالث منه وقع قطار اسرائيلى تحت نيران المدافع الرشاشة الاردنية ، وفى الرابع من أكتوبر قتل خمسة من الاسرائيليين المدنيين بجوار الحدود • ومرة أخرى أخذ الجميع ينتظرون وقوع غارة انتقامية اسرائيلية • وقد سبق هذه الغارة تحذير وجهته جولدا مائير وزيرة خارجية اسرائيل فى السابع من أكتوبر قالت فيه : « اذا كانت الامم المتحدة غير قادرة على الزام العرب باحترام تعهدهم بوقف اطلاق النار فان اسرائيل ستتكفل بالمحافظة على شعبها » وفى اليوم التالى أجاب عليها نورى السعيد بتصريح يهدد فيه ، وفى العاشر من أكتوبر وقعت الغارات الانتقامية المنتظرة ، فقد هاجمت اسرائيل بشدة مركز قلقيلية الاردنى • وقد سبق ذلك عملية مبارزة بالنيران دامت ساعات طويلة ، وقد أدى الهجوم الى القضاء على هذا المركز كما أدى الى قتل ٤٨ أردنيا و ١٦ اسرائيليا علاوة على اثنين اعتبرا مفقودين و ١٦ جريحا اسرائيليا • وقد دعا الملك حسين رئيس الوزراء الاردنى وأعضاء وزارته للاجتماع به ليلا بالقصر الملكى •

وفى ١٢ أكتوبر نشرت وزارة الخارجية الاسرائيلية بيانا ذكرت فيه الاعتداءات التى بررت قرار الدفاع الذى اتخذه الاسرائيليين ، كما أبرز أن عملية الدفاع عن النفس حق يتمتع به كل بلد لكى يحافظ على حياة مواطنيه • وفى اليوم نفسه أخطر ممثل للسفارة البريطانية فى اسرائيل الحكومة الاسرائيلية

بأن هناك جيوشا بريطانية على وشك الدخول فى الاردن • (ويلاحظ هنا صيغة التأكيد وتجنب استخدام الصيغة الشرطية) • وقد رأت اسرائيل أن الاتفاق الاسرائيلى الاردنى أصبح بطريقة آلية غير ذى موضوع . ومعنى ذلك أنه قد أصبح للاسرائيليين حرية العمل بالنسبة للاردن • وقد أعاد الممثل البريطانى الى الذاكرة الحلف الذى يربط بين بريطانيا والاردن والذى يتضمن احتمال تدخل بريطانيا العظمى عسكريا فى حالة اتخاذ أى عمل ضد المملكة الهاشمية •

وفى ١٣ أكتوبر أعادت وزارة الخارجية الاسرائيلية ذكر المساعى التى بذلتها بريطانيا لديها يوم ١٢ أكتوبر وما تحمله التصريحات الصادرة من نورى السعيد يوم ٨ أكتوبر من تهديد لكيان اسرائيل نفسها • وقد جاء فى هذا البيان ما يلى : « انه لمن الواضح أن عملية دخول وحدات عراقية فى الاردن تدخل ضمن خطة موضوعة من قبل يقصد بها تحقيق أمانى العراق التوسعية ، وان الحكومة الاسرائيلية مصممة على مواجهة هذا التهديد » •

هذا هو الموقف يوم ١٣ أكتوبر : تقول اسرائيل ان الاردن تهددها فى الوقت الذى تستعد فيه علنا منذ بضعة أيام للقيام بغزو الاردن ، وهناك جيوش عربية ـ عراقية ـ تستعد فى الجانب الآخر لنجدة أشقائها الاردنيين ، وفوق كل ذلك أعلنت بريطانيا العظمى حامية العرب تدخلها العسكرى •

الحيلة العسكرية :

ماذا سيعمل ناصر ؟

ها هى ذى اسرائيل التى وعد ناصر مئات المرات أنه سيدمرها تستعد للهجوم على بلد عربى شقيق • أليست هذه هى الفرصة التى طالما حلم بها لكى يتدخل ، بخاصة أن بريطانيا العظمى قد أعلنت أنها ستقف بجانب ناصر ـ ذلك فى البيان السابق ذكره والذى يشكل تحذيرا لاسرائيل ـ وأنها سترسل جيوشها الى الاردن ؟

ان الاردن « مهدد » وقد طلب علنا مساعدة العراق كما طلب مساعدة البلاد العربية الاخرى ولا سيما مصر . وقد ذهب وزير خارجية الاردن الى القاهرة يوم ١١ أكتوبر لهذا الغرض وتباحث مع ناصر حول التهديدات الاسرائيلية ضد بلده ٠ هل سيرسل الرئيس ناصر جيوشه ؟ ان باريس ولندن تحبسان أنفاسهما ٠ وقد لخصت مجلة برسيكتيف فكرة القادة الفرنسيين والبريطانيين حينما كتبت تقول : « هل سيقوم ناصر بعمل ما وهو الذى كثيرا ما صرح بأنه لن يدع أى هجوم اسرائيلى على الاردن يمر هكذا دون عقاب ؟ » ٠

ولم يكن ناصر ليستطيع أن يرفض مساعدة الاردن ، وحينما يتدخل سيتلقى قوة الجيش الاسرائيلى كله لان هذا الجيش لن يتخذ من الاردن غير مجرد عذر ، ولكنه سيركز كل نيرانه على مصر ٠ وهنا أيضا تستطيع بريطانيا العظمى أن تتدخل « مدعية حماية مصر » ضد التهديد الاسرائيلى وتنزل فى المعركة للفصل بين المتحاربين ٠

انها لخطة كلها دهاء ولكنها انتهازية ، أى أنها معرضة للفشل اذا ما أعترضتها أدنى عقبة ، وستقوم أكثر من عقبة ٠

وأولى هذه العقبات أن مصر ستكون حذرة من الوقوع فى الفخ ٠ لقد أعدت الخطة كلها ـ فى مكاتب لندن ـ بناء على فرض واحد هو أن ناصر طائش ومندفع ومحب للمغامرة ٠ انه هكذا فى نظر من يقرأ خطبه السابقة ٠ ولكن من يتصور ذلك يكون قد تسمم ذهنه بأن يرى فيه ديكتاتورا ماسكا بزمام السلطة وحاكما بأمره وهتلر وادى النيل ٠ هذه ألفاظ للدعاية ، لكنها تصبح ألفاظا انتحارية حينما تتخذ أساسا لرسم سياسة معينة ٠

ذلك لان وزير الخارجية الاردنى ـ الذى يلعب لعبة المستغيث لدى ناصر ـ خرج من المقابلة حاملا كلمات معسولة ووعودا ٠ مصر ستساعد الاردن هذا

البلد الشقيق ، وستقدم كل المساعدة التى تسمح له بالدفاع عن نفســه ، ومع ذلك فلم يتخذ ناصر فى ذلك الوقت آى اجراء محدد •

والعقبة الثانية جاءت من اسرائيل نفسهـا • الى أين ستجرها هذه الخطة الخداعة التى اشتركت فى اعدادها بكل همة وحرارة وزارة الخارجية الاسرائيلية ؟ انها ستؤدى الى مهاجمة مصر مع شن حملة على الاردن فى الوقت نفسه • أى الى الاندفاع فى حملة على جبهتين ، والضـمان الوحيـد وعد غامض من ايدن أبلغ لاسرائيل عن طريق الكولونيل هنريك الذى اكتشف فى نفســه حبـا مفاجئـا للصهيونية غداة نقل جلوب من الاردن • وبناء على هذا الوعد وبرغم أن بريطانيا العظمى ستتدخل كحامية لحمى العرب ، ستعمل على أن تكون معـاهدة الصلح والسلام فى مصلحة اسرائيل • أما الاسرائيليون فهم يرون أنه من الواضح للغاية أن هذا الموقف سيؤدى الى اعادة قيام تضامن مؤقت بين جميع العرب ضد اسرائيل، وأكثر ما يمكن أن تأمله اسرائيل بعد ذلك هو استعادة الحدود التى حددها قرار التقسيم الذى أصدرته الامم المتحدة ، أى أن تقل مساحة أرضها بالنسبة للمساحة التى كانت تسيطر عليها بالفعل فى ذلك الوقت •

ومع ذلك فانه على الرغم من أن هذه الخطة كانت مقبولة بقدر ما ستجعل بريطانيا تشترك فى الاندفاع فى عملية ضد مصر (أى بصفتها حليفا اراديا أو غير ارادى لاسرائيل) فانها لم تكن مقبولة من جانب بن جوريون ما دامت تجعل بريطانيا العظمى تتدخل باعتبارها عدوا لاسرائيل فى الظاهر •

وعلى كل حال فقد أصبحت هذه الخطة نفسها غير ذات موضوع ، لانه فى يوم ١٠ أكتوبر تم توقيع اتفاقيات بين هيئات أركان الحرب تجعل من اسرائيـل حليفا لفرنسا • فاذا دخلت اسرائيل اذن فى حرب كان على بريطانيا العظمى أن

تسرع لنجدة الاردن ، وكان على فرنسا أن تساند اسرائيل • وقد يؤدى ذلك اذن الى حرب فرنسية بريطانية عن طريق هذا التدخل والتشابك ، أى أنها ستكون حربا لا علاقة لها بأى تدخل فرنسى بريطانى فى القناة • لقد تمخضت كل الخدعة التى أعدتها وزارة المستعمرات البريطانية الى موقف لا مخرج منه والى عقدة دبلوماسية لا حل لها !

العقدة التى ليس لها حل :

ولكن هناك رجلا سيقوم بحل هذه العقدة ، وهذا الرجل هو بن جوريون، ففى يوم ١٥ أكتوبر ألقى أمام الكنيست ـ البرلمان الاسرائيلى ـ خطابا استغرق ساعتين أبرز فى خلاله أهمية الخطر المصرى وأزمة السويس دون أن يبدى اهتماما بخطر التدخل العراقى فى الاردن • ان العدو هو مصر ، وبرغم أن بريطانيا العظمى قد هددت أخيرا اسرائيل بالتدخل لصالح العرب فان بن جوريون قد تحاشى النطق بأية كلمة غير مقبولة ضد لندن • بل لقد بلغ به الامر أنه أخذ يشكر بريطانيا العظمى ويشكر فى الوقت نفسه بلادا أخرى للمساعدات التى قدمتها لبلده • يجب اذن أن نتذكر جيدا هذا التاريخ • لقد ألقى هذا الخطاب يوم ١٥ أكتوبر أى فى اليوم التالى للجلسة التى عقدها مجلس الامن والتى دفنت فيها الآمال الاخيرة التى كان يعقدها الفرنسيون والبريطانيون للحصول على مساندة دولية لسياسة القوة التى ينتهجونها ، وهى أيضا وفى الوقت نفسه الجلسة التى « استنفدوا » فيها جميع الحلول السلمية •

وهناك توافق آخر ، فقد تم فى هذا اليوم نفسه اتفاق بين الاردن والعراق يؤجل الى أجل غير مسمى كل تدخل عراقى فى الاردن • لقد ماتت الحجة الاردنية وكان هذا فشلا جديدا لسياسة القوة ، وقد ضاع شهر آخر فى المماطلة وكان

من أثر الانتقال من مماطلة الى أخرى كما اتضح ذلك لايدن بجلاء • ان الموقف ازداد ضعفا بالنسبة لما كان سائدا في بادىء الامر ، بل لدرجة أنه حتى اذا كانوا في ذلك الوقت يريدون الدخول في مفاوضات حقيقية ، كان لزاما عليهم أن يسلموا فيها لناصر على طول الخط •

كان يجب اذن اما ترك المكان لفريق آخر يتكفل بالقيام بهذه العملية الشاقة ـ وهى تصفية السلطة التى تتمتع بها بريطانيا العظمى فى الشرق الاوسط ـ أو الاقدام والعمل • وبما أنه يبدو أن زعيم المؤامرة ـ ايدن ـ غير قادر على اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن فيجب اذن أن يتخذه آخرون غيره •

الفصل الثاني عشر

القـرار

اشارة البداية العظيمة ..

ان بن جوريون هو الذى يعطيهـا ، وذلك فى الخطاب الذى ألقـاه يوم ١٥ أكتوبر وأشار فيه الى احتمال وقوع هجوم اسرائيلى لا مفر منه . نعم ، كان اختيار الوقت مناسبـا جـدا « لقد استنفـدت الامم المتحـدة جميع الحلول السلميـة » ، وتوقفت التمثيلية العراقية الاردنية فى اليوم الذى تبين فيه لاصحابها أنها ستثير الحلفاء الغربيين بعضهم ضد البعض الآخر بدلا من أن توحيد بينهم .

قال البريطانيون انهم مستعدون للتدخل . هذا هو اساس فكرتهم التى صمم على تنفيذها مجموعة من السـادة العجائز مسـاء يوم ٢٦ يوليو فى داوننج ستريت . وقد طالبوا ـ على هدى هذه الفكرة ـ أن يتولوا هم أنفسهم قيـادة هذا التدخل ، ونجحوا فى ذلك . كما أنهم من أجل هذه الفكرة سـدوا جميع المنافذ واحدا بعد واحـد ، وأغلقوا جميع المخارج الدبلوماسية . على أنهم ـ وقد ربطوا حلفاءهم معهم ـ يترددون فى اجتيـاز الخطوة الوحيـدة التى بقيت أمامهم ، وهى خطوة الحرب . انهم يتداولون فى البرلمان ويفكرون ويترددون ، ويشعر المرء بأنهم مستعدون للذهاب الى « العم سام » والاختفاء بين رجليه ليذرفوا الدموع . لم يكن بينهم وبين ذلك مسافة طويلة . كان يكفى أن يقول دالاس كلمة صغيرة رقيقة .. آن يبدى لفتة صغيرة الى « عبيده من الامبراطورية الغابرة » لكى تسوى الامور .

ولكن دالاس هذا يريد كل شي ، وهـو يمتلك السلطة ومظاهرها • بل يمتلك أيضا الكبرياء • وهذا هو الشيء الوحيد الذى كان يحتكره المحافظون فى بريطانيا، وكانوا سعداء به ، ولكنه يجرد منهم . ان دالاس لا يريد الاقتناع بصحة معلومات المخابرات البريطانية ، وعندما يؤكدون له أن « ناصر » عميل سوفييتى يجيب : ان معلوماتكم غير صحيحة وانى أعلم من ذلك أكثر منكم ! ويؤكدون له أن العرب سيؤممون البترول فى خلال الاسابيع المقبلة ، ولكنه يقول : انكم واهمون فالعرب لا يحبون الانتحار ، فأنا أعرفهم أكثر منكم ! انه بذلك يشتمنا • اننا نسمح له بأن يسحقنا • ولقد نرضى منه أن يدفعنا خارج الباب ، وقد نسكت عنـه حين يستعمرنا ، اما أن يدعى أنه يعرف العرب أكثر مما تعرف لندن فهذا مالا يحتمل، وهل هكذا يعاملنا حليفنا الاطلنطى ؟

ولكن بن جوريون العجوز لا يشعر بمثل هذه المضايقات • ان الشتاء يقترب والجيوش مستعدة • فالى الامام ! لقد ألقى خطابه وانتهى الامر وبينما هـو على المنصة يكون الجنرال « شال » قد وصل الى لندن وعرض على الانجليز خطة الهجوم الاسرائيلية ، وكان البريطانيون يعرفونها ، فقد درسوها فى لنـدن على مستوى الحلفاء منذ يوم ١٢ أكتوبر حتى ١٩ أكتوبر •

وقد رأى ايدن أن المسألة من الخطورة بحيث تستدعى ذهابه الى باريس فى اليوم التالى ، وقد تناقش مع جى موليه ست ساعات على انفراد أحيانا ، وفى وجود لويد وبينو أحيانا أخرى ، ومن المعروف أيضا أن « القرار العظيم » قد اتخذ فى ذلك اليوم ، وهذا صحيح وغير صحيح معا • نعم لقد اتخـذ قرار وظهرت بعض آثاره العملية وهى : اعطاء أجازة لبعض موظفى وزارة الخارجية من معارضى هذا التدخل ، واسـتقالة وزير الدفاع البريطانى « لاسـباب صحية » وهو السـير والتر منكتون ، وعين بدلا منه أحد زعماء الجانب المتحمس ، وهو أنطونى هيـد أحد اللواءات السابقين • ولم تذهب آثار هذا القرار الى أبعد من ذلك ، حتى لكأنما صدر فجأة قرار مضاد ، وتوقف كل شيء مرة أخرى !

الضغط الأمريكى :

ذلك لان واشنطن كان قد استولى عليهـا الذعر ، وفى ١٦ أكتوبر أرسـل أيزنهاور الى ايدن رسالة سرية وشخصية كان راندولف تشرشل أول من كشف مضمونها × ، وتنضمن هذه الرسالة الوعـد الآتى : أخروا كل عملية حتى تتم انتخابات الرئاسة يوم ٦ نوفمبر ، وبعد هذا التاريخ فانى أتعهد شخصيا بتكوين جبهة مشتركة مع بريطانيا العظمى ، لكى أجعلها تحصل على تسوية مناسبة فى مسألة السويس ٠

وقد كان هذا وعدا مبهما والاكثر من ذلك أنه كان سريا ، واذا كان أيزنهاور يريد اعطاءه القيمة المرضية حتى يتجنب أى تدخل عسكرى فرنسى بريطانى فقد كان عليــه أن يلتزم بتعهـد علنى ٠ وبدون هـذا فان ما يمكن أن يقول يذهب الى مستوى وعوده التى قدمها حينما كان يضغط على البريطانيين للجلاء عن منطقة القناة

أما انتظار انتخابات الرئاسة فهذا يعنى قبول التأجيل الجديد المتضمن فى الاقتراح المصرى الذى أيدته واشنطن ، وهو الدخول فى مفاوضات مباشرة تعقد يوم ٢٩ أكتوبر فى جنيف ٠ وهذا يعنى أيضـا بصفة خاصـة التعرض لظروف عسكرية أكثر صعوبة نظرا لضرورة القيام بحملة فى الشتاء ٠

ولكن فى الوقت الذى كان أيزنهاور يعد فيه ايدن بمساعيه الحميدة بعـد انتهاء الانتخابات ، كان يترك فوستر دالاس ينشد أغنية أخرى مختلفة اختلافا تاما . ونعلم جيدا لا سيما عن طريق اعترافات تشيرمان أدامز ـ الذى كان أحد مساعدى الرئيس أيزنهاور ـ ان هذه المناورات الدبلوماسية لم تكن لتجرى دون تبادل الرأى بين دالاس والرئيس أيزنهاور ، ولو عن طريق التليفون ٠

× كتاب راندولف تشرشل : قيام السير أنطونى ايدن وسقوطه ٠

كان فوستر دالاس يتميز غيظا • فى اليوم نفسه الذى أرسل فيه أيزنهاور الى ايدن رسالة باكية كان هو يضرب بيده على المنضدة • فقد أعلن يوم ١٦ فى مؤتمر صحفى أن الولايات المتحدة مصممة على تقديم المساعدة والمعونة لجميع البلاد التى تكون ضحيـة أى عـدوان فى الشرق الاوسـط ، وذلك فى اطار الاجراءات الدستورية • وأضاف أن الولايات المتحدة تنتظر خطوة ـ من جانب بريطانيـا العظمى وفرنسا ـ لكى تجعل من جمعية المنتفعين بقناة السويس مشروعا «طيبا»• ولكن هذا الوعد الاخير قد نسخته خطورة التصريح السـابق الذى كانت آثاره واضحة : اذا نفذت الخطة الفرنسية الاسرائيلية التى عرضهـا الجنرال الفرنسى « شال » على ايدن ، فان الولايات المتحدة ستتدخل من أجل « ناصر » وربما لم تقدر هذه النتيجة حق قدرها فى لندن حيث كان رجال الدولة من المحافظين غارقين فى أوهامهم عن العلاقة الخاصة التى تربط بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، الا أن هذه النتيجة ستلعب فى باريس وفى تل أبيب دورا رئيسيا ، لأنها ستساهم فى الاسراع فى العمل !

وفى اليوم التـالى يعطى دالاس ـ الذى ازداد عنفـا ـ درسا قاسيا لسفير اسرائيل آبان ايبان ـ وقد استدعى بعد ذلك الى تل أبيب ـ وقال له : « اذا كنت تظن أن العطف على اليهود الامريكيين سيكون له أى تأثير على انتخابات الرياسة الامريكية أو عليه شخصيا بحيث يغير ما قررت الحكومة الامريكية اتخاذه لتجنب الحرب ، فعليك أن تتخلى عن أى وهم من هذه الناحية » ويبدو أن دالاس كان يقيم لاصوات اليهود وزنا أكبر مما كان يعطيه لها ابان ايبان نفسه أو حكومة اسرائيل مجتمعة •

ان التأثير المنتظر لاصوات اليهود قد لعب دورا أقل بكثير مما كان يظن فى باريس ولندن وواشنطن • ولا يتجاهل الرؤساء الاسرائيليون حقيقة أمر أبنـاء ديانتهم المنتشرين فى أنحاء العالم ، لأنهم يعلمون علما تاما مشاعرهم النفسية ، وهم لا يتوقعون منهم شيئا كثيرا سوى بعض النقود ، وربما بعض المعلومات •

أما السبب الرئيسى لمعارضة أيزنهاور استخدام القوة فهو انه كان قد قام بحملته الانتخابية متخـذا شعارا هو أنه « رسول السـلام » وبذلك فانه حتى تاريخ ٦ نوفمبر كان يستحيل عليه القيام بأى عمل عسكرى لتنفيذ تهديدات فوستر دالاس بدون أن يفقد هيبته ومن ثم النجاح فى الانتخابات ٠

ناصر ينتظر :

وفى لنـدن استقال السير والتر مـانكتون وظل ايدن مترددا ٠ وفى القاهرة كان ناصر يعلم كل ذلك وهذا مما يطمئنه، وكان لا يعتقد فى احتمال وقوع هجوم عليه وان كانت تصله تقارير ـ ولا سيما من باريس ـ تشير الى أن هنـاك شيئا يجرى اعداده فى الخفاء ٠ ان عبد الناصر مشغول باصدار تصريحاته الملتهبة بشأن الدفاع عن الاردن التى لم يعد أحد يهددها ٠ وفى ١٤ أكتوبر قلبت صفحة الاحداث السـابقة بتوقيع الاتفـاق العراقى الاردنى ، وفى ١٦ منه أعلن المشير عبد الحكيم عامر ـ قائد الجيش المصرى ـ أن مصر ستتدخل اذا ما وقع أى اعتداء أو أى تهديد باعتداء ضد الاردن ، وفى ١٩ أضاف ناصر أن مصر ستدخل المعركة فورا ٠ ولو صدرت هـذه التصريحـات قبل ذلك بثمانية أيام لاعتبرت وقتئـذ اما جنونا واما غباوة ، ولكن أن تصدر فى هذا التاريخ فلابد أنه كان يقصـد بها فقط التأثير على الانتخـابات الاردنية التى كانت ستجرى يوم ٢٣ أكتوبر ، والتى كانت تشير الى غالبية ناصرية الاتجاه كما كان متوقعا ٠

الشعور بالقلق فى باريس :

ها قد حل يوم ١٩ أكتوبر وبدأت الدوائر التى تحبذ التدخل تشعر بالقلق، ولا سيما الدوائر العسكرية التى لديها أسباب واضحة وسرية تثير قلقها : انها مسألة « خطة الشتاء » ٠

حينما رفض ايدن فى أول أكتوبر ـ تحت الضغط الامريكى ـ أن يستمر فى العملية التى كان يجب أن تبدأ يوم ٨ أكتوبر كان رد الفعل شديدا فى باريس • وفى الوقت نفسه قررت لندن وضع « خطة للشتاء » وكان يجب أن يتم اعداد هذه الخطة يوم ٥ أكتوبر بالنسبة لخطوطها العامة ، وفى ١٢ أكتوبر بالنسبة للتفاصيل• وقد أثارت التعليمات الصادرة من القائد العام بشأن اعدادهذه الخطة ثائرة حلفائه الفرنسيين • والحقيقة أن خطة الشتاء كانت تحمل أعذارا مختلفة لدفن العملية التى كانت قائمة حتى الآن • وقد وجه الاميرال بارجو نقده على ذلك شفاها يومى ١ و ٢ أكتوبر ، ثم بمـذكرة حررها يوم ٣ أكتوبر رئيس أركان حربه الجنرال جازان وهو الشخص الذى ساهم فى استبعاد العملية الموجهة ضد الاسكندرية ، وقد أشار بارجو الى أن العملية المقررة حتى الآن عملية مزدوجة : برمائية وجوية ، وأنه لم يكن من الممكن تنفيـذها الا اذا صـادفت ظروفا ملائمة بسبب طابعهـا البرمائى والجوى • وبما أنه لا يمكن تصور الاولى دون الاخرى ولا يمكن ـ كمـا يقول بارجو ـ الاكتفاء بالمراحل الاولى ـ الجوية فقط ـ فلم تكن خطة الشتاء هذه فى نظر القيادة الفرنسية سوى خطة دفاعية تقرر فى حالة احتمال قيام‌ناصر بهجوم قبل الربيع ، ومن شأنها الاعداد لعمليات ربيعية محتملة • ولكن ماذا سـيكون الموقف السياسى وقتئذ ؟ ان ما كان بارجو يطالب به ـ باسم القيادة الفرنسية ـ هو تأجيل العملية المسماة موسكيتير لمـدة خمسة عشر يوما ، أى حتى يوم ١٥ نوفمبر ، مع الاشارة الى أنه من الافضل جعل يوم البدء لاحقا لانتخابات الرياسة الامريكيـة التى كانت ستجرى يوم ٦ نوفمبر • وقد رفض كيتلى طلب بارجو ، ولعب هذا الرفض دورا أساسيا فى الاحداث التى وقعت حوالى ٢٠ أكتوبر • وكان من بين النتائج السريعة لهذا الرفض التقريب بين الفرنسيين والاسرائيليين ودعم تصميمهم المشترك فى أن يعملوا بأسرع ما يمكن •

وكان بارجو يتمنى أن تتخذ الحكومتان قرار البدء فى العمليات فى الايام الاولى من شهر نوفمبر فى حين لا تنفـذ التحركات الاوليـة للعمليـات الا بعد يوم ٦ نوفمبر •

اذن لم يكن فى عزم القيادة الفرنسية اتخاذ أى قرار قبل الايام الاولى من شهر نوفمبر •

وقد وقع أمر ـ لأول مرة ـ أدى الى تعديل هذه الفكرة ، وهو الاتفاق الفرنسى الاسرائيلى الذى عقد يوم ١٠ أكتوبر • ومنذ هذا التاريخ تيقن الفريق الاسرائيلى المندفع «ديان بيريه» والذى وجد فى شخصية بن جوريون العجوز جى موليه آخر، أنه يستطيع أن يعمل بفضل المساندة الفرنسية ، وقد قرر أن يعمل فى أسرع وقت ممكن • ولكن فترة انعقاد « مجلس الامن » كانت لا تزال قائمة ، وكذلك « الحركة الاردنية » وهى تلك الورقة التى كان يلعبها فريق وزارة الخارجية المناصر لبريطانيا فى اسرائيل •

وفى ١٤ أكتوبر استبعد هذان العائقان ، وفى ١٥ تدخل بن جوريون واتخذ خطابه ـ من وجهة النظر الاسرائيلية ـ صورة المؤيد لدعاة الحماة العسكرية بالاشتراك مع فرنسا ، وهم الذين ضمنوا اتفاقا صريحا مع باريس فى حين كان فريق وزارة الخارجية الاسرائيلية المناصر للبريطانيين لم يحصل على أى شئ سوى أنه ظل قابعا فى موقف لا مخرج منه !

وفى ١٦ أكتوبر فتح الباب لبدء العمل ، ولكن بريطانيا كانت لا تزال جامدة ومتشددة ليس فقط سياسيا مع ايدن بل أيضا عسكريا • والحقيقة أنه وضعت اللمسات الاخيرة للخطة فى باريس بين الفرنسيين والاسرائيليين ، وذلك بين يومى ١٢ و ١٩ أكتوبر ، وكان الفرنسيون يحيطون الدوائر البريطانية علما بها فى لندن يوما بعد يوم • وكانوا كلما مر الوقت ـ ولا سيما بعد نهاية الخدعة الاردنية ـ يشعرون بأن أصدقاءهم البريطانيين يزدادون جمودا وتشددا • وكان ذلك يرجع الى أسباب كثيرة ، ولم يكن السبب الاساسى ظاهرا فى هذا الوقت • ان خطة « موسكتير المعدلة بصفة نهائية » والتى حملها الى اسرائيل يوم ٢٠ سبتمبر « آبل توماس » والكولونيل «مانجان» لم تكن تحدد تاريخا لبدء العملية ، كما لم تحدده أية خطة لاركان الحرب ، اذ أن تحديد التاريخ ترك للقائد

الاعلى وفقا لما تقتضيه التعليمات السياسية • وسرت شائعة ـ وقد رددها بعد ذلك راندولف تشرشل ـ انه قد اقترح أن تتم العملية فى بداية نوفمبر • وهذا ما كانت تنطوى عليه فكرة خطة الشتاء التى كانت تهدف الى استبعاد العملية الفرنسية الاسرائيلية لاسباب فنية وكذلك لاسباب جوية (فقد قيل أن ميناء ليماسول بقبرص لا يمكن استخدامه بعد أول نوفمبر ، كما أن مطار تيمبو يصبح غير صالح بعد هذا التاريخ ويصبح نزول القوات بالمظلات أمرا صعبا وتصبح الملاحة رديئة نظرا لسوء حالة البحر) وعلاوة على ذلك لم تكن الروح المعنوية لدى البريطانيين قوية مثلها عند الفرنسيين ، اذ كان المتحمسون منهم للحرب يعملون بقوة • فقد قامت مظاهرات جماعية وحركات اضراب وتمرد ضد العرب داخل الوحدات البريطانية المعسكرة فى قبرص ومالطة •

وأخيرا تقرر أن تنفذ خطة الشتاء يوم ٢١ أكتوبر بعد أن اعتمدها القادة يوم ١٢ أكتوبر واعتمدها رئيس أركان الحرب البريطانى يوم ١٩ أكتوبر •

وهكذا علم أنصار التدخل الفرنسيون فى باريس مساء ٢٠ أكتوبر أن آمالهم بشأن القيام بتدخل عاجل قد تحطمت • وقد أخطروا البريطانيين بأنهم لن يوافقوا على تأجيل جديد ، وانهم سيبدأون العمل مساء ٢٠ أكتوبر مهما يكن من أمر •

وحينذاك يقع حادث غريب • فقد تقرر يوم ١٩ أكتوبر مد مدة خطة «موسكتير» الى تاريخ أبعد مما كان محددا لها × ، وبدون الغاء « خطة الشتاء » فيبدأ الغموض يظهر وتبدأ الخطط تتعدد • انها ستتداخل حاملة أسماء غريبة • وفى بعض الاوقات لم يعد أحد يستطيع أن يتبين الامر ، وهذا ما كان يضفى على العملية طابع السرية النسبية •

× أى يوم ٢٠ أكتوبر فى منتصف الليل لاعطاء أمر الاستعداد • وتشير مسألة الامر فى ١٩ أكتوبر بارجاء التاريخ المحدد لتنفيذ هذه الخطة الى انه لم يكن قد تقرر فى ١٦ أكتوبر تنفيذ شىء بصفة عاجلة •

الى الهجوم :

ووقع فى اليوم التالى ــ ٢٠ أكتوبر ــ حادث أكثر غرابة • لقد علم فى المساء فى الوقت نفسه فى لنــدن وفى باريس وفى تل أبيب أن أمر الاستعداد لتنفيذ العملية « موسكيتير » قد أعطى فى الجزائر • وقد صدر هذا الامر قبل أن يواجه العسكريون مؤيدو التدخل بخطة الشتاء بفترة قصيرة تبلغ بضع ســاعات فقط وفى ٢١ أكتوبر نفذ أمر شحن السفن • وقد استمر شحن المعدات والرجال طوال النهار بحجة القيام بأعمال التدريب • وفى ٢٢ أكتوبر تحركت السفن التى تحمل الوحدات البرمائية لقوات الهجوم ، وقد وصلت الى ميناء بون الجزائرى يوم ٢٣ أكتوبر ، حيث استكملت حمولتها وآخذت معها قوات الكوماندوز البحرية المكلفة بالهجوم الفعلى ، وسار الجميع بحرا نحو النقطة المتفق عليها، أى نقطة تجمع السفن التى ستشترك فى الهجوم • وفى ٢٢ أكتوبر أيضــا تحركت الطائرات المطاردة التى تقرر أن تتجه من فرنسا الى اسرائيل فى آخر لحظــة ، ثم توقفت الحركة ، واستؤنفت بعــد ذلك بخمسة أيام • أما بالنسبة للفرنسيين فانهم يعتبرون أن عملية السويس قد بدأت ، فى حين لم تكن أية قوة بريطانية قد صدر اليها أمر الاستعداد • ولنأخذ مثلا لذلك : كان اللواء الثالث من قوات الـكوماندوز التى عهد اليها بالهجوم على بور سعيد تقتل الوقت كمــا تشاء فى مالطة حيث كانت تتدرب منذ شهرين × « لقد بدأ الجيش الفرنسى فى التحرك ولا يعلم أحــد اذا كانت الحكومة الفرنسية كانت تعرف ذلك وقتئذ » وتروى فى هذا الصدد قصص عن بعض الاعمال التى قام بها أحد الجنرالات الفرنسيين ، وهى أعمال لم تغفرها له وزارة الخارجية الفرنسية بعد ! ولم يكن من السهل اغضاب وزارة الخارجية ، بل لم يكن ينبغى أقل من حدوث ثورة لكى لا تغفر وزارة الخارجية أمرا ما •

ومع ذلك ففى حين كانت القوة البرمائية الفرنسية تسير بحرا فى اتجــاه الشرق يوم ٢٤ أكتوبر ، صدرت اليها أوامر مضادة وعادت أدراجها الى ميناء بون بالجزائر •

× انظر كتاب « الهبوط على السويس » بقلم د • كلارك احد ضباط هذه الوحدة (لندن ، بيتر ديفز) •

هناك رجل لا يوافق على ذلك ، وهو بن جوريون الذى لا يريد جر بلاده الى حرب دون اتخاذ ضمانات الامن اللازمة والتأكد منذ الساعة الاولى من استطاعته مواجهة خطر قاذفات القنابل الاليوشن التى يملكها ناصر . واذا كان بن جوريون قد رفض التقدم فى هذا التاريخ فهذا دليل على أنه لم يكن قد بدأ حملته بعد ، فبين ٢٠ و ٢٤ أكتوبر لم يكن قد بدأ العمليـات العسكرية الا الفرنسيون فقط الذين ذهبوا للحرب بحجة الفصل بين المتحاربين الذين لم يكونوا قد تحاربوا بعد، ويبدو من غير المعقول أن يكون جى موليه قد أصدر مثل هذا الامر بدون استشارة اسرائيل ، وبصفة خاصة بدون استشارة بريطانيا لانه كان يدرك ادراكا تاما خطورة النتائج المترتبة على ذلك .

ولقد رأينا حروبا عالمية تقع بسبب أعذار تافهة . ويبدو أننا لم نر بعـد حروبا تقع من جراء عمل يخالف النظام حتى ولو كان هـذا العمل يحمل توقيعا مبهما لمسئول مدنى .

حان وقت العمل :

ان هذه الايام الواقعة بين ٢٠ و ٢٤ أكتوبر هى على كل حال أوقات القيام بالعمل . ففى أكتوبر قطعت الطائرات العسكرية الفرنسـية الطريق على طائرة مغربية كانت تحمل أهم زعماء الثورة الجزائرية وأرغمتها على التوجه الى الجزائر . وسيق بن بيللا ورفاقه الى السجن ، وقد أعرب عشرات الملايين من ضعاف التفكير عن فرحهم لهذا الحادث اعتقـادا منهم بأن هذه المعجزة ستـضع نهاية الكابوس الجزائرى ، والحقيقة كانت على العكس من ذلك : ان بن بيللا كان مسافرا باتفاق ضمنى مع الحكام الفرنسيين ، وذلك بعـد محادثات جـديدة تمت بين مندوبى جى موليه وزعماء التمرد الجزائرى فى بداية سبتمبر .

ان جي موليه كان يعلم ماذا كان يفعل بن بيللا في تونس، ولم تكن هناك لحظة افضل من هذه لاتمام تسوية المشكلة الفرنسية الجزائرية تسوية تبقى على وجود القوات الفرنسية في الجزائر . ولكن القادة المتطرفين والعسكريين ــ الذين كانوا يريدون الحصول في الجزائر على ما فقدوه في فيشي ــ ركبوا رؤوسهم وارتكبوا هذه الحماقة دون تبصر . ومع ذلك فهؤلاء الذين قاموا بهذه العملية كانوا يعرفون خطورة ما يفعلون ، وكانوا يعلمون بالمحادثات التي كانت تجرى بين بن بيللا وكبار رجال البترول الامريكان ، وقد اعتقدوا أن بن بيللا يحمل معه ــ أو أن أحد مرافقيه يحمل في حقيبته ــ مستندات دامغة تكفي لاحراج رجال البترول الامريكان وحثهم على تقديم النصيحة لصديقهم فوستر دالاس لكي يلتزم الهدوء والاعتدال. وقد خاب هذا الامل لان هذه المؤامرة لم تثمر شيئا . وسرت في باريس في ذلك الوقت ــ في الدوائر المطلعة على بواطن الامور ــ شائعة مؤداها أن السفير الامريكي ذهب مندفعا الى احدى الشخصيات الكبيرة الفرنسية التي ربما كانت تدين له بجميل ما وطالبها باعطائه خطابا تعلن فيه أنه لم يضبط في أوراق بن بيللا شيء يدين أي مواطن أمريكي أو أية شركة أمريكية . ومهما يكن من أمر هذه الشائعة فمن المحقق على كل حال أن الامر بتفتيش طائرة بن بيللا قد صدر ، ليس فقط بدون أن يكون لرئيس الوزراء الفرنسي أي دخل بل حتى دون أن يخطر بذلك . أما ما يجب أن نستنتجه ، فهو أن هذا الحادث كان وسيلة قصد بها الضغط على الزعماء الامريكيين لاحراجهم وارغامهم على ترك حرية العمل لنا في السويس . وهي فكرة بوليسية رخيصة ، ولكن يالها من بساطة في التفكير وياله من نقص في معرفة طباع القادة الامريكان !

لقد قبض على بن بيللا ورفاقه يوم ٢٢ أكتوبر ، واندلعت يوم ٢٣ الثورة في بودابست . ومن الواضح أننا لا ننسب قيام هذه الثورة الى هيئة أركان الحرب الفرنسية . اذ لا يمكن وقوع مثل هذه الثورة الا اذا كانت قائمة على أساس تستطيع بفضله أن تثبت وأن تنمو. وقد كان هذا الاساس موجودا في بودابست. كان نظام القمع الذي فرضه الانتصار السوفييتي وعدم الذكاء المذهبي الذي يتسم به هؤلاء القادة الاجانب الذين لم يخترهم الشعب المجري مما يؤدي الى قيام حركة

انقلاب • وهنا فقط يقع التوافق ، ففى يوم ٢٣ أكتوبر فى حين كانت التحركات العسكرية جارية فى البحر المتوسط نشبت فى بودابست حركة لعب فيها الاشتراكيون المجريون دورا هاما بحيث كانت النتيجة المباشرة لذلك أن التفتت روسيا الى بودابست وأدى تدخلها الى استنكار العالم ، وفى الوقت نفسه شغلت الثورة مجلس الامن لدرجة كبيرة •

طائرات كامبيرا :

وفى أيام ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ أكتوبر كان بن جوريون موجودا فى باريس ومعه قائد الجيش الاسرائيلى ، الجنرال « ديان » ومدير عام وزارة الدفاع « شيمون بيريه » • وقد قابل بطبيعة الحال القادة الفرنسيين ، وهذا لا يثير مشكلة خاصة • ونظرا للاتفاق المعقود بين الطرفين على المستوى العسكرى ، فلم تكن هذه الزيارة لازمة ، لقد تم فى باريس التنسيق بين الاعمال الفرنسية الاسرائيلية المرتبطة مع القوة وذلك بين الكولونيل « نشرى » الملحق العسكرى الاسرائيلى والجنرال بوفر • وكان هذا الاتفاق يتضمن ثلاث نقاط هى : أن يلقى الفرنسيون للقوات الاسرائيلية التى تحارب فى سيناء أسلحة مضادة للدبابات بواسطة المظلات ، وأن يلقى أيضا بالمظلات مواد التموين وخاصة الماء للقوات الاسرائيلية التى تقاتل فى الصحراء ولا سيما الفرقة الاسرائيلية التى ستطلق فى اليوم الاول على موقع « متلا » بسيناء ، وأخيرا يقدم الفرنسيون للاسرائيليين المساعدات البحرية التكتيكية ويقومون بضرب مواقع رفح المحصنة • أما باقى التعاون الفرنسى الاسرائيلى المتمثل فى وجود المجموعات الفرنسية من طائرات « ميستير » الفرنسية فى اسرائيل واشتراكها فى القتال بعد ذلك ، فقد كان يدخل فى نطاق الاختصاص المباشر لمكتب وزير الدفاع الفرنسى ولم يكن من اختصاص القوة (أ) • وعلينا أن نتذكر أن النقاط الثلاث التى تنص على التعاون بين فرنسا واسرائيل عن طريق القوة (أ) تدخل تحت عنوان خفى فى خطة « موسكتير النهائية » التى وضعت بين ١٤ و ١٨ سبتمبر ، وشكلت الفرق بين خطة « موسكتير المعدلة » و « موسكتير النهائية » •

وكانت هيئة أركان الحرب البريطانية قد أخذت بهذه النقاط يوم ١٨ سبتمبر على أكثر تقدير ، بل الادهى من ذلك أنه نظرا لان القيادة كانت انجليزية فهى نفسها التى أضافت هذه النقاط ٠

ولـكن بن جوريون كان فى حـاجة الى أكثر من ذلك ، فهو يطلب حمـاية ضد تهديد ناصر الجوى ، وهذه حماية لا تضمنها له طائرات المستير الفرنسيـة بشكل كاف : والحقيقـة أن سرعة قاذفات القنابل الحديثـة وصغر رقعة الارض الاسرائيلية واستحالة اعداد جهاز فعال للكشف عن الطائرات المهاجمة يجعل أى هجوم مركز تقوم به طائرات ناصر « الاليوشن » ضد اسرائيل خطرا جسيما ، ولا يمكن صده الا جزئيا ، ولكن يمكن صد هذا الهجوم على نحو أفضل اذا وضع نظام للرقابة فوق المطارات المصرية ، بل قد يمكن صده بشكل أفضـل من ذلك بكثير اذا كان نظام المراقبة هذا يستطيع أن يتحول الى جهاز للهجوم بحيث يترك أكبر عدد ممكن من هـذه « الطيور » جاثمة بدون حركة على الارض ومنعهـا من الطيران الى المدن الاسرائيلية ٠ ولا يمكن أن يقدم مثل هـذه الحمـاية ومثل نظام المراقبة هذا ــ فى سلاح الطيران الفرنسى البريطانى كله ــ سوى قاذفات القنابل الخفيفة من طراز « كامبيرا » التى يملكها سلاح الجو الملكى البريطانى ، وقد وعدت اسرائيل بهـا وهى تعلم علما تاما أن هذه الطائرات ســتكون أولى الطـائرات البريطانية التى ستفتح نيرانها ٠ ولن يتم هذا التدخل الا بمجرد دخول البريطانيين مسرح الاحداث ، أى بعـد نهاية مهلة الانذار النهائى المقررة ، أى باثنتى عشرة ساعة على الاقل بعد هجوم القوات الاسرائيلية على مصر ٠ وكان بن جوريون يرى أن مهلة الاثنتى عشرة ساعة لا لزوم لها ، لأنه اذا كان ناصر هو كما تصفه الدعاية الفرنسية الاسرائيلية البريطانية وكما يصفه جى موليه حتى الآن ــ أى بعد ثمانى سنوات من حملة السويس ــ هو هتلر وادى النيل أى بمعنى آخر اذا كان التهديد بالقضاء على اسرائيل × تهديدا جادا ، فان ناصر سيلقى فى الحال بجميع قاذفاته

× ذلك لأن التهديد المصرى الموجه ضد اسرائيل أمر جاد (والا فهو ليس بتهديد بل تمثيلية) بل انه قبل كل شىء تحرش ٠ ان هدفه مزدوج ، أن يجعل من ناصر « بطل » القضـية العربية ــ على حساب نورى السعيد وسعود ــ وأن يحمل اسرائيل على الخروج من هدوئها والاندفاع فى الوقت الذى يختاره لها ناصر الى شن حرب تبدو كما لو كانت بغية الدفاع عن النفس ٠

على المدن الاسرائيلية ، وسيجد بن جوريون نفسه قبل نهاية مهلة الانذار النهائى مسئولا عن قتل خمسمائة ألف نفس •

ان ما يطلبه بن جوريون من البريطانيين ومن سلوين لويد× بصفة خاصة ليس فقط تدخل طائرات « كامبيرا » الذى وعد به ولكنه أيضا يطالب بأن تطير هذه الطائرات قبل الميعاد باثنتى عشرة ساعة وتنفذ العمل فوق المطارات المصرية وتكون مستعدة للضرب الشامل بمجرد اعطائها أول اشارة ، أى فى الوقت الذى تجتاح فيه القوات الاسرائيلية الاراضى المصرية • هذا هو أحد أسباب الرحلة السريعة التى قام بها بن جوريون لباريس ، وهذا هو ما حصل عليه الرئيس الاسرائيلى من ايدن ، وهو شىء أبعد من الوعود وقد تم الاتفاق عليه فى أواخر أغسطس مع الرئيس السابق لاستعلامات جماعة الارجون الاسرائيلية ، وأعطى عنه تأكيد للكولونيل « هنريك » وهذا يتعدى الحياد العاطفى بالنسبة لبداية المعلومات الاسرائيلية ليتحول الى تدخل فرنسى بريطانى المباشر لمساندة اسرائيل منذ الدقيقة الاولى للهجوم •

وبمجرد عودة بن جوريون الى اسرائيل يوم ٢٥ أكتوبر اتخذت الاجراءات العسكرية التى أدت الى القيام بالهجوم يوم ٢٩ أكتوبر ، ولقد اتخذت فى الواقع الدول الثلاث القرارات النهائية والمنسقة بعناية تامة يوم ٢٥ أكتوبر • والجدير بالملاحظة هو أن الوعد الذى كان يقضى باشتراك طائرات « كامبيرا » فى العمليات منذ الدقيقة الاولى قد نفذ تنفيذا تاما • ففى الوقت الذى هاجمت فيه القوات الاسرائيلية مصر ، كانت طائرات كامبيرا التابعة للسلاح الجوى الملكى تحلق فوق المطارات المصرية • ان المسألة رسمية ، وقد اعترف ايدن نفسه بهذه الحقيقة فى فصل من فصول مذكراته × × وقد قال رئيس الوزراء فيها « كان علينا أن نتحقق من سير الاحداث بقدر ما نستطيع • وقد كنا فى بعض الوقت نقوم برقابة مائعة

× يوم ٢٤ أكتوبر (كان بينو فى لندن يوم ٢٣) ان المسألة موضع البحث كانت مسألة ثانوية ، اذ أن التعاون كان على مستوى أركان الحرب منذ أكثر من شهر •

× × ايدن : مذكراته ص ٥٨٨ •

ـ الى حد ما ـ على القناة وعلى تحركات القوات المصرية ، وذلك بواسطة طائرات كاميرا التى كانت تطير على ارتفاع شاهق مع ملاحظة محازاة الشاطىء فى معظم الاحيان • ولم يكن لهذه العمليات الاستكشافية أى رد فعل ، وكنا نعتقد أنها لم تلاحظ • وفى ساعة متأخرة من يوم ٢٩ أكتوبر تحدثت مع وزير الدفاع ورئيس أركان حرب الطيران ، وأبرزت لهما أهمية حصولنا فى اليوم التالى على معلومات نستطيع أن نعتبرها مؤكدة ، وذلك بأسرع وقت • وقد صدر الامر بالقيام بعمليات استكشاف فى الفجر ، وكان من المقرر أن تقوم بها أربع طائرات من طراز كاميرا • تطير على ارتفاع يتراوح بين ٩٫٠٠٠ و ١٢ ٠٠٠ متر ، بحيث تحاول الكشف عن القوات المعادية وتصويرها ان أمكن • وقد نفذ الطيارون هذه التعليمات • ولكن على الرغم من ارتفاعهم الشاهق ، فقد أكتشفت الطائرات الاربع وتصدت لها طائرات معادية وأطلقت على بعضها المدافع الرشاشة » •

وهكذا يشرح لنا رئيس الوزراء البريطانى بكل هدوء كيف اخترق سلاح الطيران الملكى المجال الجوى المصرى فى الايام التى سبقت الهجوم الاسرائيلى وذلك بناء على أوامر صادرة منه شخصيا ، وكيف حلقت قاذفات القنابل البريطانية فوق الاراضى المصرية فى أثناء الساعات الاولى من الهجوم تلبية لطلبه أيضا •

لم يكن هذا هو الهدف الوحيد الذى سعى بن جوريون الى تحقيقه من وراء سفره الى باريس • لقد دفعه للسفر أيضا أسباب دبلوماسية خطيرة ، اذ جرت فى الواقع فى الامم المتحدة محادثات عن طريق السكرتير العام لهذه المنظمة بين وزير الخارجية المصرى والدبلوماسيين الانجليز والفرنسيين ، وذلك على أثر قرار مجلس الأمن الصادر يوم ١٣ أكتوبر • وكانت هذه المحادثات قد تقدمت بدرجة تبعث على الاعتقاد يوم ٢٢ أو ٢٣ أكتوبر يقرب الوصول الى اتفاق ، وقد استطاع السكرتير العام أن يحرر يوم ٢٤ أكتوبر خطابا يلخص فيه النتائج التى تم الوصول اليها ، ولم يكن ينقص هذا الخطاب غير الموافقة المصرية حتى تتم تسوية مشكلة السويس عن طريق المفاوضات ، وكان يكفى فى هذا الوقت اشارة من ناصر لكى

تنهار خطة الحرب الاسرائيلية ، وكان بن جوريون ومشجعوه من الاسرائيليين والفرنسيين يعتقدون أن هناك « خطر سلام » جسيما للغاية ، أى أنهم كانوا يخشون استقرار السلام . وكان بن جوريون يعلم أن موليه وبينو وبورجى مونورى لن يذعنوا لهذه الرغبة فى السلام ولكنه كان يشك فى رغبة ايدن فى الحرب . وكانت النزعة الدبلوماسية عند الذى أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا أقوى من النزعة العسكرية التى كانت تجيش فى صدر هذا الضابط السابق فى الجيش الاستعمارى البريطانى . ان ما كان يتوق اليه رئيس الحكومة الاسرائيلية هو التأكيد بأن بريطانيا ستدخل الحرب حتى اذا قبل ناصر بروتوكول اتفاق همرشلد ، وتشير جميع الدلائل الى أن « الاسد العجوز » قد حصل فى باريس على جميع هذه الضمانات .

الخطة « أوميليت » :

اتضح للحلفاء أنهم وان كانوا قد أعدوا كل شىء للحرب فانهم لم يفكروا فى النصر ، أو على الاقل فى النصر السريع . كما أنهم لم يفكروا فى احتمال قيام تدخل أجنبى أو قيام الأمم المتحدة بعمل ما قبل أن يستطيع الحلفاء أن يحصلوا على « الضمان » الذى يحلمون بفرضه على القناة .

ولذلك تلقى رؤساء أركان الحرب يوم ٢٥ أكتوبر تعليمات تطلب منهم استكمال خطط العملية ضد مصر ، مع التفكير بصفة خاصة فى وضع خطة لاحتلال بور سعيد وبور فؤاد بسرعة ، بحيث تنفذ بمجرد صدور الامر بتنفيذ العملية « موسكيتير » . وهذه الخطة التى ستسمى « أوميليت » ستكون جاهزة يوم ٣١ أكتوبر ، وستنص على القيام باحتلال سريع لمدينتى بور سعيد وبور فؤاد فى حالة عدم وجود مقاومة ، أو حتى فى حالة وجود مقاومة طفيفة لا تذكر . وهذه هى الخطة المزمع استخدامها منذ الايام الاولى للهجوم الاسرائيلى . وهى مقررة فقط ليوم ٣ و ٤ نوفمبر على شكل احتمال ، ذلك لأن القرار سيتخذ مساء يوم ٢ (أو يوم ٣ لكى تنفذ الخطة المحتملة يوم ٤) ولكن هذه الخطة لا تعوق العملية موسكيتير التى يجرى تنفيذها منذ يوم ٢٥ أكتوبر .

القـرار :

وفى ٢٥ أكتوبر بحث مجلس الوزراء البريطانى « احتمال قيام نزاع بين اسرائيل ومصر » وقـد حـدد موقف بريطانيـا الذى يقضى بدعوة المعسـكرين المتجاورين الى وقف القتال وبالتدخل للفصل بين المتحاربين اذا لم يذعنا لهـذه الدعوة ولتحقيق هذه الغاية ينبغى : « احتلال المراكز الرئيسية فى بور سـعيد والاسماعيلية والسويس » التى لا تفصل فى الواقع بين المتحاربين بل توجد غربا داخل الاراضى المصرية • « ان هدفنا ـ كما يقول ايدن ـ هو المحافظة على حرية المرور فى القناة ، وليس الخطر بالنسبة لنا فى النزاع نفسه بل فى احتمال اتساعه لتدخل الدول العربية الاخرى • وأفضل طريقة لتجنب اتساع نطاق الحرب هى ان نتدخل بأنفسنا » • وقد حددت الحكومة البريطانية خطة عملها بناء على هذا المنطق الجرىء الذى يفتقر الى قوة الاقناع •

وفى ٢٦ أكتوبر صدرت الاوامر الاولى ، وفى ١٧ وضـعت الخطط موضـع التنفيذ ، وقد صدر الامر فى الواقع يوم ٢٧ الى المجموعة البرمائية لقوة الهجوم • التى سبق أن تحركت يوم ٢٢ أكتوبر ثم عادت الى ميناء بون الجزائرى يوم ٢٥ بالابحار مرة ثانية • وفى هذا اليوم نفسه صـدرت أوامر الاستعـداد الى لواء الكوماندوز الثالث البريطانى المعسكر فى مالطة ، ووصل أخيرا الى اسرائيل فى ذلك اليوم الموظفون الفرنسيون المكلفون بصيانة طائرات « ميستير » التى ستقوم بوظيفة « المظلة الجوية » للقوات الاسرائيلية فى أثناء زحفها فى سيناء •

وبصفة عامة كان كل شىء على ما يرام ، وقد أخذت نتائج محادثات سيفر التى جرت يوم ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ أكتوبر والتى انتهت بما يسمونه الآن بروتوكول سيفر Sèvres تؤتى ثمارها على النحو المرغوب •

الفزع فى واشنطون :

لم تمر هذه النتائج دون أن يلاحظها أحد ، وكان الامريكيون تساورهم الشكوك فى أن شيئا يوشك أن يحدث • ففى ٢٦ أكتوبر ذهب سفير الولايات المتحدة دوجلاس ديلون لمقابلة لويس جوكس السكرتير العام لوزارة الخارجية وسأله عن حقيقة الشائعات التى تملأ باريس ، وقد قدم جوكس للسفير الامريكى جميع التأكيدات التى طلبها • وتلقت واشنطن معلومات أخرى بنفس المعنى من فرنسا واسرائيل وبريطانيا • ويؤكدون بهذه المناسبة أن الاجهزة الدبلوماسية السوفييتية نفسها قد نقلت الكثير الى أصدقائها الجدد الامريكيين × •

ومهما يكن من أمر فقد أرسل الرئيس أيزنهاور يوم ٢٧ أكتوبر رسالة الى بن جوريون يطلب منه فيها أن يتحاشى تعكير صفو السلام فى الشرق الاوسط • وفى اليوم نفسه قابل السفير المصرى أحد الدبلوماسيين الفرنسيين الكبار وهو المسيو مايار فى حفلة كوكتيل دبلوماسية وقال له بلهجة سخرية واستنكار «يبدو ياصديى العزيز أنكم ستهاجموننا » وكان السفير يؤكد أنه استقى هذا الخبر من الدبلوماسيين التابعين للدول الشيوعية •

وفى اليوم التالى ـ ٢٨ أكتوبر ـ وصلت رسالة ثانية من أيزنهاور الى بن جوريون دون أن تحدث أثرا دوليا أكبر مما أحدثت رسالته الاولى • وقد دعت وزارة الخارجية الامريكية الرعايا الامريكيين الى مغادرة دول الشرق الاوسط ، كما أعلنت وزارة البحرية أن الاسطول السادس الامريكى موجود فى شرق البحر المتوسط ، وأنه كلف باعادة الرعايا الامريكيين الى بلادهم •

وفى اليوم نفسه أشارت أنباء الصحف الى أن أسطولا قويا من السلاح البحرى الملكى البريطانى غادر مالطة فى اتجاه الشرق الاوسط ، وكان هذا التحرك يهدف من الناحية الشكلية الى اجراء تدريبات ، ولكنه فى الواقع كان يهدف الى التجمع عند النقطة « ى » وهى نقطة فى مكان ما فى البحر تقرر أن تتجمع عندها

× مجلة « لاتريبيون دى ناسيون » •

سفن الحملة التى ستحتشد أمام بور سعيد يوم ٧ أو ٨ نوفمبر ، وقد حمل الجنرال بوفر على هذا التاريخ عنوة من الجنرال الانجليزى ستوكويل قائد القوات البرية فى أثناء المحادثات التى جرت بينهما فى باريس يوم ٢٦ أكتوبر ، وقد أمكن فيما بعد اقناع لندن بتقديم هذا التاريخ الى يوم ٦ نوفمبر ٠

وفى ٢٩ أكتوبر انتقل مركز قيادة القوة « أ » من الجزائر الى قبرص ٠

الفصل الثالث عشر

الشرارة

بدأت الحرب باعتداء كان مقصودا به قائد الجيش المصرى المشير عبد الحكيم عامر فى أثناء عودته من دمشق الى القاهرة ، وكانت تصحب طائرته طائرة أخرى تحمل باقى أركان حربه • وهذه الطائرة الثانية هى التى سقطت فى البحر • وقد علقت الدوائر العسكرية الفرنسية والاسرائيلية فى اسرائيل على ذلك قائلة : لقد أخطأنا الطائرة !

وصل عبد الحكيم عامر الى القاهرة ليعلم أن أمورا غريبة تجرى فى مصر • ان طائرات كثيرة تخترق المجال الجوى المصرى ، ففى غرب القنـاة تظهر طائرات كامبرا التابعة للسلاح الجوى الملكى البريطانى وعلى الضفة الشرقية تظهر دوريات طائرات الميستير الاسرائيلية ، وفى الشرق ـ فوق سيناء ـ يظهر سيل ميستير تقريبا من طائرات داكوتا تطير على ارتفاع منخفض متجهة من الحدود الاسرائيلية نحو مدينة السويس وتحرسها على ارتفاع متوســط طائرات مطـاردة من طراز ميتور وتحلق فوقها أيضا طائرات أحدث منها من طراز أوراجون •

ماذا كانت تفعل طائرات داكوتا فى سيناء مصر ؟ هـذا ما سنعلمه بعـد قليل ، ففى الساعة السابعة عشرة ـ أى الخامسة مساء ـ أنزلت عند مدخل ممرات متلا على مسافة أربعين كيلو مترا تقريبا من مدينة السويس ـ أى من القناة فى نقطة قريبة من البناء المقام على تل أحياء لذكرى الكولونيل باركر الذى كان حاكما

انجليزيا على سيناء ـ كتيبة من جنود المظلات التابعين للواء ٢٠٢ من الجيش الاسرائيلي • وقد انتشر رجال المظلات بسرعة وعسكروا بين هذا البناء وممر متلا، وهو طريق ضيق يمتد ثلاثين كيلو مترا تقريبا بين الصخور الوعرة • وقد أرسلوا دوريات فى مدخل الممر وقضوا الليل وجزءا من نهار اليوم التالى فى حفر الخنادق فى هذه الاردن الجرداء الصخرية • وهم لم يكونوا يحملون معهم غير أسلحتهم الشخصية وقليل جدا من المعدات وبعض مواد التموين ، وكان موقفهم حرجا • أنهم لم يكونوا غزاة بل كانوا بالأحرى رهائن !

ولكن هذا تم يمنع تل أبيب من نشر بيان تتحدث فيه عن أنها تقوم بهجوم فى اتجاه قناة السويس • ان هذا التهديد الموجه ضد السويس هو الذى سيبرر شكليا الانذار الفرنسى البريطانى الذى أعد نصه فى الايام السابقة • وكان ينبغى نشر هذا النص بصفة عاجلة بحيث يستطيع الفرنسيون والبريطانيون التشاور وبحيث يعرفون ردود الفعل الدولية وبحيث يستطيع السلاح الجوى الملكى أيضا تحطيم طائرات الاليوشن المصرية بأسرع ما يمكن • ولكن فى الوقت الذى نشر فيه هذا النص ظهر البيان الاول فى تل أبيب ، وهو من الناحية الفنية عبارة عن مهزلة • بل ان كل الناس تساءلوا كم من الوقت يستطيع جنود المظلات هؤلاء الذين ألقوا هكذا على شكل مغامرة أن يصمدوا ومتى سيلحق بهم باقى جنود اللواء ٢٠٢ الذين عبروا الحدود فى الساعة الرابعة مساء أى قبل نزول رجال المظلات بساعة • والواقع أنه فى الوقت الذى دخل فيه اللواء ٢٠٢ أرض مصر فانه أصيب بخسائر تزيد على جملة الخسائر التى أصيبت بها القوات الاسرائيلية فى باقى الحملة •

ولاحداث عامل المباغتة ركز الاسرائيليون مختلف وحدات هذا اللواء فى منطقة عين خصب على حدود الاردن • وكان التوقيت يقضى بأن يغادر هذا اللواء منطقة عين خصب يوم ٢٩ أكتوبر فى الساعة الثالثة صباحا ليصل الى الحدود المصرية فى اليوم نفسه الساعة السادسة عشرة • وقد تم تعبئة اللواء بسرعة بحيث لم تصل نصف المعدات اللازمة الى عين خصب فى الوقت المحدود ولا سيما العربات

المصفحة اللازمة التى تصلح للسير على كل نوع من الاراضى • ونظرا لأنه كان يجب المحافظة على توقيت العملية بأى ثمن ، فقد تقرر الزحف الى الحدود بأية وسيلة ، وأرسلت السيارات فى عجلة شديدة الى منتصف الطريق الى الحدود حيث كانت تشحن بما يمكن شحنه من معدات ، ومن هنا نتج سوء التقدير والاخطاء وأخيرا الفوضى • لم يكن هناك جيش بل خليط غير معقول من سيارات النقل المدنية والسيارات العسكرية والسيارات الخاصة ، وحتى السيارات العامة راحت تتقدم مسعورة نحو الحدود المصرية كأنها تسير نحو أرض الميعاد •

والمصيبة أنه كان على الطابور أن يعبر ممرا رمليا بين جيرافى وسويلمة ، واذا كان هذا الممر سهل العبور بالنسبة للسيارة الصالحة لكل أرض والمجهزة بألواح لمنع انغراسها فقد كانت بمثابة مقبرة حقيقية للسيارات العادية • وقد غرست فعلا وتوقف معظمها، فكانوا ينقلون أهم حمولتها الى السيارات التى لا تزال تستطيع السير ، ولكن هذه غرست هى الاخرى وتوقفت عن السير • أما العربات ذات العجلات الست والتى استطاعت أن تعبر الممر الصعب بسلام فقد وصلت الى جيرافى ولكن بدون قطع غيار أو آلات ، بل ان كثيرا منها قد أكمل رحلته سائرا على الحديد بدون اطارات • أما سيارات تموين البترول فقد ظل معظمها متوقفا فى مؤخرة الطابور •

ومن حسن حظ الاسرائيليين أن المصريين لم يظهروا ، لان أكثر مراكزهم تقدما كان فى الكونتيلا على مسافة عشرات الكيلو مترات من الحدود ولأن قوة الحدود الصحراوية ــ أى القوة الخفيفة ــ التى كانت تحرس الحدود لم تتنبه الى ما كان يجرى •

وكان الطريق بين « جيرافى » والحدود يزدحم بسيارات اللواء ٢٠٢ كما لو كانت الوحدة قد وقع عليها هجوم جوى عنيف • ولم يمنع هذا القوة الطليعة من أن تهاجم فورا موقع « الكونتيلا » بمجرد وصولها اليه حين الغروب •

وقد دافعت الحامية المصرية الصغيرة عن نفسها بقدر ما استطاعت أمام هذه الجموع المهاجمة ثم استغلت الظلام لتختفى فى الصحراء دون أن يعرف بسيرها أحد • وهكذا استولى الاسرائيليون على الكونتيلا ، وانتهت المهمة بنجاح • وكان هذا هو مضمون البلاغ الجميل الذى نشرته تل أبيب فى هذا الصدد •

وللزحف الى أبعد من ذلك كان يجب على الاسرائيليين أن يأخذوا حذرهم ، فقد بعثروا على الطريق سياراتهم كما يبعثر الطفل الصغير الحصى الذى يلعب به • كان نصف العربات الحربية الخفيفة واقفا بدون حركة ، ومن ثمانية عشر مدفعا لم يبق غير مدفع واحد !

وقد احتاجت القوات الاسرائيلية الى خمس ساعات للخروج من هذه الفوضى غير المعقولة • ولحسن الحظ أنزلت الطائرات الفرنسية من طراز « نورد ـ أطلس » القادمة من قبرص مواد التموين والماء والبترول بالمظلات • وفى الوقت نفسه كانت طائرات « نورد ـ أطلس » نفسها تلقى بالاغذية والمعدات لرجال المظلات المعسكرين بجوار بناء « باركر » وقد فرحوا بما ألقى اليهم من ماء وسيارات جيب وبطارية من مدافع المورتر عيار ١٢٠ ملليمترا التى وصلت لتحقيق التفوق فى الصحراء •

وقد أدى دخول ثلاث دول فى الحرب مرة واحدة وبشكل منسق ـ ولو أن ذلك لم يكن الا بشكل سرى من جانب فرنسا وبريطانيا العظمى ـ الى نجاح العملية ، فقد ضمنت طائرات كامبيرا البريطانية لاسرائيل عدم تدخل طائرات الاليوشن المصرية كما أنها احتجزت غربى القناة الجانب الاكبر من الطيران المصرى وقد أنزلت طائرات « نورد ـ أطلس » بالمظلات الاسعافات اللازمة • أما طائرات « ميستير » القادمة من مدينتى ديجون وسان ديزييه بفرنسا فقد وصلت فى اليوم نفسه وكانت مستعدة لأن تحل محل طائرات « ميستير » الاسرائيلية حيث عملت مجموعة صغيرة منها فوق أراضى ضفة القناة الشرقية أما الباقى فكان يقوم بحراسة الاراضى الاسرائيلية •

وفى منتصف الليل تقريبا استطاع اللواء ٢٠٢ أن يتحرك ثانية فوصل فى الرابعة صباحا من يوم ٣٠ أكتوبر أمام المواقع التى تحيط بمنبع المياه فى التمد التى كانت تضم مراكزا للتدريب وكان الاسرائيليون يعلمون ذلك جيدا ٠

وفى أثناء هذه العمليات كانت الكتيبة الملحقة باللواء ٢٠٢ لمساعدته تعبر الحدود جنوبا فى اتجاه مركز رأس النقب لتعود ثانية الى التمد ٠

الخطـة :

وعلى الرغم من أن تل أبيب قد نشرت بلاغا تشرح فيه أن قواتها تتجه نحو قناة السويس فان الهجوم الاسرائيلى صور وكأنه حملة تأديبية ناجحة ، وذلك من قبيل الاحتياط اذا ما فشل من جراء أى تدخل دولى ٠

وفى ٢٩ أكتوبر كانت قذائف المدفعية قد بدأت تدق المراكز المصرية على الجبهة الوسطى ، ولكن كان يمكن اعتبار هذا أيضـا كأنه من قبيل الاستعداد للقيام بحركة انتقامية ٠

وحتى ذلك الوقت لم يظهر التوغل الا فى اتجاه واحد على جبهة الجنوب ، ولذلك احتفظ بطابع غارة واسعة النطاق تستهدف منع المصريين من تجريد الحملات الانتقامية التى قد تقوم بها طائرات اليوشن المصرية فى الساعات الأولى من القتال. أى فى الوقت الذى كانت اسرائيل تحارب فيه وحدها من الناحية النظرية، وأعطيت تعليمات مشددة للطيران الاسرائيلى بعدم القيام بأى عمل غربى القناة مهما يكن الامر ، وذلك لتجنب احتمال الغارات الانتقامية ٠

أما عملية اللحاق برجال المظلات الذين أنزلوا فى متلا فقد كانت بالنسبة للواء ٢٠٢ مجرد عقبة جغرافية يجب اجتيازها ٠ انهم كانوا يعلمون أنه لا يوجد أمامهم غير ثلاثة مراكز هى كونتيلا والتمد ونخـل ، وهى مراكز لم يكن يقـوم بحراستها سوى بضع مئات من الجنود يفتقرون الى المدفعية الثقيلة والسيارات

الثقيلة . والصعوبة فى خط الاقتحام هذا بدأت عند ممر متلا ، فى حين كان هناك فى الجبهة الوسطى الفرقة الثالثة المصرية مشاة ، وفى الجبهة الشمالية الفرقة الثامنة مشاة . واذا ساءت الأحوال فقد يكتفى باللحاق برجال المظلات واعادة الجميع الى القواعد الأولى .

كيف تسوء الأحوال ؟

لا يحتاج الأمر فى هذا الى شىء كثير . كان يكفى مثلا أن يرابط الاسطول السادس الامريكى عند بور سعيد فى حين يعيد ناصر بكل هدوء القوات المصرية من منطقة غرب القناة ، القوات التى أجبرتها الخدعة الحربية على مغادرة سيناء . كانت القوات الاسرائيلية ـ فى الواقع ـ قد هاجمت بميزة عددية اثنين ضد واحد أو ثلاثة ضد واحد ، نظرا لأن بعض الوحدات المصرية كانت ذات قيمة ضئيلة لدرجة أن الاسرائيليين أنفسهم لم يهتموا بها واكتفوا بالتقاطها فى نهاية الحملة وكانت أيضا تدرك جيدا أن فخ أجهزة المخابرات البريطانية نجح × . وكان ناصر قد حصل على خطة هجوم الحلفاء ـ الخطة موسكيتير ـ التى تشير الى أن الهجوم الرئيسى سيكون على الاسكندرية مع احتمال القيام بهجوم على بور سعيد لبعثرة القوى بحيث يكون الهدف الاساسى القاهرة . وقد رتب جميع قواته على هذا الاساس ، ولم يترك لمواجهة اسرائيل غير مجرد ستار من القوات فى حشد معظم قواته فى وسط مصر .

كانت بعض القوات تحمى الاسماعيليه وهى المنفذ لبور سعيد وكانت قوات أخرى أهم منها تحمى مخارج الاسكندرية ، ولكن أهم جزء من الجيش المصرى كان يحمى القاهرة . ولما لم يكن فى وسع ناصر أن يفعل غير ذلك فان الاسرائيليين

× قال رئيس قلم المخابرات الاسرائيلية : لقد أرسل المصريون الى سيناء من قوات الخدمات أكثر مما أرسلوا من الوحدات المحاربة . اقرأ الهجوم الخاطف الاسرائيلى . بقلم جورج جاليان . فى جريدة لوموند بتاريخ ١١ يناير ١٩٥٧ .

كانوا واثقين من امكان احتلال سيناء بالسهولة التى تقطع بها قطعه من الزبد ، حتى ولو بعثروا سياراتهم ومدافعهم على طول الطرق • وكان كل هذا يتوقف على رد الفعل عند ناصر وعند أيزنهاور •

اجتماع مجلس الوزراء فى القاهرة :

وفى ٢٨ أكتوبر اجتمع ناصر بوزرائه فى الساعة الثامنة عشرة والنصف ـ السادسة والنصف مساء ـ أى بعد ساعتين ونصف ساعة من دخول اللواء ٢٠٢ الاراضى المصرية وبعد ساعة ونصف ساعة من نزول رجـال المظلات عنـد مبنى باركر •

وكان الكل لا يزال تحت وطأة المفاجأة ، فقد كان الوزراء يتوقعون مناقشة مسائل دبلوماسية وكان الرئيس يعتقد أن المعـلومات الواردة من باريس والتى كانت تنبىء بهجوم بريطانى على مصر ليست الا خدعة • وعلى أى حـال فاذا كان هذا الهجوم سيحدث فانه يعلم أسراره مقدما وقد أعد العدة لمواجهته • لقد أخليت سيناء وتركت فى حراسة لوائين ، وكان جيشه ينتظر الاعداء أمام القاهرة لكى يواجه العدو الذى أنهكه السير الطويل فى الصحراء •

أما الموقف مساء ٢٩ أكتوبر فلم يكن يتوقعه أحد ، غارة شديدة على سيناء ، وقد اتضح أن الغرض منها هو شطر القناة نصفين • وفى شمال سيناء لم يتحرك الاسرائيليون مما يشير الى أن العملية كانت محلية برغم أنها تبدو واسعة النطاق• وقد قرر مجلس الوزراء المصرى مواجهة التهديد المباشر بارسال الامدادات على وجه السرعة ، فاتجه لواء مشاة نحو ممرات متلا لوقف تقدم رجال المظلات الاسرائيليون وكتيبة مشاة نحو الشمال الى العريش لدعم الدفاع الساحلى • وتقرر بصفة خاصة نقل كتيبتين مدرعتين ثقيلتين ومعهما الدبابات التشيكية ت ٣٤ والمدافع الروسية المتنقلة على عربات من طراز س ى ١٠٠ ومعها أيضا بعض وحدات المشـاة شرقى القناة عن طريق كوبرى الفردان ، واتجه أكبر قسم من هذه الوحدات نحو الحدود سالكا الطريق المركزى المسمى طريق الاتراك والمؤدى الى بير روض سالم •

ويعنى الدفاع عن القناة أساسا فى اتجاه الشرق اغلاق نهاية الطرق الثلاثة التى تعبر صحراء سيناء والتى تنتهى من الشمال الى الجنوب ، وأحدها ينتهى عند القنطرة ، والثانى عند الاسماعيلية ، والثالث عند السويس • وكان الطريق الاول يسير موازيا لحافة الصحراء وهو طريق البحر ، أما الطريق الثانى وهو الاوسط فيسمى طريق الاتراك ، والطريق الثالث الجنوبى هو طريق الحجاج الذى يتجه مباشرة الى مكة ، انه الطريق الذى قطعه رجال المظلات الذين أنزلوا شرق متلا •

وفى جنوب الصحراء يتغير طابع سيناء ويصبح سلسلة جبلية ليس لها قيمة عسكرية كبيرة • ويحيط بهذه السلسلة شرقا وغربا طريق يحاذى البحر بحيث يكفى السيطرة عليه للاشراف على شبه الجزيرة من الوجهة الاستراتيجية •

وقد انشغل المصريون بمواجهة الهجوم الاسرائيلى مستفيدين من المهلة التى تركها لهم الفرنسيون والبريطانيون • وقد بلغ القاهرة نبأ هذا الهجوم بسرعة البرق، ولما كانت اسرائيل هى التى تقوم وحدها بالهجوم (ظاهريا) فقد شحذ هذا طاقات المصريين وخلق نوعا من الاتحاد المقدس أمام الخطر الصهيونى • وسيكون لذلك أهمية سياسية كبيرة ، لان كل آمال الفرنسين والبريطانيين كانت تتركز فى احتمال قيام بعض الضباط الاحرار الغاضبين بثورة ضد ناصر يساندهم فيها بعض بقايا رجال حزب الوفد والاخوان المسلمين ، ولكن قدر لهذه الآمال أن تخيب • ولو افتضح أمر هؤلاء الرجال لقذف بهم تيار الاجماع القومى الذى أطلقه الهجوم الاسرائيلى من عقاله •

وكان هذا بدون شك خطأ سيكولوجيا ارتكبته بريطانيا • فلكى تحافظ على سمعتها أمام أصدقائها العرب دفعت اسرائيل لكى تهاجم مصر حتى تتدخل هى بعد ذلك كوسيط ، ولكنها بهذا ضيعت جميع الجهود التى بذلت لضمان قيام انقلاب سريع ضد نظام ناصر • هذا الانقلاب الذى كان البريطانيون يتصورون أنه سيجنبهم القيام بحرب حقيقية ضد مصر ، وهى حرب لم يكونوا يرغبون فى خوضها فى حين كانت الهدف الاول للدوائر العسكرية الفرنسية المؤيدة للقتال •

ضربة واشنطن :

لقد انتهت على كل حـال المعجزة التى كانت محتملـة الوقوع • يجب على لنـدن اما ترك الاسرائيليين لمصـيرهم المحتوم لـكى تدمرهم طائرات الاليـوشن المصرية ، واما التدخل على نطاق أوسع • وكانت لندن ـ أى ايدن ـ لاتزال وهى على حافة الهاوية مترددة وتنصت بأذنها الى واشنطن • وانتظرت لندن ثمانى عشرة ساعة لكى تتخذ القرار النهائى ، وهو التحول بتدخلها الذى ظل سريا حتى الآن الى تدخل علنى ، نعم لتتخذ هذا القرار الذى كان يكفى أن يقطب أيزنهاور حاجبيه حتى يدفن فى الحال • حقا أن واشنطن تزمجر ، ولكنها زمجرة لا تذهب بعيدا فى الوقت الراهن •

ذلك أن أيزنهاور اكتفى بتوجيه رسالة الى ايدن يذكره فيها بالبيان الثلاثى الصادر عـام ١٩٥٠ ولا تتذكره احدى الدول الثلاث التى أصـدرته ـ كمـا لاحظنا ذلك ـ الا اذا كان يتفق ومصالحها ، فى حين يظل فى جميع الحالات الاخرى طى النسيان ، وهو ينص على اجراء مشاورات بين الحلفاء الثلاثة قبل أى تدخل فى الشرق الاوسط •

وبذلت الحكومة الامريكية الجهد الكثير منذ ذلك الحين لتقول أنهـا لم تكن تعلم شيئا عما حدث ، وبلغ الامر بأيزنهاور أن أعلن أنه لم يحط علما بنبأ الهجوم الا عن طريق برقيات الصحافة • وسيؤكد جون فوستر دالاس قائلا : لم تصلنا أية معلومات سـابقة من أى نوع بالنسبة لهذه المسألة • وسيكتب شرمان آدمز مساعد الرئيس أيزنهاور ما يأتى : لم يخبرنا بذلك فرنسا أو بريطانيا أو أحـد مندوبينا فى أوروبا أو فى البلاد المتاخمة للبحر المتوسط × وقد كرر روبرت مورفى

× تشيرمان ادامز فى كتابه الذى سبق أن أشرنا اليه •

هذا الكلام الصادر عن الحكومة الامريكية . وتظاهرت واشنطن بأنها تتمسك بظواهر الامور وتكتفى بشرح ايدن الواهى الذى يقول أنه مضطر الى التدخل .

ومع ذلك فان واشنطن كانت تعلم بكل ما حدث ، فمنذ يوم ٢٦ أكتوبر ذهب السفير الامريكى ديلون الى لويس جوكس طالبا منه شرحا للاحداث الجارية . وقد صرح مورفى بأن الملحق العسكرى الامريكى فى اسرائيل أرسل معلومات مفصلة عن التعبئة الاسرائيلية × وعن وجود وحدات فرنسية فى اسرائيل . وأخيرا فاذا كان هناك حاجة الى مزيد من الايضاح فقد أعطاها لهم الرجل الذى كان وقتئذ رئيسا للمخابرات الامريكية وهو ألن دالاس × × ـ شقيق فوستر دالاس ـ الذى يؤكد أن المخابرات الامريكية كانت على علم تام بالعملية كلها . ولقد أوضحنا أنه لن يكون هناك هجوم اسرائيلى ضد الاردن . بل هجوم من الدول الثلاث ضد السويس ، وفى ليلة الغزو نفسها قلنا أن الغزو أصبح أمرا حتميا .

ولم ينس أحد كيف قدم جنرالات وزارة الدفاع الامريكية فى أثناء الصيف أكبر التسهيلات للفرنسيين والبريطانيين لكى يحصلوا على المعدات الحديثة للغاية التى لم تكن فى حوزتهم ، وكانت مع ذلك ضرورية لهم للصمود أمام أحدث النماذج الروسية التى كانوا سيصادفونها فى مصر . ولم يبق أخيرا غير الانذار الذى قدمه دالاس الى أبا ايبان يوم ١٧ أكتوبر .

كانت واشنطن تعلم ولكنها كانت تتجاهل . ومن الممكن أو من المحتمل أن الامريكيين لم يقدموا فى أى وقت من الاوقات وعودا ايجابية الى ايدن ، ولكنهم لم يفعلوا أى شىء جاد لمنعه ، وذلك حتى تاريخ معين سنرى فيما بعد أهميته .

× روبرت مورفى فى كتابه الذى سبق أن اشرنا اليه .

× × آلن دالاس : فن المخابرات (روبير لافون) .

يجب أن نعود الآن الى تسلسل الاحداث : حينما وصل الى واشنطن نبأ الهجوم الاسرائيلى جمع ايزنهاور أهم مستشاريه ، وقد نشر بيان بعد هذا الاجتماع وضح أن الولايات المتحدة تتشاور مع الحكومتين الانجليزية والفرنسية بشأن التصريح الثلاثى الصادر عام ١٩٥٠ وأن الحكومة الامريكية تفكر فى عرض التدخل الاسرائيلى فى مصر على مجلس الامن فى اليوم التالى ٠

وفى لندن اجتمع ايدن بوزير الدفاع وبرئيس أركان حرب السلاح الجوى الملكى وتحقق من أن طائرات كامبيرا تحلق فى تلك الساعة فوق مصر ٠ واجتمع مجلس الوزراء صباح اليوم التالى ـ ٣٠ أكتوبر ـ ليقرر رد الفعل البريطانى ، ثم قابل ايدن كلا من موليه وبينو اللذين حضرا لتناول الغذاء فى لندن ٠

ومن قبرص حضرت هيئة أركان حرب القوة (أ) للاقامة هناك ، وقامت طائرات « نورد ـ أطلس » الفرنسية بمهمة تموين القوات الاسرائيلية فى متلا وكونتيلا ٠

فى صباح ٣٠ أكتوبر :

وفى متلا انتظر رجال المظلات الاسرائيليون وصول باقى اللواء ٢٠٢ وهو لواء شارون ، ولكنه تأخر عن موعده المقرر لانه صادف فى التمد مقاومة أكبر مما كان يتوقع ٠ وقد هاجم فى الفجر ولكنه اصطدم بأحدى دوريات الصحراء المصرية حيث قتل منها ستين رجلا ٠ ثم واجه فى الصباح هجوم أربع طائرات مصرية من طراز فامبير التى كبدت الاسرائيليين خسائر فادحة (دبابة واحدة ، و ١٥ سيارة محملة بمدافع رشاشة و ٢٠ سيارة نصف جنزير ، وهذا منقول عن المصريين ٠ أما الاسرائيليون فقد اعترفوا بأن خسائرهم كبيرة دون الاشارة الى أى تحديد) وقد استأنف اللواء سيره نحو نخل حيث قاتل لمدة ساعتين للتغلب على الحامية الصغيرة ٠ ولم يتصل برجال المظلات المحجوزين شرقى متلا الا فى الساعة التاسعة والنصف مساء ، حيث قابل هؤلاء مقاومة مصرية أكثر

صلابة مما كان متوقعا • وقد هاجمت طائرات فامبير المصرية جنـود المظـلات هؤلاء طوال النهار • وكان هؤلاء الجنود فى موقف حرج ، لأن الامدادات المتحركة المصرية ـ وهى امدادات اللواء المشاة الذى نقل من السويس مساء الليلة السابقة ـ كانت تقترب من متلا غربا لمساندة المدافعين المصريين • وقد دمرت بعض طائرات ميستير الاسرائيلية (أو الفرنسية الاسرائيلية) فقـد كانت خليطا منذ يوم ٣٠ أكتوبر) جزءا كبيرا من الطابور المصرى وتركته دون حركة • وأخـيرا وصلت طلائع اللواء ٢٠٢ لتنضـم الى المظليين متـأخرة عن موعـدها المحـدد بعشر ساعات • ونظرا لأن العدو قد دعم قواته فقد قرر رأس حربة اللواء ٢٠٢ انتظار التموين الثانى بالمظلات الذى كان ينتظر وصوله على طائرات « نورد ـ أطلس » قادمة من قبرص ، ثم بدأ الهجوم فجر يوم ٣١ أكتوبر •

وفى الجبهـة الوسطى شن اللواء ٣٧ مشاة الاسرائيـلى هجـومه يوم ٣٠ أكتوبر فى الواحـدة والنصف صباحا • وقد فشـل الهجوم ، وارتد اللواء الى الخلف نتيجة الهجوم المضاد • ثم عاود الهجوم فى الساعة الرابعة والنصف صباحا وفشل من جديد ، وارتد ثانية للخلف• فطلب معاونة الطيران حيث جاءت طائرات موستانج ـ جابو ، وألقت قنابل « النابالم » على المرتفعات التى تحكم المركز • وقد أصدرت القيادة المصرية أمرها بالانسحاب ، وانسحبت قواتهـا بنظام الى أبو عجيلة ، وهو ملتقى طرق محصن سيقوم بالدفاع عنه خمسـة آلاف مصرى مسلحون ومدربون • أن محاولة الهجوم على مثل هذه القوات الدفاعية بواسطة لواء مشاة معناه السعى وراء الهزيمة • وهكذا استبعد اللواء ٣٧ مشاة مؤقتـا لترك المجال للواء السابع المدرع الذى سيقوم بالهجوم على الجبهة •

وقام الاسرائيليـون بهذا الهجـوم ، ولـكنهم ردوا على أعقابهـم وخسروا دبابتين شـيرمان وخمس دبابات نصف جنزير ، غير أنهم نجحوا فى تسـف القناة التى تمون ابو عجيلة بالماء العذبة ، والاهم من ذلك أنهم اكتشفوا ممرا كان يظن أنه غير صالح للسيارات • وقد سمح لهم هذا الممر بالدوران حول المركز والاندفاع نحو مؤخرة المدافعين فى الوقت الذى تظاهروا فيه بالقيـام بهجـوم

جديد على الجبهة ٠ وبعد الظهر كانت الحلقة محكمة بفضل وصول لواء اسرائيلى جديد هو اللواء الرابع مشاة ، ولكن المدفعية المصرية صدت الهجوم بنجاح ٠ وفى يوم ٣١ أكتوبر كان الاسرائيليون لا يزالون عاجزين عن اقتحام أبو عجيلة ٠

ويمكن أن تزداد خطورة الموقف بالنسبة للاسرائيليين اذا حضر بسرعة اللواء المدرع المصرى ــ المسمى اللواء الروسى لنوع معداته ــ الذى كان يزحف على طول طريق الاتراك لنجدة الحامية المحاصرة ٠

أما فى الجبهة الشمالية فقد ظل كل شىء هادئا حتى يوم ٣٠ أكتوبر ٠

الانذار النهائى :

فى صباح ٣٠ أكتوبر علم مجلس الوزراء البريطانى أن القوات الاسرائيلية دخلت الاراضى المصرية فى اليوم السابق ٠ وكان توافقا جميلا أن يكون الموقف العسكرى فى هذا الوقت هو بالضبط نفس الموقف الذى أراده مجلس الوزراء البريطانى منذ خمسة أيام !

وقدم ايدن الى مجلس الوزراء البيان الذى سيلقيه فى مجلس العموم بعد الظهر وحصل على موافقة مجلس الوزراء بذلك ، كما وافق مجلس الوزراء على نص الرسالة المزمع ارسالها الى الرئيس ايزنهاور ، وهى الرسالة التى طلب منه ايدن فيها تأييده الكامل ٠ وتقول هذه الرسالة ان مجلس الوزراء يوافق على عرض هذه المسألة على مجلس الآمن ، ولكن مجلس الوزراء الانجليزى يرى ضرورة القيام بعمل مباشر وحازم لوقف الاعتداءات ٠

ثم قابل ايدن جى موليه وكريستيان بينو وتحدث معهما قبل الغداء ، واستمرت المحادثات فى أثناء تناول الطعام وبعده ، حيث تقرر بعد ذلك توجيه رسالة ثانية للحكومة الامريكية لابلاغها بنصوص الانذار النهائى الذى سيرسل للجانبين المتحاربين ٠ وفى الوقت الذى وجهت فيه هذه الرسالة الى واشنطن

وصلت رسالة من ايزنهاور • كان الرئيس الامريكى يطلب أن تتبادل الدولتان بسرعة وبوضوح وجهات النظر حتى لا تجدا نفسيهما فى أزمة خطيرة وفى حالة عجز عن العمل معا نتيجة حدوث سوء فهم بينهما • أما بالنسبة لايدن فالدخول فى مشاورات قد يؤدى بسرعة الى مفاوضة جديدة وفى هذا قد يكون رئيس الوزراء البريطانى على حق •

وحينما تقررت جميع نقاط العمل ومواعيده بالاتفاق مع القادة الفرنسيين جمع ايدن زعماء المعارضة وسلمهم البيان الذى سيلقيه أمام مجلس العموم ، يخطرهم فيه بنص المذكرة التى وجهها الى اسرائيل والى مصر •

ومما لا شك فيه أن لهجة التهديد التى كانت تتضمنها المذكرة المرسلة لهاتين الدولتين دون أن تتضمن صراحة اعلان الحرب كانت تشير الى أن فرنسا وبريطانيا تنويان القيام بتدخل عسكرى ، أى خوض حرب قد تنجم منها حرب عالمية ، ومما لا شك فيه أن هذه الاشارة قد تمت دون أن يرى رؤساء السلطة التنفيذية فى لندن وباريس أنه يجب عليهم استشارة البرلمان قبل القيام بها • حقا ان كلا من رئيس الحكومتين كان يعلم أنه يستطيع الاعتماد على غالبية محدودة ، بل كانت حالة جى موليه أكثر خطورة وان لم يعلن الحرب (هذا العمل الذى كان من حق رئيس الجمهورية) ولكن القرار الذىقدمه للبرلمان للاعتماد كان قرارا دبلوماسيا يؤدى الى تدخل عسكرى ، وحينما بدأ هذا التدخل من ناحية المبدأ فى نهاية مهلة الانذار ، لم يكن البرلمان الفرنسى قد أصدر قرارا ، أى أن جى موليه لم يحصل على الغالبية البرلمانية الا فى خلال جلسة اليوم التالى ٣١ أكتوبر •

وعلى كل حال فان كل هذا مجرد معركة كلامية ، لأن العمليات الحربية كما رأينا ـ سواء بالنسبة لبريطانيا العظمى أو لفرنسا ـ بدأت فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه الجيش الاسرائيلى عملياته • قامت بريطانيا العظمى بخرق المجال الجوى المصرى بواسطة طائرات كامبيرا ، كما قامت فرنسا بانزال جنود المظلات يوم

٢٩ أكتوبر فى منتصف الليل فوق متلا وكونتيلا • كذلك أنزلت معدات حربية وأغذية للجيوش الاسرائيلية التى تقوم بعملياتها الحربية فى الاراضى المصرية •

وهكذا تحمل رجلان مسئولية اتخاذ قرار استبدادى يمكن أن يؤدى الى حرب عالمية دون أن يكون هناك اشراف جدى على قرارهما • اننا لسنا فى مجال محاكمة ايدن وموليه ، لكن علينا أن نحدد المرحلة الحرجة التى بلغهـا النظام السياسى للعمل كما رأينـا فى هذين البلدين • ان ما اتضـح هو وجود ثغـرة فى الرقابة البرلمانية فى فرنسا وفى بريطانيا ، ولـكن الواقع ـ بالنسبة لفرنســا ـ أن البرلمان فيها كان يدفع العجلة بكل قواه وكان يؤيد التدخل (ما عدا الشيوعيين وبعض الانعزاليين) أكثر من الحكومة نفسها •

ذهول فى القاهرة :

اعتقد الوزراء المصريون فى الليلة السابقة أنهم سيناقشون فى اليوم التالى مسائل دبلوماسية واذا هم يفاجأون بالهجوم الاسرائيلى ، وحينما جمعهم ناصر مرة أخرى بعد ظهر يوم ٣٠ أكتوبر اعتقدوا أنهم سيطلعون على العمليات الموجهة ضد اسرائيل فاذا هم يخطرون بأن عليهم أن يعملوا حساب عدوين آخرين هما بريطانيــا العظمى وفرنســا • وتباحث الوزراء نصوص الانذار النهـائى ، فوجدوا أنهم لا يستطيعون قبوله ، لانه يعنى الاعتراف بأن الجيش الاسرائيلى قد تقدم لمسافة ١٨٠ كيلو مترا داخل الاراضى المصرية وأن القوات المصريةانسحبت الى مسافة تزيد على مائتى كيلو متر داخل الحدود •

وفى هذا الوقت ارتكب ناصر خطأ جديدا فى تقديره للموقف • لقد تصور أن ايدن لا يزال يخدعه ، وأن الانذار النهائى خدعة حربية تهدف الى منع مصر من ارسال امدادات الى سيناء ، ومن ثم قرر رفض المذكرة الفرنسية البريطانية وارسال قوات جديدة الى جبهة سيناء •

وهناك تفصيل مهم فى نص المذكرة الفرنسيـة البريطانيـة : فقد كانت تشير الى أنه اذا لم ينسحب الطرفان خـلال مهلة اثنتى عشرة ساعة الى خـارج النقاط التى حددت لهما ، فستقوم القوات الفرنسية البريطانية باحتلال المراكز الرئيسية فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس • وهذا ما يسمونه « الافصاح عن اللون » •

وبرغم استمرار اعتقاد المصريين بأن هناك خدعة ، فقد وضعوا هذا الانذار موضع الاعتبار ، وقربوا قواتهم من القناة • وقد اتخذ ناصر اجراء آخر كان أكثر أهمية ، اذ سلم الى بعض السفراء خطابات شخصية ليسلمها كل منهم الى رئيسه، وكانت هذه الرسائل موجهة الى الرئيس ايزنهاور والمارشال بولجانين والمارشال تيتو والبانديت نهرو •

عراك فى الأمم المتحدة :

فى الوقت الذى كان مجلس العموم يوافق فيه على نصوص الانذار النهائى الموجه الى مصر والى اسرائيل بغالبية ٥٢ صوتا ، كان مجلس الامن مجتمعا لمناقشة مشروع القرار المقدم من الوفد الامريكى والذى يدعو فيه الجانبين الى وقف اطلاق النار فورا ، ومع الزام اسرائيل بسحب قواتها خلف خطوط هدنة عام ١٩٤٨ ، ويوصى الدول الاعضاء بالامم المتحـدة بالامتناع عن التهديد باستخدام القوة ، أو باستخدامها بطريقة لا تتفق مع أهداف الامم المتحدة •

وبمجرد افتتاح الجلسة طلب ممثل المملكة المتحـدة من المجلس الموافقة على الاجراءات التى اتخذتها كل من الحكومتين الفرنسية والانجليزية ، ورجا مندوب الولايات المتحـدة أن لا يصر لكى يقترع المجلس فى اليوم نفسـه على مشروع القرار الذى تقدم به • وقد أعلن المندوب الفرنسى أنه سيعارض فى التصـويت مشروع القـرار الامريكى ، وتمت اللعبـة والجميـع يلتزمون الهـدوء ، وكانوا يعتقـدون أنه نظرا لأن بريطانيـا العظمى وفرنسـا لن تتصرفا بدون موافقـة

أمريكية سابقة فسيقبل المندوب الامريكي ارجاء مناقشة مشروع قراره ، وهكذا تكون الولايات المتحدة قد قامت بمعركة شرفية للدفاع عن المبادىء الديمقراطية وقامت أيضا بالمناورات اللازمة داخل الامم المتحدة • وتستطيع اذن بريطانيا وفرنسا أن تصفيا بكل هدوء حسابهما مع هتلر وادى النيل •

وفجأة أصيب الجميع بذهول ، اذ قام المندوب الامريكي وأصر على الاقتراع مباشرة على مشروع قراره • وقد تضاعف الذهول حينما قام المندوب السوفييتي وأعلن أنه يؤيد تأييدا تاما الموقف الامريكي والتزم المندوب اليوغوسلافي الموقف نفسه •

وقد أعلن السير بيرسون ديكسون الذى يقوم بمهمة صعبة ـ وهى تمثيل بريطانيا العظمى ـ أنه سيعترض على القرار بموجب حق الفيتو • وقد حاول مقابلة المندوب الامريكي كابوت لودج مقابلة شخصية، ولكن هذا الاخير رفض ذلك بخشونة • وبعد التصويت أودع المندوب السوفييتي مشروع قرار جديد لا يختلف كثيرا عن المشروع الامريكي • وقد صوتت جميع الوفود تقريبا ضد بريطانيا وفرنسا ، فاستعملتا من جديد حق الفيتو •

وقد أثر احتدام المناقشة على صحة المندوب الفرنسي ـ المسيو كورنو جنتى ـ تأثيرا سيئا ، فاضطر الى أن يترك مكانه لنائبه المسيو جيرانجو ، في حين أصيب السير بيرسون ديكسون بالذعر !

ان الانباء تتلاحق • فقد عرفت جميع دول العالم أن بريطانيا وفرنسا قامتا بعمل لا تقره أبدا حليفتهما الامريكية • والطامة الكبرى هى أن كندا والهند وسيلان قد أعلنت رسميا عدم رضائهما عن هذا العمل البريطاني ، وفي اليوم التالي اتخذت بلاد كثيرة هذا الموقف نفسه المتسم بالاستنكار •

وكان داج همرشلد على وشك أن يقدم استقالته من السكرتيرية العامة للأمم المتحدة ، واقترح مندوب يوغوسلافيا دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة

لعقد اجتماع ، وقد تقرر فعلا أن تعقد الجمعية العامة اجتماعا بعد ظهر يوم أول نوفمبر • وقبل ذلك التاريخ عقـد مجلس الأمن جلسته يوم ٣١ أكتـوبر فى الساعة الثامنة مساء بتوقيت جرينتش • ونشرت معظم بلاد العـالم فى أثنـاء الليل بيانات تستنكر فيها العمل الفرنسى البريطانى • أما باريس ولندن فلم تأخذا هذه البيانات الاستنكارية مأخذ الجد • ألم تؤجر ايطاليـا سرا مطاراتهـا الموجودة جنوبى شبه الجزيرة للطائرات الحربية الفرنسية المتجهة الى اسرائيـل وهى تعلم علما تاما أنها تحمل معها الموت الى مصر فى حين أنها فى اليوم نفسه تعلن بشدة أنها تستنكر كل عمل يتخذ فى الشرق الاوسط خارج نطاق الأمم المتحـدة ؟ ألم يقل ملك المغرب والرئيس بورقيبة لكبـار الزعماء الفرنسـيين حينما علما بالزحف الذى تعرضت له مصر « أنكم ستقدمون لنا خدمة جليلة اذا خلصتمونا من هذا الرجل » ؟

وقبل أن تعرف نتيجة التصويت داخل الأمم المتحدة وجه ايزنهاور رسالة الى ايدن ، حررت بعد أن أحيط علما بالانذار النهائى الفرنسى البريطانى ، وقال الرئيس الامريكى أنه يقلقه كثيرا احتمال القيام بحركة عنيفة ، وعبر عن اقتناعه بأن الطريق السلمى يمكن بل يجب أن يتبع • والشىء الغريب أن البيت الابيض أذاع فى المساء نفسه نص هذه البرقية • ومن المـلاحظ أن الرئيس لم يوجـه دعوة رسمية للعدول عن المشروعات التى يجرى تنفيذها ، وقد كتب ايدن فيما بعد يقول : لم يكن هناك ما يدعونا للتفكير فى أن الولايات المتحدة ستعارضنا داخل الأمم المتحدة معارضة شاملة على جميع النقاط تقريبا ، وبمعنى آخر كان لدينا أسباب تدعونا الى الاعتقاد بأن الحكومة الامريكية لن تعارض العمـل الذى أقوم به ، ويمكن ترجمة ذلك بأن الحكومة الامريكية جعلتنا نفهم ضمنا ـ أو أنها قد قدمت لنا تأكيدات ، ولندع التاريخ يثبت ذلك ـ انها لن تعارض عملنا الذى نقوم به •

والواقع أن زعماء الحزب الجمهـورى ورجال الاعمال الامريكيـون ذعروا ، لأنهم رأوا أنفسهم مشتركين فى اثارة حرب كورية جديدة ، وهم الذين أسسوا

كل دعايتهم الانتخابية على أن الرئيس أيزنهاور «رمز السلام» • لقد رأوا أعداءهم الديمقراطيين يضعون فوق رءوسهم الطاقية ويعلقونهم على المقصلة • وهذا يفسر العجلة غير العادية فى نشر الرسالة الموجهة من رئيس الولايات المتحدة الى رئيس الوزراء الانجليزى ، هذا النص الذى يبرز الدور الذى كان يلعبه الرئيس الامريكى باعتباره رئيسا للسلام •

رجال البترول :

ومن جانب آخر كان رجال البترول الامريكيون فى حالة قلق ، ذلك أنه اذا سيطرت على القناة قوة متحالفة انجليزية فرنسية اسرائيلية فقد يتعرض الاستغلال السلمى لمنابع بترول الجزيرة العربية للمشكلات • وتقوم اضطرابات مدنية طويلة الأجل ، وحرب عصابات غير محددة المعالم ، وكلها ليست فى صالح عمليات استغلال البترول • هذا هو مصير الشرق الاوسط كما يبدو لهم فى حالة انتصار التحالف الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى • انهم لايقرون كل ما من شأنه اعادة الاستغلال السلمى للبترول وزيادة الارباح • لقد كشف البريطانيون لهم عن أسرار كثيرة منذ شهور عدة ، وكان ايدن يعلن لهم ذلك فى رسائله الموجهة الى ايزنهاور والى فوستر دالاس ، وقد دفعتهم المعلومات الواردة الى لندن بأن يؤكدوا أنه « اذا استطاع ناصر أن ينجو » فلن تمر شهور بل أسابيع حتى يتم التأميم الشامل لبترول الشرق الاوسط • لقد سمم الانجليز أفكارهم هم أنفسهم من فرط محاولتهم تسميم أفكار الامريكيين ، وآمنوا فى النهاية بالاكاذيب التى يروجونها • وكان ايدن أولهم فى هذا ، وانتهى بهم الامر بأن أثاروا الشك فى صحة معلوماتهم •

وكانت النتيجة أن المعارضة الامريكية اشتدت وطأتها فى هذا المساء • واذا كان الرئيس أيزنهاور قد احتفظ بلهجة مهذبة فى رسالته الى ايدن فان عباراته كانت تنم عن الالم ، والروايات الخاصة تقول ـ وهذا منقول عن جيمس

روستون مراسل النيويورك تايمز ــ انه « حينما أخذ الرئيس علما بالانذار النهائى ، دب فى البيت الابيض رنين اللهجة العسكرية التى لم يسمع مثلها منذ عهد الجنرال جرانت » •

وفى منتصف الليل ، علم أن مصر رفضت الانذار النهائى فى حين قبلته اسرائيل بشرط أن توافق مصر عليه • وهذا التحفظ يسمح لها بالاستمرار فى عملياتها الحربية لأن القوات الاسرائيلية كانت لا تزال بعيدة عن خط « الستة عشر كيلو مترا شرقى القناة » الذى حدده شركاؤهم الفرنسيون والبريطانيون على أنه الهدف المنشود •

صباح يوم ٣١ أكتوبر :

ظلت قوات الكولونيل « شارون » ورجاله من اللواء ٢٠٢ التابع للجيش الاسرائيلى واقفة بلا حراك أمام ممرات متلا • وفى أثناء الليل وصلتها امدادات جديدة هامة من العتاد والطعام أنزلت بالمظلات بواسطة طائرات « نورد ــ أطلس » التابعة لسرية الاتصال الجوية الفرنسية التى تتخذ قبرص قاعدة لها • انهم يستعدون للهجوم ، ويعلمون تماما أن الهجوم سيكون قاسيا • لقد وصلت فى اليوم السابق كتيبتان مصريتان لتعزيز القوات المدافعة ، واحتلت الممرات الجبلية ومع ذلك فقد سجل الطيران حركة انسحاب منتظمة عند المصريين • وفى الفجر هاجمت أربع طائرات مصرية من طراز فامبير اللواء الاسرائيلى وطاردتها طائرتان مقاتلتان اسرائيليتان ولكن ست طائرات ميج هاجمتهما • ثم هاجمت طائرات مصرية من طراز ميتور قوات اللواء الاسرائيلى • وقد تلقى اللواء فى الحادية عشرة والنصف صباحا أمرا بالهجوم • وهنا اصطدم الاسرائيليون بسرعة بمقاومة عنيفة وصفوها هم أنفسهم بأنها كانت « غاية فى البسالة » وكان التقدم يقاس بالمتر ، وتمت المعارك فى غالب الاحيان بالالتحام • وفى منتصف فترة ما بعد الظهر تدخلت طائرات مصرية من طراز ميتور تحرسها طائرات أخرى من طراز ميج وتدخلت طائرات ميستير الاسرائيلية ، ولكنها لم تستطع الحيلولة دون قيام

هجوم جديد شنته طائرات ميتور التى نسفت سيارتين لنقل البترول ، وسدت بذلك الطريق . واستمرت سرية اسرائيلية فى القتال فى الظلام ، ولم تكن النتائج مضمونة . وانتهى النهار مسجلا خمسين قتيلا اسرائيليا ومائة جريح وثلاثمائة قتيل مصرى . وكانت هذه المعركة من أعنف المعارك الدموية فى هذه الحرب . وبعد أن فشل الاسرائيليون فى التقدم بسبب المقاومة المصرية تشتت قواتهم من جديد شرقى متلا حتى لا تتعرض لهجمات جوية جديدة ، ولكى تتلقى فى أثناء الليل دفعة جديدة من التموين تلقيها عليهم بالمظلات طائرات « نورد ـ أطلس » القادمة من قبرص . وفى صباح أول نوفمبر تجمعت القوات الاسرائيلية ثانيــة فى نصف دائرة دفاعية لمواجهة هجوم محتمل قد تقوم به المصفحات المصرية التى شوهدت قادمة من الشمال ولكن لم يقع أى هجوم ، فاقتربت دورية من الممر ولم يظهر العدو . فأرسل قائد الكتيبة يستكشف الامر فوق ممرات متلا فاتضح له أن العدو أخلى مواقعه فى أثناء الليل (وفى الواقــع تلقت الكتيبتان المصريتان أوامر من القاهرة بالارتداد × بسبب هجوم بريطانيــا وفرنســا من ليلة ٣١ أكتوبر حتى أول نوفمبر) فاستأنف اللواء الاسرائيلى زحفه وتقدم نحو القناة .

وفى حين كان اللواء ٢٠٢ يخترق ممرات متلا التى أخلاها المصريون دخلت المعركة فى أقصى الشرق ـ أى فى الطرف الجنــوبى من الحـــدود الاسرائيليــة المصرية ـ وحدة اسرائيلية جديدة هى اللواء التاسع للسيارات الذى يضم ١٨٠٠ رجل وأكثر من مائتى سيارة . وزحف هذا اللواء على الطريق الساحلى الوعر متجها نحو أقصى طرف لشبه جزيرة سيناء ، ولم يكن يتوقع نشوب معارك كبيرة قبل وصوله الى رأس نارانى حيث حولت حامية مكونة من ألف جندى مصرى هــذه المدينة الى قلعة . أما بعد ذلك وحتى شرم الشيخ ـ أى على بعــد ثمانية عشر كيلو مترا جنــوبا ـ فكانت ثمة مخــابىء بالاسمنت المســلح وأوكار للمــدافع

× كان ذلك لمواجهة هجوم بريطانيا وفرنسا (المراجع) .

الرشاشة ، وقد وصل اللواء التاسع الاسرائيلي الى رأس النقب يوم ٣١ أكتوبر في السابعة صباحا واستأنف زحفه على الطريق متجها نحو الجنوب •

وفي هذا الوقت كان في ميناء جيبوتي بالصومال الفرنسي اثنان وسبعون مدنيا وصلوا يوم ١٧ أكتوبر في طائرة تجارية كونستليشن ، وقد وزعوا يوم ٣١ أكتوبر في طائرات استؤجرت من شركة هندية واتجهوا الى مصوع في أريتريا حيث تسلموا سفينتي نقل أثيوبيتين هما « أبينا » و « كاترينا ماردى » وكانت الحكومة الاسرائيلية قد استأجرتهما منذ وقت قصير ، واسندت لهما مهمة حربية هي ايصال مواد التموين الى وحدات اللواء التاسع الاسرائيلي بمجرد استيلائه على شرم الشيخ •

وفي سيناء على الجبهة الوسطى كانت الوحدات المصرية الصغيرة التى تحرس القسيمة قد انسحبت بنظام بعد معارك مع اللواء الاسرائيلي الذى فقد في الطريق كثيرا من معداته الحربية فوق مناطق الرمال الهشة •

وفي الشمال قليلا كانت المراكز المحصنة المصرية التى تحيط بأبو عجيلة لا تزال صامدة تحول دون أى تقدم في هذا القطاع ، وكان أشد هذه المراكز صلابة « الجسر » ومركز « أم هشام » •

وبدأ الهجوم الاسرائيلي فجر يوم ٣١ أكتوبر ، واستمر طوال النصف الاول من النهار •

وحوالى الظهر لم يتم احراز أى نجاح فيما عدا تقدم محلى صغير ، ولكن مركز الجسر أمكن الالتفاف حوله • وظل الاسرائيليون يهاجمون طوال فترة بعد الظهر وهم معرضون لضربات طائرات المطاردة المصرية من طراز موستانج • وفي حوالى الساعة الثامنة مساء سقط مركز الجسر • وفي ساعة متأخرة من الليل لاحظ الاسرائيليون أن المدافعين عن مركز أم هشام يجلون عن الموقع بمجموعات

صغيرة × • وقد فتح طريق الاسماعيلية أمام الاسرائيليين ، ومنذ مساء ٣١ أكتوبر انتقلت العناصر المتقدمة من اللواء المدرع السابع الاسرائيلى نحو الغرب للاشتباك مع الدبابات الثقيلة المصرية للواء الاول المدرع « اللواء الروسى » وفى اليوم السابق وكذلك فى هذا اليوم نفسه ـ أى قبل نهاية مهلة الانذار النهائى بكثير بل حتى قبل ارساله ـ تعرضت الدبابات المصرية لهجوم متواصل من طائرات ميستير التابعة للسلاح الجوى الفرنسى التى كانت تتخذ من منطقة اللد وضواحيها قاعدة لها • ثم شوهدت الدبابات المصرية تحول طريقها نحو الجنوب فى اتجاه رجال المظلات الاسرائيليين وباقى اللواء ٢٠٢ الذى كان لا يزال مجمدا ومتوقفا عن الحركة أمام ممرات متلا • وفى ساعة متأخرة من الليل ، صدر أمر مضاد جديد × × ، وقد لاحظت أجهزة المراقبة الاسرائيلية أن طابور الدبابات يصعد ثانية نحو الشمال فى اتجاه بير جفجافا • وفى مساء ٣١ أكتوبر وصلت العناصر المتقدمة من الطابور المصرى الى بئر روض سالم شرقى بير جفجافا • وفى هذا الوقت استعادت عناصر متقدمة من اللواء المصفح السابع الاسرائيلى حرية الحركة لكى تتجه بكل قوتها نحو الغرب، وكانت كل الدلائل تشير الى أن يوم أول نوفمبر سيشاهد معركة عنيفة لدبابات فى وسط شبه الجزيرة •

وعلى الجبهة الشمالية لم يحدث شيء ذو بال ، ففى الليلة السابقة ـ أى مساء يوم ٣٠ أكتوبر ـ حاول فدائيو ازالة الالغام التابعون للواء المدرع الاسرائيلى (آلاى لاسكوف) فتح الثغرات فى خطوط الدفاع المصرية المليئة بالالغام وتحيط بمركز رفح المحصن • ويبدو أنهم فشلوا فى مهمتهم لأنه حينما بدأت أربع كتائب مشاة اسرائيلية زحفها مساء ٣١ أكتوبر أصيبت بخسائر شديدة •

× يلاحظ هنا ان المؤلف يريد ان يقرر سقوط ابو عجيلة فى يد الاسرائيليين ، والواقع ان اسرائيل لم تستول على هذا الموقع الا بعد انسحاب القوات المصرية منه يوم ٢ نوفمبر • (المراجع)

× × حين امر بالانسحاب الى غربى القناة بعد الهجوم الفرنسى البريطانى يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٩٥٦ • (المراجع)

وفى البحر ، لم يكن أحد يتوقع أعمالا باهرة تقوم بها البحرية المصرية ، التى لم يكن لديها غير بعض المدمرات والفرقاطات ، وهذه لم يكن لها وزن كبير فى حالة نشوب معركة بحرية • ومع ذلك فقد كانت هذه السفن تشكل تهديدا على الاراضى الاسرائيلية التى كان الجزء الآهل بالسكان منها معرضا لضربات مدافع البحرية ، وبناء على طلب الحكومة الاسرائيلية ـ عن طريق ملحقنا العسكرى فى باريس الكولونيل نشرى ـ قررت الحكومة الفرنسية دعم القوات البحرية الاسرائيلية بتزويدها بأسطول خفيف مؤلف من المدمرات «سوركوف» و «بوفيه» و « كيرسانت » فى حين وصلت من جيبوتى متجهة نحو شرم الشيخ فى البحر الاحمر المدمرة الفرنسية « جازيل » •

وفى ٣٠ أكتوبر الساعة الثالثة والنصف مساء بتوقيت جرينتش ـ أى قبل انتهاء المهلة التى حددها الانذار النهائى بساعة ـ تعرضت المدمرة الفرنسية « كيرسانت » للمدمرة المصرية « ابراهيم الاول » التى تسللت وسط دورية من الاسطول السادس الامريكى • وقد صوبت « كيرسانت » مدافعها نحو الهدف وربما بجانبه قليلا ، فابتعدت المدمرات الامريكية وضربت المدمرة « ابراهيم الاول » بمدافعها دون أن تحرز نجاحا كبيرا • وقد ظلت المدمرة « كيرسانت » مشتبكة مع المدمرة المصرية ثم استنجدت بدورية اسرائيلية بحرية ، وحتى مطلع الصباح كانت الفرقاطات وسفن المراقبة الصغيرة وحتى طائرات فرنسية من طراز أوراجان ترشدها طائرات « داكوتا » للمراقبة تركز ضربها على المدمرة المصرية القديمة التى توقفت عجلة قيادتها حتى استسلمت ، وسحبت فى اتجاه ميناء حيفا ، وقد فكر الاسرائيليون كثيرا جدا فيما كانت تفعله هذه المدمرة فى عرض البحر وحدها ، وكان من رأى البحرية الاسرائيلية أن هذه السفينة ربما كانت تريد حتى لا يفطن أحد الى أن ثمة تدخلا وقع قبل انقضاء المهلة التى حددت فى الانذار النهائى • ولهذا أعلن حينئذ أن ابراهيم الاول حاولت ضرب حيفا بالقنابل وأن البحرية الاسرائيلية قد أسرتها • ومع ذلك فان القلق ساور الانجليز ، لأن هذه العملية كشفت أن الاميرال بارجو لم يكن يتجنب الاسطول السادس الذى يزحم

المنطقة بل على العكس من ذلك حاول اثارة حادث وتحين الفرصة للتصويت على السفن الامريكية ليدفعها الى اخلاء منطقة شرق البحر المتوسط قبل العمليات الكبيرة المنتظر وقوعها فيها وعلى كل حال سيضطر السلاح البحرى الملكى تحت ضغط الظروف الى اتخاذ الموقف التهديدى نفسه أمام خطر الغواصات ـ أى الخطر المفروض وجوده ـ الذى يواجه القافلة العظيمة التى توشك أن تنزل مهماتها وعتادها الى الشاطىء ٠

فى هذا اليوم ، فى قبرص :

وفى هذا اليوم نوقشت فى قبرص عملية الهجوم التى نص عليها فى الخطة « موسكتير المعدلة » وحدد مبدئيا تاريخ الهجوم بيوم ٦ نوفمبر ٠ كما تمت الموافقة على الخطة العاجلة « أوميليت » أى انزال قوات المظلات على الجميل وبور فؤاد ، ثم التقدم نحو بور سعيد تحت حماية مدافع البحرية ٠ ومما يثير الغضب فى هذا اليوم هو أن الهجوم الجوى على مصر ـ الذى كان مقررا القيام به فى فجر هذا اليوم بالذات ـ لم يتم بناء على أوامر صادرة من لندن ٠ أو بمعنى أدق بدأت العملية كما كان مقررا لها أن تبدأ ، ولكن فى حين طارت طائرات « كامبيرا » من مالطة متجهة نحو غرب القاهرة لقذفها بالقنابل وصل أمر استدعائها الى قواعدها من لندن ٠ ولم تستطع مالطة استدعاء طائراتها فى حين نجحت أكروتيرى ـ وهى احدى القواعد الجوية فى قبرص ـ فى اعادة طائراتها فى آخر لحظة ٠ كان توافقا زمنيا عجيبا ، لأنه كانت هناك على مطار القاهرة ، الذى كان سلاح الطيران الملكى سيدقه بقنابله ، خمس عشرة طائرات نقل أمريكية تحمل بعض الرعايا الامريكيين ٠ وكان من الممكن أن تتعرض مئات عديدة من الاسر الامريكية للفناء بقنابل الطائرات البريطانية لولا أنهم انقذوا بفارق بضع دقائق وربما بعشرات الثوانى ، وعلاوة

× كانت الدوائر المطلعة تروى فى ذلك الحين ـ بمناسبة هذا الحادث ـ هذه الرواية : ابرق بارجو لوزير الدفاع الوطنى (بورجيس مونورى يقول له : « غواصة أمريكية تعترض الطريق » ٠ وكانت اجابة الوزير الموجزة هى « أغرقها » وطبعا لم تكن هذه الا مجرد قصة٠

على ذلك كان الطريق الذى يمر بجانب مطار غرب القاهرة يستخدمه الامريكيون لاجلاء أسر مواطنيهم المقيمين فى القاهرة الى الاسكندرية ، وفى الاسكندرية حيث كانت تنتظر سفن الاسطول السادس الامريكى ـ الذى كانت بجواره كل البحرية المصرية تقريبا ـ صدرت الاوامر الى قاذفات القنابل من طراز كامبيرا (من مالطة) ومن طراز فاليانت (من قبرص) لمهاجمتها وذلك يوم ٣١ أكتوبر الساعة الرابعة بعد الظهر بتوقيت جرينتش ، ويحدد هذا الامر الاهداف الاربعة الاولى : الماظة وانشاص بالقرب من القاهرة وأبو صوير وكبريت فى منطقة القناة ٠

وفى هذه اللحظة كان مطار غرب القاهرة هو أهم قاعدة مصرية لقاذفات القنابل من طراز اليوشن ٠ وكان وجود الطائرات الامريكية فى هذه القاعدة × التى تضم أشد أسلحة الجيش المصرى تدميرا ، يضفى على هذه القاعدة قداسة تمنع عنها أذى الفرنسيين والبريطانيين ٠ وكان ناصر يستطيع فى هذه الليلة ـ اذا أراد ـ أن يقوم بغارة انتحارية تسبب خسائر جسيمة جدا للاسرائيليين ، بل لمراكز القيادة العامة ومراكز تجمعات رجال المظلات الفرنسيين والبريطانيين فى قبرص ٠ هذا اذا كان حقا يملك قاذفات قنابل !

ولكن ايدن كان يشك فى ذلك ٠ ان المقاومة التى صادفتها الطائرتان البريطانيتان من طراز « كامبيرا » التى أرسلتها للاستكشافات فى مساء الليلة السابقة فوق مصر لحساب بن جوريون وصفت كأنها عمل بطولى غير متوقع من الطيارين المصريين الذين لم يكن لديهم التدريب الكافى فى هذا الوقت للدخول فى معركة مع الطائرات البريطانية ٠ وبمعنى آخر أوضح له مساعدوه ضمنا أن طائراته من طراز كامبيرا قد تصدى لها طيارون روس لا طيارون مصريون ٠ وهذا يعنى أيضا أن الطائرات المصرية التى يفترض أن الروس × × يقودونها تتمتع بحماية فعلية من الامريكان ٠

× لم تكن هناك طائرات امريكية فى اى وقت من الاوقات فى مطار غرب القاهرة ، واستخدمت الطائرات الأمريكية التى أرسلت لاجلاء الامريكيين مطار القاهرة الدولى (المراجع)

× × لم يشترك اى طيار روسى فى معركة السويس ٠ (المراجع)

وكانت المسألة التى تثير قلق هيئات أركان الحرب أنه فى الوقت نفسه الذى صدرت فيه الاوامر بعدم قذف القنابل على غرب القاهرة ، صدرت أوامر أخرى بعدم المساس باذاعة القاهرة حتى لا تلحق أضرار بمنشئات أمريكية مجاورة لها (وقد الغيت هذه الاوامر فى الايام التالية) ×

قنابل على القاهرة :

لقد روى ناصر القصة التالية × × كنت أستقبل بمنزلى سفير أندونيسيا حينما أطلقت صفارات الانذار وحلقت بعض الطائرات النفاثة فوق المنزل ـ كان ذلك بالنسبة للرئيس حادثا له مغزاه ـ ولما كانت اسرائيل لا تملك قاذفات قنابل نفاثة ، فلا يمكن الا أن تكون قاذفات القنابل هذه انجليزية ، اذن فجميع التقارير التى وصلت من لندن وباريس وجميع الاسرار التى نقلتها الينا السفارات الصديقة، كل ذلك كان حقيقيا • لقد أرسل أفضل آلايين مدرعين الى الجانب الآخر من القناة لمحاربة الاسرائيليين • لم يكن الهجوم الاسرائيلى اذن غير فخ لجذب معظم القوات المصرية الى شرقى القناة واخلاء طريق القاهرة أمام الحلفاء • لقد ناقش ناصر قرار الانسحاب من سيناء فى الحال مع قواده ، ولكن أحدا منهم لم يحبذ فكرة الانسحاب وقالوا أن الجيش المصرى قاوم حتى الآن ببسالة وصد الهجوم الاسرائيلى بنجاح على جميع الجبهات وأن الانسحاب المفاجىء سيبدو كأنه هروب عام وسيسىء الى سمعة الجيش ، تلك السمعة التى عمل على المحافظة عليها بكل قواه منذ سنوات •

× وبالنسبة للبدء فى العمليات يلاحظ أن القائد العام الجنرال السير شارل كيتلى قد صرح فى تقريره أن قواته قد أبحرت أثناء الليل من ٣٠ الى ٣١ أكتوبر (اى بعد تسليم الانذار النهائى) وقد تلاعب الجنرال هنا بالحقيقة بكل حرية ، اذ أننا نعلم اليوم (اذا قرأنا ما رواه المحاربون وبصفة خاصة ما رواه كلارك) ان الابحار قد تم فى الحقيقة يوم ٢٩ أكتوبر الساعة الحادية عشرة • وقد انتحل الفرنسيون كذلك العذر الآتى : أبحرت القوات للقيام بتدريبات أطلق عليها اسم « بوت هوك » وهذه التدريبات لم تحدث ، والسبب معروف طبعا •

× × فى حديث لآخر ساعة (٥ ديسمبر ١٩٥٦) وفى حديث للساندای تايمز (٢٤ يولية ١٩٦٢)

وقـد اضطر ناصر الى أن يهدد بالاستقالة قائلا « انى أعطيكم مهلة نصف ساعة ، أما أن تعترفوا بى كقائد ، وفى هذه الحالة يجب أن تطيعوا أمر الانسحاب العام الذى أصدره ، واما أنكم لم تعودوا تطيعونى وسأتصرف بنـاء على ذلك ٠ ولكن تذكروا أن العدو يعتمد على تفككنا » ٠

وبعد نصف ساعة خضع الضباط على الرغم منهم ٠ لقد قضى الامـر ولن يثور الجيش المصرى فى هذا اليوم ضد ناصر ٠ لقد انهارت جميع الآمال التى كانت تعقدها لندن بالنسبة لحدوث انهيار مفاجىء !

وفى أثناء الليل يوم ٣١ أكتوبر صدر الامر بالانسحـاب العام من جبهـة سيناء ، كمـا صـدر أمر بتشتيت قاذفات القنـابل المصرية من طراز اليوشن وارسالها الى الصعيد والى المملكة العربية السعودية × وفى الصبـاح يتبين من العمليات الاستكشافية الجوية التى قام بها الفرنسيون والبريطانيون اختفـاء قاذفات القنابل المصرية التى كانوا يزمعون ضربها فى أثناء النهار وهى رابضـة على الارض ٠

ذعر فى العالم :

لم يكتف ناصر فى ذلك المسـاء بتحـديد أبعاد الاستراتيجية المتجانسـة للحملة الجديدة على مصر ، بل حدد أيضا خط سلوكه السياسى ، وهو انارة العالم بأسره مع الاهتمام بعدم طلب المساعدة من الاتحاد السوفييتى ٠ أما متابعة هذا الاتجاه الاخير فقد قام به الرئيس السورى « شكرى القوتلى » حيث ذهب فعلا الى موسكو فى زيارة رسمية ، وقد نصحه ناصر بألا يؤخر سفره هذا ٠

× أما بالنسبة للطائرات من طراز « ميج » فقد أوضح ناصر لمنـدوب السـانداى تايمز أن معظمها اخفى فى مطارات سرية فى الصحراء ٠ والواقع أنه منذ صباح أول نوفمبر فى حين كانت معظم المطارات سليمة لم تمس (كانت النتائج الاولى للضرب مخيبة للآمال وقد ظلت جميع الممرات صالحة للاستعمال) اختفت الطائرات المصرية من السماء ، ولم تتدخل الا فى بعض المعارك الفردية ٠

وفى الساعة التى انقضت فيهـا مهلة الانذار النهائى وبدأ عبء الهجوم البريطانى الفرنسى على مصر كلفت الحكومة المصرية مندوبها الدائم فى الامم المتحدة بابلاغ مجلس الامن أن فرنسا وبريطانيا بدأتا هجومهما على الاراضى المصرية ، وأعلنت مصر أنها قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا ومع فرنسا •

وفى أمريكا أعلن الرئيس أيزنهاور فى حديث أمام الاذاعة والتليفزيون أن الولايات المتحدة ستكون بمناى عن الاشباكات فى الشرق الاوسط• وأبدى الرئيس أسفه للتدخل العسكرى الفرنسى ـ البريطانى ، وأبرز أن الولايات المتحـدة لم يؤخذ رأيها وهى لا توافق على أن استخدام القوة وسيلة حكيمة ومناسبة لتسوية الخلافات الدولية • وقد أشار فى ختام حديثه الى أنه برغم الاستفزازات المصرية فان التدخل الذى يجرى الآن يتعارض الى حد بعيد مع مبادىء الامم المتحدة •

وفى اليوم نفسه ـ ٣١ أكتوبر ـ تكلم السير أنطونى ايدن مرة أخرى أمام مجلس العموم ، وقد التزم فى مذكراته تكتما غريبا بالنسبة لهذه الجلسة بخلاف مقتطفات موجزة من بيانه الخاص ، وحاول فى المجلس أن يبرر الحملة الفرنسية البريطانية ،وشرح فى الوقت نفسه السبب الذى دعا بريطانيا الى عدم مشاركة وجهة النظر الامريكية فى الامم المتحدة • وقد سأل هيوجيتسكيل زعيم المعارضة ـ الذى يستحق ثناء أكبر على موقفه ـ ما اذا كانقد صدر الامر للقوات الفرنسية والبريطانية باحتلال منطقة القناة بعد انقضاء مهلة الانذار النهائى • فرفض ايدن الاجابة عن هذا السؤال المحـدد • وكان جيتسكيل يرى أن رئيس الحكومة قد ارتكب عملا « جنونيا يؤدى الى الخراب » وانه لم يضـع فى تقديره أهم أسس السياسة البريطانية الخارجية المتبعة فى هذه السنوات الاخيرة ، وهى المحافظة على الصداقة مع الولايات المتحدة والحصول على موافقة الكومنولث ومسـاندة الامم المتحدة •

كشف الحساب الاسرائيلى :

فى الوقت الذى تقرر فيه آن تلقى بريطانيا العظمى وفرنسا فى المعركة بقوات تعادل قوات الجيش المصرى فى مجموعه ، ماذا كان موقف الاسرائيليين من الناحية العسكرية ؟

ما التاريخ الآن ؟ انه يوم ٣١ أكتوبر ٠

وما الساعة الآن ؟ الرابعة والنصف بتوقيت جرينتش × ٠

ان طائرات كامبيرا البريطانية كانت تقترب اذ ذاك من المطارات التى ستلقى عليها القنابل ، وفى الجبهة الجنوبية فى سيناء كان اللواء ٢٠٢ الاسرائيلى لا يزال مجمدا فى مكانه أمام ممرات متلا بعد أن صدته كتيبتان مصريتان ٠ وفى أقصى الجنوب من سيناء لم يصادف لواء السيارات الاسرائيلى المندفع نحو شرم الشيخ أى اشتباك حاد ٠ وفى الجبهة الوسطى أوقف مركزان من مراكز أبو عجيلة اللواء السابع المصفح ، والمركزان هما : الجسر وأم هشام ٠ وفى الجبهة الشمالية كانت المراكز المصرية لا تزال سليمة ولم يقم بنشاط هناك سوى الفدائيين الاسرائيليين المختصين بازالة الالغام ٠

والحقت خسائر جسيمة بالمصريين بسبب الغارات الجوية التى وقعت على دبابات اللواء الاول المصفح المصرى ، وقد قامت طائرات سلاح الجو الفرنسى من طراز ميستير بهذه الهجمات قبل انقضاء مهلة الانذار النهائى ٠ وكان الاسرائيليون قد أخفقوا حتى هذه اللحظة فى كل مرة هاجموا فيها القوات المصرية النظامية التى دافعت فى مجموعها عن نفسها بامتياز وشرف ٠ أما القوات التابعة لقوة الحدود فى الصحراء فقد هربت بسرعة من المعركة ، ولكنها كانت وحدات صغيرة تعادل

× اى الساعة السادسة والنصف بالتوقيت المحلى ، وفى نهاية اكتوبر بخط عرض القاهرة تصادف هذه الساعة غروب الشمس ٠

قوة سرية كانت مسلحة خفيفة ولم يكن فى طاقتها أن تقاوم آلايات تزخر بالمدفعية والمصفحات • وكل ما كانت تستطيع عمله على أكثر تقدير هو القيام بعمليات من شأنها تأخير تقدم العدو ليتسنى لها الانسحاب بنظام• فلم يقع اذن الا اشتباكان: محاولة المرور بالقوة من ممرات متلا التى ترتب عليها قتل المئات من الجانبين ، ومعركة المصفحات فى الجبهة الوسطى حيث كانت الخسائر المادية جسيمة هنا وهناك ، وقد فقد كل من الجانبين نحو ثلاثين دبابة لم تعد صالحة للحرب •

ولا يمكن فى هذه اللحظة التكلم عن نصر اسرائيلى لان القوة المصرية لم تمس تقريبا ، حتى أن الكولونيل هنريك وهو اسرائيلى أكثر من الاسرائيليين أنفسهم اعترف بأن الموقف لم يكن مشجعا ، ولكن هذا كان الموقف الذى أرادوه لانفسهم• وكانت الخطة تقضى بجذب أقصى ما يمكن جذبه من القوات المصرية داخل سيناء ، وذلك لاخلاء طريق القاهرة لانه لا يمكن عبور القناة الا من كوبرى الفردان ـ الذى ينوى الحلفاء هدمه فى الوقت المناسب ـ أو بواسطة المعديات التى ستكون هدفا ممتازا للطائرات المتحالفة • يجب على الاسرائيليين اذن أن يتقدموا بدرجة معقولة حتى يجعلوا التهديد أمرا جادا يبرر ارسال التعزيزات اليهم •

وقد نجحت الخطة • وحتى اللحظة التى أصدر فيها ناصر أمره بالانسحاب كان قد نقل الى شرقى القناة اللواء الاول المدرع (الروسى) واللواء الاول المشاة الخفيف واللواء الثالث المشاة ، حتىأنه لم يبق لديه قوات حقيقية للدفاع عنباقى الاراضى المصرية الا لواءين مصفحين ولواءين للمشاة علاوة على قوات أخرى ليست ذات قيمة كبيرة والكتائب الشعبية • وقد نجح بفضل الامر الذى أصدره بالانسحاب فى انقاذ اللواء الاول المدرع واللواء الاول مشاة الخفيف واللواء الثالث مشاة ولو كانت القيادة الفرنسية البريطانية (أى القيادة البريطانية) قد قامت فى أثناء ضرب المطارات المصرية بنسف كوبرى الفردان لكان معظم الجيش المصرى قد حجز فى سيناء وأصبح فى مصيدة كبيرة • ومن حسن حظ ناصر أن الحلفاء كانوا قد قرروا تخريب المطارات فقط فى خلال ثمان وأربعين ساعة وعدم القيام بعمل أى شىء غير ذلك فى هذا الوقت •

الفصل الرابع عشر

الاشتباكات

بمجرد سقوط القنابل البريطانية الاولى اتخذ ناصر احتياطه من الناحية الداخلية • لقد أعلن الاحكام العرفية وعين نفسه بقرار من مجلس الوزراء حاكما عسكريا على مصر • كما قطع علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى وفرنسا واستولى على الممتلكات البريطانيـة والفرنسية فى مصر ، ودعا هاتين الدولتين ـ حتى هؤلاء الذين اكتسبوا منهم الجنسية المصرية ـ الى التقدم للسلطات المحلية فى خلال ثلاثة أيام • وقد أعاد الرقابة على الصحافة وعلى المواصـلات السلكية واللاسلكية • ولم تعلن هذه الاجراءات الا فى اليوم التالى ، ولكنها نفذت فورا • وأخيرا أعطيت تعليمات مشددة الى رجال الامن لحماية حياة الاجانب •

وأفرغت طائرات كامبيرا وفاليانت حمولتهامن القنابل فوق المطارات المصرية وبعد قليل قام السـلاح الجوى الملكى بغـارة أخرى ـ أكثر سلمية ـ على مدينة القاهرة نفسها ، اذ ألقت ملايين المنشورات عليها • ويدل نص هـذا المنشور ـ الذى لم يفهممضمونهمعظم الذينالتقطوهـعلىادراك غريبللحرب السيكولوجية. لقد أبلغ المصريون أنهم سيضربون بالقنابل أينما وجدوا ، أى أنه كان يتوعـد بعبارات صريحة بضرب السكان المدنيين بالقنابل • وقد أصدر هذا الحكم عليهم للسبب الآتى : لقد ارتكبتم خطيئة حينما منحتم ثقتكم لجمال عبد الناصر ! وكان أول أثر عملى لهذا المنشور أنه فى صباح يوم أول نوفمبر خرب طيار من السلاح الملكى البريطانى طائرته من طراز كامبيرا حتى لا يقوم بضرب السكان المدنيين ،

كذلك حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن طيارى السلاح الجوى الملكى شربوا الشمبانيا احتفالا بنبأ وقف اطلاق النار واثقين بعد ذلك أنهم لن يتعرضوا هم أيضا لارتكاب خطيئة ٠

وقبل أن يطلع الشعب على هذه المنشورات الموجهة اليه كان ناصر يتكلم فى الاذاعة ويقول أن الانجليز جعلوا المعركة أكثر متعة الآن٠ نعم أنه سيقاتل بجانب شعبه حتى آخر قطره فى دمه ٠ كلا، انه لن يقبل تسليم بور سعيد أو الاسماعيلية أو السويس ، وان جميع البلاد الصديقة ستمد يد المعونة لمصر ٠ ويمكن أن نستخلص من هذا الخطاب نتيجتين هما أن الخطاب نفسه نداء لتوسيع نطاق النزاع وذلك بالحصول على مساندة التضامن الافريقى الآسيوى ضد هذا النوع الجديد من شرور الاستعمار ٠ وانه أيضا نداء يهدف الى القيام بحرب عصابات فى حالة ما اذا رأت الحكومة الحالية نفسها أن طوفان الاعداء الاجانب قد أغرقها ٠ ويعتبر هذا النداء الاخير مناورة ماهرة من مناورات السياسة الداخلية ٠ ان أى فريق يحاول اذن أخذ مكان ناصر سيدفع منذ الساعة الاولى بأنه خضع للاجنبى المستعمر ٠

الحرب الجوية :

وفى صباح أول نوفمبر ، كانت الصور الفوتوغرافية التى التقطتها طائرات الاستكشاف الفرنسية التى حلقت فوق المطارات المصرية مخيبة للآمال ٠ كانت الخسائر التى سببتها القنابل التى ألقيت من ارتفاع شاهق قليلة نسبيا ٠ فمعظم الطائرات كانت سليمة ولا تزال الممرات الارضية فى المطارات صالحة للاستعمال٠ وقد اختفت الطائرات المصرية من طراز اليوشن التى لم يمكن ضربها بالقنابل فى الليلة السابقة ، كما اختفى عدد من الطائرات من طراز ميج ٠

وفى الحال بدأ سباق جوى لان أكثر من مائتى طائرة ـ أربعون فرنسية من طراز ثاندر ستريك ، وستون بريطانية من طراز فينوم قادمة من مطار أكروتيرى

بقبرص والباقى من حامـلات الطائرات البريطانية ايجل وبولوورك وأليبون ـ كانت ستتناوب التحليق فوق الاراضى المصرية بمعدل غارة جوية كل ربع ساعة، لضرب الطائرات الموجودة على الارض والمنشآت بالمدافع وبالصواريخ • وفى الفترة الواقعة بين شروق الشمس وغروبها وقع على كل مطار من المطارات المصرية من أربعين الى خمسين غارة جوية • وبرغم توالى الهجمات وشدتها ، فان المصريين نجحوا مع ذلك فى انقاذ بعض طائرات الميج • وقد ضحى ناصر بالطائرات القديمة لانه رأى أن تعويض المعدات أسهل من تعويض الرجال الذين يتطلب تكوينهم مدة طويلة وجهدا ثمينا • وفى نهار يوم ٢ نوفمبر استمر الهجوم على المطارات المصرية وذلك للحيلولة دون عودة الطائرات المصرية للقيام بضرب هذه المواقع بالقنابل لمدة ثمان وأربعين ساعة وان أى تغيير فى ذلك كان من شأنه افسـاد الخطط •• الخ • وكانت هيئة أركان الحرب البريطانية قد حسبت حساب الوقت ، ولذلك فقد كانت تنفذ هذا التوقيت بدقة •

انسحاب فى سيناء :

ماذا أسفر عنه القتال داخل سيناء ؟ فى الجبهة الجنوبية لاحظ اللواء ٢٠٢ الاسرائيلى فى صباح أول نوفمبر أن العدو قد انسحب من ممرات متلا • وقد أرسلت حملة للتثبت من عدم وجود مصريين ثم كلفت بعض وحدات المشاة باحتلال الممرات وبالسير فى الارض التى غادرها العدو حتى تصل الى مسافة عشرة أميال (١٦ كيلو مترا) من القناة طبقا للخطة التى تضمنها الانذار النهائى الفرنسى واتجـه اللواء الاسرائيلى نفســه نحـو الجنوب • وفى هـذه الاثنـاء اسـتمر اللواء الاسرائيلى التاسع سيارات فى زحفه نحو الناحية الاخرى من سيناء أى من جهة الشرق ، ووصل الى عين فرتاجة فى أول نوفمبر الساعة السادسة مساء دون أن يصادف أية صعوبات سوى طبيعة الارض الوعرة• وفى الجبهة الوسطى لم تعد المقاومة فى أم هشام تضايق اللواء السابع المدرع الاسرائيلى لان المدافعين عنه كانوا أخلوه ليلا بمجرد استلامهم أمر الانسحاب ، فهو يستطيع اذن الآن أن يلقى بثقله

ضد اللواء الاول المدرع المصرى الذى كان قد تقدم ثم أخذ هو أيضا فى الانسحاب، واستطاع الاسرائيليون اللحاق بالدبابات المصرية المنسحبة حوالى الساعة الثانية مساء بالقرب من بئر جفجافا • وقد ارتفعت حرارة المعركة المسعورة بين الدبابات حتى جاء الليل ، فصارت الخسائر جسيمة هنا وهناك • وقد سمح الظلام للمصريين بالافلات واستئناف حركة الانسحاب ، وفى الصباح كان المصريون قد تخطوا خط الستة عشر كيلو مترا الذى لم يستطع الاسرائيليون الوصول اليه • وبينما كانت الدبابات الاسرائيلية تتجه بسرعة نحو هذا الخط كانت لواءات المشاة الاسرائيلية تطهر الارض من خلفها وتحتل فى المساء مطار روض سالم حيث استولوا على معدات حربية مهمة مكدسة فى مخازن تحت الارض• ومن الناحية العملية توقفت المعارك فى الجبهة الوسطى يوم أول نوفمبر حين جاء الليل •

وفى الجبهة الشمالية كانت عملية الاستكشاف الصعبة التى تمت يوم ٣٠ أكتوبر ثم الهجوم الفاشل الذى وقع يوم ٣١ قد أوضح للقيادة الاسرائيلية أن الاستيلاء على محور رفح المحصن لا يمكن أن يتم بدون هجوم شديد تقوم به المدفعية • وقرر الاسرائيليون أن يطلبوا من البحرية الفرنسية القيام بهذا الهجوم، فجردت البحرية الفرنسية لهذا الغرض ـ من الحملة الفرنسية البريطانية التى كانت فى طور الاستعداد وبالاتفاق مع القائد العام الجنرال البريطانى كيتلى ـ المدرعة جورج ليج التى كان يقودها القائد البحرى × ، وقد اقتربت المدرعة جورج ليج من الشاطىء وشنت هجوما وحشيا على رفح ملقية عليها نحو أربعمائة قنبلة من مدافعها التسعة من عيار١٥٢ ولم تقاوم الحامية هذا الطوفان من الصلب. وضعفت أيضا مقاومتها بعد أن تسلمت هى الاخرى أوامر بالانسحاب المباشر الذى كانت تقوم بتنفيذه • وحين بدأ الضرب ينصب عليها ، اشتبك فى القتال اللواء السابع والعشرون المدرع الاسرائيلى ، وبعد بضع ساعات وصلت دبابات

× وهو حاليا أميرال ورئيس هيئة أركان البحرية الفرنسية •

لاسكوف الى محطة سكةحديد رفح وأتمت بذلكحصار الفرقة الثامنة الفلسطينية ×
التى كانت فى جيب غزة • أما المدافعون عن رفح الذين استطاعوا التوجه غربا
فقد لحقوا بلواء السيارات المصرية المسمى اللواء الالمانى الذى وصل الى نقطة
مسفاج على بعد ثمانين كيلو مترا غربى العريش والذى كان قد وصله أمر
بالانسحاب • فاتجه اللواء المصرى بسرعة نحو القنطرة ولم يستطع الاسرائيليون
الالتحام معه فى معركة لانه وصل بسرعة عند خط الستة عشر كيلو مترا •

أما الفرقة الثامنة الفلسطينية المحاصرة فى جيب غزة فهى التى ضحى بها
الجيش المصرى ، وهى التى لم يهتم بها أحد ، لا القيادة المصرية ولا العدو • لقد
مر اللواء الاسرائيلى لاسكوف أمامها بمدرعاته دون أن يوجه اليها طلقة مدفع
واحدة • والحقيقة أنها لم تكن فرقة بمعنى الكلمة ، فهى تضم فقط لواءا من الحرس
الوطنى نصفه من الكتائب الوطنيةونصفه الآخر من كتائب الشباب ، يضاف اليهم
الكتيبة الفلسطينية التى يعتبر تكوينها مسألة سياسة تهدف الى الاحتفاظ بأكثر
اللاجئين الفلسطينيين تعصبا داخل نطاق نظام عسكرى • وفى هذه الساعة لم يكن
أمام هذه الفرقة ما تستطيع الدفاع عنه سوى نقطة خان يونس المحصنة لكى
تدخل معركة لاهدف من ورائها سوى الدفاع عن الشرف •

وفى مساء أول نوفمبر تم الاستيلاء على رفح ، وعلم أن بلدة خان يونس
محاصرة ، فقد شعر اللواء السابع والعشرون المصفح الاسرائيلى أنه حر فى تحركاته
فهجم على العريش على مسافة خمسة وخمسين كيلو مترا غربا حيث فاجأ بعض
الوحدات المنسحبة واستولى على مراكزها بسهولة واكتشف مخزنا هاما للمعدات
الحربية •

وكانت الدلائل تشير الى أن الاسرائيليين سيبلغون فى نهار ٢ نوفمبر خط
الستة عشر كيلو مترا • فاذا اعتبرنا أن النصر هو الاستيلاء على مساحات من

× لم يكن فى غزة الا الفرقة الفلسطينية والحرس الوطنى المصرى وسيوضح المؤلف ذلك فيما
بعد •   (المراجع)

الصحراء فان انتصار الاسرائيليين يصبح شيئا لا شك فيه • اما اذا اعتبرنا أن النصر هو فى قهر العدو فيعتبر ماوصلوا اليه ضربا من الفشل• لقد تركوا فرقتين مصريتين من صفوة فرق الجيش المصرى تفلتان منهم ، وظلت الاولى منهما سليمة لم تمس أما الثانية فلم تفقد سوى عدد من دباباتها وكان معظم هذه الخسارة ناتجا عن هجوم الطائرات الفرنسية • ولكن العملية الاسرائيلية لم يكن المقصود منها ذلك ، كان المقصود منها جذب معظم القوات المصرية الى سيناء لفتح طريق القاهرة أمام الفرنسيين والبريطانيين• وبعملها هذا كانت اسرائيل تسعى لتحقيق أهدافها السياسية الخاصة ، وهى ابعاد طاعون الفدائيين عن حدودها • ولكن هذا أمر آخر وحرب أخرى •

المعركة غير المتكافئة :

وفى هذه الليلة كانت السفينة الحربية البريطانية « نيوفاوندلاند » بقيادة الكابتن هاميلتون فى البحر الاحمر عند طرف خليج السويس مطفئة أنوارها وتسير بارشاد الرادار وتتبعها السفينة الحربية « ديانا » وفجأة ظهرت أنوار سفينة ، فتعرفت «نيوفاوندلاند» بسرعة علىهويتهاوتبين أنها الفرقاطة التعليمية المصرية « دمياط » وكانت مدافع «دمياط» مغطاة بغطاء من القماش ، وكان واضحا أن هذه السفينة التى تسبح فى أنوارها المضاءة مثل أية سفينة لنقل بضائع لم تكن تفكر فى وجود العدو هنا ، أو حتى تخشى وجوده •

فاقتربت « نيوفاوندلاند » وعلى مسافة بسيطة أصدر قائدها أمره بالانوار الكاشفة الى السفينة المصرية طالبا منها التسليم ، وقد استولى الذعر على السفينة المصرية • كان الرجال يرقدون على سطح السفينة ويرفعون الاغطية القماش ويستعدون للضرب • وقرر الكابتن هاميلتون فتح النيران وأطلق جميع مدافعه عن قرب وتناثرت أجزاء الفرقاطة التعليمية المصرية دمياط • وقتل نصف طاقمها، أما الذين نجوا منهم وعددهم ٧٢ فقد التقطتهم السفينة ديانا • وطلبت الحكومة

الانجليزية التى لم تكن تستطيع أن تفخر كثيرا بهذه العملية ارسال هؤلاء الناجين الى ميناء جيبوتى الفرنسى بالصومال ، لانها كانت تخشى وقوع اضطرابات مدنية فى عدن اذا انزلوا هناك ٠

خلافات فى قبرص :

وفى قبرص تلقت هيئة أركان الحرب المتحالفة أخبار الجبهة الاسرائيلية بسرور وارتياح ، ولاحظت أن الهجوم الجوى الفرنسى البريطانى يتقدم بدون معارضة تذكر ٠ لقد سقطت رفح، وما هى الا ساعاتقلائل حتىيبلغ الاسرائيليون خط الستة عشر كيلو مترا الذى حدد لهم ٠ يجب اذن الفصل بين الجانبين المتحاربين على وجه السرعة ٠ ولكن هناك شيئين يحولان دون القيام بذلك : أولا وجود القوات المصرية على الضفة الشرقية للقناة وهى القوات التى لم تنتقل بعد الى الضفة الغربية ، فلن يكون التدخل اذن بمثابة «فصل الجانبين المتحاربين» كما كانت الحكومة البريطانية تتمنى ذلك بل سيكون هجوما مباشرا على جيوش ناصر ٠ والسبب الثانى وهو الاشد خطورة هو عدم الاستعداد لمثل هذا الهجوم ، فلا يمكن الدخول فى معركة ضد القوات المصرية المجهزة بمصفحات والتى ستقاوم هذا الهجوم الا بعد انزال الدبابات الفرنسية البريطانية على الارض ، أى أنه لا يمكن أن يتم ذلك قبل يوم ٦ نوفمبر ، وهو اليوم الذى يعتقد الحلفاء أن الجانب الامريكى سيطلق يدهم فيه، أو على الاقل هذا هو ما فهمهالفرنسيون والبريطانيون من تفسير الخطاب الموجه من أيزنهاور الى ايدن يوم ٢٦ أكتوبر ٠ ولقد أدى تدخلهم العسكرى السابق للأوان فى الوقت الذى كانت حملة الدعاية الامريكية على أشدها (اضطر أيزنهاور الى الغاء جميع ارتباطاته الانتخابية الاخيرة) الى اثارة غضب الولايات المتحدة ، وتسبب أيضا فى رد فعل عدائى داخل الامم المتحدة الامر الذى لم يكن متوقعا حدوثه بهذه السرعة ٠

والخطة العاجلة الوحيدة التى كانت لدى الحلفاء فى قبرص هى الخطة أوميليت ٠ وهى خطة تعتمد أساسا على عدم المقاومة من جانب العدو ، وذلك فى حالة نجاح الانقلاب الذى أعده الحلفاء ضد ناصر فى القاهرة ٠

ولذلك كان قادة قوات الهجوم يدرسون يوم أول نوفمبر ترتيبا للخطة أوميليت ويعدون خطة لا تهدف الا للاستيلاء على بور سعيد ٠ انها الخطة التى أطلقوا عليها « أوميليت ٢ » ثم اسم « سامبلكس » ٠ وقد اقترح قائد القوة (أ) الجنرال بوفر الفرنسى كسب ٢٤ ساعة بالنسبة لعملية انزال القوات الى البر ، وذلك بتوجيه عناصر الهجوم المباشرة نحو بور سعيد بدلا من جعلها تتوقف أمام قبرص٠ وبذلك يمكن النزول للبر يوم ٥ نوفمبر والهبوط بالمظلات فوق بور سعيد يوم ٤ وربما يوم ٣ نوفمبر ٠ وقد اعترضت البحريتان الفرنسية والبريطانية على هذا الحل ، فقد خشيت البحرية البريطانية أن يؤدى احتلال بور فؤاد السابق لاوانه الى الحيلولة دون اطلاق قذائف الاسطول لاحتلال بورسعيد، واما البحرية الفرنسية فقد كانت ترى ــ كما قال الاميرال لانسلو ــ أن الكراكات لن تصل الا فى يوم ٥ نوفمبر ، وهى لا تريد المخاطرة بعملية انزال القوات الى البر قبل الاوان أى قبل أن يكون لديها الكراكات اللازمة لتفريغ شحنات السفن من المهمات والعتاد ٠

وقد رفض ستوكويل قائد القوات البرية الفرنسية البريطانية الاقتراح الفرنسى ، وفى مساء أول نوفمبر لم يكن لدى هيئات أركان الحرب المتحالفة فى قبرص أية خطة محددة مباشرة للقيام بهجوم قوى ٠ ولم يكن لديهم سوى الخطتين أوميليت وسامبلكس اللتين وضعتا على أساس استغلال الانهيار المفروض حدوثه فى مصر ، وليس على أساس خوض قتال واسع النطاق ٠

وقد أذعن الفرنسيون ووافقوا، لأن الكلمة الاخيرة كانت من حق البريطانيين٠ وكان الفرنسيون المتحمسون للتدخل قد أحنقهم ذلك ولا سيما الجنرال مارتان الذى تدخل فى مساء الليلة السابقة ــ ٣١ أكتوبر ــ لدى القيادة الفرنسية باعتباره ممثلا شخصيا لوزير الدفاع الوطنى بورجى مانورى لالقاء رجال المظلات بأسرع وقت ممكن على ضفتى القناة ٠

ونظرا لان عمليات الاستكشاف الجوى قد كشفت عن أنه تم تدمير ستين طائرة معادية وأن سلاح الطيران المصرى لن يكون له وجود بعد وقت قصير فى المعركة ،

فقد قرر بدء الهجوم الجوى فى اليوم التالى على المصفحات التى اكتشفت تجمعاتها غربى الاسماعيلية • ولكن لم تكن هناك أية خطـة لانزال الجنود الى البر بسرعة بل ان هذه الخطة لم يكن من الممكن فى نظر بعض الضباط تصورها •

أما فى نيويورك فكانت الاحداث تسير بسرعة ، وفى لندن كان يصعب على ايدن أن يحصل على تأييد لما يقوم به من أعمال •

غضب فى مجلس العموم :

فى مجلس العموم قدم وزير الدفاع الجديد أنطونى هيد الى البرلمان الذى يتميز سخطا تفاصيل عن الغارات الجوية الاولى التى شنها السلاح الجوى الملكى على الاراضى المصرية • وقد انتهزت المعارضة هذه الفرصة لمهاجمة الحكومة بعنف والتنديد بايدن • وصاح زعيم حزب العمال هيو جيتسكيل : نستطيع أن نحتل مساحة من الارض وأن نهزم الجيوش المصرية ولكن تركة المرارة والحقـد التى ستخلفها وراءنا سـتكون أضخم مما كانت فى يوم من الايام ! وقد رفع النائب «ويدجود بن» بيده المنشور الذىألقاه على القاهرة السلاحالجوى الملكى والذى أذاع راديو قبرص نصه• وكان هذا النص ــ كما نتذكر جيدا ــ يتوعد السكان المدنيين بأن القنابل ستلقى عليهم • ولذلك ساد الذهول قاعة المجلس ، وسالت المعارضة سلوين لويد وزير الخارجية اذا كان على علم بهذه الاحداث ؟ وكل ما استطاع لويد أن يجيب به ــ وهو فى حالة ضيق شديد ــ أنه لم يحط علما بذلك ، وأنه سيأمر باجراء تحقيق •

وقد أعاد جيتسكيل الكرة قائلا ان ملايين من الانجليز قد أصيبوا بصدمة شديدة واعتراهم الخجل من هذه الغارات الجوية التى لم تتم باعتبارها من وسائل الدفاع الجماعى والقومى ، ولكنها كانت تحديا لسلطة الامم المتحدة • وقال الزعيم العمالى اليسارى أنورين بيفان ملقيا بسـهامه النافذة ومهاجمـا ايدن : حينمـا

كانت جميع دول العالم تقف فى الماضى ضدنا كنا ـ على الاقل ـ نحتفظ بالشرف، ولكن ماذا نستطيع الآن أن نقوله للأمم المتحدة ونحن نلقى القنابل على شعب أعزل ؟

ومع ذلك تدخل التضامن فى التصويت وحصلت الحكومة على الثقة بغالبية ٣٢٤ صوتا ضد ٢٥٥ . والامر الخطير بالنسبة لايدن هو التذبذب الذى ظهر فى صفوف حزب المحافظين . وقد استقال أحد وزرائه المفضلين فى الليلة السابقة وهو أنطونى ناتنج ، وبرغم أن هذه الاستقالة لم تكن قد أعلنت رسميا فانها لم تعد خافية على الدوائر الحاكمة التى بدأت تعتقد أن مستقبل السير أنطونى ايدن قد تزعزع .

وكان لروح التوتر العصبى التى أصابت مجلس العموم صداها فى الشارع . وقد أخذ ثلاثمائة طالب يصيحون حول مقر الحكومة « تسقط الحرب ـ يسقط ايدن » . وأرسل سبعون استاذا من أكسفورد الى السير أنطونى ايدن برقية يستنكرون فيها الحرب ، كما وقع ١١٨ صحفيا من لندن بيانا أعلنوا فيه أنهم يشعرون ببشاعة الهجوم الذى قامت به الحكومة البريطانية على الشعب المصرى والاراضى المصرية . حتى اللوردات تدخلوا فى الامر ، فضلا عن أن أسقف كانتربيرى أعلن قائلا « يجب أن نعترف بأن لدينا أسبابا قوية تدعونا للقول بأن العمل الذى تقوم به بريطانيا يتنافى مع روح ميثاق الامم المتحدة ونصه » .

واذا كان ايدن قد اصطدم بمشكلات داخلية ، فلم يكن هذا هو الحال بالنسبة لجى موليه ، اذ لم يصادف أية معارضة من ناحية المبدأ الا من جانب الشيوعيين وبعض المستقلين .

الأمم غير المتحدة :

والامم المتحدة هل ظلت متحدة حقا ؟

كان الامر يختلف اختلافا تاما • لقد اجتمعت الجمعية العامة فى أول نوفمبر، ونظرا لأن الاجتماع كان غير عادى فقد استطاعت أن تناقش المسألة منذ الجلسة الاولى وبدون احالة هذا الموضوع المدرج فى جدول الاعمال الى اللجنة السياسية • وقد طرح طلب الولايات المتحدة الذى عرض على مجلس الامن للتصويت وتمت الموافقة عليه بغالبية ٦٢ صوتا ضد ٢ (فرنسا وبريطانيا) وامتناع تسعة أعضاء من بينهم اسرائيل • وقد حاولت فرنسا وبريطانيا اطالة المناقشات ، بل لقد بلغ الامر بالمندوب الفرنسى أن اقترح الدعوة الى عقد مؤتمر جديد • ولكن الاتحاد السوفييتى اعترض على ذلك وقال أنه توجد حالة عدوان بمعنى الكلمة • وهذا معناه أن المناقشة كانت حامية • وأمام لهجة الهجوم التى سادت الاجتماع التزمت فرنسا وبريطانيا موقف الدفاع المرن ، وطالبتا باسناد مهمة الفصل بين الجانبين المتحاربين الى الامم المتحدة • وكانتا تأملان من وراء ذلك أن تختار الامم المتحدة قواتها لهذا الغرض وهى القوات الوحيدة الموجودة فى ساحة النزاع • وقد أعادت الحكومتان ذكر السابقة الكورية بنوع من التلميح الخبيث فقالتا : انه يبدو من المحتم أن تقوم دولة أو مجموعة من الدول باتخاذ اجراءات جدية لمواجهة المشكلات وذلك كما حدث من قبل فى مشكلة كوريا • وبرغم هذه الاشارة الى التدخل الامريكى فى كوريا الذى حجب بمهارة تحت علم الامم المتحدة ، فقد صدمت الدولتان فى مساء أول نوفمبر بعداء شبه جماعى من الدول الاخرى ، وكيف لا يكون الامر كذلك وهناك بالاضافة الى كراهية الدول الشيوعية والافرو-آسيوية كانت الادانة الامريكية • وحتى لا يشك أحد فى ذلك ، فقد ألقى الرئيس أيزنهاور فى ذلك اليوم خطابا فى فيلادلفيا أعلن فيه أن الامريكيين لا يستطيعون أن يبرروا ولن يبرروا العدوان المسلح مهما يكن المعتدى ومهما تكن الضحية •

ومن الجلى أن المسألة لم تكن الا حالة عدوان • فمثلا حين تدخلت القوات الامريكية فى جواتيمالا ، لم تكن المسألة عدوانا بدليل أن بريطانيا وفرنسا لم تحتجا على ذلك •

السيطرة على الجو :

استمر الهجوم الجوى على مصر . ففى نهار ٢ نوفمبر كانت الاهداف الجوية البحتة قد بدأت تتشبع من فرط ما ألقى عليها من قنابل ، ولهذا تقرر توجيه الضرب الى تجمعات الدبابات ولا سيما تلك المدرعات التى كانت تحمى القاهرة وكذلك القوات المرابطة فى معسكرات الماظة . أما بعد موجة الهجوم الاولى ضد معسكر هاكسسب ، فقد توقف الضرب بأمر صادر من لندن لأنها خشيت تعرض السكان المدنيين لخسائر فادحة بخاصة بعد أن شعر ايدن بأن بلاده أصبحت حساسة من هذه الناحية ، وقد اتضح ذلك جليا من مناقشات مجلس العموم ، وتعرضت طائرات كامبيرا فى هذا اليوم لقوة ضاربة من المدافع المضادة للطائرات، وعلاوة على هذه المخاوف التى تقوم على اعتبارات انسانية كانت هناك رغبة واضحة فى المحافظة على مستقبل العلاقات الانجليزية المصرية !

وكانت الصور التى التقطت خلال الغارات الاستكشافية فى النهار تشير الى أن المصريين يستعدون لاغلاق القناة باغراق بعض السفن والصنادل فيها بالعرض ، وكانت تشير أيضا الى حالة انسداد بجوار بور سعيد ، وحالة أخرى بجوار الفردان .

وفيما يتعلق بالاسطول المصرى المتجمع فى الاسكندرية صدرت الاوامر فى الليلة السابقة الى الطائرات من طراز كورسير الموجودة على حاملتى الطائرات الفرنسية « أرومانش » و « لافاييت » باغراقه . ولكن سفن الاسطول الامريكى السادس التى جاءت لنقل الرعايا الامريكيين الذين تقرر أن يغادروا مصر كانت تعرقل هذا العمل الحربى بوجودها فى الميناء . وفى يوم ٢ نوفمبر ظهر الفرنسيون مرة أخرى ، ولكن السفن الامريكية كانت لا تزال موجودة هناك .

العمليات شرقى القناة :

وفى سينا جرت المعارك فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، فقد وصل اللواء الاسرائيلى ٢٠٢ يوم ٢ نوفمبر فى الساعة الثانية بعد الظهر أمام مراكز البترول فى رأس سدر واحتلها بعد معركة قصيرة ، ثم استأنف فورا سيره على الطريق الساحلى الذى يوازى البحر الاحمر • وفى الساعة الخامسة مساء انطلقت نحو الطور ــ وهى مركز آخر للبترول المصرى ــ سريتان من رجال المظلات الاسرائيليين طليعة هذا اللواء واستولت على المدينة وعلى المطار ، وفى حوالى الساعة الثامنة مساء ألقت الطائرات الفرنسية من طراز « نورد ــ أطلس » القادمة من قبرص على هذا المطار جميع العناصر التى تؤلف كتيبة كاملة : وحدة متحركة ، ومعدات ، وبصفة خاصة سيارات جيب وسيارات نقل • وفى الساعة الثامنة صباح اليوم التالى ــ ٣ نوفمبر ــ انضم باقى اللواء القادم من الطريق الساحلى الى السريتين من جنود المظلات •

وفى هذا الوقت وعلى الضفة الشرقية وصل اللواء التاسع سيارات الى « الدهب » واستمر فى زحفه نحو شرم الشيخ •

وفى الجبهه الوسطى توقفت المعارك فيما عدا بعض عمليات التطهير •

وفى الجبهة الشمالية بالقرب من البحر المتوسط نجحت القوات المصرية فى العريش فى مغادرة مركزها وتنفيذ أمر الانسحاب صباح يوم ٢ نوفمبر • وفى الساعة الثالثة بعد الظهر سلمت السلطات المدنية المدينة الى جنود لواء لاسكوف• وفى العريش اكتشف الاسرائيليون مخازن كبيرة من المعدات الحربية المصنوعة فى روسيا ومن البترول وأجهزة الرادار •• الخ •

الاقتراح الأمريكى :

وفى ٢ نوفمبر استمرت المناقشات فى الامم المتحدة ، وجاء دوز دالاس لكى يحدد موقفه • ولكن خطابه كان يختلف فى لهجته عن خطاب المندوب السوفييتى الا أنه استرسل فى الكلام فى المعنى نفسه وتضمن مشروع القرار الذى اقترحه دالاس على المجلس اتخاذ التوصيات الآتية :

ان الجمعية العامة ، اذ تأخذ فى اعتبارها •••••

- تطالب باصرار وبكل سرعة أن تقبل فورا جميع الاطراف المشتركة حاليا فى النزاع فى هذه المنطقة وقف اطلاق النار ، ويترتب على ذلك أن تمتنع عن ارسال أية قوات عسكرية أو أية أسلحة الى المنطقة •

- تدعو الاطراف المعنية فى اتفاقيات الهدنة الى سحب جميع قواتها دون ابطاء خلف خطوط الهدنة × والامتناع عن كل غزو للأراضى المجاورة واحترام أحكام اتفاقيات الهدنة بكل دقة •

- توصى جميع الدول الاعضاء بالامتناع عن ارسال أية معدات حربية الى منطقة النزاع وبصفة عامة الامتناع عن القيام بأى عمل قد يكون من شأنه تأخير أو منع تنفيذ هذا القرار •

وكما نرى فان هذا النص يهدف الى ادانة سابقة لكل عملية يتخذها الفرنسيون والبريطانيون لانزال الجنود فى مصر ، والى وقف الحرب الجوية ووقف ارسال الاسلحه الى سيناء ، كما يستهدف اعادة اسرائيل الى قواعدها السابقة • وقد طرح مشروع القرار للتصويت يوم ٢ نوفمبر فى الساعة الثانية صباحا وتمت

× أن الامر يتعلق بالهدنة الاسرائيلية العربية التى وقعت فى رودس سنة ١٩٤٩ •

الموافقة عليه بغالبية ٦٤ صوتا ضد خمسة أصوات (أصوات الدول الثلاث المعنية. اسرائيل ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وانضمت اليها استراليا ونيوزيلاندا) وامتناع ستة أعضاء عن التصويت هي اتحاد جنوب أفريقيا وبلجيكا وكندا وهولندا والبرتغال ولاوس .

وفي الوقت نفسه أعلنت الجمعية العامة أن دورتها مستمرة ما دام هذا القرار بغير تنفيذ .

ثم قدمت المجموعة الافرو ـ آسيوية من جانبها الى السكرتير العام داج همرشولد مذكرة تطالب فيها بأن تتخذ الجمعية أشد الاجراءات لوقف الهجوم الذى تشنه بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر ، وهى الدول التى لم تمتثل لقرار الامم المتحدة .

وفي نهاية الجلسة أعلنت كندا على لسان ممثلها « المستر بيرسون » أنها مستعدة لارسال قوات مسلحة للاشتراك فى الحملة التى قد ترى الامم المتحدة أعدادها لارسالها الى مصر ، وقد أعطى دالاس فورا موافقة على ذلك ، وأعلن أن هذا أيضا هو رأى الرئيس أيزنهاور وأنه يتمنى أن تقدم كندا اقتراحات بناءة فى هذا المعنى . اننا اذ ذاك فى ليلة ٢ ـ ٣ نوفمبر ، أو بصورة أدق فى الساعات الاولى من يوم ٣ نوفمبر ، وفرق التوقيت جعل هذا الخبر يصل الى باريس فى الصباح المبكر الذى يستيقظ فيه أعضاء الحكومة . وقد استقل كريستيان بينو وبورجى مانورى (وتلك أول رحلة له بصفته وزيرا) والجنرال شال طائرة خاصة الى لندن لأنه لم يكن أمام أنصار التدخل وقت لاضاعته فاذا كانت حملة الحلفاء تريد النزول فى مصر فلا ينبغى عدم الابطاء أكثر من ذلك .

تضامن عربي :

وفى مصر أعلن ناصر أمام جموع الناس فى الجامع الازهر أن جميع القوات المصرية التى كانت فى سيناء قد انسحبت للدفاع عن قناة السويس . كما أعلن

أن الجيش السورى وضع نفسه تحت القيادة المصرية • ومن ناحية أخرى علم من مصدر رسمى أن الموظفين البريطانيين وعددهم ٤٥٠ الذين كانوا يحرسون مخازن قناة السويس قبض عليهم وتم اعتقالهم •

أما البلاد العربية ـ التى اعتادت الجلبة والضوضاء ـ فانها لم تظهر أنها متعجلة لنجدة مصر • ولكن هذا السكوت وهذا الحذر كان لهما معان سياسية ، لأن ما يدور أمامها حول نقطة السويس الحساسة كان صداما بين دول عظمى • والاطفال العقلاء يعلمون أنه حينما يتشاجر الكبار فان من مصلحتهم أن يلزموا السكوت والهدوء حتى يتجنبوا أن تصيبهم ضربة طائشة !

وفى سوريا وفى المملكة العربية السعودية كثرت المظاهرات • وفى مساء ٢ نوفمبر أعلنت الحكومة السورية قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا وأكدت مسألة وضع الجيش السورى تحت تصرف القيادة المصرية •

وهكذا وضعت بطريقة آلية انابيب البترول الفرنسية البريطانية القادمة من العراق والتى تخترق الاراضى السورية تحت اشراف وحماية القوات التى يملكها ناصر • وفى هذا الوقت نفسه كان الرئيس السورى شكرى القوتلى يعقد فى موسكو الاجتماع بعد الاجتماع مع الماريشال جوكوف وزير الدفاع والماريشال سوكولوفسكى الذى يتولى قيادة جميع الجهاز الروسى المعد ضد حلف بغداد ، والجنرال كازاكوف الذى قد يعين قائدا لفرق المتطوعين المكلفة بالتدخل فى الشرق الاوسط • وقد وجه الاتحاد السوفييتى من جانبه رسائل الى نهرو وسوكارنو يقترح فيها توجيه دعوة مباشرة لعقد اجتماع للدول التى حضرت مؤتمر باندونج•

وفى المعسكر الآخر كانت تدور أيضا مفاوضات • فقد اقترح رئيس جمهورية لبنان ـ كميل شمعون المعروف بأنه صديق بريطانيا الى أقصى الحدود × ـ

× يصفه الجنرال كاترو فى مذكراته بأنه « صنيعة الانجليز » وليس هذا مجرد هراء •

الدعوة الى عقد مؤتمر قمة عربى فى لبنان لمناقشة الموقف • وكان الهدف الواضح لهذا الاقتراح هو دفع ناصر الى ترك القيادة العامة لحضور مؤتمر فى لبنان حيث يمكن شغله بالخطب والمناقشات ريثما يتم تدبير انقلاب في القاهرة يبعده عن الحكم •

تباطؤ فى قبرص :

لقد أثار سير المناقشات داخل الامم المتحدة قلق الجماعات المتحمسة فى باريس التى أحنقها أن ترى الجنرالات فى قبرص وهم معزولون عن العالم الخارجى لا يقدرون الضرورة الملحة فى التدخل قبل اعداد قوة الامم المتحدة أو على الاقل قبل البدء فى اعدادها • ولذلك أرسل الجنرال ايلى رئيس هيئة أركان الحرب العامة ، برقية عاجلة فى الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ مساء الى الاميرال بارجو القائد العام الفرنسى فى قبرص يطلب منه فيها بحث احتمالات كثيرة للتدخل على أرض المعركة ، كما أشار اليه بأن الموقف السياسى العام يقتضى انزال عناصر عسكرية فى مصر خلال ٢٤ ساعة •

وقد تحرى بارجو الامر فتبين أن هيئات أركان الحرب قد أمضت نهار اليوم السابق فى مناقشة خطتى أوميليت وسامبلكس وانتهت المناقشة دون الوصول الى نتائج ايجابية ، لقد قرروا فقط أن يستعدوا •• أن يكونوا مستعدين للقيام بالعملية أوميليت ، أى باحتلال أى فراغ يتركه لهم الانقلاب الذى قد يحدث فى القاهرة لمصلحتهم !

وفى صباح يوم ٢ نوفمبر حاول بارجو الاتصال ببوفر ، ولكن هذا الأخير كان قد ذهب لتفقد القاعدة التى نقلت بالطائرة الى قبرص • وفى بداية فترة بعد الظهر استطاع بارجو الاتصال بقائد القوة (أ) وقدم له نص البرقية التى تسلمها من باريس وأشار عليه بأن يحصل من الانجليز ـ بأى ثمن ـ على موافقتهم للبدء فى العملية أوميليت فورا ، وذلك فى أثناء اجتماع قادة القوة ، وهو الاجتماع الذى كان مزمعا عقده بعد وقت قصير •

ومنذ بداية الاجتماع قدم الجنرال بوفر اقتراحه باتخاذ اجراء مباشر واستخدام الخطة أوميليت • وقد اصطدم فورا بمعارضة شديدة من جانب الاميرال دانفورد سلاتير ومن الجنرال ستوكويل ، وكانت المعارضة قائمة على حجج عسكرية • وفى الواقع كان الاستكشاف الجوى قد أظهر وجود تجمعات قوية جدا من الدبابات شمال القناة • وقد أعلن ستوكويل أن هذا العمل يشير الى مدى رغبة العدو فى المقاومة كما يشير الى أنه لا يمكن القيام بعملية انزال قوات بالمظلات وتركها منعزلة ، وأنه ليس من الممكن تنفيذ الخطة أوميليت ، ثم استدار الى الفرنسيين وقال سأقاوم كل ضغط فى هذا الاتجاه !

وقد تمسك ستوكويل بالخطة العتيدة التى طالت دراستها ، وهى موسكتير المعدلة • تمسك بفكرة تنفيذها يوم ٦ نوفمبر ، واستمرت الغارات الجوية وقذف القنابل على مصر يومى ٣ و ٤ نوفمبر ، وفى يوم ٥ نوفمبر ازدادت هذه الغارات قوة تمهيدا للهجوم فى اليوم التالى • وقد فكر ستوكويل فى عدم استعمال قوات المظلات فى بداية العمليات وحجزها لاستخدامها فيما بعد حين يحين وقت القيام بحركة شاملة وقوية • كما فكر فى الابطاء فى ارسال قوافل الدفعة الثانية ، لأنه توقع ازدحام السفن فى مدخل بور سعيد • وأخيرا فانه لم يستبعد أمكان انزال القوات يوم ٧ نوفمبر فى الاسكندرية •

ومع ذلك فقد اتخذ القرار التالى : سيكون مقر القيادة العامة على السفينة « ثين » يوم ٤ نوفمبر ابتداء من السادسة مساء ، ثم تبحر هذه السفينة فى اليوم نفسه فى منتصف الليل •

وتقرر رفض الخطة أوميليت ، وأسرع الجنرال الانجليزى هويس فى الساعة الرابعة مساء بعد نهاية الاجتماع الى الاتصال تليفونيا ببارجو وأبلغه النبأ السعيد طالبا رفع حالة الاستعداد من رجال المظلات •

وقد ذعر بارجو ، واعتقد أن بوفر لم يفهم أهمية اعداد عملية عاجلة ، فذكره بتعليمات باريس وطلب منه جمع قادة القوة فورا لوضع حل يتفق مع المعنى الذى تضمنته برقية الجنرال ايلى .

واجتمع قادة القوة ـ أى بوفر نفسه وجنرال الطيران بروهون والاميرال لانسو ثم انضم اليهم الجنرال الان جيل وماسو ـ وفكروا فى الاستيلاء على الكبارى القائمة جنوبى بور سعيد يوم ٤ نوفمبر . وكان من رأى بروهون ولانسلو أنه لا توجد أية صعوبة خاصة بالنسبة لقطاعهما . أما بوفر فكان غير متحمس : ان عدم وجود دبابات يمنعنا من الاستيلاء على الكبارى لأن سريتى رجال المظلات اللتين سيجرى انزالهما قد لا تستطيعان الصعود يومين بدون مساعدة (وقد أثبتت الاحداث التالية أن هذا الاعتراض كان وجيها) . كان بوفر يرى أنه يحسن الاستيلاء على مطار الجميل يوم ٤ أو الاستيلاء على الكبارى وعلى بور فؤاد يوم ٥ وقال ان تاريخ ٦ نوفمبر هو الانسب من الناحية العسكرية وانه لن يمكن تعديله الا على المستوى الحكومى .

وقد فشلت كل المساعى التى بذلت لدى القيادة البريطانية ، ورفضت هذه الموافقة مادام لم يصلها تعليمات جديدة من حكومتها فى هذا الشأن .

وقد تدخل ماسو . فبالنسبه له لا توجد أية صعوبة فى الاستيلاء على الكبارى يوم ٤ نوفمبر والصمود هناك . وعلى العكس من ذلك ، فهو يعارض عملية الاستيلاء على أرض الجميل. ستكون هناك خسائر جسيمة فى رجال المظلات (وفى الواقع كانت خسائر الانجليز الذين أنزلوا على الجميل أكثر بكثير منخسائر الفرنسيين الذين نزلوا على الكبارى) . أما ماسو فقد اختار الحل الحذر السليم وفضل الانقضاض على الكبارى .

أما الجنرال بوفر فقد ناقش هذا الموضوع فىالمساء مع الجنرال ماسو ورئيس أركان حربه (ورئيس أركان حرب بوفر قد يكون الكولونيل سانت هيلبيه ، ما دامت المسألة تختص بالتخطيط) وقد أبدى ارتياحه وتفضيله لعملية انزال

جنود المظلات جنوبى بور سعيد ـ بور فؤاد ، باعتبار أن النزول فى هذه المنطقة أفضل من النزول فى الجميل • وقد استبعد استخدام المصفحــات قبــل يوم ٦ نوفمبر ، نظرا لأن الحملة ستكون فى عرض البحر ولا يمكن النزول الى البر قبل هذا التاريخ •

وماذا كان موقف هيئات أركان الحرب مساء يوم ٢ نوفمبر ؟

انها لم تقرر شيئا سوى انقضاض رجال المظلات • لقد اتفق الفرنسيون على أن يكون مشروع الانقضاض يوم ٤ نوفمبر ثم يكون انقضاض آخر يوم ٥ تظاهره عملية صغيرة برمائية موجهةضد بور فؤاد وتنفيذ ما تبقى من عملية «موسكيتير» يوم ٦ نوفمبر • وحتى يقبل الانجليز هذه الخطة قدم لهم المشروع مقلوبا : قد تنفذ العملية « موسكتير » يوم ٦ ولكن قد تسبقها ضربة شديدة على الكبارى يوم ٤ نوفمبر ، ويتم الاستيلاء على بور فؤاد يوم ٥ للسيطرة على منشآت الميناء •

وفى هذا الوقت تدخلت الامم المتحدة بالقرار الامريكى الذى يدين التدخل الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى فى مصر ، كما ظهرت التهديدات الاولى بارسال قوة دولية •

يوم ٣ نوفمبر :

انتشر نبأ التهديد بتكوين قوة دولية طوال يوم ٣ نوفمبر وكان له أســوأ النتائج ، وكان هذا اليوم هو يوم الخطط النهائية والقرارات السياسية •

وقد طار كريستيان بينو وبورجى مانورى والجنرال شال الى لندن بمجرد أن عرفوا النتائج التى أسفرت عنها جلسة الامم المتحدة • يجب الاجتماع بالقادة البريطانيين للقيام بدراسة مشتركة حول أفضل وسيلة لمواجهــة وصــول قوة الامم المتحدة السابق لأوانه ، تلك القوة التى شجع على قيامها دالاس وأيزنهــاور، وقد وجد ايدن الحل السياسى • ففى هذا اليوم أعلن أمام مجلس العموم أنه يرى

من الضرورى انشاء قوة بوليس ، وهو مستعد أن يتنازل عن مكانه الى قوة دولية ولكن بناء على بعض الشروط • وأعلن أيضا أن الحكومات المتحالفة غير مستعدة لوقف عملياتها مادامت المعارك مستمرة• ثم استطرد قائلا «لقد درست الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعناية القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢ نوفمبر ، وهما متمسكتان بوجهة نظرهما فى أنه يجب تنفيذ العملية البوليسية على وجه السرعة لوقف المنازعات التى تهدد من الآن قناة السويس » • أما الشروط التى حددها ايدن اللازمة لوقف العمليات العسكرية المتحالفه فهى عقد اتفاقيات مرضية لتسوية المشكلة الاسرائيلية العربية ، ولتسوية مشكلة قناة السويس ، ويجب أن يقبل الجانبان المتحاربان بأن « تقوم قوات انجليزية فرنسية محدودة العدد والعدة بالفصل فورا بين وحداتهما المحاربة » •

لقد تم التدخل مساء ٣ نوفمبر، وعلم الشعب البريطانى أنهسيخوض الحرب مرة أخرى ، وقامت مظاهرات يوم الاحد ٤ نوفمبر وكان بعضها عنيفا • وقد كشف جى موليه نبض الرأى العام الفرنسى ورأى أنه منقسم بشدة على نفسه ، وأن نصفه يؤيد التدخل والنصف الآخر يعارضه •

ومع ذلك فقد لوحظ أن السير أنطونى ايدن ، حينما أعلن فى مجلس العموم ـ حيث سيصفر له بانتظام فى الايام التالية ـ قراره بانزال قوات فى بور سعيد ذكر أن المسألة تتعلق بقوات محدودة العدد • وكان من الصعب اعتبار القوة البالغ قوامها ٥٠٫٠٠٠ والتى تقرر توجيهها ضد مصر قوة محدودة • وهكذا تقرر ارسال وزير الدفاع أنطونى هيد على وجه السرعة الى قبرص لابلاغ الجنرالات التعليمات الحكومية الجديدة التى كانت تتعارض فى نقاط كثيرة مع الاوامر السابقة • وهذا يفسر أن أنطونى هيد استقل فورا طائرة كامبيرا يوم ٣ نوفمبر فى منتصف الليل بعد مناقشة طويلة مع الجنرال شال واتجه الى مركز القيادة العامة فى أبيسكوبى فى جزيرة قبرص •

استمرار الجدل :

لقد استمر الجدل فى قبرص ، وأحيط الاميرال بارجو علما يوم ٣ نوفمبر بالمشروع الذى وافق عليه قادة القوات الفرنسية فى الليلة السابقة • وقد وافق هو أيضا عليه وقرر الذهاب بنفسه مع الجنرال بوفر لمقابلة القائد العام الجنرال كيتلى • وقد أظهر كيتلى الاهتمام الذى يتفق مع حليف يتعجل نوعا ما كسب الحرب ولكنه ـ كأى دبلوماسى ـ قرر عقد اجتماع جديد لقادة القوات المتحالفة لوضع خطة جديدة لا تنفذ بطبيعة الحال الا بناء على تعليمات الحكومة ، وسيسمح هذا بكسب الوقت وبالمحافظة على حسن العلاقات مع الفرنسيين •

لقد عقد الاجتماع من الساعة الحادية عشرة الى الثانية عشرة والنصف ، وحضره علاوة على قادة القوات الانجليزية والفرنسية الجنرال جيل الذى يقوم بالادارة التكتيكية للقوات الفرنسية المنقولة عن طريق الجو ، والجنرال ماسو قائد الفرقة العاشرة مظلات والاميرالاى بتلر قائد اللواء السادس عشر مظلات البريطانى •

وقد بدأ الجنرال ستوكويل فأشار الى أنه بناء على اقتراحات الفرنسيين سيقوم بدراسة عملية قد تتم يوم ٥ نوفمبر ، وتسبق العملية الاساسية التى ستتم يوم ٦ نوفمبر •

والفكرة الاساسية لهذه الخطة التى ستسمى تيلسكوب هى أنها عملية مزدوجة للانقضاض بالمظلات تتم فى اليوم السابق لنزول القوات الفعلى على البر ، وسينقض البريطانيون على مطار الجميل غربى بور سعيد بقوة قوامها ٤٠٠ رجل، فى حين ينقض الفرنسيون بعدهم بمدة خمس عشرة دقيقة على الجانب الشرقى بقوة قوامها ٤٥٠ رجلا ، وفى يوم ٤ نوفمبر سيتم القضاء على البطاريات الساحلية المصرية بواسطة الطيران ، وفى صباح يوم ٦ نوفمبر يقل الى أقصى حد اطلاق قذائف الاسطول وذلك للاعداد لعمليات انزال جنود القوة الضاربة •

وساد المناقشة شعور من الضيق وعدم الارتياح، وكان يبدو للفرنسيين أن زملاءهم البريطانيين يدرسون هذه الخطة عن غير رغبـة وانمـا يفعلون ذلك لأن التعليمات قد صدرت اليهم من لندن بدراستهـا • والخطـة الوحيـدة التى كان الجنرالات الانجليز يرونها صالحة هى انزال القوات عن طريق البحر بقوة ضاربة يوم ٦ نوفمبر ، وكانوا يتمنون فى قرارة أنفسهم ألا تنفذ الخطة « تيلسكوب » • وقد حاول الفرنسيون ابراز المزايا السيكولوجية لحصار بور سعيد والخطر الناتج عن أى عمل دولى يسبق المحاولات الفرنسية الانجليزية ، ولكنهم لم يستطيعوا اقناع الانجليز الذين كانوا أبرد من الثلج •

وكان بارجو فى موقف صعب • لقد تلقى تعليمات من حكومته باعداد خطة عاجلة ، ولكنه اصطدم بمعارضة الجنرالات البريطانية الذين أسندت اليهم يوم ٨ أغسطس أولوية القيادة• فأرسل بارجو برقية يوم ٣ نوفمبر فى الساعة الثالثة والربع مساء بتوقيت جرينتش يطلب فيها سحب وحدات المظلات الفرنسية من القيادة المتحالفة ووضعها تحت قيادة فرنسية مبـاشرة ، والا فانه لن يسـتطيع تنفيذ التعليمات الصادرة من باريس •

ونظرا لأنه كان واثقا من أن باريس ستقبل هذا الطلب المنطقى ، فقد أرسل رئيس هيئة أركان حربه ـ الجنرال جازان ـ الى معسكر ميشيل لوجران بقبرص لاعطاء أمر الاستعداد الى كتيبتين من كتائب المظلات الفرنسية •

ومع ذلك استدعى الجنرال ستوكويل بعد ذلك بوقت قليل عند القائد العام الجنرال كيتلى ، حيث أبلغ بأن تعليمات لندن تأمر بالاستمرار فى اعداد العملية •

فعقد الجنرالات اجتماعا جديدا • ولم يعد الوقت كافيا لكى يبدأ الانجليز العمل صباح يوم ٤ نوفمبر بناء على أمر صدر فى مسـاء الليلة السابقة بتأخر العمليات بسبب سوء الاحوال الجوية • فاعدت اذن الخطة « تيلسكوب » للنزول بالمظلات صباح يوم ٥ نوفمبر قبل انزال الجنود عن طريق البحر على نطاق واسع يوم ٦ نوفمبر وفقا للخطة « موسكتير » •

وفى نهاية العشاء ظل الجنرالات فى حالة عـدم اسـتقرار تام ، وقبل منتصف الليل بقليل بدأ التصميم ، ثم أحيط القائد العام الجنرال كيتلى والقائد العام المساعد الاميرال بارجو علما بأن وزير الدفاع البريطانى سيزورهما ليلا حاملا معه بعض التعليمات السياسية ٠

خط الكيلو ١٦ :

اذا كان اليوم قد انقضى فى قبرص فى حالة عدم استقرار فان الاسرائيليين فى سيناء كانوا على عكس ذلك ، اذ كانوا يعلمون جيدا حقيقة موقفهم ٠ ففى الشمال لم يكن باقيا سوى اخضاع « جيب » غزة ، وقد سقطت هذه المدينة فى خلال بضع ساعات ٠ وستكون آخر نقطة مقاومة هى مركز خان يونس الحصين من الحرس الوطنى ٠ وبعد معركة بالدبابات لم تستمر أكثر من ساعتين استسلم المصريون من الحرس الوطنى بعد أن وجدوا أن المقاومة ليس لها أية فائدة عسكرية اذ أن جميع القوات المصرية المحاربة كانت قد انسحبت الى ضفتى القناة ٠

وفى جنوب شبه جزيرة سيناء استأنف اللواء ٢٠٢ الاسرائيلى زحفه على طول الساحل الغربى متجها نحو شرم الشيخ ٠ وقد بلغ لواء السيارات الزاحف على الشاطىء الشرقى « النقب » وأزاح من أمامه سرية مصرية واستأنف زحفه نحو قلعة رأس نارانى ، التى سيصلون صباح يوم ٤ الى مشارفها ٠

وفى مساء ٣ نوفمبر كان الاسرائيليون يشرفون على شبه جزيرة سـيناء كلها ، فيما عدا رأس نارانى وشرم الشيخ ٠ وبشكل يتسم بالانانية رأت الحكومة الاسرائيلية أنه لم تعد لها مصلحة فى استمرارها فى موقف التحدى للامم المتحدة فيما عدا اعترافها بأنها مرتبطة مع فرنسا وبريطانيا ٠

مهمة ليلية :

لقد انقضى يوم ٣ نوفمبر فى الامم المتحدة فيما يسمى بلغة المؤتمرات نشاط الكواليس ٠ وكان الجميع ينتظرون الرد الفرنسى البريطانى على القرار الذى صدر

فى الليلة السابقة ، ولكن لن يكون هذا الرد سوى « رفض مشروط » • لقد قررت فرنسا وبريطانيا العظمى فى الواقع ــ بعد مشاورات جرت بين ايدن وأنطونى هيد وباقى الاعضاء فيما نسميه « وزارة الحرب » من ناحية وبين الوزراء الفرنسيين « بينو وبورجى مينورى اللذين حضرا فى هذا اليوم الى لندن يعاونهما الجنرال شال » من ناحية أخرى الاستمرار فى العمليات العسكرية من اعلان استعدادهما لترك مكانهما لقوات الامم المتحدة على أساس شروط معينة • ويعتبر هذا الاقتراح فى الواقع أساسا للمفاوضات المقبلة كما يعتبر وسيلة للخروج من هذا المأزق بطريقة مشرفة ، وكان يهدف بصفة خاصة الى تأخير المناقشات وانشاء قوة دوليـة للامم المتحدة بحيث تدخل ضمنها القوات التى تم انزالها • وحتى يتحقق هذا الاحتمال يجب الا تكون القوات البريطانية والفرنسية قد دمرت كل ما صادفها فى الطريق ، والا تكون قد شقت طريقها فى مصر على أشلاء الجثث • وكانت هذه هى التعليمات التى حملها وزير الدفاع البريطانى انطونى هيد أثناء زيارته لقبرص •

وفى المساء علم أيضا أن جون فوستر دالاس قد نقل الى المستشفى لاجراء عملية جراحية عاجلة له ، وكان المعتقد أنه مصاب بالسرطان •

لقد وصلت طائرة انطونى هيد الى قبرص فى الرابعة صباحا تقريبا ، وعقد على الفور اجتماعا خاصا مع القائدين العامين كيتلى وبارجو • وقد حضر هـذا الاجتماع أيضـا السـير جيرالد تمبلر رئيس هيئة أركان حرب كيتلى وهوبس والجنرال جازان رئيس هيئة أركان حرب بارجو علاوة على مستشارين دبلوماسيين هما المستر مورى عن الانجليز والمسيو بايان عن الفرنسيين •

تعليمات من ثلاث نقاط :

وبدأ انطونى هيد الكلام فورا وقدم للعسكريين عرضا من الناحية السياسية للموقف ، وكان المستشاران السياسيان على علم طبعا بما سيقول ، ثم أصر على ثلاث نقاط هى فى الواقع ثلاثة أوامر سياسية رسمية :

(أ) يجب النزول الى البر عن طريق البحر فى أقرب وقت ممكن ٠

(ب) من الضرورى تجنب كل عمل من شأنه أن يصيب السكان المدنيين بخسائر ، وبصفة خاصة تجنب الغارات الجوية واطلاق مدافع الاسطول ٠

(ج) يجب تعديل الخطة الاساسية التى كانت تقضى بمطاردة ناصر والقضاء عليه لانه يبدو أن ناصر يريد أن يتحصن فى الدلتا ويترك حرية احتلال بور سعيد والاسماعيلية والسويس ٠

فأخذ العسكريون حينئذ يدرسون الخرائط والصور الجوية التى التقطت لبور سعيد والقطاعات المجاورة ، كما درسوا الخطوط الاساسية للتعليمات التى يجب اصدارها لقادة القوة الضاربة ٠ واتفق على وضع الخطة النهائية صباح يوم ٤ نوفمبر (وفى هذا الوقت أضاف الجنرال بوفر عملية انزال مظلات فرنسية أخرى على أن تتم بعد ظهر يوم ٥ نوفمبر فى بور فؤاد) وتقرر أن تصدر الاوامر دون ابطاء ظهر يوم الاربعاء × ٠

وقد عاد الوزير البريطانى الى تناول الموضوع الذى يهمه الى أقصى حد ، وهو تجنب حدوث مذبحة فى بور سعيد وتجنب تدمير المدينة والتقليل من اطلاق مدافع الاسطول مع العمل على انذار السكان المدنيين ٠

وقد أجاب القادة بأنه لا مانع من التقليل بقدر المستطاع من قذائف البحرية. وأوضح كيتلى أن البحرية الملكية تنوى من وراء قذائفها تحقيق مهمتين : الاولى تنفيذ برنامج محدد سيلغى فيما بعد والثانية مساندة القوات البرية فى بلوغ الأهداف المطلوبة ٠ وستقوم المدمرات بذلك ، اذ ستتقدم نحو الشاطىء بقدر ما تستطيع وسيطلب منها توجيه الضرب بغاية الدقة ٠ وقد أعلن بارجو أنه

× ما عدا عملية بور فؤاد التى ظل اتمامها خاضعا للظروف وينبغى البت فيها نهائيا يوم ٥ أكتوبر على اكثر تقدير ، وقت قيام الطائرات بمهمة الضرب ٠

لا ضرورة لتدخل الطرادة الفرنسية « جان بار » وحصل على تصريح باستخدام القطع البحرية لقذف بطاريتين مصريتين تضايقانه ، ووعد في الوقت نفسه باتخاذ التدابير اللازمة حتى لا يصيب الاحياء الآهلة بالسكان .

وقد أوضح انطونى هيد أنه لا يزال أمامهم الوقت الكافى لابلاغ هذه التعليمات الى الاسطول ، وأصر على أن لهذه التعليمات أهمية سياسية كبيرة ، فقدم له القائد العام التأكيد المطلوب .

أما بالنسبة للانذارات التى ستلقى على السكان المدنيين المقيمين بجوار الاهداف المعرضة للضرب فقد أوضح هيد أن لندن لا توصى فقط بتوجيه مثل هذه الانذارات الى سكان منطقة الاسكندرية لان ذلك قد يؤدى الى حدوث حالة ذعر فى مناطق لن تجرى فيها عمليات حربية . وقد استفسر هيد أيضا عن عدد الايام اللازمة لاحتلال الاسماعيلية ، فأجاب كيتلى ٤٨ ساعة .

وأخيرا أظهر هيد رغبة أكيدة فى ضرورة اعادة فتح القناة بأسرع وقت ممكن . وكانت الآراء هنا مختلفة ، فقد قال أكثر المتفائلين خمسة عشر يوما ، وقال أكثر المتشائمين شهرين . وقد أصر الوزير على ضرورة جمع المعدات اللازمة لتعويم السفن الغارقة من الآن ، وهى السفن التى أغرقت لاعاقة الملاحة فيها ، وكذلك اعداد المعدات اللازمة لتطهير القناة . وشرح بارجو أنه سيقوم باستدعاء الاميرال شامبيون وخبرائه الذين يمكنهم أن يكونوا فى قبرص فى خلال ٢٤ ساعة .

وانتهى الاجتماع بعد مناقشة جميع نقاط جدول الاعمال ، وكانت الساعة اذ ذاك قد بلغت السادسة والنصف من صباح يوم ٤ نوفمبر .

هدف آخر :

لم يشعر أحد بمهمة انطونى هيد فى قبرص ، بل أن الذين أخذوا علما بها اعتقدوا أنها نوع من الرحلات التفتيشية التى تسبق أية عملية هجوم ، هل حضر

الوزير للتثبت من أن جميع أزرار الملابس العسكرية فى أماكنها وان الحساء جيد ؟ بطبيعة الحال لا ، وانما كانت هذه الرحلة ذات أهميــة جوهرية ، لانهــا كانت تتضمن ادخال تعديلات على أهداف البريطانيين العسكرية الذين لم يعودوا يرغبون من الآن فى مطاردة ناصر والقضاء عليه ، كما يريدون تجنب كل تهــديد موجه ضد نقط أخرى فى مصر خلاف شواطىء القناة بحيث يتقدمون نحو القناة بأكثر هدوء ممكن • هل عدل البريطانيين وجهة نظرهم تحت تأثير الانتهازية السياسية أو تحت تأثير مناورة محبوكة قد حملتهم على الاعتقاد بأن موقفهم الجديد قد يعطيهم بعض فرص للنجاح ؟ هل سنعرف ذلك يوما ما ؟

وعلى كل حال لم يتبين للفرنسيين بوضوح هذا التحول السياسى الذى قام به حلفاؤهم ، وكانت هذه الاحتياطات الانسانية التى يتخذها السير أنطونى هيد مدعاة لسخريتهم ، ولا أكثر من ذلك •

لقد كانوا مشغولين بالاستعداد للعمليات العسكرية التى وضعوها نصب أعينهم •

الاستعدادات الأخيرة :

وفى بداية صباح يوم ٤ نوفمبر أخذت هيئات أركان الحرب توفق بحرارة بين الخطة « تيلسكوب » وبين التعليمات الجديدة التى صدرت اليهم • وقد أضاف بوفر عملية انزال جنود لمظلات على بور فؤاد ، وأعيد توجيه عمليــات الطــيران والبحرية • وفى العاشرة صباحا كان كل شىء قد أعــد ووزعت على كل مسئول خطة تعديل تيلسكوب على العملية موسكتير « مع » اضافة رقم ١ على التعليمات الصادرة بالنسبة للعملية ٧ وفى الحال بدأ تحميل السفن بصفة نهائية فى ميناء ليماسول • وكانت الطرادة الفرنسية جان بار قد وصلت فى الفجر ، كما وصلت بعد ذلك بساعة سفن المجموعة البرمائية المكلفة بالقيام بعمليات انزال الجنود الى البر • وفى الظهر تم تحميل السفن ، وصعد الجنرال بوفر فوق الطرادة جان بار

لاصدار تعليماته الاخيرة الى الضباط الذين سيشتركون فى العملية • وفى الساعة السادسة مساء صدر أمر الابحار فتركت السفن فى هدوء أمسية جميلة وأنوارها محجوبة عن الانظار فى هيئة طابورين • فمن جهة اليمين تحمل السفينة أوديسه بصفة خاصة الجنرال ماسو وهيئة أركان حربه ثم المدمرتان ل•س•ت ٦٠٨٤ و « لايتا » ومن جهة اليسار السفن شريف ، رانس وفورد • وكان يحرس القافلة ثلاث سفن حربية هى بيربير الى اليسار وطوارج الى اليمين وأمامهما المدمرة لوسودانى ، التى تقود القافلة البحرية • وفى ذيل القافلة كانت تسير المدمرة باشيدرم • وكانت القافلة كلها تسير بسرعة سبع عقد فى الساعة فى اتجاه شواطىء مصر •

ولم تكن هذه السفن تحمل الا العناصر الاولى التى يجب انزالها الى البر منذ اليوم الاول ، أما باقى الحملة الاساسية فستجىء بعد ذلك فى المرحلة التالية • وفى اليوم التالى التقت الحملة الفرنسية فى النقطة المحدودة « ى » مع الحملة البريطانية التى أبحرت من مالطة وسارت الحملتان البحريتان فى خمسة طوابير ـ ثلاثة بريطانية واثنان فرنسيان ـ خلف ستار من سفن الكراكات •

ومع ذلك فقد تبين من العمليات الجوية الاستطلاعية التى تمت فوق بورسعيد وضواحيها أن القناة مغلقة بسفن كثيرة ، أغرقها المصريون عمدا فضلا عن أنه يجرى دعم الوسائل الدفاعية عن المدينة • كما تبين وجود مدافع كثيرة مضادة للطائرات ودبابات مدفونة بقصد استعمالها بدلا من بطاريات السواحل ، وأن المصريين يبثون الالغام على الشواطىء • وقد هاجمت الطائرات أهم الاهداف العسكرية طوال اليوم ، ولم تكتف بمهاجمة منطقة بور سعيد فقط •فقد كانت تجمعات الدبابات بجانب الاسماعيلية وبجانب أهرام الجيزة موضع هجوم متواصل شديد القسوة • ومن ناحية أخرى اكتشف وجود ٢٤ طائرة اليوشن فى مطار الاقصر • فقامت طائرات كامبيرا البريطانية بغارتين عليها كانت نتيجتها أنها تنبهت فهربت ثمان منها الى العربية السعودية ، أما الطائرات الباقية فلم تعد صالحة للخدمة على أثر مهاجمتها بطائرات فرنسية من طراز « ميستير » •

المعارك الأخيرة فى سيناء :

وكانت المعارك الاخيرة تدور فى ذلك الوقت فى جنوب سيناء • وكان الاسرائيليون يسيطرون سيطرة تامة حينئذ على الجزء الشمالى من شبه الجزيرة ، ما عدا شريط الستة عشر كيلو مترا الواقع شرقى القناة •

وقد وصل اللواء التاسع سيارات الاسرائيلى ـ الذى سار على طول الشاطىء الشرقى لشبه الجزيرة ـ أمام رأس نارانى التى كانت الطائرات الاسرائيلية تهاجمها بدون توقف • ونظرا لان القائد المصرى كان يعلم أنه لا يستطيع الاعتماد على أية معونة ترسل اليه من القاهرة فقد قرر عدم الدفاع عن هذا الموقع بالقوة التى احتفظ بها للاستمرار فى المقاومة ، وكان قوامها ١٠٠٠ جندى ، وقد نجح فى اجلاء معظم قواته بحرا فى اتجاه شرم الشيخ حيث ينتظر أن تدور المعارك الاخيرة •

وفى اليوم نفسه غادرت مصوع سفينتا الشحن الاثيوبيتان اللتان استأجرتهما اسرائيل • ولما ذهب الملحق العسكرى المصرى لدى حكومة النجاشى لاستطلاع الامر طرده المسئولون الاثيوبيون فى الحال • وكان على هاتين السفينتين ـ من ناحية المبدأ ـ تموين المغيرين الاسرائيليين على شرم الشيخ ورأس نارانى • ولما وصلت السفينتان يوم ٥ نوفمبر الى هاتين النقطتين ، كانت رأس نارانى قد سقطت ولم يكن باقيا على سقوط شرم الشيخ سوى وقت قليل. ولذلك أرسلت سفينتا الشحن المذكورتان اللتان أطلق عليهما من قبيل الزهو اسم فرقاطات قوة صغيرة لاحتلال جزيرتى خليج تيران • ولتغطية التواطؤ الاثيوبى ، أعلن أن الفرقاطتين قد قامتا بالدوران حول رأس الرجاء الصالح ومن أضرار هذا الادعاء أنه يفترض أنه كان هناك سبق اصرار اسرائيلى •

فى جبهة الأمم المتحدة :

وفى حين كان الفرنسيون والبريطانيون يستعدون لالقاء جنود المظلات على بور سعيد ، أخذوا يقومون فى الأمم المتحدة بمعركة لكسب الوقت. فقد تضمن ردهم على مشروع القرار الامريكى الذى قبلوه يوم ٢ نوفمبر موافقة مشروطة فى ظاهرها ، ولكنها تهدف فى الواقع الى عدم قبوله . وقد أعلنت وفود البلاد الشيوعية ويوغوسلافيا ومصر أن هذا الرد الوقح يهدف الى ضمان كسب الوقت للقيام بالعدوان . وحينئذ قدمت تسع عشرة دولة مشروع قرار جديدا يكرر الى حد كبير نصوص مشروع القرار الامريكى الذى تمت الموافقة عليه يوم ٢ نوفمبر مع مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة يحصل فى خلالها السكرتير العام على وقف اطلاق النار ووقف ارسال الاسلحة . وقد ووفق على مشروع القرار هذا بغالبية ٥٥ صوتا ضد ٥ (هى بريطانيا العظمى وفرنسا واسرائيل ، علاوة على استراليا ونيوزيلاندا) وامتناع ١٢ صوتا .

ووفق من ناحية أخرى على المشروع الكندى ـ الذى أيده دالاس ويقضى بانشاء قوة بوليس دولية ـ وذلك بغالبية ٥٩ صوتا ضد ٩ وامتناع ١٩ (من بينها البلاد الشيوعية) .

وينص مشروع القرار هذا على تكليف السكرتير العام بأن يعرض على الجمعية العامة بكل سرعة وخلال ٤٨ ساعة مشروع تكوين القوة البوليسية الدولية. ويلاحظ فى الفقرة التى تقول « بكل سرعة وخلال ٤٨ ساعة » والتى عرضت فى بداية نهار يوم ٤ نوفمبر أن المقصود من مشروع هذا القرار هو تشكيل القوة الدولية قبل صباح يوم ٦ نوفمبر ، وهو الموعد المحدد لتنفيذ الخطة « موسكتير »

وبعد مضى اثنتى عشرة ساعة على الموافقة على مشروع القرار الاول ـ أى بعد نهاية المهلة المعطاة له ـ أعلن السكرتير العام نتيجة المساعى التى قام بها أن مصر وحدها هى التى وافقت على « القرار المقدم من التسع عشرة دولة » . ولقد

أعلنت عن استعدادها لوقف اطلاق النار ، واقترح السكرتير العام تعيين الجنرال الكندى « بيرنز » قائدا لقوة البوليس الدولية لوجوده فى الشرق الاوسط باعتباره رئيس هيئة أركان حرب منظمة الامم المتحدة ومكلفا بمراقبة عمليات تنفيذ الهدنة على الحدود التى تفصل بين اسرائيل ومصر • (ويلاحظ هنا أن الاسرائيليين وجهوا جهدهم العسكرى على الجبهتين الوسطى والجنوبيـة ، وذلك لتجنب التعقيـدات الدولية) •

وفى الحال قدمت النرويج وكندا وكولومبيا مشروع قرار يقضى بتكليف الجنرال « بيرنز » بقيادة القوة البوليسية التابعة للامم المتحدة وتفويضه بأن يعين فورا هيئة الموظفين اللازمة لهذه المهمة • وقبل الموافقة على مشروع القرار بقليل ناشد المندوب الامريكى ـ هنرى كابوت لودج ـ الدول المتحاربة وبصفة خاصة اسرائيل وفرنسا والمملكة المتحدة احترام الالتزامات التى ارتبطوا بها بموجب ميثاق الامم المتحدة ، مطالبا اياهم رسميا بالامتثال للنداء الذى وجهته اليهم الجمعية العامة بشأن وقف القتال •

وفى لندن كانت الحكومة البريطانية تتبع باهتمام تطور المناقشات داخل الامم المتحدة ، وفى حين كانت الاضطرابات تزداد حدة واتساعا فى كل مكان • لقد تجمعت جماهير غفيرة (بضعة آلاف كما زعم ايدن ، وأربعون ألفا كما جاء فى برقيات الصحف) فى ميـدان ترافالجار للتظاهر ضـد الحرب وأصدروا قرارا بالتصفيق يقضى بالمطالبة باستقالة رئيس الوزراء ، وهذا هو الطلب نفسه الذى تقدم به الزعيم العمالى هيوجيتسكيل بعد ذلك بقليل فى حديث له بالتليفزيون البريطانى ، وقد اجتمعت وزارة الحرب مرتين فى خلال هذا اليوم ، وفى المسـاء اجتمعت الحكومة بكامل هيئتها •

وفى السادسة والنصف مساء وقع نبأ على الوزراء البريطانيين كأنه حبل النجاة • لقد قبلت اسرائيل تدخل الامم المتحدة • ان الاوامر الصـادرة لانزال

الجنود الى البر فى بور سعيد هى الآن موضع التنفيذ ، وفى اليوم التالى سينزل رجال المظلات من الجو للفصل بين المتحاربين الذين سيكونون قد أوقفوا القتال ٠

على أن اسرائيل لم توافق صراحة على وقف القتال ، فقد أجابت على السكرتير العام للامم المتحدة بأنها مستعدة للدخول فى مفاوضات لاقرار السلام مباشرة مع مصر ٠ وكانت هذه مناورة بارعة تهدف الى الاستفادة من الموقف الذى تعانى منه مصر وهى مهددة بهجوم مباشر من جانب فرنسا وبريطانيا وذلك لجرها للدخول فى مفاوضات ثنائية ترغم فى خلالها الحكومة المصريه ـ بعد أن تعرضت لبوادر الهزيمة العسكرية ـ الى الاعتراف من ناحية بوجود اسرائيل ومن ناحية أخرى تتنازل لها عن أشياء مهمة وبصفة خاصة عن مساحات من الارض ٠ وقد يترتب على الدخول فى مثل هذه المفاوضات أن تصبح عملية انزال القوات الفرنسية البريطانية × غير ذات موضوع ، واذا كان ناصر فى حالة يأس سيعتبر ذلك فرصة رائعة لم يكن يحلم بها ٠

ولم يكن هذا هو واقع الموقف ٠ ذلك أن قهر العدو معناه تحطيم جيشه ٠ واذا كانت اسرائيل قد نجحت فى ارسال عدة آلاف من جنودها بعيدة داخل الاراضى المصرية فان عدد المصريين الذين أصبحوا غير صالحين للقتال يبلغ نحو عشر الجيش المصرى، بل أقل من ذلك بكثير اذا وضعنا فى تقديرنا الحرس الوطنى. نعم ان الخسائر فى المعدات كانت جسيمة الى حد ما ، ولكن المخازن الانجليزية فى منطقة القناة التى استولى عليها ناصر كانت كافية لكى تمنح الجيش المصرى مباشرة أربعة أو خمسة أضعاف المعدات التى فقدها فى سيناء ٠ وهذا رأى يخالف الرأى الذى كان سائدا حينئذ ، ولكن من يفكر بهدوء ولا يترك نفسه للحماسة تحت تأثير الوان الدعاية التى من شأنها ارضاء الطموح السياسى فى اسرائيل نفسها فسوف تتضح له هذه الحقائق ٠ فبعد الحملة التى استمرت ستة أيام وعلى

× من بين العوامل التى دفعت اسرائيل فى هذا الطريق ، الضغط الامريكى الشديد ٠

الرغم من الخسائر الجسيمة التى أصابت الجيش المصرى ، فانه ظل سليما على وجه التقريب • لقد أنقذ أهم جزء من سلاح الطيران المصرى حين هربت الطائرات تبحث عن مأوى فى الخارج • اما السلاح البحرى فلم يكن له أى حساب، وبالنسبة للجيش البرى فقد رأينا موقفه • وجملة القول أن ناصر احتفظ بجميع الكرات التى يلعب بها • ولعبته هى أن يحتفظ بجيشه أطول وقت ممكن مع القاء أقل عدد ممكن من هذه الكرات واثارة العالم بأسره • لم يكن هناك اذن أمل فى أن يقع فى الفخ ، ولم يكن الاقتراح الاسرائيلى سوى خطة غير بارعة وغير مثمرة ، ولاسيما أن الحكومة الاسرائيلية قد أغضبت حلفاءها واربكت خطط العمليات ، وبهذا ساهمت فى اضعافها •

وبطبيعة الحال اتصل جى موليه تليفونيا ببن جوريون ، وقد تفادى هذا الاخير حرج الموقف ، فوضع بدوره الشروط الخاصة بالموافقة التى تظاهر بأنه أعطاها لقرار الامم المتحدة • هل مصر مستعدة للدخول فى مفاوضات ؟ وهل ستقبل وقف الحصار الاقتصادى على اسرائيل ؟ وهل تنوى سحب عصابات الفدائيين الخاضعين لاشراف البلاد العربية الاخرى ؟ ومجمل القول أن هذا يعنى التسليم بدون قيد أو شرط • و « لانقاذ ماء الوجه » أعلن الوفد الاسرائيلى فى الأمم المتحدة أنه لوحظ أن اطلاق النار قد توقف • وهذه أكذوبة كبيرة لان سلاح الطيران الاسرائيلى كان يدك فى هذه اللحظة تحصينات شرم الشيخ الدفاعية ، حيث استمرت المعارك الاخيرة هناك حتى يوم ٥ نوفمبر •

وفى انتظار توضيح هذه المسألة قامت الحكومة البريطانية بدراسة مختلف تطورات الموقف • فاذا ثبت أن اسرائيل قد وافقت على اطلاق النار فيجب اذن اصدار أمر عكسى للعملية المقرر اتمامها فى اليوم التالى حتى تتجنب السخرية وتحدى الأمم المتحدة بالنسبه لمسألة قد تمت تسويتها • ولذلك أرسلت الحكومة فى الساعة الثامنة والربع مساء بتوقيت جرينتش برقية الى القائد العام تطلب منه فيها تحديد الساعة التى يمكن فيها اصدار الامر بتأجيل تنفيذ العملية لفترة قدرها ٢٤ ساعة • وقد أبلغ رؤساء هيئة اركان الحرب مضمون هذه الرسالة الى

كيتلى وهى تشتمل على أربعة أجزاء واضافة واحدة • وقد أحيط القائد العام علما بأن الحكومة تقوم الآن ـ بالاشتراك مع الزعماء الفرنسيين وكان بينهم بينو وبورجى مينورى علاوة على الاتصالات التليفونية التى كانت تتم مع جى موليه ـ فى مناقشة مسألة اصدار أمر بالنسبة للعملية المقرر أن تتم فى اليوم التالى ، وهى احتمال اصدار أمر عكسى نظرا لان أمر تنفيذ العمليةقد صدر فعلا من قبل• وتستطرد البرقية قائلة • وبرغم أن الامل كبير فى أن تسير الامور كما تشتهى فانه ربما يكون من المهم ارجاء عملية الغد لمدة ٢٤ ساعة • فما هى أقصى مهلة تستطيعون فيها تسلم مثل هذا القرار ؟ سينقل لكم الامر الذى سيصدر واضحا ، فاذا تقرر تأجيل العملية فستكون كلمة السر « نون » × ، أكرر «نون» • أما اذا كانت العملية ستنفذ كما هو مقرر فان كلمة السر ستكون « مارش » أكرر « مارش » •

وقد تطلبت الاضافة من كيتلى أن يرسل الاجابة بأسرع ما يمكن • وقد حدد القائد العام أقصى وقت ممكن لتلقى الاوامر الساعة ٢٣ (الحادية عشرة مساء بتوقيت جرينتش) أى الواحدة صباحا بالتوقيت المحلى • وهى الساعة التى يكون رجال المظلات فيها فى طريقهم الى المطارات • وأخذ يعدد بعد ذلك الاسباب التى تدعو الى عدم تأجيل العملية • ولن تلعب على كل حال هذه الاسباب دورا ما بالنسبة للقرار الذى ستتخذه الحكومة ، ولكن تطور هذه الاسباب ألقى على عاتق الجنرال كيتلى مسئوليات لم يكن ينبغى أن يتحمل وزرها وحده ، وكانت النتيجة أنه أعفى من منصبه دون أن ينال المجد الذى كان يصبو اليه •

وقد قال الجنرال كيتلى أن الاحوال الجوية الجيدة فى الوقت الراهن قد تزداد سوءا كما أن الحالة المعنوية والجسمانية لجنود المظلات الذين ينتظر أن يمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال بدون نوم ، والمقاومة الصلبة التى يبديها العدو والتى ستستلزم بكل تأكيد القيام بغارات جوية وبحرية أهم وأعنف مما كان مقدرا من قبل والاحتفاظ فى البحر بالقوافل السائرة نحو تحقيق مهمتها ، وأخيرا سخط القيادة الفرنسية وحنقها •• كل ذلك من شأنه أن يزيد الموقف الحالى سوءا وخطورة •

× *None* ومعناها لاشىء •

وبعد ابداء هذه الاسباب بخمس دقائق ، وصلت الاجابة من الحكومة البريطانية : مارش ، أكرر مارش !

لم تكن الاعتبارات التى ساقها الجنرال كيتلى هى التى أثرت بثقلها على القرار الذى اتخذته الحكومة ، ولكنه الاعتقاد السائد عند ايدن ـ وهو اعتقاد كانت تشاركه فيه الحكومة الفرنسية والقيادة الفرنسية ـ بأنه اذا أرجئت العملية ٢٤ ساعة فقد ترجأ الى مالا نهاية وتنهار جميع الخطط التى وضعها الفرنسيون والبريطانيون منذ استولى ناصر على القناة ، وتصبح فرنسا وبريطانيا موضع سخرية العالم مع ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية وداخلية وخارجية وخيمة.

وكان على الحكومة البريطانية اعطاء رد قبل منتصف الليل على القرار الذى أرسله اليها همرشلد (مشروع القرار المقدم من البلاد الافريقية والاسيوية الذى وافقت عليه الجمعية العامة ويدعو السكرتير العام الى العمل على وقف اطلاق النار خلال اثنتى عشرة ساعة) كما كان عليها ارسال رد الى الجنرال كيتلى قبل الساعة ٢٣ اى الحادية عشرة مساء .

ويقول ايدن « لقد فضلت الحكومة الاستمرار فى العملية مع تحمل جميع المخاطر السياسية . وقد أملت هذا القرار علينا الاخبار التى وصلتنا فى نهاية اجتماعنا . واذا كانت اسرائيل قد وافقت من ناحية المبدأ على قرار وقف اطلاق النار فهى لا تزال ترفض فكرة انشاء قوة دولية . كان الغموض يحيط بكل شىء وكانت جميع الاسباب تدعونا الى الاستمرار فى عملنا × » .

وبمجرد اتخاذ القرار لم يفت ايدن أن يخطر أيزنهاور ببرقية موجزة : « اذا تقهقرنا الآن فلن نستطيع تجنب الفوضى . ستشتعل النار فى كل مكان فى الشرق الاوسط » ثم أخذ يلقنه درسا بهذه المناسبة « يجب أن ترشدكم خبرتكم

× ايدن : الكتاب الذى سبق ان اشرنا اليه . ويجدر بنا ان نذكر هنا ولا سيما فى هذا المقام ان مخطوط مذكرات السير انطونى ايدن عرض قبل نشره على جى موليه وحذف منه كل ما يضايقه . (المراجع)

الى أننا لا نستطيع أن نسمح بوجود فراغ عسكرى حتى يتم تكوين قوات الامم المتحدة وتنقل الى هناك • وهذا ما يدعونا الى التفكير فى وجوب السيطرة على الموقف حتى الوقت الذى يمكننا فيه تسليم مسئولياتنا الى الامم المتحدة » •

ما أبعد موقف اليوم عن آمال البداية ! كانوا يتكلمون عن تسوية الحساب مع هذا « الدكتاتور » الذى نهب أموال الشركة ، ويصل بهم الامر الآن الى الالقاء ببضعة آلاف من الرجال على بور سعيد مع الوعد بأنهم لن يذهبوا الى أبعد من ذلك وأنهم سيتنازلون فورا عن مكانهم الى الامم المتحـدة بمجرد أن تصبح مستعدة للاضطلاع بهذه المسئولية ، أى خلال بضعة أيام •

لقد كان أيزنهاور رجلا طيب القلب • انه لم يحتج على هذه العملية ، وفى هذه الليلة بالذات صدرت الاوامر الى الاسطول السادس باخلاء الحوض الشرقى للبحر المتوسط فورا ، وهذا يعنى أن يخترق الاسـطول الامريكى طريق الحملـة الفرنسية البريطانية القادمة من الشمال الى الجنوب لأنه سيتحرك من الشرق الى الغرب • وقد تسبب ذلك فى حدوث سوء تفاهم وأرسل أميرال بريطانى وهو فى ثورة الغضب برقية ملأها بالسباب الى زميل أمريكى ، ولكن الواقع أن الامريكيين لم يحقدوا على رؤساء الحملة بل لقد أرسل قائد عام الاسطول السادس الاميرال براون برقية الى الفرنسيين والبريطانيين ضمنها أطيب تمنيات الاسطول بأسره لنجاح العملية التى يقومون بها •

وقد وقع حادثان فى ذلك اليوم وهو يوم الاحد ، ففى الرابعة صباحا وفى الوقت الذى وصل فيه أنطونى هيد الى قبرص كانت القوات الروسية تزحف على المجر • وفى بداية فترة بعد الظهر كانت هذه القوات قد أصبحت سيدة الموقف• وفى باريس اتصل مكتب وزير الدفاع الوطنى بتل أبيب للسؤال عن حالة الطقس ثم اتصل مباشرة بالاميرال بارجو قائلا : « نفذوا الخطة أوميليت الا اذا تعذر ذلك وعليكم وحدكم يقع عبء تقدير الموقف » وهذا معناه تجاهل أن الخطة أوميليت هى خطة دفاعية محضة ، وهى لا تفترض وقوع أية معركة جادة ، وجدير بالذكر أن

هذه الخطة كانت قد استبعدت منذ يومين • وكانت الاوامر الصادرة بشأن تنفيذ العملية « تيليسكوب » قد تم توزيعها فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم وأن القوات كانت على ظهر السفن وكانت السفن على استعداد للرحيل •

وهناك شيء صغير يجب ألا ننساه، وهو أنهاذا كان أيزنهاور قد أغمض عينيه وترك هذه العملية تتم بعد أن وافق على سحب الاسطول السادس فقد تم ذلك على أساس الالتزامات التي تعهد بها ايدن في برقيته الاخيرة : بور سعيد فقط ! أى وقف اطلاق النار بعد الاستيلاء عليها ثم الاختفاء بمجرد وصول قوات الامم المتحدة الى هناك •

وهنا نرى أن التسامح واضح ومحدد ، ومحدود المدى •

الفصل الخامس عشر

جلد الدب

بدأ يوم ٥ نوفمبر بأن بادر مائة ألف رجل بتأخير ســـاعاتهم في وقت واحد بمقدار ساعتين من الزمن • لقـد تركوا الســاعة الزمنية المحليـة وهى ساعة ناصر ، تلك الساعة التى تسميها هيئات أركان الحرب الساعة (ب) والتى كانت حتى هذه اللحظة تنظم حياتهم الشرقية • وكان التوقيت الجديد يعنى أن يصبح الظهر فى الساعة الرابعة عشرة (الثانية بعـد الظهر) • انهـم يعرفون التوقيت الجديد جيدا فهى ساعة خط جرينتش التى تحكم بريطانيا والتى يسمونها فى ريفنا الفرنسى الجنوبى « الساعة القديمة » (وقد احتفظت فرنسا منذ الحرب « بالساعة الصيفية » حتى فى فصل الشتاء) • أما بالنسبة لهيئات أركان الحرب فهذه الساعة هى التى تنظم جميع خططهم انها الساعة « ى » × •

« مارش ، أكرر مارش » لقد وردت البرقية بوضوح كما تم الاتفاق عليه • لم يكن هناك فائدة من اخفاء الامر ، فقد كان العالم بأسره يعـرفه • وكان قـد أصبح من الضرورى فى الايام السابقـة اصـدار الانذارات اللازمة لتحريم المرور الدولى البحرى والجوى • وقد ترتب على ذلك احتجاج مباشر من موسكو وجه الى لندن وباريس بسبب انشاء مناطق محرمة على الملاحة فى البحر المتوسط وفى البحر الاحمر • كما نتج عنه سكوت واشنطن على مضض (وقد أصدرت أوامرها الى الاسطول السادس بالجلاء عن الحوض الشرقى للبحر المتوسط) •

× سنحتفظ هنا بالساعات « ب » اى الساعات الحقيقية التى دارت فيها الاحداث مع الاشارة الى الساعات « ى » وهى الساعات المعتمدة •

ولما تحقق الامر بالهجوم تجمع رجال المظلات ـ بل كانوا قد تجمعوا قبل صدور هذا الامر بقليل ـ وتليت عليهم بيانات القادة العامين • ثم صعدوا الى سيارات النقل التى أقلتهم الى المطارات ، وفى نحو الساعة الرابعة صباحا أى الثانية بتوقيت « ى » أى جرينتش حلقت الطائرات متجهة الى الجنوب •

وفى السابعة والربع ـ الخامسة والربع « ى » ـ تم القاء ستمائة من رجال المظلات البريطانيين التابعين للواء السادس عشر المستقل (أى الكتيبة الثالثة كلها والقيادة العامة التكتيكية لهذا اللواء وعلى رأسها الجنرال بتلر) وذلك فى منطقة الجميل على مسـافة عشرة كيلو مترات غربى مدينة بور سعيد • وقد استقبل البريطانيون بنيران جهنم • ان المدافع المضادة تصدت للطائرات بمجرد ظهورها ووجهت اليها نيرانا عنيفة ، فأصيب تسع منها ، ولكنهـا استطاعت العودة الى قواعدها وكانت قذائف المدافع الرشاشة تنهال على رجال المظلات الذين القوا على أرض تزخر بالعقبات التى تتألف من براميل بترول قديمة مليئة بالرمال •

أما من ناحية الشرق ، فقد قامت طائرات السلاح الجوى البحرى الفرنسى من قواعدها فى حاملات الطائرات لتضرب كل شىء تبدو منه أية حركة ، كمـا دمرت جميع الاهداف الظاهرة فى المنطقة التى عينت لنزول الفرنسيين • وفى الساعة السابعة والنصف ـ الخامسة والنصف « ى » ـ انزل من الجو ٤٢٧ رجلا بقيادة الكولونيل « شاتو جوبير » (أى السريتان الاولى والرابعة من اللواء الثانى لقوات المظلات المؤلفة من جنـود المستعمرات ونحو ١٠٠ جنـدى من السرية ١١ صاعقة وسرية الاتصال الانجليزية بقيادة الملازم كللى) على شريط رملى جنوبى بور سعيد بعد أحواض التطهير التابعة لشركة المياه • وكانت الارض الطينية الرملية صالحة ، ولا سيما أن فجواتها كانت تشكل مخـابىء طبيعيـة ، وكانت الرياح خفيفة والسماء صافية • وكان هذا من حسن حظ رجال المظلات ، لانه لم يكن من السهل القاء نحو خمسمائة من رجال المظلات من ارتفاع منخفض فى مثلث يبلغ طول ضلعه نحو أربعمائة متر • لقد ألقيت المعدات أولا ثم ألقيت قنابل تطلق حولها سحبا من الدخان •

وحينما أطلق الرجال فتحت عليهم نيران المدافع الرشاشة ، ولما نزلوا على الارض أخذ رجال المظلات ينزعون مظلاتهم وينفذون أوامر رؤسائهم وينظمون صفوفهم للزحف من حفرة الى أخرى فى ثلاثة اتجاهات : السرية الاولى غربا فى اتجاه كوبرى يزن نحو ٧٠ طنا (وهنا يوجد طريق وخط سكة حديد) وهو الهدف الاساسى من هذا الهجوم، والسرية الرابعة شرقا ناحية المعدية، أما الرجال المائة التابعون للسرية ١١ صاعقة فكانوا يتجهون فى الوسط بينهما ، نحو وابور المياه • والسرية المرافقة هبطت جنوبى منطقة النزول فى حين عسكرت السرية الانجليزية فى نقطة أكثر جنوبا من سابقتها ، أى أقصى نقطة متقدمة على القناة • فاذا أراد الفرنسيون الزحف على الاسماعيلية ، كان عليهم أن يمروا فوق جثث رجال مظلات صاحبة الجلالة البريطانية (كما كان يوجد ضباط اتصال بريطانيون يحاربون مع السريات التى تشن هجماتها شمالى الارض التى نزلت فيها القوات الفرنسية) •

وكان الهدف الاول هو الجسر الواقع على بعد كيلو متر واحد من المنطقة التى استطاع رجال المظلات أن يتجمعوا فيها ، وكان الكولونيل « انجلز » يقود رجاله من حفرة الى أخرى اتجاه هذا الجسر •

وقد تحصن العدو أمام هذا الجسر الذى كانت تحيط به مالا يقل عن ١٣ قطعة مدفعية مصرية علاوة على المدافع الصغيرة والمدافع الرشاشة ، ويبدو أن سد النيران كان منيعا بحيث لا يمكن عبوره ، بل كان كذلك بالفعل • فتوقف الزحف، ووجه نداء الى سلاح الطيران الذى أرسل طائراته لتنقض على بعد مئات من الامتار أمام رجال المظلات وتسحق الاسلحة التى تدافع عن الجسر بما ألقته من صواريخ وقنابل •

وقد انبطح المدافعون المصريون أرضا تحت هذا الوابل من الحديد والنار المنصب على رؤوسهم • وبعد مرور الطائرة الاخيرة اتصل مركز القيادة الموجود فى طائرة الجنرال « جيل » نفسه برجال المظلات ، فاندفعت قوة من السرية الاولى

وعلى رأسها الكولونيل انجلز لمهاجمة الجسر • وقد فوجىء العدو من جرأة الهجوم ولم يكن لديه الوقت الكافى لنسف الجسر الذى سقط سليما فى أيدى السرية الاولى • وفى هذه الاثناء كان باقى أفراد السرية بالاضافة الى جنود السرية ١١ قد تسللوا الى حديقة وابور المياه واستولوا عليها شجرة بعد شجرة ، ثم استولوا على « الوابور » نفسه سليما حتى أنه استمر يعمل تحت اشراف بعض المدنيين المصريين • ومن جهة اليمين ، تقدمت السرية الرابعة حتى المعدية فوجدت أن العدو قد نسفها وقت وصولها اليها فى الساعة الثامنة والنصف •

وبعد الاستيلاء على الجسر فى التاسعة صباحا والسيطرة على « وابور » المياه بعد ذلك بقليل وجد رجال المظلات أن الضرورة تقضى بتطهير الارض التى استولوا عليها وتنظيم صفوفهم • وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقام الكولونيل شاتو مركز قيادته فى فيلا مدير الوابور ـ الذى كان يقضى أجازة فى فرنسا ـ وطلب تعزيز الجناح الشرقى لقواته بأسرع وقت يمكن، وذلك بانزال رجال مظلات آخرين فى بداية فترة بعد الظهر على بور فؤاد •

وقد حدث أيضا ان استطاع رجال المظلات فى الساعة الحادية عشرة السيطرة على أرض الجميل التى نزلوا عليها ، ولكن كان لا يزال يفصلهم عن بور سعيد عشرة كيلو مترات يجب الاستيلاء عليها شبرا شبرا • وفى الساعة الثانية عشرة الا الربع تلقى الجنرال بوفر وهو على ظهر المدمرة « جوستاف زيديه » طلب التعزيز من شاتو جوبير ، وأكد فى الظهر الامر الذى أصدره بانزال جنود المظلات على بور فؤاد فى فترة بعد الظهر فى حين قرر تعزيز حملة رجال المظلات القريبة من قناة التوصيلة ، وذلك بارسال حملة جديدة من الفرقة الثانية لمركز القيادة• وقد اعترض الجنرال « ستوكويل » الموجود على ظهر الطرادة « تين » على الامر ورفض انزال جنود مظلات اضافيين الى رجال شاتو جوبير •

وفى الظهر لم يصدق البريطانيون الذين عسكروا على أرض الجميل أعينهم حينما شاهدوا طائرة « داكوتا » فرنسية تحلق فى الجو ثم تنزل على أرض المطار•

وكان يستقلها ـ علاوة على طاقمها ـ الكولونيل « بيك دى فوكيير » أحد معاونى الاميرال بارجو • وقد عـادت الطائرة حاملة معهـا بعض الجرحى البريطانيـين فاصدرت القيادة الانجليزية فورا أمرا رسميا بحظر نزول الطائرات فى الجميل •

وفى حين كان مركز القيادة الطائر للجنرال جيل يعود ادراجه الى قبرص ، بدأ الكولونيل شاتو جوبير يلعب بجهاز التليفون الذى كان معه •

وكان البريطانيون من جانبهم مشـغولين بالهجوم على معسـكر للبوليس البحرى • وقد اضطروا الى توجيـه نداء الى الطيران البحـرى والسـلاح الجوى للاسطول لمساعدتهم فى الاستيلاء على هذا المبنى ، فتدخلت فى الحال طائرات من طراز « ويفرن » و « سى هوك » • وهكـذا استطاع المهاجمون الاستيلاء على ثكنات حرس السواحل ، ولكن كان هناك خطر آخر يهدد جنود المظلات ، هو المدافع المحمولة على سيارات س ـ ى ١٠٠ وكان المصريون قد أخفوها عند شاطىء بور سعيد لاستخدامها كقطع مدفعية ضد الغزو البحرى الذى كانوا ينتظرونه ، وقد أخرجوها من مخابئها ووجهوها ضد المغيرين القادمين من الجميل •

وكان شاتو جوبير قد نجح فى خلال ذلك فى الاتصال بالسلطات المصرية ، وتناقش معها فى مسألة عقد هدنة • وقد اخذ شاتو جوبير راى رئيسه الذى عين له بالنسبة للعمليات الاولى وهو الجنرال الانجليزى بتلر الذى أحيط علما بما حدث عن طريق ضباط اتصاله (لم يصبح شاتو جوبير وفوسى فرانسوا تحت قيادة ماسو ، الا بعد وصول هيئة أركان حرب الفرقة العاشرة أى بعـد نزول القوات القادمة عن طريق البحر) وقد وصل بتلر فى السـاعة الرابعة والنصف ـ أى الثانية والنصف مساء « ى » ـ الى مركز قيادة وابور المياه وفهم أهمية الحصول على الهدنة على وجه السرعة لان هذا سيحرر القوات المتحالفة ويسمح لها بالزحف على طول القناة • وقد رأى أن من واجبه صياغة شروط التسليم بمعاونة شاتو جوبير والصحفى الفرنسى شارل فافريل الذى سبق أن أطلع فى كوريا على نصوص الهدنة • كما انه كان من واجب بتلر أن يأخذ رأى رئيسه الجنرال ستوكويل

الموجود على ظهر الطرادة « تين » وقد أحاط شاتو جوبير من جانبه الجنرال بوفر الموجود على ظهر المدمرة جوستاف زيديه ، بجميع ما حدث . وكان ستوكويل وبوفر يهنئان بعضهما بعضا وكل منهما على ظهر سفينته ، فقد لاح النصر وأخذا - كل من جانبه - يصوغان شروط التسليم .

وكان من الطبيعى أن يبلغ ستوكويل النبأ الى رئيسه فى قبرص الجنرال كيتلى ، فى حين قام بوفر بابلاغ مجريات الحوادث الى الاميرال بارجو . وقد فسرت الانباء فى مركز القيادة فى قبرص بأنها تسليم رسمى ، بخاصة أن بتلر كان يتكلم فى تقريره عن اجراءات احتياطية تتخذ لوقف اطلاق النار. وقد نقلت قبرص الى لندن وباريس أنباء النصر ، فاستخدم ايدن فى الحال هذه الانباء لاظهار تفوقه فى هذه النقطة بالذات على خصومه ، لان ايدن كان يواجه رأيا عاما متصلبا ضده بشكل متزايد ويواجه أيضا مجلس العموم الذى بدأ يزداد عنفا وعداء .

وقد كان هذا خطأ فاحشا ، وظهر ذلك بوضوح فيما بعد لرئيس الوزراء . كان خطأ فاحشا لان ايدن حينما باع جلد الدب قبل صيده أخذ يتعجل الاحداث. وكان ايدن حسن النية حينما أعلن أمام مجلس العموم نبأ تسليم بور سعيد وكان يعتقد أنه قد ضمن النصر .

ولكن النصر كان بعيدا عنه ، لان رجال المظلات الانجليز توقفوا غربى المدينة ، وكان رجال المظلات الفرنسيون التابعون لشاتو جوبير محصورين فى نصف دائرة حول « وابور المياه » ، وكانوا لا يطمعون فى أكثر من المحافظة على المراكز التى استولوا عليها لانه لم تكن لديهم المعدات الكافية لمواجهة الدبابات المصرية والمدافع عيار س.ى - ١٠٠ ، ولم يغير الموقف كثيرا هبوط أفواج جديدة من جنود المظلات فى الساعة الثالثة والربع مساء - الواحدة والربع « ى » جنوبى بور فؤاد - وكانت هذه القوة التى تتألف من ٥٠٦ رجال بقيادة الكولونيل « فوسى فرانسوا » هى باقى الكتيبة الثانية مظلات أى السريتين الثانية والثالثة والسرية الاولى كوماندوز والسرية المساعدة . وقد قفز فوسى فرانسوا على رأس

قوته (قفز من الباب الآخر فى الوقت نفسه مصور مجلة بارىماتش ، دانييل كامو) وزحفت السرية الثالثة يسارا ، أىالى الشمال الغربىحتى مركز المعدية ، واتجهت السرية الثانية يمينا نحـو معسـكر قوات البوليس البحرى • وزحفت السرية المؤلفة من قوات الكوماندوز بين السريتين، واصطدمت بمقاومة عنيفة أمام معسكر الفدائيين • واتجهت السرية المساعدة جنوبا ، حين رابطت هيئة أركان الحرب شرقا بجوار الملاحات •

وبعد نصف ساعة من ذلك انزلت مجموعة أخرى من رجال المظلات الانجليز على الجميل فى الساعة الرابعة الا الربع ـ أى الثانية الا الربع بتوقيت جرينتش ـ وكانت هذه القوة تتألف من مائة رجل من الكتيبة الثالثة التابعة للواء السادس عشر ، وكانت مستقلة وتحمل معها مزيدا من السيارات ومن المهمات والمعـدات الثقيلة •

وفى هذه الاثناء تقابلت فى عرض البحر القافلتان البريطانية والفرنسية اللتـان كان مقررا أن تنزلا رجالهما فى اليوم التـالى على شـاطىء بور سـعيد وبور فؤاد ، وكان ذلك حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر • وبعد أن تبادلتا التحية سارتا معا نحو الجنوب •

وفى عرض البحر أيضا وعلى مسافة أقرب من السواحل المصرية كان الجنرال ستوكويل منهمكا على ظهر الطرادة «تين» فى صياغةشروط التسليم التى سيفرضها على القيادة المصرية المنهزمة ، وكان يصر على أن يكون هـذا التسليم متفقا مع القواعد النظامية ، وخاضعا لجميع اجراءات البروتوكول •

وأملى ستوكويل شروطه وهى :

ـ يجب أن تلقى القوات المصرية سلاحهـا بالكيفية الآتية : تتجه القوات الموجودة شمالا من الخط الذى يمتد من « وابور » الغاز الى حوض شريف على الطريق الغربى نحو مطار الجميل بأن يتقدم المشاة تتبعهم السيارات

ثم الدبابات • وتضئ السيارات أنوارها وتدير الدبابات مدافعها الى الخلف وترفع علما أبيض • أما القوات المصرية الموجودة جنوبى الخط المشار اليه فتخرج الى الطريق الجنوبى نحو الجسر غربى الحوض الداخلى متبعة النظام السابق نفسه •

- قوات بور فؤاد تتجه بهذا النظام نفسه نحو الملاحات •

- حينما تبلغ القوات المصرية المناطق الثلاث المشار اليها - المطار والجسر والملاحات - تلقى سلاحها وتبقى فى تشكيلاتها وتخضع لاوامر الضباط البريطانيين والفرنسيين ، وتصدر الاوامر الى هذه القوات عن طريق الضباط المصريين •

- يفرض حظر التجول على بور سعيد وبور فؤاد ويظل هذا الحظر نافذ المفعول لحين صدور أوامر جديدة • ويظل الاهالى داخل مساكنهم وكل من يخرج منهم يكون عرضة للقتل • وتقدم الشرطة مساعدتها للقوات العسكرية للمحافظة على حظر التجول وتعمل وفقا للاوامر التى تصدر اليها من القيادة العسكرية الفرنسية البريطانية •

- يحظر القيام بأعمال التخريب فى منطقة قناة السويس •

- تلقى جميع الاسلحة •

- تقدم جميع المعلومات عن الاماكن التى تحوى ألغاما على الشاطئ وعلى أرصفة الموانى ومداخلها •..

وقد سلمت هذه الشروط الى الجنرال بتلر فى الساعة الخامسة والنصف مساء ، وسلمها هذا الاخير بعد قليل الى اللواء المصرى الموجى الذى استولت عليه الدهشة • لقد حضر فى سيارته الكاديلاك للاتفاق على هدنة محلية بقصد تجنيب السكان المدنيين أخطار الحرب ، هدنة تسمح له بأن يقول أنه دافع عن نفسه وانه

فى الوقت نفسه ينطوى على شعور انسانى ولكنه لم يسلم المدينة بدون معركة ٠ ان ما كان يريده اجمالا هـو توقيع اتفاق محلى يسمح له بأن يعلن « بور سعيد مدينة مفتوحة » أى عقد اتفاق واقعى يحقق به كل من الطرفين أهداف الحرب بأقل خسائر ممكنة لكل منهما : هل تريدون المرور ؟ مروا ! هل تريدون القنـاة ؟ خذوها ، انها مسدودة وليغرقكم فيها الله !

وجد اللواء الموجى نفسه اذن أمام طلب تسليم رسمى ومهين من أناس هدفهم يتعدى الرسميات والتقاليد العسكرية ، أناس كل ما يهمهم فى التسليم الرسمى ليس الشكل الرسمى بل انهاء المعركة ٠

وأعلن الموجى أنه يجب عليه أن يستشير القاهرة ، فاعطيت له مهلة توقف فيها المعارك مؤقتا ٠ وتنتهى هذه المهلة فى الساعة التاسعة مساء ـ توقيت « ى » أى جرنتش ـ وقد نجح فى مدها حتى الساعة التاسعة والنصف مساء ـ توقيت « ى » ـ ولكنه لم يخف عن مفاوضيه وهو يغادرهم أنه سيكون من الصعب عليه الحصول على موافقة القاهرة ، بل انه لا يريد القول بأن ذلك قد يكون مستحيلا ٠

استراتيجية الصحراء :

كان هناك أمل ضئيل فى الواقع فى أن توافق القاهرة على التسليم لان ناصر يعلم الى أين يتجه ، ويعلم أن مفاوضات الموجى تدخل ضمن خطة من شأنها تأخير العدو لاعطاء الدول الكبيرة الوقت الكافى للتظاهر بل للتدخل أيضـا اذا دعت الحاجة الى ذلك ٠ لقد سحب ناصر معظم قواته من بور سعيد وبور فؤاد ، وهى القوات التى عادت منذ يومين من سيناء وحشدها حول القاهرة ٠ كان ناصر يعتقد حقا أن العدو سينزل جنودا فى الاسكندرية ، ولقـد أوضحت تصريحات ايدن الاخيرة بشأن بور سعيد والاسماعيلية والسويس ان الاستيلاء على القناة يعتبر أيضا من أهداف الحلفاء ٠ ومن الشائعات التى كانت تسـود الدوائر الفرنسية البريطانية ـ الدوائر التى كانت متحمسة من أجل التدخل ـ ان ناصر كان يستعد

للهرب مساء يوم ٥ نوفمبر • وهنا أيضايجد داء الكذب العوامل الكافية لتبريره ، لانه اذا كانت قد مرت لحظات من الذعر فى القاهرة فقد حدث ذلك فجر يوم ٤ نوفمبر ، أى قبل ذلك بيوم ونصف يوم ، فى الوقت الذى تبين للجميع فيه أن الحكومة الامريكية قد وافقت على السماح بانزال جنود متحالفة فى مصر عن طريق البحر ، وقد اتضح هذا بصفة خاصــة حينما وافقت على انســحاب الاسطول السادس من شرق البحر المتوسط بدون أى اعتراض ، وذلك لاخلاء المكان للقوافل البريطانية والفرنسية التى تحمل الجنود والسفن الحربية التى تقوم بحراستها • ففى فجر هذا اليوم تجمعت أسر الدبلوماسيين السوفييت العاملين فى القاهرة فى سبع سيارات كبيرة لنقل الركاب واتجهت الى جنوبى مصر • وفى هذا اليوم نفسه استدعى ناصر السفير الامريكى ريموند هير وعاتبه بشدة على موقف حكومته وقال له حرفيا « هل تعتقدون أننى سأسقط لانكم تخليتم عنى ؟ انكم مخطئون لاننى سأحارب وسأحارب أمام القاهرة » ثم قال ناصر للسفير العبارة التى كان الموقف يفرضها « ستكون القاهرة ستالينجراد جديدة » •

ومع ذلك فقد غير ناصر موقفه فى فترة بعد الظهر من يوم ٥ نوفمبر ، اذ أنه بعد أن كان قد قرر فى الايام السابقة أن يحشد جميع وسائل الدفاع التى يملكها أمام القاهرة والا يدافع عن بور سعيد الا بمعركة تهدف الى تأخير العدو ، فقــد أصدر أمره بالقتال فى شوارع بور سعيد نفسها •

لماذا ؟

لان الموقف أصبح يسمح له بذلك ، فمن ناحية لم تكن القوات التى أنزلت فى ذلك اليوم على المدينة لديها الوسائل اللازمة لمهاجمة الدبابات والمدافع المصرية ومن ناحية أخرى خرج الاتحاد السوفييتى من تحفظه • ولقــد ظلت فى الواقع اللعبة السوفييتية فى الامم المتحدة تسير حتى ذلك الوقت بمنتهى الحذر مؤيدة الاعمال الامريكية دون المخاطرة بكشف أوراقها ، وفجأة تحرك الاتحاد السوفييتى • لقد حــدثت بعض الامور وراء الستار أدت الى اعادة تقييم القرارات والمواقف ، وأثبتت أن هناك تحولا فى مجرى الامور ، ولكن كل هذا حدث خلف الكواليس ،

معركة الكواليس :

لم يكن التغاضي الذىأبدته الولايات المتحدة تجاه الحملة الفرنسية البريطانية قد تم من أجل سواد عينى ايدن • فالواقع أن الزعماء الامريكيين كانوا يكرهونه من أعماق قلوبهم ، كما كانت وزارة الخارجية الامريكية تكرهه دون مواربة • وقد ظلت وزارة الخارجية الامريكية وكبار رجال البترول ثابتين فى معارضتهم لحملة السويس ، وذلك بعكسالدوائر العسكرية الامريكية• ويبدو أن هؤلاء العسكريين الامريكيين قد وقعوا تحت تأثير الدوائر العسكرية الفرنسية وزملائهم البريطانيين الذين هددوا بأن تصدع روابط التحالف بينهم سيترك فراغا واسعا فى شبكة الرادار التى أنشأها الامريكيون فى أوروبا ، وهى الشبكة التى كانت وقتئذ (قد تغيرت الامور منذ هذا الوقت) لا غنى عنها مطلقا لمراقبة التحركات الهجومية المحتملة من جانب الجيش السوفييتى •

واذا كان التهديد الذى وجهه الفرنسيون والبريطانيون للامريكيين قد نجح جزئيا فان التهديد الذى وجهوه للسوفييت أثبتأنهم يتصرفون بعقلية العصافير، فقد فسروا سياسة التراخى التى يتبعها خروشوف بأنها ضعف وتغطية للصراع الداخلى على السلطة الذى قد ينفجر بمجرد القيام بدفعة جدية • وان ما قام به الجيش السوفييتى يوم ٤ نوفمبر باعادة الاستيلاء علىالمجر قد تم بشىءمن التباهى والمغالاة فى اظهار القوة، فقد هاجم المجر ٤٠٠ ألف جندى روسى وكان هذا الهجوم بمثابة انذار لمنظمة حلف شمال الاطلنطى أكثر منه عملية موجهة ضد المجر نفسها •

وكان أمام السوفييت تحالف منقسم على نفسه انقساما عميقا ويدعى مع ذلك أنه يتكلم بصوت مرتفع ، وكان يكفى أن يرفع السوفييت صوتهم فوق صوت حلفاء الاطلنطى والقيام اذا لزم الامر ببعضالمظاهرات ـ وكانت المجر اليائسة أول مظاهرة من هذا النوع ـ لافراغ الانتفاخ الاطلنطى الزائف !

وقد دفع ناصر مرتب شهر مقدما لجميع عمال وموظفى بور سعيد وبور فؤاد ـ وسيجعلهم هذا مستعدين لحرب العصابات ـ وكان يعلم أنه اذا قاتل وطلب المساعدة فى الوقت نفسه فمن المحتمل أن يكون لندائه صدى • وبادر حينئذ الى تنظيم قواته فى القاهرة لتقوم بحرب عصابات طويلة الامد ، وأغلق قناة السويس وجعلها غير صالحة للملاحة لمدة طويلة ، ونسف أنابيب شركة البترول العراقية التى تخترق سوريا ولبنان وعطلها عدة أسابيع • وفى اليوم الذى نسفت فيه هذه الانابيب وقعت بريطانيا العظمى وفرنسا تحت رحمة أصحاب شركات البترول الامريكيين فيما يتعلق باستمرار حرب كانوا هم يعارضونها على طول الخط ، نظرا لقلة الكميات المخزونة من البترول فى فرنسا وبريطانيا • وأخيرا فان ناصر كان يجد أن من مصلحته أن تستمر المعارك لكى يمكن اثارة الامم المتحدة ، ومن هنا صدرت الاوامر الى رجال بور سعيد بالاستمرار فى المقاومة بأى ثمن •

وهناك عامل آخر ساعد مصر، ونعنيبه المضاربات الشديدة التى وجهت ضد الجنيه الاسترلينى فى سوق نيويورك • وقد قال راندولف تشرشل أن الاسترلينى عرض فى هذه السوق على شكل كتل قيمة كل منها خمسة ملايين من الدولارات وكان بنك انجلترا يسرع الى شرائها بمبالغ من المال تبلغ قيمة كل منها مليونا من الدولارات • وبهذه اللعبة الصغيرة كان ينبغى ـ فى اليوم التالى ـ توفير ٣٠٠ مليون دولار لمنع انهيار النقد البريطانى • ولم يكن هذا الافراط فى البيع صادرا من الجماهير بصفة عامة ، فمثلا فى باريس صعد الجنيه الاسترلينى فى السوق الموازى من ١٠١٥ الى ١٠٢٠ ولم يتسرب هنا أى نبأ مخيف • وقد يكون بعض المضاربين البارعين هم الذين أثاروا الذعر ودفعوا النـاس الى الافراط فى بيع الجنيهات الاسترلينية ، وقد يكون السوفييت هم الذين أوعزوا اليهم بذلك • وبالاضافة الى أن هذه الوسائل لم تكن لها أهمية كبيرة فان بنك الفيدرال ريزرف (أى بنك الاحتياطى الفيدرالى) كان يستطيع بسهولة انقاذ الغطاء الصوفى الذى كان يغطى حليفه البريطانى لتدفئه نفسه • وكانت لندن يسودها الذهول ، ليس فقط لان البنك الفيدرالى الامريكى لم يفعل شيئا لانقاذ الجنيه الاسترلينى ولكن

لانه تبين أن الحكومة الامريكية قد سمحت للبنك الفيدرالى ببيع ما يريد بيعه من جنيهات استرلينية ، أى أنها سمحت له بكل وضوح بالاشتراك فى موجة المضاربة التى ستؤدى الى انهيار الجنيه الاسترلينى • والاسوأ من ذلك أن الحكومة الامريكية أثارت بعض الصعوبات حينما أرادت بريطانيا العظمى سحب جزء من ودائعها ـ وهو المال الذى دفعته وتمتلكه ـ فى صندوق النقد الدولى •

ألأمم المتحدة غاضبة :

لم يكن الجو أحسن حالا اذ ذاك فى الامم المتحدة ، وتأكد لدى الوفود انه برغم عشرات قرارات الادانة التى صدرت بأغلبية ساحقةضد بريطانيا وفرنسا فانهما نفذتا كل ما كانتا تريدان القيام به دون أية مبالاة « بمبادىء الامم المتحدة » المشهورة التى تعظان بها الامم الاخرى والتى تضربان بهـا عرض الحائط حينما يتعلق الامر بمصالحها الخاصة •

وفى صباح يوم ٥ نوفمبر قررت الجمعية العامة للامم المتحدة باغلبية ٥٧ صوتا وامتناع ١٩ ـ من بينها الاتحاد السوفييتى ـ انشاء قوة للامم المتحـدة وتكليف السكرتير العام بسؤال بريطانيا وفرنسا اذا كانتـا تعترفان بأن قرار الجمعية العامة بانشاء قيادة عسكرية للأمم المتحدة يحقق الشرط الذى وضعتاه لوقف اطلاق النار• وجاء فى رسالة همرشولد الى الحكومتين البريطانية والفرنسية ان مصر وافقت يوم ٤ نوفمبر على وقف اطلاق النار بدون ابداء أى شرط وأن الحكومة الاسرائيلية أبلغت بدورها أنها مستعدة للموافقة على شرط أن تفى الحكومة المصرية بتعهدها • كما أشارت الرسالة الى أن الحكومة المصرية قد أبلغت فى هذا اليوم موافقتها على تكوين قوة دولية وفقا للشروط التى حددتها الامم المتحدة •

وبناء على طلب جى موليه أرسلت الحكومة الاسرائيلية بعد ارسال موافقتها على الهدنة مجموعة أسئلة تشتمل على خمس نقاط : هل هناك موافقة صريحة لا غموض فيها من جانب مصر على وقف اطلاق النار ؟ هل ما زالت مصر متمسكة

بموقفها الذى تعتبر نفسها بموجبه فى حالة حرب مع اسرائيل ؟ هل مصر مستعدة للدخول فى مفاوضات مع اسرائيل ؟ هل تقبل مصر وقف المقاطعة الاقتصادية التى تفرضها على اسرائيل ؟ هل تنوى استدعاء عصابات الفدائيين التابعين لها والموجودين فى بلاد عربية أخرى ؟ ولكن هذه الاسئلة لم يترتب عليها الغاء الموافقة على الهدنة التى سبق أن أعلنتها اسرائيل وستجددها فى ذلك المساء نفسه بدون أى قيد ، بعد أن تسلمت رسالة بولجانين .

وقد حدث فجأة تحول مسرحى اذ طلب شيبيلوف وزير الخارجية السوفييتى فى رسالة له موجهة الى رئيس مجلس الامن موافقة المجلس على مشروع قرار يدعو حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا واسرائيل الى وقف العمليات العسكرية فى مصر فى خلال مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة تلى قرار الموافقة ، والا فان الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة تقومان بعمل مشترك ضد هذه الدول ، وتعتبر هذه المهلة هامة لانه اذا تمسك الاتحاد السوفييتى بما أعلنه فمعنى ذلك أنه سيقوم بهذا العمل سواء بالاشتراك مع الولايات المتحدة أو بدونها لتطبيق سياسة وافقت عليها الامم المتحدة موافقة شبه اجماعية ، وذلك بناء على طلب الولايات المتحدة نفسها ، وأنه سيقوم بهذا العمل فى خلال اثنتى عشرة ساعة . وبالنسبة للولايات المتحدة الامريكية فانعدم القيام بعمل ما ليس معناه فقط أن تهدم بيديها سياستها المتسمة بالعطف نحو العرب ، بل انها ستضع نفسها موضع السخرية × فى نظر ٥٧ دولة جرتها معها فى مغامرة ضد بريطانيا العظمى وفرنسا .

ومعنى ذلك أنه فى نهاية هذه المهلة لن يقوم الاتحاد السوفييتى بالتدخل فقط باسم شبه اجماع الامم المتحدة ، ولكن اذا تعرضت له الولايات المتحدة فى هذا الوقت فمعناه أن هذه الاخيرة تعمل ضد سياستها الخاصة التى تدافع عنها منذ ثلاثة شهور مضت وبصفة خاصة فى خلال الايام الاخيرة .

× أى انها تفقد فى الوقت نفسه مكانتها وقوة تاثيرها .

ومن بين الاسـباب التى دعت السـوفييت الى تحديد مهلة معينة هـو أن الفرنسيين والبريطانيين أسرعوا فى صباح ٥ نوفمبر الى ارسال ردهم على الخطاب الصارم الذى بعث به اليهم السكرتير العام للامم المتحدة • وكان هذا الرد بارعا لانه أدى الى ارجاء تسوية المشكلة الى فترة لاحقة ، لانه تضمن اقتراحا بعقد مجلس الامن على مستوى الوزراء لمناقشة هذا الموضوع •

ولكن زمن الحيل البارعة كان قد انتهى كما سنرى فى الساعات القادمة !

الحرب السيكولوجية :

وبرغم كل ذلك كانوا فى باريس لا يزالون يعيشـون فى الخيـال • انهم يناقشون فيما بينهم مسألة احتلال مصر ويعربون عن قلقهم لفشل الحرب النفسية• فلقد انتهت حملة المنشورات التى ألقيت على القاهرة وعلى أهم المدن المصرية بفشل ذريع ، ثم عهد الى محطة اذاعة قبرص بمواصلة الحملة فى حين قذفت محطة اذاعة القاهرة بالقنابل • وأخذ راديو دمشق يذيع على موجاته برامج الاذاعة المصرية الجريحة ، وبدأ المذيعون العرب فى قبرص يهجرون عملهم لينضموا الى العصابات القبرصية التى تحارب البريطانيين والتابعة لمنظمة أيوكا السرية • وعلى كل فقد كانت القيادة الفرنسية تنظر بعدم الارتياح الى ادارة هذه المحطة وتتهمها بأنها واقعة تحت سيطرة عناصر عمالية وبالتالى بأنها غير متحمسة للتدخل ضد مصر • وكان الفرنسيون من جانبهم غير قادرين تقريبا على ايجاد موظفين عرب فيما عدا بعض اللبنانيين ، وقد تخلى هؤلاء عنهم أيضا فى اللحظة الحرجة • ولم يكن هذا النقص فى المذيعين فقط ، فالقوات الفرنسية التى يزيد عددها على أربعين ألف رجل لم يكن بينها خبير واحد فى الشئون العربية • وأخيرا أرسل الى قبرص خبير فى الشئون العربيه هو البروفيسور كولوب ، دفع بنفسه مصاريف سـفره • ولذلك قررت باريس فى هذا اليوم ارسال مفوض بسلطات كاملة فى مسـألة

الدعاية الى قبرص هو النائب موريس شومان الذى أعيد تجنيده طوال فترة عمليات الشرق الاوسط . وقد ارتدى فورا زيه الرسمى برتبة صاغ واستعد للسفر الى قبرص فى أسرع وقت ممكن .

وفى هذه الاثناء أخذ المستشار أديناور مستشار ألمانيا الغربية ـ وهو أحد الذين سيلعبون دورا رئيسيا فى الجزء التالى من المشكلة ـ يستشير رؤساء الجماعات السياسية فى بلاده بشأن الرحلة التى يعتزم القيام بها الى باريس ، ولم يحصل بصفة عامة الا على آراء تتسم بالتحفظ فيما يتعلق بفائدة هذه الرحلة التى سيكون لها تأثير كبير فى قرارات وقف اطلاق النار . أما سباك ـ السياسى البلجيكى ـ فانه سيلعب هو أيضا دوره ، فقد قرر القيام بزيارة الى موسكو .

وفى موسكو كان الجميع ساخطين على الموقف ، فالقادة غير راضين لانهم علموا فى هذه اللحظة أن البولنديين فصلوا فجأة من الجيش البولندى ٣٢ قائدا برتبة لواء من أصل سوفييتى ، كما أن الشعب السوفييتى كان غير راض بسبب ما يشعر به من سخط حقيقى للمناورات التى يقوم بها « تجار الاستعمار » فى بور سعيد .

وفى ذلك الوقت كان هؤلاء الاستعماريون يعانون المصاعب فى بور سعيد وكانوا عاجزين الى حد ما عن المناورة ، فالانجليز قد توقفوا عن التقدم غربى المدينة . أما شاتو جوبير فكان يحاول بهمة القيام بمفاوضات . واستمرت العمليات العسكرية فى بور سعيد ، ففى الساعة الرابعة والنصف بالتوقيت المحلى استولت القوة الفرنسية على الملاحات حيث أقامت هناك هيئة أركان الحرب ، فى حين كانت كتيبة الكوماندوز قد قضت على معسكر الفدائيين من ناحية الشمال . وقد أعلن أنه قتل ٨٧ مصريا واعتقل ٤٩ وتم الاستيلاء على معدات حربية ضخمة ، وظل هناك عدد كبير من الاشخاص يطلق الرصاص من فوق أسطح المنازل .

وقد أرسل شاتو جوبير الملازم الانجليزى « كلى » ليقوم بغارة استكشافية على القناة وأوصاه بعدم الذهاب بعيدا عن الكيلو متر ٥ (وهو الخط الذى تطلق

بعــده طائرات الحلفــاء مدافعها على أى شيء يتحرك) ولــكن المــلازم ذهب حتى الكيلو متر ٢٥ • وقد عاد وقدم تقريرا عن مهمته فنقلت رسالته من مستوى الى مستوى حتى وصلت الى باريس وهنــاك تبلورت وأصبح مضمونها « تجاوزنا الخطة موسكيتير » •

وفى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء بتوقيت جرينتش اتصل اللواء الموجى ثانية بالقيادة المتحالفة وأبلغها أن القيــادة المصرية رفضت الشروط المقترحة ، واستؤنف اطلاق النار • ومع ذلك لم يصل هذا النبــأ الى الطرادة « تين » حيث يقود الجنرال ستوكويل الحملة ، الا فى الســاعة العاشرة والربع مساء • وقد استشار ستوكويل الفرنسيين ثم قرر الغاء عملية انزال جنود المظلات التى سبق أن أصدر أمره بان تتم فى الساعة الحادية عشرة الا الربع وقرر تأجيلها لليوم التالى بحيث تتم العملية فى القنطرة ، وذلك على فرض استمرار وقف اطلاق النار فى بور سعيد • وفى الوقت نفسه أكد أمر انزال الجنود من البحر بقوة كبيرة وهو الامر الذى كان مقررا تنفيذه فى اليوم التالى •

وفى الامم المتحدة سلم المندوب السوفييتى سوبوليف خطابا من شيبيلوف يقترح فيه القيام بعمل أمريكى سوفييتى مشترك ، وقد أبدى المندوب الامريكى قدرا من السخط المناسب وتكلم عن الوقاحة السوفييتية التى تدعى الدفاع عن الحرية فى مصر فى حين تدوسها فى المجر •• الخ ! وهذه كلمات خطابية انشائية يلقيهــا كابوت لودج لانه يريد أن يتجنب الظهور بمظهر من يوافق على اقتراح شيبيلوف فى حين أنه لا يستطيع رفضه • ومن شأن هذا الاقتراح تنفيذ كل ما سعى كابوت لودج الى اقراره فى الايام السابقة ، وهو ما اتضح أيضا أنه غير قادر على تنفيذه • وقد وجد مخرج بطرح الموضوع للتصويت عليه من الناحية الشكلية ، بحيث يؤدى ذلك الى عدم طرحه للتصويت من حيث المضمون ويسمح بذلك باستبعاد الاقتراح بدون رفضه •

وقد ألقى المندوب السوفييتى نظرة على ساعته ونهض وهو يلقى تحذيرا الى كابوت لودج قائلا : يجب على أعضاء المجلس الذين رفضوا ادراج الطلب السوفييتى فى جداول الاعمال أن يقدروا المسئولية الملقاة عليهم ، وستقع عليهم مسئولية احتمال اتساع النزاع وزيادة خطورة الموقف فى هذه المنطقة من العالم !

وقد بدت هذه الجملة غامضة حتى اللحظة التى فتح فيها سوبوليف حقيبته ووزع البيان على مندوبى الدول . انه نسخة من الرسائل التى وجهها فى هذه اللحظة « بولجانين » الى كل من باريس ولندن وتل أبيب وواشنطن .

رسائل من موسكو :

لقد أرسل بولجانين فى ذلك المساء أربع رسائل . الاولى موجهة الى الرئيس أيزنهاور والثانية وتحمل بعض التهديد الى جى موليه والثالثة وتزداد عنها قسوة الى أنطونى ايدن والرابعة وتتضمن تحقيرا صريحا وعنيفا ليس له مثيل فى التاريخ الدبلوماسى الى بن جوريون

وقد أبرز بولجانين لجى موليه أن الحرب التى أثارتها بريطانيا وفرنسا واستخدمتا فيها اسرائيل ضد الدولة الصغيرة المصرية ستترتب عليها نتائج غاية فى الخطورة بالنسبة للسلام العام .

واستطرد بولجانين يقول « انى أعتبر من واجبى ان احيطكم علما بأن الحكومة السوفييتية مصممة تصميما تاما على استخدام القوة لسحق المعتدين واعادة السلام الى الشرق .

« ولا يزال الوقت سانحا لتحكيم العقل والتوقف وعدم السماح للنزعة الحربية بالاندفاع فى طريق محفوف بالمخاطر » .

« اننا نأمل أن تبادر الحكومة الفرنسية ـ فى حالة المسئوليات الجسيمة هذه التى نجتازها ـ الى بحث الموقف بكل هدوء ، وتستخلص النتائج التى يملبهـا عليها هذا الموقف » ٠

وكانت الرسالة الموجهة الى أنطونى ايدن مشابهةتقريبا للرسالة التى وجهت الى جى موليــه مع بعض الاختــلافات الطفيفــة ٠ فاذا كان الروس يتكلمون عن الصواريخ فذلك لأنهم يعلمون جيدا أن بريطانيا لا تجهل ما أحرزه الروس من تقدم فى هذا الميدان فى حين كان الامر يختلف فى باريس التى كانت قد أرسلت قبل ذلك بقليل خبيرا فرنسيا لاستطلاع مسألة تقدم روسيا فى ميدان الصواريخ فأعلن بعد عودته « انهم متأخرون جدا » ٠ وقد ذكرت الصواريخ هنا لكى تبهر خيال هؤلاء الذين بعث اليهم المارشال بولجانين برسالته لانه لم يكن من المحتمل كثيرا أن يتم التدخل السوفييتى على هذا الشكل ٠

أما الرسالة الموجهة الى بن جوريون فقد كانت جافة جدا وقد جاء فيهـا « ان أعمال العدوان التى تقوم بها الحكومة الاسرائيلية تثبت بوضـوح كم هى خادعة تلك التأكيدات التى تدعى فيها اسرائيل أنها دولة ترغب فى السلام وفى التعايش السلمى مع جيرانها العرب٠ ان اسرائيل لا تهدف الا الى تخدير الشعوب الاخرى ، لكى تستعد فى الوقت نفسه لمهاجمة جاراتها مستوحية فى ذلك التوجيهات الاجنبية ٠

« ان الحكومة الاسرائيلية المجرمة التى تفتقر الى الشعور بالمسئولية تتلاعب الآن باقدار العالم وبمستقبل شعبها بالذات ٠ ان هـذا العمل يجلب على دولة اسرائيل كراهية شعوب الشرق ، تلك الكراهية التى ستترك أثرها على مستقبل هذا البلد باعتباره دولة » ٠

لم يكن بن جوريون قد تعود تسلم مثل هذه الرسالة العنيفة من قبل ٠ انه يقدر لهجتها وقيمتها بخاصة أنه يعلم علما تاما من أين يأتى البنزين الذى

يسمح للجيش الاسرائيلي بالقيـام بجولاته الصحراوية ، هـذا البنزين الذى ترفض الشركات البترولية الغربية تقديمه لها خشية المقاطعة العربية • ومع ذلك فقد أكد الرئيس الاسرائيلي ـ الجرىء ولكن ليس الطائش ـ للامم المتحدة موافقته التى أعلنها فى اليوم السابق على توصيات الامم المتحدة • ولكن موافقته على وقف اطلاق النار فى هذه المرة كانت بدون أى قيد •

انسحبت بذلك اسرائيل من اللعبة ولكن موقفها هذا وضع الفرنسيين والبريطانية فى موقف سيىء ، اذ لم يعد ادعاؤهم « بفصل الجانبين المتحاربين » قائما على أساس بعد أن أعلن الاسرائيليون بصـوت مرتفع أنهم قد انفصلوا انفصالا تاما •

كان الفرنسيون والبريطانيون يقفون فى ذلك الوقت على رمال بور سعيد ، فى حين كانت مياه البحر تنسحب بعيدا عنهم •

وقد أثارت رسائل بولجانين بعض القلق فى باريس وفى لندن• وقد يكون جميلا اليوم الادعاء بأن الحكومة الفرنسية قد احتفظت بهدوئها ، وان وزارة الخارجية فى لنـدن لم تر النبـأ هاما بحيث يستدعى اقلاق ايدن وايقـاظه من نومه • ان هذا كلام يأتى «بعد الصدمة» ويهدف الى تدارك الموقف، مثل الشخص الذى يصلح من هندامه لتغطية القلق الناتج من انفعال شديد• أما الشخصيات التى رأت عن كثب فى ذلك الوقت رد الفعل لدى القادة الفرنسيين فقد صرحوا لنا قائلين « كان يجب أن تراهم ـ فى مقر الحكومة الفرنسية ـ حين استلموا برقية بولجانين •• لقد تحولت وجوههم جميعـا الى لون أخضر » • وفى لندن اذا كانت الحكومة قد تظاهرت بأنها لم تستيقظ فان المعارضة قد استيقظت ، وليس فقط المعارضة العمالية ولكن الاخطر من ذلك المعارضة داخل الدوائر الحاكمة نفسها التى ظلت ـ لاسباب مختلفة ـ تعلن عداءها ضد هذه المغامرة •

وقد اضطروا مع ذلك الى « ايقـاظ » ايدن وأكبر دليل على قلقهم أنه فى الواحدة صباحا ـ بالتوقيت الفرنسى أى نصف الليل فى لندن ـ عقـد مجلس الوزراء اجتماعا لم يكن متوقعا٠ دار حديث تليفونى بين ايدن وجى موليه ، واتفق الرجلان على اعتبار التهديد الذرى الروسى خدعة ولكنهما اتفقا أيضا على أخـذ احتمال التدخل الروسى فى الشرق الاوسط مأخذ الجد ٠ ولمواجهة تحدى الشرق يصح مع ذلك أن يعملوا على « تغطية أنفسهم من جهة الغرب » فقرروا أن يطلبوا ضمانات مرة أخرى من الولايات المتحدة بموجب حلف شمال الاطلنطى ٠

وهل كانت الولايات المتحدة فى حالة تسمح لها حقا بضمان هذه الحماية الاطلنطية فى هذا الوقت ؟ وماذا كان الموقف الاستراتيجى العالمى فى بداية نوفمبر سنة ١٩٥٦ ؟ القوتان الجويتان الهجوميتان ـ الروسية والامريكية ـ متعادلتان من الناحية العملية والميزة الخفيفة التى تتمتع بها القيـادة الاستراتيجية الجوية الامريكية يعادلها التقدم الروسى فى ميدان الصواريخ ٠ ان الصواريخ الروسية فى هذا العهد كانت بدائية ولكنها تعمل ، أما الصواريخ الامريكية فى هذا العهد نفسه فقد كانت صواريخ « الجيل الاول » من طراز « ثور » و « جوبيتر » فقيمتها اذن انها فى دور التجربة والدعاية ٠ ولم يكن الروس ليبنوا أوهاما عليها وكذلك الامريكيون الذين سيقومون بأسرع ما يمكن وبطريقة خفية بسحب صواريخهم ٠

تبقى اذن القوات البرية ، وهنا يبدو الامر مخيفا ٠ فى مواجهة ٣٠ فرقة يستطيع الروس تنظيمها فى ساعات (مظاهرة القوة التى قاموا بها فى المجر تهدف الى انذار الغرب لانه كان يكفى نصف القوات التى أرسلت الى المجر للاستيلاء فى هذا الوقت وفى خلال بضعة أيام على أوروبا الغربية بأسرها) كان حلف شمال الاطلنطى لا يقدم سوى فراغ يثير الشهية ٠ وكان الفرنسيون والانجليز يرون معظم قواتهم مجمدة فى طرفى البحر المتوسط ، ولم يكن فى وسط أوروبا غير بعض الفرق الالمانية التى لا تعقد عليها سوى آمال قليلة ، كما توجد بعض قوات الاحتلال الامريكية٠ والحقيقة التى كان لا مناص من اخفائها حينئذ على الشعوب ـ ويجب الاستمرار

فى اخفائها حتى اليوم ـ أن القادة العسكريين الغربيين قد أصابهم الدوار • لقد تركوا تيار المغامرة الافريقية يجرفهم فى فخ السويس ، وأخلوا الجبهة الاوروبية حيث يمكن أن يؤخذوا فيها على غرة •

وحتى اذا أراد أيزنهاور اشعال نار الحرب فى أوروبا ليساعد الفرنسيين والبريطانيين على جعل موقفهم جديرا بالسخرية فى الشرق فقد لا يستطيع ذلك ، بل انه فعلا لا يستطيع •

ان كل ما يستطيع عمله هو أن يتحمل التدخل الروسى وذلك باخفاء تراجعه بقدر ما يستطيع• والاغرب أن مايصر عليه الروس هو أنْ يطبق آيزنهاور سياسته الذاتية التى دافع عنهـا مع دالاس خطوة تلو الاخرى لمدة ثلاثة شهـور ، وهى السياسة نفسهـا التى غضب من أجلهـا كل الغضب حينما رفض الفرنسيون والانجليز التزامها يوم ٣١ أكتوبر • ان أيزنهاور قدر الموقف بكل تبصر • انه فى موقف حرج • يجب عليه أنينفذ السياسة التىالتزم بها ، وبذلك ينقذ السلام « التعايش السلمى » وكان أيزنهاور يرى مثله فى ذلك مثل معظم القادة الانجلو ـ ساكسـونيين ان من واجبـه اخفاء أحكامه الرصينة خلف سـتار من المبررات الاخلاقية •

نعم أنه فى الواقع « درسٌ فى الاخلاق » ذلك الذى قام به دوجلاس ديلون السفير الامريكى فى باريس الذى حضر ـ فجأة وعلى غير موعد ـ الى رياسة مجلس الوزراء فى منتصف الليل وطلب مقابلة جى موليه علىَ انفراد • ان هذه الزيارة غير العادية تتفق مع منطق ساعات الجنون التى كان يعيشها العالم وقتئذ ، ومع ذلك فان اللوم سيوجه فيما بعد الى جى موليه والى ديلون حينما يتحدث الناس عن « العهد الذى كان السفير الامريكى يملى فيه الاوامر على باريس » •

ولم يكن فى موقف ديلون شىء من الغطرسة • انه موقف كله ألم وضيق وعطف • ولكن الرسالة التى يحملها كانت صريحة لا غموض فيها •

ويبدو أن نص هذه الرسالة كان قريبا من النص الذى نقله جان ريموند تورنو × حرفيا « اذا ظللتم هكذا فى موقفكم الخاطىء فيجب عليكم الا تعتمدوا على مساعدة الولايات المتحدة ٠٠ ان الامم المتحدة هى الجبهة الوحيدة التى يمكن الالتجاء اليها ٠٠ أوقفوا حملتكم والا فلا تعتمدوا علينا بعد الآن » ٠

ومن الواضح أن مثل هذا المسعى الامريكى قد بذل فى لندن فى الوقت نفسه ، وقد امتنع الانجليز والامريكيون عن التحدث عن هذا الامر حتى الآن ٠

وهنــاك حقيقة أخرى ٠ فى الســاعة الثانية والنصف صباحا بالتوقيت الفرنسى من يوم ٦ نوفمبر ـ أى الساعة الواحدة والنصف بتوقيت جرينتش ـ كانت الحكومة الفرنسية تعلم علما تاما أنها لا تستطيع الاعتماد بعـد ذلك على الحماية الامريكية الا اذا أوقفت اطلاق النار على مصر فى أقرب فرصة ٠

فزع فى واشنطن :

فى الوقت الذى وجــه فيه الماريشال بولجانين رسائله الى موليــه وايدن وبن جوريون بلهجة تختلف من رسالة الى أخرى وان كان لها المعنى نفسه أرسل أيضا رسالة الى الرئيس ايزنهاور زميل الحرب القديم للجنرال جوكوف ، وكانت اللهجة أكثر ودا ، ولكن اذا دققت النظر فيها تجدها أيضــا لا تقل عجرفة عن الرسائل الاخرى ٠ ان ما يقترحه بولجانين على أيزنهاور هو أن يتخذ ـ بالتعاون مع الاتحاد السوفييتى ـ اجراءات سريعة وحاسمة من شانها أن تضع حدا للعدوان وتمنع الحرب ٠ واذا لم تتخذ مثل هذه الاجراءات ، فستفقد الامم المتحدة هيبتها فى نظر الانسانية بل انها ستنهار ٠ وقال بولجانين أنالاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية دولتان عظيمتان ولديهما جميع أنواع الاسلحة الحديثة بما فيها الاسلحة النووية والهيدروجينية ٠

× انظر كتابه « أسرار دولة » ٠

جميع التلميحات موجودة ولكنها محجوبة بلباقة ٠ لقد وجدت واشنطن نفسها أمام رسالة مزعجةمن بولجانين ومعها صورة من برقيات التهديد التى أرسلها هذا الاخير الى باريس ولندن وتل أبيب ، وأمامها أيضا طلب فرنسى انجليزى بتأكيد ضمان الحماية الاطلنطية ٠ ان جميع عناصر الموقف المتفجر متمثلة هنا ، وقد طلب أيزنهاور من مستشاريه على الفور أن يعدوا له تقريرا عن الموقف ٠ فاجتمع فى الحال أعضاء هيئة المخابرات الامريكية وهى تضم أهم رؤساء جهاز المخابرات المركزى علاوة على رؤساء مختلف أجهزة الاستعلامات التابعين لوزارة البوليس الفيدرالى ٠

وقد حسب هؤلاء المسئولون حسابهم ، وبناء على تقريرهم وبعد أن اجتمع مجلس الامن القومى الامريكى ـ وهو الجهاز الأعلى المختص بأمن ١٨٠ مليونا من الامريكيين ـ اتخذ الرئيس قراره ٠

وفى هذه الاثناء أى فى منتصف الليل كانت الحملة الفرنسية البريطانية المقرر انزالها الى البر وقت الفجر فى بور سعيد تمر أمام عوامة ترشد الى مدخل القناة ٠ ومنذ هذه اللحظة سيراعى عدد العوامات بعناية الواحدة تلو الاخرى حتى الساعة الرابعة والنصف ، وهو الميعاد الذى انقسمت فيه الحملة ، فكانت الطوابير البريطانية تنتشر غربا على طول ساحل بور سعيد فى حين كانت الطوابير الفرنسية تنتشر شرقا أمام بور فؤاد ٠ كانت الحرب قد بدأت بالنسبة للحملة ، وكانت بدايتها سيئة ، لان المياه كانت فى هذا الصباح مضطربة والطقس ملبدا بالغيوم والامواج مرتفعة تقذف الرجال قذفا ، ولم يكن كثير من هؤلاء يحب مثل هذا الطقس الردىء ٠

الفصل السادس عشر

الخــوف

فى الوقت الذى انتشر فيه الخوف فى واشنطن ولندن وباريس وتل أبيب (وحتى فى برن حيث اقترحت الحكومة السويسرية عقد مؤتمر قمة بسرعة لانقاذ السلام العالمى ، وهذا صادر من شعور دقيق ولكنه نابع من تحليل سيىء) بحيث أصاب جميع الاجهزة وأربك الوزراء ورؤساء الحرب، وان خنق فى المهد حربا عالمية جديدة ، نعم فى هذا الوقت كانت الحملة الفرنسية البريطانية قد بدأت الحرب التى طال انتظارها ، وهى حرب أعدها هؤلاء الذين أهملوا مع ذلك حراسة حدودهم مع الشرق .

وكانت هيئات أركان الحرب تأمل من وجهة التخطيط الميكانيكى أن تصل قواتها فى ٨ نوفمبر الى الاسماعيلية وفى ١٢ الى السويس ، وان تحتفل بالنصر حين وصولها الى القاهرة يوم ١٤ نوفمبر .

كانوا يقتربون فى هذه اللحظة من بور سعيد ومن بور فؤاد ، وهنا يصابون بأول خيبة أمل . ففى بور فؤاد نفسهـا يتضح أن جميع استعداداتهم الرائعة لا فائدة من ورائها، ففى الليلة السابقة سلمت المدينة فى الساعة الخامسة الا الربع - بالتوقيت المحلى - الى الكولونيل فوسى فرانسوا الذى هبط من الجو بالمظلة بعد ظهر اليوم السابق على رأس السريتين التابعتين للكتيبة الثانية مظلات ، وقد أبلغ

هذا الاخير ذلك الى هيئة أركان الحرب التى انتابها القلق • يجب أن تبدأ قذائف البحرية ضربها فى السادسة صباحا، وهى قد تصيب اذن رجال المظلات الفرنسيين • وقد أشير بسرعة الى رجال المظلات بالتقهقر نحو المدينة كما أشير الى رجال البحرية بعدم الضرب • ويؤكدون أن الرسائل وصلت فى الوقت الملائم فتجنبوا بذلك وقوع كارثة • ومع ذلك أصيب رجال المظلات الفرنسيين بقذائف القنابل وجأروا بالشكوى من ذلك • وقد علل الجنرال بوفر هذه الشكوى بأنها نتيجة القنابل الانجليزية البعيدة المدى التى أطلقت من بور سعيد وأنها ربما كانت أيضا نتيجة اطلاق قنابل مصرية • ومع ذلك وبعد أن قدم رجال المظلات احتجاجاتهم بوقت قليل توقف الانجليز عن الضرب البعيد المدى وألقى المصريون قنابلهم وأحصى رجال المظلات خسائرهم : قتيلان وبضع عشرات من الجرحى •

وربما كانت مدافع الانجليز لا تصوب الى مدى بعيد ، ولكن قذائفها كانت قوية وشديدة • وقد صدرت اليهم الاوامر بعدم اطلاق القنابل من البحر على الاحياء الآهلة بالسكان ، ولكن المسئولين الانجليز كانوا يعتقدون باخلاص أنهم لا يستطيعون ارسال رجالهم للنيران دون أن يمهدوا للهجوم بالمدفعية • وقد ظلت الغارات بالقنابل محظورة اما قذائف المساعدة من المدفعية فلا يمكن حظرها • ولذلك فبعد ضرب شديد من المدافع الرشاشة من الجو لمدة عشر دقائق على مساحة أربعة كيلو مترات ونصف من الشاطىء الذى ستنزل عليه الحملة الآتية من البحر أمطرت البحرية الشاطىء لمدة أربعين دقيقة، وكذلك أمطرت جزءا من الحى الاوروبى المجاور بقذائف مساعدة من المدفعية • وقد أصابت بعض القنابل الحى العربى فى الغرب حيث أحدثت دمارا شديدا وحرائق كبيرة • وفى الساعة السادسة والدقيقة العاشرة توقفت البحرية عن اطلاق قنابلها ، وبدأت جهنم جوية لمدة ثلاث دقائق . وفى هذه الاثناء وفى حين كانت الطائرات الاخيرة تمطر بقنابلها الشاطىء ، كان اسطول انزال الجنود قد وصل الى الساحل ونزلت معظم القوات على سيارات برمائية أخذت تسير فوق ما تبقى من أكشاك الاستحمام ، ووصلت الى مشارف المنازل الاولى حاملة رجال كتيبتى الكوماندوز ٤٠ و ٤٢ وكانت الساعة حينئذ السادسة والدقيقة الثالثة عشرة بالتوقيت المحلى •

وفى جنوبى المدينـــة عانى رجال المظلات الذين يقودهم شاتو جوبير فترة عصيبة • ففى آخر الليل تعرضوا فجأة لهجوم عدد كبير من المدافع المحمولة على السيارات • وحينما تبين شاتو جوبير المصاعب التى يواجهها وجه نداء الى طائرات كورسير الرابضة على حاملات الطائرات • وقد أقبلت فى الحال وهاجمت هـذه المدافع بصواريخها • وقد صرح شاتو جوبير فيما بعد للاميرال بارجو قائلا : بدون طائرات كورسير لم أكن لأستطيع الصمود !

وأمام بور فؤاد تأخر انزال الجنود الفرنسيين ، والسبب فى ذلك يرجع الى الطرادة جورج ليج والسفن الحربية المرافقة لها التى يهمها مضايقة القافلة والمرور أمامها لكى تذهب وتتخـذ مواقعهـا للضرب • وأخيرا حددت الســاعة السابعة الا الربع لانزال القوات ، وكانت أول موجة من الفرنسيين تشمل الكتيبة الاولى مظلات من الفرقة الاجنبية وكوماندوز البحرية ، وآلاى السيارات الخفيفة وهيئة أركان حرب اللواء العاشر مظلات • وأنزلت معظم القوات شرقى بور سعيد فى ثلاث نقط من الساحل سميت الشاطىء الابيض ، والشاطىء الاخضر ، والشاطىء الاحمر • وعلى الشاطىء الابيض نزلت ثلاث كتائب من كوماندوز البحرية وكانت مهمتها احتلال مقدمة الميناء وورش القناة ، ومن جهة الشرق على الشاطىء الأخضر نزلت الكتيبة الاولى الاجنبية مظلات وهيئة أركان الحرب وكانت مهمتهما احتلال المدينة والاتصال بجنود الكتيبة الثانية مظلات التى أنزلت جوا فى الليلة السابقة، وفى جهة الشرق نزلت باقى الكتيبة الاولى الاجنبية مظلات وكانت مهمتها تدمير البطاريات الساحلية عيار ١٥٢ واحتلال ضواحى بور فؤاد الشرقية والشريط الساحلى المؤدى الى العريش •

البحث عن هدنة :

فى نحو الساعة السابعة صباحا استدعى قنصل ايطاليا « ماريرى » وهو عميد السلك القنصلى فى بور سعيد زملاءه واقترح عليهم التدخل للمفاوضة بشأن وقف اطلاق النار لتجنيب المدينة ويلات الدمار •

وكانت هذه أيضا فكرة المحافظ محمود رياض ، فقد تذكر كلمات بتلر وشاتو جوبير التى قالاها فى الليلة السابقة « يمكن أن تؤدى غارات صباح الغد بالقنابل الى قتل عشرة آلاف نسمة » وحتى اذا أخذنا فى اعتبارنا الخدعة أو المبالغة فان القرار الذى اتخذ باطلاق قنابل الاسطول على الشاطىء والشوارع المجاورة لها مدة أربعين دقيقة والهجمات الجوية والمعارك التى تدور منذ ساعة يجعلنا نعتقد أن هذا الرقم قد نصل اليه فى آخر الامر ٠

وفى الساعة السابعة والنصف أخطر قنصل الولايات المتحدة زميله الايطالى انه تلقى من السلطات المصرية طلبا للتوسط فى اجراء المفاوضات ، وبما أنه لا يريد أن يتصل شخصيا بالبريطانيين فضلا عن أنه لا يستطيع ذلك ـ لان المعركة لم تصل اليه بعد ـ فانه يأمل أن يقوم القنصل الايطالى بعملية التدخل ٠

ولم يكن « ماريرى » يعرف مع من يمكن أن يتحدث ٠ فقد فكر فى أن يتصل بالفرنسيين فى بور فؤاد حيث كان يبدو أن المعركة قد توقفت توقفا تاما٠ وكان السنترال التليفونى فى بور فؤاد تم احتلاله فى الثامنة والربع ، فحولت مكالمة القنصل الايطالى بعد قليل الى الكولونيل الفرنسى « بروتييه » الذى يقود الكتيبة الاولى الاجنبية مظلات ، وكان ذلك فى الساعة التاسعة الا عشر دقائق اى فى الوقت الذى كانت فيه السفينة الصغيرة التى تنقل هيئة أركان الحرب الفرقة العاشرة مظلات تلقى مرساها فى مقدمة الميناء ، وقد أخطر الجنرال ماسو فى اللحظة نفسها التى وطئت فيها قدماه الارض المصرية بطلب الدخول فى مفاوضات مع العدو ٠ وتبودلت الاتصالات التليفونية حينئذ، وكان الفرنسيون فى بور فؤاد أكثر تساهلا ٠ انهم يرغبون فى منح شرف الحرب الى هذا العدو الذى يتحمل وقف القتال ولكن على شرط أن يكون التسليم كاملا ومباشرا ٠

وكان القنصل الايطالى قد نجح فى هذه الاثناء فى الاتصال بالقائدالبريطانى بطريقة جديدة مبتكرة ٠ كانت دبابة انجليزية تتبع بعض الجنود فاخترقت حائط

حديقته ، وقد استغل ماريري الفرصة لنقل هذه الرسالة الى القائد البريطانى عن طريق راديو الدبابة ، وحددت الساعة الحادية عشرة موعد للمقابلة فى مبنى الشركة العالمية لقناة السويس على شاطىء القناة ٠

النزول الى جهنم :

وفى الوقت نفسه شوهد منظر غريب على شاطىء القناة من ناحية الشمال قليلا بجانب تمثال ديلسبس ٠ سلسلة من طائرات الهليكوبتر عددها ٢٢ قادمة من البحر تنزل على أرض منبسطة أمام الكازينو ٠ وقد أنزلت بعض الرجال وبعض المعدات الحربية الخاصة بكتيبة الكوماندوز رقم ٤٥ وقد حدد مكان نزول الطائرات على الارض بواسطة شرائط من القماش الابيض رتبت على شكل صليب وهبط من الطائرات خلال ٩٠ دقيقة فقط ٤٠٠ رجل و ٢٣ طنا من المعدات الحربية ٠ وهذه العلامة كانت ضرورية جدا لان أول طائرة هليكوبتر جاءت لاستكشاف المكان تحمل رئيس الكتيبة الكوماندوز رقم ٤٥ الكولونيل تيليور وقد ضلله الضباب فنزل الى الارض وسط ملعب كرة قدم يتحصن فيه المصريون ٠ واضطرت الطائرة الى الصعود ثانية تحت وابل من المدافع الرشاشة والعودة الى حاملة الطائرات « تيزو » وكانت الطائرة عبارة عن مصفاة من فرط طلقات الرصاص التى اخترقتها ٠ وكان تيليور سيىء الحظ فى هذا اليوم ، فقد نزل بعد ذلك بقليل على رأس رجاله وجمعهم ثم وزعهم على طول الشاطىء ، وكانت مهمته هى تطهير الحى الاوروبى بين فكى الكماشة التى تتألف من كتيبتى الكوماندوز ٤٢ و ٤٠ واذا بطائرات بريطانية تظهر وتنقض عليهم ظنا منها أن الكوماندوز الفرنسيين ليسوا سوى جماعة من المصريين ففتحت عليهم النيران بجميع أسلحتها وتركت ١٦ فرنسيا بين قتيل وجريح ، وكان الكولونيل تيليور من بين الجرحى ٠

وكان على الكتيبة الكوماندوز ٤٢ أن تشطر الحى الاوروبى نصفين من الشمال الى الجنوب ، وتتقدم على طول شارع محمد على ٠ وكانت القنابل اليدوية

تنزل كالمطر من شرفات المنازل والجنود البريطانيون يردون على ذلك بأسلحتهم الفردية فى حين راحت الدبابات التى ترافقهم تهاجم العدو بالمدافع المضادة للطائرات التى تحولت الى مدافع مضادة للدبابات • ولم يتم ذلك بدون خسائر ، بل توقف الزحف لحظة نظرا للتهديد الذى كان يواجهه البريطانيون من المبنى الذى تحصن فيه ١٥٠ مصريا والذى استطاعت الطائرات وحدها أن تدمره • ومهدت الكتيبة الكوماندوز ٤٢ الطريق ، وبين حين وحين كانت جماعات من المصريين تقطع الشارع المحظور السير فيه فتتجه الى الغرب وتحتمى فى منطقة الحى العربى المقدس ، وأخيرا اخترقت الكتيبة الكوماندوز ٤٢ المدينة بأسرها ووصلت الى حدود ملعب الجولف •

وفى هذه الاثناء طهرت الكتيبة الكوماندوز ٤٠ شواطىء القناة على الساحل الافريقى وأمكن السيطرة على الجزء الشمالى من الميناء ، وساعد هذا على أنزال باقى دبابات الكتيبة السادسة الملكية •

وقد أرسل آلاى من الدبابات فورا لمعاونة كتيبة الكوماندوز ٤٥ فى حين اتجهت كتيبة أخرى جنوبا على طول الارصفة وتجاوزت نقاط المقاومة التى جعلت الكتيبة الكوماندوز ٤٠ تلهث ، واتجهت نحو الجسر الذى احتله رجال المظلات الفرنسيون التابعون لشاتو جوبير فى الليلة السابقة •

ومما زاد المعارك تعقيدا أن عددا كبيرا من الجنود المصريين خلعوا ملابسهم الرسمية واحتفظوا بسلاحهم وأخفوه تحت « الجلابية » بحيث أصبح من الصعب التمييز بين المدنيين المسلحين وغيرهم من غير المسلحين، وأخذت الكتيبة كوماندوز رقم ٤٠ تواصل تطهير شاع السلطان حسين ، وكانت تقذف أبواب العمارات بالقنابل اليدوية للقضاء على مراكز المقاومة فى المنازل •

وفى مواجهة ذلك على الشاطىء الآسيوى للقناة أخذ رجال مظلات الكتيبة الاولى الاجنبية وضباط هيئة أركان حرب الكتيبة العاشرة مظلات يتتبعون سير المعركة • وكانوا ينظرون بعين الحسد الى مجموعة طائرات الهليكوبتر

البريطانية • وكان ماسو يقف متحسرا فوق سيارته الجيب فى حين كان زميله الانجليزى الجنرال بتلر يقفز بدون توقف من نقطة الى أخرى علىظهر الهليكوبتر الخاصة به ، فقد تركت الحملة الفرنسية طائرات الهليكوبتر الخاصة بها فى الجزائر • والأسوأ من ذلك أن الجنرال ماسو لم يكن معه حتى دبابات ، فقد أنزلت على الضفة المقابلة للقناة على زعم أن الاعمال التى تجرى فى الملاحات قد قطعت الطريق الشرقى (وجسر المراكب ، هل نسيته الحملة أيضا ؟) والنتيجة أن ستوكويل وضع يده على الدبابات الفرنسية بدعوى استخدامها فى حراسة مركز قيادته العام ، ولكن ربما كان هدفه أيضا من ذلك ألا يعمد الجنرال ماسو أو هيئة أركان حربه المتحمسة من رجال الكتيبة العاشرة مظلات الى الزحف قبل الموعد المقرر فى اتجاه الاسماعيلية •

وفى جبهة الغرب لحقت دبابات سنتوريون البريطانية برجال مظلات شاتو جوبير ، واتخذت مركزا لها رصيف القناة حيث كان المقرر أن تبدأ من هناك أهم عمليات الزحف • ولكن هذه الدبابات كان ينبغى أن تظل فى أماكنها فى انتظار وصول كتيبة الكوماندوز البريطانية التى كانت مشغولة طوال اليوم بتطهير الحى الاوروبى فى بور سعيد • وهكذا كانت مجموعة الضباط الخبراء فى الشئون العربية التى تحيط بستوكويل عن قرب يستطيعون التأكد بأنفسهم من أن الاوامر التى أصدرها أنطونى هيد وزير الحربية شفويا لن تخالف ، والمعروف أن هذه آلاوامر كانت تقضى ببذل كل جهد ممكن لعدم اراقة دماء السكان المدنيين وتحاشى ضرب المناطق الآهلة بالسكان بالقنابل •

باليه صغير للقواد :

حمل ستوكويل مرة أخرى شروط التسليم تحت أبطه ، تلك الشروط التى لم يقبلها أحد فى الليلة السابقة • لقد جمع من حوله مساعده الفرنسى الجنرال بوفر ثم الاميرال دانفورد سلاتر وماريشال الجو بارنيت ثم بعض النجوم الاقل درجة ، واحتشد كل هذا الجمع من كبار الضباط فى سفينة صغيرة فى الساعة

الحادية عشرة تجاه مبنى الشركة العالمية • وللأسف كان المبنى لا يزال فى ايدى المصريين ومنه حاولوا اصابة سفينة الضباط العظام ، ولكن هذه استدارت برشاقة وأنزلت ركابها شمالا بجوار الكازينو • وذهب الجنرالات الى مركز قيادة الألاى الثالث حيث كان هناك مركز القيادة العامة للقوات البرية الانجليزية حيث علموا أن الاجتماع سيتم فى القنصلية الايطالية • وقد ذهب الكثيرون منهم من بيتهم بوفر سيرا على الاقدام الى مبنى القنصلية المجاور حيث وجدوها تحولت الى شبه كرنفال غريب • كان نصف الجالية الايطالية مكدسا فى ممرات وحجرات القنصلية، وكان يمكن أن تحدث قنبلة واحدة مجزرة فى هذا المكان، ويبدو أن قنصل ايطاليا لم يدرك مدى المسئولية الخطيرة التى يتعرض لها ، وراح يعمل كأنه هو وحده هيئة للصليب الاحمر • ومن هنا اتصل الجنرالات بالقائد المصرى اللواء الموجى نفسه الذى يبدو أنه فهم أن أهم عمل فى حرب بور سعيد هو أن يعرض أمر التسليم فى كل مكان • ووجد الجنرالات أنفسهم أمام نفس الخطة التى اتبعت معهم فى اليوم السابق لكسب الوقت ، فقد طلب اللواء الموجى هدنة لكى يستطيع مشاورة القاهرة فأعطى مهلة لمدة ساعة واحدة • وحين تبين لهم أن هذا الرجل لم يعد يمثل الا نفسه وأنه ليس له أية سلطة فى بور سعيد ، تقرر عدم الانتظار أكثر من ذلك وذهبوا لتناول الغذاء •

وفى فترة الغذاء من هذا اليوم استقبل جى موليه ضيفا عظيما هو المستشار الالمانى أديناور الذى كان فى ذلك الوقت أعظم صديق سياسى « والرجل الاساسى » لفوستر دالاس ، وسيقبل الرجلان بعضهما بعضا وهما يبكيان ، فقد أبلغ دالاس صديقه كونراد أديناور أنه مقضى عليه لا محالة وأنه سيموت خلال بضعة أسابيع بسبب مرضه • وكانت الاحداث قد ازدادت سوءا منذ الزيارة الليلية التى قام بها السفير الامريكى دوجلاس ديلون لجى موليه •

والواقع أن الجميع كانوا يعلمون أن زيارة ديلون لم تكن تنطوى على التهديد ، فقد كان يريد فقط احاطة الحكومة الفرنسية علما بموقف الولايات

المتحدة التي تطالب بوقف اطلاق النار « بأسرع ما يمكن » وبعدم موافقة الحكومة الامريكية على التدخل الفرنسي البريطاني في مصر ٠

انذار نهائي :

وفي هذه الاثناء اجتمع جهاز مخابرات الولايات المتحدة وبحث الموقف العام وموقف الولايات المتحدة بخاصة ، وقدر عملية توازن القوى القائمة، ومدى المخاطر وأبلغ النتائج التي انتهى اليها الى الرئيس أيزنهاور ٠ ونحن لانزال نجهل تفاصيل هذه النتائج ولكن آثارها لم تلبث أن عرفت ٠

لقد تسلموا في باريس الرد الامريكي على طلب حماية شمال الاطلنطي ، وهو الطلب الذي أرسل مساء الليلة السابقة ٠ وكان هذا الرد مؤدبا ومتزنا ويؤكد أن الولايات المتحدة ستحترم الالتزامات المنبثقة عن الحلف ٠ ولكن هذه الالتزامات ان كانت تنطبق في حالة الهجوم الروسي على أوروبا فهي لا تنطبق على مصر الا اذا كان ناصر قد بدأ الهجوم على سفن وطائرات الحلفاء ، أي أنها لا تنطبق بأي حال من الاحوال على هذه الحرب لأننا نحن الذين بدأنا بضرب النار !

ولم يكن هذا كل شيء ، فقد أضافت واشنطن الى هذه المذكرة الدبلوماسية رسالة من الرئيس ايزنهاور تشكل انذارا نهائيا حقيقيا ٠ وبرغم أن الرسالة لا تقع الا في عشرة سطور فانها كانت متفجرة ٠ وقد ذكر ايزنهاور فيها كلمة « عدوان » وحدد مهلة من الزمن لوقف اطلاق النار في مصر قدر باثنتي عشرة ساعة ، وهي المهلة نفسها التي حددتها في اليوم السابق الدول الافريقية والاسيوية والسوفييت ٠ واذا أضفنا ١٢ ساعة على توجيه الرسالة ـ حوالي الخامسة صباحا ـ فان نهاية المهلة تكون الخامسة من مساء يوم ٦ نوفمبر ، وهي الساعة التي سيحددها ايدن لوقف اطلاق النار البريطاني ، بمجرد استلامه رسالة أيزنهاور ، ودون أن يبلغ جي موليه بذلك ٠ واستولى الجنون على الجميع، فان هذا قد يحدث بين أعداء ، ولكن هل يجوز للحلفاء أن يرسلوا الى بعضهم بعضا انذارات نهائية ؟

حين أحيط ايزنهاور علما فى الليلة السابقة برسالة بوجانين لم يجد ثمة ما يدعوه الى اظهار مشاعر عنيفة ضد حلفائه • أما الذى غير وجهة نظره فهى « التقديرات » التى نقلوها اليه ، وكانت رسالته المحمومة التى بعث بها الى حلفائه صادرة من رجل يشعر كأنه امام هوة سحيقة ، وذلك للمخاطر التى تتعرض لها سلامة الولايات المتحدة بسبب السياسة الكريهة التى يتبعها حلفاؤه والتى لم يكن لديه الشجاعة الكافية ــ مثلما كان لدالاس ــ لمعارضتها بوضوح وبشكل علنى • ومن هنا كانت هذه اللهجة ، التى جرحت الحلفاء والتى اعتبرها الرئيس كوتى رئيس الجمهورية الفرنسية « غير مقبولة » •

قلق فى الغرب :

لقد انتقلت المأساة الى لندن حين كانت جميع الدلائل تشير الى قرب انهيار الجنيه الاسترلينى ونظام المبادلات القائم على هذه العملة فى مجموعه • وقد وجه ماكميلان نداء حزينا • ان الساعة مبكرة فى لندن ، ولكن واشنطن كانت لا تزال فى منتصف الليل • وكان رجال المال لا يزالون نائمين ، فى حين كان ماكميلان يحتاج فورا الى مليار من الدولارات• وعقدت الحكومة البريطانية اجتماعا فى ساعة مبكرة ، وبعد أن وجه أيزنهاور رسالته الموجزة الى ايدن طلبه تليفونيا وقال له بصوت متهدج « لا أستطيع الانتظار بعد الآن » كما لو كان هو ايضا واقعا تحت تهديد أو تحت انذار نهائى • وحين طلب منه ايدن مهلة أخرى أجاب ايزنهاور أنه لا يمكن تأجيل وقف اطلاق النار بعد يوم ٦ نوفمبر •

والحقيقة أنه لم يكن أمام ايزنهاور فرصة للاختيار ، فقد انكشف الموقف العسكرى فى أوروبا بسبب انسحاب الجيوش الفرنسية والبريطانية التى هجرت مراكزها على الجبهة الامامية ــ وهى الجبهة الالمانية ــ للسعى وراء خيالات وأوهام فى الشرق ، ووقعت فى « فخ السويس » •

فاذا لم يقم بالضغط على حلفائه فسيقع التدخل الروسى فى الشرق ، وسيتم بدون ألم وبضمان قرارات الأمم المتحدة المتعددة التى صدرت ـ وياللتناقض ـ بناء على طلب الولايات المتحدة الامريكية ، وسيكون التدخل الروسى فى الشرق هو الاقتحام العظيم الذى حلم به كثير من القياصرة ، كما أنه سيؤدى ـ وفى ليلة واحـدة ـ الى انهيـار امبراطورية البترول الامريكية فى الشرق الأوسط ، لأن الروس اذا انتصروا فانهـم لن يقـدموا هـدايا ، وسيـذكر حينئذ الفرنسيـون والاسرائيليون ما اتخذته الامم المتحدة من قرارات .

وفى موسكو نشرت وكالة « تاس » بيانا مهدئا يقول ان تدخـل الاتحـاد السوفييتى لن يتم الا بناء على احترام قرارات الامم المتحدة ، وهذه واضحةوضوحا تاما . وفى لندن لم يصادف النداء المتسم بالقلق الذى وجهه ماكميلان الىواشنطن للمطالبة بمليار دولار سوى الوعد بالرد فى خلال بضع ساعات . وقد وصل هذا الرد فى نهاية فترة الصباح الى لندن حين كان مجلس الوزراء مجتمعا منذ عشر ساعات . سنجمع هذا المليار بالطريقة الآتية : ٥٦١ مليونا ونصف مليون من صندوق النقد الدولى ، ١٠٠ مليون تخصم من الفوائد المستحقة على بريطانيا فى نهاية ديسمبر على بعض القروض الامريكية ، باقى المبلغ المطلوب سينظر فى عقد قروض بشأنه ، ولكن على شرط أن يعلن وقف اطلاق النار فى المساء نفســه . أما البترول ـ وهذه مشكلة أخرى تثير القلق ـ فسنرتب هذا الامر ، ولكن بناء على الشرط نفسه .

وفى باريس ازداد الضغط على جى موليه . لقد تسلم نداء من صديقه سباك رجل الدولة البلجيكى الذى كان يزور موسكو ، وقد أراد تنبيهه الى أن الروس لا يخادعون ولا يهوشون فى هذه المرة. وقام المستشار أديناور أيضا بالضغط على موليه أثناء تناول الغداء لدرجة أن وزير خارجيته فون برنتانو استطاع أن يصرح يوم ٧ نوفمبر فى البرلمان الالمانى بقوله « كان لسفر المستشار أديناور الى باريس أهمية عظيمة فيما يتعلق باعلان وقف اطلاق النار فى منطقة السويس » .

وفى واشنطن وصلت رسالة من شارل بوهلن السفير الامريكى فى موسكو ينذر فيها قائلا : احذروا ، فالروس مصممـون ! وفى لندن تلقى ايدن رسـالة أخرى ، وكانت رسالة مؤلمة ، انها من نهرو الذى طلب منه وقف اطلاق النار فورا والا فان الهند ستنفصل عن الكومنولث وستتبعها فى ذلك سيلان على ما يبدو ٠ واستمر الجنيه الاسترلينى فى الانهيار ، وفى داخل الحكومة البريطانية نفسهـا كانت الثورة تزداد استفحالا وأظهرت مجموعة من الوزراء ــ يقـال أن عـددهم ثمانية ــ عدم موافقتها على التدخل٠ وانقسم حزب المحافظين على نفسه وكان هناك نحو ٤٠ نائبا محافظا من أعضاء البرلمان لا يقررون بصراحة سياسـة التـدخل العسكرى فى مصر ٠

وهناك بصفة خاصة الضغط الامريكى الذى قال عنه كريستيان بينو أنه كان فظيعا ٠ كان كل شىء ينهار من حول السير أنطونى ايدن ، واذا كان يريد أن يحارب بعد أن نجح فى شطر الكومنولث شطرين وفى شطر حزب المحافظين شطرين آخرين وفى شطر التحالف الانجليزى الامريكى شطرين كذلك ، فان سياسته قد تؤدى به الى نهاية لا يمكن تصور وقوعها فى بريطانيا ، وهى ثورة القصر الملكى الذى قد يضطر الى اقالة رئيس الوزراء ٠

واتخذ ايدن قراره ، وأصـدر أمره بوقف اطلاق النـار ، وطلب باريس تليفونيا ليحيط جى موليه علما بالقرارات التى اتخذها مجلس الوزراء البريطانى بدون استشارة الحليف الفرنسى ٠ وقد حاول موليه أن يناقش ويشرح وأن يقنع ايدن بأنها مسأله ساعات وأن القوات الفرنسية البريطانية قد احتلت كل القناة تقريبا (كانت الاخبار التى لدى الحكومة الفرنسية غير صحيحة ، كما أن الرأى العام الفرنسى لم يكن يعرف ما يحدث لدرجة أننا نرى جريدة جادة مثل «لوموند» تتكلم فى هذا اليوم على امور بعيدة عن الحقيقة) لم يكن ايدن يستطيع أن يستمر أكثر من ذلك ، وكل ما سيحاول أن يفعله هو تأخير مهلة وقف اطلاق النار لكى يعطى للقوات المتحالفة مزيدا من الوقت لتتقدم الى أبعد ما يمكن على طول القناة٠

أما عن باقى الامور فقد اتخذ بشأنها قرارا اعتزم تنفيذه مهما تكن الظروف ، كما قال فيما بعد، أى مهما تكن الاعتراضات التى يمكن أن يثيرها الفرنسيون. والواقع أن البرقية المفصلة التى أرسلت من لندن فى الثانية مساء كانت تفرض على الجنرال كيتلى الاستعداد لتلقى أمر وقف اطلاق النار فى الساعة الخامسة مساء ، وتنصحه بكسب أكبر مساحة ممكنة من الارض حتى هذه الساعة • وقد أخطر كيتلى أيضا باحتمال التدخل الروسى ، ولم يتم نقل هذه الرسائل الى الجنرال ستوكويل بصورة جيدة ، اذ وصلت الرسالة من قبرص فى الساعة الخامسة والدقيقة العشرين الى ظهر المدمرة «تين» أى فى الثالثة والعشرين دقيقة بتوقيت جرينتش، فى حين أنها أرسلت فى الساعة الثانية والنصف بتوقيت جرينتش وكانت تقول : من المحتمل صدور أمر وقف اطلاق النار فى أى وقت ابتداء من الساعة الخامسة مساء ـ بتوقيت جرينتش ـ من الامور الاساسية أن تكونوا قد انتهيتم من تطهير بور سعيد حتى هذه الساعة • ونظرا لما لذلك من أهمية وصفة عاجلة فقد نقلت هذه الرسالة الغامضة بطريقة واضحة الى ستوكويل الذى كان مع قواته على البر• يقول الجنرال كيتلى أنه من المهم جدا أن تتموا العمل الذى تقومون به ، فصاح ستوكويل فرحا : برافو ! لأنه لم يتلق فى أية لحظة أمرا بالتعجيل بالعمليات •

أما الجنرال بوفر فقد ذهب فى جولة تفتيشية على القوات الفرنسية ثم عاد ومعه الجنرال ماسو ـ الذى أحيط بمظاهر التكريم ـ وذهبا الى مركز قيادة شاتو جوبير فى الفيلا التى كان مدير « وابور » المياة يشغلها • وفى هذا المكان وصل الجنرال بتلر على طائرة هليكوبتر أمام أنظار ضباط المظلات الفرنسيين المملوءة حقدا لأنهم كانوا يتوقون أيضا الى أن تكون فى حوزتهم طائرات هليكوبتر ، وقد رسمت هنا الخطط الخاصة بزحف الدبابات على طول القناة • وقرر الجنرال بوفر اضافة الكتيبة ١١ صاعقة الى الدبابات من طراز سنتوريون البريطانية فى حين كانت الكتيبة الكوماندوز ٤٢ ترابط على أرض الجولف التى لا تبعد كثيرا عن هذا المكان • وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تقدمت الدبابات سنتوريون حتى بلغت الكيلو متر ١٧ عند رأس الواش ، تتبعها الكتيبة الاولى مظلات من الفرقة الاجنبية وسريتان بريطانيتان ، ولكن هذه القوات كانت تنتظر المعدات التى لم

يمكن انزالها من البحر • فقد كان الميناء مزدحما بعدد كبير من العوائق ، واذا كان ضفادع الجيش الفرنسي قد استطاعوا شق ممر وسط هذه العوائق فان الطريق الذي فتح لم يكن يسمح الا لمرور أصغر المراكب والصنادل ، ثم اتسعت هذه الفتحة في آخر النهار لتسمح بمرور المراكب المتوسطة الحجم • أما السفن الكبيرة فقد استمرت في انزال حمولتها بمشقة كبيرة في مدخل الميناء ، وقد أدى كل ذلك الى حدوث اضطراب كبير في النظام وتأخير عن المواعيد المقررة •

الخطر الكبير :

كان هناك لغز غامض ساهم في زيادة الفوضى • كانت جميع الرسائل الصادرة من أوثق المصادر المتحالفة تشير — في أثناء فترة ما بعد الظهر — الى قرب وقوع هجوم روسي موجه ضد الحملة ، ولكن الاجراءات التي اتخذتها هيئة أركان الحرب المتحالفة بهذه المناسبة تستحق أن تلقى في طي النسيان • كان ثمة كلام عن حدوث فوضى مصحوبة برعب • فقد اسرع الاميرال بارجو مثلا الى سحب سفنه حيث أعاد الطرادة « جان بار » الى قبرص ، وكان المراسلون الحربيون يستخدمون هذه السفينة لنقل رسائلهم باللاسلكي الى فرنسا ، كما سحب الى عرض البحر سفينة القيادة العامه جوستاف زيديه دون أن يخطر بذلك حتى الجنرال بوفر قائد القوة (أ) الذي وجد نفسه وحيدا على البر بعيدا عن مركز قيادته • ولم يكن الموقف لدى الانجليز بأفضل من ذلك ، فقد كانوا يصادفون غواصات روسية في كل مكان وطيارات روسية في جميع أركان السماء ، ولم يكن من شأن التحذيرات الواردة من لندن الا زيادة الفوضى لانها أضافت نوعا من التأكيد على مغزى الانباء المفزعة الواردة من كل مكان •

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الرابعة والثلاثين بعد الظهر صدرت من لندن البرقية النهائية التي تحمل أمر وقف اطلاق النار في الساعة الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والخمسين من هذا المساء نفسه — أي دقيقة قبل منتصف الليل — وهكذا صدر أمر وقف اطلاق النار قبل الساعة الخامسة مساء — بتوقيت

جرينتش ـ أى فى خلال اثنتى عشرة ساعة ، وفقا لما حدده الرئيس أيزنهاور ٠ وعلى كل حال فقد اتصل الرئيس الامريكى بايدن تليفونيا ـ قبل انقضاء المهلة المحددة بقليل ـ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بتوقيت جرينتش × فأبلغه ايدن أنه أصدر الامر بوقف اطلاق النار فرد عليه أيزنهاور على الفور بأنه مسرور جدا لذلك ٠ وقد شعر الرئيس الامريكى كأن حملا ثقيلا قد أزيح عنه ، وكان يعتبر ذلك مدعاة حقا « للسرور العظيم » ٠

وكانت هناك موجة من السرور شملت أيضا قبرص ، اذ لم تكد رسالة وقف اطلاق النار تصل الى هناك حتى اختفت جميع الانباء التى كانت تشير الى قرب وقوع الهجوم الروسى ٠ ولم يعد أحد هناك يتحدث عن غواصات سرية غريبة أو أشباح طائرات ، واختفت مظاهر الفزع بشكل سحرى كما ظهرت من قبل بشكل سحرى ٠

أما البرقية التى صدرت من لندن فى الساعة الثانية مساء والتى كانت تتضمن احتمال وقف اطلاق النار فى الساعة الخامسة مساء ونصح الجنرال كيتلى بالاستيلاء على أوسع مساحه ممكنة من الارض ، فانها لم تكن قد بلغت حتى انقضاء هذه المهلة للقيادة العامة للقوة (أ) على ظهر الطرادة الفرنسية جوستاف زيديه ، وذلك لسبب أساسى هو أن الفرنسيين يعتبرون أن وقف اطلاق النار لا يعنى الا البريطانيين وأن أولوية القيادة بين الحلفاء تزول بمجرد صدور أوامر وقف القتال أى بمجرد انتهاء التحالف ٠

المناقشة الأخيرة :

أما فى باريس فلم يكن أحد يحبذ وقف المعركة ٠ فقد جمع جى موليه من حوله بينو وبورجى مونورى ـ الوزيرين الرئيسيين المختصين بهذه المسألة ـ علاوة على رئيس هيئة أركان الحرب العامة الجنرال ايلى ، وأخذ الرجال الاربعة

× أى دقيقة بالضبط قبل ارسال البرقية التى تأمر بوقف اطلاق النار ٠

يقلبون جميع أوجه المشكلة ٠ وكان بينو وبورجي مينوري يعارضان بشدة وقف القتال ، أما موليه فلم يكن يريد القيام بأى عمل بدون بريطانيا العظمى ٠ وكان يرى أن فرنسا قد تتعرض لمخاطر كثيرة اذا عملت وحدها ، فى حين كان بينو وبورجي مينوري يعتبران أنها لن تفقد الشيء الكثير لأن سقوط ناصر قد يغير كثيرا من الامور ٠ وكان الجنرال ايلى يتمنى الاستمرار فى القتال ، ولكنه تبين له أن المنطق وقاعدة الهجوم وأهم ركائز الحملة لا تزال فى أيدى البريطانيين الذين أقاموا علاوة على ذلك ستارا من الدبابات زنة ٤٥ طنا لاغلاق طريق المعاهدة لمنع الفرنسيين من الزحف ، فاذا كان الفرنسيين يريدون التقدم فعليهم أن يحصلوا أولا على موافقة البريطانيين والا فيجب عليهم أن يخوضوا معركة ضد حلفاء الامس ٠

وأخيرا قرر موليه اتخاذ موقف الانجليز نفسه ، وحين طلبه ايدن تليفونيا ليبلغه أنه سيعلن وقف اطلاق النار أمام مجلس العموم وسأله عما اذا كان يستطيع أن يعلن ذلك باسم الحكومتين وافق جي موليه ، وأرسلت برقية للأميرال بارجو فحولها الى الطرادة جوستاف زيديه بعد ساعة ونصف ساعة من صدور الامر البريطاني المماثل ٠ وفى هذه اللحظة كان يبدو أنه لا يمكن الاتصال بالجنرال بوفر ، وعلى كل حال لم يتسلم أحد من القيادة العامة للجنرال ماسو هذه البرقية٠

وفى حين كانت مظاهرات الاحتجاج تتجمع فىموسكو أمام سفارات بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، كانت بريطانيا تطالب منذ فترة ما بعد الظهر من يوم ٦ نوفمبر بجلاء اسرائيل عن سيناء ٠ ان هذا لم يكن خيانة لاسرائيل بل مناورة وقد قام كريستيان بينو بعمل مماثل فى اليوم التالى ، ولكن بطريقة خفية الى حد ما ٠ ففى لندن كان الانجليز مصرين على اقامة أنفسهم حكاما بين اسرائيل والعرب ٠

وفى بور سعيد خيم الليل على المدينة حيث كان جنود البحرية المصرية لا يزالون يقاومون فى مبنى قيادة البحرية ، واستدعيت الدبابات والطائرات للقضاء على هذه المقاومة ٠

وبعد قليل توقفت كل معركة منتظمة ، ولكن فى أثناء الليل استمر اطلاق الرصاص بصورة متقطعة • وكان المراسلون الحربيون الفرنسيون الذين أسكرتهم صفحات المجد والبطولة التى سطروها ـ وقد اعتادوا أن يجلسوا الى صناديق مقلوبة بدلا من المكاتب ـ قد ذهبوا بخطاباتهم لوضعهـا فى صندوق الخطابات المشهور حيث يحملها زورق بخارى ولا الطرادة جان بار ، ولكن يا للأسف لم يكن هناك صندوق خطابات ولا زورق بخارى ولا الطرادة جان بار • وفى القاهرة حيث الخيال المصرى شديد الخصوبة ، فسر المصريون حادث اختفاء جان بار على هواهم ، وأخذوا يهتفون قائلين ان البحرية المصرية قد أغرقتها ، وربما وزعوا الاوسمة على الذين قاموا بهذا العمل العسكرى الباهر !

وربما كان أسوأ الناس حظا بين جميع الذين نزلوا على أرض مصر يوم ٦ نوفمبر هو قائد القوة (أ) الجنرال بوفر ، فحين هبوط الليل صعد فوق قاربه للحاق بمركز قيادته العائم الطرادة جوستاف زيديه ، ولكن الطرادة كانت قـد اختفت • لم يخطر أحد قائد القوة (أ) بأن السفينة قد أرسلت الى عرض البحر فى أثناء فترة الرعب الكبير التى حدثت بعد الظهر • ولم يستطع بوفر الاتصال بمركز قيادته لأن الطرادة لم تكن تريد أن تعلن عن مكان وجودها خوفا من أن تلعب معها أية غواصة روسيه لعبة سخيفة وأخذ قائد القوة (أ) يبحث فى الظلام الذى ساد المنطقة عن مركز قيادته الذعر • وأخيرا وجده فى نحو الساعة السابعة مساء فسلمت اليه فى الحال رسالة الاميرال بارجو التى أرسلت فى الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة مساء بتوقيت جرينتش ـ السادسة والدقيقة الثامنة بالتوقيت المحلى ـ وقد تسلمها فى الساعة السادسة والدقيقة ٤٢ بالتوقيت المحلى ، وكانت الرسالة تبلغه أن أمر وقف اطلاق النار سيصدر فى السـاعة السابعـة مسـاء بالتوقيت المحلى (الخامسة مساء بتوقيت جرينتش) ولم يدهش بوفر واعتبر أن المسألة تعنى وقف اطلاق النار الشهير الذى أضاع نصف النهار فى التفاوض بشأنه • وقد أعلنت محطة الاذاعة البريطانية بعد ذلك بساعة واحدة أن الحكومتين البريطانية والفرنسية قد أصدرتا أمرا بوقف اطلاق النار فى الساعة ٢٤ بتوقيت جرينتش ، أى فى الثانية من صباح يوم ٧ نوفمبر بالتوقيت المحلى •

وقد كلف الجنرال بوفر هيئة أركان حربه فورا بتوجيه رسالة الى طليعة القوات الفرنسية للتعجيل بالاستيلاء على أراض جديدة • ولكنه اصطدم برسالة وصلته من الجنرال ستوكويل يشير فيها الى أن الهدف المقصود بلوغه فى الساعة ٢٤ بتوقيت جرينتش هو بلدة الكاب التى كانت دبابات سنتوريون البريطانية قريبة جدا منها •

وقف اطلاق النار :

حين وصل أمر الجنرال بوفر الى القيادة العامة للكتيبة العاشرة مظلات التى يشرف عليها شاتو جوبير كان وقعه كالقنبلة • وقد استشاط الضباط المحيطون بالجنرال ماسو غضبا ، وكان هؤلاء هم أكثر الضباط اهتماما بالسياسة فى الجيش الفرنسى ، وقد حاولوا اقناع الذين يسدون الطريق أمامهم الى القاهرة • ونجح الفرنسيون فى اقناع رجال الدبابات البريطانيين بالزحف الى الاسماعيلية دون انتظار قائدهم الجنرال بتلر ، ولم يكد الطابور يتحرك حتى وصل من الجنرال ستوكويل أمر فى الساعه الحادية عشرة والدقيقة ٢٣ مساء يحظر فيه الزحف نحو الجنوب •

لقد وصل فى الساعة ١١ر٣٠ مساء بالتوقيت المحلى ـ ٩ر٣٠ مساء بتوقيت جرينتش ـ الامر الرسمى بوقف اطلاق النار الذى حدد الساعة ٢٤ ـ بتوقيت جرينتش ـ لوقف القتال• وأخذ البريطانيون يخرجون زجاجات الجن من مخابئها فى كل مكان ، فى حين أخذ ضباط سلاح الطيران الملكى فى قبرص يحتفلون بوقف اطلاق النار باحتساء الشامبانيا • وفى الساعة ٢٣ر٥٤ بالتوقيت المحلى ـ ٢١ر٥٦ بتوقيت جرينتش ـ أى نحو ساعتين قبل الوقت الرسمى لاطلاق النار، توقف كل عمل عسكرى، وقد تقدمت الدبابات البريطانية التى كادت تسد الطريق منذ الساعة الخامسة عشرة والنصف ـ بتوقيت جرينتش ـ مسافة ١٣ كيلو مترا فى نصف يوم دون أن تصادف أدنى مقاومة • وكان يشارك الجنود البريطانيين فى شعورهم بالارتياح معظم الشعب البريطانى ولم يكن يعدل سرور عدد كبير

منهم سوى السرور الذى عم مجلس العموم الذى صاح حين أعلن ايدن أمامه قرار وقف اطلاق النار ، وقد شارك النواب العمال النواب المحافظين فى التصفيق لرئيس الوزراء •

ومهما يكن من أمر فقد نظر المحافظون رسميا الى وقف اطلاق النار كأنه انتصار ، وهذا هو على الاقل ما أظهرته فى اليوم التالى صحف المحافظين لقرائها • وكان عنوان صحيفة الديلى ميل « ستكون القناة ملكنا » كما أعلنت الديلى اكسبريس بحروف كبيرة « الاستيلاء على الاسماعيلية » ثم كتبت بحروف صغيرة « وقف اطلاق النار » أما الديلى سكتش فقد أظهرت مزيدا من الجرأة وكان عنوانها ببساطة وبوضوح « انتصار ايدن •• »

كان الموقف فى الواقع مضللا• ان الفرنسيين والبريطانيين كان لديهم ميزة يستطيعون المساومة بها • فهم يحتلون أحد مدخلى القناة ولا يمكن أن تعمل القناة الا اذا أرادوا ذلك أى حينما تقبل القاهرة ما يفرضون من مطالب • ولكن هذه الميزة كانت من جهة أخرى بمثابة حق فيتو على القناة لانهم لا يشرفون على الطرف الآخر ولا على الجزء الاكبر من القناة • ولكى تسير الملاحة فى القناة ، يجب الاعتماد اما على حسن نية المصريين ـ التىلا يمكن الإعتماد عليها ما دام الفرنسيون والبريطانيون فى بور سعيد ـ واما استئناف العمليات العسكرية والاستيلاء التام على القناة •

وفى مساء يوم ٦ نوفمبر أرسل أيزنهاور برقية الى ايدن • وكانت اللهجة ودية كما كان الحديث التليفونى الذى أبلغ ايدن خلاله أيزنهاور أنه يوافق على وجهة النظر الامريكية وديا • ولكن جوهر البرقية كان أكثر تحفظا ، لانها أعدت بواسطة أجهزة وزارة الخارجية الامريكية التى لا تتمتع بالتفكير السريع الكريم الذى يتمتع به الرئيس الامريكى • وكانت البرقية تعلن قيام معركة الاجراءات (وهو مالم يتبينه ايدن فى هذه اللحظة) وكانت تشير بصفة خاصة الى أن الولايات المتحدة لا تتنازل عن ضغطها وأنها بعد أن فرضت اطلاق النار

ستعمل على تحقيق الجلاء • وكان معنى هذا النص واضحا ، ولكن كان من أثر السرور الذى غمر ايدن لعودة الصداقة الانجليزية الامريكية (وقد أبرق الى جى موليه بذلك) أنه لم يدرك أن هذه تعليمات حقيقية جديدة تختفى تحت ستار الكلمات المهذبة المنمقة • وقد أشار أيزنهاور الى أن انشاء قوة دولية للأمم المتحدة يجب أن يتم بسرعة لتحول دون حدوث تطورات فى مصر قد تكون بالغة الخطورة • وعلاوة على ذلك فان انشاء هذه القوة لن يعطى للاتحاد السوفييتى أية حجة للعمل • وقد أوصى الرئيس الامريكى بشدة بالموافقة على ألا يدخل فى تكوين الوحدات الدولية ، التى ستشكل هذه القوة ، أية وحدات عسكرية تقدمها الدول العظمى • وواضح أن هذا التعبير كان أكثر الوسائل الرقيقة الممكنة لطلب مودة القوات الفرنسية البريطانية ، اذ أنه لن يمكنها الاشتراك فى القوة الدولية أو الاندماج فيها بأى حال •

ودرست الحكومة البريطانية هذا الاقتراح الامريكى ثم رأت أن الهدف المباشر الذى يجب أن تضعه نصب عينيها هو اعادة العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة بقدر الامكان بحيث تدفعها الى الاعتراف بالمخاطر الحقيقية التى يمكن أن تنجم عن أى تسلل سوفييتى جديد • وقد كلفت الحكومة ايدن بايجاد الوسيلة التى تؤدى الى دعم هذه السياسة ، فوجد ايدن أنه من الافضل اجراء مشاورات مباشرة بينه وبين ايزنهاور وجى موليه • وكانت الفكرة على جانب كبير من البراعة ، لأنها ستؤدى الى اظهار التضامن الاطلنطى من جديد بشكل واضح •

معركة دبلوماسية :

واذا كان وقف اطلاق النار قد أسكت الاسلحة فانه لم يوقف المعركة ، أو استؤنفت المعركة بعد قليل ولكن على شكل دبلوماسى فى أروقة الامم المتحدة ، وقد أجابت فرنسا وبريطانيا على الرسالة التى وجهها اليهما السكرتير العام للامم المتحدة بتاريخ ٥ نوفمبر ، والتى يبلغهما فيها بالقرار الذى أصدرته الجمعية العامة بقولهما انهما قررتا الاذعان لارادة غالبية الامم المتحدة وأنهما قد أصدرتا الى قواتهما

التى نزلت فى مصر أمرا بوقف اطلاق النار • وقد أثار هذا الخضـوع الفرنسى البريطانى فورا رد فعل من جانب مجموعة الدول الافريقية الآسيوية التى قدمت مشروع قرار يطالب اسرائيل بالعودة الى خط هدنة عام ١٩٤٩ ، ويطالب فرنسا وبريطانيا بسحب جيوشهما من مصر • كما قدم السكرتير العام للأمم المتحـدة من جانبه تقريره الثانى بشأن الخطة المقترحة لانشاء قوة دولية على وجه السرعة •

ولم تقتصر المعركة الدبلوماسية على أروقة الامم المتحدة، فقد كان رد اسرائيل على طلب بريطانيا العظمى لها بالجلاء عن شبه جزيرة سيناء انها تعتبر غزة منطقة محرمة على المراقبين العسكريين للامم المتحدة • ان جميع مساحات الارض المحتلة بما فيها صحراء سيناء خارجه عن اختصاصات لجنة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة ومن ثم لا تخضع لحكمها •

وقد أعلن رئيس هذه اللجنة الجنرال بيرنز أنه يضع فى تقديره هذا القرار العاشر من طرف واحد ، وأصدر الى مراقبى الامم المتحدة الخمسة أمرا بالبقاء فى مراكزهم ، فأخطرت اسرائيـل هؤلاء المراقبين بأنه لن يسـمح لهم بالعودة الى المنطقة المشار اليها اذا تركوها •

وفى ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وقعت بعض الاحـداث الاخرى التى تستحق أن نذكرها ، اذ قطعت المملكة العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى وفرنسا ، التى لم ترفع صوتها منذ مدة طويلة • ثم أن فوستر دالاس استأنف اشرافه الفعلى على وزارة الخارجية الأمريكية وهو راقد فوق سريره فى المستشفى • وأخـيرا أعيـد انتخاب دوايت ايزنهـاور رئيسا للولايات المتحدة الامريكية •

الفصل السابع عشر

المكاسب

وفي صباح يوم ٧ نوفمبر تقدمت من مدخل بور سعيد سفينتان تقلان كبار ضباط أركان حرب القوات البريطانية والفرنسية ، وهاتان السفينتان هما تين وجوستاف زيديه · ونزل هؤلاء الضباط في المناطق التي سبق أن احتلتها قواتهم في بور سعيد وبور فؤاد ، كل في مكانه الخاص به · ثم استأنفت السفينة جوستاف زيديه سيرهابرغم أن الاميرال بارجو كان لا يزال يخشى وجود غواصات سوفييتية · ومن ثم وجدت القيادة الفرنسية نفسها على الساحل من غير أن تكون هناك أماكن تأويها ، وبلا خطوط قوية تربطها بقاعدتها في قبرص ·

على أن المشكلة الهامة التي برزت أمام القيادتين كانت وقف سيل المؤن والمعدات والرجال الذي أعلن قرب وصوله ، لتعذر تفريغ السفن في هذه الظروف· والواقع أن هذه العملية كان ينبغيأن تستمر لمدة خمسةعشر يوما وعلى عدة مراحل · ولكن هذه المعدات الهامة لم يكن من الممكن الانتفاع بها والحال تلك فضلا عن ضيق رقعة الارض المحتلة ·

وبدىء في تقسيم المناطق المحتلة ، فاحتل الفرنسيون بور فؤاد وقطعة أرض صغيرة على الضفة الغربية للقناة من ناحية الكاب · أما البريطانيون فقد

احتلوا ما تبقى ، أى بور سعيد والجميـل والمواقع الامامية الواقعة جنوبى رأس الجسر على ضفة القناة • وقد أخذوا المعدات وبعثروا السيارات هنا وهناك خوفا من وقوع هجوم جوى طارىء ، وارسلت قيادة القوة (أ) تطلب مدافع مضـادة للطائرات من فرنسا فقوبل طلبها بالرفض •

واتخذت الترتيبات بعد ذلك بحيث يتم الاحتفاظ على الساحل بالحد الادنى من الوحدات • أما عملية الشحن فقد نفذت طبقا لخطة موضوعة ، وأرسلت السفن الى مصر على وجه السرعة • وكانت هذه الخطـة تقضى بانزال العربات المصفحة الى الساحل ، ولكن جنودها ظلو فى الباخرة « باستير » التى أقلعت من فرنسا الى الجزائر • وعلى العكس أنزلت الفرقة المدرعة الثامنة جنودها على الساحل ومعهم عدد قليل من المصفحات ، فى حين ظلت بقية مهمات الفرقة على السفن فى البحر . وفى ١٥ نوفمبر أصبح للفرنسيين فى البر ٨٠٠٠ جندى و ٢٢٠٠ سيارة و ٣٥٠٠ طن من المواد الغذائية •

عمليه حكمت المحكمة :

رأت هيئة أركان الحرب أن عليها أن تكون مسـتعدة للرد على أى هجـوم طارىء ، لذلك عقد بعد يومين من وقف اطلاق النار ـ ٩ نوفمبر ـ مؤتمـر فى بور فؤاد لوضع الخطوط العريضة لخطة هجومية • واتضحت معالم الخطة فى المؤتمر الذى عقد فى قبرص يوم ١٢ نوفمبر ، وأخذت شكلها النهائى يوم ١٤ نوفمبر تحت اسم عملية « حكمت المحكمة » •

كانت الفكرة الاسـاسية لهذه الخطة هى التقـدم صوب الاسماعيلية وأبو صوير ثم نحو السويس مع الاحتفاظ بعد الاسماعيلية بقوة مصفحة تتجـه الى القاهرة • وكانت الامدادات الفرنسية تتكون من كتيبة من جنود المظـلات ومن فرقة ميكانيكية وعربات ، بالاضافة الى الاحتياطى من الذخائر والوقود •

كل هذه الاحتياطات كان يقابلها فى التخطيط العملي تدفق الجنود والمعدات طوال الايام التى أعقبت وقف اطلاق النار • وقد أثارت هذه التحركات شكوكا فى المجال الدولى • وأصبح الاعتقاد السائد أن الحلفاء يعدون قواتهم ـ تحت ستار وقف اطلاق النار ـ لاحتلال بقية منطقة القناة ، وكانت الظروف ملائمة جدا هذه المرة بعد أن تحسنت العلاقات الانجليزية الامريكية منذ ٧ نوفمبر •

والواقع أن الحكومة البريطانية قررت بعد ظهر يوم ٦ نوفمبر أن تبذل قصارى جهدها لاعادة الروابط الودية مع أمريكا ، وهل كان هناك لتحقيق هذا الغرض أفضل من عقد اجتماع ودى على مستوى القمة ؟ ومن أجل ذلك اتصل ايدن تليفونيا يوم ٧ نوفمبر وقت الغداء بأيزنهاور واقترح عليه أن يجتمع به فى واشنطن ومعه جى موليه ، فأجاب أيزنهاور : بالتأكيد ، احضر وقتما تريد ! كان ايدن يريد أن تتم المقابلة بسرعة فاقترح أن تكون فى اليوم التالى ، فوافق رئيس الحكومة الامريكية وهو مذهول • فأبرق ايدن بسرعة الى جى موليه ليبلغه بهذا النبأ السار ، وفى الحال صدرت الاوامر فى لندن وباريس لاعداد الطائرات لهذه الرحلة العاجلة •

على أن هذا الاجتماع لم يكن موضع ترحيب من جميع الاطراف ، وقد تدخلت وزارة الخارجية الامريكية بعد أن تبينت أن اجتماعا على مستوى القمة فى هذه الظروف يعنى أمام العالم كله أن هناك اتفاقا كاملا بين الحلفاء الثلاثة حول سياستهم فى الشرق الأوسط ، وبمعنى آخر يدل هذا الاجتماع على أن الولايات المتحدة تؤيد السياسة الفرنسية والبريطانية فى الشرق الاوسط ، وهى السياسة التى لم تتغير على الرغم من وقف اطلاق النار •

ولم يكن فى نية الفرنسيين والبريطانيين أن يتركوا رأس الجسر فى بور سعيد من غير أن يستغلوا المكاسب التى حصلوا عليها الى أقصى حد ، أى من غير الحصول على الفوائد أو الضمانات التى يريدونها • وقد صدرت من لندن الى الجنرال كيتلى تعليمات صريحة بهذا المعنى فى ٩ نوفمبر •

ولكن وزارة الخارجية الامريكية كان لديها سبب آخر ـ ربما أخطر ـ للاعتراض على مقابلة سابقة لاوانها بين ايدن ومولية ورئيس الحكومة الامريكية • كانت الوزارة لا تريد أن يشاع أن الولايات المتحدة توافق على حملة السويس ، ولكن روبرت مورفى هو الذى أشاع هذا الخبر ، ولقد كتب : « هناك كثيرون فى الاتحاد السوفييتى وفى دول أخرى يعتقدون أن الولايات المتحدة كان لها ضلع كبير فى المغامرة العسكرية الفرنسية البريطانية ، وكانوا يتلهفون على وصمها بالهزيمة » •

وأمام هذه الشائعات التى يصعب تكذيبها ـ لوجود وقائع رسمية كتساهل الاسطول السادس تجاه الاوامر التى أصدرتها لندن وباريس بعدم التجول فى البحر المتوسط ـ أرادت وزارة الخارجية الامريكية أن تتخلص بأى ثمن من أى تقارب ظاهر مع المقهورين المغلوبين على أمرهم •

وبناء على تدخل وزارة الخارجية فان الرئيس الامريكى بعد أن قال لايدن « بالتأكيد ، احضر وقتما تريد » طلبه ليقول له كما ذكر ايدن : « انه يرغب فى أن يوضح لى هل سفرى لن يكون فقط لمناقشة القرارات التى تبحث فى الوقت الحاضر فى الامم المتحدة ، فأجبته بالطبع لا ، مع أنى كنت أجهل مضمون هذه القرارات فى هذا الوقت » •

ولقد سر الرئيس الامريكى لهذه الاجابة لانه كما قال لايدن : « من المؤلم أن نتناقش فى هذه القرارات وأن نكون مختلفين بشأنها » •

وبعد فترة اتصل أيزنهاور بايدن تليفونيا ليبلغه بانه سيكون مشغولا فى الايام القادمة بسبب المشاورات التى ستدور مع زعماء الكونجرس ، وأنه يفضل تأجيل الزيارة ـ التى لا يمانع فيها ـ الى تاريخ بعيد •

وفى المساء أرسل ايدن الى الرئيس الامريكى برقية يؤكد فيها أنه يتمنى مقابلته قريبا ويبلغه بأن هدف المحادثات يجب أن يكون محاولة وضع سياسة مشتركة • وقد رد عليه موافقا على أن تتم المقابلة فى أقرب فرصة بحيث تكون قرارات الامم المتحدة قد حازت لديه الرضا من قبل • وقد قال ايدن : « لقد طلبت منا الولايات المتحدة أن نتخلى عن المكاسب التى حصلنا عليها قبل أن يوافقوا على أن يناقشوا معنا مسألة انتهاج سياسة مشتركةفى الشرق الاوسط » .

الضغط فى الامم المتحدة :

وفى الأمم المتحدة استأنفت المجموعة الافرو أسيوية هجومها وحصلتعلى ٦٥ صوتا (منها صوت الولايات المتحدة) ضد صوت واحد (اسرائيل) وامتناع كثير عن التصويت ، وكانت ثمة رغبة فى الحصول على قرار يتضمن المطالبة بانسحاب القوات البريطانية والفرنسية من مصر فورا • ثم اتخذ قرارا بتكوين قوة بوليس تابعة للأمم المتحدة • وفى هذه المرة صوتت بريطانيا وفرنسا لصالح هذا القرار ، فى حين امتنع عن التصويت الاتحاد السوفييتى واسرائيل ومصر واتحاد جنوب أفريقيا • وبعد انتهاء الجلسة مباشرة اجتمع السكرتير العام بالمجلس الاستشارى المكلف بتشكيل قوة البوليس الدولى • ومع ذلك فان لندن فسرت القرار الخاص بطلب انسحاب الفرنسيين والبريطانيين بأنه لم يحدد مهلة معينة ، اذ أن هذا القرار يطلب انسحاب القوات طبقا لقرارات الامم المتحدة المقدمة دون تحديد مدة • ولذلك اعتبرت لندن أن ذلك يعنى أن على الفرنسيين والبريطانيين أن يسحبوا قواتهم ولكن ليس فى تاريخ معين •

وكانت اسرائيل على علم بهذه المناقشات فبادرت الى العمل ولكن بطريقة غير لبقة ، وذلك حينما أعلن بن جوريون فى اليوم السابق رفض الجلاء عن سيناء وقد بعث الرئيس أيزنهاور برسالة لرئيس حكومة اسرائيل يطلب منه فيها انسحاب قواته عن سيناء ، وكانت غلطة بن جوريون نتيجة لخطأ فى تحليل الموقف ، وهذا الخطأ اقترفه كثير من الاسرائيليين فى هذا الوقت • لقد كان بن

جوريون مقتنعا بأن معركة سينـاء قد عززت مركز اسرائيـل فى العـالم وكان يتصرف تبعا لهذا الافتراض ، ويرفض أن يجد فيها ما يبرر تصويت تسعة أعشار الامم المتحدة ضد بلده ، وكان فى حـاجة لان يقنع نفســه بذلك بأى ثمن وأن يتعامى عن الحقائق حتى يستطيع محاولة فرض شروطه ٠

ولكن فيما بعد اتضحت الامور وعرف بن جوريون أن النتيجة الاولى لحرب سيناء بالنسبة لاسرائيل هو جعل العالم كله تقريبا ضدها ٠

باريس تخرج عن صمتها :

وفى باريس ناقشت الجمعية الوطنية حملة السويس فى جلســة صاخبة ، وكانت هنــاك أسباب تجعل جى موليه يخشى أى انتقـاد للطريقـة التى عالج بها الاعـداد لهذه الحملة ٠ وكان يخشى بصفة خاصة الهجوم الذى ســيقوم به جاك سوستيل والذى سيصعب فى هذه المرة الرد عليه ، لان سوستيل كان يعلم كل خبايا المسألة ، وقد بدأ يتحدث فعلا عن « فشل الحملة » ٠

ولكن جعبة جى موليه كانتمليئة بالألاعيب، ففى حين كانتالجمعية الوطنية تستعد لتوجيه اتهامات لرئيس الوزراء وجدت نفسها أمام استنكار شديد تجاه الاتحاد السوفييتى « سفاح الشعب المجرى » ولكنه حتى ذلك الوقت لم يكن ألم الفرنسيين على المجريين التعساء يتجاوز العبارات المليئـة بالرثاء ، ولـكن بدت مظاهرات مفاجئة فى كل مكان كما لو كانت قد أعطيت لها اشارة معينة ٠ لقد بدأت هذه المظاهرات فى وقت واحد فى باريس وفى مختلف مدن المقاطعات ، ولم تكن مظاهرات موجهـة ضد المراكز الدبلوماسيـة السوفييتية ـ مثلمـا حـدث فى موسكو فى اليومين السابقين حين قامت مظاهرات ضد سفارات بريطانيـا وفرنسـا واسرائيل ـ ولـكن كانت موجهـة ضــد مراكز المنظمـات التابعـة للحزب الشـيوعى الفرنسى ٠ كان لذلك ميزة لأنهـا وضعت على كاهل الحزب الشيوعى الفرنسى مسئولية اجتياح الجيش السوفييتى للمجر ، ونهب المتظاهرون

مقر الحزب الشيوعى الفرنسى ووقعت حوادث فى الاقاليم ، وان تكن الحوادث التى وقعت فى باريس أكثر عنفا وبخاصة تلك التى وقعت فى ميدان شاتودان وأمام مبنى جريدة الاومانيتيه ، وقد أسفرت هذه الحوادث عن بعض القتلى • وتعرف بعض الصحفيين المطلعين الذين تتبعوا عن كثب المظاهرات على الـذين تزعموها وفيهم مفتشون عموميون فى المخابرات وفى تنظيم حوادث الشغب• كانوا يشغلون من قبل مناصب فى الحزب الشـيوعى الفرنسى ، ثم انتقلوا الى الحركة العمالية الفرنسية الدولية • على أن الجمهور ــ الذى كانت تفحص صوره بدقة غداة كل يوم من أيام المظاهرات ــ كان يضم عددا من الاشتراكيين وأنصار الحركة العمالية كما كان يضم بصفة خاصة عددا كبيرا من جنود المظلات السابقين الذين ارتدوا ملابسهم الرسمية من أجل هذه المناسبة وثاروا من الاهانات التى لحقت بهم من قبل باشعال النيران فى مبنى صحيفة الاومانيتيه وفى الكتب الماركسية • لقد أثار انتباه رئيس الوزراء فى اليوم التالى أنه اكتشف محاولات قام بها البعض لاقحام المحاربين القدماء فى المظاهرات لاسباب سياسية ، وكان هدفهم من ذلك اسقاط حكومة جى موليه ، لانه رجل يجب القضاء عليه •

وبسرعة قضى على هذه المظاهرات ، كما سـحق هجوم سوستيل وهو فى مهده • ولكن اظهار العداء للاتحاد السوفييتى استمر ليكون وسيلة لكسب ود الولايات المتحدة • والواقع أنه منذ ٨ نوفمبر بدأتحملة فرنسية بريطانية هدفها استنكار التدخل السوفييتى فى الشرق الاوسط وذلك باعلان اكتشاف مخازن ضخمة للاسلحة فى سيناء ، وقد تطوع الاسرائيليون بعمل كشوف بهذه الاسلحة فى باريس • واذا كان هـؤلاء قد استولوا فى خـلال حملة سيناء على كميـات كبيرة من المعدات فان الخيال لعب دورا كبيرا فى المقالات التى كانت تظهر فجأة ثم تختفى فجـأة فى الصحف الفرنسيـة متحدثة عن اكتشاف أسلحة سوفييتية غريبة وسرية مدفونة تحت الرمال الساخنة تحت حراسة جنود أمبين • كمـا

قالت أنه اكتشفت فى سيناء مليون بطانية ومعدات خاصة بالقطب الشمالى ٠ ونشرت الصحف فى صفحاتها الاولى أنباء عن الطائرات السوفييتية المرسلة الى سوريا ٠

ولكن هذه الأنبــاء المختلفـة التى تهدف الى اثارة الخواطر ضــد التدخل السوفييتى فى الشرق الاوسط ارتد أثرها الى نحور الذين اختلقوها ٠ فقد ذكر ايدن فى مذكراته أنه على أثر انتشــار الشائعات بتغلغل السوفييت فى الشرق الأوسط « طالبتنا الولايات المتحدة بالاسراع فى سحب قواتنا من هناك بسرعة أكثر » ٠ وهكذا تبخرت قصص الاســلحة السوفييتية والبطانيات المدفونة فى الرمال ، وقصص الغواصات السوفييتية التى تجوب البحر المتوسط ٠

القوات الدولية :

ومن جانب آخر كانت القوة الدولية يجرى تنظيمها باشراف الجنرال الكندى بيرنز ، وفى اسرائيل أجاب بن جوريون على الرسالة التى بعث بها اليه الرئيس ايزنهاور طالبا منه فيها سحب القوات الاسرائيلية فى سيناء بقوله أنه مستعـد لسحب قواته بشرط أن تكون هناك تعديلات مرضية باشراف الأمم المتحدة ٠ ولم يحدد بن جوريون هذه التعديلات ، مما جعل ايزنهاور يمتنع عن مواصلة الكتابة له لأن استمرارها يعنى أنه قبل رغبة رئيس حكومة اسرائيل فى فرض شروطه ٠

وفى ٩ نوفمبر وصل الجنرال بيرنز قائد القوات الدولية الى القاهرة واستقبله الرئيس جمال عبد الناصر كما استقبل السفير السوفييتى كيسيليف وريموند هير سفير الولايات المتحــدة ٠ وفى المســاء تكلم الرئيس عبد الناصر بالراديو عن الاحداث الاخيرة ، وامتــدح أيزنهاور والماريشال بولجانين اللذين أنذرا مجرمى الحرب من الفرنسيين والبريطانيين ووضعا حدا لعدوانهم ٠

كما وجه الشكر للأمم المتحدة التى بسطت حمايتهـا على الشـعب المصرى الأعزل •

وفى هذا اليوم أعلنت العراق قطع علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا ـ فقط مع فرنسا ـ والاهم من ذلك أن شركة البترول أرامكو أعلنت أنها بناء على طلب المملكة العربية السعودية ستوقف بيع البترول لبريطانيا وفرنسا الى أن تنسحب جيوشهما من منطقة قناة السويس •

هل كان الروس على علم بالتعليمات التى أعطاها ايدن للجنرال كيتلى يوم ٩ نوفمبر ويخطره فيها بأن الفرنسيين والبريطانيين ينوون الاحتفاظ بمكاسبهم فى بور سعيد ؟

هذا ما لم يعرفه أحد بعد ، ولكن الذى حدث هو أن وكالة تاس نشرت فى اليوم التالى تصريحا رسميا جاء فيـه أنه : اذا لم تنسحب القوات البريطانيـة والفرنسـية والاسرائيلية من الاراضى المصرية ـ بنـاء على قرارات هيئة الامم المتحدة ـ واستمرت فى المماطلة بقصد الامتناع عن تنفيـذ هذه القرارات فـان السلطات السوفييتية المختصـة لن تعارض فى سـفر المتطوعين السوفييت الى مصر • وفى اليوم التالى ـ يوم ١١ نوفمبر ـ أعلنت الصين أنها لا تمنع سـفر المتطوعين الصينيين الى مصر •

ولما لم يؤد هذا الضغط الى نتيجة أعلنت السفارة المصرية فى موسكو يوم ١٢ نوفمبر أن خمسين ألفـا من جنـود احتياطى الجيش السوفييتى قد تقدموا بطلباتهم كمتطوعين للحـرب فى مصر ، ونشرت صحف موسـكو أن المتـطوعين يتألفون من قواد الدبابات والطيارين •

لم تكن التهديدات السوفييتية والصينية وسيلة للضـغط على الامريكيين أو على الفرنسيين والاسرائيليين والبريطانيين فحسب ولكنها كانت تهدف ايضا الى اعطاء المصريين فرصة للمساومة فى مباحثاتهم مع الامم المتحدة مقابل تنازلهم

عن طلب المتطوعين السوفييت • وكان المصريون يتباحثون فى الواقع حينئذ بشأن دخول قوات الامم المتحدة أراضيهم ، وكانوا يريدون أن يكونوا سادة فى بلادهم ويحددوا بأنفسهم المناطق التى ستنزل فيها القوات الدولية وتاريخ جلائهم عن أراضيهم • وكان الاتحاد السوفييتى يرغب كذلك فى ابداء رأيه الذى يعارض مبدأ انشاء قوات تابعة للأمم المتحدة ، وكان يقترع ضد هذا المبدأ كلما أتيحت له الفرصة أو يمتنع عن التصويت لان موافقته تعنى فى رأيه أنها تضع فى خدمة الرأسمالية الدولية بوليسا ضد كل الحكومات الصغيرة التى ترغب فى الخروج عن وصاية هذه الدولة أو تلك •

وفى ١٢ نوفمبر أعلن فى القاهرة بيان رسمى بشأن توقيع اتفاق بين مصر والامم المتحدة يتعلق بدخول قوات الامم المتحدة الاراضى المصرية ولم يتناول البيان التفصيلات ، ولكن أعلن بطريقة شبه رسمية أن قوات البوليس الدولى لن يكون لها أية مهمة فى بور سعيد أو فى منطقة القناة بعد انسحاب الوحدات الفرنسية والبريطانية التى يجب أن تجلو عن مصر بسرعة • كانت هذه هى النقطة الاساسية ، اذ أن الاحتفاظ بقوات الامم المتحدة يعنى استبدال ضمانات دولية بالضمانات الفرنسية البريطانية • وكان نشاط قوات البوليس الدولى محدودا فى خط الهدنة بين اسرائيل ومصر وهو الخط الذى وضع بعد حرب فلسطين ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وكانت موافقة مصر ضروريه بالنسبة لاختيار الدول التى سترسل وحداتها ، كما أنه كان مفهوما أنه اذا قررت مصر سحب موافقتها فان قوات البوليس الدولى تجلو فورا •

تقارب أطلنطى :

فى هذا الوقت بذلت واشنطن جهدا وضحا للتقرب من بريطانيا ، وقد وضع أيزنهاور الامور فى نصابهافى الرسائل التى بعث بها الى ايدن يومى ٦ و ٧ نوفمبر وأعرب عن أمله فى أن تجلو القوات الفرنسية والبريطانية عن الاراضى المصرية

طبقا لقرارات الامم المتحدة ٠ وكان الرئيس الامريكي واثقا ـ بعد المحادثات التليفونية الودية مع ايدن ـ من أن البريطانيين سيعملون على التوفيق بين سياستهم وبين هذه القرارات ٠ ومنذ ذلك الوقت كان من المناسب لامريكا أن تدبر أمرها مع بريطانيا ، ولهذا فان سياسة أمريكا فى هذه الايام كانت تهدف الى التستر بقدر المستطاع خلف العمل الشخصى للسكرتير العام للامم المتحدة الذى كانت تدفعه للامام بقدر ما تستطيع وتسانده بطريقة مستترة ، وكان مشروع القرار الذى تقدمت به الولايات المتحدة يوم ١٠ نوفمبر محاولة للتوفيق ٠

ولكن هذه المحاولة فشلت لأن مصر رفضت أن تناقش أى حل مهما يكن نوعه ما لم تنسحب القوات الاجنبيه من الاراضى المصرية ٠ وفى هذه الظروف لم يكن من الممكن اجراء أى تعديل ، وكانت وحدات الامم المتحدة قد أجلت سفرها مرتين الى مصر ٠

ولما وصلت فى ١٥ نوفمبر الى الاسماعيلية ، وضعت نفسها تحت مراقبة البوليس المصرى ٠

ومن ناحية أخرى بذلت الولايات المتحدة جهدها لصالح حلفائها ٠ ففى ١٣ نوفمبر رد الجنرال جروينتر قائد قوات حلف شمال الاطلنطى ـ بعد ثمانية أيام ـ على تهديدات بولجانين التىصدرت يوم ٥ نوفمبر بأنالاتحاد السوفييتى سيتعرض للضرب بالقنابل الذرية اذا بدأ فى القاء القنابل الذرية على دول الاطلنطى !

وقد بعثأيزنهاور برسالة الى جى موليه يوم١٢ نوفمبر ،كما أعلن احتجاجه يوم ١٤ نوفمبر على التهديد الرسمى بارسال متطوعين الى مصر ٠ ولكن هذه الحركة بدلا من أن تحث الحلفاء على الجلاء جعلتهم يفسرون الموقف الامريكى بأنه ضعف ظاهر ، بل فسروه بأنه يعنى الرغبة فى مشاركتهم فى المسئولية ، وحاولوا الاستفادة منه الى أقصى حد ٠

وضغط المصريون من جانبهم على الولايات المتحدة ليضعوا حدا لبيـاناتهم العدائية وبدأوا حملة دعائية يفهم منها أن المحتلين سيتعرضون لاعمال وحشية فى بور سعيد وبور فؤاد • وقد نشروا فيلما صور خصيصا حول هذا الموضـوع ، ووزعوا هـذا الفيلم على مراسلى الصحف الامريكيـين وعلى السكرتير العام للأمم المتحدة أيضا •

ولكن فى يوم ١٣ نوفمبر أبلغت بريطانيا وفرنسـا واسرائيل السـكرتير العام للامم المتحدة أنها تضع شروطا لسحب قواتها ، أى أنهـا ترفض الخضـوع لقرارات الامم المتحدة ، وهكذا تأزمت الامور مرة أخرى •

وفكر المسئولون فى باريس ولندن فى استئناف الحرب ، ولكنهم كانوا فى حاجة الى البترول • وهـذا يعنى أنه يجب عليهـم التصرف بسرعة مستخدمين المخزون من الوقود الموجود ، وأصبحت تبعية الدولتين للولايات المتحـدة تزداد يوما بعد يوم بسبب حاجتهما للوقود •

التهديد بالبترول :

كانت الولايات المتحدة مشغولة حينئذ بمسألة تزويد أوروبا بالبترول ، ولكن فى الوقت الذى أعطت فيه ضمانات للدول الاوروبية مثل ألمانيا وايطاليـا بامدادها بما يلزمها منه منعته عن فرنسا وبريطانيا اللتين قامت بابلاغهما سرا بأنها لن ترسل اليهمـا الكميات الاضافيـة من البترول حتى يجلوا عن قنـاة السويس ، وقد سمى جى موليه رئيس الحكومة الفرنسية هذا بتهديد البترول •

ولمقاومة هذا التهديد كان ينبغى على الدولتين أن يقنعا بما لديهما من مدخر البترول ، ولكن رؤى أن تحديده فى فرنسا ــ بعد أن سكر الشعب بخمر الامانى ــ سيؤدى الى سقوط الحكومة • ومن ثم اتخذت اجراءات تدريجية • ففى ٨ نوفمبر نشرت الجريدة الرسمية قرارا لمحاولة تنظيم أو تحديد « سير السـيارات » وفى ١٠ نوفمبر اتخذت عدة قرارات هدفها تقليل استهلاك المنتجات البترولية •

وفى ١١ نوفمبر صدر قرار بتغيير نوع وقود السيارات •

وفى ١٤ نوفمبر أعلن أنه رغبة فى تخفيض استهلاك زيت الوقود فستوقف حركة بعض القطارات ابتداء من ١٩ نوفمبر وستتخذ اجراءات أخرى تزيد من هذا الحد ، وقررت الحكومة أن تطبع بطاقات لتوزيع الوقود •

وفى بريطانيا حيث كانت الحكومة أقوى من حكومة جى موليه ، تقرر توزيع الوقود بالبطاقات من يوم ٢٠ نوفمبر •

ضغط سوفييتى :

وفى ١٥ نوفمبر بعث الماريشال بولجانين برسالة الى جى موليه كانت بمثابة ضغط جديد للجلاء عن مصر • وقد أوضح فى رسالته أن الحكومة السوفييتية تقبلت بالرضاء نبأ وقف اطلاق النار فى مصر ، ولكنها تصر على ضرورة انسحاب القوات الفرنسية والانجليزية والاسرائيلية من الاراضى المصرية من غير أى تأخير .

ومن ناحية أخرى أعلن الماريشال بولجانين أن مصر قد تعرضت لخسائر جسيمة من جراء التدخل السياسى ، وأنه يجب منحها تعويضات مناسبة • وأخيرا أعلن رئيس الحكومة السوفييتية أنه يجب ألا تبقى القوات الدولية فى منطقة القناة لأن ذلك يتعارض مع اتفاقية القسطنطينية •

وفى اليوم نفسه بعث الماريشال بولجانين برسالة مماثلة الى ايدن •

كذلك اعلنت مصر تنازلها عن المتطوعين السوفييت لأنها لم تعد فى حاجة اليهم على أساس أن الامم المتحدة قبلت وجهة نظرها ، وهو عدم احلال ضمان دولى بدلا من الضمان البريطانى الفرنسى •

ولكن الاتحاد السوفييتى استمر فى ضغطه حتى أنه فى ١٧ نوفمبر استنكر خروشوف خلال حفل أقيم بقاعة سان جورج بالكريملين احتفالا بالزعماء

البولنديين عملية النهب التى قام بها البريطانيون والفرنسيون فى مصر ، وقد غادر سفراء مجموعة دول حلف شمال الاطلنطى القاعة بعد انتهاء خطاب خروشوف. وفى اليوم التالى استأنف خروشوف خلال الحفل الذى أقامته سفارة بولندا هجومه من جديد على الدول الغربية ، وغادر سفراء دول حلف شمال الاطلنطى الحفل أيضا ، وكان هذا هو كل تضامن أعضاء هذا الحلف .

ومن ناحية أخرى تلقى بن جوريون من بولجانين طلبا بتعويض مصر ، ورد عليه رئيس وزراء اسرائيل يوم ١٨ نوفمبر ، فقد كان يستطيع التمهل فى الرد أكثر مما فعل الفرنسيون والبريطانيون لانه يعلم أن المشكلات القائمة بين مصر واسرائيل لن تتحسن فى حين أن الدولتين الاخريين مضطرتان الى التفكير فى اليوم الذى ينبغى أن تمر فيه سفنهما فى القناة من جديد ، ويجب عليهما اذن أن تستعدا لتعويض مصر . وكان رد بن جوريون على بولجانين أن من رأيه أن اسرائيل هى التى يجب أن تتلقى تعويضا من المصريين وليس العكس .

وفى التاريخ نفسه بعثت احدى عشرة دولة برسالة الى السكرتير العام للامم المتحدة تطلب منه فيها انسحاب القوات الاسرائيلية وراء خط الهدنة الاسرائيلى المصرى فورا ، كما استنكرت الاعمال الوحشية التى يتعرض لها اللاجئون العرب فى منطقة غزة على أيدى الاسرائيليين .

زيارة لواشنطن :

اذا كانت الولايات المتحدة قد تصورت يوما ما أن الحكومة الانجليزية كانت ترغب فى أن تنظم سياستها فى الشرق الاوسط وفق سياستها فان هذا الوهم ما لبث أن تبدد خلال زيارة سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية لواشنطن ، وذلك فى منتصف نوفمبر . وقد قال ايدن ان لويد كلف بأن يشرح للامريكيين أن وجود بور سعيد فى أيدى الفرنسيين والبريطانيين وسيناء فى أيدى الاسرائيليين ضمان هام يسمح لهم بالتفاوض مع مصر ، وأن الجلاء عن بور سعيد وسيناء

مستحيل • (ماذا ؟ أهو تواطؤ ؟) قبل أن تتحقق من ازالة الرمال والعقبات التى ألقيت فى القناة وقبل البدء فى تنظيم عام لمشكلات هذه المنطقة •

وقد كلف لويد أيضا بأن يلفت نظر الامريكيين الى مشروعات السوفييت بشأن التغلغل فى الشرق الاوسط •

وقال ايدن ان لويد لم يحصل من الامريكيين على أى رد فى صالحنا ، وكانت اجاباتهم كلها تنطوى على استنكار عملياتنا فى مصر والتأكيد بأن أية محاولة للتفاهم مستحيلة قبل انسحاب قواتنا ، ورفض المسئولون الامريكيون التعاون معنا فى أى مجال من المجالات •

بل ذهب الامريكيون الى أبعد من ذلك ، فعقب المحادثات الخاصة التى جرت مع لويد فى نيويورك رفضوا استقباله رسميا فى واشنطن كوزير للخارجية • كما أجل الرئيس أيزنهاور لاجل غير مسمى اجتماعه بايدن وموليه • ورفضت واشنطن أيضا أن تستقبل رسميا وزيرا رسميا يحمل رسالة من رئيس وزراء استراليا • ورفضت الحكومة الامريكية بكل تصميم بصفة خاصة أن تمد فرنسا وبريطانيا بالبترول قبل الجلاء عن مصر •

الفرصة الاخيرة :

أثرت هذه الاخبار تأثيرا سيئا على أنصار أسلوب استعمال القوة مع مصر، وأصبح من المحتوم عليهم أن يخضعوا للضغط الاقتصادى ، مدركين أن الزمن يلعب دوره ضدهم •

وكانت فرصتهم الوحيدة هى الزحف من جديد الى الامام فى هجوم خاطف يتيح لهم ـ كما كانوا يأملون ـ اسقاط عبد الناصر قبل أن يتاح الوقت الكافى للاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة للتدخل •

ولكن هل كان فى امكان هاتين الدولتين القيام بذلك ؟

لقد تغير الموقف منذ يوم ٧ نوفمبر بعدأن أعلن الاتحـــاد السوفييتى أنه سيتدخل بارسال متطوعين ، وأكد الرئيس أيزنهاور أنه سيعارض هذا التدخل . لذلك فقد كان المتوقع أن يؤدى ذلك الهجـوم الخاطف فى ميـدان مصر المقفل الى تصادم الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ٠ وكان من المحتم على أيزنهاور ــ لو حدث هذا الهجوم ــ اما أن يتراجع فى موقفه واما أن يعارض تدخل الاتحــــاد السوفييتى ، أى أن يقف فى صف الفرنسيين والبريطانيين والاسرائيليين ٠

والواقع أنه حدث فيما بين ١٥ و ١٨ نوفمبر غليان شديد جديد فى باريس ولندن ، وطارت الاوامر من لندن الى قبرص حيث أبلغ الجنرال استكويل أنه قد يتلقى تعليمات فى خلال فترة قصيرة حوالى يوم ٢٤ نوفمبر بأن يستأنف الهجوم على مصر ، وبعد ذلك ببضعة أيام عاد الجنرال جازان رئيس هيئـة أركان حرب الجنرال بارجو الى باريس حيث تلقى تعليمات مشابهة ٠ وقد أرسلت هذه الاوامر الى بور سعيد وبور فؤاد حيث تلقاها الفرنسيون بسرور بالغ ٠ وأعدت الترتيبات لمعركة مصر فى حماس ٠

وكانت الخطة التى أعدت تقضى بأن تقوم بالهجوم المبدئى خمســون دبابة بريطانية تساندها كتيبة وخمسون دبابة فرنسية وأربع فرق من جنود المظلات ، ولكن لن يتم الزحف الى بعد أن تصل للبريطانيين الـكتيبة العـاشرة المدرعة الموجودة فى ليبيا ٠ فبوصولها تصبح لدى القوات المهاجمة الوسائل اللازمة التى تتيح لها فرصة التقدم نحو القـاهرة ٠ ومع ذلك فان هـذه الخطـة لم تتضمن ترتيبات صريحة للهجوم على القاهرة ٠ واذا كانت قد خصصت مائة دبابة لمواجهة العاصمة المصريه ، فذلك فقط لمقاومة أى هجوم طارىء للكتيبــة المصرية المدرعة التى تحمى المدينة ٠

وكان المتوقع هبوط كتيبة مظلات فرنسية فى منطقة السويس ، فى حين كانت خطة توريادور الاولى تهدف الى الهجوم على السويس بواسطة كتيبة فرنسية تأتى من مدغشقر وتنزل فى بور توفيق ٠

كان كل شيء قد أعد من قبل : مواقع انزال الجنود فى القناة ، وهيكل الجسر الذى بدىء فى تركيبه ، حتى مناطق الاحتلال حددت ، وتم الاتفاق على أن يحتل الفرنسيون بور فؤاد والقنطرة والاسماعيلية وأن يحتل البريطانيون بور سعيد وأبو صوير وفايد والسويس ٠

ولكن البعض فى لندن وجد أن المسألة قد تجاوزت الحدود ، وكان هـؤلاء هم أنفسهم الذين ساهموا فى اقرار وقف اطلاق النار من جانب ايدن٠ فقد لاحظوا أن ثمة أدلة واضحة على أن صحة رئيس الوزراء تعانى ارهاقا شـديدا ، وكان الدكتور ايفانز طبيب رئيس الوزراء مقتنعا بذلك ٠ وفى اليوم التالى حينما شعر ايدن بنشاط لمواجهة استئناف العمليات الحربية اتخذ قراره ولـكن فى صعوبة وأبلغهم بأنه مضطر للتخلى عن مهامه مؤقتا ٠ وبعث برسـالة الى موليـه لينبئه بذلك وتولى رينشارد بتلر أعمال رئيس الوزراء نيابة عنه ٠

ان كلمة « نيابة » لم تعد ملائمة ، لأن حكومة المحافظين التى أصبح بتـلر يتولى شئونها نيابة عن ايدن لم تكتف بانجاز المسائل العادية وانما وجدت نفسها مضطرة لانتهاج سياسة مضادة لسياسة رئيس الوزراء الاصلى ٠ وبدأت تتخلى عن سياسة القوة وفكرة الاحتفاظ بالمكاسب التى حصلت عليها ، وذلك رضوخا لأوامر الامم المتحدة ٠ لقد كانت باختصار حكومة تصفية !

ولم يكن من الممكن اتخاذ قرار سريع فى مثل هذه المسألة ٠ وهكذا بدأت فترة الوساطة ما بين ٢٢ نوفمبر و ٣ ديسمبر الذى صدر فيه الامر بالجلاء النهائى وفى خلال هذه الفترة كانت السياسة البريطانية الفرنسـية تهدف الى القيـام

بمعركة دبلوماسية للحصول على بعض المزايا مقابل الجلاء عن مصر ، وانقاذ ما يمكن انقاذه • ومنذ يوم ٢٢ نوفمبر استبعد كل افتراض باستئناف الاعمال العسكرية •

مناورات دبلوماسية :

وهكذا حين اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى اليوم نفسه لمناقشة تقريرين مقدمين من السكرتير العام العائد من مصر وأحدهما يتناول تشكيل القوة الدولية والآخر تطهير قناة السويس كانت فصول المسرحية قد تمت • وكان الفرنسيون والبريطانيون قد قرروا الانسحاب محاولين فى الوقت نفسه الاحتفاظ بكرامتهم على قدر الامكان وعدم الظهور بمظهر المغلوبين ، وانما تظاهروا بأنهم أعضاء مخلصون للأمم المتحدة ويحترمون قرار الاغلبية • وهذا يتضح من المذكرة التى قدمتها فرنسا وبريطانيا للسكرتير العام للامم المتحدة ردا على ما زعمناه أن ثمة مذكرة أرسلها هو اليهما • والواقع أنه لم تكن هناك مذكرة بل انذار يلزمهما ببدء عملية الجلاء فى الوقت نفسه الذى تصل فيه جنود القوات الدولية الى مصر • أما اللص الثالث وهو اسرائيل فقد بعثت أيضا بمذكرة الى السكرتير العام للامم المتحدة ، ولكنها كانت تراوغ ، اذ أوضحت أن القوات الاسرائيلية بدأت تنسحب وستواصل انسحابها ، ولكن بشرط الوصول الى اتفاقيات مع الامم المتحدة تؤمن سلامة اسرائيل •

واستمر الوفد الاسرائيلى يثير احدى النقاط التى كان بن جوريون قد عرض لها فى ٤ نوفمبر وهى : هل تعتبر مصر نفسها فى حالة سلام أو حرب مع اسرائيل ؟ وهذا السؤال فيه كثير من الخبث ، لانه اذا اعترف عبد الناصر بأنه فى حالة سلام مع اسرائيل فانه سيواجه سخط العرب ، واذا اعتبر نفسه فى حالة حرب فلن يكون من حقه طلب الجلاء عن بلاده عن طريق قرار دولى •

وقد أوضحت اسرائيل فى النهاية ـ فى خطاب أرسلته الى السكرتير العام للامم المتحدة يوم ٢١ نوفمبر ـ الشروط والتعديلات التى تريدها • فقد طلبت اتخاذ التدابير اللازمة التى تكفل حمايتها برا وبحرا وجوا من الاعمال العدوانيه • لكن اهتمام الامم المتحدة باسرائيل فى هذه الفترة كان أقل نسبيا ، لان الدول المعارضة للتدخل البريطانى الفرنسى الاسرائيلى كانت تعلم جيدا أنه بعد جلاء القوات البريطانية والفرنسية ستصبح اسرائيل منعزلة ، ولن تستطيع أن تصمد طويلا فى سيناء • لذلك فان الدول الافروأسيوية ركزت جهودها حول مشكلة الجلاء واقترعت لصالح قرار ينص على انشاء بوليس دولى مع التصريح للسكرتير العام بالاستمرار فى مباحثاته (مع مصر) فى هذا الموضوع . واعترضت الدول الشيوعية وحدها على هذا القرر الذى وافق عليه ٦٥ صوتا ضد تسعة أصوات •

ولكن بعد هذه التنازلات الشكلية من جانب دول الغرب عرضت الدول الافرو أسيوية على الجمعية العامة مشروع قرار يتضمن مناشدة الامم المتحدة من جديد العمل على تحقيق الجلاء عن مصر ، وأن يتم هذا الجلاء فورا • وحينئذ قدم سباك وزير خارجية بلجيكا تعديلا يهدف الى استبعاد ضرورة الجلاء العاجل ، وذلك يعنى الانحياز للبريطانيين والفرنسيين الذين كانوا يؤملون عدم الرحيل عن قناة السويس والاستمرار فى المفاوضات •

لكن التعديل الذى تقدم به سباك رفض ، وقد تحاشت الولايات المتحدة ظاهريا تأييده ، وكانت نتيجة الاقتراع ٣٧ صوتا بالرفض مقابل ٢٣ بالموافقة وامتناع ١٨ صوتا منها صوت الولايات المتحدة •

وأخيرا اقترع على الجلاء العاجل ، فنال ٦٣ صوتا ضد خمسة أصوات وامتناع ١٠ عن التصويت ، ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واسرائيل وبعض الدول الغربية أعلنت أنها تفسر كلمة « فورا » التى جاءت فى قرار الامم المتحدة

بأنها تعنى « عند وصول البوليس الدولى للمنطقة » • وقد وافقت الجمعية العامة على تقريرى السكرتير العام ، وصرحت له بالاستمرار فى المباحثات من أجل تطهير قناة السويس واعادة فتحها للملاحه •

وبعد الاقتراع الذى أجرى فى الامم المتحدة تحول مجرى الامور ، فقد تخلى الجميع ـ فيما عدا مجموعة قليلة من العسكريين الفرنسيين المحيطين بالجنرال جازان ـ عن فكرة استئناف المغامرة العسكرية • لكن المعركة استمرت على شكل انسحاب سياسى منتظم ، وذلك فى مجالين هما انشاء القوة الدولية ، وتطهير القناة •

وفى اليوم التالى للاقتراع الذى أجرى فى الامم المتحدة وصل الجنرال بيرنز رئيس القوة الدولية الى بور سعيد حيث تباحث فورا مع الجنرال ستوكويل • ولكن وصول بيرنز لم يقابل بحماس ، فقد لقى عداء مستترا من جانب البريطانيين وعداء صريحا من جانب الفرنسيين •

فى حيز مغلق :

كان لرد الفعل هذا تفسيره ، ففى بور سعيد كان ضباط أركان الحرب يعيشون فى عزلة ، ولم تكن تصلهم أية أخبار من وطنهم الا عن طريق النشرات الاذاعية والجرائد والخطابات التى تصل متأخرة وبأحاديث الذين يصلون من لندن وباريس والاوامر التى يتلقونها والتى لم تخل من التناقض . لقد ذهب البريطانيون الى الحرب ـ على أية حال غالبية ضباطهم ـ بعقلية المالك الذى يدخل بيته ويلاحظ أن سكان المنزل قد نالوا بعض الحريات فى غيابه ، وكان كثيرون منهم قد تركوا مصر قبل تأميم القناة بشهور قليلة • كان الموقف يبعث على الضيق ، وكان الضباط يتمنون أن ينتهى كل شىء فى الوقت المناسب حتى يتمكنوا من أكل ديك رومى فى عيد الميلاد فى بيوتهم • أما الفرنسيون ـ الذين كانوا يعيشون منفصلين ولا يتقابلون مع البريطانيين الا خلال المباحثات المشتركة أو الدعوات الجماعية أو

الفردية ــ فكان الجو بينهم مختلفا ، لقد اشتركوا فى الحرب بعقلية المتهيج مما جعلهم يسيئون فهم أمر وقف العمليات الحربية فى الوقت الذى كانوا يعتقدون فيه أن القاهرة أصبحت فى قبضة يدهم ، وكان احتمال استئناف الحرب طبقا لما أعلنه الجنرال جازان عقب عودته من باريس قد أثار فيهم الحماس • لكن الاخبار السيئة التى جاء بها الاميرال بارجو بعد ذلك ببضعة أيام جعلتهم يدركون أن العواصف أصبحت تهب من الجنوب وليس من الشمال • وهو مثل بحرى يعنى أن الموقف قد انقلب رأسا على عقب وأن الرياح تجرى بما لا تشتهى السفن ، فلا عجب اذا كانوا قد أصبحوا فريسه للقلق والسخط من جديد •

ولم يهتم الاميرال بارجو بهذه التفاصيل ، فقد كانت تثير لديه الملل • أما الذى كان يثير اهتمامه حقا فى ذلك الوقت فهو فكرة انشاء قاعدة فرنسية بحرية ضخمة فى جيبوتى بأرتيريا ، وكان بارجو يرى أن السلطات العسكرية الفرنسية أخطأت بوضع جيبوتى تحت اشراف السلاح الجوى الفرنسى ومن رأيه أن الاصوب وضعها تحت اشراف الوصى الطبيعي عليها ، وهو سلاح البحرية • وكان يردد دائما أن لابروس ــ وهو قائد وحدة بحرية صغيرة فى جيبوتى ــ قام بأعمال ضخمة وغير عادية فى حملة السويس ، وحقق نتائج لم يكن يتوقعها أحد •

ولكن جيبوتى والبحر الاحمر لم يكونا سوى مشكلتين بسيطتين بالنسبة للاميرال بارجو (وكانوا يسمونه بايار فى غيابه) • فقد علم وهو فى باريس بنبأ شراء الامريكيين لجانب من أسهم شركة قناة السويس • لذلك بدأ مؤكدا جدا أن مستقبل القناة سيأخذ شكلا استغلاليا من جانب شركة دولية تحجز ٥٠٪ من الانصبة للولايات المتحدة الامريكية ، وتترك معظم الباقى للمصريين •

ومن قبرص أرسلت مذكرة الى باريس ــ لا يمكن التأكيد بأن الاميرال بارجو نفسه هو الذى أرسلها ــ تلخص جميع المحادثات التى دارت فى هذا الوقت مع الضباط المحيطين به • وقد استهلت بعرض جرىء عن قناة السويس

بحيث وصفت بأنها منجم ذهب حقيقى كان يثير دائما اهتمام الشركات الامريكية الكبرى كما أثارها من قبل بترول العربية السعودية ، ولذلك فمن الجائز أن الولايات المتحدة ترغب فى أن تتولى بنفسها الاشراف على القناة •

وهذه الشكوك كانت لها دلائل ومبررات هى معارضة دالاس لنظام ادارة فرنسا وبريطانيا للقناة وتحريك الأمم المتحدة والانذار بالجلاء عن مصر قبل الدخول فى أية محادثات مع واشنطن • والواقع أن القيادة الفرنسية لم تحاول اخفاء استيائها من وصاية واشنطن ، ولكن كان ينقص الفرنسيين ادراك بواعث السياسة الامريكية • فقد كانت الولايات المتحدة تنتهج بتصميم سياسة تحررية تجاه الدول التى تعانى من الاستعمار (وقد كان بعض أفراد الطبقة الحاكمة فى فرنسا يسخرون من هذه السياسة ويقولون ان الامريكيين أطفال وأنهم لايفهمون وانها السذاجة الامريكية ، الى أشياء أخرى من هذا القبيل) ومن ناحية أخرى فان القيادة الفرنسية لم تدرك أهمية الدور الذى لعبه الخوف فى تفاقم الازمة ، فقد كانت الولايات المتحدة تخشى النتائج السيئة التى يمكن أن تترتب على مغامرة السويس •

وكان الاميرال بارجو يفكر فى أشياء أخرى وهو فى الطائرة التى أقلته من باريس الى قبرص وبور سعيد ليؤدى زيارة الوداع ، فقد كان يستعرض مشروعات الرسوم الاولى لصور وأبطال البحرية السابقين التى طلب من أحد رسامى الاسطول الفرنسى رسمها ليزين بها مكتبه الجديد فى طولون ، وقد أخذ يستعرض صور سوفرين ودى جراس وديجاى ثوران وتورفيل وديكين والفارس بول وكل منهم كان له ماض حربى مجيد • وكان فى كل مرة تعرض عليه الخطوط الاولى للصور يعدل فى خطوط استدارة البطن قائلا : ان كبار البحارين كانت لهم دائما بطون !

وجدير بالذكر أن الاميرال بارجو نفسه كان له بطن كبير •

وفى يوم ٢٣ نوفمبر أعلن الجنرال البريطانى كيتلى أن قرار الجلاء عن مصر قد اتخذ بصفة مبدئية ، وفى ٢٤ نوفمبر طلب الجنرال ستوكويل من الفرنسيين بيانا عن الاستعدادات التى اتخذوها تمهيدا لاحتمال الانسحاب من مصر ٠

المماطلة :

لوحظ أن هناك تراخيا من جانب الفرنسيين بشأن خطط الجلاء ، وكانت باريس تشجع كلا من بارجو وجاژان على ذلك ٠ أما البريطانيون فانهم على العكس من ذلك استعدوا للرحيل وهم راضون ، اذ لم تكد الكتيبة النرويجية التابعة للامم المتحدة تصل من أبى صوير الى بور سعيد بالقطار يوم ٢٢ نوفمبر حتى أمر الجنرال كيتلى ــ قبل أن يبلغ الفرنسيين يوم ٢٣ نوفمبر قرار العودة الى الوطن ــ بترحيل احدى الكتائب الانجليزية ٠

وفى ٢٥ نوفمبر استقبل الجنرال بيرنز قائد قوة الامم المتحدة فى بور سعيد وقد قال أحد الشهود أن هذا الجنرال دخل بور سعيد فى تواضع وقلق ، ثم عقد اجتماعات شرح فيه خطته للفرنسيين والبريطانيين ٠ فقال انه ينوى وضع كتيبة فى بور سعيد ووحدتين فى بور فؤاد وكتيبة تعسكر بين الحلفاء والمصريين عند الكاب ، وفى نهاية الاجتماع انتحى الاميرال بارجو ــ وكانت هذه آخر زيارة له لبور سعيد ــ بالجنرال بوفر جانبا وأبلغه بالاتفاق مع باريس التعليمات التى تتعارض جزئيا مع ما قبلوه ، وأوضح بصفة خاصة انه « يجب علينا أن نتمسك بمكاسبنا لاطول فترة ممكنة » ٠

وأبلغ الجنرال ستوكويل ذلك الى قبرص ، وتلقى يوم ٢٦ نوفمبر ردا يتضمن تعليمات تشير الى اتباع الخطة التى اتفق عليها مع الجنرال بيرنز ، وهى الجلاء تدريجيا بمجرد وصول قوات الامم المتحدة ٠ وأبلغ الامر الى القوات البريطانية يوم ٢٧ نوفمبر ، فأخذت تركب السفن ابتداء من يوم ٢٨ نوفمبر ٠

وفى ٢٩ نوفمبر عقد اجتماع بين الحلفاء لمحاولة تنفيذ خطة مشتركة للجلاء وكانت الخطة تفترض مهلة مدتها خمسة عشر يوما يضاف اليها ٢٤ ساعة للاعلان ٠

وفى اليوم نفسه أعلن الجنرال بيرنز الذى اتخذ الاحتياطات اللازمة ـ فنقل القوة اليوغوسلافية التابعة للامم المتحدة الى بور سعيد يوم ٢٥ نوفمبر ـ أنه من الآن فصاعدا سيعمل هو مع القوات الدولية على المحافظة على النظام فى بور سعيد بالتعاون مع السلطات المصرية ٠

لكن بوفر رفض الرضوخ ، وحتى آخر يوم كانت القوات الفرنسية هى التى تقوم باقرار النظام فى بور فؤاد ٠ وكان ستوكويل غاضبا ولكن لم يكن فى وسعه الا الاذعان ، فمنذ اليوم التالى نفذ فى بور سعيد أوامر الجنرال بيرنز وجمع قواته فى دائرة أخذت تنكمش يوما بعد يوم ٠

وفى غير حماس أخذت القيادات العسكرية تضع خطة الانسحاب التى سميت خطة هاريدان ، وكانت المرحلة الاولى فيها تبدأ يوم ٢ ديسمبر ، وأصبح من المتوقع البدء فى العمليات يوم ٤ ديسمبر وانهاء المرحلة الاولى يوم ١٠ من ذلك الشهر ٠ وتقرر أن تتم عملية الانسحاب بمعدل ثلاثة أفواج فى ٩ و ١٣ و ١٧ ديسمبر ، على ألا يبقى فى بور سعيد بعد يوم ١٧ من ديسمبر غير عدد قليل يبحر فى آخر لحظة ٠ ولكن حدثت أخطاء ومناورات أدت الى تغيير المواعيد ٠ وفى مساء يوم ٢ ديسمبر أبلغ الجنرالات حكوماتهم أنهم على استعداد للرحيل حين تلقى الاوامر ٠ وترددت لندن فى اصدار هذه الاوامر ، وكانت باريس لا ترغب فى اصدارها أبدا ، لكن الضغط الامريكى على الحكومتين لم يفتر مطلقا ٠

فى باريس كان هذا الضغط يتلخص فيما سماه جى موليه بالتهديد بالبترول ، أى منع تزويد فرنسا بالبترول ما دامت قواتها مرابطة فى بور فؤاد وكان هذا التهديد فعالا حقا ، لأن الجانب الاكبر من نشاط القوة الصناعية

الفرنسية كان يعتمد على حسن العلاقات مع الشركات الرأسمالية الامريكية ٠ وكان جي موليه يريد أن يتحاشى ما يمكن أن يسببه فشل حملة السويس من رد فعل سيىء لدى الشعب الفرنسى . ولكن رئيس الوزراء الفرنسى كان يملك أيضا سلاحاً فعالا يستطيع أن يهدد به الامريكيين ، وهذا السلاح هو الحزب الشيوعى الفرنسى وحزب الجبهة الشعبية الفرنسية ، وأنه السلاح يفتقر اليه البريطانيون ولم يستطيعوا التنبؤ به من قبل ٠ وكان البريطانيون فى الواقع مجردين من كل حول وقوة أمام سطوة رجال المال الامريكيين ٠ أما جى موليه ، فكان يملك فى فرنسا هذا الصندوق السرى ٠ ومع أن القبضة الامريكية كانت من حديد فقد كان يكسوها غطاء من القطيفة ٠

وكان موليه يعرف جيدا التأثير الذى يمكن أن يحدثه النداء الذى وجهه يوم ٢٢ نوفمبر الى أصحاب السيارات بشأن توزيع البنزين بالبطاقات ، ولما أصبح توزيع الكيروسين بالبطاقات أمرا ضروريا أعلن فى مدينة جانات فى ٢٥ نوفمبر أن غالبية الرأى العام تؤيد توزيع الوقود بالبطاقات ٠ ولم يكن تصرف جى موليه ناتجا عن خبث أو دهاء ، فقد كانت فكرة توزيع الوقود بالبطاقات يؤيدها معظم أفراد الشعب الذين كانوا يعتقدون أن نظام التوزيع يكفل العدالة والمساواة ويقضى على تزاحم الناس حول محطات البنزين بسبب قلة الوقود ٠ ولكن التوزيع بالبطاقات وقلة الوقود والسوق السوداء ، أدت كلها الى فقدان جى موليه حب الشعب له ٠

وفى ٢٧ نوفمبر بعث أيزنهاور برسالة الى جى موليه كانت بمثابة ضغط جديد ٠ وفى اليوم التالى اجتمع جى موليه بلجنة توجيه الحزب الاشتراكى واستعرض أمامها حالة فرنسا ٠ وفى نهاية الاجتماع أذاعت اللجنة بيانا غير عادى تقول فيه ان الفرنسيين لا يريدون أن يكونوا تابعين لأحد ، وهم قادرون على أن يحرموا أنفسهم من الاجازة الاسبوعية مفضلين ذلك على استجداء البترول٠

واذا كان فى الرأى الخاص برفض استجداء البترول شيء من الجرأة ، فان الرأى الخاص برفض التبعية لاحد كان له على العكس صدى غريب عنـد الذين اشتركوا بكل قواهم ـ وعلى رأسهم السكرتير العام للحزب الاشتراكى الفرنسى ـ فى المؤامرة المفتوحة لجعل فرنسا دولة تابعة على أساس مشروع الدفاع الاوروبى المشترك ، وكانت التسمية حقيقية فيما يتعلق بالجزائر وان تكن غير ذلك فيما عداها .

لكن النغمة الوطنيـة التى ظهرت فى تصريح الحزب الاشـتراكى لم تدخل الخوف فى قلب دالاس . وقد كتب أيزنهاور رسالة الى جى موليه يوم ٢٧ نوفمبر أذاعتها اللجنة يوم ٢٨ ، وأعلن فوستر دالاس فى اليوم نفسه أنه ينوى زيارة باريس فى بداية شهر ديسمبر لحضور الاجتمـاع العادى لوزراء حلف شـمال الاطلنطى .

وكان فى هذا القول نوع من التمـويه اذ أن دالاس لم يقل سـأذهب الى باريس ولكنه قال اننى أنوى الذهاب لباريس ، أى « أننى سأذهب اذا كان كل شيء على ما يرام ، أما اذا لم تسر الامور كما أريد فاننى سأغير هذه النية » وكان هذا بمثابة ضغط جديد على باريس .

المنافسة على الاسترلينى :

ولكن اذا لم يكن لدى باريس غير التصريحات التى تتسلى بها ، فان الموقف فى لندن أصبح حرجا للغاية بعد أن اخذ الضغط يزداد على الاسترلينى يوما بعد يوم .

لقد حاولت الحكومة البريطانية مواجهة هذا الموقف مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بمواقعها فى السويس ، فرفعت من سعر البترول ، واتخذت ترتيبـات يفهم منها أنها تنوى زيادة ضريبة الدخل وزيادة سعر الفائدة . واتجهت أيضـا

نيتها الى رهن ما تملكه من السندات البحرية بالدولارات ـ وكانت تملك منهـا ما قيمته ٧٥٠ مليون دولار ـ وفكرت فى طلب قروض من المنظمة النقدية الدولية تبلغ قيمتها ٦٥٠ مليون دولار وأن تطبق فى نهاية السنة شرط الحماية الخاص بالقرض الامريكى لعام ١٩٥٤ والقرض الكندى ، لكن هذه النقطة الاخيرة خلقت مشكلات جديدة ٠

كان شرط الحماية هذا مخرجا تستطيع به بريطانيـا توفير ما يقرب من ٧٠ مليون دولار ، وهذا المبلغ يعتبر معقولا بالنسبة لـ ٢٧٩ مليون دولار استنفدت فى شهر نوفمبر وحده من احتياطى الذهب أو الدولار فى منطقة الاسترلينى ٠ وكان شرط الحماية سلاحا ذا حدين ، وكانت دوائر الاعمال البريطانيـة تخشى أن يؤدى التمادى فى استخدامه الى زعزعة ثقة العالم فى الجنيـه الاسترلينى ٠ وحينئذ يصبح سلاحا مفلولا ، لأن ديون بريطانيا تبلغ مليارات كثيرة من الجنيهات واذا ازداد الضغط على النقد الانجليزى فلا يعرف أحد متى يتوقف رد الفعل ، فمثلا ماذا تفعل لندن اذا طلبت الهند التى تدين بريطانيا بمبلغ ٥٠٠ مليـون جنيه تسديد هذا الدين ، ومن حقها أن تطلب السداد بالدولارات ؟

فى هذا الوقت هبط احتياطى الذهب فى منطقـة الاسـترلينى الى ١٩٦٥ مليون دولار بخسارة تبلغ ٤٤٠ مليونا منذ شهر يوليو ، وذلك على الرغم من بيع بترول ترينداد للامريكيين بمبلغ ١٦٧ مليون دولار ٠

ولما كان شهر ديسمبر سيئا مثل شهر نوفمبر فان احتيـاطى المنطقة قد هبط عن مستوى سبتمبر عام ١٩٤٩ بمقدار ١٧٠٠ مليون دولار مما جعل خفض قيمة الجنيه الاسترلينى اجراء لا يمكن تجنبه ٠

ولكن لما كان يبدو أن الانجليز يريدون دائما المقاومة والتشبث بسياسة التمسك بمكاسبهم فى القناة ، فقد وجدت واشنطن نفسهـا مضطرة لان تضع النقاط فوق الحروف ٠ وكان تكليف همفرى وزير المالية الامريكية بهذه المهمة له

مغزاه ، وقال ايدن فى مذكراته : « ان همفرى اتصل تليفونيا بمستر باتلر وقال له ان الولايات المتحدة لن تقدم أية مساعدة أو مساندة لبريطانيا ما لم تقدم بيانا واضحا بالنسبة لعملية سحب القوات البريطانية والفرنسية من السويس»

وفى الوقت الذى كان فيه الضغط المالى مستمرا على لندن ، كانوا فى باريس يتظاهرون بمقاومة الضغط البترولى ، وأعدت لجنة الحزب الاشتراكى التى تضم يوجين مونتيل وجاك بييت وجان شارلو مشروعا لقانون يهدف الى تأميم شركات البترول وكان ذلك بمثابة تهديد يصعب على الحكومة تنفيذه ، اذ كيف تجد الغالبية التى تؤيدها ؟ فضلا عن أنه كان يعبر على أى حال عن موجة الاستياء السائدة .

وقد أذعنت اسرائيل ــ التى تحتاج الى المساندة الامريكية أكثر من شريكتيها ــ للضغط المالى الامريكى الشديد ، فأعلنت حكومتها فى أول ديسمبر أنها ستبدأ فى سحب قواتها من سيناء . وبعد أيام قليلة انسحب الاسرائيليون الى مسافة ٥٠ كيلو مترا من الحدود .

وفى لندن عاود وزير المالية الامريكى ضغطه على الحكومة البريطانية ، موضحا لها أنه يجب عليها فى رأيه أن تحدد تاريخ سحب قواتها فى أقرب وقت .

ويقول ايدن أن ذلك لم يكن مقبولا ، ومع ذلك كان لا مناص من قبوله ، ومن ثم لم يتأخر التنفيذ طويلا . فبعد ثلاثة أيام فى ٣ ديسمبر أصدر كريستيان بينو وسلوين لويد ــ بعد أن تدارسا المشكلة ــ بيانا فرنسيا بريطانيا جاء فيه « ان قوة دولية ترابط الآن فى بور سعيد » وهكذا فان الجلاء عن مصر قد أصبح ممكنا ، وأوضح البيان « أنه نظرا لهذه الظروف ، فقد أصدرت الاوامر لقائد القوات المتحالفة لكى ينظم مع الجنرال بيرنز عملية الجلاء » . . .

كان هناك حذر فى اتخاذ الخطوات ، فلم يقولوا انهم سيرحلون وانما قالوا سينظمون عملية الجلاء ، وكان هذا يتيح بقاءهم عدة أيام أخرى ، ولكنه لم يكن ليغير من النتيجة النهائية شيئا .

ولم يلبث أن صفا الجو فجأة وتغير كل شيء ، وانتهت عملية الضغط والتهديد ، فمنذ اليوم التالى ٤ ديسمبر نشرت الحكومة الامريكية بيانا أوضحت فيه أنها ستدرس بعطف الطلب البريطانى بوقف أرباح دين عام ١٩٤٦ .

وهكذا أعيد تضامن حلف شمال الاطلنطى .

الفصل الثامن عشر

التصفيـــة

لم تكن العودة الى حظيرة حلف شمال الاطلنطى التى تمثلت فى البيـــان الفرنسى البريطانى الذى صــدر يوم ٣ ديسمبر تخلو من التحفـظ والحيطـة ٠ والواقع أن البيان كان يحوى نقطتين : الاولى تتعلق بانسحاب القوات من مصر ، والثانية تتعلق بنظام القناة فى المستقبل ٠

وفيما يختص بالنقطة الاولى تعهدت الدولتان بسحب قواتهما ، واعترفتـا بمسئولية السكرتير العام للامم المتحدة فى تطهير القناة فى أقرب وقت ، وأشارت الى ضرورة حرية الملاحة ومطالبة السكير العام باجراء مباحثـات فى أقرب وقت بشأن نظام القناة فى المستقبل ، على أساس المبادىء الستة التى تضمنها قرار مجلس الامن بتاريخ ١٣ أكتوبر ٠

وأما النقطة الثانية فكانت أكثر افصاحا ، فقد تضمنت تذكير الحـكومات بأنه زيادة على المبادىء الستة التى وردت فى قرار مجلس الامن الصادر يوم ١٣ أكتوبر فانه من المناسب أيضـا مراعاة اقتراحـات الدول الثمانى عشرة التى أوصت الحكومات بأن يقرها مجلس الامن ، وكذلك المحـــادثات التى دارت بين وزراء خارجية مصر وفرنسا وبريطانيا ، وأخيرا رسـالة السكرتير العـام للامم المتحدة الى وزير خارجية مصر بتاريخ ٢٤ أكتوبر ، وهى الرسالة التى قبلهـــا الوزير المصرى ٠

وكانت الاشارة الى الرسائل المتبادلة بين السكرتير العام والوزير المصرى تنطوى على أهمية كبيرة ، لان هذه الرسائل تضمنت تلخيصا للمحادثات التى تمت بين المصريين والفرنسيين والبريطانيين بعد تصويت مجلس الامن يوم ١٣ أكتوبر • وكانت تهدف الى أن تقول لناصر : هذه هى النقاط التى اتفق عليها الدبلوماسيين ، فهل توافق مصر على الالتزام بها ؟ وكان مجرد قبول عبد الناصر سيجعل من هذه الاقتراحات اتفاقا يربط بين مصر وفرنسا وبريطانيا •

وعلى الرغم من أن قبول عبد الناصر كان متأخرا فانه جاء قبل ابحار الجنود من بور سعيد بثلاثة أيام ، أى أن رحيل القوات لم يبدأ من بور سعيد الا بعد أن تم الاتفاق بين حكومات فرنسا وبريطانيا ومصر • ومعنى هذا أن الحرب التى كان يمكن أن تكون عالمية لم يكن لها أى مبرر فيما يتعلق بالسويس أو القناة أو الدفاع عن المصالح الفرنسية أو البريطانية • وكان الوحيدون الذين كانت لهم مصلحة فى هذه الحرب هم الاسرائيليين الذين أرادوا باعلان الحرب القضاء على قوات الفدائيين المصريين ، ولكن الفرنسيين والبريطانيين لم يكن لهم أى عذر فى شن هذه الحرب •

ومن المحتمل أن يكون هذا الموقف الدقيق قد لعب دوره فى مماطلة ايدن ، اذ أنه طلب من العسكريين فى اليوم التالى لموافقة مصر مهلة مدتها ٢٤ ساعة • ولكن لم يكن هناك مجال للاختيار ، وأخذ كل شىء يسير كما لو كانت هناك مصيدة قد أغلقت •

سارت الامور فى طريق آخر ، وانتهت بوعد صريح بالجلاء عن بورسعيد من غير تأخير • وكان يبدو من سلوك الانجليز أنهم يريدون الظهور بمظهر المخلصين فى وعدهم ، وأنهم ما داموا قد خسروا اللعبة فالافضل أن يتركوا المسألة للدبلوماسيين لانهائها • ولكن لا يمكن القول بذلك بالنسبة للجانب الفرنسى ،

لأن الواقع أن الزعماء العسكريين الفرنسيين استاءوا من القرار السياسي الخاص بالجلاء • ولم يعارضوا لانهم لم يكونوا يستطيعون ذلك ولكنهم كانوا يعملون جاهدين لمقاومة تنفيذه • وتحقيقا لهذا الهدف أرسلوا الجنرال مارتان في مهمة سرية الى بور فؤاد حيث قابل الجنرال بوفر يوم ٥ ديسمبر وأبلغه تعليمات شفوية بالمماطلة والتسويف في الانسحاب مهما تكن الاوامر الرسمية التي تصدر اليه • وكان بوفر في موقف حرج ، فقد شرح لمارتان أنه من الصعب عليه أن يؤجل الانسحاب لانه يرابط في منطقة يسيطر عليها البريطانيون ، واتفق الجنرالان حينئذ على أن يتعلل بوفر بصعوبات النقل ويطلب من باريس ارسال سفن، وما على باريس الا أن تماطل في ارسالها • ولكن هذه الحيلة لم تفلح ، فحينما أبلغ بوفر في اليوم التالي ستوكويل أنه يفتقر الى السفن وأن هذا سيترتب عليه تأخير الجلاء عن مصر ، بادر زميله الانجليزي فطمأنه قائلا : أتطلب سفنا ؟ انني اذن سأوفر لك كل ما تحتاج اليه ! وأخذ ستوكويل في البحث عن بواخر بريطانية تمكن قوات الحملة الفرنسية من الانسحاب في أقرب وقت •

وأخيرا أبلغت باريس الجنرال بوفر يوم ٧ ديسمبر بمواعيد وصول البواخر • وقد وصلت آخر باخرة الى بور سعيد يوم ١٧ ديسمبر ، وكان هذا يعني أن يتم رحيل الافواج الاخيرة يومي ٢١ و ٢٢ ديسمبر • وقد أثار هذا الخبر قلق البريطانيين الذين كانوا يستعدون لعيد الميلاد • فاقترحوا عقد اجتماع مع الفرنسيين لتسوية مشكلة السفن ، وقد وجد الجنرال بوفر أنه من المتعذر عليه المماطلة في عقد هذا الاجتماع ، وأبلغ باريس أنه استنفد جميع الوسائل لتأخير الجلاء ، وأنه يجب أن تدور مناقشات بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية لتحديد تاريخ للجلاء • وهكذا انحصرت آمال الفرنسيين في تأخير الانسحاب بضعة أيام ، كأن هذا كان هدفهم الوحيد من الحرب التي دخلوها •

يا للتعاسة !

وفى ٨ ديسمبر أبلغت باريس رئيس القوة (أ) أنه قد تحدد تاريخ الجلاء بيوم ٢٢ ديسمبر ، وأبلغ بوفر النبأ للانجليز الذين لم يكونوا قد تلقوا أية تعليمات فى هذا الشأن من حكومتهم حتى هذا الوقت . ونظرا لانهم كانوا يأملون أن يقضوا عيد الميلاد فى وطنهم ، فقد كانوا يتوقعون أن يتم الجلاء عن مصر يوم ١٨ ديسمبر .

وفى ١١ ديسمبر تحققت لندن من الموعد الذى حدده لها بوفر يوم ٨ ديسمبر وهو أن يتم الانسحاب يوم ٢٢ ديسمبر ، فشعر الجنود الانجليز بحزن شديد وخيبة أمل كبيرة ، لان هذا يعنى تأخير وصولهم الى بلادهم ، ولكنهم كعادتهم ـ حينما يتلقون الاوامر ـ لم يحاولوا مناقشتها .

وفى هذا الوقت أخذ الجنرال بيرنز ـ قائد قوات الامم المتحدة ـ يعمل على احباط خطة الفرنسيين لتأخير موعد الجلاء ، وذهب الى بور سعيد حيث أبدى دهشته لان الجلاء لم يحدد تاريخه يوم ١٤ ، وبهذه المناسبة أبلغ بيرنز ضباط أركان الحرب الفرنسيين نبأ لم يبلغ اليهم ، وظل خافيا عليهم ، وهو أن قوات الامم المتحدة ستجلو عن بور سعيد فى اليوم التالى لرحيل الفرنسيين والبريطانيين . وبالنسبة للفرنسيين كان هذا النبأ بمثابة ضربة جديدة لهم أودت بآمالهم وأوهامهم ، فقد كانوا يعتقدون أن وجود قوات الامم المتحدة فى بورسعيد سيتيح لهم فرصة الاحتفاظ بمكاسبهم ، وذلك باحلال القوات الدولية محل القوات الفرنسية والبريطانية ، وأن القناة ستظل مغلقة حتى يذعن عبد الناصر لارادة الحلفاء .

تقرير ماسو :

فى ذلك الوقت كان الضباط الفرنسيون يشعرون بخيبة الامل ومرارة اليأس ، وفى هذه الرقعة الضيقة من الارض التى يعيشون فيها محصورين بين بور سعيد وبور فؤاد كانوا ينفسون عن ضيقهم بالهياج على حلفائهم وزائريهم ،

وأخيرا كانوا يتشاجرون فيما بينهم • ولما تلقى الجنرال بوفر فى نهاية نوفمبر تقريرا عن عمليات كتيبة المظلات العاشرة الفرنسية لم يصدق عينيه ، اذ وجد خمس عشرة صفحة تحوى نقدا لاذعا وتنديدا عنيفا واتهامات قاسية لتصرفات القيادة التى يتولاها • وحكم بوفر على التقرير بأنه خليط من الثرثرة والنقد غير المفيد والمعلومات الخاطئة جمعها بعض الضباط المتذمرين الذين كان وزير الدفاع الفرنسى ينظر الى أفكارهم نظرة طيبة •

وأخذ القلق يساور الجنرال بوفر ، وفكر فى تغطية نفسه تجاه باريس ثم أعد رسالة لهذا الغرض • ولكن مساعديه أسدوا اليه نصيحة قائلين : ان النقد الذى يحويه ذلك التقرير كلام شائع يتداوله الضباط بصفة عامة وكبار الضباط بصفة خاصة ، ويشاركهم فى ذلك غيرهم من الناس • وعلى أى حال فان هـذه هى طبيعة الجنرال ماسو ، فهو يحب الثرثرة من غير توقف • ولكنه حين يرى أحدا أقوى منه ، فانه يخشاه ، وما عليك الا أن تستدعيه وتعنفه تعنيفا شديدا وحينئذ سترى أنه انكمش وتنازل عن كبريائه !

لقد تردد بوفر وتساءل قائلا : واذا لم يتنــازل ماسو عن كبريائه فمـا العمـل ؟ ان هـذا قد يؤدى الى حدوث خـلاف تتدخـل فيـه حـكومة باريس وستجد الدوائر الوثيقة الصلة بالوزير فى هذا الخلاف فرصة للصيد فى المـاء العكر • وحينئذ قرر بوفر فى اليوم التالى أن يستدعى ماسو لمقابلته ووجه اليه لوما شديدا فتلعثم الجنرال وأخذ يعتذر وزعم أنه وقع على التقرير الوقح من غير أن يقرأه • وقال أن المسئول عن ذلك هو رئيس أركان حربه الكولونيل جودارد ، ثم وعد الجنرال بوفر بأنه سيمزق التقرير ويستبدل به تقريرا آخر أرق لهجة •

وساوس الجنرال :

كانت مخاوف الجنرال بوفر تتجـاوز نطاق رسائل الانتقادات التى يبعثهـا مرءوسوه ، فمنذ وقف اطلاق النار لم يكف عن التساؤل • فى البداية كان أقصى همه اعطاء مبرر قانونى لوجود قوات الاحتلال الفرنسـية ، وكان من رأيه أن

تصدر قيادة الحلفاء بيانا فى هذا الشأن تستند فيه الى اتفاقيات جنيف التى عقدت عام ١٩٤٨ ، وقد بحث الجانب الفرنسى هذه المسألة مع الانجليز منذ عدة أسابيع ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة ، وجاء وقف اطلاق النار قبل اصدار هذا البيان . وحينئذ تدخلت وزارة الخارجية البريطانية موضحة أنه بالنظر الى الظروف التى تقرر فيها وقف اطلاق النار فانه من المستحسن التخلى عن هذا البيان الذى قد يحدث رد فعل دوليا ، والاكتفاء بالبقاء فى مصر من غير الزعم بوجود مبررات قانونية تعطى للحلفاء الحق فى ذلك .

ومع هذا فان عدم وجود قاعدة قانونية كان يضايق الجنرال بوفر قائد القوة (أ) ولكن كانت لديه مشاغل أخرى استحوذت على اهتمامه .

فقد كان الجنرال ستوكويل قد تلقى مجموعة من التقارير تفيد أن القوات الفرنسية قامت بأعمال النهب والسلب ، ولما أجرى تحقيق فى هذا الشأن تبين أن جانبا من هذا التقرير كان خاطئا أو مبالغا فيه . وأن أعمال السلب قامت بها وحدات تضم فرنسيين وجنودا من المستعمرات ، وقد سببت هذه التقارير ألما شديدا للجنرال بوفر .

وكانت هناك مسألة أخرى تضايق الجنرال بوفر ، فقد كان يخشى أن يتحمل العسكريون نتائج الاخطاء التى وقع فيها المدنيون وأن تلقى باريس مسئولية فشل الحملة على العسكريين ، مع أن هذا الفشل يرجع الى أسباب سياسية قبل كل شيء .

كان الجنرال بوفر هو وحده الذى يتعرض لذلك . أما الضباط الآخرون فكانوا يجترون غضبهم ، ولكى يقتلوا الوقت أخذوا يبحثون عن اسم يطلقونه على الحملة الفاشلة فكانوا يقترحون مثلا تسميتها « حرب الثلاثين ساعة » أو « الحملة الاستعمارية الاخيرة » . وكان الشعور بالضيق والضجر يساور الجميع حتى فى خلال السهرات التى كانوا يقيمونها ولا يختمونها بشرب الخمر ،

وحينئذ كانت الاحاديث تتحول الى ثرثرة تافهة • وفى احدى هذه السهرات أخذ الجنرال دارلنج يقارن بين أنواع الويسكى ، وأمضى الجنرال بوفر والجنرال البريطانى دانفورد سلاتير ثلاث ساعات يتناقشان حول صيد الاسماك •

وكانت الايام الاخيرة فى مصر تعيد الى الضباط ذكرى انتهاء العام الدراسى حينما يودع الطلبة بعضهم بعضا ، أو يبدأون فى التغيب • وأخذ كبار الضباط يتغيبون ، وكلما سأل أحد عن ضابط كبير كانت الاجابة : انه لم يعد يحضر !

وتوجه الاميرال بارجو الى قبرص يوم ٣٠ نوفمبر ليودع أصدقاءه ، وقد لحقه هناك الجنرال بوفر ليقدم اليه تحيته ، وأسندت الى الاميرال بارجو قيادة جديدة •

ولكن قبل أن يترك بارجو قواته فى مصر أبدى اهتمامه بمسألة تطهير القناة •

تطهير القناة :

لقد درست مقدما مسألة تطهير القناة فى باريس ولندن حتى قبل بدء تنفيذ الهجوم على بور سعيد ، وقد عقدت اجتماعات فى باريس فى أول سبتمبر لمحاولة انشاء هيئة مؤقتة أطلق عليها اسم وكالة أعمال قناة السويس • ولكن هذه الهيئة لم يكن لها وضع قانونى واضح ، كما أن البيان المشترك الذى كان ينبغى أن تصدره لندن وباريس فى هذا الشأن لم ير النور قط • ومع ذلك فقد تم التوصل الى نوع من الاتفاق حينما كلفت باريس الاميرال شامبيون يوم ٣١ أكتوبر بمسألة تطهير القناة ويضع موضع التنفيذ الاتفاقية المعقودة مع لندن حول توزيع مهام هذه العملية • وشكلت « القوة ٣٣٩ » التى تضم الجماعات التى عهد اليها برفع الاتربة من القناة ، وكلفت البحرية البريطانية بتعويم السفن الغارقة ، فى حين كلف الفرنسيون بالقيام بأعمال الهندسة المدنية • وهكذا أطلق على الاميرال شامبيون اسم أميرال القناة ، وكان له مساعد انجليزى هو الكابتن البحرى بودجير •

وكانت عملية تعويم السفن في مناطق بور سعيد والاسماعيلية والسويس تخضع لاوامر شامبيون •

ودلت تقارير المخابرات التي قدمت قبل نزول القوات الفرنسية والبريطانية في منطقة بور سعيد على أن العقبات التي تسد القناة أكبر مما كان متوقعا • وقد تقرر في خلال زيارة أنطوني هيد وزير الدفاع البريطاني لقبرص الاسراع في ارسال وحدات الانقاذ التي كلفت برفع هذه العقبات ، وبخاصة وحدة الاميرال شامبيون • وقد أضاع شامبيون بعض الوقت بحجة أنه في حاجة ـ لكي يبدأ العمل ـ الى عدد اضافي من الفنيين ، وأن سفينة القيادة لم تصل اليه بعد ، ولكن هذه المماطلة لم تكن موضع رضي البحرية الملكية البريطانية التي أعلنت أنها ستوفر جميع المعدات اللازمة ما دام الفرنسيون لا يريدون الاستعداد للقيام بأعمالهم • وقد بدأ الكابتن البحري بودجير العمل يوم ٨ نوفمبر واضطر الاميرال دانفورد سلاتير يوم ١٣ نوفمبر الى أن يتولى عمليات تطهير القناة • ووصل شامبيون الى بور سعيد يوم ١٠ نوفمبر من غير سفينة القيادة الضرورية ، وكان من الممكن توجيه اللوم اليه والى مساعده الفرنسي الكابتن البحري هيبه • كما كان من الممكن التساؤل عما اذا كان هذا التباطؤ الظاهر في انجاز العمل الموكول اليهما كان يقصد به تأخير التنفيذ • لقد كان هذا يبدو جليا من التعليمات الشفوية التي كانت تصدر في خلال العمل •

وبرر الاميرال البريطاني دانفورد سلاتير توليه شئون قيادة عمليات تطهير القناة بأن الموقف ـ بعد وقف اطلاق النار ـ يختلف عن الموقف الذي كان متوقعا وقت انشاء وكالة أعمال قناة السويس ، وأن وسائل التعويم البريطانية موجودة ومهمة تطهير القناة يجب أن تسلم بعد قليل لمنظمة الامم المتحدة • وهذا الايضاح الاخير كان له مغزى ، لانه في ١٣ نوفمبر لم يكن هناك شيء يسمح بالقول بأن مهمة تطهير القناة يجب أن تعطى لمنظمة الامم المتحدة ، لا شيء مطلقا سوى المعلومات الخاصة بالاميرالية أو ربما سياسته الخاصة •

وفى حين بدأ البريطانيون العمل فى تطهير القنــاة من الرمال ـ منذ يوم ٨ نوفمبر ـ لم تبدأ المعدات الفرنسية الخاصة بالتعويم عملها الا يوم ٢٨ نوفمبر ٠

وفى الواقع كانت أعمال التطهير قد اتضحت أهميتها حينئذ أكثر مما كان متوقعا حين بحثت هذه المسألة فى قبرص يوم ٤ نوفمبر ، فقد كان هناك أحــد عشر عائقا تسد القناة ، ثم تبين للقوات البحرية يوم ٦ نوفمبر أن هنــاك عنــد بور سعيد عشرين سفينة محطمة تشكل مجموعتين احداهما تتكون من ثمــانية عوائق تسد المدخل الشمالى للميناء ، فى حين كان يوجد الى الجنوب قليلا الاثنا عشر عائقا تسد القناة ٠ وقد منع حطام السفن الثمــانى الموجودة عند المدخل الشمالى للقناة مرور ناقلات البترول المشحونة الى الاحواض الداخلية ٠ وقد أمكن منذ اليوم الاول لبدء العمــل تطهير مجرى القناة بما يســمح بمرور الصــنادل الصغيرة ، وكان الفضل فى القيام بهذه الاعمال التمهيدية يرجع الى مجموعة من قوات الكوماندوز البحرية والقاطرات البحرية ٠

لكن المباحثات التى دارت بين السكرتير العام للامم المتحدة والرئيس ناصر انتهت باصرار الاخــير على ألا يقــوم بأعمال تطهير القنــاة بأى حال من الاحوال هؤلاء الذين يعتبرهم هو مسئولين عن سدها ، وكان ذلك أحد المطالب الاساسية لمصر ٠

وتمخضت المباحثات عن اتفاقية صدقت عليها الامم المتحدة ، وأصــبحت ملزمة لفرنسا وبريطانيا ٠ وأرسلت الامم المتحدة الى بور سعيد بعثــة للاشراف على تطهير القناة يرأسها الجنرال هويلر ٠

وصل هويلر الى بور سعيد يوم ١١ ديسمبر ، وأعلن فور وصوله أنه يعتبر نفســه قادما بدعوة من الحكومة المصرية وأنه لا يريد أية سفينة من سفن الحلفــاء ولا أية مهمات منها ٠ ومع ذلك فانه عندما تبين ضخامة المهمة الملقاة على عاتقــه

قبل من الفرنسيين والبريطانيين بعض المساعدات ، مثل السفن ذات الاوناش والكبارى المتحركة ، وقد عقد اتفاق فى هذا الشأن بين الجنرال هويلر والاميرال دانفوردسلاتير •

وفى ١٨ ديسمبر دخلت القناة ١٦ وحدة بحرية فرنسية وبريطانيـة بأمر من الجنرال هويلر وأصبح بحارتها يعملون فى ظل قوانين الامم المتحدة •

ولكن هذا كله كان جهدا ضائعا لانه منذ تاريخ رحيـل البريطانيـين والفرنسيين يوم ٢٢ ديسمبر أوقفت أعمال التطهير بأمر من الحكومة المصرية ، لأنها رفضت السماح بالاستمرار فى عمليات تطهير القنـاة ما دامت بعض الاراضى المصرية تحتلها قوات اسرائيلية •

عقوبات مصرية :

ان الاوامر التى أصدرتها الحكومة المصرية بالامتناع مؤقتا عن تطهير القناة لم تكن وسيلة للضغط فحسب من جانبها ، انما كانت تحدوها أيضا رغبة فى الانتقام بعد وقف اطلاق النار من الجاليات الفرنسية والبريطانية واليهود الاجانب المقيمين فى مصر •

ان الجاليات الفرنسية والبريطانية والاسرائيلية لم ينلهـا أى أذى طيـلة الفترة التى أعلنت فيها الحكومة المصرية أنها تستطيع أن تصل الى أهدافها عن طريق المفاوضات ، كما أنه لم ينلها أذى فى خلال العمليات العسكرية فى الوقت الذى كانت فيه مصر تحت التهديد المباشر للقوات الفرنسية والبريطانية •

ولما تقرر الجلاء وانتهى التهديد المباشر تغير الحال ، وبدأت عمليـة طرد الأجانب منذ يوم ٩ ديسمبر ، وقد بلغت من الضخامة درجة أصبحت معها حدثا دوليا • ففى هذا اليوم طرد ١٤٥٠ انجليزيا وفرنسيا من مصر واعتقـل ١٢٠ يهوديا • وكانت هناك رغبـة لدى الحكومتين الفرنسـية والبريطـانية ـ اللتين

كانت جيوشهما لا تزال تحتل الاراضى المصرية ـ فى القيام بعمل مضاد • ولم يكن من الصعب على هذه الجيوش غزو القاهرة ، ولكن لم يكن فى وسع لنـدن وباريس غير الاذعان والاستسلام بسبب الضغط المالى والبترولى الذى تعرضنا له من جانب أمريكا • ومن سخرية التاريخ أنه بعد ثلاثة شهور من العمليـات العسكرية لم تستطيعـا سوى الشكوى الى الامم المتحـدة فى مذكرة بتــاريخ ١٠ ديسمبر ، وفى ١٢ منه التجأت فرنسا وبريطانيا الى الجمعيـة العـامة للأمم المتحدة ، وفى الثالث عشر أوضح مندوب اسرائيل فى رسالة الى السكرتير العام للأمم المتحدة أعمال الاضطهاد التى يتعرض لها اليهود فى مصر • وقد خلقت هذه الرسالة موقفا شائكا لأنه اذا أظهرت الامم المتحدة عدم مبالاة فيما يتعلق بنجدة الرعايا التابعين للدول الاستعمارية ، فانهـا مع ذلك لن تتـردد فى ادانة مصر بالاجماع اذ ثبت أن اضطهاد اليهود المعتقلين فى مصر يقوم على أسـاس التفرقة العنصرية • والواقـع أن مصر وضعت نفسهـا فى مأزق ، وكادت برغبتهـا فى الانتقام أن تفقد كل مكاسب نصرها السياسى • لكن الزعماء المصريين أدركوا ذلك بسرعة ، ومن ثم تراجعوا • وفى خلال المناقشة التى دارت فى الجمعية العامة للامم يوم ١٨ ديسمبر لدراسة هذه المشكلة أوضح المندوب المصرى أن ما حدث لم يكن سوى اجراءات فردية لا تتناول طائفة اجتماعية معينة •

وقد كفت الحكومة المصرية بعد زمن قصير عن طرد الاجانب من مصر •

الحرب الثورية :

لقد غير وجود الاعداء فى رأس الجسر « بور سعيد ـ بور فؤاد » من طابع المعركة التى أصبحت حربا ثورية حقيقية • كان اهتمام المصريين الاول سلبيـا ، هو العمل على منع أى اتصال ودى بين الشعب وقوات الاحتلال • وقد بدأوا بالزام المؤسسات الموجودة فى بور سعيد وبور فؤاد بدفع أجر شهر مقدما لعمالهـــا وموظفيها عشية يوم الهجوم ذاته ، وبعد ذلك طلب من الشعب القيام باضراب شامل ورفض أداء أى عمل لقوات الاحتلال •

ولكن بعض المصريين وجدوا ـ بعد أن تقاضوا أجر شهر من المؤسسات المصرية ـ أنه من المفيد أن يتقاضوا شهرا ثانيا من فرنسا وبريطانيا ، وقد عوقب بعض هؤلاء فكانوا عظة لغيرهم • وأفادت هذه الخطوة حقا ، وأصبح المسئولون المصريون يفرضون على الشعب سيطرتهم السياسية كاملة ، على الاقل في مدينة بور سعيد • في حين اختلف الامر في بور فؤاد لأن القيادة الفرنسية اتخذت بعض الاجراءات التحفظية ، فقام الفرنسيون بتفتيش جميع المنازل وتعرفوا على كل فرد في المدينة ، وكانت مهمتهم في بور فؤاد أسهل منها في بور سعيد بخاصة أنه لم يكن تحت اشرافهم غير ١٦٫٠٠٠ شخص ، أما في بور سعيد فعلى العكس كانت هناك جماهير حاشدة من بينهم كثيرون من المتذمرين ومثيري الاضطرابات •

في بور فؤاد ـ حينما كانت القيادة الفرنسية تحس ببوادر الفتنة ـ كانت تقبض على كل من تشك فيهم ، ولكنها لم تستطع أن تلزم المصريين بالعمل لحسابهم بعد اغتيال هؤلاء الذين تعاونوا مع المحتلين •

وأما البريطانيون فقد كانوا يفضلون طرقهم المعتادة على الاشراف الادارى المباشر الذى يتبعه الاستعمار الفرنسى • والطرق البريطانية تتلخص في اختيار بعض الوطنيين الذين يثقون في قدرتهم على السيطرة على الشعب لحسابهم • وكانت هذه الطرق تنجح اذا لم تكن هناك مقاومة سلبية محلية ، ولكنها تفشل اذا ما تفشت هذه المقاومة • ولما أعلن الجلاء ظهر المصريون في بور سعيد كأنهم أتباع صالحون لماوتسى تونج (حين يتقهقر العدو نحن نتقدم) فقد صادرت السلطات البريطانية يوم ٧ ديسمبر كميات هائلة من الاسلحة وصلت الى بور سعيد عن طريق بحيرة المنزلة • وفي اليوم نفسه تظاهر عدة آلاف من سكان المدينة للاحتجاج على وجود الانجليز • وفي ٩ ديسمبر حدث هجوم في الشوارع ، وفي اليوم التالى اعتدى على دورية بريطانية ، وفي ١١ ديسمبر اختطف الملازم مور هاوس ، وفي ١٥ ديسمبر قرر الجنرال ستوكويل العمل ونظم حملة تفتيشية في أحياء كثيرة كمحاولة للعثور

على الضابط المفقود • وقد استمر التفتيش الى اليوم التالى فى حين تعرضت القوات البريطانية فى خلال تلك الايام لنحو مائة هجوم مزعج من جانب المصريين، وفى ١٦ ديسمبر رأى جنود بريطانيون كانوا يستقلون عربة مصفحة قائدهم يسقط قتيلا أمام أعينهم فأخذوا يطلقون النار على العمارة التى انطلقت منها الرصاصات وأودت بحياة قائدهم • وقد احتج المصريون واستمرت المصفحات البريطانية فى اطلاق النار ، وأسفر ذلك عن ٢١ قتيلا مصريا وخمسين جريحا و ٧٠٠ قبض عليهم وقد ظل منهم ٢٥٠ شخصا معتقلين •

وأصبح ستوكويل واثقا بعد ذلك من أن المدينة ستصبح هادئة ، ولكن الهدوء كان يرجع فى الواقع الى أن البريطانيين بدأوا ينسحبون من المدينة بالتدريج ويعسكرون عند الشريط الساحلى وعند القناة • وكان هذا الحل مرضيا للجميع لانه حقق للبريطانيين هدوء البال كما أتاح للمصريين الفرصة لكتابة عدة صفحات مجيدة عن تحرير بور سعيد بواسطة جيش الشعب •

هل كان عبد الناصر حينئذ متأثرا ببعض العناصر المتطرفة ؟ وهل ساعد البريطانيون سرا هذه الثورة ؟ هل اجراءات القمع التى لوحظت فى القاهرة كانت لها علاقة بحوادث بور سعيد ؟ كل هذه أسئلة ليس من السهل الرد عليها بصفة مؤكدة • أما المؤكد فهو أن اطلاق النار الذى حدث يوم ١٦ ديسمبر كان آخر اشتباك بين المصريين وقوات الحلفاء التى رحلت كتائبها بعد ستة أيام •

أجل ، كان ذلك آخر اشتباك، ولكنه لم يكن آخر حادث• فقد كان مقررا أن يتم يوم ١٩ ديسمبر ـ بفضل وساطة الامم المتحدة ـ تبادل المصريين الاسرى فى أيدى البريطانيين مقابل المدنيين البريطانيين الذين كانوا مكلفين بحراسة المخازن البريطانية فى منطقة القناة • ولكن المصريين رفضوا تسليم المدنيين البريطانيين ما لم يتم الافراج فى نفس الوقت عن جميع الاسرى المصريين ـ أى جميع الاسرى

لدى البريطانيين ـ وكذلك المائة والثلاثين مصريا الاسرى لدى الفرنسيين ·
واضطر الفرنسيون الى اعادة هؤلاء الرهائن الذين كانوا قد أرسلوا الى قبرص ،
وأعادوا من باريس الضباط المصريين الذين كانوا قد أرسلوهم اليها بالطائرات ،
وأخيرا تم التبادل يوم ٢١ ديسمبر بعد أن رفض الفرنسيون في بداية الامر
تسليم الاسرى من غير مقابل ·

الرحيـــل :

مر اليوم الاخير هكذا : في الساعة الحادية عشرة صباحا رفع علم الامم
المتحدة على مدينة بور فؤاد في حضور القوات الفرنسية والنرويجية الكولومبية ،
وعلى مسافة أبعد قليلا قدم في المدينة عرض عسكرى لبعض الوحدات الفرنسية ·

وفي الساعة الرابعة عشرة تم الجلاء نهائيا عن بور فؤاد · وقبل أن يصعد
الجنرال بوفر الى السفينة الحربية كلود برنار توجه لتحية الجنرال ستوكويل
والاميرال دانفوردسلايتر والماريشال الجوى بارنت على ظهر السفينة الحربية
البريطانية تين ، وقامت فرقة موسيقية في زيها الرسمي بعزف تحية التكريم ·
كان الوداع وديا ومؤثرا ، ففي هذه اللحظة تلاشت الخلافات التي حدثت في
الاسابيع الاخيرة ، وحلت محلها المشاعر العاطفية وذكرى العمل المشترك ·

ولما أسدل الليل ستاره استعدت السفينة كلود برنار للابحار وبدأت
بور سعيد ـ التي بدت هادئة طول اليوم ـ تنتعش · وفي هدوء ابتعدت السفن
عن الميناء وكلها مضاءة ، ولما تحركت السفينة كلود برنار اكتشف الضباط الذين
التفوا حول الجنرال بوفر منظر استحوذ على قلوبهم · فحينما حاذت هذه السفينة
المدمرة الانجليزية جورج ليج أضيء الجزء الخلفي من المدمرة وعزفت الموسيقى
الانجليزية مقطوعة السامبر والميز الفرنسية ، في حين رفع الاميرال لانسلو يده
بالتحية ووقف حوله جنود البحرية يؤدون معه التحية ·

لوبستر :

وقد جرت احتفالات مشابهة لدى البريطانيين الذين اهتموا أيضا بتمثال فرديناند ديلسبس القائم عند مدخل القناة فى القطاع البريطانى ، وقد لفوا العلم البريطانى على احدى ذراعى ديلسبس ولفوا العلم الفرنسى على ذراعه الاخرى • وأقيم خلف التمثال صار يحمل علم صاحبة الجلالة ، وتسلقه ضابطان شابان يحملان قدوما ومسامير ووعاء به شحم وثبتوا فوقه العلم البريطانى • وكلما هبطوا قليلا أخذوا يدهنون الخشب بالشحم بوفرة حتى لا يستطيع أن يتسلقه أحد من بعدهم • لقد بقى كبار الضباط على رصيف الميناء حتى آخر لحظة وكلهم أمل فى رؤية الملازم مور هاوس ولكن دون جدوى • وانتهت عملية صعود الجنود فوق السفن وأخذت مكبرات الصوت فى مختلف السفن تذيع كلمة واحدة « لوبستر » أى جمبرى كبير ، اشارة تعنى أن كل شىء قد تم • وكانت المدمرة دوشس آخر سفينة تغادر بور سعيد ، وقد رفعت مدافعها • ومن البر انطلقت نيران البنادق والمدافع الرشاشة من كل مكان، ولكنها تحاشت الاقتراب من السفن التى أخذت فى الابتعاد عن الشاطىء • وغاصت الحملة فى ظلام الليل فى حين انطلقت فى المدينة الصواريخ المضيئة ، وتقدم الجيش المصرى تحت أنظار جنود الامم المتحدة الذين كانوا يتطلعون بغير مبالاة ، لكى يدخل بور سعيد ، بعد أن أصبح أخيرا وحده فى الميدان ، وأصبح أيضا وحده المنتصر •

تحرير سيناء :

ومع ذلك فلم تكن هذه هى آخر مُهمة يقوم بها هذا الجيش ، فقد بقى عليه أن يحرر سيناء • واذا كانت اسرائيل قد سحبت قواتها الى مسافة ٥٠ كيلو مترا من حدودها فانها ظلت تسيطر على جزء غير صغير من الاراضى المصرية •

وكانت حكومة القاهرة لا ترغب فى محاولة استرداد هذا الجزء من أراضيها بالقوة ، اذ أنها لم يفتها أن الازمة الدبلوماسية تكون فى صالحها أكثر من الازمة العسكرية ٠

ولم يكن الاسرائيليون يفكرون فى البقاء طويلا فى شبه جزيرة سيناء ، ولكنهم كانوا يبغون الحصول على ضمانات دولية تضع نهاية لهجمات الفدائيين القادمين من غزة وتضمن حرية الملاحة فى مضيق تيران بخليج العقبة ٠

وفى ٢١ ديسمبر أعلن السكرتير العام للامم المتحدة أن اسرائيل ستسحب قواتها شرقى العريش ، ولن تظل تحتل سوى ممر غزة وشريط ضيق من الارض على طول الحدود مضافا الى ذلك شرم الشيخ وجزر المضيق المجاور ٠

وفى ٢٧ ديسمبر وافقت الحكومة الاسرائيلية على تبادل الاسرى ، ولكن جرت اذ ذاك أحداث فى بور سعيد أثرت على الموقف فى سيناء ٠ ففى اليوم التالى لرحيل البريطانيين بادر الجيش المصرى الى انزال تمثال ديلسبس عن قاعدته ، وفى اليوم التالى ٢٤ ديسمبر أمر السكرتير العام للامم المتحدة القوات الدولية بالبدء فى الجلاء وتسليم الاراضى المصرية لاصحابها الشرعيين ٠ لكن هذه القوات لم تبحر ، وانما تراجعت نحو الحدود الاسرائيلية لتشكل حاجزا بين القوات الاسرائيلية والقوات المصرية ٠ وفى اليوم نفسه أرسل همرشولد مندوبين الى القاهرة للتعجيل بأعمال تطهير القناة ، وقد توصل المندوبان يوم ٢٦ ديسمبر الى اتفاق مع الحكومة المصرية فى هذا الشأن ٠

وبانتهاء العام انتهت سلطة القوات الدولية فى مصر ٠ ولكن اذا كان احتلال الفرنسيين والبريطانيين والقوات الدولية للاراضى المصرية قد انتهى ، فقد بقيت مشكلة تسوية مصير قطعة الارض المصرية التى تتمسك بها اسرائيل كضمان ٠

وفى ٢٥ يناير ١٩٥٧ طالبت خمس وعشرون دولة أفرو أسيوية الجمعية العامة للامم المتحدة بالعمل على تحقيق انسحاب القوات الاسرائيلية الموجودة فى الاراضى المصرية وذلك فى خلال خمسة أيام .

وجدير بالذكر أن اسرائيل التى كانت مستمرة فى انسحابها لم تعد تحتل حينئذ سوى ممر غزة وساحل المضيق .

وفى يوم ٢ فبراير وافقت الامم المتحدة على قرارين : أولهما يطالب بانسحاب اسرائيل بسرعة ، أما ثانيهما فهو يوصى بأن يعقب هذا الانسحاب بذل الجهود اللازمة لتوفير ظروف السلام فى المنطقة .

وفى اليوم التالى تلقى بن جوريون رسالة من أيزنهاور أعرب له فيها عن سروره لان الجمعية العامة قد وعدت بالمضى قدما فى توفير ظروف السلام ، وأضاف أنه ينبغى مقابل ذلك أن تنسحب القوات الاسرائيلية فى أسرع وقت وقبل أية مناقشته .

وقد رد بن جوريون على أيزنهاور يوم ٨ فبراير وأفهمه أنه اذا أطاعت اسرائيل الامم المتحدة فورا فسيتضاءل أملها فى منحها أية ضمانات فيما بعد .

وأوضح بن جوريون الشروط التى وضعها لسحب القوات قائلا :

« اننا مستعدون لسحب قواتنا على الفور من شرم الشيخ اذا حصلنا على ضمانات تتيح لنا حرية المرور فى المضيق ، ونحن أيضا مستعدون لسحب قواتنا من غزة والا نترك فيها سوى الادارة المدنية والبوليس طبقا لطلب الامم المتحدة » .

وقد ذكر رئيس الحكومة الاسرائيلية أيزنهاور — الذى هدده فى رسالته باجراءات الامم المتحدة المحتملة ضد بلده — بأن مصر لم يتخذ ضدها أى اجراء

حينما كانت تخالف قرارات مجلس الامن وقرارات الجمعية العامة ولم تكف عن مخالفتها منذ ثمانى سنوات ، كلما كانت اسرائيل طرفا فيها .

وقد شارك جانب كبير من الرأى العام الامريكى اسرائيل فى وجهة نظرها ، وحث الحكومة الامريكية على الاعتراف بأن الضمانات التى تطلبها اسرائيل ليس مبالغا فيها ، بل انها على العكس ستساعد على اقرار السلام فى الشرق الادنى . واذا كانت الحكومة الامريكية لم تغير رأيها بين يوم وليلة فان كل شخص كان يشعر بأن ريحا جديدة بدأت تهب حينما أذاع دالاس يوم ١١ فبراير بالاتفاق مع الرئيس أيزنهاور « مذكرة » تتناول أهم المطالب الاسرائيلية ، وتعهد بمساندتها بعد انتهاء احتلال اسرائيل للأراضى المصرية . وكان المعتقد أن اسرائيل ستستجيب ، ولكنها لم تفعل ، بل طلب بن جوريون توضيحا لمذكرة دالاس فى حين استمرت دول الكتلتين الغربية الآسيوية والسوفييتية تطالب بتطبيق العقوبات على اسرائيل . وقد ذهب بن جوريون الى أبعد من ذلك ووجه يوم ١٨ فبراير نداء الى دالاس طالبا منه فيه تأجيل مناقشات الامم المتحدة حتى تتمكن لجنة غير منحازة من زيارة منطقة الشرق الاوسط ، ولكن دالاس لم يرد عليه . ومع ذلك وصلت بعد ذلك بيومين رسالة من أيزنهاور الى بن جوريون يبلغه فيها أنه بناء على طلبه فان المندوب الامريكى أيد اقتراح تأجيل المناقشات ، ولكن الرئيس الامريكى يأمل أن تقبل اسرائيل سحب قواتها فى أسرع وقت ممكن وفى اليوم نفسه – ٢٠ فبراير – استعرض ايزنهاور هذه المشكلات فى حديث أذيع بالراديو والتليفزيون ليبين علنا التزامات الولايات المتحدة وليجذب الرأى العام الى جانب الحكومة الامريكية .

حاولت اسرائيل تأجيل المناقشة مرة أخرى ، وكلفت أبا ايبان مندوبها فى الامم المتحدة بالعمل على تعويق الوصول الى اتفاق بالنسبة لمشكلات العقبة وغزة . لقد رغبت اسرائل فى تسوية مشكلة العقبة مع المماطلة فى مناقشة مشكلة غزة .

وفى هذه المرة رأى المسئولون فى نيويورك وواشنطن أن اسرائيل تجاوزت الحدود ، ومالت الحكومة الامريكية من جديد ناحية العرب • وقد قدم اقتراحان للجمعية العامة أولهما تقدمت به الدول العربية وطالبت فيه بفرض عقوبات سياسية وعسكرية واقتصادية ضد اسرائيل ، وثانيهما تقدمت به الولايات المتحدة الامريكية وهو شبه انذار لاسرائيل بالجلاء عن الاراضى المصرية فى مدى مدة تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة • وقد تبع هذا الانذار اقتراح أمريكى بوقف المناقشات حتى يمكن اجراء محادثات مع حكومة اسرائيل • وهنا كان الضغط مباشرا ، فقد أمسكت واشنطن بزمام الامور فى يديها ، ووجدت اسرائيل نفسها من جديد أمام تحالف عام لامم العالم ، فيما عدا بريطانيا وفرنسا وبعض الدول الصديقة •

وحينئذ قدمت بريطانيا وفرنسا مساعدتهما لحليفتهما ، وكانت مساعدة فرنسا علنية فى حين كانت مساعدة بريطانيا عن طريق كندا • وقد اقترحت الدولتان أن تكون الضمانات الممنوحة لاسرائيل لا عن طريق الامم المتحدة ـ بسبب عداء الدول العربية والشيوعية ـ ولكن من داخل الامم المتحدة ، بحيث تقدمها مجموعة من الدول ذات النفوذ ، ومن الافضل أن تكون من الدول البحرية • وتقدم هذه الدول الى الجمعية العامة تصريحين : أولهما يضمن حرية المرور للسفن الاسرائيلية فى مضيق تيران مع حفظ حق اسرائيل فى الدفاع عن نفسها ضد أى عدوان عليها فى هذا القطاع ، والثانى يتناول موضوع غزة ويؤكد أن قوات الامم المتحدة الدولية ستبقى فى منطقة غزة الى أن يستقر السلام •

وقد تم الاتفاق على هذه الاسس فى أول مارس ١٩٥٧ ، وفى اليوم نفسه أعلن وزير خارجية اسرائيل ـ متحدثا باسم حكومته ـ فى الجمعية العامة أن القوات الاسرائيلية ستنسحب من منطقة غزة وشرم الشيخ ، لكن اسرائيل

استمرت فی وضع شروطها • ففيما يتعلق بغزة طلب الاسرائيليون أن تشرف القوات الدولية وحدها على المنطقة بعد رحيل الاسرائيليين وأن تبقى هذه القوات فی غزة الى أن يعقد الصلح •

وفيما يتعلق بشرم الشيخ أعلنت اسرائيل أنها تضع فی اعتبارها أن حرية الملاحة فی مضيق تيران ستكون مكفولة وأن القوات الدولية ستبقى فی شرم الشيخ وتحتفظ بحقها فيه وفی قطاع غزة للتدخل عسكريا اذا ما حدثت اضطرابات • وقد أعلن المندوب الامريكی هنری كابوت لودج أنه أحيط علما بالبيان الاسرائيلی ، وأنه يری أن مضمونه يتمشی مع موقف الرئيس ايزنهاور وموقف السكرتير العام للامم المتحدة • لكن المندوب الامريكی صرح كذلك بأن انسحاب القوات الاسرائيلية لا يمكن أن يكون مشروطا بأی شرط وأن مصير منطقة غزة يجب أن يسوی فی اطار اتفاقيات الهدنة مع أمله فی بقاء ادارة الامم المتحدة فی غزة مادام لم يعقد اتفاق نهائی بين الطرفين المتنازعين •

أما فيما يتعلق بالعقبة فان الولايات المتحدة قد أيدت حرية الملاحة فيها ، وضمت صوتها الى دول أخرى على أساس الاعتراف دوليا بهذه الحرية •

وقد ذعر الاسرائيليون لاستناد كابوت لودج الى شروط الهدنة ، ولكن بن جوريون تلقى فی اليوم التالی رسالة من أيزنهاور ينبئه فيها بالقرار الذی اتخذ ويقضی بسحب قواته خلف خطوط الهدنة ، وأكد له أن الولايات المتحدة ستعمل على تحقيق الآمال التی ساورت النفس فی الايام الاخيرة بشأن تهيئة الظروف التی تكفل الهدوء والاستقرار فی الشرق الاوسط •

استقالة ايدن :

لقد وضع الجلاء عن سيناء نهاية للطيش العسكری الذی وقع فی نوفمبر ، وغادرت القوات المتحالفة أرض مصر نهائيا ، فطويت صفحة من التاريخ • ولكنها طويت بحسرة ومن غير ارادة من جانب اسرائيل ، قابلها بطء وتسليم من جانب

فرنسا وسرعة وبعض الحماس من جانب بريطانيا . والواقع أن الاتجاه السياسي في لندن كان قد انحرف بسرعة جعلت أنطوني ايدن يدرك يوم ١٤ ديسمبر - وبعد ثلاثة أسابيع من الاستجمام قضاها في جامايكا - أن الموقف قد تغير ان لم يكن قد أصبح مناقضا لما كان عليه قبل سفره . وقد أصاب التغيير طريقة التفكير نفسها ، فحين حضر رئيس الوزراء أمام مجلس العموم يوم ٢٠ ديسمبر استقبل بعاصفة من السخرية من جانب خصومه العمال . ولم يؤثر فيه ذلك كثيرا ، لكن الذى أثار فيه شعورا عميقا من الاسى هو الفتور الواضح والتحفظ الذى ينم عن عدم الرضاء الذى قابله به أصدقاؤه السياسيون من أعضاء حزب المحافظين .

كان هذا التحفظ بالنسبة له أبلغ من الاستنكار الذى لقيه من هؤلاء الناس الذين صفقوا لتصريحاته العسكرية في الاسابيع الماضية . كانت هذه علامة بأنه لم يعد يملك تأييدا سياسيا كافيا ، وأن الوقت قد حان لكى يتخلى عن الحكم .

كان رئيس الوزراء وقتئذ مريضا فقد كان يشكو من أن المرارة لا تعمل كما ينبغي ، وكان الوقت الذى يكرسه للعناية بصحته أكثر من الوقت الذى يكرسه للدولة .

وفي ١٤ يناير سنة ١٩٥٧ أى بعد شهر من عودته من جزر الانتيل قدم استقالته للملكة واعتزل الحياة السياسية .

مصير القناة :

لكن مسألتي ترك ايدن للحكم والجلاء عن سيناء لم تكونا - برغم أهميتهما - سوى جزء من كل ، فقد كانتا مجرد بعض تصفية للعملية بعد التصريح الفرنسي البريطاني يوم ٣ ديسمبر ١٩٥٦ ، وبقيت بعد ذلك تسوية المشكلة الاساسية ، وهي ملكية القناة وتعويضات الشركة ، كما بقى اتخاذ الاجراءات التى يمكن أن

تسمح فى المدى البعيد باستئناف العلاقات الدبلوماسية • وفى هذا الوقتحدثت تعقيدات جديدة ، اذ أن مصر أرسلت يوم ٢٤ ديسمبر الى الامم المتحــدة تطلب تعويضات عن الخسائر التى أصابتها بسبب هجوم أكتوبر ـ نوفمبر •

وماذا كان الموقف فيما يتعلق بالقناة ذاتها ؟

كان النص الاساسى تتضمنه اتفاقية القسطنطينية ، ولم تحقق المحاولات الدبلوماسية التى أجريت فى الصيف ولا المغامرة العسكرية التى تمت فى الخريف أية حلول ، وعند استئناف الملاحة لم تكن هناك أية لائحة لتشغيل القناة معترف بها دوليا •

ان ما كانت تريده مصر هو أن تعترف دول القسطنطينية بقرار التأميم الذى اتخذته فى شهر يوليو ، وكانت الولايات المتحدة تريد الوصول الى حل من غــير عقد اجتماع لهذه الدول • اذ أن الولايات المتحدة كانت تخشى أن تكون هــذه سابقة تؤدى الى اثارة مشكلة قناة بناما ، لأن حقوق الامريكيين فيها ليست أكثر ثباتا من حقوق الفرنسيين والبريطانيين فى قناة السويس •

لقد انتهت الاتصالات الدبلوماسية التى حدثت فى الصيف الى القرار الذى اتخذه مجلس الامن يوم ١٣ أكتوبر وتبودل تفسير نصوصه بين همرشولد ومحمود فوزى فى رسالتين بتاريخ ٢٤ أكتوبر و ٢ نوفمبر •

وكانت هذه النصــوص هى التى آتخذتهــا فرنســا وبريطانيــا أساســا لمحادثاتهما يوم ٣ ديسمبر ، كما كانت أساسا آخر بنت عليه الشركة العــالمية لقناة السويس وجهة نظرها الجديدة •

لكن قرار أكتوبر لم يوضح نظام القناة فى المستقبل • لقد قيل أن عملية تشغيلها ستكون مستقلة عن سياسة جميع الدول ، ولكن لم يذكر أحد من الذى سيقوم بتشغيلها ومن الذى سيتولى أعمال الصيانة فيها • فهل تقوم بتشغيلها

هيئة المنتفعين بالقناة ؟ لم يكن أحد يعلم شيئا عما سوف يحدث • ان الجزء الثانى من القرار يعين الدول الاعضاء فى هيئة المنتفعين كمديرين مؤقتين للقناة ، لكن هذا الجزء ألغاه الفيتو السوفييتى • ورسالة السكرتير العام للامم المتحدة يوم ٢٤ أكتوبر التى تلخص محادثات همرشولد فوزى ، كانت تشير الى تحقيق التعاون بين هيئة مصرية ـ هى هيئة قناة السويس ـ وهيئة الدول المنتفعة بالقناة ، وقد قبلت الحكومة المصرية الشروط التى وردت بالرسالة فى الثانى من نوفمبر • ولكن حدث عقب ذلك الهجوم على بور سعيد ، فاعتبرت حكومة القاهرة هذا العمل العسكرى حادثا جديدا يترتب عليه الغاء الموافقة التى أعطتها من قبل • وقد وضعت الحكومة المصرية فى تقديرها أنها لا ترتبط الا بالقرار الذى ووفق عليه بالاجماع يوم ١٣ أكتوبر ويعترف لمصر بملكية القناة ويعتبرها أيضا مسئولة عن تشغيلها وصيانتها •

ووجهة النظر هذه شاركتها فيها الدول الافر آسيوية والدول الشيوعية ، كما شاركت فيها الحكومة الامريكية ولكن بحماس أقل •

وكان هناك منفذ واحد أمام الشركة العالمية لقناة السويس ، وهو المطالبة بتعويض طبقا للمادة ٦ من القرار الصادر يوم ١٣ أكتوبر • لهذا توجه المدير العام للشركة العالمية يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩٥٦ الى السكرتير العام للامم المتحدة ليبلغه وجهة نظر الشركة ، وذكره بالنصوص التى وافقت عليها الامم المتحدة فى أكتوبر ، واعتبر النقطة السادسة من القرار الصادر يوم ١٣ أكتوبر ـ والذى وافق عليه مجلس الامن ـ غير واضحة وفى حاجة الى ايضاح قبل أن تستخدم كأساس لاتفاق دولى •

وما الايضاحات التى تريدها الشركة ؟

انها تريد أن تقتصر نتائج التأميم على أراضى مصر وحدها ، وفيما عدا ذلك تتولى لجنة تحكيم دولية تحديد مبالغ التعويضات • وأخيرا ـ وهنا نقطة الخلاف ـ

ترغب الشركة في وضع أحكام مناسبة لدفع المبالغ المستحقة للشركة ، وذلك بموجب امتياز يعطى للشركة حق الحصول عليها من ايرادات القناة مستقبلا أو تخصيص مبالغ لحسابها يتم تحصيلها فى نطاق عملية مالية ذات طابع دولى ٠

اذن فالشركة لم تتنازل عن تحصيل نسبة معينة على رسم المرور فى القناة ، فى حين أن الحكومة المصرية لا توافق مطلقا على منح الشركة هذا الحق ٠

ولم يؤد التجاء الشركة الى السكرتير العام للامم المتحدة الى نتيجة ، فقد كان الشغل الشاغل للجميع فى هذا الوقت هو مسألة تطهير قناة السويس وتحقيق جلاء الاسرائيليين عن سيناء ٠

وفى منتصف فبراير كانت عمليات تطهير القناة قد تقدمت بحيث أصبح متوقعا اعادة تشغيلها فى شهر أبريل ٠ لذلك استأنفت الشركة هجومها الدبلوماسى ، وكتب مديرها رسائل الى حكومات الدول الغربية التى لها مصالح بحرية ٠ وفيما عدا حالة واحدة فانه لم يتلق اجابات سوى علم الوصول ٠ أرسلت السويد ردها توصى بطريقة ودية باجراء تحكيم دولى ، وتحدثت عن التعويضات العادلة ٠

وفى ٦ فبراير اتجه جاك جورج بيكو المدير العام للشركة من جديد الى همرشولد ليذكره بحقوق الشركة فيما يتعلق بجباية الرسوم ٠ وقد اعتبر هذا الطلب فى غير محله ، حتى أن السكرتير العام لم يهتم بالرد على الرسالة ٠

ولكن قبل ذلك ببضعة أيام اتخذ المدير العام للشركة قرارا آخر ، فقد اتجه الى مدير البنك الدولى للانشاء والتعمير ، هذا البنك العالمى الشهير الذى بحث من قبل مسألة القرض الخاص بانشاء السد العالى ٠

ان ما كان يطلبه جاك جورج بيكو هو تدخل البنك الدولى بوصفه هيئة دولية لتحصيل رسوم القناة ٠ هل كانت هذه فكرة شخصية لمدير الشركة أو

كانت ـ وهذا هو الاكثر احتمالا ـ مشروعا درس فى الخفاء وأوحى به للشركة ؟ ومع ذلك فان يوجين بلاك مدير البنك الدولى رد على جاك جورج بيكو يوم ١٢ فبراير بأن البنك الدولى لم يتلق بعد أى اقتراح يتعلق بتحصيل رسوم المرور فى القناة ، ولكنه أخذ علما بوجهة نظر الشركة فى هذا الموضوع . وبقيت المسألة معلقة .

المذكرة المصرية :

اقترب موعد اعادة فتح قناة السويس ، وأصبح من الضرورى وضع لائحة قانونية لتشغيلها . ومما كان يقوى من موقف الحكومة المصرية الخسائر التى لحقت بها من الهجوم الذى تعرضت له فى أكتوبر ـ نوفمبر ومساندة الدول الافرو أسيوية والدول الشيوعية لها . وكانت الحكومة المصرية مصممة على أن تحتفظ وحدها بحق الاشراف على القناة مع احترام لائحتها الدولية . لذلك كان من الطبيعى أن تؤكد الحكومة المصرية من جانبها هى فقط وجهة نظرها ، لأن وجهة النظر هذه لا يمكن أن تقبلها عن طيب خاطر كل الدول وبخاصة فرنسا وبريطانيا الموقعتان على اتفاقية القسطنطينية . وقد قدمت الحكومة المصرية مذكرة الى الامم المتحدة يوم ١٨ مارس ١٩٥٧ تتعهد فيها باحترام روح اتفاقية القسطنطينية ونصوصها .

وفى هذه المذكرة حددت مصر موقفها تجاه مسألة رسوم المرور التى ستبقى على ما هى عليه من غير تغيير ، أى طبقا للاتفاق الاخير الذى عقد بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس المؤممة . وقد قررت مصر أن يتم دفع جميع رسوم المرور ـ مقدما ـ لهيئة قناة السويس التى منحتها يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ سلطات ومسئوليات الشركة العالمية . وقد تناولت المذكرة موضوع التعويضات : « ان مشكلة التعويضات والمطالبات التى نتجت عن تأميم القناة ستكون موضع تسوية مباشرة أو تحكيم » .

وكانت التسوية المباشرة مستحيلة ، لأن الشركة العالمية تمسكت بحقوقها السابقة على التأميم وطالبت بنصيب من الرسوم على المرور ، بينما كانت الحكومة المصرية تطلب الاعتراف بالتأميم قبل فتح باب المحادثات مع أصحاب شركة القناة السابقين •

واذ اتجهت النية الى التحكيم ، روعى أن يكون ثمة حكم يوافق عليه الجانبان ، ومن ثم انحصر اختياره بين السكرتير العام للامم المتحدة والحكومة الامريكية وهيئة دولية من الامم المتحدة تتمتع بنفوذ كاف يمكنها من ابداء وجهة نظرها من غير أن يظهر ذلك رسميا ، على أن تظفر مثل هذه الهيئة بثقة مصر • ولم يكن يملى كل هذه الشروط سوى البنك الدولى ومديره يوجين بلاك •

الورقة الأخيرة :

على أن الاتجاه الى التحكيم أو المصالحة لم يحقق أية نتيجة ، بل بالعكس فان الشركة العالمية حين أحست بأنها تلعب بآخر ورقة بين يديها أخذت تشن حملة هوجاء • وقد كتب مديرها الى سفير الولايات المتحدة فى باريس والى القائم بالاعمال المستر يوست والى السكرتير العام للامم المتحدة يؤكد لكل منهم أن الشركة لن تتنازل عن أى حق من حقوقها وخصوصا حقها فى تحصيل رسوم المرور بالقناة • وفى الرسالة التى أرسلت الىالقائم بالاعمال الامريكى قال مدير الشركة أنه يود أن ينبه حكومة الولايات المتحدة الامريكية الى خطورة مثل هذا القرار ، وكان يعنى بذلك دفع رسوم المرور الى الحكومة المصرية •

وقد أخطرت الشركة أيضا بوجهة نظرها فى هذا الشأن دوجلاس ديللون، السفير السابق للولايات المتحدة فى باريس الذى أصبح مساعدا لوزير الخارجية الامريكية •

وقد رد مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة يوم ٦ مايو بأن حكومته مهتمة بحقوق الشركة وأنها ستواصل البحث داخل الامم المتحدة وخارجها عن تسوية دولية مرضية ، وذلك لتشغيل القناة بما يطابق المبادىء الستة التى وافق عليها مجلس الامن يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وأضاف دوجلاس ديللون قائلا ان الولايات المتحدة طلبت عقد جلسة خاصة لمجلس الامن لدراسة البيان المصرى الذى صدر يوم ٢٤ أبريل ١٩٥٧ ، وكان من رأى المندوب الامريكى فى المجلس أن هذا البيان لا يتفق فى صورته الحالية مع نص القرار الذى وافق عليه مجلس الامن ، وأن اعادة الثقة تتوقف على الطريقة التى تنفذ بها التعهدات التى تضمنها تصريح آخر ابريل ، وأنه ريثما تقدم مصر الدليل على ذلك فان السفن الامريكية لن تدفع رسوم المرور الى مصر الا بموجب تحفظات ٠

وهكذا فان الولايات المتحدة كانت على رأس الدول الغربيـــة التى قررت دفع رسوم المرور الى مصر مباشرة ، وان كانت قد اشترطت تحفظات لتتأكد فى خلال فترة من الوقت أن الحكومة المصرية تنوى احترام تعهداتها ٠

وتلت أمريكا جميع حكومات العالم الحر الواحدة بعد الاخرى ، فقد قررت كلها دفع رسوم المرور الى مصر ٠ وهكذا تبدد لدى شركة قناة السويس آخر وهم كبير لها ، وكانت مزية مديريها أنهم أدركوا حينئذ أنه ينبغى عليهم المبادرة الى انقاذ ما يمكن انقاذه من الاثاث قبل أن تلتهم النار كل المنزل القديم !

تأميم شركة القناة :

تم تأميم الشركة ، بمعنى أن أعضاءها تخلوا عن جميع مطالبهم باعتبار شركتهم شركة دولية ـ أو من باب أولى شركة مصرية كما كانت تسمى من قبل حين يبدو أن ذلك من صالحها ـ لمجرد أنها أرادت لنفسها أن تكون فرنسية عن طريق القانون الصادر فى أول يونيه سنة ١٩٥٧ ، ولم تكن هذه الخطوة مجرد اجراء شكلى ٠ واذا كان هذا القانون لم يصدر قبل ذلك ، فذلك يرجع الى أن

الشركة كانت تريد أن تحتفظ بطابعها الدولى لتبرر مطلبها فى نصيب من رسم المرور فى القناة ، اذ لم تكن أية هيئة لتقبل دفع المرور لشركة فرنسية محضة • لكن منذ اليوم الذى أنكرت فيه كل الحكومات ـ التى احترمت التعليمات المصرية ـ مطالب الشركة لم تعد لها مصلحة فى التمسك بصفة الدولية التى أنكرتها عليها جميع الدول تقريبا ، وعلى العكس فانها حين أصبحت شركة فرنسية بدأت تطالب بممتلكاتها الثابتة والمنقولة التى لها خارج مصر تؤيدها فى ذلك الدبلوماسية الفرنسية والدبلوماسية البريطانية اذا أمكن • ولم تترك الاحتمالات التحكم أو التسوية سوى الممتلكات الموجودة فى مصر والتى فقدت الامل فى استعادتها •

وغالبية ممتلكاتها خارج مصر موجودة فى أربع دول غربية هى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسويسرا ، وكانت الشركة تعتمد بالطبع على مساندة فرنسا وبريطانيا • ولكى تضمن مساعدة الولايات المتحدة وسويسرا أخذت تلعب بورقة الدفاع عن الرأسمالية • وهو المذهب الذى ترتبط به هاتان الدولتان ، فالولايات المتحدة ترتبط به كمبدأ وسويسرا ترتبط به من أجل المال •

وكان اللعب بهذه الورقة مفيدا • ولكن الامر اقتضى عقد جلسة للامم المتحدة ، وتدخل من نواح كثيرة ، ورحلة ليوجين بلاك مدير البنك الدولى للانشاء والتعمير الى القاهرة فى أكتوبر ١٩٥٧٧ ، ورحلة للسكرتير العام للامم المتحدة الى القاهرة أيضا فى ديسمبر ١٩٥٧ ، وذلك كله لكى تجرى فى روما فى الفترة بين ٩ و ٢٢ فبراير ١٩٥٨ محادثات مباشرة بين ممثل الشركة والمندوبين المصريين تحت اشراف البنك الدولى • ثم جرت محادثات أخرى فى روما فيما بين ٣١ مارس و ٤ أبريل ١٩٥٨ وانتهت باتفاق من حيث المبدأ اقتضى عدة شهور لتنفيذه ، وأخيرا تم اتفاق نهائى فى روما بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٥٨ •

وبناء على هذا الاتفاق اعترفت مصر بملكية الشركة العالمية لجميع ممتلكاتها فى الخارج ، وتعهدت بأن تدفع لها مقابل ممتلكاتها فى مصر مبلغ ٢٨٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى يدفع منها مبلغ مبدئى ويقسط الباقى على ست سنوات من غير فائدة

ويكون الدفع على أساس أن الجنيه المصرى يساوى ٢٫٨٧١ دولار ، على أن يدفع ٤٠٪ من المبلغ بالجنيه الاسترلينى • ولما كانت الشركة نفسها تقدر أنموجوداتها فى الخارج تبلغ قيمتها ١٩٢ر٥٧٨ر٧٤٤ر٥٧ فرنك فاننا نرى أنها لم تخسر كثيرا فى هذه الصفقة • نعم لقد سلبت من ملكيتها ولكن هذه الملكية قد سددت قيمتها منذ فترة طويلة ، وترك لها بعد ذلك نحو مائة مليار فرنك لاصحابها المساكين !

ولقد اجتاز مندوبو الشركة هذه الازمة من غير أن يضطروا الى مد أيديهم أو الى التسول ، وأوضحت حسابات عام ١٩٥٧ أنه فى خلال هذا العام ـ عام البؤس الذى لم تكن تملك فيه الشركة قناة ولم تحصل فى خلاله رسوم مرور ، ولم تكن تملك سوى اليأس ـ تحققت زيادة فى الايرادات تبلغ ١٠٣ر٢٣٩ر٦١١ فرنك •

لقد قضت الحكومات فترة أطول من الوقت لكى تستعيد علاقاتها القديمة ، الا أن هذه قصة أخرى لعبت الجزائر والعراق واليمن وبطبيعة الحال البترول دورها فيها ، انها قصة تخرج عن نطاق هذه الدراسة •

ولا يبقى فى نهاية المطاف سوى عمل الحساب الختامى ، لان ذلك يساعد عادة على معرفة كيف سارت الامور ، كما أنه يساعد على معرفة من الذى خسر ، ومن الذى كسب وهل كان هذا كله يساوى الجهد الذى انفق فيه !

الفصل التاسع عشر

حساب الأرباح والخسائر

هذا فصل الانتصارات، واذا كان وجيزا فلان الانتصارات لا تحب الانتظار. على أنه لا غنى عنه ، لان كل واحد من أبطال الرواية يطالب بنصيبه فى هذه الانتصارات ولا يقبل الاعتراف بفشله بأى حال .

ان عبد الناصر يتيه فرحا وبهجة لانه يعتقد أنه كسب على طول الخط . ولعل انتصاره الحقيقى هو أنه حافظ على سلطته من غير أن يخسر فى سبيلها المزايا التى استطاعت بلاده أن تحصل عليها مؤقتا ، بفضل جرأته واندفاعه .

وموسكو تشعر بالرضى والسرور ، لأن الحكومة السوفييتية تعتقد أن البرقية التى أرسلها بولجانين الى الفرنسيين والبريطانيين والاسرائيليين مهددا فيها بالويل والثبور وعظائم الامور تعتبر مفتاح حل الازمة والعامل الحاسم الذى قلب سير الامور رأسا على عقب .

أما أيزنهاور فقد كان يعتقد أن المسألة انتهت على خير ما ينبغى ويريد ، وأنه يستطيع أن يتسلق بهدوء ـ كما قال للسفير الفرنسى فى واشنطن ـ السلم الذى يتيح له المثول أمام الله ويداه نظيفتان وضميره مستريح وقلبه غير مثقل بالذنوب .

ودالاس كان قرير العين مرتاح الفؤاد ، لانه استطاع مهما يكن الثمن ، أن يفرض سياسته التى رسمها • ثم ان أصحاب ناقلات البترول لم يخسروا شيئا فى نهاية المطاف ، ولم تكن لديهم أسباب تبعث على الشكوى ، لانهم استطاعوا على أى حال آن يحتفظوا بعقودهم وكذلك بأرباحهم •

ولعل من الغرابة بمكان أن المعسكر المعارض لم يكن أقل بهجة وحبورا ، فبن جوريون برغم قرارات الامم المتحدة لم يكن أقل نشوة بخمر النصر ، فقد كان يعتقد أن وسائله العدوانية هى التى حققت لاسرائيل أسباب الامن والسلامة•

وفى المذكرات التى كتبها أنطونى ايدن على عجل يتضح لنا أن رئيس الوزراء البريطانى الاسبق كان يحس بالرضى لسلامة أحكامه وصواب قراراته •

وفى فرنسا نجد بورجى مونورى يعلن أن تدخل الجيش الفرنسى فى مصر وفر على العالم كوارث كبرى • أما جى موليه فانه يشرح الامر بطريقة أكثر غموضا ، فيقول ان التفسيرات الحقيقية لحملة السويس لن تظهر الا فيما بعد • وهذا القول لا يخلو من جرأة لفظية كبيرة ! ولعل المنتصر الحقيقى فى فرنسا كان كريستيان بينو وزير الخارجية ، فهو يتحدث عن النتائج للحملة ويقول فى ابتهاج انها حققت النصر فى العقبة وفى غزة ويضيف : « ان العملية بالنسبة لاسرائيل كانت مربحة ومجزية ، وان معدل هذا الربح لا يقل عن ثلاثين مليار فرنك » •

ولعل مما يثير الدهشة سواء فيما يتعلق بجى موليه أو بورجى مونورى أو كريستيان بينو أو غيرهم من الوزراء الفرنسيون الاقل أهمية ـ مثل الير جازييه ـ شدة اهتمامهم بسلامة اسرائيل وحزنهم على ما ارتكبته من أخطاء وابتهاجهم بما حققته من انتصارات • وليس فى وسع المرء الا أن يتساءل : ألم يكن نصف هذا الحماس والولاء لاسرائيل كافيا لتغيير مجرى كثير من الاحداث لو أنه وجه لمصالح فرنسا ؟ ان مصالح اسرائيل ـ مهما تكن قيمتها ـ لاعلاقة لها على أى حال بمصالح فرنسا ، اننا اذا دفعنا النقاش الى مدى بعيد نستطيع أن نقول ان اسرائيل لم تكن سوى عذر أو مخلب قط ، لا أكثر ولا أقل •

الأرباح والخسائر :

وهكذا كان جميع الناس مسرورين ، ولكن الارقام والوقائع والحقائق قلما تحس بمشاعر البهجة التى تغمر النفوس ٠

ماذا خسرت مصر ؟

لا شيء تقريبا ، فيما عدا القليل من جيشها ٠

وماذا كسبت ؟

السيطرة على قناة السويس ، والحصول على قدر أكبر من الحرية فى توجيه اقتصادها ، أما عبد الناصر فقد أصبح فى نظر الشعوب الافريقية والاسيوية « البطل الذى يقاوم الاستعمار » ٠

وفى نظر اسرائيل كان حساب الارباح والخسائر ايجابيا ، فهى ترى أنها حققت حرية الملاحة فى مضيق تيران وبذلك أصبح ميناء ايلات قادرا على الاتصال بجنوب اسرائيل وفتح أمام اسرائيل منفذا يصلها بالطرق البحرية التجارية ٠ وترتب على « تحييد » منطقة غزة ووجود قوات الامم المتحدة كحاجز بين الجيوش المصرية والاسرائيلية ضمان أمن اسرائيل وسلامتها ٠

ولكننا اذا دققنا النظر نجد أن هذه الارباح ليست واضحة وضوحا تاما ٠ فميناء ايلات ليس سوى بضعة أحجار غارقة فى المياه فى طرف الصحراء ، وليس الرئة الاقتصادية التى تسمح لاسرائيل بتفادى الاختناق ٠ ثم ان وجود قوات الامم المتحدة عند غزة ليس هو الذى يمنع غارات الفدائيين ، فهذه الغارات يمكن أن تتجدد فى أى وقت ٠

وفضلا عن ذلك كله فان الهجوم الذى قامت به اسرائيل فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٥٦ ضد مصر ، والطريقة التى تم بها اعداده ، والاخطار التى كان يمكن

أن يتعرض لها السلام العالمى بسببه .. كل هذا خلق عن اسرائيل فكرة سيئة ، وأصبحت الدول الكبرى تخشى التصرفات المتسمة بقصر النظر التى تقوم بهـــا الدول الصغيرة القابلة للانفجار ، مثل اسرائيل . كما أصبحت الدول الافرو أسيوية تنظر الى اسرائيل على أنها أداة يستخدمها الاستعمـــار البريطانى والفرنسى فى كفاحه اليائس لوقف الحركة التحررية فى دول العالم الثالث .

وفى فرنسا كان الحساب عسيرا والنتائج لا تسر الحكام المتفــائلين . فعقب حملة السويس صودرت ممتلكات الفرنسيين الخاصة فى مصر وطرد الفرنسيون من البلاد أو اعتقلوا أو سجنوا أو وضعوا تحت المراقبة أو تعرضوا للفقر والاملاق بعد أن فقدوا وظائفهم من غير أن يحصلوا على تعويض . وكان القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية بوضع الحراسة على الممتلكات الفرنسية وقطع العلاقات التجارية وغيرها مع العدو بمثابة ضربة قاضية للنشاط الفرنسى فى مصر فى المجـــالات الثقافية والتجارية والصناعية . وقد تأثر بهذه التدابير فى المجال الثقافى ستون ألف تلميذ كانوا يدرسون فى المدارس والمعـــاهد الفرنســية وكذلك المعلمون الفرنسيون الذين كانوا يعملون فى المدارس الثانوية والمعاهد العليــا ورجــال الآثار والعلماء الفرنسيون .

وقدر مجموع الخسائر الفرنسية فى القطاع الصناعى والتجارى نحو ٤٠٠ مليار فرنك قديم ، أى نحو أربعة مليارات فرنك جديد . فقد وضعت الحـكومة المصرية تحت الحراسة أربعة بنوك فرنسية كبرى هى بنك الـكريدى ليونيــه ، والكونتوار ناسيونال دى بارى والبنك العثمــانى والـكريدى دوريان . كذلك شركة الرهونات المصرية ، وتسع شركات فرنسية للتأمين وفروعهــا والمصــالح الفرنسية فى ثلاث مؤسسات للائتمان العقارى ، والشركة العامة لتكرير السكر ومعامل تكرير البترول ، والشركة المصرية للبترول ، وثلاثة مصــانع تعتمد على شركة الغاز السائل وغيرها .

وتشمل الخسائر أيضا العقود الصناعية التي فقدها الفرنسيون وهذه العقود تضمنها الاتفاق الذى وقعته مصر وفرنسا فى مارس ١٩٥٤ وتشمل تكليف شركة كهرباء فرنسا القيام ببحوث عامة لانتاج واستخدام الطاقة الكهربائية فى مصر ، وانشاء مصنع للاسمدة الازوتية فى أسوان وانشاء شبكة كهربائية فى القاهرة - وقيمة هذا العقد ٦٠٠ مليون فرنك - وانشاء محطة كهربائية فى شبرا وقيمة هذا العقد ١٨٨ مليون فرنك ، وانشاء محطة لتنقية المياه فى المنصورة وقيمة هذا العقد ٥٠ مليون فرنك ، وتوريد ٢٠٠ ألف من العوارض الخشبية اللازمة للاشغال البحرية وقيمة هذا العقد ٣٣٦ مليون فرنك ، وانشاء خمسة خزانات للبترول سعة كل منها عشرة آلاف متر مكعب فى مدينة الاسكندرية ، وخمسة خزانات للبترول سعة كل منها خمسة آلاف متر مكعب فى القاهرة وانشاء عشرين قاطرة سكة حديد طراز باسيفيك لخط القاهرة الاسكندرية الخ ٠٠

ومهما يكن من شأن هذه الخسائر الفادحة فانها لا تشمل غير ناحية واحدة من القصة كلها ٠ وقد بذلت جهود قوية فيما بعد للتخفيف من آثارها أسفرت عن عقد اتفاقية فى زيوريخ يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٨ لاعادة العلاقات الثقافية والاقتصادية والمالية بين فرنسا ومصر الى حالتها الطبيعية ، ولكن ذلك بعد مضى شهر من عقد تسوية بين الحكومة المصرية وبين الشركة العالمية لقناة السويس ، وبعد مضى شهر أيضا تقريبا من تولى حكومة جديدة شئون الحكم فى فرنسا ٠ وقد نصت اتفاقية زيوريخ بصفة خاصة على انهاء التدابير الخاصة التى اتخذت ضد الرعايا الفرنسيين فى مصر ، ورفع الحراسة عن ممتلكاتهم واعادتها اليهم أو دفع قيمتها لهم ٠

وقد عملت الحكومة البريطانية بدورها على اعادة علاقاتها التجارية مع مصر الى حالتها الطبيعية فى أسرع وقت ممكن ٠

وفى شهر ديسمبر ١٩٥٨ قامت لندن بجس نبض حكومة القاهرة بشأن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، ولكن عبد الناصر أخذ يماطل مدة

عام كامل ، ولم يتم استئناف هذه العلاقات الا فى شهر ديسمبر ١٩٥٩ ، وفيما يتعلق بفرنسا فان هذه الخطوة لم تتم بمثل هذه السرعة فاستمرار النزاع الجزائرى الفرنسى والتضامن الذى كان يبديه عبد الناصر تجاه المتمردين الجزائريين جعل مسألة استئناف العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا ومصر سابقة لأوانها . ولكن اعلان استقلال الجزائر أزال آخر العقبات التى كانت تعترض تحقيق هذه الخطوة .

وهكذا عادت العلاقات بين مصر وكل من بريطانيا وفرنسا الى حالتها الطبيعية . وقال عبد الناصر : « نحن نصفح ، ولكننا لا ننسى قط » .

فشل حلف شمال الأطلنطى :

ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن تسوية الازمة التى هددت كل هذه المصالح وعرضت للخطر أرواح عدد كبير من الناس لا يمكن أن تتم بمجرد استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الخصوم القدماء ، فقد تركت هذه الازمة أيضا آثارا لا تمحى فى المجال الدولى .

وكان أوضح مثال على ذلك الضربة التى وجهت الى حلف شمال الاطلنطى، وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة أخلت بتعهداتها تجاه هذا الحلف . فقد احترمت حرفية معاهدة حلف شمال الاطلنطى ، ولكنها لم تطبق سوى النصوص التى تتفق مع مصالحها . فلماذا اذن صدمت بريطانيا وفرنسا صدمة شديدة من تصرف الولايات المتحدة ؟ ان سبب ذلك هو الاوهام التى كانت تستحوذ على جماعة من الطبقة الحاكمة فى هاتين الدولتين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهى أوهام جعلتهم يعتقدون أن العم سام سيحميهم بعصاه السحرية تحت تهديد الشيوعية من غير أن يناقشهم فى ذلك أقل مناقشة أو يحاسبهم أقل حساب ، ولكن الدرس الامريكى كان قاسيا وكان بمثابة نهاية ثقة أوروبا فى أمريكا . وهذا ما صرح به كبار رجال البنوك فى سويسرا !

وقد كان هذا رأى فرنسا أيضا على الاقل ، لان بريطانيا ظلت تجرى وراء أوهامها برغم الدرس القاسى ، وبلغ من قوة نفوذ المصالح الامريكية أن استطاعت أمريكا أن تفرض على الانجليز رئيس حكومة يمثل فى نظر الامريكيين فكرة العلاقة الخاصة التى تربط بين الدولتين ، وهو هارولد ماكميلان الذى كان بمثابة عبد أفريقى فى امبراطورية الامريكيين • أجل استطاعت الدوائر الامريكية أن تفرض ارادتها فى هذا المجال برغم أنف دوائر الاعمال البريطانية التى كانت تعارض هذا الاتجاه •

ومع هذا فقد ظل البريطانيون محتفظين بقدرتهم على المناورة ، واستطاعوا التأثير على واشنطن واقناعها بالتدخل لانقاذ الجنيه الاسترلينى •

أما فى القارة الاوروبية فقد كان الامر مختلفا ولا سيما فى فرنسا حيث نبتت بذرة كراهية الامريكيين التى ساهمت أزمة السويس فى نموها وازدهارها، وقد روج لهذه الكراهية عدد من الاشتراكيين الفرنسيين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من المحافظين ، وينادون بدعوة صيانة الوطن • وانتهت دعوتهم بالمناداة للمحافظة على المستعمرات ، واستغلوا لهذا الغرض وطنية الجماهير •

الروس والأمريكيون :

يعتقد كثير من الناس ان أزمة السويس حققت للسوفييت قدرا كبيرا من النجاح جعلهم يسيطرون على المسرح السياسى فى الشرق الاوسط • ولكن هؤلاء الذين يرقبون التطور السياسى فى هذه المنطقة لم يفتهم ملاحظة أن معظم الدول العربية أظهرت حذرا شديدا فى مساندة الرئيس عبد الناصر فى الوقت الذى كانت فيه مثل هذه المساندة يمكن أن تجر عليهم عواقب وخيمة • وكان من رأى بعض الناس أن هذا كان دليلا كافيا على أن النفوذ الغربى فى الشرق الاوسط لا يزال أقوى مما قد يبدو لأول وهلة ، وقد أثبتت السنوات التالية أن «التغلغل» الروسى المزعوم فى هذه المنطقة من العالم قد جر عليهم المتاعب وملأ نفوسهم بالمرارة •

وكانت الدولة التى انتصرت على طول الخط فى هذه المنطقة هى الولايات المتحدة ، فما أهدافها السياسية فى الشرق الاوسط ؟ أليست المحافظة على مراكزها الاستراتيجية وحماية مصالحها البترولية وتأييد حركة مناهضة الاستعمار الشاملة للدول المختلفة التى لا تزال تقع تحت نفوذ الدول الاستعمارية القديمة ؟ أن الولايات المتحدة استطاعت أن تصل الى هذه الاهداف كلها ، واذا كان السوفييت قد ظهروا فى خلال أزمة السويس بمظهر الظافرين مؤقتا فان المنتصرين الحقيقيين والوحيدين هم الامريكيون ، ولا أحد غيرهم ٠

قناة السويس تنتعش من جديد :

لقد اتضح أن المخاوف التى كانت تساور الغربيين فيما يتعلق باحتمال عجز المصريين عن ادارة قناة السويس لم يكن لها نصيب من الصحة ٠

اذ ارتفع مجموع حمولة السفن التى تعبر القناة يوميا من ٣٩٣ر٠٠٠ طن عام ١٩٥٧ الى ٥١٢ر٠٠٠ طن عام ١٩٦١ ، وهذا الرقم يزداد ارتفاعا كل يوم منذ ذلك التاريخ ٠ والايرادات السنوية التى بلغت ٣١ مليونا و ١٠٠ ألف جنيه استرلينى عام ١٩٥٥ وصلت الى ٥٠ مليونا و ٤٠٠ ألف جنيه استرلينى عام ١٩٦٠ وذلك من غير أن تضاف أية زيادة على رسوم المرور فى القناة ٠

وأجريت فى قناة السويس تحسينات ضخمة، ورفع من المجرى ما حجمه مائة مليون متر مكعب من الرمال ، ونتج عن ذلك أنه بعد أن كانت تمر فى القناة سفن لا يزيد عمق غاطسها على عشرة أمتار وواحد وخمسين سنتيمترا أصبحت تمر فيها سفن يبلغ عمق غاطسها ١١ر٢٧ مترا ثم ١٢ر١٩ مترا ، كما اتسع سطح القناة حتى وصل عرضه الى ٢٠٠ متر ، وهذا الرقم فى ازدياد مطرد ٠ وقد تمت كل هذه الاعمال بواسطة قروض حصلت عليها مصر من البنك الدولى ، والمصريون يفخرون بأن التحسينات التى أجريت على القناة فى خلال الاعوام الستة التى أعقبت التأميم تبلغ ثلاثة أمثال التحسينات التى قامت بها الشركة العالمية لقناة السويس فى خلال سبعين عاما ٠

السلام ٠٠ فى الطريق :

ولم تبق بعد ذلك كله سوى مشكلة واحدة لم تحل بعد ، ألا وهى العلاقات الاسرائيلية المصرية التى لا يمكن فصلها عن المشكلة الاوسع نطاقا ، ونعنى العلاقات بين اسرائيل وبين الدول العربية كلها ، ويبدو أن حل هذه المشكله لا ينتظر أن يتم فى المستقبل القريب ٠ ولكن اذا كان الشرق الاوسط يضم بلاد الحكايات العجيبة ، فهو أيضا منطقة المفاجئات المدهشة ٠

لقد أفاق عبد الناصر من بعض الصدمات الشديدة التى أصابته وأظهر أنه رجل دولة بمعنى الكلمة ٠

ان الحرب الباردة قد ابتعدت عن منطقة الشرق الاوسط ٠ حقا انها قد تعود يوما ما ، ولكنها اذا لم تفعل ، فلا شىء يمكن أن يمنع أن تحل محل أشباح الماضى الملعون ـ فى هذه المنطقة التى عمتها الاضطرابات والفتن ـ تباشير السعادة والهدوء فى كلمة السلام ٠

الملحقـــات

لما كان من الضرورى أن نضع تحت أعين القارىء بعض الوثائق الرسـمية التى لم يطلع عليها سوى نفر قليل من المتخصصين وكانت هذه الوثائق تشـكل مستقبل القناة تحت الادارة المصرية ومطالب الدول الاجنبية فى هذا المضمار ، فقـد سـقنا فيمـا يلى نصوص قرار مجـلس الامن فى ١٣ أكتوبر والخطـابات الموجهة من المسيو داج همرشولد الى الدكتور محمود فوزى بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٧ ثم التصريح البريطـانى الفرنسى بتـاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ والمذكرتين المصريتين المؤرختين فى ١٨ ، ٢٤ مارس سنة ١٩٥٧ .

وقد استبعدنا الوثائق التى تعتبر من التاريخ الماضى كالاتفاق بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس .

ملحـق ١

قرار مجلس الامن يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦

(الجزء الذى ووفق عليه باجماع الاصوات)

مجلس الأمن :

بعد الاطلاع على التصريحات التى تم النطق بها أمامه وعلى محاضر المحادثات الاستكشافية عن موضوع السويس والمقدمة من السكرتير العام للأمم المتحدة ومن وزراء خارجية مصر وبريطانيا وفرنسا ، قرر أن أية تسوية لموضوع السويس يجب أن تحقق المطالب الآتى بيانها :

١ ـ يكون المرور عبر القناة حرا ومفتوحا لجميع الدول بدون تمييز .

٢ ـ تحترم سيادة مصر على القناة .

٣ ـ تعزل ادارة اقناة عن سياسة آية دولة .

٤ ـ تحدد الرسوم بالاتفاق بين مصر والدول التى تستخدم القناة .

٥ ـ يخصص نصيب عادل من الرسوم لتحسين القناة .

٦ ـ فى حالة وقوع أى نزاع أو ظهور مشـاكل لا يمكن حلهـا بين شركة القناة والحكومة المصرية ، يسـوى هـذا النزاع بالتحـكيم بشروط معقولة وبطرق مناسبة لدفع الاموال التى يثبت استحقاقها .

* * *

الجزء من القرار الذى ووفق عليه بتسعة أصوات

ضد صوتين (الاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا)

والذى استعمل الاتحاد السوفييتى بشأنه حق الفيتو

يرى المجلس أن مقترحات الدول الثمانى عشرة تتفق والالتزامات المبينة فيما تقدم وتؤدى الى الوصول الى تسوية لموضوع قناة السويس بوسائل سلمية ومتفقة مع العدالة .

وقد أحيط المجلس علما بأن الحكومة المصرية على الرغم من أنها أبدت فى المحادثات الاستطلاعية استعدادها لأن تقبل مبدأ تعاون منظم بين سلطة مصرية وبين المنتفعين ، فانها لم تتقدم حتى الآن بمقترحات محددة تحديدا كافيا للاستجابة الى المطالب المشروحة أعلاه .

ويدعو المجلس حكومات مصر وفرنسا والمملكة المتحدة الى مواصلة تبادل وجهات النظر ، كما يدعو فى هذا الشأن الحكومة المصرية لأن تقدم بسرعة المقترحات الخاصة بارساء نظام يتمشى مع المطالب المشار اليها ، ويقدم للمنتفعين ضمانات ذات فاعلية عن تلك التى تحققها مقترحات الدول الثمانية عشر .

ويقرر المجلس أنه انتظارا لابرام اتفاق منظم لعملية القناة بصفة نهائية على أساس المطالب السالف بيانها يجب على جمعية المنتفعين بقناة السويس التى أعطيت لها سلطة تحصيل الرسوم المدفوعة من السفن المملوكة للمشتركين فى هذه الجمعية وعلى السلطات المصرية المختصة أن تتعاون لضمان تشغيل القناة بصورة مرضية والمرور الحر والمفتوح بالقناة طبقا لاتفاقية عام ١٨٨٨ .

ملحـق ٢

الخطاب الموجه من سكرتير عام الأمم المتحدة الى وزير خارجية مصر حول تفسير مواد قرار مجلس الأمن المؤرخ فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦

يتشرف السكرتير العام بالاشارة الى الموضوع المعنون بـ « الموقف الناشىء عن الاجراء من جانب واحد الذى اتخذته حكومة مصر بانهاء نظام الادارة الدولية لقناة السويس أى النظام المؤيد والمستكمل بمعاهدة قناة السويس عام ١٨٨٨ » وهو الموضوع الذى عرض على مجلس الامن . وقد أشير فى نهاية مداولات المجلس يوم ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ بأنه يجوز للسكرتير العام أن يواصل تقديم خدماته الطيبة

وفى خلال الاسبوع اللاحق لبحث هذا الموضوع بمعرفة مجلس الامن وحتى يوم سفر وزير خارجية مصر السيد محمود فوزى فى ١٩ أكتوبر قام السكرتير العام باجراء عدة أحاديث معـه بغرض الاستطلاع وتحديد الامكانيـات القائمة لايجاد حل لمشكلة القناة يتفق مع المطالب التى حددهـا مجلس الامن ، ثم وجه السكرتير العام فى ٢٤ أكتـوبر خطابا لوزير خارجية مصر سعى فيـه الى شرح الاستنتاجات التى استخلصها عن الملاحظات التى أبديت أثناء سلسلة محادثات خاصة تمت حتى ١٩ أكتوبر ، وقد أبلغ السكرتير العام هذا الاجراء الى وزيرى خارجية بريطانيا وفرنسا .

وقد تلقى السكرتير العام اجابة عن خطـابه المؤرخ فى ٢٤ أكتوبر ، ولمـا كان هذا الخطاب بالاضافة الى كتاب السكرتير العام يقدم ـ فى رأى السـكرتير العام ـ عنصرا جديدا هاما فى الموضوع وفقا لمـا أراده مجلس الامن فقـد رأى السكرتير العام وجوب نشر هذين الخطابين على أعضاء المجلس .

رسالة سكرتير عام الأمم المتحدة

في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٦

عزيزي الدكتور فوزي :

لا شك أنكم تذكرون أنه عقب اختتام المحادثات التي دارت حول موضوع السويس قد شرعت في أن ألخص طبقا لوجهة نظري ما تبين لي من هذه المحادثات، وتناولت ليس فقط المطالب التي أقرها مجلس الامن بل أيضا ـ في صورة موجزة ـ الترتيبات التي تعرض لها البحث كوسائل لتحقيق هذه المطالب . غير أنه بسبب ضيق الوقت لم يكن في الامكان دراسة هذه الترتيبات بصورة مرضية .

وقبل مغادرتكم نيويورك فتحت موضوع تحديد التاريخ والمكان الذي يمكن أن تستأنف فيه هذه المحادثات الاستطلاعية في حالة ما اذا رأت الحكومات الثلاث المعنية بالامر أنه من المفيد استئنافها . والحاقا لهذه الملاحظات التي لم أتلق عنها حتى الآن اجابة لا من سيادتكم ولا من سلوين لويد أو بينو أود فيما يتعلق بي أن أشرح كتابة الموقف الواجب دراسته ـ وفقا لوجهة نظري ـ في حالة استئناف المحادثات الاستطلاعية .

وهنا أيضا فان ما أعمله ليس التقدم بمقترحات خاصة من عندي أو صياغة أية مقترحات مقدمة منكم أو من أي من المشتركين في البحث بل فقط ـ كما فعلت عقب اختتام المحادثات الخاصة في نيويورك ـ أود أن أشرح في عباراتي الخاصة النتائج التي استخلصتها من الملاحظات التي قدمت أثناء المحادثات الخاصة ـ وهذه الملاحظات لا تربط أحد ـ مع اضافة بعض توضيحات من عندي عن بعض

النقط بحسب تفسيرى الشخصى لمغزى هذه المحادثات حيث لم تتم معالجة الموضوع بالكامل • وسواء وافقتم سيادتكم على هذه العبارات أم لا توافقون عليها فانه قد يكون من المفيد أن أعلم منكم ما اذا كنت قد فسرت النتائج الخاصة بالتبادل الاول لوجهات النظر تفسيرا صحيحا ، حيث ان وجهات النظر هذه قد تصلح اطارا لمباحثات استطلاعية أخرى :

١ ـ فقد فهمت من سير المباحثات أنه لا صعوبة هناك فى تكرار التأكيد القانونى للالتزامات الناشئة من اتفاق القسطنطينية ، وأن هذه نقطة شكلية فقط وليست موضوعية • كما استخلصت أيضا أنه من المستطاع دون مشقة توسيع نطاق الالتزامات المنصوص عنها فى هذا الاتفاق لتصبح مطبقة على الشئون الآتية : الحد الاقصى للرسوم ـ الصيانة والتحسين ـ الرجوع الى الأمم المتحدة •

٢ ـ كذلك بحسب تفسيرى للمناقشة لا عقبات هناك بشأن موضوع قانون استعمال القناة ولائحته من الناحية الموضوعية حيث ان الموقف بشأن هذه النقط بقدر ما فهمته هو أنه لا يوجد أى اتجاه ، وان أية تعديلات على قانون استعمال القناة ولائحته من شأنه أن يسفر عنها وضع قواعد تكون أقل قبولا عن القواعد القائمة • كما فهمت ـ فوق ذلك ـ أن هذه التعديلات ستكون موضع مشاورة •

٣ ـ كذلك بحسب ما وضح لى لا تقوم أيضا أية عقبات بشأن موضوع رسوم القناة ومصروفاتها ، حيث أنه وفقا لما بدا من المناقشات سيكون موضوع تحديد الرسوم والمصروفات مرتبطا بوضع اتفاق • وكذلك موضوع تخصيص شطر من المتحصلات لتحسين القناة •

٤ ـ أما مبدأ قيام تعاون منظم بين السلطات المصرية والمنتفعين فلا يترك مجالا فى نظرى لقيام أى خلاف ، بل أن الواضح أن تنشأ هناك سلطة تدرس

بعناية الاجراءات الواجب اتخاذها ، فتكون منفذة للمطالب الثلاثة الاولى التى قررها مجلس الامن . والنقط الآتى بيانها ـ وفقا لتفسيرى لمغزى المناقشات ـ تعالج النواحى الخاصة بايجاد تعاون منظم :

(أ) يستوجب هذا التعاون بطبيعة الحال وجود هيئة من الجانب المصرى (سلطة ادارة قناة السويس) وهيئة ممثلة للمنتفعين تعتمدها هيئة القناة (والحكومة المصرية) ومخولة بسلطة التحدث باسمهم .

(ب) يجب تحديد عقد اجتماعات مشتركة بين الهيئة المصرية والهيئة الممثلة للمنتفعين فى النطاق اللازم الذى يحقق هذا التعاون .

(ج) يكون للهيئة الممثلة للمنتفعين ـ فى اطار هذا التعاون ـ حق استعراض جميع الوسائل المتعلقة بالرسوم وبمصالح المنتفعين ، لتكون محلا للمناقشة والتشاور وكذا تقديم الشكاوى . على أنه من الجانب الآخر يجب على الجانب الممثل للمنتفعين فى مزاولة اختصاصاته ألا يعمل بصورة تعيق سير الشئون الادارية للهيئة القائمة بادارة القناة .

(د) ان التعاون الواجب قيامه على أساس النقاط أ ، ب ، ج السالف بيانها لن يفى بالمطالب الثلاثة التى اشترطها مجلس الامن الا اذا كان منظما بالاحكام الملائمة لذلك فى النواحى الآتية : التحقيقات ـ التصالح ـ التسويات القضائية، وذلك بخطة مناسبة ، وكذا ما يطرأ من خلافات والضمانات الخاصة بتنفيذ القرارات سواء فى حالات التصالح أو التسويات القضائية للخلافات .

(هـ) ١ ـ فيما يتعلق بالتحقيقات يمكن ادماج نص يجعل للطرف المختص الحق فى الاشراف بصورة مباشرة على الوقائع الخاصة بالموضوع أو ايجاد جهاز دائم مشترك يمثل فيه الطرفان تمثيلا ملائما ٠

٢ ـ يجوز أيضا ايجاد جهاز دائم شرعى للتصالح ٠

٣ ـ فى حالة ما اذا لم يتيسر فض الخلافات حول الشئون العملية أو غيرها من المسائل المتعلقة بالعملية عن طريق الوسائل السابق شرحها فانه يجوز الرجوع ـ بحسب الحالة ـ اما الى جهاز تحكيم آخر قد يكون الرجوع اليه ضروريا بالنسبة لطبيعة الموضوع محل الخلاف أم لمحكمة العدل الدولية (التى سيكون فى هذه الحالة اختصاصها حتميا) واما لمجلس الامن (أو لأية هيئة أخرى للامم المتحدة يمكن تشكيلها وفقا لميثاقها) ٠

وانى على يقين من أن ما ستقدمونه سيادتكم لى من ملاحظات على التفسيرات التى أوضحتها ستكون ذات قيمة عندى فى اتصالاتى مع الاطراف الاخرى ـ وانى فى حاجة للوقوف على ما تحدثه هذه التفسيرات من آثار ـ وهى قد تمهد الطريق الى تحقيق تقدم يتجاوز المرحلة التى وصلت اليها المحادثات الخاصة ؟

السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة

داج همرشولد

ملحق (٣)

تصريح الحكومتين البريطانية والفرنسية الى السكرتير العام للامم المتحدة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦

---

١ - التصريح الخاص بانسحاب القوات :

تأخذ الحكومتان البريطانية والفرنسية علما بما يأتى :

(أ) تصل قوة دولية قوية منوطة بتنفيذ قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة الصادرة فى ٢ ، ٧ نوفمبر الى مصر .

(ب) يكلف سكرتير عام المنظمة بمسئولية مباشرة تطهير قناة السويس فى أسرع وقت ممكن .

(جـ) طبقا لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة تعود حرية الملاحة وتأمينها فى القناة الى ما كانت عليه بمجرد تطهيرها .

(د) يقوم السكرتير العام بالشروع فى أقرب وقت فى المفاوضات حول النظام المستقبل للقناة على أساس المبادىء الستة التى وضعها مجلس الامن فى ١٣ أكتوبر .

(هـ) تؤكد الحكومتان البريطانية والفرنسية قرارهما بمواصلة سحب قواتها بدون ابطاء من منطقة بور سعيد .

٢ ـ تصريح خاص بمستقبل القناة :

فيما يتعلق بالمفاوضات المتعلقة بالنظام القادم للقناة ترى الحكومتان البريطانية والفرنسية انه بالاضافة الى المبادىء الستة الواردة فى قرار مجلس الامن الصادر فى ١٣ أكتوبر يصح أن يؤخذ فى الاعتبار ما يأتى :

(أ) مشروع القرار المقدم الى مجلس الامن من المملكة المتحدة وفرنسا بالتوصية بقبول مقترحات الدول الثمانى عشرة أو ما يعادلها وهى فى نظر الحكومتين تتضمن أحسن حل للمشكلة .

(ب) المباحثات التى دارت بين وزراء خارجية مصر وفرنسا وبريطانيا .

(ج) خطاب السكرتير العام للأمم المتحدة المؤرخ فى ٢٤ أكتوبر الى وزير خارجية مصر لما جاء بهذا الخطاب .

مذكرة من الحكومة المصرية

بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٥٧

منذ تولت مصر بنفسها شئون قناة السويس أكدت عزمها على التزام سياستها القاضية باحترام اتفاقية القسطنطينية التى عقدت سنة ١٨٨٨ وتمكنت من اثبات مقدرتها على ادارة الملاحة رغم الصعاب الجمة التى أقيمت فى سبيلها حتى تسبب العدوان على مصر فى غلق القناة .

وبمناسبة استئناف الملاحة فى قناة السويس ، فان الحكومة المصرية تعلن ما يلى :

١ ـ أن مصر ما زالت مصممة على احترام اتفاقية القسطنطينية المعقودة سنة ١٨٨٨ دما وروحا .

٢ ـ سيظل نظام فرض فئات المرور بالقناة كما هو طبقا للاتفاق الاخير بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس .

٣ ـ ان موضوع التعويضات والمطالب الناتجة عن التأميم يحل اما بالاتفاق المباشر واما بالتحكيم .

٤ ـ تدفع رسوم مرور السفن مقدما باسم هيئة ادارة قناة السويس فى مصر أو فى الجهة التى تعينها الهيئة .

٥ ـ سوف تخصص هيئة ادارة قناة السويس اعتمادا خاصا لبرامج التحسين أو أية برامج أخرى يقصد بها مواجهة التزايد فى حركة

الملاحه بالقناة ، على أن يرصد لتمويل هـذا الاعتماد جانب معين من رسوم المرور لا يقل عن متوسـط النسبة التى كانت شركة القنـاة السابقة تخصصها من رسوم المرور لمثل هذه البرامج .

٦ ــ ستصدر الحكومة المصرية قريبا بيانا تفصيليا عن كل ما تقدم .

وان هذا العزم من جانب الحكومة المصرية ليدل على أنها بالرغم مما تعرضت له من تضحيات مريرة نتيجة العدوان عليهـا ، فانها ما زالت صادقة النية فى التعاون مع المجتمع الدولى لتقوم بدورها فى تحقيق ما تصبوا اليه الانسانية من سلام ورخاء .

وان الحكومة المصرية ترجو أن تعود القناة كما كانت صلة خير وسـلام بين شعوب العالم جميعا .

رسالة من وزير خارجية مصر الى

السكرتير العام للأمم المتحدة

بتاريخ ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٧

يا صاحب السيادة :

يسر الحكومة المصرية أن تعلن أن قناة السويس أصبحت الآن مفتوحة للملاحة المعتادة ، وبهذا تصبح مرة ثانية حلقة للاتصال بين شعوب العالم فى خدمة قضية السلام والرفاهية .

وتود الحكومة المصرية أن تعرب عن تقديرها وامتنانها للجهود التى بذلتها دول العالم وشعوبه التى ساهمت فى اعادة فتح القناة للملاحة المعتادة ، وكذلك للامم المتحدة التى أمكن بفضل جهودها تطهير القناة بسلام وفى وقت قصير .

وقد حددت الحكومة المصرية فى مذكرة لها بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٥٧ القواعد الاساسية بشأن قناة السويس والترتيبات الخاصة بتشغيلها ، ونصت المذكرة على اصدار بيان مفصل آخر عن هذا الموضوع .

وتحقيقا لما سلف أتشرف بأن أرفق مع هذا صورة من البيان الذى أصدرته الحكومة المصرية اليوم بمقتضى اشتراكها فى اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ وفهمها لقرار مجلس الامن الصادر فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وما يتفق مع البيانات التى ألقتها فى هذا الشأن أمام المجلس .

وأتشرف بأن أسترعى انتباه سيادتكم الى الفقرة الأخيرة من البيان التى تنص على ايداعه وتسجيله لدى سكرتارية الأمم المتحدة . وان البيان بما يتضمنه من التزامات، ،يؤلف وثيقة دولية ، والحكومة المصرية ترجو أن تتسلموه وتسجلوه بهذا الوضع .

وانني لانتهز هذه الفرصة لاجدد لسيادتكم فائق التقدير .

المخلص لكم

(محمود فوزى)

وزير خارجية مصر

بيـــان

تعلن الحكومة المصرية ايضاحا للمبادىء التى ضمنتها مذكرتها بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٥٧ وحسب اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ وميثاق الامم المتحدة البيان التالى حول قناة السويس ونظام ادارتها ٠

١ ـ تأكيد الاتفاقية :

تظل سياسة حكومة مصر الثابتة وهدفها الاكيد احترام نص وروح اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ وما ينشأ عن هـذا من حقوق والتزامات ، وستواصل الحكومة المصرية احترامها ومراعاتها وتنفيذها ٠

٢ ـ مراعاة الاتفاقية وميثاق الامم المتحدة :

الحكومة المصرية اذ تؤكد عزمها على احترام نص وروح اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ والتزامهـا بميثاق ومبادىء وأهداف الامم المتحـدة لموقنة بأن بقية الموقعين على الاتفاقيه المذكورة وجميع الآخرين المعنيين بالامر ستحدوهم نفس هذا الروح ٠

٣ ـ حرية الملاحة ٠ الرسوم ٠ تحسين القناة :

والحكومة المصرية مصممة بوجه خاص على :

(أ) ايجاد ملاحة حرة مستقرة والاحتفاظ بها لجميع الامم فى حدود اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ ووفقا لأحكامها ٠

(ب) أن يظل دفع رسوم المرور طبقا لآخر اتفاقية ، وهى التى أبرمت فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس البحرية واذا حدثت زيادة فى الرسوم خلال اثنى عشر شهرا فلن تتجاوز هذه الزيادة ١٪ ، أما أية زيادة أكثر من هذا الحد فتتم بطريق المفاوضات، واذا تعذر الوصول الى اتفاق بهذه الطريقة فيلجأ الى التحكيم كما هو موضح فى الفقرة السابعة (ب) ٠

(ج) أن تصان القناة وتتطور طبقا لمقتضيات الملاحة الحديثة وسيتضمن برنامج صيانة القناة وتطويرها البرنامج الثامن والتاسع لشركة قناة السويس البحرية وما يدخل عليهما من تحسينات يرى ضرورتها ٠

٤ ــ التشغيل والادارة :

ستقوم الهيئة المستقلة لقناة السويس التى أنشأتها الحكومة المصرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بادارة وتشغيل القناة ٠ وتنظر الحكومة المصرية فى ثقة الى مزيد من تعاون دول العالم لجعل قناة السويس أكثر فائدة ٠ ولتحقيق هذا الغرض ترحب الحكومة المصرية وتشجع التعاون بين هيئة قناة السويس وممثلى الملاحة والتجارة٠

٥ ــ النظام المالى :

(أ) تدفع الرسوم مقدما لحساب هيئة قناة السويس فى أى بنك تختاره الهيئة لهذا الغرض ، وقد فوضت الهيئة البنك الأهلى المصرى للقيام بهذه المهمة وتجرى الان مباحثات بين الهيئة وبنك التسويات الدولية بشأن قبوله الرسوم لحسابها ٠

(ب) تقوم هيئة قناة السويس بدفع ٥٪ من جملة الايرادات للحكومة المصرية كرسم امتياز ٠

(ج) تقوم هيئة قناة السويس بانشاء صندوق رأس مال القناة وتحسينها يدفع فيه ٢٥٪ من جملة الايرادات • وسيضمن هذا الصندوق أن يكون تحت تصرف هيئة قناة السويس موارد كافية لمواجهة حاجات التحسين والمصروفات التى تحتاج اليها الهيئة للاضطلاع بالمسئوليات التى أخذتها على عاتقها واعتزمت القيام بها على أحسن وجه •

٦ ـ لائحة القناة :

ان القواعد التى تعمل القناة وفقا لها جمعت كلها فى لائحة القناة التى هى فى الواقع قانون القناة • وستخطر الجهات المعنية بأى تغيير يحدث فى هذه اللائحة وسيعالج أى تغيير يؤثر بأى شكل فى المبادىء او الالتزامات التى يتضمنها هذا البيان ويكون موضوع اعتراض أو شكوى لهذا السبب ، حسب الاجراء المنصوص عليه فى الفقرة السابقة (ب) •

٧ ـ التفرقة فى المعاملة والشكاوى المتعلقة بلائحة القناة :

(أ) عملا بالمبادىء التى نصت عليها اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ ، لا تستطيع هيئة قناة السويس بأية حال أن تمنح لاية سفينة أو شركة أو طرف من الاطراف أى امتياز أو رعاية لا تمنح للسفن أو الشركات أو الاطراف الاخرى فى ظروف مشابهة •

(ب) فى حالة وجود شكوى حول التفرقة فى المعاملة أو خرق للائحة القناة، يرجع الطرف المتقدم بالشكوى الى هيئة قناة السويس التى تنظر فيها وتعمل على حلها • وفى حالة عدم الوصول الى حل للشكوى باتباع هذه الطريقة يمكن عرض المسألة حسب رغبة الطرف المتقدم بالشكوى أو هيئة قناة السويس الى محكمة تحكيم تتكون من عضو يرشحه الطرف الشاكى وعضو ترشحه الهيئة وعضو ثالث يختاره اثنان • وفى حالة عدم الاتفاق على العضو الثالث يقوم رئيس محكمة العدل الدولية باختيار هذا العضو بطلب من أحد الطرفين المذكورين •

(ج) تصدر قرارات محكمة التحكيم حسب رأى أغلبية أعضائها ، وتكون القرارات ملزمة للاطراف عندما تصدر ويجب تنفيذها بحسن نية •

(د) تدرس الحكومة المصرية ما يتبع من اجراءات مناسبة لمعرفة الوقائع وللتشاور وكذلك للتحكيم فى الشكاوى الخاصة بلائحة القناة •

٨ ـ التعويضات والمطالب :

ان مسألة التعويضات والمطالب المتصلة بتأميم شركة قناة السويس البحرية سوف تعرض للتحكيم طبقا للمران الدولى القائم •

٩ ـ المنازعات والخلافات الناشئة عن الاتفاقية وهذا البيان :

(أ) ستسوى المنازعات والخلافات الناشئة عن اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ أو هذا البيان طبقا لميثاق الامم المتحدة •

(ب) ستحال الخلافات الناشئة بين الاطراف حول تفسير أو تطبيق نصوص اتفاقية سنة ١٨٨٨ الى محكمة العدل الدولية اذا لم تحل • وسوف تتخذ الحكومة المصرية الخطوات اللازمة لقبول حكم محكمة العدل الدولية الملزم طبقا لأحكام المادة ٣٦ من لائحة هذه المحكمة •

١٠ ـ الوضع القانونى لهذا البيان :

تصدر الحكومة المصرية هذا البيان الذى يؤكد من جديد اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨ كما يطابقها نصا وروحا كتعبير عن رغبتها وعزمها على أن تجعل من قناة السويس ممرا مائيا صاخا ووافيا يربط شعوب العالم ويخدم قضية السلام والرفاهية •

وهذا البيان بما يحوى من التزامات يكون وثيقة دولية • وسوف يودع ويسجل لدى سكرتارية الامم المتحدة •

رسالة السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة

الى وزير خارجية مصر

نيويورك فى ٢٤ أبريل ١٩٥٧

تشرفت بتلقى خطاب سيادتكم المؤرخ فى ٢٤ أبريل الذى أرفقتم معه النص الاصلى لتصريح صادر فى ٢٤ أبريل ١٩٥٧ فى موضوع قناة السويس والترتيبات الخاصة بادارتها وذلك بغرض ايداعه لدى الهيئة .

ووفقا لطلب سيادتكم تم ايداع هذا التصريح فى محفوظات الامم المتحدة .

وقد أحطت علما بأن هذا التصريح قد أبلغ أيضا بغرض توثيقه ، وانى أستنتج بأن الحكومة المصرية تعتبر هذا التصريح ارتباطا ذا صبغة دولية مما يقع تحت أحكام المادة ١٠٢ من الميثاق . وقد تم توثيقه طبقا للمادة الاولى من اللائحة الخاصة بتطبيق المادة السالف بيانها ، وسترسل الى سيادتكم شهادة بهذا التوثيق فى وقت لاحق .

وسينشر خطاب سيادتكم والتصريح المرفق به كوثيقة من وثائق الجمعية العامة ومجلس الأمن .

السكرتير العام

داج همرشيلد

الفهـرس

صفحـة

مقدمة المراجع . . . . ٣ —١٠

مقدمة المؤلف . . . . ١١ —١٩

الفصل الأول :

أجمل حفرة فى العالم . . . . . . ٢١ —٤٠

تزاوج العناصر ٢٣ ـ صك الامتياز ٢٥ ـ معارضة بريطانيا ٢٦ـ الالتجاء الى الشعب ٢٨ ـ الاكتتاب ٢٩ ـ الوصول الى حل ٣١ ـ الاسطول الانجليزى يتدخل ٣١ ـ مناورة لتأخير العمل ٣٣ ـ الفرع والاصل ٣٤ ـ أجمل حفرة فى العالم ٣٦ ـ حفل تدشين القناة ٣٧ ـ الرحلة ٣٨ ـ مهرجان فى الصحراء ٣٩ ـ الانتصار ٤٠

الفصل الثانى :

معارك أخرى من أجل القناة . . . ٤١ - ٦٤

على حافة الافلاس ٤٢ ـ متاعب الخديو ٤٣ ـ مخلب القط ٤٤ ـ فكرة اعادة شراء أسهم الخديوى ٤٥ ـ آل روتشلد ٤٨ ـ علاج الخزانة المصرية ٥٠ ـ شركة فرنسية انجليزية ٥١ ـ الافلاس ٥٢ ـ التدخل ٥٤ ـ الشركة فى خطر ٥٥ ـ معاهدة القسطنطينية ٥٧ ـ تحسين القناة ٥٨ ـ مشكلات ما بعد الحرب ٥٩ ـ سيدة عجوز واسعة الثراء ٦٣

صفحـة

الفصل الثالث :

رحلة فى طريق نهاية العبودية . . ٦٥ — ٨٤

وعود متناقضة ٦٧ ـ الهجرة اليهودية ٦٨ ـ استقلال مصر ٧٠ ـ سنوات ما بعد الحرب ٧٣ ـ متاعب فى فلسطين ٧٤ ـ اقتراح سوفييتى ٧٥ ـ حرب فلسطين ٧٧ ـ اضطراب الحالة فى مصر ٧٩ ـ نظام يحتضر ٨٣

الفصل الرابع :

من الحيـاد الى عدم الانحياز . . . ٨٥ — ١٠٦

الأطراف الثلاثة ٨٧ ـ أيزنهاور يظهر على المسرح ٨٩ ـ متاعب داخلية ٩٠ ـ المفاوضات الانجليزية المصرية ٩٣ ـ مصاعب فى الطريق ٩٥ ـ الخطر الاسرائيلى ٩٦ ـ ضغط جديد ٩٨ ـ ميثاق بغداد ٩٩ ـ سيد الموقف ١٠١ ـ روسيا تقوم بهجوم مضاد ١٠٣ ـ باندونج ١٠٤

الفصل الخامس :

الحرب الباردة وقطع الشطرنج . . ١٠٧ — ١٣٩

الغاية والوسيلة ١٠٨ ـ الحياد العربى ١٠٩ ـ المساعدات السوفييتية ١١٠ ـ تحسن الموقف ١١٣ ـ عودة التوتر ١١٤ ـ الأردن هى الهدف ١١٥ ـ تنسيق انجلو أمريكى ١١٩ ـ فرنسا تطالب ١٢٠ ـ السد العالى ١٢١ ـ الفتنة فى الأردن ١٢٤ ـ جى موليه فى لندن ١٢٥ ـ طلائع النزاع ١٢٧ ـ رحلات بينو ١٢٧ ـ وداعا : أو الى اللقاء ١٣٠ ـ ناصر وشركة القناة ١٣١ ـ وعود براقة ١٣٣ ـ لب المشكلة ١٣٤ ـ مبعوث البنك الدولى ١٣٥ ـ مؤامرة واشنطن ١٣٨

الفصل السادس :

الأزمة . . . . ١٤١ — ١٦٥

الخطاب ١٤٢ ـ رد الفعل ١٤٤ ـ الجمعة ٢٧ يوليو ١٤٧ ـ السبت ٢٨ يوليو ١٥٣ ـ فى ركن من غابة بولونيا ١٥٥ ـ الأحد ٢٩ يوليو ١٥٦ ـ الاثنين ٣٠ يوليو ١٦٠ ـ الثلاثاء ٣١ يوليو ١٦٣

صفحة

الفصل السابع :

المواجهة ١٦٧-٢٠٢

وجهة نظر الفرنسيين ١٦٨ - علاقات خاصة جدا ١٧٠ - سياسة الغموض ١٧١ - استرداد ما أخذه ناصر ١٧٥ - البيان المشترك ١٧٧ - ايدن فى مجلس العموم ١٧٧ - ما يدور فى باريس ١٧٩ - نداء الى الدول ١٨٢ - سننتصر لأننا الأقوى ١٨٣ - تحذير شيوعى ١٨٤ - دالاس ينكر ١٨٦ - أيزنهاور فى حيرة ١٨٨ - العالم العربى يسترق السمع ١٩٠ - نحو حل سلمى ١٩١ - ايدن يتكلم ١٩٢ - تأثير العرب ١٩٣ - العمال يتراجعون ١٩٥ - ناصر يتدبر أموره ١٩٩

الفصل الثامن :

المؤتمر ٢٠٣-٢٢٢

استعداد أمريكى ٢٠٤ - اتفاق فرنسا وبريطانيا ٢٠٧ - الشركة تبدى استياءها ٢٠٩ - التكتيك المضاد للغرب ٢١٠ - مسألة اجراءات ٢١١ - الرأى الأمريكى ٢١٢ - تحذيرات سوفييتية ٢١٤ - مناورات أفرو أسيوية ٢١٧ - انتهاء المؤتمر ٢١٩ - لجنة الخمسة ٢٢٠

الفصل التاسع :

الوجه الآخر للأمور ٢٢٣-٢٤٢

قيادة بريطانية ٢٢٤ - مشروع السلحفاه ٢٢٧ - العملية ٧٠٠ ٢٢٨ - الجيش المصرى ٢٢٩ - خلافات فرنسية بريطانية ٢٣٢ - باريس غير موافقة ٢٣٤ - ضغوط اقتصادية ٢٤٠

صفحــة

الفصل العاشر :

الأعذار والحجج . . . . ٢٤٣ – ٢٧٣

الاستفزازات ٢٤٥ ـ تخاوف الشركة ٢٤٧ ـ مشاجرة أو موقف ٢٤٩ ـ منزيس في القاهرة ٢٥١ ـ ماذا حدث في أثناء ذلك ٢٥٦ ـ التفاهم الودى ٢٦٠ ـ مسألة المرشدين ٢٦٤ ـ بدون أمريكا ٢٦٧ ـ الخطة « موسكيتير المعدلة » ٢٦٨ ـ رد الفعل الأمريكى ٢٧٠

الفصل الحادى عشر :

المماطلة . . . . ٢٧٥ – ٢٩٨

آخر ورقة في يد الشركة ٢٧٥ ـ مؤتمر لندن الثانى ٢٧٧ ـ مجلس الأمن ٢٨٠ ـ رسالة الماريشال بولجانين ٢٨٢ ـ مسألة البترول فى الأروقة ٢٨٤ ـ مجلس الأمن مرة أخرى ٢٨٦ ـ عواصف فى الأردن ٢٩٠ ـ الحيلة العسكرية ٢٩٤ ـ العقدة التى ليس لها حل ٢٩٧

الفصل الثانى عشر :

القــرار . . . . ٢٩٩ - ٣١٧

الضغط الأمريكى ٣٠١ ـ ناصر ينتظر ٣٠٣ ـ الشعور بالقلق فى باريس ٣٠٣ ـ الى الهجوم ٣٠٧ ـ حان وقت العمل ٣٠٨ ـ طائرات كامبيرا ٣١٠ ـ الخطة «أوميليت» ٣١٤ ـ القرار ٣١٥ ـ الفزع فى واشنطون ٣١٦

الفصل الثالث عشر :

الشرارة . . . . ٣١٩ – ٣٤٩

الخطة ٣٢٣ ـ اجتماع مجلس الوزراء فى القاهرة ٣٢٥ ـ ضربة واشنطون ٣٢٧ ـ فى صباح ٣٠ أكتوبر ٣٢٩ ـ الانذار النهائى ٣٣١ ـ ذهول فى القاهرة ٣٣٣ ـ عراك فى الأمم المتحدة ٣٣٤ ـ رجال البترول ٣٣٧ ـ صباح يوم ٣١ أكتوبر ٣٣٨ ـ فى هذا اليوم ، فى قبرص ٣٤٣ ـ قنابل على القاهرة ٣٤٥ ـ ذعر فى العالم ٣٤٦ ـ كشف الحساب الاسرائيلى ٣٤٨

صفحة

الفصل الرابع عشر :

الاشتباكات ٣٥١--٣٨٨

الحرب الجوية ٣٥٢ ـ انسحاب فى سيناء ٣٥٣ ـ المعركة غير المتكافئة ٣٥٦ ـ خلافات فى قبرص ٣٥٧ ـ غضب فى مجلس العموم ٣٥٩ ـ الأمم غير المتحدة ٣٦٠ ـ السيطرة على الجو ٣٦٢ ـ العمليات شرقى القناة ٣٦٣ ـ الاقتراح الأمريكى ٣٦٤ ـ تضامن عربى ٣٦٥ ـ تباطؤ فى قبرص ٣٦٧ ـ يوم ٣ نوفمبر ٣٧٠ ـ استمرار الجدل ٣٧٢ ـ الكيلو ١٦ ٣٧٤ ـ مهمة ليلية ٣٧٤ ـ تعليمات من ثلاث نقاط ٣٧٥ ـ هدف آخر ٣٧٧ ـ الاستعدادات الأخيرة ٣٧٨ ـ المعارك الأخيرة فى سيناء ٣٨٠ ـ فى جبهة الأمم المتحدة ٣٨١

الفصل الخامس عشر :

جلد الدب ٣٨٩--٤١٢

استراتيجية الصحراء ٣٩٧ ـ معركة الكواليس ٣٩٩ ـ الأمم المتحدة غاضبة ٤٠١ ـ الحرب السيكلوجية ٤٠٣ ـ رسائل من موسكو ٤٠٦ ـ فزع فى واشنطون ٤١١

الفصل السادس عشر :

الخوف ٤١٣--٤٣٣

البحث عن هدنة ٤١٥ ـ النزول الى جهنم ٤١٧ ـ باليه صغير للقواد ٤١٩ ـ انذار نهائى ٤٢١ ـ قلق فى الغرب ٤٢٢ ـ الخطر الكبير ٤٢٦ ـ المناقشة الأخيرة ٤٢٧ ـ وقف اطلاق النار ٤٣٠ ـ معركة دبلوماسية ٤٣٢

صفحـة

الفصل السابع عشر :

المكاسب . . . . ٤٣٥ -- ٣٦٣

عملية حكمت المحكمة ٤٣٦ ـ الضغط فى الامم المتحدة ٤٣٩ ـ باريس تخرج عن صمتها ٤٤٠ ـ القوات الدولية ٤٤٢ ـ تقارب أطلنطى ٤٤٤ ـ التهديد بالبترول ٤٤٦ ـ ضغط سوفييتى ٤٤٧ ـ زيارة لواشنطون ٤٤٨ ـ الفرصة الأخيرة ٤٤٩ ـ مناورات دبلوماسية ٤٥٢ ـ فى حيز مغلق ٤٥٤ ـ المماطلة ٤٥٧ ـ المنافسةعلى الاسترلينى ٤٦٠

الفصل الثامن عشر :

التصفية . . . . ٤٦٥ -- ٤٩٣

تقرير ماسو ٤٦٨ ـ وساوس الجنرال ٤٦٩ ـ تطهير القناة ٤٧١ ـ عقوبات مصرية ٤٧٤ ـ الحرب الثورية ٤٧٥ ـ الرحيل ٤٧٨ ـ لوبستر ٤٧٩ ـ تحرير سيناء ٤٧٩ ـ استقالة ايدن ٤٨٤ ـ مصير القناة ٤٨٥ ـ المذكرة المصرية ٤٨٩ ـ الورقة الأخيرة ٤٩٠ ـ تأميم شركة القناة ٤٩١

الفصل التاسع عشر :

حساب الأرباح والخسائر . . . ٤٩٥ -- ٥٠٣

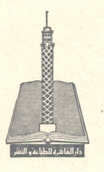
الأرباح والخسائر ٤٩٧ ـ فشل حلف شمال الأطلنطى ٥٠٠ ـ الروس والأمريكيون ٥٠١ ـ قناة السويس تنتعش من جديد ٥٠٢ ـ السلام فى الطريق ٥٠٣

الملحقات . . . . ٥٠٥ -- ٥٢٢

ملحق (١) ٥٠٦ ـ الجزء من القرار الذى ووفق عليه بتسعة أصوات ٥٠٧

ملحق (٢) ٥٠٨ ـ رسالة سكرتير عام الأمم المتحدة ٥٠٩

ملحق (٣) ٥١٣ ـ مذكرة من الحكومة المصرية ٥١٥ ـ رسالة من وزير خارجية مصر الى السكرتير العام ٥١٧ ـ بيان ٥١٨ ـ رسالة السكرتير العام لوزير خارجية مصر ٥٢٢





الثمن ٧٠ قرشاً